التفسير الثمين

للعلامة العثيمين

تفسير سورة الصافات
تفسير سورة ص
تفسير سورة الزمر

اعتنى به

أشرف بن كمال

الجزء الثاني عشر





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الصافات

تفسير سورة ص

تفسير سورة الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

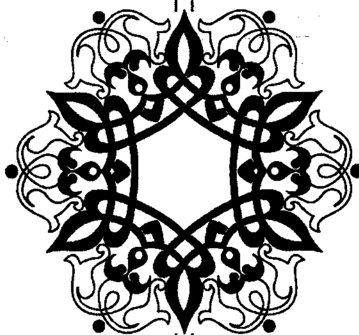


ALTABARI'S LIBERARY

سَنة الطَّبْع : ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

رَقم الإيداع : ١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨

رَقم الطَّبْعة : الأولى



مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس

١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة

تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣

tabari24@gmail.com

تفسير سورة الصافات

قال الله تعالى:

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩)﴾ [الصافات: ٩٧-٩٩]

التفسير

أي: قال بعضهم لبعض: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ الأمر هنا إن كان من الرؤساء فهو أمر حقيقي، وإن كان من غير الرؤساء أو من الرؤساء بعضهم لبعض فهو أمر مشورة والتزام، وليس أمر إلزام، وذلك؛ لأن أمر الإلزام إنما يكون من الأعلى إلى من دونه.

وقالوا: ﴿ابْنُوا لَهُ﴾ اللام هنا ليست للملك، ولكنه للتعليل أي: ابنوا لأجله بنيانًا هذا البنيان بنوه من أجل أن يملؤوه حطبًا ثم يوقدوه على إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ، فبنوا بنيانًا وأضرموا النار في الحطب، كما أشار بعضهم على بعض، ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ يقول المؤلف: [ابنوا له بنيانًا فاملؤوه حطبًا وأضرموه بالنار، فإذا التهب فألقوه في الجحيم في النار الشديدة]، قوله: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ هذه الآية فيها إيجاز حذف قدره المفسر، التقدير: [فاملؤوه حطبًا وأضرموه بالنار، فإذا التهب فألقوه في الجحيم]، وفي الإتيان بالفاء عقب قوله: ابنوا له بنيانًا، وحذف ما توسط بينهما إشارة إلى أنهم أرادوا الإسراع العظيم في هذا الأمر، كأنهم قالوا: ابنوا بنيانًا وألقوه مباشرة، وليس يلقى بالبنيان فقط ليتمتع فيه، ولكن بعد إيقاد النار فيه، وإنما أرادوا بهذا الإسراع والمبادرة كأنهم طووا ذكر ما بين البناء والإلقاء لعدم وجوده من سرعة المبادرة.

ويدل على ذلك - أيضًا - قوله: ﴿فَأَلْقُوهُ﴾ والفاء تدل على الترتيب والتعقيب، قال: ﴿فِي الْجَحِيمِ﴾ أي: النار الشديدة.

ففعلوا ذلك وألقوه في النار، ولكن خالق النار قال للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] فكانت بردًا وسلامًا عليه، لم تكن بردًا شديدة البروة حتى يهلك، ولم تكن حارة،

بل كانت على عكس ما يريد به الأعداء أرادوا بالنار أن تكون حارة مهلكة، والله ـ عز وجل ـ أراد أن تكون باردة مسلّمة، ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] فكانت بردًا وسلامًا عليه، وهنا نقف لنبين أن بعض المفسرين قالوا: إنه في تلك اللحظة صارت جميع النيران في جميع أقطار الدنيا باردة، ولكن هذا قول ضعيف جدًا، مخالف للقرآن؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿يَٰنَارُ﴾ وهذا النداء يكون موجه للمقصود بالنداء، ولهذا يسميها أهل النحو: نكرة مقصودة، فالمراد تلك النار التي خوطبت فقط، فصارت تلك النار التي خوطبت بردًا وسلامًا، وأما الزعم أن جميع النيران في جميع أقطار الدنيا صارت بردًا مخالف لظاهر القرآن، وليس له أي: فائدة.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ الكيد في الأصل: «التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يدري» والكيد والمكر والخداع بمعنى واحد، أو بمعنى متقارب، لكنها كلها تدل على أن الإنسان يوقع خصمه من حيث لا يشعر، هذا في الأصل، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥ ـ ١٦] ولكنهم أرادوا بذلك إهلاكًا لإبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ويحتمل أنهم لما بنوا هذا البناء والنار في وسطه لا تشاهد فيظن الإنسان إذا رآه أنه قصر فيقدم على أن يستسلم للإلقاء؛ لأنه لو علم ما في جوفه لكان يهرب أو يدافع، فيكون هذا معنى الكيد أي أنهم لم يشقوا الأرض كما فعل أصحاب الأخدود ويضعوا فيها الحطب ويوقدوه، ولكن بنوا بنيانًا من رآه من الخارج ظن أنه منزل سكن، ولكنه في الواقع حسب صنعهم نار تتأجج. فيمكن أن يقال: إن هذا هو المراد من قولهم: ﴿كَيْدًا﴾؛ لأن الكيد كما أسلفنا هو التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر، ولكن الله ـ تعالى ـ جعلهم ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ وذلك بعدم نيل مرادهم بخروج إبراهيم سالمًا، فكان العلو له من وجهين:

الوجه الأول: أنه سلم ما أرادوا من إهلاكه.

الوجه الثاني: أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أكرمه بأمر له يكن معهودًا عند البشر، وهو سلامته من النار التي ظنوا أنها ستحرقه، فصاروا أسفلين من هذين الوجهين أنه سلم، وأن الله ـ تعالى ـ أكرمه بأمر لم يكن معهودًا، وهذا ـ بلا شك ـ يوجب أن يكون عاليًا عليهم، بل عاليًا علوًّا بالغًا؛ لأنه قال: ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ والأسفلين هذه اسم تفضيل أي: البالغ في السفل غايته.

الفوائد:

١ ـ شدة كيد هؤلاء المكذبين لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حيث أروا الناس أنهم يبنون له بنيانًا دون أن يروه أنهم يريدون أن يحرقوه؛ لقوله: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾.

٢ ـ **من فوائدها**: أن النار التي أضرموها في هذا البنيان كانت عظيمة؛ لقوله: ﴿فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ والجحيم هي النار العظيمة.

٣- **ومن فوائدها:** عتوهم؛ لأنهم قالوا: ألقوه، والإلقاء يدل على العنف وعدم الرحمة، وهم كذلك إذ لو كانوا يريدون رحمته ما هموا بإحراقه.

٤ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن نيتهم هذه نية عدوان؛ لأنهم قالوا: ﴿ٱبْنُوا۟ لَهُۥ﴾ واللام ذكرنا أنها للتعليل، يعني ما بنوا هذا البنيان إلا بهذه النية السيئة.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾.

١ - بيان ما يكنه أعداء الإسلام للمسلمين وللإسلام من إرادة الكيد بالإسلام وأهله، وهذا كما أنه في الأمم السابقة فيكون في الأمم اللاحقة، لقول الله - تعالى - : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١].

٢ - **ومن فوائدها:** الرد على الجبرية ؛ لقوله: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾، والجبرية ينفون أن يكون للإنسان إرادة في فعله؛ لأنهم يرون أن الإنسان مجبر على الفعل، وأن فعله الواقع بإرادته كفعله الواقع بغير إرادته، والكل عندهم سواء.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء الذين كادوا كاد الله بهم، فجعلهم هم الأسفلين.

٤ - **ومن فوائدها:** أن من يتعالى على الحق فإن الله - تعالى - يجازيه بنقيض قصده؛ لأن هؤلاء أرادوا العلو والفساد في الأرض، فعاملهم الله - تعالى - بنقيض قصدهم فجعلهم الأسفلين.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الحكم لله - عَزَّ وَجَلَّ - ، وأن بني آدم مهما بلغوا من الطغيان فإنهم تحت حكم الله - تعالى - وسلطانه؛ لقوله: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾.

٦ - أن الجزاء من جنس العمل؛ لأن هؤلاء لما طغوا واعتدوا وتعالوا عاقبهم الله - تعالى - بالسفل المناقض لما أرادوا، فكانت العقوبة مناسبة للفعل.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٩].

أي: قال إبراهيم معلنًا هجرته من بلدهم إلى بلد الشام، وإنما قال ذلك؛ لأنهم بلغوا إلى حد يكون به اليأس من هدايتهم، فإن قومًا أضرموا النار ليحرقوا بها داعيهم إلى الله قوم لا يرجى فيهم خير، ولهذا قال: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾.

فإن قلت: هل أُمر بذلك أو أُذن له بذلك؟

فالجواب: نعم، أُذن له بذلك، والدليل أن الله - سبحانه وتعالى - أقره فلم ينكر عليه، لكن يونس - عليه الصلاة والسلام - لما ذهب من غير أن يُؤذن له بين الله - سبحانه وتعالى - أن ذهابه عن غير إذن، فقال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء:٨٧].

ولما ذكر هجرة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لم يذكر ما فيه انتقاد عليه، ولهذا قال: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ قال المؤلف: [مهاجر إليه من دار الكفر ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إلى حيث أمرني ربي بالمصير إليه وهو الشام، فلما وصل إلى الأرض المقدسة قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى﴾].

﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ ولم يقل: إلى الله، لأن المقام يختص بالربوبية أكثر، إذ إن الربوبية مقتضاها التدبير، وهو الآن يحتاج إلى مدبر يدبره إلى ما فيه مصلحته، فقال: ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ والإضافة هنا إضافة تعطف وتحنن، وهي من الربوبية الخاصة، يعني إلى الرب الذي أرجو منه أن يهديني ويدلني لما فيه الخير.

وقوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ السين هذه للتنفيس وتفيد أمرين: تحقق الوقوع وقربه.

والمراد بالهداية هنا هداية الدلالة، أي: سيهدين إلى ما فيه الخير والصلاح لهذه الدعوة، وربما يقال: إنها تشمل هداية الدلالة وهداية التوفيق.

الفوائد:

١ ـ الثناء على إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بإعلانه الهجرة من بلده الذي يتضمن تحدي قومه وعدم مبالاته بهم؛ لأنهم لم يمسكوه ولم يمنعوه عن الهجره، وهذا من حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن يظهر التحدي في مثل هذا ولا يقع.

٢ ـ **ومنها:** ثقة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بربه حيث قال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

٣ ـ ومنها: الإشارة إلى الإخلاص في العمل ؛ لقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ وهذا فيه إخلاص القصد لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ، وهذه هي النية الصالحة أن يكون قاصدًا بعمله الوصول إلى رضوان الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ .

٤ ـ **ومن فوائدها:** تحنن الإنسان إلى ربه بالدعاء بأن يأتي بالعبارات الدالة على التحنن والتعطف والافتقار إلى الرب ؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ فأضاف الربوبية إلى نفسه من باب التلطف والتحنن إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ .

٥ ـ ومنها: أنه ينبغي بل يجب على الإنسان أن لا يعتمد على نفسه، بل يعتمد على ربه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ؛ لقوله هنا: ﴿سَيَهْدِينِ﴾.



قال الله تعالى:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الصافات: ١٠٠ ـ ١٠٤].

التفسير

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [هب لي ولدًا من الصالحين]، أشار المؤلف بقوله: ﴿ولدًا] إلى أن المفعول الثاني لهب محذوف تقديره: ولدًا.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الصالح، هو الذي صلح ظاهره وباطنه، ولزم من صلاحه أن يكون قائمًا بحقوق الله وحقوق عبادة، وهو ضد الفاسد، وفساد كل شيء بحسبه، وصلاح كل شيء بحسبه، فصلاح الإنسان أن يكون مستعدًا لما أمر به قائمًا بأمر الله في حقوقه وحقوق عباده.

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ الفاء في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ﴾ تدل على الترتيب والتعقيب.

وربما أيضًا تدل على السببية أي: بسبب دعائه لله، أجاب الله دعوته وبشره ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾.

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ﴾ البشارة هي الإخبار بما يسر، هذا هو الأصل إذا أخبر الإنسان بما يسر قيل: بُشر، وإذا أخبر بما يخوف قيل: له: أُنذر، ولهذا يذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ دائمًا التقابل بين البشارة والإنذار ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة:١١٩] ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء:١٦٥] فالبشارة في الأصل هي الإخبار بما يسر، وقد تطلق على الإخبار بما يسوء كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق:٢٤] إما من باب التهكم بهم كما تقول مثلاً للشخص: أبشر بالعقوبة.

تتهكم به، وإما من باب الجامع بينهما، وهو أن كلاً منهما يؤثر على البشرة تأثيرًا يظهر، فالبشارة تؤثر سرورًا وفرحًا واستنارة وجه وراحة قلب والإنذار بالعكس يظلم الوجه ويصفر، ويحصل فيه الغم.

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ﴾ أي: بشرنا إبراهيم ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ [أي: ذي حلم كثير]. وأشار بذلك إلى أن ﴿حَلِيمٍ﴾ صيغة مبالغة ولكن يحتمل أن يكون صفة مشبهة، أي: بغلام صفته الدائمة المستمرة الحلم.

والحلم: هو التأني وعدم التسرع في مقابلة الأمور، بل يتلقاها الإنسان بطمأنينة واتزان وتصرف رشيد.

وضد الحليم سريع الغضب سريع الانفعال الذي لا يتأنى في الأمور ولا يتروى فيها فتجده يرد الشيء مبادرة.

أو يقبله مبادرة، فالحلم في الحقيقة هو غاية ما يكون من الرشد.

ووصف الله هذا الغلام هنا بالحلم، وفي آيتين من كتاب الله وصف الغلام الذي لإبراهيم بالعلم، وذلك؛ لأن الغلامين اثنان: أحدهما وصف بالعلم، والثاني: وصف بالحلم.

والذي وصف بالحلم سيأتينا ـ إن شاء الله ـ بيان منه، وأما الذي وصف بالعلم فهو إسحق ـ

عليه الصلاة والسلام ـ، كما تفيد الآيات التي جاء في سياقها.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ الضمير في ﴿بَلَغَ﴾ يعود على الغلام والضمير في ﴿مَعَهُ﴾ يعود على إبراهيم. والسعي إما أن يراد به الكسب وإما أن يراد به المشي، وكلاهما صحيح، ولكن الأقرب عندي أن المراد به المشي، فإن السعي يطلق على المشي كثيرًا، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:٩] وكذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٠٥] فالمراد بالسعي: يعني المشي، ولكن كلمة مع: تفيد المصاحبة، يعني صار تابعًا لأبيه يسير معه؛ لأنه ليس صغيرًا، قد مكث في مكانه، وليس كبيرًا انفرد بنفسه، فالصغير الذي في المهد لا يبلغ السعي مع أبيه، والكبير الذي انفرد يبلغ السعي لا مع أبيه؛ لأنه منفرد، أما هذا فقد بلغ مع أبيه السعي، وكان ملازمًا له، وهذا أشد ما يكون الأب تعلقًا بابنه إذا كان في مثل هذا السن؛ لأن الصغير الذي في المهد لا تتعلق به النفس تمامًا، والكبير الذي انفرد كذلك لا تتعلق به النفس تمامًا، وإنما تتعلق بمن كان في مثل هذا السن، وهذه من حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن ابتلي إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه بهذا البلاء المبين.

قال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي أن يسعى معه ويعينه، قيل: بلغ سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة] ويحتمل أن يكون ما بين السبع إلى ثلاث عشرة سنة؛ لأنه إذا زاد على ذلك فقد يستقل بنفسه، وما دون السبع يحتاج إلى من يعوله، ولا تتعلق به النفس كثيرًا لاسيما نفس الأب، أما الأم فقد يكون تعلق نفسها بالصغير أكثر من تعلقها بالكبير، ولكن الأب تتعلق نفسه بمن في مثل هذا السن.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ امتحن الله إبراهيم بمحنة عظيمة لا يصبر عليها إلا من كان في مثل حاله، واعلم أن هذا الولد هو بكر إبراهيم، يعني أنه أول مولود وُلد له.

وولد له كما قيل: على كبر السن، يعني أنه كان كبيرًا، ولد له هذا المولود البكر الذي ليس له ولد سواه فامتحنه الله، فأراه الله ـ سبحانه وتعالى ـ في المنام أنه يذبح هذا الولد، وهذا خبر بمعنى الأمر؛ لأن الذبح هنا مجرد فعل، رأى في المنام أنه يذبح ولده، فهو كما لو أُخْبِرَ بأنه يذبح ولده.

والإراءة إخبار بالفعل، ولهذا قيل: الخبر ما ترى لا ما تسمع.

فالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أراه أنه يذبحه، وهذا خبر بمعنى الأمر، كما سيأتي ـ إن شاء الله ـ في قوله: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أراه الله ذلك فلم ينزعج إبراهيم ولم يتأثر واطمأن إلى هذا، ثم عرض الأمر على هذا الابن لا للاستشارة ولكن للاختبار، وإذ لا يمكن أن يستشير إبراهيم ابنه فيما أمره الله به.

وإنما عرض عليه الأمر ليختبره بهذا وينظر مدى قوة تحمله لهذا الأمر العظيم.

فلما بلغ معه السعي وأُري ما رأى، ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ﴾ أي: رأيت في المنام ﴿أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ انظر هذا التلطف

﴿يَبُنَيَّ﴾، ليبعد عن ابنه أنه ذكر ذلك عن جفاء؛ لأن الإنسان إذا كان يبغض ابنه فإنه لا يهمه أن يعذبه أو أن يذبحه ولا يتأثر بذلك، لكنه قال: ﴿يَبُنَيَّ﴾ من باب التلطف، قال: ﴿يَبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ قال المفسر: [أي: رأيت] ولكنه عبر بالمضارع عن الماضي ليدل على استمرار حكم هذه الرؤية.

وأنه مستمر على تنفيذ حكم هذه الرؤية، أو أنه نَزَّل الماضي منزلة الحال، كأنه الآن يرى أنه يذبحه، ـ وعلى كل حال ـ فإن أرى هنا أبلغ من رأيت؛ لأن (رأيت) شيء مضى، أما (أرى) فهو شيء حاضر يدل على الاستمرار، وأنه سينفذ حكم ما رأى.

قال المؤلف: [ورؤيا الأنبياء حق، وأفعالهم بأمر الله ـ تعالى ـ].

هاتان كلمتان تعبران عن سؤال مقدر، أولاً: قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ قد يقول قائل: رؤيا المنام أضغاث أحلام، فأجاب عن ذلك بقوله: رؤيا الأنبياء حق، أنا لو رأيت في منامي أني أعتقت عبدي أو أوقفت دوري فلا يكون ذلك نافذًا؟ ولا أومر بذلك من أجل هذه الرؤيا، لكن رؤيا الأنبياء حق يعني أنها وحي.

والثاني: [وأفعالهم بأمر الله] وهو أيضًا جواب عن سؤال مقدر، وإذا كانت هذه الرؤيا حقًّا فهل يثبت بها حكم شرعي؟

فأجاب المؤلف بما يقتضي لأن أفعال الأنبياء بأمر الله لا سيما مثل هذا الفعل العظيم.

هذا الفعل العظيم هو من أكبر الكبائر؛ لأنه قتل نفس بغير حق، وليست نفسًا بعيدة، بل قتل نفس قريبة، فهو جامع بين قتل النفس وبين قطيعة الرحم؛ لأن من قتل أجنبيًّا ليس كمن قتل قريبًا، لكن هذا القتل، هذا الذنب العظيم إذا كان بأمر الرب الذي له ملكوت السموات والأرض صار طاعة

كما أن السجود لغير الله شرك، ولما كان بأمر الله ـ تعالى ـ كان تركه كفرًا، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤].

والمهم أن المؤلف أجاب عن هذه الرؤيا بأنها فعل من نبي، وأفعال الأنبياء تقع بأمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأنهم معصومون.

قال: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ من الرأي، يعني فكر في أمرك وانظر ماذا ترى؟ فكان جوابه جوابًا عجيبًا عظيمًا، ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ وهذا شبيه بما وقع من عائشة ـ رضي الله عنها ـ حين خيّرها النبي ﷺ بين أن تبقى معه وأن تفارقه للدنيا، وقال لها: «استأمري أبويك»، يعني استشيريهم فقالت ـ رضي الله عنها ـ : أَفِي هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ، إِنِّي أَخْتَارُ اللهَ وَرَسُولَه وَالدَّارَ

الآخِرَة(۱).

﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾، وهذا من باب الاختبار في حال هذا الابن وتهيئته لتنفيذ ما أمر الله به أباه.

قال المؤلف: [من الرأي، شاوره ليأنس بالذبح وينقاد للأمر به].

أي: لو أنه حين قام من النوم جَرَّ ابنه وذبحه بدون أن يخبره لفات في ذلك فائدتان عظيمتان:

الفائدة الأولى: عدم ظهور تقبل هذا الابن لأمر الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

الفائدة الثانية: أنه إذا أتاه بغتة صار أشد وقعًا في نفسه وأشد ألمًا مما لو اخبر به؛ لأن الإنسان إذا أخبر بالشيء قبل أن يقع واستعدت نفسه له وتهيأت، صار الوارد العظيم يرد على النفس وهي متهيأة فيسهل عليها، بخلاف ما إذا ورد على غرة فإنه يكون أشد وقعًا، وأشد ألمًا، ولهذا قال المؤلف - رحمه الله -: [ليأنس بالذبح وينقاد للأمر به].

قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ التاء عوضًا عن ياء الإضافة، وأصلها يا أبي، ولكن العرب قد يبدلون الياء تاءً فيقولون: يا أبت، وعلى هذا فالتاء بدلاً عن الياء فهي ياء المتكلم.

﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ سبحان الله! لم يقل: يا أبت لا مانع عندي، بل قال: «افعل» فحثه على أن يفعل ولم يقل: افعل ما رأيت، بل قال: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ حثًّا لإبراهيم على أن يفعل؛ لأنه إذا ذكره أن هذا أمر الله فإنه يزيده قوة في تنفيذ هذا الأمر؛ لأن إسماعيل - عليه الصلاة والسلام - خاف أن تدرك إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - رحمة الولد فيراجع الله - عَزَّ وَجَلَّ - في ذلك، فأشار عليه أن يبادر بفعل ما أُمر به ﴿ٱفۡعَلۡ﴾، ولم يقل: ما رأيت، ليكون هذا أشد حثًّا لإبراهيم على الإقدام، ولهذا ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾، السين كما قلنا: فيما سبق قريبًا للتنفيس، وتفيد شيئين: التوكيد، وقرب الوقوع.

والتأكيد يعني تحقق هذا الشيء، ولكنه لما كان أمرًا مستقبلاً والإنسان لا يثق أن يقوم بالأمر المستقبل، قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

وأتى بالاستثناء قبل ذكر المفعول الثاني للمبادرة به ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ولم يقل: ستجدني من الصابرين إن شاء الله فبدأ بالاستثناء الدال على الاستدراك يعني إن لم يشأ الله تجدني كذلك، ولكن ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ جملة معترضة بين مفعولي تجد؛ لأن المفعول الأول الياء، والثاني من الصابرين.

---

(۱) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٨٦)، ومسلم (١٤٧٥).

أي: من الصابرين على بلاء الله، وعلى هذا الأمر العظيم؛ لأن هذا من البلاء العظيم أن يصبر الإنسان على أن يقتل امتثالاً لأمر الله - سبحانه وتعالى - وهنا لم يقل: ستجدني إن شاء الله صابرًا، بل قال: ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ إشارة إلى أنه - عليه الصلاة والسلام - سيكون له تأسٍ بمن سبق حتى يكون من جملة المتصفين بهذا الوصف وهو الصبر، قال الله - تعالى -: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ يعني: استسلما لأمر الله وانقادا لأمره، عن رضيً ورغبة من الأب الذي عزم على أن ينفذ أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ -، والابن الذي تقبل هذا الأمر بانشراح صدر، وحث لأبيه على أن يفعل ما أمره الله به - تعالى -، وهذا غاية ما يكون من الاستسلام، وهذا استسلام القلب ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ هذا استسلام الجوارح يعني أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - تل ابنه للجبين، يعني صرعه على الأرض على جبينه ليذبحه، وإنما صرعه على جبينه من أجل أن لا يرى وجهه حين يذبحه، ولئلا يرى الابن السكين فيفزع، ومعلوم أن رؤية المذبوح السكين تريعه، ويروى عن النبي ﷺ أنه رأى رجلاً يحد الشفرة ليذبح شاة فقال: «أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَيْتَتَانِ»[1] وإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - تل ابنه للجبين بسرعة وقوة في تنفيذ أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

قال المؤلف - رحمه الله -: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [صرعه عليه، ولكل إنسان جبينان بينهما الجبهة، وكان ذلك بمنى، وأمر السكين على حلقه فلم تعمل شيئًا بمانع من القدرة الإلهية] ونحن نقول: وقلنا: سابقًا: إن قصص الأنبياء السابقين إنما تؤخذ من الكتاب والسنة الصحيحة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩] ونحن في قصة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لا ينبغي لنا أن نتجاوز القرآن ولا أن نقدر شيئًا لا يقتضيه السياق فهنا نقول: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ صرعه على جبينه، والجبين هو طرف الجبهة يعني القرنين، وتقدم ذكر الحكمة في تله هكذا، وأما قول المؤلف: [وذلك بمنى]، فهذا يحتاج إلى دليل، وهو لا شك أنه بمكة؛ لأن إسماعيل نشأ بمكة من صغره، ولكن كونه في منى هذا يحتاج إلى دليل من الكتاب أو السنة، وإلا وجب التوقف فيه، وقوله: [وأمر السكين على حلقه فلم تعمل شيئًا بمانع من القدرة الإلهية] هذا أيضًا يحتاج إلى دليل، وليس في القرآن الكريم أنه أمرَّ السكين على حلقه، فالواجب علينا أن نتوقف في هذا، لا نصدق ولا نكذب؛ لأن القرآن لم يصدق ذلك ولم يكذبه، لكن عندي - والله أعلم - أن هذا لو وقع لكان من الحكمة أن يذكر؛ لأن فيه دلالة على آية من آيات الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وهي عدم تأثير السكين في حلقه، ولو وقع مثل هذا

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٣١)، والبيهقي (٩/ ٢٨٠)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٤).

لذكره الله - عَزَّ وَجَلَّ - لما فيه من الدلالة على آية عظيمة من آيات الله، والذي نجزم به أنه تله للجبين ليذبحه فقط، وكفى بذلك فخرًا أنه لم يبق إلا أن يمر السكين على حلقه فماذا كان.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ لما شرطية تحتاج إلى شرط وجوابه، فشرطها قوله: ﴿أَسۡلَمَا﴾ ﴿وَتَلَّهُۥ﴾ معطوف عليه ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ لا يستقيم أن نجعله معطوفًا على ﴿أَسۡلَمَا﴾ ولكن اختلف العلماء في الواو هنا فقيل: إنها زائدة وتقدير الكلام: فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا.

وقال آخرون: ليست بزائدة؛ لأن زيادة الحروف المعنوية التي تقتضي المغايرة لا يمكن أن يقع في القرآن الكريم، بل هي معطوفة على شيء مقدر والتقدير: فلما أسلما وتله للجبين، تحقق تنفيذ أمر الله، أو ما أشبه ذلك من الكلام المناسب، ثم عطف على الجواب المحذوف قوله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]

١ - أن كل أحد وإن علا قدره من البشر مفتقر إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ومفتقر إلى من يعينه؛ لقوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

والمؤلف - رحمه الله -: قدر أن في الآية محذوفًا تقديره ولدًا، وكأنه خص هذا الطلب بالولد؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ على أن الآية تحتمل أن المحذوف ليس كلمة ولد، وأنه حذف المعمول لإفادة العموم أي: هب لي من الصالحين من يكون عونًا لي من الأولاد وغيرهم؛ لأن القوم الذين كان فيهم غير صالحين، فسأل الله أن يهب له من الصالحين من يعينه ويساعده، فكانت الإجابة من الله أن بشره بمن يعينه من صلبه في قوله: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ فيكون هذا الوجه الذي ذكرنا أعم من الوجه الذي قاله المؤلف - رحمه الله -.

٢ - **ومن فوائد الآية:** الحث على الاستعانة بالصالحين؛ لقوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وأنه ينبغي للإنسان أن يكون قرناؤه من الصالحين؛ لأن القرين الصالح يعينك على الخير، ويحذرك من الشر، وكما مثَّل الرسول - عليه الصلاة والسلام - الجليس الصالح بحامل المسك، إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ، وَإِمَّا أَنْ يُبِيعُكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْه رَائِحَةً طَيِّبَةً[1].

من فوائد الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨).

١ ـ إجابة الله ـ سبحانه وتعالى ـ للدعاء ؛ لقوله: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ ﴾ والفاء تفيد التعقيب والترتيب والسببية، أي: فبسبب دعائه ببشارته.

ويلزم من هذه الفائدة وهي إجابة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لمن دعاه صدق وعده ـ تعالى ـ ؛ لقوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠] وقدرته على تحقيق ما وعد به؛ لأنه لو كان عاجزًا لم يعطِ ما دُعي به، ولكنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على كل شيء قدير.

٢ ـ ومن فوائد هذه الآية: الثناء على إسماعيل ـ عليه السلام ـ لوصفه بالحلم.

٣ ـ **ومن فوائدها:** تبشير المرء بما ولد له من ولد، ولاسيما إذا كان ذكرًا؛ لأن الله عبر عن إخباره إبراهيم بأنه سيولد له بالبشارة فأخذ العلماء من هذا أنه تشرع بشارة من ولد له ولد ولاسيما إذا كان ذكرًا.

وهل يستفاد من الآية الكريمة إثبات كلام الله؟ لو كانت البشارة من الله لكان يستفاد من ذلك إثبات الكلام، لكن قد يكون بشرناه على لسان الملائكة يعني الملائكة هي التي بشرته فالله أعلم.

ومن فوائد الآية في قوله: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

١ ـ أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قد يبتلي العبد المؤمن ببلوى عظيمة شديدة على النفوس، وذلك بما أرى الله نبيه إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ذبح ولده، ونحن نعلم أن الله لو قدر على ولدك أن يموت لكان هذا مصيبة عظيمة، لكن إذا أمرك الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن تذبحه أنت بنفسك صار هذا أعظم وأشد، وصار الصبر على هذا الأمر أشد وأفضل من الصبر على موته بقدر من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن هذا الوقت الذي أمر إبراهيم فيه بذبح ابنه فيه كان وقتًا يكون فيه تنفيذ الأمر شديدًا؛ لأنه بلغ معه السعي، فتنفيذ الأمر في هذا الحال يدل على كمال عبودية المأمور حيث نفذها في أشد ما يكون تعلقًا بابنه.

٣ ـ **ومن فوائدها:** أنه ينبغي لمن أراد أن ينفذ شيئًا مكروهًا لشخص أن يأتي بأسلوب يدل على أنه لا يريد الإضرار به، وإنما هو أمر لابد منه ؛ لقوله: ﴿ يَٰبُنَىَّ ﴾ فإن إتيانه على صيغة التلطف من أجل أن يبعد عنه تهمة أنه لا يحبه.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أنه يجوز امتحان الشخص بما لا يؤخذ رأي ه فيه، ولكن للاستعلام ؛ لقوله: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ ﴾ فإن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا

يريد أن ينظر إلى ابنه إن قال: لا تذبحني، ترك الذبح، بل يريد أن يعرف مدى قبوله واستعداده، فيكون في هذا تورية، والتورية لا شك أنها جائزة للاستعلام والاستخبار، ولاسيما عند الحكم في القضاء، وفي قصة سليمان - عليه الصلاة والسلام - في المرأتين اللتين تخاصمتا في ولد بينهما، حيث تخاصمتا عند داود - عليه الصلاة والسلام - ، فحكم به للكبرى، ثم تخاصمتا عند سليمان - عليه الصلاة والسلام - فدعا بالسكين ليشقه نصفين بينهما، وسليمان لن يفعل أبدًا، ولكن هذا من باب التورية واستطلاع الحقيقة، فلما دعا بالسكين وأراهما أنه يريد أن يشقه نصفين، قالت الصغرى: هو ولدها يا نبي الله، فعرف أنه لها؛ لأنها أدركها حب الولد فتنازلت عن حقها منه ودعواها، والكبيرة رضيت؛ لأنه لا يهمها أن يقتل ابن هذه المرأة، كما أكل الذئب ولدها(١).

إذن نأخذ من هذا أنه يجوز للإنسان أن يورّي للشيء لاستطلاع الأمر واستظهاره؛ لأن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لما قال لابنه: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ فإن ظاهر ذلك أنه يريد أن يستشيره ويأخذ رأي ه إن وافق وإلا لم ينفذ، وليس الأمر كذلك، بل أراد أن يختبره لينظر مدى قبوله لهذا الأمر واستعداده لتنفيذه.

٥ - **ومن فوائدها:** أن رؤيا الأنبياء حق، وذلك أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - اعتمدها ولو لم تكن حقًا لم يعتمدها، ولكن لو رأى أحدنا مثل هذه الرؤيا أنه يذبح ابنه فهل هذا حق؟

الجواب: لا، ليس بحق قطعًا؛ لأننا لا نؤمر أبدًا عن طريق المنام ولا عن طريق اليقظة بذبح أبنائنا، لكن إما أن تكون رؤيا ويكون فيها إشارة إلى شيء مشابه، وإما أن تكون من الشيطان ليحزنك، أما أن تكون أمرًا يجب تنفيذه فهذا لا يمكن.

٦ - **ومن فوائدها:** حسن أدب إسماعيل، - عليه الصلاة والسلام - ، حيث قال في جواب أبيه: ﴿يَا أَبَتِ﴾ ولم يقل: يا هذا، أو يسكت، بل قال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** أن الخبر قد يكون بمعنى الأمر؛ لأن هذه الرؤيا كما مر علينا بمنزلة الخبر، حيث لم يقل له في الرؤيا: اذبح ولدك، بل رأى نفسه يذبح الولد، ولكن الخبر قد يكون بمعنى الأمر، وهل يحتاج إلى قرينة في هذا أم لا؟

الجواب: نعم، يحتاج إلى قرينة؛ لأن الأصل في الخبر أنه لا يدل على الطلب، ولكن إذا وجد قرينة تقتضي ذلك كان أمرًا.

٨ - جواز حث المفضول للفاضل على فعل الأوامر؛ لقوله: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ ويتفرع على هذه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٠).

الفائدة أنه لا ينبغي للإنسان أن يحقر نفسه في الأمر بالخير، فيقول: هذا أجل مني، هذا أعلم مني، هذا أكبر مني، فلن آمره بشيء، بل نقول: مر بالخير سواء كنت أصغر سنًّا أو شأنًا من المأمور، أو مثله، أو أكبر منه.

٩ - أنه ينبغي للإنسان أن يعلق كل أمر مستقبل على مشيئة الله - عَزَّ وَجَلَّ - ؛ لقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فإن هذا أمر مستقبل، وينبغي أن يعلق الإنسان كل أمر مستقبل بمشيئة الله - سبحانه وتعالى -.

فإن قال قائل: كيف نفهم هذا الحكم من قول إسماعيل - عليه الصلاة والسلام - ؟.

فالجواب: أن الله - سبحانه وتعالى - قصه علينا لنعتبر به، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١] ويؤيد هذا أيضًا شرعنا، فإن الله قال لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ - ٢٤].

١٠ - **ومن فوائدها:** أن الصبر يكون على امتثال الأوامر وعلى المصائب، فإن قوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: الصابرين على تنفيذ هذا الأمر، وعلى ما يقتضيه من الآلام؛ لأنه ذبح.

والصبر ثلاثة أقسام دلت الآية على قسمين منها، والثالث: الصبر عن معصية الله.

١١ - ومن فوائد هذه الآيات في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ فضيلة إبراهيم وإسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - حيث استسلما لأمر الله في هذا الأمر العظيم، الذي لا يُقدم عليه إلا أمثالهما، ولا شك أن هذا من مناقبهما.

١٢ - **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للإنسان أن يحول بين نفسه وبين كل شيء قد يعيقه عن تنفيذ أمر الله؛ لقوله: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ فإن هذا يهون عليهما الأمر فيهون عليهما التنفيذ.

وربما يتفرع على هذه الفائدة العمل بسد الذرائع ومنعها، أي: الذرائع التي تحول بين المرء وبين تنفيذ أمر الله، أو توجب أن يقع فيما نهى الله عنه.



قال الله تعالى:

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥].

التفسير

قوله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ ضمير الفاعل يعود على الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

والنداء يكون بالصوت العالي للمنادى، بخلاف المناجاة، فتكون بالصوت المنخفض، ولا شك أن الصوت العالي يقال لمن كان بعيدًا، والصوت المنخفض يقال لمن كان قريبًا.

وقوله: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ أن هذه تفسيرية؛ لأن التفسيرية هي التي تأتي بعد فعل، أو بعد عامل يتضمن معنى القول دون حروفه، فهي بمعنى: أي: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ صدقتها أي: فعلت ما يقتضي تصديق هذه الرؤيا، وقد رأى أنه يذبح ابنه وعزم على ذلك، وقام ببعض العمل الذي يكون بين يدي الذبح، فجعل الله - سبحانه وتعالى - ذلك تصديقًا.

والرؤيا: ما يراه الإنسان في منامه.

وما يراه الإنسان في منامه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: رؤيا.

القسم الثاني: حلم.

القسم الثالث: يكون عن حديث النفس، لقول النبي ﷺ: «الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ: فَالرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ بُشْرَى مِن اللهِ، وَرُؤْيَا تَخْوِيفٍ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَرُؤْيَا مَا يُحَدِّثُ المَرْءُ نَفْسَه»(١).

أما الأولَ فإنه من الله، وقد أخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة(٢).

وأما الثاني فهو من الشيطان، وغالبًا ما يكون هذا فيما يمتنع شرعًا، أو حسًّا، أو عقلاً، أي أن الشيطان يصور للشخص شيئًا ممتنعًا في الشرع، أو ممتنعًا في العقل، أو ممتنعًا بالحس.

أو من أجل إحزان الرائي وإخلال عقله، وقد حدَّث رجل النبي ﷺ أنه رأى في منامه أنه قد ذبح وأن رأسه تدحرج وأنه يشتد وراء رأسه، فقال النبي ﷺ: «لَا تُحَدِّثْ النَّاسَ بِمَا يَتَلَاعَبُ بِكَ الشَّيْطَانُ فِي مَنَامِكَ»(٣)؛ لأن هذا الشيء غير معقول، إنسان قطع رأسه وهرب الرأس وذهب يشتد وراءه ليأخذه ويضعه على رقبته، هذا شيء ينافي العقل.

وأحيانًا يضرب لك الشيطان مثلاً بما يمتنع شرعًا كما يذكر عن عبد القادر الجيلاني - رحمه الله - أنه رأى نورًا عظيمًا وسمع من هذا النور قولاً يقول: إني أنا ربك.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٦٣)، والترمذي (٢٢٧٠)، وأبو داود (٥٠١٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٩٨٨)،ومسلم (٢٢٦٣).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٦٨)، وابن ماجه (٣٩١٢).

وحدثه، فقال: إنه قد وضع عنه الصلاة فقال له: كذبت ولكنك الشيطان وعرف أنه كاذب؛ لأنه حدثه بما يمتنع شرعًا، فإن وضع الصلاة لا يمكن أن يكون أبدًا وهي أهم أركان الإسلام، والوحي قد انقطع، فإذا رأى إنسان في منامه ما يمتنع شرعًا فإنه من الشيطان.

الثالث ما يريه الشيطان للإنسان في منامه، لأجل أن يحزن، وهذا كثير جدًّا، ودواء هذا ما أخبرنا به رسول الله ﷺ أن الإنسان إذا رأى في منامه ما يكره، فليقم وليتفل عن يساره ثلاثًا، وليقل: أعوذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت، ثم ينقلب إلى الجنب الآخر، ولا يحدث الناس بما رأى، وبعد ذلك لا يضره هذا الحلم[1].

القسم الثالث: ما يحدث به الإنسان نفسه في اليقظة، فإنه لشدة تعلق نفسه به قد يراه في منامه وهذا كثير.

﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [بما أتيت به مما أمكنك من أمر الذبح، أي: يكفيك ذلك]، فجملة (ناديناه) جواب (لما) بزيادة الواو] هذا سبق البحث فيه، وبينا أن الصحيح فيه أن الواو ليست زائدة، ولكنها عاطفة على مقدر مناسب للمقام؛ لأن الواو من حروف المعاني وتفيد فائدة لا نستفيدها إذا قلنا: بزيادتها، وما كان كذلك فإنه لا يمكن أن يكون زائدًا.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل جزائنا إياك ﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وذلك بإزالة الشدة عنهم إذا فعلوا ما أمروا به، وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

فهاتان آيتان تدلان أن الإنسان كلما اتقى الله زالت عنه الهموم وفرجت عنه.

وقوله: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يشمل الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله. وقد تقدم ذلك.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١١ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٢ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١٠٦ ـ ١١٣].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٤٧)، ومسلم (٢٢٦١).

التَّفْسِيرُ

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات أولهاك إن، والثاني: اللام، والثالث: ضمير الفصل.

ولا شك أن الأمر كما قال ربنا ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: إنه (بلاء مبين)، اختبار عظيم ظاهر أن أمر بذبح ابنه الذي فيه هلاكه وموته على يديه، والواحد منا قد لا يطيق الصبر على موت ابنه الذي جرى بفعل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فكيف يصبر على أن يذبح ابنه بيده؟! ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ وفسر المؤلف المبين هنا بالبين، ولكن يحتمل أن يكون المراد به المبين: المظهر يعني الذي أظهر حقيقة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأنه يقدم محبة الله على ما يحب، قال أهل العلم: ولهذا جعله الله ـ تعالى ـ خليلاً له، والخلة هي أعلى أنواع المحبة، حيث قدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما يحبه الله على ما تحبه نفسه.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي: المأمور بذبحه وهو إسماعيل أو إسحاق قولان (بذبح) بكبش عظيم من الجنة، وهو الذي قربه هابيل جاء به جبريل ـ عليه السلام ـ فذبحه السيد إبراهيم مكبرًا].

تسمية إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالسيد فيه نظر، ولا شك أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ سيد من سادات الخلق، لكن كونه يعبر عنه بهذا الوصف عند ذكره وندع وصفه بالرسالة أو بالعبودية وما أشبه ذلك فيه نظر.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾، أي: فدينا الذبيح، والذبيح الذي أمر بذبحه، أي: جعل الله له فداء، فنقل الأمر من ذبح هذا الولد إلى ذبح الكبش؛ لأن الشيء الذي يقع فداء للشيء يكون بدلاً عنه ونائبًا منابه.

فانتقل الأمر من ذبح هذا المولود إلى ذبح الكبش فصار فداءً له، وقول المؤلف: [بكبش عظيم] الكبش: هو الكبير من الضأن، أي: الكبير الجسم، وزيد في ذلك قوله: (عظيم) يعني أنه من عظيم الكباش، ويقول المؤلف: [إنه الذي قرَّبه هابيل]، وهابيل هو أخو قابيل وكان هابيل قد قرب قربانًا فتُقُبِّل منه، وقرب قابيل قربانًا فلم يتقبل منه، فحسده قابيل وقال له: لأقتلنك، فقال له هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] يعني فلو اتقيت الله لقبل منك، والقصة معروفة في ابني آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولكن ما قاله المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ دعوى تحتاج إلى دليل، وليس هناك دليل من الكتاب والسنة، بل إن الدليل على خلافه؛ لأن القربان الذي تقرب به هابيل لا يتعين أن يكون كبشًا، ثم على فرض أنه كبش فإنه قد ذُبح وأُكل ولن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم.

لكن هذا مما يأخذه بعض المفسرين - رحمهم الله - عن الإسرائيليات، ولا يجوز أن يؤخذ عن الإسرائيليات مثل هذا الكلام؛ لأن هذا كلام يقطع بكذبه، وأخبار بني إسرائيل إذا كان يقطع بكذبها لا يجوز نقلها، إلا على سبيل التكذيب لها.

وقول المؤلف - رحمه الله - : [إن الكبش من الجنة] ليس هناك دليل على أنه من الجنة.

ولا على أن في الجنة كباشًا، فالصواب أنه ذَبْحٌ من بهيمة الأنعام الموجودة في وقته أمر إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أن يذبحه، وظاهر الآية الكريمة أنه ذبحه فداءً عن إسماعيل، ويجوز أيضًا أن يكون مع الفداء شكرًا لله - سبحانه وتعالى - على نعمته بزوال هذا البلاء المبين.

وأما قول المؤلف رحمه الله: [وهو إسماعيل أو إسحاق قولان] فالأمر كما ذكر اختلف العلماء - رحمهم الله - من هو الذي أُمر بذبحه هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ والصحيح أنه إسماعيل بل إنه هو المتعين لعدة أوجه:

١ - منها ما سيأتي في كلام المؤلف في قوله: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ حيث قال المؤلف: [استدل بذلك على أن الذبيح غيره].

٢ - ومنها أن الله - تعالى - قال في إسحاق: [وبشروه بغلام عليم] [الذاريات:٢٨] وفي الذبيح قال: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات:١٠١] وهذا غير هذا؛ لأن الذي وصف بالحلم هو الذي صبر على الذبح، وتنفيذ أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ - .

٣ - ومنها أن الله وصف إسماعيل بأنه صادق الوعد ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ [مريم:٥٤] وهذا الوصف إنما يقال في أمر عظيم صدق به الإنسان، والوعد الذي وعد هو قوله لأبيه: ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وقد وفَّى بذلك.

٤ - ومنها أن الله - تعالى - وصف إسماعيل بأنه من الصابرين، ولم يصف بذلك إسحاق، فقال تعالى: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٥] ولم يذكر إسحاق ولم يصفه بالصبر، ومعلوم أن الصبر الذي صبره إسماعيل هو الصبر الذي يستحق أن يثنى به عليه؛ لأنه صبر عظيم.

٥ - ومنها أن الله - سبحانه وتعالى - بشر بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فقال: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود:٧١] ولو كان إسحاق الذي أمر بذبحه لكان هناك تناقض؛ لأنه كيف يؤمر بذبحه وقد بشر بابن له أي: لإسحاق؛ لأن يعقوب بن إسحاق، فإذا كان قد بشر بأن له ولدًا اسمه يعقوب، فلا يليق أن يؤمر بذبحه.

وقد يقول قائل: إنه بشر بيعقوب باعتبار المآل؛ لأنه إذا نسخ وجوب الذبح بقي هذا الولد ورزق ولدًا.

فيقال: نعم هذا يمكن أن يرد به لكن تفوت البشارة عندما يؤمر بالذبح، ومعلوم أن الإنسان

المبشر بالشيء لا يمكن أن يزعج بضده، فإذا أزعج بضده انقلبت البشارة سوءًا.

٦ ـ قوله تعالى هنا: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ ﴾ بعد أن ذكر قصة الذبح كاملة، ولا يمكن أن يكون في القرآن تكرار.

٧ ـ أن الله ـ تعالى ـ ذكر البشارة بإسحاق للأم ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ ﴾ ولم يذكر ذلك في إسماعيل.

٨ ـ أن الله ـ تعالى ـ قال في إسحاق: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وإذا كان قد بُشر بأنه نبي، فإنه لا يليق ولا يسوغ أن يؤمر بذبحه بعد أن بشر بنبوته.

٩ ـ أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أَنَا ابنُ الذَّبِيحَيْنِ»[1] يعني إسماعيل وأباه عبد الله بن عبد المطلب.

فإن صح هذا الحديث فهو أيضًا دليل واضح على أن الذبيح إسماعيل؛ لأن النبي ﷺ كان من ذرية إسماعيل ولم يكن من ذرية إسحاق.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ تركنا: قال المؤلف: [أبقينا عليه في الآخرين ثناء حسنًا ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ منا ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾].

أفاد المؤلف ـ رحمه الله ـ أن الترك هنا بمعنى الإبقاء، وأن مفعوله محذوف تقديره ثناءً حسنًا، وهذا أحد القولين في المسألة.

والقول الثاني: إن المفعول لتركنا هو قوله: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ يعني: أن الله ترك عليه في الآخرين السلام، أي أن يسلم من الثناء القبيح، ورجح هذا ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه: «جلاء الأفهام» وقال: إن مفعول تركنا هو الجملة في قوله: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ولهذا يثنى عليه إلى يوم القيامة، ويقال: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد». كما يقرأ في القرآن الكريم صفاته التي يثنى بها عليه.

وقوله: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ السلام يعني السلامة من النقائص والعيوب التي تعتري البشر، ومن الثناء القبيح الواقع عليه من غيرهم، ولهذا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان الناس كلهم يفخرون بالانتساب إليه حتى اليهود قالوا: نحن على ملة إبراهيم، والنصارى قالوا: نحن على ملة إبراهيم، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٦٧].

ثم قال : ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الجملة هذه استئنافية يقصد بها الثناء على إبراهيم بغاية ما يثنى به وهو الإيمان والعبودية.

---

(١) ضعيف: لا أصل له بهذا اللفظ ، وانظر الكلام عليه في «الضعيفة» (٣٣١).

فالعبودية في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا﴾، والعبودية هنا العبودية الخاصة بل خاصة الخاصة؛ لأن العبودية تنقسم إلى قسمين: عامة مثل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٤].

وخاصة: مثل: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣].

ومنها ما هو أخص وهي عبودية الرسالة في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

وكلما كان أخص فهو أكمل، والأخص ينافي الأعم؛ لأن العبودية الخاصة في ضمن العبودية العامة، فكل من كان عبدًا لله بالمعنى الخاص فهو عبد له بالمعنى العام، ولا العكس يعني ليس كل من كان عبدًا لله في المعنى العام يكون عبدًا لله في المعنى الخاص.

وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ بشرنا إبراهيم بإسحاق يعني أعلمناه به على وجه يسر به بعد البشارة الأولى بإسماعيل، ولهذا كان إسماعيل أكبر من إسحاق ـ عليهما الصلاة والسلام ـ.

وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [نبيًا: حال مقدرة أي: يوجد مقدرًا نبوته]. أي: بولادته ووجوده نبيًّا حال من إسحاق، وأفادنا المؤلف بأنها حال مقدرة، لكن لما كانت أمرًا واقعًا لا محالة وصف بها حال البشارة وإلا فإنه حال البشارة ليس بنبي إذ إنه صغير، ولكن سيكون نبيًّا، ولما كا هذا الأمر محققًا جعل كأنه حال واقعة وأمر واقع.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: القائمين بحق الله ـ تعالى ـ وحق عباده.

وقوله: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على إبراهيم قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [بتكثير ذريته ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ ولده بجعلنا أكثر الأنبياء من نسله].

أي: بارك الله على إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث جعل في ذريته النبوة والكتاب، فكل الأنبياء بعد إبراهيم من نسله وعلى إسحاق ـ عليه الصلاة والسلام ـ أيضًا؛ لأن أنبياء بني إسرائيل كلهم من نسل إسحاق، وليس من ولد إسماعيل نبي إلا محمد ﷺ.

قال: [﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ مؤمن ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ كافر ﴿مُبِينٌ﴾، بين الكفر].

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ أي: ذرية إبراهيم وإسحاق.

﴿مُحْسِنٌ﴾ أي: قائم بحق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وحق عباده، ومنهم ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بارتكاب المعاصي والعدوان على الحق وعلى الخلق.

﴿مُبِينٌ﴾ أي: بيّن الظلم كما قال المؤلف. وعلى هذا فهي من أبان اللازم، ويجوز أن تكون من أبان المتعدي، ويكون المعنى: مظهر لظلمه، والواقع أن ذرية إسماعيل وإسحاق يتصفون بهذا الوصف: ظالم ومحسن. ولهذا لما قال إبراهيم حين قال له الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤] فكان في قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤] إشارة أنه سيكون من ذرية إبراهيم من هو ظالم لا يستحق أن يكون

إمامًا في دين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

الفوائد:

١ ـ إثبات الكلام لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله: ﴿وَنَدَيْنَهُ﴾ أي: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، وأنه بصوت؛ لقوله ﴿وَنَدَيْنَهُ﴾ وبحرف؛ لقوله: ﴿أَن يَتَإِبْرَهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَآ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾ إلى آخره.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن الآية شهدت لما دل عليه الحديث الصحيح من قول النبي ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب»[1] فإن أشد كرب وقع لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالنسبة لهذه القضية ما حصل منه حين تل ابنه على جبينه ليذبحه، فما تتصورون لهذه الحال؟ إنه لكرب عظيم، وفي هذا الكرب العظيم جاء الفرج من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَنَدَيْنَهُ أَن يَتَإِبْرَهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَآ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾.

فالفرج يكون مع الكرب، وكلما اشتد الكرب والتجأ الإنسان إلى ربه كان الفرج إليه أسرع.

٣ ـ **ومن فوائدها:** أن فيها شاهدًا للحديث الصحيح أن الإنسان إذا قصد العمل وسعى به كتب له أجره؛ لقوله: ﴿وَنَدَيْنَهُ أَن يَتَإِبْرَهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَآ﴾ مع أنه لم يذبح، لكنه فعل ما أمر به، ولم يبق إلا أن ينفذه.

والأحاديث التي تشهد لها هذه الآية:

أولاً: ما ثبت في الصحيح في قصة الرجل الذي قال: «لَيْتَ لِي مِثْلُ مَالِ فُلَانٍ فَأَعْمَلُ فِيهِ مِثْلَ مَا عَمِلَ فُلَانٌ، وَكَان يُنْفِقُ مَالَه فِي الخَيْرِ»[2].

وكذلك في قصة الرجلين يقتتلان كلاهما يدخل النار، فقيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟! قال: «لأَنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِه»[3] فإذا كان من فعل السيئة ولم يتمها يؤزر عليها فمن فعل الحسنة ولم يتمها من باب أولى أن يؤجر عليها.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أن العبادة ما أمر الله به وإن كانت في غير هذا الموضع معصية، فإن قتل الابن من أكبر الكبائر، فإذا أمر الله به صار طاعة، ومن أفضل الطاعات؛ لأن تنفيذه من أشق ما يكون على النفس، فإذا نفذه الإنسان مع قوة الداعي لمنعه كان ذلك أكمل وأفضل.

ولهذا نظير، فالسجود لغير الله شرك، ولما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم صار السجود لآدم طاعة، فالحاصل أن العبادة ما أمر الله به، وإن كان جنسها قد يكون معصية في موضع آخر.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠٢٦).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

٥ ـ **ومن فوائدها:** العمل بالرؤيا إذا كانت صالحة، ولكن هل هذا في كل رؤيا؟

والجواب: أما رؤيا الأنبياء فيعمل بها؛ لأن رؤياهم وحي، وأما رؤيا غيرهم فإن شهدت النصوص الشرعية باعتبارها، أو وجدت قرائن حسية تشهد لها عُمل بها وإلا فلا.

مثال الأول: ما ذكره ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أنه رأى النبي ﷺ في المنام فسأله عن مسائل أشكلت عليه، ومنها أنه يقدم إليه جنائز لا يدري أمسلمون هم أم كافرون، فقال له النبي ﷺ: «عَلَيْكَ بِالشَّرْطِ يَا أَحْمَد». أي: أرشده إلى أن يشترط فيقول مثلاً: اللهم إن كان مؤمنًا فاغفر له وارحمه.

فهذه الرؤيا شهد الشرع باعتبارها، وهو جواز الدعاء المعلق على شرط مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٥ ـ ٩] فهنا دعاء معلق بالشرط.

مثال الثاني: ما ذكر عن ثابت بن قيس ـ رضي الله عنه ـ الذي استشهد في اليمامة وأتاه رجل من الجيش فأخذ درعه ووضعه في رحله تحت قدر، فرأى أحد أصحاب ثابت بن قيس ثابتًا في المنام وأخبره بأنه مر به رجل وأخذ درعه ووضعه تحت قدر من الفخار وعنده فرس تستن، وذكر أشياء أوصى بها فلما بلغ ذلك أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ أنفذ وصيته؛ لأن الرجل الذي رأى هذه الرؤيا ذهب إلى المكان الذي ذكره ثابت، فوجد الأمر كما قال.

فهنا وجدت قرينة حسية تدل على صدق الرؤيا.

من فوائد قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

١ ـ أن كل محسن فإن الله ـ تعالى ـ يجعل له من كل هم فرجًا، ويكتب له أجر العبادة وإن لم يفعلها إذا سعى في أسبابها، وهذا له أمثلة كثيرة، نذكر منها ماجرى لرسول الله ﷺ في حجة الوداع، فإن النبي ﷺ حج قارنًا بلا شك وساق الهدي، ومع ذلك قال: «لَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَجَعَلْتُها عُمْرَةً»(١). فهنا تمنى ﷺ أن يكون قد تمتع ولكنه قرن، فيكتب له أجر التمتع، الذي قال عنه: «لَوْ اسْتَدْبَرْتُ مِن أَمْرِي مَا اسْتَقْبَلْتُ لَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً».

فالإنسان الحريص على الخير قد يكتب الله له من الأجور ما هم أن يفعله وإن لم يفعله، وأن الله يفرج له كل كرب، وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٦٥١)، ومسلم (١٢٤٠).

يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق:٢ ـ ٣] ولكن لابد في هذه الحال من قيد، وهو أن ينتظر الإنسان فرج الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فلا يبعد بنفسه عن الله وييأس بل ينتظر الفرج، فإذا انتظر الفرج مع تقواه وإحسانه فما أقرب الفرج إليه؛ لقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها:** بيان عظمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، حيث أسند الفعل إليه بضمير العظمة: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ولا شك أن الله ـ تعالى ـ أثنى على نفسه بالعظمة والإحسان والفضل.

٣ ـ **ومن فوائدها:** أن الجزاء من جنس العمل ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فكما أحسن في عبادة الله أحسن الله إليه، وقد قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في سورة الرحمن: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠] يعني ما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

وبهذا يتبين لك كمال فضل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، فإن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هو الذي أحسن إليك، أولاً بتوفيقك للطاعات والإحسان، ثم أحسن إليك ثانيًا بالجزاء عليه.

فاعرف ـ أيها المؤمن ـ قدر نعمة الله عليك بالإحسانين: إحسان سابق للهداية، هداك الله ووفقك، وإحسان لاحق وهو الثواب العظيم، ونحن في الحقيقة في غفلة عن هذا، كثيرًا ما يعتمد الإنسان على نفسه بفعل الخير ولا يرى نعمة الله عليه به، مع أن الواجب أن ترى نعمة الله عليك به، إذا أتيت مثلاً إلى المسجد فاعرف قدر نعمة الله عليك، حيث سهل عليك المجيء إلى المسجد للصلاة، أو لقراءة العلم؛ لأن الله حرم أممًا كثيرة مما منّ الله به عليك، فما أكثر الذين لا يحضرون إلى المساجد، وما أكثر الذين يحضرون بأبدانهم لا بقلوبهم، وما أكثر الذين يحضرون عادة لا عبادة، وما أكثر الذين حرموا التردد إلى المساجد لطلب العلم أو قراءة القرآن، فكل هذه يجب أن يتفطن لها الإنسان وأن يعرف قدر نعمة الله عليه بها، ثم يرجو ثواب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عليها، ويحسن الظن بالله ـ سبحانه وتعالى ـ، وقد قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ : «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي»[1].

فوائد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾:

١ ـ **ومن فوائدها:** بيان أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قد يختبر عبده المؤمن بمصائب يفعلها هو بنفسه، أو بمصائب يقدرها الله عليه لا اختيار له فيها، والأول أكمل من الثاني يعني أن يبتلي الله الإنسان بمصائب يفعلها هو بنفسه هذا أكمل من الثاني؛ لأن الثاني الذي يجري عليه بغير اختيار كما قال بعض السلف: «إما أن يصبر صبر الكرام، وإما أن يسلو سلوا البهائم». لكن الشيء الذي يفعله بنفسه أعظم وأكمل، وما جرى لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الاختبار من النوع الأول

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

الذي قدر عليه المصيبة يفعلها هو بنفسه، وهو ذبح ابنه، فإنه سيفقده، وفقد الابن في هذا السن - وهو أيضًا وحيده الذي ليس له ولد سواه - ، لا شك مصيبة عظيمة، ولهذا وصفة الله بأنه بلاء مبين.

٢ - **ومن فوائدها:** بيان حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - فيما يقدره على عبده المؤمن من مكروه، فلا يقول الإنسان: لماذا ابتلاني الله - تعالى - بهذا دون غيري؟ بل يقول: لله في ذلك حكم عظيمة، والله - عَزَّ وَجَلَّ - يبتلي المؤمن بالمصائب، فإذا صبر نال بذلك درجة الصابرين، وإذا احتسب الأجر بهذا الصبر نال بذلك ثواب الصابرين، والصبر مرتبة عالية يُوفَّى فيها العامل أجره بلا حساب، ولا يمكن صبر بلا مصبور عليه، بل لابد من ابتلاء وامتحان يعلم به قدر صبر الإنسان حتى يثاب على قدر ما حصل منه من الصبر.

٣ - **ومن فوائدها:** فضيلة إبراهيم وإسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - ، وقد سبق، لكن من هذه الآية يتبين فضيلتهما بأنهما صبرا على هذا الابتلاء، صبرا صبر الكرام، وأسلما ولم يبق إلا التنفيذ حتى جاء الفرج من الله - سبحانه وتعالى -.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾:

١ - بيان أن رفع الذبح عن الابن جعل له مقابلاً لتكميل التنفيذ والامتثال، وذلك بأن أمر إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بأن يذبح فداءً عن ابنه، ويكون هذا الذبح أي: المذبوح عظيمًا، فلهذا قال: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني: أمرناه أن يذبح ذبحًا عظيمًا فداءً له.

٢ - **ومن فوائدها - على ما استنبطه بعض العلماء - :** أن الإنسان إذا نذر ذبح ابنه وجب عليه أن يذبح فدية عنه كبشًا، قال:؛ لأن هذا هو الذي أمر الله به إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ليكون فداءً عن ابنه، ومعلوم أن الإنسان إذا نذر أن يذبح ابنه فإنه لا يحل له أن يوفي به؛ لأنه نذر معصية، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِه»[1].

وهذا الاستنباط جيد لولا مخالفته لظاهر السنة، وهو أن من نذر معصية فإنه يحرم عليه فعلها، ولكن يُكَفِّرُ كفارة يمين، فإذا قال شخص: لله عليَّ نذر أن أذبح أول ولد يأتيني، ثم أتاه ولد فإنه لا يحل له أن يذبحه ولكن نقول: عليك - على القول الراجح - أن تكفر كفارة يمين.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾:

أن الله - تعالى - أبقى لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ثناءً حسنًا وسلامًا في الآخرين: ثناء حسنًا يثني عليه بما حصل منه من الدعوة إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - والصبر على البلاء الذي حصل له بغير اختياره، والصبر على البلاء الذي حصل له باختياره.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٦٩٦)، والترمذي (١٥٢٦)، والنسائي (٣٨٠٦).

فمن البلاء الذي حصل له بغير اختياره الإحراق حين قال قومه: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٦٨] ومن المعلوم ما يحصل للإنسان عندما يعزم على تحريقه لقاء الدعوة إلى الله؛ لأنه سيتألم لذلك ألمًا بدنيًا وألمًا قلبيًا. إن من الدعاة من إذا رأى عدم قبول الناس لدعوته تألم بمجرد أنهم لم يقبلوها فكيف إذا ردوها وأحرقوه من أجلها فهذا أشد ألمًا على القلب، ولا شك أن هذا بلاء ومع ذلك صبر وأُلقي في النار، ولكن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أمرها أن تكون بردًا وسلامًا عليه.

البلاء الثاني الذي حصل باختياره هو الأمر بذبح ابنه وعزمه على أن ينفذ ذلك. هذا من الثناء الحسن على إبراهيم.

كذلك أيضًا إبراهيم اتفقت الأمم على الثناء عليه وعلى ألا يعاب، ولهذا قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فإن قلت: إننا ـ نحن هذه الأمة ـ نسلم على إبراهيم وغيره فإننا نقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، قال النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُم ذَلِكَ فَقَدْ سَلَّمْتُم عَلَى كُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»[1].

فالجواب: نعم إننا نسلم على كل عبد صالح في السماء والأرض، ولكن سلامنا على إبراهيم وأمثاله من أولي العزم من الرسل أشد وأبلغ من سلامنا على عامة الصالحين.

ومن فوائد الآية في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أن الله ـ تعالى ـ كرر هذه الجملة المفيدة لهذا الحكم ترغيبًا للناس في الإحسان.

فيستفاد منها: أنه ينبغي لمن تكلم في أمر يرغب فيه أن يكرر؛ لأن لنفوس كلما تكرر لها الحكم ازدادت طمأنينة فيه ورغبة فيه، وفي مقام الترهيب كذلك يكرر، ألم تروا إلى قوله تعالى في سورة المرسلات: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:١٥] حيث كررت عدة مرات تحذيرًا وإنذارًا، فلكل مقام مقال.

والتكرار قد يكون من الركاكة ومن البعد عن البلاغة، لكن إذا كان في موضع يحسن فيه كان ذلك من البلاغة، وهنا كرر الله هذه الجملة ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في عدة آيات.

ومن الفوائد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

١ ـ الثناء على إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهذين الوصفين، وهما العبودية والإيمان، ويتفرع على ذلك: أن من اتصف بالعبودية والإيمان ناله من الثناء بقدر ما اتصف به منهما، فكلما كان الإنسان لله أعبد وبه آمن كان الثناء عليه أكثر وأعظم، ولا تغتر بما تلاقيه في الدنيا من مجابهات، فإن هذا قد يرد ولكن يكون امتحانًا وابتلاءً واختبارًا، ويكون الثناء ولو بعد موت الإنسان، كم من أئمة من هذه الأمة أوذوا في حياتهم، ولكن بعد مماتهم صار جزاء هذه الأذية أن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٠٢)، ومسلم (٤٠٢).

الله - تعالى - رفع لهم الذكر. وصارت العاقبة لهم، والثناء الحسن بعد مماتهم، والشواهد على ذلك كثيرة.

٢ - **ومن فوائدها:** فضيلة العبودية لله - عَزَّ وَجَلَّ -، والإيمان به؛ لأنه لا شك أن المراد بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الثناء عليه، وإذا علق الحكم على وصف فإنه يقوى بقوته ويضعف بضعفه.

فإذا كان الثناء معلقًا بالعبودية والإيمان فكلما كان الإنسان أشد عبادة وأقوى عبادة كان أحق بالثناء، وكلما كان الإنسان أقوى إيمانًا كان أحق بالثناء، والعكس بالعكس.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

١ - مشروعية البشارة بالولد - وقد سبقت - وذلك؛ لأن الولد يسر به الإنسان بلا شك، لا سيما إذا بشر بأنه نبي كما في هذه الآية ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أو بأنه غلام حليم كما في الآية التي في إسماعيل - عليه الصلاة والسلام -.

٢ - **ومن فوائدها:** الدليل الظاهر على أن الذي أُمر إبراهيم بذبحه إسماعيل وليس إسحاق، وقد بينا فيما تقدم تسعة أوجه تدل على أن الذي أُمر بذبحه هو إسماعيل - عليه السلام -.

٣ - **ومن فوائدها:** إثبات نبوة إسحاق؛ لقوله: ﴿بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا﴾.

٤ - أنه ينبغي عند البشارة أن يذكر ما يرجى من مستقبل ما بشر به، سواء كان ولدًا، أم مالاً، أم زوجة، أم بيتًا، أم غير ذلك، فالإنسان إذا توقع خيرًا في المستقبل فيما بشر به، فإنه ينبغي أن يقرن ذلك بالبشارة؛ لأن الله قرن نبوته بالبشارة به.

٥ - **ومن فوائدها:** الثناء على إسحاق - عليه الصلاة والسلام - بكونه ﴿نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - جمعوا بين الصلاح بأنفسهم والإصلاح لأممهم، فهم صالحون مصلحون.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النبوة وصف كمال؛ لأن الله - تعالى - قرنها بالبشارة، فلولا أنها وصف كمال يستبشر به الإنسان لكان ذكرها لغوًا لا فائدة منه.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾:

١ - أن الله - سبحانه وتعالى - بارك على إبراهيم وعلى إسحاق فمن بركات إبراهيم أن جميع الأنبياء من بعده كانوا من ذريته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد:٢٦] فمن سبق إبراهيم فهو من ذرية نوح، وأما من بعده فهو من ذرية إسحاق وإبراهيم، والذي ليس من ذرية إسحاق من ذرية إبراهيم، والذي من ذرية إسحاق من ذرية إبراهيم وإسحاق.

مثال: من لم يكن من ذرية إسحاق: إسماعيل ومحمد - صلى الله عليهما وسلم - . فإنهما من ذرية

إبراهيم وليس من ذرية إسحاق.

أما أنبياء بني إسرائيل فكلهم من ذرية إسحاق.

٢ - **ومن فوائدها:** أن ذرية إبراهيم وإسحاق انقسموا إلى قسمين: محسن وظالم، وهذا يشمل: الإحسان المطلق، ومطلق الإحسان، والظلم المطلق، ومطلق الظلم.

فمطلق الإحسان يشترك معه مطلق الظلم؛ لأن من جمع حسنات وسيئات ففيه مطلق الإحسان ومطلق الظلم. أي: ليس فيه الإحسان الكامل؛ لأن عنده ظلمًا، وليس فيه الظلم المطلق؛ لأن عنده إحسانًا.

فيكون الإحسان المطلق والظلم المطلق متقابلان.

الإحسان المطلق هو الذي إذا فعل معصية ذكر الله، فاستغفر فرفع عنه أثر المعصية، والظلم المطلق هو الكافر الذي ظلم بالكفر، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤] فذرية إبراهيم وإسحاق ينقسمون إلى ثلاثة أقسام عند التفصيل:

أ - المحسن المطلق هو المؤمن الذي إذا فعل فاحشة أو ظلم نفسه ذكر الله فاستغفر لذنبه ومن يغفر الذنوب إلا الله.

ب - الظالم المطلق وهذا الكافر.

جـ - من عنده مطلق الإحسان وهو المسلم الذي عنده معاصي، ومطلق الظلم وهو كذلك المسلم الذي عنده معاصي، فإن كثرت معاصيه على طاعاته صار إلى الظلم أقرب، وإن كثرت طاعاته على معاصية صار إلى الإحسان أقرب.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ أن الظلم يكون بيِّنًا أو مظهرًا لصاحبه، على حسب القول في ﴿مُبِينٌ﴾ هل هي بمعنى بيِّن أي: ظاهر، أو بمعنى مظهر لظلم صاحبه؛ لأن الظلم: قد يكون ظلمًا بيِّنًا واضحًا كالعدوان على الناس على أموالهم ودمائهم وأعراضهم، فهذا يكون الرجل فيه مظهرًا لظلمه، وقد يكون خفيًّا يستتر به الإنسان، فهذا ظلم بيِّن بالنسبة له، ولكنه ليس مظهرًا له؛ لأنه قد أخفاه عن الناس - والله أعلم -.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ موسى وهارون - عليهما الصلاة والسلام - من ذرية إسحاق، وأكد الله - تعالى - منته عليهما باللام، وقد، والقسم المقدر.

والمنة هي: العطاء بلا ثمن، وأعظم عطاء يعطيه الله - تعالى - الإنسان هو النبوة، ولهذا قال المؤلف: [بالنبوة].



❁ قال الله تعالى:

﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١١٥-١٢٢].

❁ التفسير ❁

ذكر الله منته على موسى وهارون بالنبوة ثم بنجاتهما وقومهما من الكرب العظيم.

والكرب يحتمل أنه الهلاك كما سبق في نظيرها، ويحتمل أنه ما لحقهما من الشدة من فرعون، فإن فرعون استعبد بني إسرائيل، وصار يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم، يذبح أبناءهم فأحيانًا يذبحهم ذبحًا كالغنم، وأحيانًا يقتلهم قتلاً؛ إما بأحجار، أو بغيرها، وكان يؤ ذيهم أشد الإيذاء، يسومهم سوء العذاب، ولا شك أن هذا سيكون فيه كرب عظيم على هؤلاء القوم، فنجاهم الله - سبحانه وتعالى - من ذلك. فذكر الله منته عليهم به.

يقول الله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ الضمير يعود على موسى وهارون وقومهما أي: نصرناهم على عدوهم، وأعظم انتصار ما حصل في النهاية حيث أمر موسى - عليه الصلاة والسلام - أن يخرج من مصر فاتجه إلى البحر الأحمر، ولما بلغه أمر بضربه فضربه فانفلق، فخرج موسى وقومه سالمين، ودخل فرعون وقومه فهلكوا حتى أراهم الله - سبحانه وتعالى - جثة فرعون فوق الماء؛ ليطمئنوا بموته ويتيقنوا ذلك، فلهذا كان ذلك نصرًا لهم.

وقوله: ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ الغالبين في النهاية، وإلا فإن أول الأمر كان فرعون قد سامهم سوء العذاب، لكن العبرة بالنهاية، والنهاية أنهم غلبوا؛ لأن الله - عَزَّ وَجَلَّ - يقول في آل فرعون: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ [الدخان:٢٥-٢٧] يعني الأمر، كذلك مؤكد، مثل قوله: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان:٢٨] وهؤلاء القوم هم بنو إسرائيل كما في آية الشعراء، فهذا من النصر العظيم أن الله - تعالى - يورث هؤلاء القوم الذين استضعفوا في الأرض، أرض هؤلاء العتاة الطغاة الفراعنة بكل سهولة.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ أي: أعطيناهما الكتاب المستبين، وهو التوراة وسماه كتابًا؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - كتبه بيده كما جاء ذلك في بعض الآثار، فالله - سبحانه وتعالى - كتب

التوراة بيده، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف:١٤٥] فهي إذن كتاب بمعنى مكتوب، ووصفه بأنه مستبين؛ لأنه فيه تبيان كل شيء يحتاج إليه بنو إسرائيل، والمستبين أبلغ من المبين أو البيِّن؛ لأنه كلما كثرت الحروف كثرت المعاني في الغالب، ولهذا يقال: زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، لكن هذا ليس دائمًا، بل في الغالب، فمثلاً كلمة (شجرة) حروفها أكثر من شجر ومع ذلك شجر أكثر من شجرة، وكذلك بقر ونمل وما أشبهه.

يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [البليغ البيان] أتى المؤلف بكلمة: البليغ: البيان من قوله: ﴿ٱلْمُسْتَبِينَ﴾؛ لأن زيادة حروفها تدل على زيادة معناها [فيما أتى به من الحدود والأحكام وغيرها]، ولهذا يقال: إن أشمل كتاب بعد القرآن هو التوراة، وقد جعلها الله ـ تعالى ـ عمدة لبني إسرائيل ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقوله: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الصراط: الطريق لكن قال العلماء: إنه ليس كل طريق صراطًا، بل هو الطريق الواسع المستقيم المعتدل، الذي ليس فيه اعوجاج، وذلك؛ لأنه مأخوذ من سرط أو زرط بمعنى التقمته بسرعة، فالطريق الواسع المستقيم العدل يسمى صراطًا، ولا شك أن صراط الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الذي وضعه لعباده طريق واسع يسع كل من تمسك به.

وقوله: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾ ولم يقل: إلى الصراط؛ لأن المراد بذلك هداية التوفيق وهداية الدلالة، وإذا كان المراد بالهداية، الهدايتان فإنه يتعدى بنفسه، فيقال: اهدنا الصراط.

وانظر إلى قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] وقال في حق النبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢] فإذا كانت الهداية بمعنى الدلالة تعدت بإلى، وإذا كانت بمعنى الدلالة والتوفيق تعدت بنفسها.

ثم إنها إذا تعدت بنفسها تفيد الهداية إلى الصراط والهداية في الصراط، فتفيد المعنيين جميعًا: إلى الصراط بحيث يصل الإنسان إليه، وفيه بحيث لا يتجاوزه ولا يخرج عنه.

فحذف الجار فيه هذه الفائدة أن يكون أعم مما لو تعين الجار، فيكون شاملاً لهدايته إليه وللهداية فيه.

وقوله: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إذا جعلنا الصراط هو الطريق الواسع المعتدل صارت المستقيم بيانًا للواقع وصفة كاشفة؛ لأنه لو حذفت وقيل: الصراط. لاستغني عنها إذا فسرنا الصراط بما ذكرنا. أما إن فسر الصراط بمطلق الطريق فلابد من ذكرها.

وقوله: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يعني: الذي استقام فليس فيه اعوجاج ولا انحراف، قال الله ـ تعالى ـ:

﴿وأن هذا صراطي مستقيًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فالصراط المستقيم معتدل قائم، والسبل تخرج يمينًا وشمالاً؛ ولذلك من خرج عن الصراط المستقيم ضاع وتاه، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾ [الأنعام: ٧١].

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أبقينا عليهما في الآخرين ثناءً حسنًا ﴿سَلَـٰمٌ﴾ منا ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾] يقال في هاتين الآيتين ما سبق، قال: [﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كما جزيناهما ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾] أيضًا نقول: فيها كما سبق.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة** عظيم منة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على موسى وهارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ بالرسالة؛ لأن الرسالة من أعلى مقامات البشر، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** تأكيد رسالتهما؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها:** أن من منّ الله عليه بإرث الأنبياء بالعلم، فإن ذلك من أعظم المنن، ولهذا قال أهل العلم: إن العلم أفضل من المال، فلو اجتمع عالم وغني، فالعالم أفضل من الغني حتى وإن بذل الغني ماله في سبيل الله، فالعالم المنتفع بعلمه والمعلم لغيره أفضل من صاحب المال.

٤ ـ **ومن فوائدها:** جواز تعدد الرسل في آنٍ واحد، وهذا قبل بعثة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أما بعد بعثته فهو خاتم النبيين ولا نبي بعده.

٥ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ بيان منة الله على موسى وهارون وقومهما بالنجاة من الهلاك، سواء كان على أيدي الفراعنة، أو بعذاب من عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، فإن الله نجاهما، وقد ذكّر الله قوم موسى بهذه النعمة: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٤١] وفي آية أخرى: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ [إبراهيم: ٦]؛ لأنهم تارة يقتلونهم، وتارة يذبحونهم، كما تذبح الشاة ـ والعياذ بالله ـ إرهابًا وإزعاجًا، فأنجاهم الله منهم.

٦ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة** في قوله: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أن بني إسرائيل أصابهم كرب عظيم بسبب ما حصل لهم من استعباد فرعون لهم؛ لأنه كان قد استذلهم استذلالاً عظيمًا، فمن العلماء من قال: إنه فعل ذلك؛ لأنه قيل: له: إنه سيولد منهم ولد يكون ذهاب ملكك على يده.

ومنهم من قال: بل فعل ذلك لمجرد إذلالهم خشية من أن يكثروا، ويكون لهم عزة وشوكة ومنعة، وكونه فعل ذلك من أجل الخوف من هذا الذي قيل: عنه ما - قيل: - يحتاج إلى دليل.

٧ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ بيان منة الله - عَزَّ وَجَلَّ - على الإنسان بالنصر، فإن النصر من أعظم النعم؛ لأن الإنسان يكون له عزة وغلبة، ويكون عدوه خائفًا منه، ذليلاً أمامه.

٨ - **ومن فوائدها:** أن الغلبة صارت في النهاية لموسى - عليه الصلاة والسلام - وقومه، ويتفرع على هذه الفائدة: أخذ العبرة من ذلك بأن النصر بيد الله - عَزَّ وَجَلَّ - قد ينصر من هو ضعيف، وقد يذل من هو قوي، كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هلاك عدوك يعتبر غلبة لك، سواء كان هلاكه على يدك أو بعذاب من عند الله، فإنه بلا شك لم يكن هلاك فرعون وقومه على يد موسى وقومه، بل كان بفعل الله، ومع ذلك جعل الله - سبحانه وتعالى - إنجاء موسى وقومه من فرعون غلبة.

والتخلص من العدو يسمى نصرًا وفتحًا وغلبة، كما قال النبي ﷺ في غزوة مؤتة حين كانت الراية مع زيد بن حارثة، ثم كانت مع جعفر بن أبي طالب، ثم كانت مع عبد الله بن رواحة، وكلهم قتلوا - رضي الله عنهم - قال: «ثُمَّ أَخَذَهَا خَالِدٌ فَفَتَحَ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ»، وخالد - رضي الله عنه - لم ينتصر على الروم ولم يغلبهم، ولكن نجا منهم، فسمى النبي ﷺ هذه النجاة فتحًا، كما سمى الله - تعالى - هنا نجاة موسى وهارون وقومه من فرعون أنها نصر وغلبة.

١٠ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ بيان عظيم منة الله - سبحانه وتعالى - بإيتاء الكتاب لموسى وهارون وهو من عطف الخاص على العام في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾؛ لأن إيتاء الكتاب أعظم منه، ويتفرع على هذا: أن من آتاه الله علم كتابه وسنة رسوله ﷺ فله نصيب من هذه المنة.

١١ - **ومن فوائد الآية:** الثناء على التوراة في قوله: ﴿الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ أي: البالغ البيان، ولا شك أن التوراة هي أعظم كتاب أنزله الله - تعالى - على بني إسرائيل.

١٢ - **ومن فوائدها:** أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - ينزل الكتب تبيانًا للناس، فيؤخذ من ذلك أن العقول لا تستقل بمعرفة ما يجب لله من الحقوق، ولا بمعرفة ما يجب له من الصفات، ولا بمعرفة ما يجوز عليه ولا ما يمتنع فيكون في ذلك رد على من حكموا العقول في باب أسماء الله وصفاته.

١٣ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أن كل إنسان مفتقر إلى الله - تعالى - في الهداية مهما بلغت مرتبته، فهذا موسى وهارون منَّ الله عليهما بهدايتهما الصراط المستقيم، فلا يقول قائل: أنا عالم، أنا عابد. فيعتمد على نفسه ويعجب بها، بل يجب عليه أن يرى

قدر نعمة الله عليه بالهداية، فكم من أناس أضلهم الله وهم أقوى منه ذكاء.

١٤ ـ **ومن فوائدها:** أن صراط الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ صراط مستقيم، لا اعوجاج فيه ولا ارتفاع ولا انخفاض، فهو سهل لسالكه، ومن المعلوم أن الصراط إذا كان معوجًّا أو فيه انخفاض أو ارتفاع فإنه يعيق سالكه، لكن صراط الله ـ على العكس من ذلك ـ مستقيم.

١٥ ـ **ومن فوائدها:** أن الإنسان محتاج في الهداية إلى الصراط المستقيم إلى هدايتين: هداية دلالة وهي التي تتعدى بـ (إلى)، وهداية توفيق وهي التي تتعدى بنفسها، ولهذا قال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ولم يقل: إلى الصراط.

١٦ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر موسى وهارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ في الآخرين وأثنى عليهما بما يستحقانه.

١٧ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ دافع عن موسى وهارون، حيث سلمهما من الثناء القبيح في الآخرين، هذا على القول بأن سلام على موسى وهارون متعلق بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا﴾ يعني: أنه ترك ـ عليهما السلام ـ في الآخرين، أما إذا قلنا: بأنه ترك عليهما ثناءً حسنًا، وجعلنا السلام من الله ، فهو جملة مستأنفة لا تتعلق بما قبلها.

١٨ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بيان فضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده الذين أحسنوا، حيث يجزيهم بالحسنى، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

١٩ ـ ومنها أيضًا بيان فضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ على العباد من وجه آخر، وهو أنه هو الذي منّ عليهم بالإحسان أي: جعلهم يحسنون، ثم منّ عليهم مرة ثانية بمجازاتهم على هذا الإحسان، وعلى هذا فكل إحسان تفعله فإن لله عليك فيه منتين.

المنة الأولى: توفيقك لهذا الإحسان.

والمنة الثانية: ثوابك على هذا الإحسان.

٢٠ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لا يجزي العامل لشخصه، وإنما يجزيه لعمله؛ لهذا بين أن هذا الجزاء لا يختص بموسى وهارون، بل هو لكل إنسان محسن.

٢١ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الثناء على المؤمن الذي حقق عبودية الله؛ لقوله: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٢ ـ **ومن فوائدها:** أن البشر مهما علت منزلتهم ومرتبتهم فهم داخلون ضمن العبودية؛ لأن موسى وهارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ من أكابر الأنبياء، ومع ذلك فإن الله ـ تعالى ـ وصفهما بالعبودية له ـ سبحانه وتعالى ـ.

ومن المعلوم أن وصف الإنسان بالعبودية لله شرف له وعز؛ لأنه ما من إنسان إلا وهو عبد،

إما أن يكون عبدًا لهواه، وإما أن يكون عبدًا لمولاه، وكل إنسان له إرادة، وكل إنسان متحرك ولكن ما هي الإرادة؟ وإلى أين التحرك؟ إن كانت الإرادة إرادة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والتحرك لدينه فهذه هي الحرية، وإذا كانت الإرادة لغيره والتحرك لغير شرعه فهذه رق.

ولهذا نرى أن هؤلاء الفوضويين الذين يريدون أن يكون الناس فوضى مُدَّعين أن هذه هي الحرية ـ نرى أن هؤلاء هم الذين ابتلوا بالرق؛ لأن الشيطان استرقهم وجعلهم عبيدًا له، ولو عبدوا الله ـ سبحانه وتعالى ـ لسلموا من هذا الرق، فهم تركوا الرق الذي خلقوا له وبلوا برق النفس والشيطان، كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في النونية:

هَرَبُوا مِن الرِّقِ الَّذِي خُلِقُوا لَه وَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

الرق الذي خلقوا له هو العبودية لله، لكنهم بلوا برق النفس والشيطان، فما من إنسان يهرب من عبادة الله إلا وقع في عبادة الشيطان ولابد.

فالعبودية وصف كمال للإنسان إذا كانت له، وإذا كانت للشيطان فهي وصف نقص.

٢٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة فضيلة الإيمان؛ لقوله: ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

٢٤ ـ ومن فوائدها: أن كل جزاء وكل وصف علق بالإيمان فإن للأنبياء منه الحظ الأوفر والأكمل.



قال الله تعالى:

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات:١٢٣ ـ ١٣٢].

التَفسِيرُ

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ الجملة هذه مؤكدة بـ (إن) و (اللام).

ويؤكد الله مثل هذه الأشياء التي يكفي فيها خبره ـ سبحانه وتعالى ـ عن كل توكيد جريًا على عادة العرب في توكيدهم الأمور الهامة، أو الأمور التي يكون المخاطب فيه شاكًا، أو يكون

المخاطب فيها منكرًا، فهم يؤكدون الخبر لأسباب منها هذه الأسباب الثلاثة: أن يكون المخبر به أمرًا هامًّا، أو أن يكون المخبر شاكًّا في الخبر، أو أن يكون منكرًا له، فيؤكدونه زيادة في طمأنينة المخاطب، وإلا فإن مجرد خبر الله ـ تعالى ـ في الشيء يغني عن كل توكيد، وقوله: ﴿إِلْيَاسَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [بالهمز أوله وتركه] يعني أن فيه قراءتين إلياس بهمزة قطع، وترك الهمزة ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذي يظهر أنه من أنبياء بني إسرائيل، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [قيل: هو ابن أخي هارون أخي موسى، وقيل: غيره، أرسل إلى قوم ببعلبك ونواحيها] ليس هناك دليل على أنه ابن أخي هارون أخي موسى لا من القرآن ولا من السنة، وذكر قصته بعد قصتهما لا يفيد ذلك فالله ـ تعالى ـ يذكر قصة هود بعد نوح ومع ذلك بينهما زمن طويل، ونحن لا يهمنا صلة هذا النبي بالنبي الآخر من حيث النسب، لكن الذي يهمنا صلة دعوتهما ببعض، كما قال تعالى في قصة إبراهيم: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات:٨٣]، فإن الأنبياء دعواهم واحدة، كلهم يدعون إلى توحيد الله، أما النسب فليس بهام.

فإلياس رسول أرسله الله ـ تعالى ـ إلى بعلبك ـ كما هو كلام المؤلف ـ.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [إذ منصوب باذكر مقدرًا] أي: اذكر إذ قال لقومه، وإذا منصوب باذكر مقدرًا فهل الخطاب للرسول ﷺ؟ يعني اذكر إلياس لقومك، أو الخطاب لكل واحد يصح خطابه، ويكون المراد بقوله: اذكر المقدر أي: تذكر، يحتمل هذا وهذا، ـ وعلى كل حال ـ فإن الله أمر نبيه أن يذكر للناس هذه القصة، وأمر كل واحد أن يتذكر هذه القصة؛ لأن في ذلك عبرة.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿أَلَا﴾ هنا: أداة تحضيض وليست أداة عرض؛ لأنه لا يقصد عرض التقوى عليهم، ولكن يحضهم على هذا، قال المؤلف: [ألا تتقون الله] فقدر المفعول المحذوف باسم الجلالة، ولكن الأولى أن يقال: إنه أعم من ذلك، ألا تتقون الله، ألا تتقون النار، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ [آل عمران:١٣١]، ألا تتقون يوم الحساب كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١] فحذف المفعول أعم، ولا ينبغي إذا دلت الآية على معنى أعم أن نقيدها بمعنى أخص؛ لأن هذا يعتبر نقصًا في تفسير الآية، بل إذا جاءت الآية عامة فلتبقى على عمومها، وإذا جاءت مطلقة فلتبقى على إطلاقها.

والتقوى: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار والتسفيه، وتدعون بمعنى: تعبدون، فإن الدعاء يسمى عبادة. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر:٦٠] ولم يقل: عن دعائي، وهذا يدل على أن الدعاء يراد به العبادة وهو كذلك، ويحتمل أن يكون المراد بدعوتهم لهذا الصنم دعوة المسألة، وأنهم يستغيثون بهذا الصنم،

وإن لم يركعوا له ويسجدوا له، ـ كما يوجد الآن ـ في كثير من المسلمين ـ مع الأسف ـ من يدعو الأولياء في قبورهم وإن كانوا لا يركعون لهم، ولا يسجدون، فكوننا نجعل الدعاء بمعنى العبادة أعم من أن نجعله بمعنى السؤال؛ لأن السؤال نفسه عبادة كل إنسان يسأل الله ولو حاجة دنيوية، فإنه يعتبر عابدًا لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مثنيًا عليه؛ لأنه جعله المرجع ـ سبحانه وتعالى ـ وجعله ملاذه.

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [اسم صنم لهم من ذهب، وبه سمي البلد أيضًا مضافًا إلى (بك) أي: أتعبدونه و ﴿وَتَذَرُونَ﴾ أي: تتركون أحسن الخالقين].

وهنا قال: ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ ولم يقل: تذرون الله، بل قال: أحسن الخالقين، فلابد أن يكون هناك نكتة، فالعدول عن اسم الله الذي يختص به وهو الله لابد أن يكون هناك نكتة، النكتة هنا هي: إقامة الحجة عليهم بعدم صلاحية معبودهم للعبادة؛ لأنه لا يستطيع الخلق، والله وحده هو الذي يقدر على الخلق وعلى أحسن الخلق، فالله ـ تعالى ـ أحسن الخالقين، وكل من خلق شيئًا فالله ـ تعالى ـ أحسن منه خلقًا حتى الذين يضاهئون بخلق الله لا يمكن أن يخلقوا مثل خلق الله، بل هم يقلدون على خلق الله، ولا يمكن أن يأتوا بمثله ولا أحسن منه، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو أحسن الخالقين.

وفي قوله: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ ﴾ إشكال، وهو أنه قد يفهم فاهم من هذه الآية أنهم لو دعوا البعل ولم يذروا الله فلا إنكار عليهم، فما الجواب؟

الجواب أن يقال: يحتمل أن هؤلاء القوم يدعون البعل، ولا يدعون الله ولا يعبدون الله، كما يوجد ـ الآن ـ في طوائف الكفر من لا يرون أحدًا يطاع ويتقى إلا زعماؤهم ورؤساؤهم، فالدول الشيوعية مثلاً كانوا لا يعرفون إلا ستالين ومن سن لهم هذه القوانين، ويرون أنه هو الرب الذي يجب أن يطاع وأن يخشى، ولا يعرفون الله، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ على ظاهره، أي أنهم يدعون هذا البعل، ولا يدعون الله.

ويحتمل أنهم يدعون البعل، ويدعون الله، ولكن من دعا غير الله ودعا الله فإن الله غني عنه، فيكون كالتارك لدعاء الله، كما صح الحديث عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه أنه قال: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١) وعلى هذا فيكون إلياس جعلهم تاركين لله؛ لأنهم أشركوا به، ومن أشرك بالله معه غيره فالله غني عنه كأنه لم يعبد الله.

وعلى هذا فإما أن يكونوا قد تركوا الله على سبيل الحقيقة إذا كانوا يعبدون البعل ولا يعبدون الله، أو يكونوا تركوا الله على سبيل الحكم إذا كانوا يعبدون البعل ويعبدون الله، فإن هؤلاء حقيقة

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

تركوا عبادة الله؛ لأن الله ـ تعالى ـ غني عنهم.

وقوله: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ قال المؤلف: [برفع الثلاثة على إضمار هو، ونصبها على البدل من أحسن].

الثلاثة: الله، ربكم، ورب آبائكم.

يقول: فيها قراءتان الأولى: الرفع، على أنها خبر مبتدأ محذوف يعني هو رب، وتكون هذه الجملة منقطعة عما قبلها، استئنافية لبيان من هو أحسن الخالقين.

والقراءة الثانية بالنصب ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ على أنها بدل من أحسن.

أي: وتذرون ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

ومعنى الآية: فـ ﴿ٱللَّهَ﴾ بمعنى المألوه، وأصلها الإله، لكنها حذفت الهمزة للتخفيف لكثرة الاستعمال، ﴿رَبَّكُمۡ﴾ أي: خالقكم ومالككم، والمدبر لأموركم؛ لأن الرب كما تقدم هو الخالق، المالك، المدبر، ﴿وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، يعني السابقين وهم: الأجداد، وإنما قال: ﴿وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ إشارة إلى:

أولاً: أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هو الذي بيده خلق الحياة والموت، فإن هؤلاء الآباء الأولين قد أماتهم الله، فيذكر هؤلاء بأنهم سوف يموتون كما مات آباؤهم الأولون، ومن المعلوم أن الإنسان إذا كان له قلب وذكر بالموت وأنه سوف ينتقل من هذه الحياة التي هي حياة العمل إلى حياة أخرى وهي حياة الجزاء فلابد أن يلين قلبه، وأن يعمل للدار المستقبلة التي لابد أن يصير إليها، فكونه يذكر الآباء الأولين إشارة إلى تذكيرهم بأنهم سيموتون كما مات هؤلاء فليستعدوا.

ثانيًا: أن الله ـ تعالى ـ هو الخالق لموتهم وحياتهم، فإذا كان هو الخالق لذلك فإن الواجب أن يعبد وحده دون غيره، وهذا الصنم لا يخلق الموت ولا الحياة.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: كذبوا ما جاء به خبرًا وطلبًا.

كذبوه أنه رسول، وقالوا كما قال غيرهم ـ والعلم عند الله ـ: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ﴾ [الشعراء:١٨٦] بل كل الذين سبقوه من الرسل قيل لهم: ذلك، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٩ ، ١٠] فكل من سبق يكذبون رسلهم يقولون: أنتم بشر، يعني: ولو شاء الله أن يرسل رسولاً لجعله ملكًا، ولكن الله رد على هؤلاء قال: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾ [الأنعام:٩] أي: في صورة الرجل؛ لأنه لا يتلاءم أن ينزل مَلَكٌ لبشر ليدلهم ويقودهم، وكيف يتبع الناس هذا الملك وهو على صورته الأصلية؟ لا يمكن؛ لأنه لابد من التلاؤم، فلو

أرسل الله ملكًا إلى البشر لجعله رجلاً مثلهم، وإذا جعله رجلاً عاد الأمر كما كان قالوا: نريد ملكًا، ولهذا قال: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩]

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (الفاء): هنا للسببية، أي: فبسبب تكذيبهم أنهم لمحضرون، أي: محضرون إلينا يوم القيامة وسيجازون على ذلك.

وأما قول المؤلف: [لمحضرون في النار] ففيه نظر؛ لأنه لم يسبق النار ذكر، اللهم إلا إن يقال: إن الاستثناء: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ قد يدل على ذلك، لكن المعنى الذي أشرت إليه أولى: أي: لمحضرون عندنا، كما قال الله - تعالى - : ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٣٢] والمهم أن الله - تعالى - أخبر عن هؤلاء بأنهم سوف يحضرون إلى الله، وسوف يجازيهم على أعمالهم.

﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ وهذه الجملة مؤكدة بمؤكدين: إنّ، واللام

وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين أخلصهم الله لنفسه، فأخلصهم من الشرك ومن تكذيب الرسل، والعبودية هنا عبودية خاصة.

والاستثناء هنا متصل على كلام المؤلف - رحمه الله - ، وعلى ما أشرت إليه يكون منقطعًا، وجه ذلك أنه إذا قلنا: إنهم محضرون إلى الله فإنه لا يستثني أحد، كل سيحضر، وعلى هذا فيكون الاستثناء منقطعًا يعني: لكن عباد الله المخلصين سوف ينجون من هذا الحضور، أي: من العذاب الذي يترتب على هذا الحضور والمجازاة.

أما على قول المؤلف ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار، فإن الاستثناء متصل، يعني أن قومه يحضرون في النار إلا المؤمن منهم ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [ثناءً حسنًا]

وقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾هو [إلياس المتقدم ذكره، وقيل: هو ومن آمن معه، فجمعوا معه تغليبًا، كقولهم للمهلب وقومه: المهلبون، وعلى قراءة (آل ياسين) بالمد، أي: أهله المراد به إلياس أيضًا].

أفادنا المؤلف أن في الآية قراءتين: الأولى إلياسين، والقراءة الثانية: آل ياسين، أما على القراءة الأولى إلياسين فهل إلياسين، هو إلياس؟ أو من قومه؟

فيه قولان للعلماء: فمن العلماء من قال: إن إلياسين هو إلياس، فيكون كقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ وهنا لم يذكر إلياس قال: سلام على إلياس، لكن اختلف اللفظ؛ لأن الاسم أعجمي، والعرب إذا عربت الاسم الأعجمي صار فيه شيء من التصرف، مثل جهنم يقال أصلها جهنام، وأصلها الفارسي كهنام، وعلى هذا لا نحتاج إلى التعب، فنقول: من أين اشتقت جهنم؟

وعلى كل حال: إذا جعلنا إلياسين هو إلياس نفسه صار جاء مرة بإلياس ومرة بإلياسين بناء

على أن العرب يتصرفون في الأسماء الأعجمية المعربة، وفيه معنى آخر على القراءة الأولى إلياسين على أن المراد قومه، وأن الياء والنون زيدت كما تزاد في مسلم فيقال: مسلمين، فتكون إلياسين جمع لإلياس كما قال المؤلف: [المهلبون]، وأصلها يقال: المهلبيون، نسبة إلى المهلب، فآل ياسين أصلها إلياس ثم زيدت الياء والنون، وصار المراد بذلك قومه.

هذا على قراءة إلياسين. فيكون فيها معنيان:

المعنى الأول: أنه إلياس نفسه، وهذا التصرف في اللفظ بناء على أنه اسم أعجمي، والعرب تتصرف بالأسماء الأعجمية عند تعريبها.

المعنى الثاني: أن المراد قومه وأنهم جمعوا باعتبار قومه.

أما على القراءة الثانية (آل ياسين) فهي أيضًا في كلمة ياسين تصرف تعريبي؛ لأن ياسين هو إلياس، وعلى هذا فيكون المراد بآل ياسين: إلياس وقومه، فآل الشخص يدخل فيهم، الشخص إلا إن ذكر معهم لم يدخل فيهم، كما تقول: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، أما إذا لم يذكر معهم فإنه يدخل فيهم كما في قوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦] ومنهم فرعون بل هو أولهم: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة** من فوائد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إثبات رسالة إلياس، وسبق لنا أن إلياس فيما يظهر من أنبياء بني إسرائيل.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - يثني على عباده بما يستحقون من الأوصاف في الآخرين ليبقى ذكرهم مخلدًا، فإنه لولا أن الله ذكر هؤلاء الأنبياء لطويت صحائفهم وما علم عنهم شيء.

٣ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾: دليل على أن التقوى تطلق على فعل الأوامر وترك النواهي، قال: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ يعني بعبادة الله، ويدل لهذا قوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾.

٤ - ومن وفوائدها: بيان تلطف الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في دعوة قومهم؛ لأنه قال: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ وهذا للعرض والحث، ولم يقل لهم: اتقوا الله، مع أن الرسل قد يقولون: اتقوا الله، لكن ينزل كل مخاطب منزلته بما يليق به.

٥ - ومن فوائد هذه الآية - وهي في الحقيقة فائدة في كل ما سبق من الآيات -: اختصاص رسالة الرسول فيما سبق بقومه؛ لقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

فإن قال قائل: إذا أخذتم من إضافة القوم إلى الرسول اختصاص الرسالة بقومه، فإن الله -

تعالى - وصف النبي ﷺ بمثل ذلك فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤] فهل تقولون: إن النبي ﷺ مرسل إلى العرب فقط؟

فالجواب: لا، لكننا نأخذ عموم رسالته من أدلة أخرى كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:١٥٨] وكقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] وكقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[1].

٦ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾: بيان سفه هؤلاء القوم؛ لأنهم يعبدون البعل وهو صنم ربما صنعوه بأيديهم فكان مخلوقًا، ويذرون الخالق - عَزَّ وَجَلَّ - الذي هو أحسن الخالقين، وهذا لا شك أنه غاية السفه، فإن أحق من يعبد هو الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - أحسن الخالقين خلقًا، في كل ما يعود إلى صفة الخلق من كمال الخلقة وجمالها ومناسبتها لطبيعتها وغير ذلك، ومن أراد أن يتوسع في هذا المجال فليقرأ كتاب مفتاح دار السعادة لابن القيم - رحمه الله - فإنه ذكر من ذلك العجب العجاب، في خلق الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

٨ - **ومن فوائد الآية:** أن غير الله - تعالى - يوصف بأنه خالق؛ لقوله: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، ووجه ذلك أن في هذه الآية مفضلاً ومفضلاً عليه والمفضل الله - عَزَّ وَجَلَّ -، والمفضل عليه ما سواه.

ونقول: هذا هو الواقع أن هناك خالقين غير الله، لكن هذا الخلق ليس كخلق الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأن خلق الله خلق إيجاد وأما خلق غيره فخلق تغيير وتحويل فقط.

مثال ذلك: الذي خلق الخشب الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ثم يخلقه الآدمي فيحوله إلى أبواب وسرر وما أشبه ذلك، ويقال: خالق.

والذي خلق الحديد الله - عَزَّ وَجَلَّ - ويحوله الآدمي إلى أواني ومعدات ومراكب وما أشبه ذلك، فهذا ليس خلق إيجاد حتى نقول: إنه مشاركة مع الله، ولكنه خلق تغيير وتحويل، يحول الشيء من شيء إلى شيء، ولهذا قال الرسول - عليه الصلاة والسلام - في المصورين يقال لهم: «أحيوا ما خلقتم»[2] وهم في الحقيقة ما خلقوا حتى وإن صوروا وأبدعوا في الصورة فإنهم لم يخلقوا كخلق الله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣] حتى وإن أبدع المصور في تصويره الذي

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (٥٢١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١٨١) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢١٠٧).

جعله على مثال الآدمي أو مثال الحيوان، فإنه لن يكون كخلق الله.

٩ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أنه ينبغي للداعية أن يذكر الإنسان بها يكون سببًا لاتعاظه ؛ لقوله: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فيذكرهم بأن آباءهم قد فنوا وذهبوا، وإنكم أنتم سوف تذهبون كما ذهب الآباء.

١٠ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ دليل على أن الإنسان مهما بلغ في عرض الدعوة إلى الله وبيانها والبلاغة في العظة فإنه لا يستلزم أن يؤثر فيمن وجه الخطاب إليه؛ لأن إلياس عرض الدعوة عليهم عرضًا رقيقًا، وبيَّن لهم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة ومع ذلك كذبوه. ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي للداعية إذا رُدّ قوله ألا يعتبر نفسه مقصرًا أو فاشلاً؛ لأنه أدى ما عليه وهو البلاغ، والهداية على الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، فلو أراد الله بهؤلاء خيرًا لانقادوا للهدى، أما أنت فقد أراد الله بك خيرًا؛ لأنك بلغت ما عليك.

١١ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** ترتب الجزاء على العمل، وتؤخذ من الفاء الدالة على السببية: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ فالجزاء مترتب على العمل، وقد ذكر الله في آية أخرى أن الجزاء يكون من جنس العمل، فقال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت:٤٠] قدرًا وكيفية ثم فصل الله هذا الأخذ.

١٢ ـ **ومن فوائدها:** إثبات الجزاء المتسبب على العمل في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

١٣ ـ **ومن فوائدها:** إهانة هؤلاء وأمثالهم، حيث قال: ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ ولم يقل: نحضرهم، ولكنه في آية أخرى قد يضيف العقوبة إلى نفسه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ، مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم:٦٨].

١٤ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بيان أن العباد المخلصين لا ينالهم عذاب هؤلاء في الآخرة قطعًا، وفي الدنيا فإنه يوشك أن يعم الله ـ تعالى ـ الصالح والفاسد بالعذاب، ولاسيما إذا قصر الصالح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده.

١٥ ـ **ومن فوائدها:** الثناء على هؤلاء الذين اتبعوا الرسل؛ لكونهم عبادًا لله ومخلصين.

١٦ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ بيان أن الله ـ تعالى ـ يجازي المحسن بالإحسان حتى بعد موته؛ لقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾، والواقع شاهد بذلك،

فإن أئمة الإسلام أبقى الله عليهم ثناء حسنًا في الآخرين، وصدّ كل لسان يقدح فيهم فجعل فيهم الثناء وسلمهم من القدح.

١٧ - ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ يستفاد منها ما سبق في قصة موسى وهارون - عليهما الصلاة والسلام -.



قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٣ - ١٣٨].

التفسير

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ سبق نظيرها في آيات أخرى وأن فيها توكيدًا من وجهين إن واللام، وأن التي للتوكيد يؤتى به عند إنكار المخاطب أو شكه، أو أهمية المخبر به وإن لم يكن هناك شك أو إنكار.

وقوله: ﴿لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: لمن الذين أرسلهم الله - تعالى -، أرسل الله - تعالى - لوطًا - عليه الصلاة والسلام - إلى قومه وكانوا - والعياذ بالله - يأتون الفاحشة وهي اللواط: يأتي الذكرُ الذكرَ، وهذه من أسفل الأخلاق - نسأل الله العافية -، ولهذا قال الله - تعالى - عن الزنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسرا:٣٢] وقال عن اللواط على لسان لوط: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [الأعراف:٨٠]. يعني التي استقر فحشها في فطر الناس و (أل) تفيد التقبيح والتعظيم، ولا شك أن فاحشة اللواط أعظم من فاحشة الزنا؛ لأنها قلب للفطرة التي فطر الله - تعالى - الخلق عليها، ولأن فيها عزوفًا عما أحل الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وهكذا الإنسان المبتلى بالمحرم يبتلى - والعياذ بالله - بالعزوف عن الحلال، فتجده مستغنيًا بما حرم الله عما أحل الله، بخلاف الذي استغنى بالحلال عن الحرام، فإن الله - تعالى - يعينه ويجمل الحلال في عينه، ففي هذه الفاحشة عزوف الناس عن النساء، وبذلك يقل النسل وتقل الأمة وتضعف، وفي هذه الفاحشة أيضًا أسباب لأمراض كثيرة، فإن الإنسان - والعياذ بالله - إذا استعمل هذه الفاحشة فقد أتى الدبر الذي هو محل النجاسة والأذى، وإذا كان الله - تعالى - قال في المحيض ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة:٢٢٢] فإن أذى العذرة أخبث من أذى الدم،

فكان في هذا أذى وسبب لأمراض لا يعلم مداها إلا الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وفيها أيضًا قتل لمعنويات الرجال، فإن هذا المفعول به لن يبقى على حاله التي هو عليها، فسوف يكبر ويكون رجلاً فما مدى شعوره إذا قابل من كان يفعل به فعل الرجل بالمرأة؟! إنه ذل وخزي وعار - والعياذ بالله -، لهذا كانت هذه الفاحشة جديرة بأن يرسل الله - تعالى - رسولاً من أجل القضاء عليها، فإن لوطًا - عليه الصلاة والسلام - أرسله الله - تعالى - بالتوحيد وبالقضاء على هذه الفاحشة العظيمة، ومع ذلك لم يؤمن معه إلا قليل، حتى أهله الذين هم أهله لم يتمحض إيمانهم، بل كان فيهم من ليس بمؤمن وهي امرأته، وبهذا نعرف مدى ما يناله الدعاة إلى الحق من الأذى والرد، ولا ينبغي للإنسان أن يستحسر إذا لم يجد قبولاً من الناس، فإن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وهم أكرم الخلق على الله لا يجدون قبولاً من كل أحد، قال النبي ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»[1].

بل إن من الأنبياء من يقتل، فجدير بنا ونحن نسمع هذه القصص أن لا نضجر إذا لم نجد قبولاً، وأن لا نضجر إن رأينا أذى، وأن لا نضجر إن رأينا عدوانًا، فلنصبر ولنحتسب، والوعد بالثواب أو بالعقاب يكون غدًا.

فلوط أرسله الله - تعالى - إلى قومه، ولكنهم لم يقبلوا قوله حتى إن الرسل الذين جاءوا إلى لوط جاءوا قومه يهرعون إليه، يسرعون يريدون هؤلاء الملائكة الذين أرسلهم الله - تعالى - على صورة شبان فتنة لهؤلاء، فراودوه عن ضيفه، فقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾.

أي: خذوا النساء تزوجوهن، قالوا: لقد علمت ما لنا في بناتك من حق، وإنك لتعلم ما نريد.

ولكن قال الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر:٣٧] فهؤلاء الرجال الذين جاءوا قيل: إن جبريل - عليه السلام - ضربهم بجناحه.

وقيل: إن الله - تعالى - طمس على أعينهم - والله أعلم - بكيفية ذلك، وهذا القول أحسن إلا أن يصح عن الرسول - عليه الصلاة والسلام -، أن جبريل ضربهم، فهؤلاء رجعوا عميًا، طمس الله أعينهم حتى صاروا لا يبصرون، والحاصل أنه لم يستجب له أحد من قومه، ولهذا قال: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ﴾ (إذ) ظرف لفعل محذوف تقديره: «اذكر» ولا يصح أن تتعلق بالمرسلين؛ لأنه كان مرسلاً قبل أن ينجي ﴿وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ أي: أهل بيته ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ مستثنى من أهل، فإنها لم تنج، وذلك؛ لأنها كانت كافرة على دين قومها، ولهذا وصفها الله - تعالى - في سورة التحريم بالخيانة، والمراد بالخيانة الخيانة في الدين لا في العرض ﴿عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٠٥) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٢٠).

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي: الباقين في العذاب] وذلك أن لوطًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمر أن يخرج من القرية هو وأهله إلا امرأته، فبقيت المرأة فأصابها ما أصاب قومها من العذاب، ولهذا قال: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ أي: من جملة الغابرين الذين هلكوا ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ كلمة دمرنا تفيد معنى عظيمًا وهو أن هذا الإهلاك كان إهلاك تدمير لم يبق لهم قائمة بعده، وهي أشد وقعًا في النفوس من (أهلكنا) فهي كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء:١٦]، وأمر الله مترفيها أمر قدري وليس شرعيًّا كما قاله بعض الناس، وليس المعنى كما قال بعضهم: أمرناهم بالشرع ففسقوا؛ لأن هذا يقتضي أن الله ـ تعالى ـ أمر بالشرع من أجل الفسق، والله ـ تعالى ـ أمر بالشرع من أجل الطاعة، ولكن الأمر هنا أمر كوني ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] ﴿الْآخَرِينَ﴾ أي: كفار قومه، وذلك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أرسل عليهم حجارة من سجيل تضرب بيوتهم وتهدمها حتى جعل عاليها سافلها؛ لأن البناء إذا تهدم صار أعلاه أسفله، فدمروا حتى هلكوا عن آخرهم، وهذا الجزاء موافق ومناسب للعمل؛ لأن هؤلاء كما قلبوا فطرتهم التي خلقهم الله ـ تعالى ـ عليها قلبت منازلهم فجعل عاليها سافلها

وقال بعض أهل العلم: إن جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ حمل قراهم وهي سبع قرى حتى بلغ بها جو السماء ثم قلبها ثم أرسلت عليهم الحجارة.

ولكن في هذا نظر؛ لأن إرسال الحجارة عليهم بعد أن يقلبوا من السماء لا فائدة منه، إذ سيهلكون بدون هذه الحجارة، فالظاهر ما ذهب إليه بعض العلماء من أن هذه الحجارة ضربت بيوتهم حتى هدمتها فصار أعلاها أسفلها.

وقولهم: إن القرى سبع. ظاهر القرآن أنها قرية واحدة قال الله ـ تعالى ـ عن الملائكة الذين أرسلوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾، [العنكبوت:٣١] وفي قوله: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ دليل على أن التدمير كان بعد أن نُجِّيَ لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو كذلك، فإن لوطًا لما فارق هذه القرى وأهله نزل بهم العذاب، ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [على آثارهم ومنازلهم في أسفاركم] ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ الخطاب في هذه الآية الكريمة قال المؤلف: [إنه لأهل مكة]، ويمكن أن يقال: إنه عام لكل من يمر بقراهم إلى يوم القيامة؛ لأن هذا القرآن للأمة إلى يوم القيامة ﴿لَتَمُرُّونَ﴾ أكد المرور بمؤكدين: (إن) و (اللام).

فإن قال قائل: لماذا أكده بمؤكدين مع أنهم لا ينكرون أنهم يمرون؟

قيل: الجواب على ذلك، أن استمرارهم في تكذيب الرسول ﷺ مع أنهم يمرون على ديار الذين أهلكوا يشبه المنكر والمكذب، فنزلوا منزلة المنكر المكذب؛ لأنهم لم يعتبروا، ولم ينتفعوا بهذا المرور، فهو كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون:١٥]. فالموت لا ينكر، فكل يقر

بالموت، لكن العاصي فعله فعل المنكر؛ لأنه لم يرتدع ولم يقم بما يجب عليه.

وقوله: ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ حال، وأوَّل المؤلف ـ رحمه الله ـ الإصباح هنا إلى النهار، فيكون من باب التعبير بالبعض عن الكل، ولكن قد ينازع في ذلك، ويقال: إن الناس يمرون عليهم مصبحين؛ لأن أكثر سير الناس في السفر يكون في الليل وفي أول النهار، ولهذا قال النبي ﷺ: «اسْتَعِينُوا بِالغَدْوَةِ والرَّوْحَةِ وَشَيءٍ مِنَ الدُّلْجَة، والقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا»[١] والغدوة أول النهار، والروحة آخر النهار، فوسط النهار يكون المسافر نازلاً للراحة «وَشَيءٍ مِنَ الدُّلْجَة» يعني أول الليل وفي آخر الليل يكون مستريحًا «والقصد القصد تبلغوا» يعني لا ترهقوا أنفسكم فتعجزوا «إِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى».

فالأولى إبقاء الآية على ظاهرها وأنهم يمرون عليهم في الصباح أول النهار حين يكون السير أطيب ﴿وَبِالَّيْلِ﴾ قال النحويون: إن الباء هنا بمعنى (في) فتكون للظرفية، و (في) تأتي بمعنى الباء فتكون للسببية مثل قوله ﷺ: «دَخَلَتْ النَّارَ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ»[٢] ففي هنا بمعنى الباء، أي: بسبب هرة.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول، والمراد بالعقول هنا عقول الرشد لا عقول الإدراك؛ لأن عقل الإدراك موجود عند هؤلاء، وهم في الإدراك عقلاء أذكياء، ولكن عقول الرشد غير موجودة عندهم؛ لأن كل شخص يكفر بالله أو يعصي الله فإنه لا عقل عنده، لكن إن كان كافرًا فقد انتفى عنه العقل بالكلية، وإن كان عاصيًا فقد انتفى عنه من العقل بقدر معصيته.

والاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للتوبيخ؛ لأن شخصًا يمر على ديار المكذبين ويرى آثارهم ولا يتعظ يستحق أن يوبخ، و (الفاء) هنا حرف عطف، والمعطوف عليه قيل: على ما سبق أي على: ﴿لَتَمُرُّونَ﴾ وعلى هذا الوجه تكون الهمزة في غير محلها، أي أن الفاء تقدر قبل الهمزة فيكون التقدير: «إنكم لتمرون عليهم أفلا تعقلون».

وقيل: إن الهمزة مدخولها محذوف والتقدير: أسفهتم أو جهلتهم أو ما أشبه ذلك مما يقتضيه المعنى، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف.

وقد سبق لنا أن القول بأنها معطوفة على ما سبق أسهل؛ لأنه أحيانًا يصعب عليك أو يتعذر أن تدرك المعنى المناسب الذي يمكن أن يكون معطوفًا عليه، فلهذا نقول: إن القول بأنها معطوفة على ما سبق على تقدير تأخير الهمزة الأولى.

مسألة: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ ألا يدل أنهم قلبوا ثم أتبعوا بالحجارة؟

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٦٣) واللفظ له، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٢٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢).

الجواب: لو كان العطف بـ (ثمَّ) لكان يدل على ذلك، لما أمطروا بالحجارة تهدمت بيوتهم فصار عاليها سافلها؟ ولكن العطف هنا بالواو، والواو لا تفيد الترتيب.

مسألة: أين مكان قرى لوط؟

الجواب: يقال: إن البحر الميت هو محل قرية قوم لوط.

مسألة: إذا كانت قرية قوم لوط البحر الميت فكيف تمر عليهم قريش؟

الجواب: يقولون: إنهم في ذهابهم إلى الشام يمرون عليهم.

مسألة: كيف يمرون على البحر هل هم في سفينة؟

الجواب: يمرون عليهم أي: من عندهم في البر لا في السفينة.

الفوائد:

١ - أن لوطًا - عليه الصلاة والسلام - كان من الرسل، وقد مر علينا في التفسير أنه أرسل إلى قوم يأتون الفاحشة، وهي إتيان الذكران من العالمين، ويتركون ما خلق الله - عَزَّ وَجَلَّ - لهم من الأزواج.

٢ - **ومن الفوائد:** عناية الرب - عَزَّ وَجَلَّ - بالقضاء على سفاسف الأخلاق؛ لأن فاحشتهم هذه أوجبت أن يرسل الله إليهم رسولاً لدحضها والقضاء عليها.

٣ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ أن الله - سبحانه وتعالى - ينجي الذين اتقوا بمفازتهم، وأن الله نجى لوطًا وأهله إلا امرأته، ويتفرع على ذلك: أنه ينبغي للإنسان المؤمن أن يغلب جانب الرجاء إذا كان قد قام بحق الله - تعالى -، وذلك حيث نجَّى الله - سبحانه وتعالى - المؤمنين المخلصين من عباده من عقوبة المكذبين المستكبرين.

٤ - **ومن الفوائد:** أنه قد تكون المرأة الكافرة تحت الرجل المؤمن من غير أن يعلم بها ؛ لقوله: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وقد بيَّن الله سبب ذلك، أي: سبب وقوع العذاب عليها بأنها كانت قد خانت زوجها بالكفر من غير أن يعلم، ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي للإنسان أن يتفقد أهله، وأن يتحرى، وأن يسبر أمورهم.

٥ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾: التحذير من أن يفعل الإنسان كفعل هؤلاء فيدمر، وتدمير قوم لوط حسي، ولكن ربما يدمر من شابههم تدميرًا معنويًا، وقد يدمر تدميرًا حسيًا، فيرسل الله - مثلاً - عليهم الصواعق والبرد وغير ذلك مما يدمرهم، لكن التدمير المعنوي محقق، وذلك بانقلاب الذكور إناثًا؛ لأن هؤلاء المفعول بهم - والعياذ بالله - يكونون كالمرأة تمامًا هو نفسه يطلب الرجال ويتتبعهم، لعلهم يفعلون به - والعياذ بالله - ؛ لأنه انقلب وصار كالمرأة تمامًا، ولا شك أن هذا تدمير للرجولة وقلب للمجتمع.

٦ - **ومن وفوائد قوله تعالى:** ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾: الإشارة إلى أن الإنسان إذا رأى

الشيء بعينه كان ذلك أقوى يقينًا، مما إذا أخبر به ؛ لقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ وتشاهدون آثارهم، وهذا يسمى حق اليقين، والخبر به يسمى علم اليقين.

٧ ـ قد يقال إن قوله: ﴿وَبِالَّيْلِ﴾ إشارة على أن السير في الصباح أحسن منه في آخر النهار؛ لقوله: ﴿مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ﴾ هذا إن قلنا: إن المراد بالإصباح الوقت الخاص وهو أول النهار، أما إذا قلنا: إن المراد بالإصباح كل النهار وأنه عبر بالبعض عن الكل، كما أشار إليه المؤلف فليس في ذلك دليل.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** جواز المسير بالليل. ووجه ذلك أن الله أقرهم فقال: ﴿وَبِالَّيْلِ﴾ ولكن هذه الفائدة فيها نظر؛ لأن الله يتحدث عن فعل هؤلاء المكذبين، فقد يقال: إن المراد بيان إقامة الحجة لا إقرارهم، ولكن السنة قد دلت على جواز المشي بالليل.

٩ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** النداء على من لم يتعظ بالسفة وعدم العقل ؛ لقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

١٠ ـ **ومن فوائدها:** أن العقل حقيقة هو ما أرشد صاحبه إلى فعل الخير وترك الشر، وليس العقل هو الذكاء، فالعقل شيء، والذكاء شيء آخر، وكل من كان مكذبًا للرسل مستكبرًا عما جاءوا به فإنه ليس بعاقل، حتى وإن كان من أدهى الناس، فالإنسان المكذب للرسل المستكبر عما جاءوا به ليس بعاقل وإن كان ذكيًا حتى وإن كان ذا شرف وجاه، فإنه ليس بعاقل؛ لقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وقد قال الله مثل هذا في بني إسرائيل الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ والله الموفق.



قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هذه الجملة مؤكدة بمؤكدين:

الأول: إن. **والثاني**: اللام.

وسبب التأكيد أن إثبات الرسالة أمر ينكره كثير من الناس، والشيء الذي ينكر يجب أن يؤكد بما يدل على ثبوته، سواء كان ذلك عن طريق التأكيد اللفظي بأدوات مؤكدات، أو عن طريق التأكيد المعنوي بذكر الآيات والشواهد الدالة على ثبوته، والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - قد ثبتت رسالتهم: أي بالتوكيد اللفظي والتوكيد المعنوي، فأيدهم الله - تعالى - بالآيات الكونية والشرعية، وأيد الله رسالتهم بالمؤكدات اللفظية، كما في هذه الآية.

﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: لمن القوم الذين أرسلهم الله - تعالى - إلى عبادة، ولم يبين إلى من أرسلوا، لكن قد ذكر في آيات أخرى أنه أرسل إلى قومه، وكذلك صح عن رسول الله ﷺ أن كل نبي يبعث إلى قومه خاصة إلا النبي ﷺ فإنه بعث إلى الناس عامة، ويونس - عليه الصلاة والسلام - هو أحد أنبياء بني إسرائيل، أرسله الله - تعالى - إلى قومه، وسيأتي - إن شاء الله - تعالى - بيان قصته هنا.

وقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [هرب ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾: السفينة المملوءة حين غاضب قومه] ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ يحتمل أن تكون ﴿إِذْ﴾ متعلقة بالمرسلين، أي: لمن المرسلين في هذه الحال، أي أن إيباقه لم يسلبه الرسالة، ويحتمل أنها متعلقة بمحذوف؛ لأنه لما أثبت رسالته بين حالاً من حالاته وهو إيباقه - عليه الصلاة والسلام -، وعلى هذا فنقول: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ ليست متعلقة بالمرسلين؛ لأن رسالته كانت قبل أن يأبق، لكنها متعلقة بمحذوف، التقدير، اذكر إذ أبق، والإيباق هو الهرب، وكأنه - عليه الصلاة والسلام - خرج مسرعًا؛ لأنه خرج مغاضبًا لقومه حين لم يؤمنوا ولم ينزل بهم العذاب.

قال: [﴿ٱلْفُلْكِ﴾ يعني: السفينة وهي مراكب الماء]، وقد أنعم الله على العباد بالفلك تجري في البحر بأمره، تحمل الأرزاق من جهة إلى جهة، وامتن الله بها على العباد وعظمت منته في عصرنا الحاضر، فإن الفلك في عصرنا الحاضر ليس كالفلك فيما سبق، فالفلك كان على الشراعات والهواء، وكان له معوقات وفيه مخاطر عظيمة.

أما الفلك الآن فعلى العكس من ذلك، ومنَّ الله - أيضًا - بالفلك على عباده في عصرنا الحاضر بأن تنوعت هذه الفلك فصارت فلكًا مائيًا، وفلكًا بريًّا، وفلكًا هوائيًا، فالهوائي الطائرات، والبري السيارات، والمائي السفن، وكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا

كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف:١٢، ١٣].

﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ يعني: المملوء من الركاب، فركب البحر مغاضبًا لقومه لما لم ينزل بهم العذاب الذي وعدهم به، فركب السفينة فوقفت في لجة البحر، فقال الملاحون: هنا عبد أبق من سيده تظهره القرعة، هكذا قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: إن السفينة وقفت في لجة البحر، وأن وقوفها كان بسبب إيباق يونس. [فقال الملاحون وهم قواد السفينة: هنا عبد أبق من سيده تظهره القرعة]، ولكن ما ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ ليس عليه دليل، وهو من الإسرائيليات البعيدة، بل إن هذه السفينة المشحونة لما كانت في عرض البحر وهي مملوءة وصارت في لجة البحر ثقل الحمل، وإذا ثقل الحمل فلابد من أحد أمرين: إما أن يخفف الحمل، وإما أن يغرق الجميع، ولا شك أن تخفيف الحمل أولى من غرق الجميع؛ لأنه إذا خفف الحمل نجا من بقي، وإذا بقي الحمل على ما هو عليه غرق الجميع، وبقاء البعض أولى من هلاك الكل، وهذا أمر عقلي، فاقترعوا إذ ليس إلقاء بعضهم في البحر أولى من إلقاء الآخر، فلا سبيل حينئذ إلى التخلص من هذه المشكلة إلا بالقرعة، فاقترعوا ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ اقترعوا أيهم الذي يلقي.

ومن المعلوم أننا إذا علمنا من يلقى علمنا من يبقى، ولهذا قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [ساهم أي: قارع أهل السفينة ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ المغلوبين بالقرعة فألقوه في البحر].

وظاهر صنيع المؤلف ـ رحمه الله ـ أنه لم يلق أحد سوى يونس، ولكن الآية تدل على خلاف ما يدل عليه كلام المؤلف؛ لأنه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ (من) هنا للتبعيض أي: بعضًا منهم، وهذا يدل على أن القرعة أصابته وأصابت غيره أيضًا، فالمسألة ـ الآن ـ واضحة فالفلك كان مملوءًا، ولابد أن يغرق إلا أن يلقى بعض ركابه، وإلقاء بعض الركاب أولى من هلاك الجميع.

ولا سبيل إلى إلقاء البعض على التعيين؛ لأننا لو عينا أحدًا دون أحد كان في ذلك ظلم، وامتنع من عيناه، وصار في هذا خصومة، وربما غرقت السفينة في أثناء هذه الخصومة، إذن فالطريق إلى تعيين من يلقي هو القرعة، فاقترعوا فأصابت القرعة قومًا ونجا منها قوم، وكان يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ من جملة الذين أصابتهم القرعة، فكان من المدحضين فألقي في البحر، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ ابتلعه ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [آيات بما يلام عليه من ذهابه إلى البحر وركوبه السفينة بلا إذن من ربه].

التقمه الحوت التقامًا ولم يمضغه؛ لأنه لو مضغه لتكسر وهلك، لكن الله ـ تعالى ـ سخر له هذا الحوت فالتقمه التقامًا وابتلعه حتى وصل إلى مقر بطنه دون أن يصيبه أذى.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ الجملة هنا في موضع نصب على الحال من الهاء في قوله: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ﴾ لا من الفاعل في التقمه؛ لأن الفاعل الحوت، والحوت ليس بمليم، بل المليم الملتقَم ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ

﴿مُلِيمٌ﴾ أي: يونس ومعنى (مليم): آت بما يلام عليه، كما يقال: (منجد) لمن دخل نجدًا مثلا، فمفعل قد تأتي بمعنى التلبس بالشيء، فالمليم هو الذي فعل ما يلام عليه، والذي يلام عليه أنه خرج من قومه مغاضبًا لهم قبل أن يأذن الله له، وكان الواجب أن يصبر، ولهذا قال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٤٨ - ٥٠].

فيونس - عليه الصلاة والسلام - التقمه الحوت في حال يلام عليها، ووجه ذلك أنه خرج مغاضبًا من عند قومه بدون إذن من ربه - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

(لولا) ترد كثيرًا في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية، وفي كلام الناس وهي ثلاث أدوات: (لو) و (لما) و (لولا):

لو حرف امتناع لامتناع: لو جاء زيد لأكرمته، فالممتنع الإكرام لامتناع وجوده.

ولما حرف وجود لوجود، لما جاء زيد أكرمته، فالذي وجد الإكرام لوجود المجيء.

ولولا حرف امتناع لوجود تقول: لولا مجيء زيد لأكرمت فلانًا. فالذي امتنع إكرام فلان لوجود مجيء زيد.

وهنا: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ﴾ الذي امتنع اللبث لوجود التسبيح، لولا أنه أي: يونس ﴿كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [الذاكرين بقوله كثيرًا في بطن الحوت ﴿أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

يعني لولا أنه أنه كان من المسبحين بهذا بهذا اللفظ أو بغيره، وهذا أولى أن نقول: بهذا اللفظ أو بغيره، أي: كان ممن يسبح الله - عَزَّ وَجَلَّ - .

إما قبل أن يلتقمه الحوت، أو في أثناء وجوده في بطن الحوت لولا هذا ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ﴾ أي: في بطن الحوت ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لصار بطن الحوت قبرًا له إلى يوم القيامة.

ولكن لوجود التسبيح السابق أنجاه الله - سبحانه وتعالى - ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ النبذ بمعنى الطرح والإلقاء، وهنا قال، ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ بصيغة الجمع مع أن النابذ واحد، ولكن أتى بصيغة الجمع من باب التعظيم، وذلك لكمال صفاته وكثرة صفاته عظم نفسه، ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [أي: ألقيناه من بطن الحوت بالعراء بوجه الأرض أي: بالساحل من يومه، أو بعد ثلاثة، أو سبعة أيام، أو عشرين، أو أربعين يومًا].

(العراء) وجه الأرض، والمراد به وجه الأرض الذي ليس فيه ما يظل من شجر ولا بناء، وسمي عراء لعروه عما يكسوه من الأشجار والبناء، فبقي - عليه الصلاة والسلام - على الساحل ليس عنده بناء ولا أشجار تظلة بل عراء، ولكن الله - سبحانه وتعالى - لطف به؛ لأن رحمة الله

سبقت غضبه. ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧] وأما قول المؤلف: [إنه من يومه، أو بعد ثلاثة، أو سبعة، أو عشرين، أو أربعين يومًا] فهذه أقاويل وكلها ليس عليها دليل، لكن لا شك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أبقاه في بطن الحوت ما شاء الله أن يبقى، وأما تعيين ذلك فلابد فيه من دليل عمن قوله حجة وهو الرسول ﷺ وما عدا ذلك في مثل هذه الأمور فإنها لا تقبل.

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [عليل كالفرخ الممعط]، قوله: عليل تفسير للسقيم، والسقم بمعنى: المرض والعلة، وأما كونه كالفرخ الممعط، يعني: المنتوف شعره، فهذا ليس في الآية ما يدل عليه، لكن لا شك أن المريض يكون ضعيف البدن وليس عنده قدرة على مقاومة الشمس والهواء، وقوله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ يدل بظاهره على أن يونس بقي في بطن الحوت مدة أدت إلى سقمه.

وقوله: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ﴾ ولم يقل: (أنبتنا له)؛ لأنه بحاجة إلى ظل، فأنبت الله عليه ظلاً، ﴿شَجَرَةً مِّن يَقۡطِينٍ﴾، (من) لبيان الجنس، كما يقال: خاتم من حديد، واليقطين هو: القرع، والقرع أنواع منها قرع يسمى عندنا (قرع نجد) هذا له شجر، وأشجاره لينة كالإِبْرَيْسَم ويقال: إنه لا يقع عليه الذباب.

النوع الثاني: من القرع فهو قرع ورقه خشن، حتى إن الإنسان إذا لمسه بيده يحس بالخشونة، والظاهر أن الذي أنبت الله عليه من النوع الأول اللين الذي يكون كالإبريسم، وهو ـ أيضًا ـ بارد الظل، فأنبت الله عليه هذه الشجرة، وأما قول المؤلف: [تظله بساقٍ على خلاف العادة] فهذا يحتاج إلى دليل، لكن لا شك أن الله أنبت عليه شجرة تظله، ولابد أن يكون لها نوع من الارتفاع، قال ـ رحمه الله ـ: [وكانت تأتيه وعلة صباحًا ومساء يشرب من لبنها حتى قوي].

الوعلة: الأنثى من الظباء يعني أنثى الأوعال، فكانت تأتيه ويشرب من لبنها حتى قوي.

وهذا الخبر يحتاج إلى دليل عن المعصوم، وليس فيه دليل عن رسول الله ﷺ، فهو خبر إسرائيلي نتوقف فيه لا نصدق ولا نكذب، إن كان الله ـ تعالى ـ قيض له ذلك، فالله على كل شيء قدير، وهذا سبب حسي؛ لأن الإنسان يحتاج إلى غذاء، وإن كان الله ـ تعالى ـ قد قواه على تحمل الجوع والعطش، فهذا أيضًا ليس ببعيد، وحينئذ نجعل الآية فيه: أن الله قواه على خلاف العادة.

أما إذا جعلناها وعلة فهنا يكون بقاؤه وتغذيته على حسب العادة من وجه، ومعجزة من وجه آخر، حسب العادة، حيث تغذي باللبن كغيره من البشر، وعلى خلاف العادة حيث قيض الله له هذه الوعلة التي ليست من جنسه، تأتي حتى يشرب من لبنها، لكن إذا قلنا: إن الله قوَّاه على تحمل الجوع والعطش صار هذا آية محضة، وليس هذا ببعيد، فإن النبي ﷺ لما نهى عن الوصال قالوا: يا رسول الله إنك تواصل، والوصال يعني أن يقرن الصائم بين يومين لا يفطر بينهما، قال: «إِنِّي

لَسْتُ كَهَيْئَتِكُم إِنِّي يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي»[١] يعني بلا أكل ولا شرب، ومع ذلك يكتفي بما أودع الله في قلبه من محبة الله وذكره عن الغذاء الجسدي، أي: يكتفي بالغذاء الروحي عن الغذاء الجسدي، فالله على كل شيء قدير، ونظير هذا من بعض الوجوه أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠] فهنا لم يذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ كيف نصره على قريش وهو في الغار، فعلى أي: شيء يحمل؟ وردت أحاديث ضعيفة بأنه عششت عليه العنكبوت، وأنه صار على فم الغار حمامة، وأن الله أنبت شجرة تحجز رؤية المشركين للرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فهذه الثلاث أمور حسية تمنع من رؤية النبي ﷺ وصاحبه في الغار، ولكن وجودها في هذا الوقت آية، فالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنبت هذه الشجرة، وسخر هذه الحمامة لتقف على باب الغار، وسخر العنكبوت لتنسج على بابه، وهذه آية لا شك، ولكن هناك آية أعظم من هذا، وهي آية محضة، وهي أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أعمى أبصارهم عن رؤية النبي ﷺ وصاحبه؛ لأنهم وقفوا على الغار على أقدامهم حتى قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: «لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُم إِلَى قَدَمِهِ لَأَبْصَرَنا»[٢] كما صح ذلك عند البخاري ومسلم وغيرهما، وهذا مما يدل على ضعف قصة العنكبوت والحمامة والشجرة؛ لأن هذا الثاني أبلغ آية من الأول، وكلام أبي بكر رضي الله عنه يدل على أنه ليس هناك حاجز حسي يمنع من الرؤيا لا شجرة ولا عش عنكبوت، وليس هناك ما يبعد أن يوجد في الغار أحد من وقوع الحمامة على بابه، والحمامة قد تقع على باب الحجرة ولو كان فيها أحد ـ كما هو مشاهد كثير.

فالحاصل أن بعض الناس يأتون بمثل هذه البينات ولا يفكرون بأنها تضعف جانب الآية؛ لأن كون الآية أن الله أعمى أبصار قريش عن رؤية الرسول ﷺ مع أنهم واقفون على الغار أبلغ بكثير من نسيج العنكبوت، أو الشجرة، أو الحمامة، وأحسن هذه الروايات من حيث السند نسج العنكبوت ومع ذلك فهو ضعيف، وإذا كان ضعيف السند وشاذ المتن لمخالفته ما جاء في الصحيحين فإنه لا يكون مقبولاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أي: أرسله الله ـ تعالى ـ بعد ذلك إلى قومه، وأتم رسالته إلى مئة ألف، وقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ اختلف العلماء هنا:

فقيل: إن (أو) بمعنى بل، كما قاله المؤلف: [بل يزيدون عشرين، أو ثلاثين، أو سبعين] وتعيين الزيادة بعشرين أو ثلاثين أو سبعين ألفًا لا دليل عليه، ولا يمكن أن تكون الزيادة سبعين ألفًا؛ لأنه لو كانت الزيادة سبعين ألفًا ما صح أن يقال: مئة ألف أو يزيدون، بل يقال: إلى مئة وسبعين

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٢٢)، ومسلم (١١٠٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

ألفًا؛ لأن الفارق بين العدد الأول والثاني كثير، فعلى كلام المؤلف يكون الله ـ تعالى ـ أرسله إلى أكثر من مئة ألف وتكون (أو) هنا بمعنى (بل)، والمراد ببل التي كانت (أو) بمعناها الإضراب الانتقالي، وليس الإضراب الإبطالي.

وذهب بعض العلماء إلى أن (أو) هنا للتحقيق، وليست للإضراب، أي إن لم يزيدوا على مئة ألف، لم ينقصوا، فكأن ما بعد (أو) لتأكيد ما قبلها، وليس للزيادة عليه، كما لو سألك سائل عن قوم: كم عددهم؟ فقلت: مئة ألف أو أكثر.

يعني: أنهم إن لم يزيدوا لم ينقصوا، وليس المراد إثبات الأكثرية أو الزيادة على هذا العدد، بل المراد تأكيد هذا العدد.

وعلى هذا تكون (أو) هنا إما بمعنى (بل) وإما للتحقيق، أي: تحقيق العدد السابق.

فعلى القول الأول يكون المرسل إليهم زائدين على مئة ألف، وعلى الثاني يكون المرسل إليهم مئة ألف، لكن أكد ذلك بقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

وقوله: ﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: أبقيناهم إلى حين، وهذا الحين هو وقت آجالهم التي قدرها الله لهم، يعني أنهم لم يهلكوا بهذا العذاب الذي أصابهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨].

في هذه الآيات فوائد:

١ ـ إثبات رسالة يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويتفرع على هذه الفائدة: وجوب الإيمان به رسولاً من عند الله.

٢ ـ **ومن فوائدها:** الثناء على يونس؛ لقوله: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ لأنه لا شك أن مقام الرسالة أعلى مقامات البشر، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩] وهذا الذي عليه أمة الإسلام: أن مقام الرسالة أفضل من كل مقام، وأنها أعلى مقامات البشر خلافًا لمن زعم أن أعلى مقامات البشر الولاية ثم النبوة ثم الرسالة، وقال في ذلك بعض الصوفية قولاً منكرًا، فقال: «مقام النبوة في برزخ، فويق الرسول ودون الولي»، فالولي أعلى شيء، ولقد كذبوا في ذلك، فمقام الرسالة أعلى المقامات، وكل رسول فهو ولي، ولا عكس، ثم النبوة ثم الولاية.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا يجوز القدح في يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أجل ما حصل منه من عدم الصبر، فإن الله قال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم:٤٨] لكنه لا يجوز أن نقدح فيه لذلك؛ لأنه أحد الرسل، والقدح بالرسل كفر، بل إن النبي

ﷺ قال: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِن يُونُسَ بنِ مَتَّى»(١)؛ لئلا يؤدي تفضيل الرسول ﷺ إلى احتقار يونس - عليه الصلاة والسلام -.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات جماعة الرسل؛ لقوله: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ويقول الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤] أي: ما من أمة من الأمم إلا جاءها رسول تقوم به عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

٥ - **ومن فوائد الآيات:** أن مقام النبوة لا يمنع من فعل بعض ما لا يكون محبوبًا إلى الله، أي أن الرسول قد يفعل بعض المعاصي، أو يقوم بشيء لم يؤمر به، دليل ذلك قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ والإيباق هرب العبد من سيده، والعبد إذا أبق من سيده فقد هرب منه تمردًا عليه، ولكن لا شك أن هذا الوصف إنما ينطبق على العبد المملوك للبشر لا على يونس - عليه الصلاة والسلام -، لكن الله عبر عن خروجه بالإيباق؛ لأنه خروجٌ لم يؤمر به، وهذه المسألة أعني مسألة عصمة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - محل خلاف طويل عريض بين العلماء - وقد سبق لنا في غير هذه الموضع بيان ذلك على وجه التفصيل - فذكرنا أنهم معصومون من كل ما يخدش الرسالة وينافي الرسالة مثل: الكذب والخيانة والشرك وما أشبه هذا، فهذا معصومون منه قطعًا؛ لأنهم إنما جاءوا لهدم الشرك، ولا يمكن أن يصدر منهم الكذب والخيانة؛ لأن هذا يؤدي إلى الشك فيما جاءوا به.

وثانيًا: هم معصومون أيضًا من كل ما يخل بالشرف، كالسرقة وشبهها مما يعد دناءة وخسة، وذلك؛ لأن النبوة أعلى مقامات البشر، فلا ينبغي أن يتخلق من اتصفوا بها بأرذل أخلاق البشر.

ثالثًا: أنهم معصومون من الاستمرار في المعصية، ولا يمكن أن يقروا عليها، بل لابد أن ينبهوا عليها ويحصل منهم التوبة بخلاف غيرهم من الناس فإنهم قد يفعلون المعصية، ويقرون عليها ولا يوفقون للتوبة منها.

وأما القول بأنه لا ذنوب لهم مطلقًا، فهذا قول يخالف الكتاب والسنة، فإن الله - تعالى - قال في كتابه لأشرف الرسل - عليه الصلاة والسلام -: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩] وقال له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:١ - ٢] وكان النبي ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِر لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجُلَّهُ، عَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ، وَأَوْلَهُ وَآخِرَه»(٢) وكل هذا صريح في أن الرسول ﷺ قد يقع منه الذنب، ولكن الشأن كل الشأن أنه لا يقر عليه.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٩٦)، ومسلم (١٦٥).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨١٦)، وأبو داود (٨٧٨).

٦ ـ **ومن فوائدها:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد ييسر للعبد ما لا يكون له في الحسبان، وذلك من قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ حيث قدر له أن يركب هذا الفلك المملوء من أجل الغاية التي أرادها الله، وهي أن يلتقمه الحوت ويغيبه ويضيق عليه حتى يتبين له أنه لا مفر من قدر الله، كما قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

٧ ـ **ومن فوائدها:** جواز المساهمة يعني: القرعة ؛ لقوله: ﴿فَسَاهَمَ﴾ فإن قال قائل: هذا من شرع من قبلنا، فالجواب، أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، فكيف وقد ورد شرعنا بوفاقه، فإن النبي ﷺ كان إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيهما خرج سهمها خرج بها[(١)]، إذن: يستفاد منه جواز المساهمة يعني: القرعة.

فإن قال قائل: المساهمة فيها خطر فهي ميسر؛ لأن الإنسان قد يكون غانمًا وقد يكون غارمًا.

فالجواب على ذلك من أحد وجهين:

الأول: المنع بأن نقول: إن الإنسان لا يمكن في القرعة أن يكون غانمًا أو غارمًا، بل هو إما غانم وإما سالم.

الثاني: التسليم بأنها فيها غرر، لكن الضرورة دعت إليها، إذ لا يمكن التوصل إلى التمييز بين المشتركين في حق من الحقوق إلا بالقرعة؛ ولذلك إذا أمكن التمييز بينهما بغير القرعة فإنه يجب التمييز بينهما بدون القرعة.

فمثلاً أقرع النبي ﷺ بين زوجاته إذا أراد السفر؛ لأنه لا يمكن أن يذهب بهن جميعًا؛ لأنه لو أمكن لذهب بهن جميعًا، إذن لابد أن نميز من الذي يستحق أن يخرج، فهنَّ متساويات في الحقوق، ولا سبيل إلى التعيين إلا بالقرعة، فإذا خرجت القرعة لواحدة فالباقيات لم يغرمن من شيئًا، غاية ما هنالك أنه فإتهنَّ ما يرغبن فقط، ولهذا إذا خرجت القرعة عن هذا إلى الميسر صارت حرامًا.

مثال ذلك: أراد اثنان مشتركان في قمح أن يقتسما القمح بينهما وهما شريكان بقدر النصف كل واحد له نصف، فقسم القمح أثلاثًا، أي: جعل ثلثان في جهة وثلث في جهة أخرى، وأرادوا القرعة أيها يأخذ الثلثين فالقرعة هنا حرام؛ لأن أحدهما إما غانم وإما غارم، إما أن يأتيه أكثر من حقه، وإما أن ينقص حقه، فهذه تكون حرامًا؛ لأنها صارت ميسرًا، وإذا قسمنا القمح نصفين، وأردنا أن نميز كل واحد في حقه فما هو الطريق إذا لم يتنازل أحدهما للآخر ويخيره؟ فلا طريق لنا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٥٩٤)، ومسلم (٢٤٤٥).

إلى التمييز بينهما إلا بالقرعة وقد ذكرت القرعة في القرآن في سورة آل عمران، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران:٤٤].

٨ - **من فوائد الآية الكريمة:** أنه ليس للمساهمة طريق معين فيسلك فيها ما يحصل به التميز: إما بكتب رقاع، أو بأحجار، أو بلفائف خرق أو بأي: طريق؛ لأن المساهمة وردت في النصوص، ولم تعين طريقًا خاصًّا لها، فأي: طريق توصلنا به إليها جاز.

٩ - **من فوائدها:** ارتكاب أدنى الضررين؛ لدفع أعلاهما، ووجه ذلك: أن هذه القرعة سيكون فيها هلاك بعض الركاب وهو أهون من هلاك الجميع، إذن فالواجب إذا كان لابد من الضررين ارتكاب الأدنى؛ لأن ارتكاب الأدنى يسقط عنا ارتكاب المفسدة الزائدة، واجتناب المفسدة الزائدة واجب، ولهذا نقول: يجب ارتكاب أدنى الضررين لدفع أعلاهما.

١٠ - **وفي هذه الآيات:** دليل على العمل بمثل هذه القضية يعني لو كان الناس في مركب، وكان المركب مشحونًا وكان لابد من إلقاء بعض الركاب أو هلاك الجميع، فإنه يجوز أن يلقى بعض الركاب لكن عن طريق القرعة، ليبقى البقية.

فإن قال قائل: كيف نلقي هذا الرجل في البحر في الهلاك؟ وهل هذا إلا قتل نفس، فما الجواب؟

فالجواب: نعم هو قتل نفس لكن لإبقاء نفوس، وأي: ما أولى أن يقتل الجميع، أو أن ينجو البعض، الثاني بلا شك أولى، وهذا أمر لابد منه؛ لأننا لو أبقينا الجميع لكنا تسببنا لهلاك الجميع، وكوننا نتسبب لهلاك البعض أهون من كوننا نتسبب لهلاك الجميع، لكن هذا بشرط ألا يكون هناك احتمال ولو ضعيفًا بالنجاة، فإذا كان هناك احتمال فإنه لا يجوز ارتكاب مثل هذا، وإذا كانت الفلك مشحونة بأمتعة وأطعمة وأغنام وآدميين، فنبدأ بإلقاء بالأمتعة الشيء الذي ليس فيه روح، فإن أمنا، وإلا ألقينا الأطعمة، فإن أمنا وإلا ألقينا الحيوان، فإن أمنا وإلا أقرعنا بين البشر.

١١ - **من فوائدها:** حصول آية من آيات الله - عَزَّ وَجَلَّ - وذلك بتسخير هذا الحوت ليونس حتى التقمه بدون مضغ، ولا شك أن هذا من آيات الله؛ لأن مثل هذا بعيد في العادة؛ لأن العادة أنه يمضغ، لكن هذا التقمه جميعًا، لم يُكسر له عظم ولم يُهشم له شيء من أضلاعه أو غيرها.

١٢ - **ومن فوائدها:** حب الإعذار من الله - عَزَّ وَجَلَّ - ، وأنه يحب الإعذار من خلقه، أي: إقامة العذر لما فعله - عَزَّ وَجَلَّ - حتى لا ينسب فعله للظلم وللسفه، وتؤخذ من قوله: ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ يعني: ليس في حال لا يلام عليها، حتى يقال: إن في هذا ظلمًا له أو سفهًا في حقه،

بل التقمه الحوت في حال هو مستحق فيها لذلك، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

١٣ ـ **ومن فوائدها:** أن الأنبياء قد يأتون ما يلامون عليه، ولكن ييسر لهم الخروج من ذلك؛ لقوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

١٤ ـ **ومن فوائدها:** أن الطاعات السابقة تكون سببًا للنجاة من المهلكات اللاحقة؛ لقوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فيكون في هذا شاهد لقول النبي ﷺ: «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»[1].

وهذا كما أنه مقتضى النصوص القولية فهو مقتضى النصوص الحالية، فإن أصحاب الغار الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار نفعهم الله ـ تعالى ـ بما سبق من أعمالهم الصالحة[2]، فأنت إذا عملت عملاً صالحًا، فإن هذا العمل قد يكون سببًا لنجاتك من مكاره عظيمة، «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»، وهنا قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

١٥ ـ **ومن فوائدها:** أنه لو بقي في بطنه لكان فيه آية من آيات الله، أن يبقى هذا الحوت من ذلك الوقت إلى يوم القيامة؛ لأن هذا ظاهر اللفظ أنه يبقى في بطنه إلى البعث.

١٦ ـ **ومن فوائدها:** أن أفعال المخلوقات تنسب إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ تقديرًا وقضاء، وتنسب إلى العامل مباشرة وكسبًا وتؤخذ من قوله: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾؛ لأنه من المعلوم أن الذي لفظه هو الحوت، ومع ذلك لا نجزم بهذا؛ لأنه ربما أن الحوت لفظة، ويسر الله له من الريح ما يحمله إلى أن يصل إلى الأرض اليابسة، ويحتمل أن الحوت لفظة في الأرض اليابسة ـ والله أعلم ـ، المهم أن الله يسر له من أسباب الوصول إلى الأرض اليابسة ما أوصله إليها.

١٧ ـ **ومن فوائدها:** أن الإنسان لا ينبغي له أن ييأس من الشفاء ولو بلغ به من المرض ما بلغ؛ لقوله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ فهذا الرجل السقيم الذي بقي في بطن الحوت ـ ما شاء الله ـ وخرج سقيمًا عافاه الله وشفاه فلا تيأس من رحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما يصيبك من المرض، فإن الله قد ييسر لك ما يكون سببًا لشفائك.

١٨ ـ **ومن فوائدها:** إثبات تأثير الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾؛ لأن هذه الشجرة تظله وتبرد عليه وهي ـ كما أسلفنا ـ لينة الملمس، ويقال: إن الذباب لا يقع عليها، والله قادر على أن يظله بغمامة، وقادر على أن يبقيه في الشمس في العراء، ولا يتأثر، لكن الله

---

(١) صحيح: صححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٩٦١).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣).

ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يبين لعباده أن الأشياء تكون بأسبابها، ومرّ علينا في أصول الفقه بيان أن الأسباب مؤثرة، لكن لا بنفسها ولكن بما أودعه بها من أسباب التأثير

١٩ ـ ومن فوائدها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يرسل الرسل السابقين إلى قوم مخصوصين ؛ لقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

٢٠ ـ استدل بعض المتأخرين بقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ على إثبات الإحصاء السكاني؛ لأنه قال: ﴿إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ فأحصاهم عددًا، مع أنه لو قال: فأرسلناه إلى قومه كفى لكن عدهم عدًّا، ولا نعلم لهذا فائدة إلا الإحصاء، ولا شك أن الإحصاء إذا كان فيه فائدة فإنه داخل في عمومات النصوص الدالة على وجود ما فيه الفائدة، أما إذا لم يكن فيه فائدة وإنما يكون تطويلاً للمدة وإضاعة للوقت، وإتلافًا للمال بما ينفق عليه، فإنه كغيره مما لا فائدة منه لا يكون مطلوبًا.

٢١ ـ ومن فوائدها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنجى قوم يونس بعد أن عاينوا العذاب ؛ لقوله: ﴿فامنوا فمتعنهم إلى حين﴾.

فإذا قال قائل: ما الحكمة أن يخص قوم يونس بأنه تقبل منهم التوبة بعد نزول العذاب؟

فالجواب: أن الحكمة من هذا أن نبيهم لم يصبر حتى تتم إقامة الحجة عليهم، بل خرج منهم مغاضبًا قبل أن يؤذن له فلم تتم إقامة الحجة، فكان لهم شبه عذر في تأخير العذاب عنهم.

٢٢ ـ ومن فوائدها: أن الإنسان وإن نجا من الأسباب المهلكة فلن ينجو من الموت، بل لابد أن يموت طال الزمن أم قصر؛ لقوله: ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٢٣ ـ ومن فوائدها: أن الإيمان سبب لطول الحياة ؛ لقوله: ﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ ولاشك أن الإيمان سبب لطول الحياة؛ لأن نوحًا قال لقومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح:٤] فبين لهم أنه إذا حصل منهم الإيمان والتوبة غفر الله لهم وأخرهم إلى أجل مسمى، وإن لم يفعلوا أهلكهم الله.

٢٤ ـ ومن فوائد الآيات كلها: إثبات عظمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لكونه يضيف الأفعال إلى نفسه بضمير الجمع، ومن المعلوم أن الله واحد، وقد اشتبه هذا على النصارى ـ عليهم لعنة الله ـ فقالوا بتعدد الآلهة لجمع الضمير الذي يضاف إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهذا من اتباع المتشابه فإنهم اتبعوا هذا المتشابه وأعرضوا عن الصريح في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].



قال الله تعالى:

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا
وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ
لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا
لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾
سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات:١٤٩ - ١٦٠].

التَّفْسِيرُ

الأمر في قوله: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ يعود إلى رسول الله ﷺ والهاء في قوله: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ تعود إلى المشركين الذين جعلوا لله البنات ولهم البنون.

وقوله: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ أي: اطلب منهم أن يفتوك.

والفتوى في الأصل: بيان الحكم الشرعي.

وتوجيه الاستفتاء إليهم من باب التهكم بهم، كأنهم نصبوا أنفسهم حكمًا يحكمون بما يشاءون، وهذا كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] على أحد القولين في تفسيرها، وإلا فإن هؤلاء ليسوا أهلاً للاستفتاء فضلاً على أن يستفتوا عن هذا الأمر العظيم، لكن هذا من باب التهكم ثم بين المستفتي عنه فقال: ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ والاستفهام هنا للتوبيخ، يعني يوبخهم على هذا الحكم المعلوم من قبل؛ لأنهم جعلوا لله البنات، وجعلوا لهم البنين، ولهذا قال المؤلف - رحمه الله -: [﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ استخبر كفار مكة توبيخًا لهم] هذا يعود على الاستفهام، وأما التهكم فتوجيه الاستفتاء إليهم قال: [﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ بزعمهم أن الملائكة بنات الله، ﴿وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ فيختصون بالأسنى] أي: بالأشرف، يعني هل هذا حكم صحيح عادل، أو حكم باطل جائر؟

والجواب: معلوم لكل أحد أن هذا حكم باطل جائر، ولهذا قال الله - تعالى - في سورة النجم: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم:٢١ - ٢٢] أي: جائرة.

وقوله: ﴿وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ ليست الجملة حالية، بل هي معطوفة على الجملة التي قبلها، فهي

داخلة في ضمن الاستفهام، يعني كيف يكون لله البنات ولهم البنون، فإن هذا حكم جائر، ولهذا قال: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ (أم) هنا منقطعة، و (أم) المنقطعة هي التي تكون للإضراب، ولهذا تقدر بـ (بل) والهمزة، فمثلاً: أم خلقنا الملائكة، تقدير الكلام: بل أخلقنا الملائكة إناثًا، و (أم) تكون متصلة وتكون منقطعة، فإذا حل محلها بل وهمزة الاستفهام فهي منقطعة، وإذا كانت بمعنى (أو) فهي متصلة، تقول: أعندك زيد أم عمرو؟ يعني أو عمرًا ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون:٦] يعني أو لم تستغفر لهم، والمتصلة تأتي بعد همزة التسوية غالبًا.

وقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا﴾ أي: جعلناهم إناثًا، وعلى هذا فتكون إناثًا مفعولاً ثانيًا لخلقنا، ويجوز أن نجعل خلقنا على بابها، وتكون إناثًا منصوبة على الحال، يعني أم خلقنا الملائكة حال كونها إناثًا، والجواب: لا ما خلق الله الملائكة إناثًا، بل ولا ذكورًا، ولهذا لا نصف الملائكة بالأنوثة ولا بالذكورة؛ لأن الملائكة لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون.

قالوا: إن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة إناثًا.

﴿وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ في موضع نصب على الحال، يعني هل خلقنا الملائكة إناثًا حال كون هؤلاء شاهدين على خلقنا إياهم إناثًا؟ والجواب: لا، فما خلق الله الملائكة إناثًا ولا شهدوا خلقهم، وهذا كقوله في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف:١٩].

والحاصل: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بين لهؤلاء حالين:

الحال الأول: الحكم الجائر الذي حكموا به بينهم وبين الله، حيث جعلوا لله الملائكة وجعلوا؛ لأنفسهم البنين، وهذا جور، كما تدل عليه آية النجم.

الحال الثانية: جعلهم الملائكة إناثًا، سواء جعلوا؛ لأنفسهم البنين أم لم يجعلوا، وهذا أيضًا كذب وافتراء؛ لأنهم لم يشهدوا خلقهم حتى يحكموا عليهم بأنهم إناثٌ، ولهذا قال: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾.

والملائكة: عالم غيبي خلقهم الله من نور، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فهم عالم غيبي لا نشاهدهم إلا أن يرينا الله إياهم على سبيل الكرامة، أو على سبيل الآية؛ لأنه ما من إنسان إلا لديه ملكان عن اليمين وعن الشمال قعيد، وملائكة يحفظونه من بين يديه، يحفظونه من أمر الله، ومن خلفه، ونحن لا نشاهدهم، وملائكة يحضرون مجالس الذكر ولا نشاهدهم؛ لأنهم عالمٌ غيبي، والملائكة خلقوا من نور، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ، وخلقوا صمدًا يعني لا يأكلون ولا يشربون؛ لأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، والملائكة منهم من علمنا بأعيانهم ومنهم من لم نعلم، فمن علمنا بأعيانهم جبريل وميكائيل وإسرافيل الذي كان

النبي ﷺ يسميهم في افتتاح صلاة الليل، فيقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»(١) فجبريل - عليه السلام - موكل بما في حياة القلوب وهو الوحي.

وميكائيل موكل بما فيه حياة الأرض وهو المطر والنبات، وإسرافيل بما فيه حياة الأجساد عند نفخ الصور، فإنه قد التقم الصور ينتظر متى يؤمر، فيجب علينا أن نؤمن بالملائكة إجمالاً فيمن لم نعلم اسمه، وتعيينًا فيمن علمنا اسمه، ونؤمن أيضًا بما نعلم من أوصافهم كجبرائيل له ست مئة جناح قد سد الأفق، وبما نعلم من أحوالهم وعباداتهم؛ لأن هذا من أصول الإيمان التي بينها الرسول ﷺ لجبريل - عليه السلام - حين سأله عن الإيمان قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ»(٢) وعلينا أيضًا أن نحب هؤلاء الملائكة وأن نجلهم ونعظمهم؛ لأنهم عباد الله، عباد مكرمون منقادون لأمر الله، فنحبهم لله - عَزَّ وَجَلَّ -، وعلينا أن نكرمهم فنبغض من عاداهم كاليهود مثلاً الذين عادوا جبريل، ونبغض أيضًا كل من سبهم أو تعرض لأذاهم؛ لأنهم من أشرف عباد الله.

وقد اختلف العلماء: هل الملائكة أفضل أم صالح البشر أفضل؟

والخلاف في هذا معروف مشهور، وأكثره خلاف جدلي؛ لأن المقام والمرتبة عند الله - عَزَّ وَجَلَّ - تدل على أن البشر أفضل؛ لأن البشر يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣ - ٢٤].

ولهذا قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: البشر أفضل باعتبار النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية؛ لأن البشر خلقوا من طين والملائكة من نور، والنور أشرف من الطين.

ثم قال الله - تعالى - مبينًا حكمهم الباطل الذي قد علم مسبقًا قبل أن يستفتوا قال: ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ﴾ هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: ألا، وإن، واللام.

أما (ألا) فإنها تأتي بلا شك للتوكيد، كما تأتي كذلك للتنبيه والاستفتاح، ولهذا يقال: ألا أداة استفتاح يراد بها التنبيه، والتوكيد، والتحقيق أي: تحقق ما بعدها.

﴿أَلَا إِنَّهُم﴾ أي: هؤلاء الذين جعلوا الملائكة إناثًا، وهؤلاء الذين جعلوا لله البنات ولهم ما يشتهون ﴿إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أي: من كذبهم ليقولون: ولد الله، وهنا قدم السبب على المسبب.

السبب هو: الإفك، على القول لأهميته، ومن أجل أن يتبين للإنسان بطلانه من قبل أن يؤتى به، وإلا فمقتضي السياق أن يقال: «ألا إنهم ليقولون ولد الله»؛ لأن (ليقولون) خبر إن، وكان

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٧٠)، والترمذي (٣٤٢٠)، والنسائي (١٦٢٥)، وأبو داود (٧٦٦).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

مقتضى السياق أن تباشر الاسم، لكن أخرت لبيان أن هذا القول باطل، حتى يرد على الذهن، وقد علم بطلانه، و (من) للسببية، أي: ألا إنهم بسبب إفكهم.

ويجوز أن تكون للتبعيض، يعني: ألا إنهم ليقولون هذا القول المأفوك من جملة إفكهم؛ لأن إفكهم كثير، فهم جعلوا الله ولدًا، وجعلوا الله شريكًا، وجعلوا الله زوجة، وكل هذا من الإفك.

فالحاصل أن ﴿مِّنْ﴾: يجوز أن تكون للتبعيض، ويجوز أن تكون سببية، وقوله: ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أي: كذبهم؛ لأن الإفك هو الكذب، كما قال الله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور:١١] أي: بالكذب.

﴿لَيَقُولُونَ﴾ الجملة خبر إن، ومقول القول: ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾ وعلى هذا فنقول: إن ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾ في محل نصب مقول القول.

وكيف قالوا: ولد الله؟ وبأي: صيغة؟ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [بقولهم الملائكة بنات الله]، ومعلوم أن البنت من الولد فإن الولد في اللغة العربية يطلق على البنت والابن، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١].

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. هذه الجملة مؤكدة بمؤكدين: إن واللام، والمراد بها إبطال هذا القول، فيكون الله أبطل هذا القول قبل التحدث عن مقوله، وبعده، فأبطله قبل التحدث عن مقوله في قوله: ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ وبعده بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ونحن نشهد أنهم كذابون في هذا، فإن الله ـ تعالى ـ واحد أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

وقد برهن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على بطلان هذا في سورة الأنعام. فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠،١٠١].

وقال: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام:١٠١] كيف يكون له ولد وليس له صاحبة، يعني زوجة؟ هذا مستحيل.

والثانية: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ والخالق لكل شيء لا يمكن أن يكون له ولد؛ لأن الولد جزء من الوالد، وإذا كان جزءًا منه لم يكن شيئًا مخلوقًا؛ لأن جزء الخالق يكون خالقًا مثله، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف:١٥].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٠١] وقد أعلمنا أنه ليس له ولد فكيف يكون خبره غير مطابق للواقع. فبرهن الله على امتناع وجود الولد من وجوه ثلاثة:

امتناع الصاحبة، وأنه خلق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، وعلمه بكل شيء وقد أخبرنا بأنه لم يلد يقتضي أنه لم يلد كذلك حقًا؛ لأن هذا الخبر لابد أن يكون مطابقًا لعلمه.

وقوله: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ اصطفى أصلها اصتفى، وهي مأخوذة من الصفوة،

وصفوة الشيء خياره، وعلى هذا فيكون معنى اصطفى اختار.

وهنا قال: ﴿أَصْطَفَى﴾، والمعروف أن همزة اصطفى همزة ووصل لا همزة قطع، فلماذا كانت هنا همزة قطع؟ قال ـ رحمه الله ـ: [بفتح الهمزة للاستفهام].

فالهمزة هنا ليست همزة الوصل التي يؤتى بها للتوصل إلى النطق بالساكن، ولهذا لا يكون ما بعدها إلا ساكنًا، فالهمزة هنا ليست همزة وصل، ولكنها همزة استفهام، فاستغني بها عن همزة الوصل؛ لأنها أي: ـ همزة الاستفهام، مفتوحة فيسهل النطق بالساكن بعدها، وأصل همزة الوصل جيء بها من أجل التوصل إلى النطق بالساكن، وإذا كان لدينا همزة قطع فإننا نستغني بها عن همزة الوصل، مع أنه يجوز وجه آخر في غير هذه الآية ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ﴾، فتقلب همزة الوصل إلى مد، ومنه قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩] ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾، [يونس:٥٩] قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿أَصْطَفَى﴾ أي: أختار] أي: هل يختار الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ البنات على البنين؟ يعني لو فرض فرضًا ممتنعًا غاية الامتناع أن الله يتخذ ولدًا فهل يصطفي البنات على البنين؟ لا؛ لأن البنين أشرف من البنات، ولا يمكن أن يختار الله البنات على البنين، لو فرض الفرض الممتنع المقطوع بامتناعه أن الله يختار ولدًا ما اختار البنات على البنين، كما أنكم أنتم لم تختاروا البنات على البنين، جعلتم البنين لكم ولله البنات، ولهذا قال: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ الجواب: لا، لا يمكن.

وقوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (ما) استفهامية وليست نافية وهي مبتدأ، والجار والمجرور (لكم) خبر.

والمعنى: أي: شيء لكم حتى تحكموا هذا الحكم فتقولوا: إن لله البنات وهم الملائكة، وهذا الاستفهام للتوبيخ والإنكار ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: هذا الحكم الفاسد، وهذا الحكم الجائر ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم:٢٢] فهو حكم فاسد جائر.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الاستفهام هنا أيضًا للتوبيخ وكل الاستفهامات هنا تفيد التوبيخ والتقريع مع فائدة أخرى إذا دل المقام عليها

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [بإدغام التاء في الذال] أصلها (تتذكرون)، فأدغمت التاء في الذال فصارت: تذكرون.

وفي قراءة: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ قراءة سبعية، وهي الموجودة عندنا في المصحف، ومر علينا أنه إذا جاءت قراءتان في آية فإن الأفضل أن تقرأ بهذه مرة وبهذه مرة، لنحافظ على ما جاء في القرآن الكريم؛ لأن الكل من عند الله، إلا أننا قلنا: إن هذا لا ينبغي عند العامة؛ لأنه يحصل به فتنة العامي؛ لأنه لا يفهم، وربما يكون عاميًا عاطفيًا غيورًا، فيرى أنك تحرّف القرآن، فطالب العلم الذي يعلم أن هذه قراءة سبعية ينبغي له أن يقرأ بها مرة، وبما في المصحف مرة أخرى، حتى يأتي بالقرآن على الوجوه

التي نزل بها.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ التذكر يعني الاتعاظ، أي: أفلا تتعظون، فتدركوا أن ما حكمتم به حكم جائر غير مقبول منكم، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: [أنه ـ سبحانه ـ منزه عن الولد]. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ منزه عن الولد بدليل العقل ودليل النقل.

أما دليل النقل فما أكثر الآيات التي يكثر الله فيها أنه لم يتخذ ولدًا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١ ـ ٤].

أما الدليل العقلي فنقول:

أولاً: لو كان لله ولد لكان جزءًا منه، وكان مستحقًّا للعبادة، كما استحق ذلك والده.

ثانيًا: لو اتخذ الله ولدًا لكان هذا الولد حادثًا، والحدوث يمتنع أن يكون جزءًا من الله؛ لأن الله لم يزل ولا يزال موجودًا بذاته ـ سبحانه وتعالى ـ، فإذا قدر أنه اتخذ ولدًا صار هذا الولد حادثًا، فكيف يكون حادثًا وهو جزء من الله؛ لأن الولد جزء من الوالد، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف:١٥] وكما قال النبي ﷺ: «إن فاطمة بضعة مني»[1].

ثالثًا: يمتنع أيضًا أن يتخذ الله ولدًا؛ لأن الولد لابد أن يكون مشبهًا لأبيه، والله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس له شبيه ولا يماثله أحد.

رابعًا: الولد إنما يتخذه من يحتاج إليه لبقاء النوع، والله ـ سبحانه وتعالى ـ غير محتاج لأحد، ولهذا إذا كان الإنسان عقيمًا انقطع أثره من الدنيا، لكن إذا كان ولودًا وولد له ولد بعد ولد بقي أثره في الدنيا، ولهذا كان التوالد بين البشر هو السبب الوحيد لبقاء النوع الإنساني، فهذه وجوه أربعة عقلية تدل على امتناع الولد على الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ هذا إضراب انتقالي، بل ألكم؛ والإضراب الانتقالي انتقل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من توبيخهم على ما حكموا به من الولد لله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى طلب الحجة، أي: بل ألكم سلطان مبين، والمراد بالسلطان هنا ما تكون به السلطة، والسلطان في كل موضع بحسبه.

ففي باب الولايات تكون السلطة بالإمارة، فالأمير: سلطان، وفي باب الأعمال تكون السلطة بالقوة، القوي القادر له سلطة على العمل.

وفي باب المحاجة وطلب الدليل تكون السلطة بالدليل، فهنا ﴿سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ أيدليل، يعني هل لكم دليل؟؛ لأن الدليل تكون به السلطة للمحاج يعني إذا حاجك إنسان وصار معه دليل صار له سلطان عليك أي: سلطة، ولهذا قال: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ وكلمة ﴿مُّبِينٌ﴾ هنا يحتمل

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٧٦٧)، ومسلم (٢٤٤٩).

أن تكون من أبان اللازم ومن أبان المتعدي؛ لأن أبان الرباعي يكون لازمًا ويكون متعديًا، فإذا قلت: أبان الصبح؛ فهو لازم، وإذا قلت: أبان فلان الحق.

فكلمة ﴿مُّبِينٌ﴾ هنا هل هي لازم أي إن المعنى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ بين، أم متعدٍّ أي: ألكم سلطان يبين ما تقولون أو يبين الحجة لكم؟ المتعدي هنا أحسن؛ لأن المعتدي متضمن للازم؛ لأن ما أبان غيره فهو بين في نفسه ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [حجة واضحة أن لله ولدًا].

وصنيع المؤلف في قوله: [واضحة] يدل على أنه جعل مبين من اللازم أي: بين، ولكن الأرجح أنه من أبان المتعدي أي: مبين، وذلك؛ لأننا إذا جعلناه من المتعدي لزم منه وجود اللازم بخلاف العكس.

﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ هذا مفرع على قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ يعني: إن كان لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم الذي به السلطان، والأمر هنا للتحدي والإعجاز مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة:٢٣] فقوله: ﴿بِكِتَابِكُمْ﴾ أي: بكتابكم الذي به الحجة والسلطان، وقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: [التوراة] هذا لا شك أنه وهم؛ لأن هذه الآية ليست تخاصم اليهود حتى نقول: إن المراد بذلك التوراة، إنما تخاصم المشركين الذين جعلوا الملائكة بنات الله، ولهذا في بعض نسخ المؤلف كلمة (التوراة) ساقطة، والنسخة التي سقطت منها أصح من النسخة التي ثبتت فيها، قال: [فأروني ذلك فيه] يعني: أروني أن لله البنات في ذلك الكتاب الذي تأتون به، ثم أظهر إعجازهم بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم ذلك، وهذا يدل على أنه لا يمكن أن يأتوا بكتاب فيه أن الله جعل الملائكة بنات له، فهذا شيء مستحيل.

و(إن) في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ شرطية، وتحتاج إلى فعل الشرط وجوابه، ففعل الشرط موجود: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وجوابه قيل: إن جوابه محذوف دل عليه ما قبله، وهو: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ والتقدير: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ فيكون محذوفًا دل عليه ما قبله، ولا ينبغي ذكره أيضًا؛ لأن ذكره تطويل مستغنى عنه.

وقيل: إنَّ (إنْ) الشرطية في مثل هذا التركيب لا تحتاج إلى جواب أصلاً فتكون مسلوبة الجواب، وعلى هذا القول لا يكون في مثل هذا الترتيب تقدير، ويكون هذا المحذوف لما كان معلومًا كان لا يحتاج إلى ذكره، وإذا لم نحتج إلى ذكره لم نحتج إلى تقديره.

﴿وَجَعَلُوا﴾ الضمير يعود على المشركين الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله.

فإن قال قائل: كيف يرجع الضمير إلى غير مذكور.

قلنا: إنه مذكور بالسياق فالسياق يعين مرجع الضمير، ولا يلزم في مرجع الضمير أن يكون اسمًا ظاهرًا بينًا، فإذا دل السياق على أن المراد به كذا عمل به.

قال الله ـ تعالى ـ : ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ [ص:٣٢] فالفاعل في قوله: ﴿تَوَارَتۡ﴾ يعود على الشمس مع أنه لم يسبق لها ذكر؛ لأنه معروف.

وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ [الرحمن:٢٦] (عليها) أي: على الأرض مع أنه لم يسبق لها ذكر قريب، ولكن السياق يدل عليها، إذن مرجع الضمير قد يكون متعينًا بالسياق.

﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ﴾ أي: بين الله ﴿وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾ يقال: والجِنَّة والجَنَّة، وكلها تدور حول الاستتار والخفاء؛ لأن هذه المادة الجيم والنون تدور على هذا المعنى: الاستتار والخفاء، ومنه الجنان: القلب، ومنه الجنين: الحمل، ومنه الجِنة: الجن، ومنه الجَنة: البستان ذو الأشجار الكثيرة، ومنه الجُنَّة: ما يستتر به المقاتل عن السهام كالترس.

فما المراد بالجنة هنا؟ يقول المؤلف : [الجنة أي: الملائكة لاجتنانهم عن الأبصار] فهم عالم غيبي كالجن الذين هم ذرية الشيطان، هذا ما ذهب إليه المؤلف ـ رحمه الله ـ ولكن هذا القول ضعيف جدًا؛ لأن الجنة اسم للجن لا للملائكة، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٥ ، ٦] يعني الجن، وقال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ﴾ [المؤمنون: ٧٠] أي: جن أصابه بمس، ولا يمكن أن يعبر بالجن الذين خلقوا من نار عن الملائكة الذين خلقوا من نور، وهم من أشرف خلق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦ ـ ٢٨] فالمراد بالجنة هنا الجن الذين هم: خلق غيبي خلقوا من نار، ولكن كيف جعلوا نسبًا؟

الجواب: المراد بالنسب مجرد الصلة وليس النسب الذي هو القرابة، بل النسب الذي هو الصلة، وذلك أن المشركين لما قالوا: إن الملائكة بنات الله قيل لهم: لا بنات إلا بزوجة، قالوا: نعم إن الله ـ جل وعلا وسبحانه عما يصفون ـ تزوج من الجن جنية فولدت الملائكة ـ قاتلهم الله ـ هذا هو النسب الذي جعلوه بين الله وبين الجنة، فالمراد أن النسب هنا مطلق الصلة، لا صلة القرابة فقط، هذا هو المعنى الذي يدل عليه استعمال الجنة في كلام الله، وأن المراد بالجنة الجن، يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ موجهًا ما ذهب إليه من أن المراد بالجنة الملائكة قال: [لاجتنانهم عن الإبصار] وهذا لا يبرر أن نسمي الملائكة جنًّا.

يقول: [نسبًا بقولهم: إنها بنات الله] فجعل النسب هنا بمعنى القرابة، ولكن هذا القول ليس بصحيح.

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ﴾ هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات:اللام، وقد، وهما ظاهران، والقسم المقدر، والتقدير: والله لقد علمت الجنة إنهم لمحضرون، والتأكيد هنا ـ لا شك ـ أنه في غاية ما يكون من البلاغة، يعني أن هؤلاء الجن الذين جعلوا بينهم وبين الله نسبًا تعلم في حكم الله ما لا

يعلمه هؤلاء، فإنهم يعلمون أن هؤلاء الذين كذبوا على الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ سوف يحضرون يوم القيامة، ويبعثون ويعذبون بما يقتضيه جرمهم ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ [أي: قائلي ذلك ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ للنار يعذبون فيها].

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ اسم مصدر سبح، ومعنى قولنا: اسم مصدر سبح، يعني أنه اسم مصدر فعله سبح، والمصدر من سبح تسبيحًا، لكن سبحان بمعنى تسبيح فهي اسم مصدر؛ لأن كل كلمة تضمنت معنى المصدر دون حروفه فهي اسم مصدر، وأمثلته كثيرة منها: كلام بمعنى تكليم، وسلام بمعنى تسليم وسبحان الله يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ : [تنزيهًا له]. والذي ينزه الله عنه:

الأول: النقص فيما أثبت لنفسه من الكمال.

الثاني: مماثلة المخلوقين.

قال الله ـ تعالى ـ عن الأول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [ق:٣٨] وهذا يدل على كمال القدرة والقوة، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] نفي لنقص القوة، يعني مع عظم هذه المخلوقات العظيمة وقصر المدة في خلقها لم يمس الله ـ سبحانه وتعالى ـ شيء من اللغوب يعني من التعب والإعياء وهذا تنزيه عن النقص، وقال تعالى عن الثاني: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] تنزيه عن مماثلة المخلوقين.

﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يعني: عن النقص عما يصفون من النقص والمماثلة، بأن قالوا: إن لله ولدًا، وهذا وصف لا يليق بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ لأن ثبوت الولد يتضمن المماثلة ويتضمن النقص ـ أيضًا ـ، فهم بدعواهم الولد لله وصفوا الله بالنقص ووصفوه بمماثلة المخلوقين.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ العبودية مأخوذة من الذل، فالعابد بمعنى الذليل، والتعبد بمعنى التذلل، والعبودية نوعان: عبودية للقدر، وعبودية للشرع.

يعني تذلل للقدر، وتذلل للشرع.

أما عبودية القدر فإنها عامة لكل أحد، فما من إنسان إلا وهو متذلل لقدر الله ـ تعالى ـ لا يمكن أن يتخلص منه إطلاقًا، ودليل هذه قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

كل من في السماوات والأرض فهو عابد لله ذليل له، ولا يمكن أن يخرج عن ذلة القدر، حتى أعتى الناس وأطغى الناس عبدالله بهذا المعنى، ففرعون عبدالله في هذا المعنى، ولهذا أدركه الغرق.

الثاني: عبودية الشرع يعني التعبد بشرع الله، وهذا خاص بالمؤمنين؛ لأن الكافرين لم يتعبدوا لله بشرعه، بل هم مستكبرون، ومن أمثلة ذلك وأدلته قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] فالمراد بالعبودية هنا عبودية الشرع.

يعني الذين تعبدوا بشرع الله، وهذه خاصة بالمسلمين المنقادين لأمر الله، وهذه تنقسم إلى قسمين: قسم أخص من الآخر، فعبودية الرسالة والنبوة أخص من عموم عبودية الإسلام، فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣] هذه عبودية رسالة فهي أخص من قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان:١] هذه أيضًا عبودية خاصة الخاصة، أخص من قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢] إن جعلنا الاستثناء منقطعًا فالعبودية عبودية الشرع خاصة، وإن جعلنا الاستثناء متصلاً فهي عبودية القدر؛ ولذلك اختلف العلماء فيما هل الاستثناء منقطع أو متصل؟ هذه الآية أيضًا نظيرها ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: المؤمنين الذين أخلصهم الله ـ تعالى ـ لنفسه.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [استثناء منقطع] والاستثناء المنقطع علامته: أن يكون ما بعد (إلا) من غير جنس ما قبلها، وأن تكون (إلا) بمعنى (لكن)، ولهذا نسميه استثناء منقطعًا، كأن ما بعدها انقطع عما قبلها، وعليه إذا كان الاستثناء منقطعًا، كأن ما بعدها انقطع عما قبلها، وعليه إذا كان الاستثناء منقطعًا كما قال المؤلف نقول: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ معناها لكن عباد الله المخلصين لم يصفوه بهذا الوصف.

ولهذا قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [فإنهم ينزهون الله ـ تعالى ـ عما يصفه هؤلاء].

وذهب بعض العلماء إلى أن الاستثناء هنا متصل، فهو مستثنى من الواو في قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ويكون المعنى: سبحان الله عما يصفه الناس كلهم ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ يعني: إلا ما يصفه به عباد الله المخلصون، فإنه متصف به، وهذا احتمال، لكن ظاهر السياق ما ذهب إليه المؤلف، وأن قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عائد إلى المشركين الذين وصفوه بأن له بنات، وهؤلاء لا يدخل فيهم المؤمنون، فالمؤمنون ليسوا من جنس المستثنى منه، وحينئذ يكون الاستثناء منقطعًا، ويكون فائدة هذا الاستثناء المنقطع الثناء على عباد الله المخلصين، حيث لم يصفوه بما وصفه به هؤلاء.

الفوائد:

١ ـ في قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾: تحدي أهل الكفر والشرك ببيان الدليل على ما يقولون من الكذب والافتراء.

٢ ـ **ومن فوائدها:** التهكم بهؤلاء المشركين؛ حيث جعلهم بمنزلة العلماء الذين يستفتون، وهم أجهل الناس بلا شك.

٣ ـ **ومن فوائدها:** بيان جور هؤلاء المشركين، حيث جعلوا لله البنات وهم يكرهون البنات،

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل:٥٨] مع أن البنين والبنات كلها ممتنعة عن الله؛ لأن الله لم يلد ولم يولد.

٤ ـ **ومن فوائد الآيات:** الإنكار على هؤلاء الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله؛ لقوله: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** تحدي هؤلاء الذين ادعوا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل الملائكة بنات له؛ لأنه يقال: لهم هل شهدتم خلق الله للملائكة حتى تعلموا أنها بنات الله؟ والجواب: ما شهدوا، ولهذا قال: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾.

٦ ـ **ومن فوائدها:** إثبات الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، والإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الستة كما هو معروف.

٧ ـ **ومن فوائدها:** أن كل من ادعى دعوى فإنه يطالب بالبينة عليها؛ لقوله: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ فهل هم شاهدون حتى يدعوا ذلك؟

٨ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** تأكيد إفك هؤلاء الكاذبين، الذين ادعوا أن لله ولدًا؛ لقوله: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴾.

٩ ـ **ومن فوائدها:** أن هؤلاء لهم إفك متعدد، بناء على أن (من) للتبعيض ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾.

١٠ ـ **ومن فوائد الآيات:** أن الله ـ تعالى ـ منزه عن الولد؛ لأن الله جعل هذه الدعوة إفكًا وكذبًا، وأكد الله ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

١١ ـ **ومن فوائد الآيات أيضًا:** الاستدلال على هؤلاء بدلالة العقل، وهو أن يقال: كيف يصطفي الله البنات على البنين؟

هذا ليس بعقل وليس بمعقول، ولكن هم يجعلون هذا الشيء أمرًا معقولاً، وواجبًا أيضًا أن يكون لله البنات ولهم البنون.

١٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء الذين حكموا بهذا الحكم أشبه ما يكونون بالمجانين، ولهذا خوطبوا بمخاطبة المجنون حيث قيل لهم: ﴿مَا لَكُمْ ﴾؟ ما هذا العمل؟ هل هذا عمل عاقل؟

١٣ ـ **ومن فوائدها:** الإنكار على كل حكم باطل ؛ لقوله: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ فإن هذا إنكار عليهم بهذا الحكم الذي يعلم بطلانه بضرورة العقل والنقل.

١٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإعلان بسفه هؤلاء، وإنهم لا ينتفعون بالآيات ؛ لقوله: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

١٥ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** توبيخ من لم يتذكر؛ لأن المراد بالاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا

تَذَكَّرُونَ﴾ هنا التوبيخ، فكل من لم يتذكر بآيات الله فلا شك أنه مستحق للوم والتوبيخ.

١٦ - **ومن فوائدها:** إظهار عدل الله - عَزَّ وَجَلَّ - في مجادلة العدو والخصم؛ لقوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ فلم يقتصر الله - عَزَّ وَجَلَّ - على أن كذبهم، بل طلب منهم الحجة إن كانوا صادقين في دعواهم، ومن المعلوم أنهم لن يقيموا الحجة، ولهذا قال: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

١٧ - **ومن فوائدها أيضًا:** جواز تحدي الخصم بما يعجز عنه، وأن ذلك طريقًا من طرق إفحامه، وذلك أن الخصم عند المناظرة يمكن إبطال حجته بعدة أساليب منها: التحدي؛ ولكن يجب أن يكون التحدي بما لا يمكن أن يقيم عليه البرهان والدليل؛ لأنك لو تحديته بشيء يمكنه أن يقيم عليه الدليل والبرهان، فأقام عليه الدليل والبرهان لخصمك ولضعف جانبك، فإياك أن تتحدى عند المناظرة إلا بشيء تعلم أنه لا يمكن أن يكون، ولهذا ذكر الله - سبحانه وتعالى - في محاجة إبراهيم مع الرجل، حين قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨] فإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - تحداه أولاً بأن الله يحيي ويميت، وأنت أيها المحاج لا تحيي ولا تميت، فلما ادعى كذبًا أنه يحيي ويميت، وكان في ذلك تلبيس على العامة؛ لأنه قال: أنا أحيي وأميت، آتي بالرجل المستحق للقتل فلا أقتله، فهذا على زعمه إحياء، والحقيقة أن هذا ليس إحياءً ولكنه رفع سببًا يكون به الموت، وقد يبقى هذا الذي رفعنا عنه سبب الموت وقد لا يبقى.

وقال: إني أوتى بالرجل البريء فأقتله، فهذا إماتة على زعمه، وهذا ليس بإماتة، ولكنه فعل سبب يكون به الموت، وقد لا يكون به الموت، فالحاصل أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أراد قصر الطريق واختصاره، قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨] فانقطعت الحجة ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾، وهذا من آداب المناظرة وهو إفحام الخصم بما لا يمكن أن يقيم عليه الحجة والبرهان. ولكن كما قلت: يجب أن تلاحظ أن إذا أفحمته أو تحديته بشيء يمكنه أن يقوم به فقام به، فهذا إضعاف لجانبك، وسيكون هذا أحد طرق هزيمتك ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾.

١٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الحجة سلطان لصاحبها؛ لأنه يكون بها السلطة على خصمه الذي يحاجه.

١٩ - **من فوائدها:** أن من تحدي غيره فله طلب البينة على ما قال ذلك الغير؛ لقوله: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾.

٢٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن حجة القرآن حجة دامغة ملزمة، لا يمكن التخلص منها، ولهذا تأتي دائمًا بصورة التحدي إظهارًا لعجز المعارض، وعدم قدرته على المعارضة.

٢١ - **ومن فوائدها:** أن هؤلاء كاذبون فيما ادعوه عاجزون عن إقامة البرهان عليهم؛ لقوله:

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

٢٢ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾: بيان عتو هؤلاء وطغيانهم، حيث وصفوا الله - سبحانه وتعالى - بما لا يليق به، فجعلوا بينه وبين الجن نسبًا.

٢٣ - **ومن فوائدها:** أن هؤلاء الذين جعلوا بينها وبين الله نسبًا يعلمون أن هؤلاء معذبون على ما قالوا، محضرون في النار؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

٢٤ - **ومن فوائدها:** أن هذه الجنة متبرئة مما يدعيه هؤلاء بجانبها؛ لأنها إذا علمت أنهم محضرون في العذاب فإنها لن تقرهم على ما ادعوه لله - سبحانه وتعالى - من الولد.

٢٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾: تنزيه الله عما وصفه الظالمون المعتدون ؛ لقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

٢٦ - **ومن فوائدها:** أن صفات الله تكون سلبية - أيدالة على النفي - وتكون ثبوتية - أيدالة على الإيجاب -.

فقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ هذا من صفات النفي؛ لأنه تنزيه، وصفات النفي التي وصف الله بها نفسه لا تدل على النفي المجرد؛ لأن النفي المجرد ليس بشيء فضلاً عن أن يكون مدحًا، وإنما تدل على ثبوت كماله المنزه عن هذا العيب، فتنزيه الله عما لا يليق به يتضمن كماله المنزة عن هذا العيب فيما يختص به - سبحانه وتعالى -، وهذه قاعدة في جميع الصفات المنفية: أنه لا يراد بها النفي المجرد؛ لأن النفي المجرد ليس بشيء؛ لأنه نفي، فضلاً عن أن يكون مدحًا إنما يراد بها إثبات كماله - سبحانه وتعالى - في صفاته حتى انتفى عنه كل صفة نقص.

٢٧ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** أن من عباد الله - سبحانه وتعالى - مَنْ منَّ عليهم فأخلصهم وأخلصوا له الحق؛ لقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصهم الله مما أصيب به غيرهم، والذين أخلصوا الله فيما يصفونه به.

٢٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا القرآن الكريم مثاني تثنى فيه الأشياء، فإذا ذكر فيه صفة قوم مذمومة ذكر بعدها صفة الأقوام المحمودة، فلما ذكر ما وصفه به هؤلاء الظالمون المعتدون بين أن هناك أناسًا ليسوا على هذه الحال، وهم عباد الله الذين أخلصهم الله - تعالى - لنفسه، وأخلصوا له ما يجب له.



قال الله تعالى:

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ - ١٦٣]

التفسير

﴿فَإِنَّكُمْ﴾ الخطاب هنا للكافرين، وفيه التفات من الغيبة إلى الحضور؛ لأن الكاف للمخاطب، والمخاطب حاضر، وما سبق الضمير فيه عائد على غائب: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فكلها بضمير الغيبة.

والالتفات من الغيبة أو العكس له فائدة، وهي تنبيه المخاطب، ووجه ذلك أن الخطاب إذا كان على وتيرة واحدة لم يكن فيه ما يدعو إلى الانتباه، فإذا تغير الأسلوب انتبه الإنسان، وهذه الفائدة مطردة في كل موضع فيه التفات.

وهناك فائدة أخرى تكون بحسب السياق، وليست مطردة في كل موضع، والفائدة هنا: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ هي أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما تحدث عنهم بصيغة الغيبة، وكان الذي بعد ضمائر الغيبة أمرًا يظن صاحبه أنه قادر عليه خاطبه مخاطبة الحاضر إفادة إلى ذله وعدم قدرته على ما يقصد، فالكفار يحاولون فتن الناس عن دينهم بكل وسيلة، تارة بالدعاية لمعبوداتهم، وتارة بالقدح في عبادة الله، وتارة بالقدح في المسلمين وغير ذلك، فيظنون أنه على شيء فخاطبهم الله ـ تعالى ـ بخطاب صريح إذلالاً لهم فقال: ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ من الأصنام وعبر بـ (ما) التي تستعمل غالبًا في غير العاقل؛ لأن أكثر معبود المشركين من غير العاقل، ويحتمل أن تكون (ما) مصدرية، أي: فإنكم وعبادتكم ما أنتم فاتنين عليه أحدًا، والمعنى على الوجهين واحد.

يعني: أنتم وأصنامكم لا تفتنون الناس ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾.

أو أنتم وعبادتكم لا تفتنون الناس عليها ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ والكفار يعبدون الأصنام فينذرون لها ويركعون ويسجدون ويستغيثون بها ويجعلونها كالإله سواءً، ومع هذا فإن عقولهم قد لعبت بهم بل شياطينهم قد لعبت بهم حيث يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:٣].

والحقيقة: أن عبادتهم إياها تبعدهم من الله ولا تقربهم منه، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ أي: على معبودكم، و (عليه) متعلق بقوله: ﴿بِفَاتِنِينَ﴾ أي: أحدًا] و (إن) تحتاج إلى اسم وخبر، اسمها الكاف في: ﴿إِنَّكُمْ﴾ ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ معطوف عليه وجملة ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ

بِفَٰتِنِينَ ﴾ هي الخبر.

يعني أنتم ومعبوداتكم لا تفتنون أحدًا عن دين الله ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

وقوله ـ رحمه الله ـ [أي: على معبودكم] ولم يقل: ما أنتم عليها أي: معبوداتكم من أجل أن يشمل كل واحد على حدة، يعني أي: واحد من هذه المعبودات لا يمكن أن تفتنوا عليه أحدًا من الناس، وقوله: ﴿بِفَٰتِنِينَ ﴾ أي: بصادين؛ لأن الفتنة تأتي بمعنى الصد، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [البروج:١٠] أي: صدوهم كما تأتي بمعنى الاختبار مثل: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ [البقرة:١٠٢] ولها معانٍ أخرى، لكن المراد بها هنا الصادّين، وقول المؤلف: [عليه متعلق بفاتنين] فيكون التقدير: ما أنتم بفاتنين عليه، وفاتن اسم فاعل من فتن، وهو فعل متعدٍّ ومفعوله محذوف قدَّره المؤلف بقوله: [أي: أحدًا].

ومعنى الآية على سبيل العموم أن الله خاطب هؤلاء المشركين بأنهم ومعبوداتهم مهما عملوا من الحيل والدعاية لن يفتنوا أحدًا حتى يعبدوا هذه الأصنام ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ يعني: إلا الذي هو صال الجحيم، وصال اسم فاعل، وحذفت الياء التي في آخر الفعل لالتقاء الساكنين.

وهما: الياء وهمزة الوصل ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

وعلى كلام المؤلف تكون (من) في محل نصب بدلاً من المفعول المحذوف (أحدًا) ما أنتم بفاتنين أحدًا إلا من هو.

وذهب بعض المعربين إلى أن (من) مفعول لفاتنين، على أنه استثناء مفرّغًا، والاستثناء المفرغ هو الذي يكون ما بعد إلا معمولاً لما قبلها.

سواء كان فاعلاً أو مفعولاً أو مجرورًا.

فإذا قلت: ما قام إلا زيد.

فهذا استثناء مفرغ.

فتقول: (ما قام) ما نافية، وقام فعل ماض، و (إلا) أداة حصر وليست أداة استثناء، وزيد فاعل.

وتقول: ما رأيت إلا عمرًا رأيت فعل وفاعل و (إلا) أداة حصر، وعمرًا مفعول.

وتقول: ما مررت إلا بزيد.

(إلا) أداة حصر، بزيد جار ومجرور متعلق بمررت.

فعلى هذا تكون الآية: ﴿أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ﴾ كالمثال الذي مثلّنا وهو ما رأيت إلا زيدًا.

وهذا الذي ذهب إليه بعض المعربين أصح مما ذهب إليه المؤلف، أي أن الاستثناء مفرغ، وعليه فلا نحتاج إلى تقدير المفعول به، فيكون (أحدًا) الذي قدره المؤلف مستغنى عنه؛ لأن الاستثناء

مفرغ فكما أنك لو قلت ما رأيت إلا زيدًا لا تحتاج إلى تقدير ما رأيت أحدًا إلا زيدًا، فكذلك: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وخلاصة المقام أن نقول: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ (ما) نافية و (أن) اسمها (بفاتنين) خبرها.

وفاتن اسم فاعل يحتاج إلى مفعول، والمفعول (من) في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وقوله: ﴿صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ قال المؤلف: [في علم الله ـ تعالى ـ]، والمفعول (من) في قوله: ﴿إلا من هو صال الجحيم﴾.

وقوله: ﴿صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ قال المؤلف: [في علم الله ـ تعالى ـ]، وإنما احتاج إلى تقدير في علم الله؛ لأن صال اسم فاعل وهم لم يصلوها حتى الآن؛ لأنهم ما ماتوا، فالمفتون حي فكيف يقال: صال الجحيم، وهو لم يمت بعد.

لذا قال المؤلف: المراد صال الجحيم في علم الله، أي: من علم الله أنه سيصلى الجحيم فهو الذي يفتنونه، وأما من علم الله أنه مؤمن فلن تفتنونه، وهذا كقوله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٨].

الفوائد:

١ ـ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ بيان أن هؤلاء المجرمين الذين يصفون الله بما لا يليق به، ويصدون عن سبيل الله لن يستطيعوا أن يضلوا من هداهم الله، وإنما يضلون من هو صال الجحيم، أي: من هو تابع لهم على إضلالهم حتى يصلى الجحيم.

٢ ـ ومن الفوائد: الإشارة إلى أن من تابع أهل السوء في سوئهم فإنه يخشى أن يكون ممن كتب عليه أنه من أصحاب الجحيم. ؛ لقوله: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٣ ـ ومن فوائدها: أن أهل البصيرة لا يمكن أن يكونوا من أصحاب النار؛ وذلك لأنهم يعرفون الحق ويعرفون الباطل، فيأخذون بالحق ويتجنبون الباطل، ووجه ذلك أن الله أخبر بأن هؤلاء المجرمين الضالين المضلين، لن يستطيعوا أن يفتنوا أحدًا عن دينه إلا من هو صال الجحيم، فليحذر الإنسان من فتنة أهل الشر والفساد؛ لئلا يكون من هو صال الجحيم.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات العذاب في الآخرة؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ والمراد جحيم الآخرة ونارها، وليس جحيم الدنيا.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: انقسام الناس إلى قسمين:

صال للجحيم، وناج منها؛ لأن الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ يدل على أن هناك شيئًا مستثنى منه وهو القسم الثاني الذي قدر الله له النجاة.



قال الله تعالى:

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٤ - ١٦٦].

التفسير

لما ذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن هؤلاء المجرمين الظالمين قالوا: إن الملائكة بنات الله، بيّن - سبحانه وتعالى - على لسان الملائكة ما حال الملائكة وما مقامهم وما عملهم تجاه الله - سبحانه وتعالى -، فقال: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾.

قال المؤلف - رحمه الله -: [قال جبريل للنبي ﷺ: وما منا معشر الملائكة أحد] معشر يعني: جماعة، وأحد قدرها المؤلف لدلالة السياق عليها، وهي مبتدأ خبره (منا) السابق وقوله: ﴿إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ هذا الاستثناء مستثنى من أحد وهي جملة يمكن أن نجعلها دالة على الحال: حال هؤلاء الملائكة.

وقوله: ﴿إِلَّا لَهُ مَقَامٌ﴾ أي: موضع قيام؛ لأن المقام مفعل يصح أن يكون اسم زمان واسم مكان، وهنا الظاهر أنه اسم مكان يعني إلا مكان قيام يقوم فيه يتعبد فيه لله - عَزَّ وَجَلَّ -.

ويجوز أن نجعله اسم زمان أيضًا أي: وقتًا يقوم فيه لله، ومكانًا يقوم فيه لله، فتكون عبادة الملائكة مؤقتة بزمن، ومقيدة بمكان، ولا منافاة بين القولين، والقاعدة في التفسير: أنه إذا كانت الآية صالحة لمعنيين لا ينافي أحدهما الآخر حملت عليهما جميعًا، ولأن حملها عليهما جميعًا أوسع في المعنى من تخصيصها بأحدهما، فإن كان أحدهما ينافي الآخر طلب الترجيح، فما رجحه المرجح أخذ به وترك الآخر.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ (وإنا) الضمير يعود على الملائكة، ﴿لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ يعني: الذين يصفون عند الله - سبحانه وتعالى -، كما جاء عن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا» فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»(١) هذا شأن الملائكة عند الله في مقام تعبدهم يصفون لله تعظيمًا له يكملون الأول فالأول، أقدمهم وأسبقهم أقربهم إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وهكذا صفوف الصلاة، كلما كان أقدم وأقرب إلى الإمام فهو أفضل.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [أقدامنا في الصلاة] وكلمة [أقدامنا في الصلاة]

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٣٠)، والنسائي (٨١٦).

تحتاج إلى دليل؛ لأن ظاهر الوصف ﴿لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ أنه يعود على الملك نفسه لا على القدم، ثم إنا إذا قلنا: أقدامنا نحتاج إلى إثبات أن للملائكة أقدامًا، والله ـ سبحانه وتعالى ـ قد وصف الملائكة أنهم أولو أجنحة، فيحتاج هذا إلى دليل.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ فيها مؤكدان: المؤكد الأول: إنا، والثاني: اللام في قوله: ﴿لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٦] الجملة مؤكدة بمثل ما أكدت الأولى.

يعني وإنا معشر الملائكة لنحن المسبحون، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [المنزهون الله عما لا يليق به]؛ لأن التسبيح بمعنى التنزيه.

وتنزيه الله معناه تنزيهه عما لا يليق به ومداره على أمرين:

أحدهما: أن ينزه عن مماثلة المخلوقين، ودليله قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

الثاني: أن ينزه عن نقص في كماله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] فلما ذكر خلقه لهذه السماوات العظيمة والأرض في هذه المدة الوجيزة بين أنه لم يلحقه في ذلك تعب ولا إعياء، وهذا تنزيه لله عن النقص في كماله.

قال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ الجملتان اسميتان، قال أهل العلم: والجملة الإسمية تدل على الثبوت والاستمرار، يعني أن هذا دأبهم، ويدل لذلك قوله تعالى في وصفهم: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩ ـ ٢٠] فالملائكة دائمًا في عبادة ليسوا كالبشر عندهم غفلة ولهو وسهو، بل هم دائمًا في عبادة الله، فهنا ثلاثة أقسام من الخلق.

١ ـ شياطين، فهؤلاء دائمًا في معصية.

٢ ـ وملائكة، وهؤلاء دائمًا في طاعة.

٣ ـ وبشر، وهؤلاء أحيانًا في طاعة، وأحيانًا في معصية، وأحيانًا في غفلة.

الفوائد:

١ ـ من فوائد قوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ بيان أن الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ منزهون عما يدعيه هؤلاء من كونهم بنات الله، ووجه ذلك أنهم مكلفون بالعبادة على حد معلوم، ومن كان مكلفًا بالعبادة لا يمكن أن يكون ابنًا أو ولدًا للمعبود.

٢ ـ ومن فوائدها: كمال انتظام الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بكونهم يلتزمون بالمقامات المعلومة التي عينها الله لهم ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾.

٣ ـ ومنها: الإشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يكون وقته منظمًا، وأن يجعل لكل شيء عملاً معلومًا حتى لا يضيع عليه الوقت؛ لأن الإنسان الذي يعمل بالوقت جزافًا لا ينتفع به، ولكن لا يعني قولنا هذا أن الإنسان يستمر على حال واحدة؛ لأنه قد يعرض للمفضول ما يجعله أفضل من الفاضل، بمعنى أنك لو رتبت نفسك ثم طرأ ما يوجب مخالفة هذا النظام فلا حرج عليك أن تخرق هذا النظام؛ لأن الرسول ﷺ كان يصوم حتى يقال: لا يفطر، وكان يقوم حتى يقال لا ينام(١)، أو بالعكس حسب ما تقتضيه المصلحة.

٤ ـ **ومن فوائد الآيات الكريمة عمومًا:** أن الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من أكمل الناس عبادة، حيث يجتمعون على عبادة الله، فيصفون له تعظيمًا له ؛ لقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها:** أنه ينبغي تأكيد الخطاب إذا كان المخاطب منكرًا، أو مترددًا، أو كان المعنى ذا أهمية يحتاج إلى التوكيد ؛ لقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ من أجل تقرير هؤلاء المنكرين الذين يدعون أن الملائكة بنات الله فيقولون: نحن نصف لله تعبدًا له وتعظيمًا.

٦ ـ **ومن الفوائد:** كمال تنزيه الملائكة لله في قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها:** أن دأبهم أيضًا التسبيح، كما قال الله ـ تعالى ـ : ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

ونستدل بهذه الآية؛ لأن الجملة جاءت اسمية، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار.

٨ ـ **ومن فوائدها:** تنزيه الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ألسنة الملائكة عن كل ما لا يليق به، وهو ـ سبحانه وتعالى ـ منزه عن كل ما لا يليق به، ولهذا جاءت الآيات الكثيرة في نفي المماثلة عن الله، ونفي النقص وإثبات الحكمة ونفي اللعب والباطل في حقه تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص:٢٧]. ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨] ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على كماله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وانتفاء اللعب والبطلان عن أفعاله.



قال الله تعالى:

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات: ١٦٨ ـ ١٧٠].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٧٢)، ومسلم (١١٥٨).

التفسير

قوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ﴾ إن هنا: مخففة من الثقيلة.

فأصلها: وإنّهم كانوا، لكن خففت فقيل: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ﴾.

واسمها يكون محذوفًا، ويسمى ضمير الشأن، وضمير الشأن قالوا: إنه يكون مفردًا مذكرًا؛ لأن كلمة الشأن مفرد مذكر والتقدير: وإن كانوا، وإنه أي: شأنهم ليقولون.

وقيل: إن ضمير الشأن يقدر بحسب السياق إن كان مفردًا مذكرًا فهو مفرد مذكر، وإن كان جمعًا فهو جمع، وبناء على هذا يكون تقدير الآية هنا: وإنهم كانوا ليقولون.

(كانوا) فعل ناقص، الواو هي الاسم، واللام في قوله: ﴿لَيَقُولُونَ﴾ لام التوكيد، وجملة يقولون: خبر كان، وكان واسمها وخبرها خبر إن المخففة من الثقيلة.

﴿كَانُوا۟﴾ أي: كفار مكة ﴿لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ يعني: لو نزل علينا الكتاب ككتب الأولين لكنا عباد الله المنقادين لشرعه المخلصين له.

ولكن هذه الحجة مردود بقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ﴾ [الأنعام: ١٥٥ ـ ١٥٧] إذن هذه الدعوة منهم مكابرة؛ لأنه أنزل عليهم كتاب أهدى الكتب وأقوم الكتب، ومع ذلك كفروا به ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما يذكرنا، والذي يذكر هو الكتاب، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] فالمراد بالذكر هنا ما يتذكر به الإنسان وهو الكتاب، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال المؤلف: [من كتب الأمم الماضية] فيكون على تقدير مضاف من الأولين أي: من كتبهم، وليس منهم أنفسهم، بل من الكتب التي نزلت إليهم، لو أن عندنا من هذا شيئًا ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ اللام واقعة في جواب (لو)، و (لو) هنا شرطية، أو مصدرية؟ شرطية، والشرطية لا يليها إلا فعل، وهنا وليتها أن في قوله تعالى: ﴿أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا﴾. فقالوا: وليتها أن ولكنها على تقدير فعل، يعني: لو ثبت أن عندنا ذكرًا ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟﴾ [الحجرات: ٥] يعني: لو ثبت أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرًا لهم.

وقوله: ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: بالعبودية الشرعية؛ لأنهم بالعبودية القدرية كائنون فهم عبيد الله قدرًا، ولا يمكن أن يحيدوا عن قضاء الله وقدره، لكن لو كنا عباد الله شرعًا.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [المخلصين العبادة له]، المخلصين بكسر اللام هكذا فسر المؤلف، ولهذا قال: العبادة له.

﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بالفتح الذين أخلصهم الله واصطفاهم.

فصار في المخلصين قراءتان: فتح اللام وكسرها، فعلى قراءة الفتح يكون المعنى: الذين أخلصهم الله - تعالى - لنفسه واصطفاهم، وعلى قراءة الكسر يكون معناه: الذين أخلصوا له العبادة، والمعنيان متلازمان؛ لأن كل من أخلص لله العبادة قد أخلصه الله لنفسه.

قال المؤلف - رحمه الله -: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [بالكتاب الذي جاءهم، وهو القرآن الذي أشرف من تلك الكتب ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم].

تقدير الآية: فقد جاءهم كتاب وجاءهم الذكر، ولكن لم يقبلوا هذا الذكر وكفروا به تكذيبًا في الخبر، واستكبارًا عن الأمر، فهم كذبوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - لما قال: إنكم ستبعثون فقالوا: لا بعث، وقال: إنه حق.

فقالوا: كاذب، وقال: اعبدوا الله وحده لا شريك له.

فعبدوا الأصنام، فهم ما صدقوا بما أخبر الله به في كتابه، ولا امتثلوا الأمر وانقادوا له، بل جمعوا بين كفر الجحود والاستكبار، - والعياذ بالله - مع أن القرآن أشرف من الكتب التي ادعوا أنه لو أتاهم من جنسها لكانوا عباد الله المخلصين، ومع هذا كفروا بهذا الكتاب، وهذا يدل على أن دعواهم هذه من أكذب الدعاوي. فقيل لهم: هذا ذكر، جاءكم ذكر من أشرف الأذكار وأعظم الكتب السابقة، ومع ذلك كفرتم به.

قال الله - تعالى -: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟﴾ للترتيب، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ للترتيب والسببية، أي: فبسبب كفرهم سوف يعلمون عاقبة أمرهم، وذلك بالذل في الدنيا والعذاب في الآخرة، وهذا الأمر حصل - ولله الحمد - فإن الله أذلهم في أعظم موقعة كانوا يفتخرون بها ويظنون فيها العزة والنصر في عزوة بدر، فإنهم خرجوا بصناديدهم وأشرافهم وكبرائهم، حتى قال أبو جهل لما أشير عليه بالرجوع قال: (والله لا نرجع حتى نقدم بدرًا فننحر فيها الجزور، ونشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا). فانظر إلى البطر والكبر. حصل أن قتل هو والزعماء والأشراف الذين معه، وسمعت بهم العرب، وتحدثت العرب بأخبارهم بما فيه العار والخزي إلى يوم القيامة، فهذا من العواقب الوخيمة، وفي بلدهم مكة خرج النبي ﷺ منها خائفًا مستترًا، ودخلها ظافرًا منصورًا مؤزرًا، رفعت الراية عند مدخل مكة عند الحجون ودخل البيت وكسّر الأصنام، ووقف على الباب وقريش تحته ينتظرون ماذا يفعل.

فقال: «مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُم مَعْشَرَ قُرَيْشٍ» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم[1]، فعفى

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (٤/ ٣١-٣٢)، وعنه الطبري في «التاريخ» (٣/ ١٢٠)، كذا قال الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١١٦٣).

عنهم - عليه الصلاة والسلام - وسموا الطلقاء، أي: من القتل والأسر، فانظر كيف كانت هذه العاقبة، فالنبي ﷺ حماه الله منهم.

تآمروا أن يقتلوه أو يثبتوه أو يخرجوه، ولكن صارت المؤامرة عليهم، هم الذين منَّ عليهم الرسول ﷺ فأطلقهم على أن ما في الآخرة أشد وأعظم، قال الله - تعالى - : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور:٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة:٢١] فعذاب الآخرة أشق - والعياذ بالله - والغرض من قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، تهديد المكذبين للرسول ﷺ.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآيات الكريمات:** أن هؤلاء المكذبين للرسول - عليه الصلاة والسلام - يدعون أنه لم يأتهم ذكر يتذكرون به، ولهذا يعترضون هذا الاعتراض يقولون: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أن حجج الكفار حجج مكابرة ليست مبنية على حق، فمثلاً قولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ماذا نقول: باطل، بل عندكم ذكر من أفضل الأذكار على الإطلاق.

٣ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** أن الناس لا يمكن أن يكون لهم استقامة إلا بكتب نازلة من السماء حتى المشركون الكفار يقرون بهذا ؛ لقوله: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ وهذه الفائدة يشهد لها الواقع، فإن الأمم الذين لم يتنزل عليهم الكتب، تجدهم في فوضى مطردة، لايستقيم لهم حال، ولا يمشون على خط مستقيم، بخلاف الأمم التي تنزل عليها الكتب، فإنها تكون مستقيمة بقدر تمسكها بهذه الكتب.

٤ - **ومن فوائدها:** أن الكتب المنزلة ذكر لمن نزلت إليهم ومعنى كونها ﴿ذِكْرًا﴾ على ثلاثة أوجه: فهي ذكر أي: شرف لمن نزلت إليهم، وهي ذكر يتذكرون بها ويتعظون بها، وهي ذكر يتقربون إلى الله - تعالى - بها؛ لأنها أفضل أنواع الذكر.

٥ - **ومن فوائد هذه الآيات:** أن هؤلاء الذين ادعوا لو أن عندهم ذكرًا من الأولين ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ كانوا كذبة بدليل أن عندهم ذكرًا من الأولين، ولكن كفروا به، وسبق لنا أن كفرهم به، يشمل النوعين من الكفر، وهما: الجحد والاستكبار.

٦ - **ومن فوائد الآيات:** تهديد الكافرين ؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، وتهديد الكافرين لا شك أنه مطابق للحكمة؛ لأن الحجة قد قامت عليهم، وقد قال الله - تعالى - : ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].



قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٧١ـ١٨٢]

التفسير

ثم قال الله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: تقدمت في الأزل، وكلمة الله بينها هنا بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾، هذه هي الكلمة السابقة التي قضى بها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في الأزل.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾ الجملة هنا فيها عدة مؤكدات وهي: اللام، وقد، والقسم المقدر.

والتقدير: وتالله لقد سبقت، أو ووالله لقد سبقت، وكل جملة تأتي على هذا الوجه، ففيها هذه المؤكدات: القسم، واللام، وقد.

وقوله: ﴿كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ المراد بالعباد هنا: العبودية الخاصة، بل أخص الخاصة وهي عبودية الرسالة.

وعبودية الخلق لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عبودية كونية، وهذه عامة شاملة لجميع الخلق فما من مخلوق إلا وهو ذال لله قدرًا، وعبودية الرسالة؛ لأن الرسل مكلفون بما لم يكلف به غيرهم، فهم مكلفون بتحمل الرسالة وإبلاغها إلى الخلق ودعوة الناس إليها، ولهذا لا يرسل الله رسولاً إلا وهو يعلم أنه أهل للرسالة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٤] وقال الله لنبيه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٣ ـ ٢٤] فلما ذكر أنه نزل عليه القرآن لم يقل: فاشكر الله على هذه النعمة، بل قال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٤] إشارة إلى أن تنزيل القرآن عليه أمرٌ يحتاج إلى صبر؛ لأنه يحتاج إلى معاناة ومجابة الناس، ومن تأمل ما حصل للرسول ﷺ من منابذة قومه له، وإيذائهم إياه تبين له الحكمة في أنه قال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٤].

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهي: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] أو هي قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾] فـ(أو): هنا للتردد يعني هل الكلمة هي قوله

تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ والاحتمال الثاني أولى؛ لأن الاحتمال الثاني يجعل تفسير الكلام في ضمن الكلام، والأول يجعل تفسير الكلام منفصلاً عنه، وإذا كان تفسيره متصلاً كان أولى، وعلى هذا فتكون الكلمة﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ وهي جزء من قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة:٢١].

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات:

الأول: إن.

والثاني: اللام في (لهم).

والثالث: هم؛ لأن (هم) ضمير فصل، ثم هي أيضًا من حيث بنيتها.

جملة توكيدية؛ لأنها جملة اسمية، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار.

فـ (إن) للتوكيد، واللام للتوكيد، وهم ضمير الفصل للتوكيد، وضمير الفصل من حيث الإعراب ليس له محل من الإعراب، ومن حيث المعنى يفيد ثلاثة أشياء: التوكيد، والحصر، والفصل بين الخبر والصفة، ولهذا سمي ضمير فصل، ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ الهاء اسم إنّ، واللام للتوكيد، وهم ضمير فصل لا محل له من الإعراب. والمنصورون خبر إن.

يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ﴾ يعني: لا غيرهم ﴿ٱلْمَنصُورُونَ﴾ أي: الذين ينصرهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بما يقدره من الآيات، أو بما يرسله من الجنود، ففي بدر أرسل الله الملائكة فقاتلت مع النبي ﷺ، وفي الأحزاب أرسل الله ـ تعالى ـ الريح الشديدة ومعها جنود، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب:٩] فجمع الله في الأحزاب بين الملائكة تدخل الرعب في قلوب هؤلاء الأعداء، وبين الريح التي تزلزلهم حتى لم يقر لهم قرار فهربوا، فهم منصورون من قبل الله بما يرسل من الآيات، أو من الملائكة.

وقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾ الجند هم المدافعون عمَّن هم جند له، الذين ينصرونه ويدافعون عنه، ومنه جنود الأمير والسلطان وما أشبه ذلك، وهنا يقول: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾ أي: جند الله، وهؤلاء الجند ليسوا جندًا لله لحاجة الله إليهم.

ولكن؛ لأنهم يدافعون عن شرعه فصاروا جندًا له، وهؤلاء الجند هم الغالبون؛ لكونهم جند الله، والله ـ سبحانه وتعالى ـ له الغلبة: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة:٢١] فجند الله الذين يذبون عن شريعته لابد أن تكون لهم الغلبة.

ولهذا قال: ﴿لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ والجملة كالأولى مؤكدة بثلاثة مؤكدات: إن، واللام، وضمير الفصل.

والغالبون اسم فاعل من غلب، وغلب فعل متعد، والفعل المتعدي لابد فيه من فاعل ومفعول.

فالفاعل الجند ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ لكن الغالبون بأمر الله لا شك، والمفعول محذوف والتقدير: كما قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿الغالبون الكفار بالحجة والنصرة عليهم في الدنيا، وإن لم ينتصر بعض منهم في الدنيا ففي الآخرة].

أشار المؤلف إلى إشكال كنا نريد أن نؤخره إلى الفوائد، لكن الآن لابد من الكلام عليه.

وقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ فبين الله بيانًا مؤكدًا بثلاثة، وأكد فيما قبل أن الرسل هم المنصورون، فإذا قال قائل: هل هذا الكلام المؤكد من الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مطابق للواقع، أو أن في الواقع ما يخالفه؟

فإذا قلت: مطابق للواقع ورد عليه في أحد كانت الغلبة للمشركين، وفي الأنبياء من قتل ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران:١١٢] وفي أهل الخير من قتل ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:٢١] فما هو الجواب عن هذا؟

الجواب عن هذا من وجوه:

الوجه الأول: إما أن يكون النصر الذي وعد الله به الرسل، بناء على أكثر، فإن الأغلب الأكثر بلا شك انتصار الرسل على أعدائهم واقرأ الآيات في الرسل تجد أن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ [الشعراء:٦٥ ـ ٦٦] وهذا انتصار بلا شك.

الوجه الثاني: أن يقال: إن المراد بالنصر نصر من أمروا بالجهاد، فمن أمر بالجهاد فإن الله قد تكفل لهم بالنصر، وأما من لم يؤمروا به فليس هناك مغالبة بينهم وبين أعدائهم حتى يقال: إنهم انتصروا، ويكون قتلهم غير منافٍ للآية.

الوجه الثالث: أن يقال: إن المراد بالنصر المطلق هو نصر الآخرة، أما نصر الدنيا فليس بمضمون.

الوجه الرابع: أن المراد بالنصر انتصارهم بالحجة لا بالشخص، يعني انتصار ما جاءوا به، وظهوره دون الغلبة الحسية، فإن ذلك ليس بذي أهمية بالنسبة لغلبة ما جاءوا به من الشريعة.

فهذه أربعة أوجه في الجواب عن الواقع، الذي قد يخالف ظاهر الآية، ويجب أن نعلم أنه لا يمكن أن يوجد في القرآن شيء صريح يخالف الواقع ولا في السنة شيء صحيح صريح يخالف الواقع.

وتأمل القيد في قولنا بالنسبة للسنة: «صحيح»؛ لأنه قد يأتي في السنة أحاديث غير صحيحة، فلهذا احتجنا أن نقول: صحيح، أما في القرآن فلا يحتاج أن نقول: صحيح؛ لأنه منقول: بالتواتر فكله صحيح إذن لا يمكن أن يوجد في القرآن شيء صريح يخالف الواقع ولا في السنة شيء صحيح صريح يخالف الواقع، فإن وجد ما ظاهره مخالفة الواقع،فاعلم أنه إما أن يكون مخالفة ولكن المخالفة من وهمك، بمعنى أن يكون الواقع،غير مخالف لظاهر القرآن، أو يكون ما ظننته

صريحًا من القرآن غير صريح، فمثلاً كثير من العلماء - وليس أكثر العلماء - يقولون: إن الأرض ليست كروية؛ لأن الله يقول ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:١٧ - ٢٠].

والسطحية تنافي الكروية فإذن من قال: إن الأرض كروية فقد خالف صريح القرآن؛ لأن الله يقول: ﴿سُطِحَتْ﴾ فأنكروا أن تكون الأرض كروية بناء على فهمهم أن القرآن صريح في ذلك.

ومن العلماء من قال: ﴿إنها كروية، والواقع يشهد لقول هؤلاء؛ لأنه لا يمكن أن نقول: الآن: إنها غير كروية، إذ لو أنك قمت من مطار جدة متجهًا إلى الغرب في طائرة فيكون منتهاك إلى جدة فترجع إلى جدة، إذن هي كروية، فالشاهد الواقع المحسوس يشهد لهذا، فنقول: إذن لابد أن يكون القرآن الذي زعموا أنه صريح بأنها ليست كروية لابد أن يكون على خلاف ما فهموا ولا يمكن أن يقول قائل: إن الواقع المحسوس كذب ولو قال: إن الواقع المحسوس كذب؛ لرماه الناس بالحجارة فضلاً عن حجارة الأفواه، وحينئذ يتعين علينا أن نقول: إن القرآن ليس صريحًا في هذا، فتحمل السطحية فيه على ما يحتاج الإنسان إليه من الأرض، فكل ما تحتاجه إليه من الأرض فهو سطح، يعني ما جعلت الأرض مسطحة مثل ظهر الجبل، أو مثل سفح الجبل، في صعودًا أبدًا، فكل ما تحتاج إليه فهو مسطح، يعني ما جعلت الأرض مسطحة مثل ظهر الجبل، أو مثل سفح الجبل، في صعودًا أبدًا، فكل ما تحتاج إليه فهو مسطح، ثم نقول: في القرآن ما يدل على أنها كروية، مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق:١ - ٤] فيفهم من قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق:٣] أنها غير ممدودة، ولهذا جاء في الحديث: «إِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَإِنَّ اللهَ يَمُدُّ الأَرْضَ مَدَّ الأَدِيمِ»(١) مد الأديم يعني: الجلد، فتكون سطحًا واحدًا.

وأيضًا دليل آخر مثل قوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر:٥] والتكوير: التدوير، ومعلوم أن الليل والنهار يدور على الأرض، فإذا كان هذا يدور فالذي يدور عليه يكون مستديرًا ولابد

المهم: القاعدة عندنا أنه لا يمكن أبدًا أن يوجد في الواقع المحسوس ما يخالف صريح المنقول: أبدًا، فالأولى نخاطب بها أهل المادة، والثانية نخاطب بها أهل العقول الذين يدعون أنهم أصحاب العقول كالمتكلمين وغيرهم، نقول: ليس في صريح القرآن ولا في صريح صحيح السنة ما يخالف المعقول.

ونخاطب بهذا أهل الكلام وغيرهم ممن يتكلمون في العقائد في المعقولات.

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٧٥)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٧٠٩).

وليس في صريح القرآن ولا في صريح صحيح السنة ما يخالف المحسوس، ونخاطب به أصحاب المادة الذين ليس عندهم إلا ما يشاهدونه بأعينهم، أو يسمعونه بآذانهم، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ محمول على أحد المحامل الأربعة.

وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾

الخطاب للرسول ﷺ ﴿عَنْهُمْ﴾ الضمير يعود على أهل مكة، والمراد بالتولي ما فسره المؤلف ـ رحمه الله ـ بقوله: [أي: أعرض عن كفار مكة].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يعني: إلى حين غير مبين، لكن علمه عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ولهذا قال المؤلف: [﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تؤمر فيه بقتالهم] وعلى هذا فتكون الآية منسوخة بآيات السيف، فإن الرسول ﷺ لم يؤمر بالقتال إلا حين كان له قوة، وكان له شوكة، وذلك بعد هجرته إلى المدينة، أما في مكة فلم يؤمر بالقتال؛ لأن الحكمة لا تقتضيه وعلى هذا فيكون الحين الذي أُجل عليه التولي هو الأمر بقتالهم.

وقوله: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ يعني: انظر إليهم إذا نزل بهم العذاب، وعلى هذا فيكون الإبصار البصر بالرؤية، يعني أنك ستبصرهم إذا نزل بهم العذاب، فيكون أمرًا للنبي ﷺ بالإبصار حينما ينزل بهم العذاب، والمراد بقوله: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ تسلية الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتطمينه بأن هؤلاء سوف يرون جزاءهم.

وقيل: إن المراد بالإبصار هنا الإنظار، ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ يعني أنظرهم أيامهلهم، كما في قوله: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق:١٧] وكما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [السجدة:٢٩] وغاية القولين واحدة، يعني سواء قلنا: أبصرهم بعينك حين ينزل بهم العذاب، أو أنظرهم حتى يأتيهم العذاب.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ هذه الجملة يراد بها: تهديد هؤلاء بأنهم سوف يبصرون عاقبة أمرهم، وذلك بالذل والخزي والعار في الدنيا، وكذلك، في الآخرة بالعذاب.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [فقالوا استهزاء: متى نزول هذا العذاب؟ قال الله ـ تعالى ـ تهديدًا لهم: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾] الهمزة في قوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ للاستفهام، والفاء عاطفة، وقد ذكر أهل العلم أن همزة الاستفهام إذا دخلت على حرف العطف، فإنه يجوز في إعرابها وجهان:

الوجه الأول: أن يكون المعطوف عليه مقدرًا بين الهمزة وحرف العطف، ويقدر بما يناسب.

الوجه الثاني: أن تكون الجملة معطوفة على ما سبق بدون تقدير، ويكون محل الهمزة بعد حرف العطف، وعلى هذا يكون التقدير: فـ(أبعذابنا) يستعجلون.

وعلى الأول تقدر ما يناسب المقام فتقول: أسخروا فبعذابنا يستعجلون.

واستعجالهم العذاب على وجهين:

الوجه الأول: أن يكون بالقول، فيقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الملك:٢٥] أين العذاب الذي تعدوننا به؟!

الوجه الثاني: أن يكون بالفعل وذلك بتماديهم بالمعصية؛ لأن المتمادي بالمعصية هو مستعجل للعذاب في حقيقة الأمر؛ لأن المعاصي سبب للعذاب، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

فاستمرار هؤلاء بتكذيب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقتضي أن يتعجل لهم العذاب، وهذا استعجال بالفعل، فهؤلاء جمعوا بين الوجهين: الاستعجال بالفعل وبالقول.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (نا) هنا للتعظيم وليست للجمع؛ لأن الله ـ تعالى ـ واحد، وكل ضمير أضافه الله إلى نفسه بصيغة الجمع فالمراد به التعظيم.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ الفاء تعود على العذاب، أي: إذا نزل العذاب بساحتهم، والساحة ساحة القوم أي: فناءهم، وهو ما قرب من بيوتهم وأرضهم، وهذا يعبر عنه بالتهديد والوعيد، فيقال: نزل العدو بساحتهم، كما في الحديث الصحيح في قصة خيبر أن النبي ﷺ لما أقبل عليهم جعلوا يركضون إلى مخابئهم يقولون: جاء محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: «إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ»[1].

فهنا يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: حل العذاب بهم، وبساحتهم أي: بفنائهم، وهذه الكلمة يقولها العرب للتهديد، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [قال الفراء: العرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم]، (الفراء أحد علماء اللغة العربية وهو حجة فيما يقول).

فكأنه يقول: تقدير الآية: فإذا نزل بهم، ولكن لا حاجة إلى أن نقول: هذا القول؛ لأنه من المعروف أن العدو إذا نزل في القوم ليس ينزل في دورهم من أول وهلة، ولكنه ينزل بساحتهم ومنازلهم، ثم يهجم عليهم ويغير عليهم، وفي هذا استعارة ـ كما يقول البلاغيون ـ حيث شبه العذاب بعدو ينزل بهم يعني: بساحتهم، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو النزول بالساحة، ومثل هذه الاستعارة يسمونها استعارة مكنية؛ لأنه حذف فيها المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه.

وقوله: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: في (فساء) [بئس صباحًا، ﴿صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾] وذلك؛ لأن ساء من أفعال الذم، وأفعال الذم تحتاج إلى شيئين:

فاعل، وتمييز، فقدر المؤلف التمييز بقوله: [صباحًا]، وأما الفاعل فهو في الآية، وهو قوله:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١٠)، ومسلم (١٣٦٥).

﴿صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: بئس صباح المنذرين صباحًا، أو ساء صباح المنذرين صباحًا، فالمؤلف قدّر التمييز، ولكن هل هذا التقدير لازم؟ الصحيح أنه ليس بلازم، وأن الفاعل يسد مسده، كما في هذه الآية وفي كثير من الآيات أيضًا مثل: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١١] ولم يقل: نعم العبد عبدًا.

وقوله: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾: المنذرين اسم مفعول أي: ساء صباح القوم الذين لا حجة لهم؛ لأنهم أُنذروا وقامت عليهم الحجة فليس لهم عذر.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [فيه إقامة الظاهر مقام المضمر]؛ لأن مقتضى السياق أن يقول: فإذا نزل بساحتهم فساء صباحهم، لكنه قال: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فأقام الظاهر مقام المضمر.

وإقامة الظاهر مقام المضمر لابد لها من فائدة: إما لفظية، وإما معنوية، وإما لفظية معنوية، وهنا إقامة الظاهر مقام المضمر له فائدة لفظية ومعنوية، فاللفظية هي: مراعاة فواصل الآيات.

لأن الله ـ تعالى ـ يعبر بالكلمة والظاهر خلاف التعبير بها من أجل مراعاة الفواصل.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠] ومن المعلوم أن موسى أفضل من هارون، وهو يقدم عليه في كتاب الله، لكن في هذه الآية قدم هارون على موسى مراعاة للفواصل؛ لأن سورة طه فواصلها غالبها بالألف.

وهنا نقول: (فساء صباحهم) لم تنسجم الفاصلة مع التي قبلها والتي بعدها، فقال: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ وهذه فائدة لفظية.

أما المعنوية فهي التعميم وانطباق الوصف عليهم وإقامة الحجة على هؤلاء الذين نزل العذاب بساحتهم، وهي أنهم قد أنذروا ولم يكن لهم عذر، واستحقوا العذاب بعدل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

والإنذار يقول العلماء: هو: الإعلام المقرون بالتخويف.

والبشارة هي: الإعلام المقرون بما يفرح ويسر.

فالبشارة بالسار، والإنذار بخلافه.

إذن: ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ الذين أنذروا بإقامة الحجة عليهم أي: أعلموا بما يخوفهم إذا خالفوا أمر الله.

قال: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ كرر تأكيدًا لتهديدهم، وتسلية لرسول الله ﷺ، والآية التي قبلها يقول: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ وهنا قال ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ فلم تختلف عنها إلا بحرف العطف الأول (فتول) والثاني و (تول)، والأولى قال: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ والثانية (وأبصر)، فأطلق وإلا فهي هي، والفائدة من التكرار هو تكرار إنذارهم وذلك بتهديدهم، وتسلية الرسول ﷺ؛ لأنه كلما كرر الكلام ازداد توكيدًا.

وقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ سبحان: اسم مصدر سبح.

وهي منصوبة على أنها مفعول مطلق لفعل محذوف وجوبًا، ولهذا لا يجمع بين سبحانه وسبح، ما يقال: سبح سبحان، و ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ﴾ أي: تنزيهًا له، وقد تقدم ماذا ينزه الله عنه، وقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ أضاف الربوبية إلى الرسول ﷺ فيكون المراد بها ربوبية خاصة؛ لأن الربوبية تنقسم إلى قسمين: عامة لجميع الخلق وهذه ربوبية السلطة والتدبير، وخاصة وهي ربوبية التربية والعناية، وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى عن سحرة فرعون قالوا: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء:٤٧ ـ ٤٨] فالأولى عامة ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والثانية خاصة ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، ولهذا صار من مقتضى هذه الربوبية أن الله ـ تعالى ـ قال لهما: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦] قال: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ﴾ والخطاب للرسول ﷺ أي: تنزيهًا لربك الذي شملك برعايته وعنايته ثم قال: [رب العزة] أي: الغلبة، ورب هنا بمعنى صاحب، وليست بمعنى خالق، وهي في القرآن تأتي بمعنى خالق ومالك مدبر إلا في هذا الموضع فالمراد بها صاحب فقط، ولا يمكن أن تكون بمعنى خالق؛ لأن، العزة صفة من صفات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وصفات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ غير مخلوقة فيتعين أن يكون المراد بالرب في قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ صاحب العزة، وليس خالقًا للعزة؛ لأن صفات الرب غير مخلوقة وقوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ أضاف الرب هنا إلى العزة دون غيرهما من صفاته؛ لأن المقام يقتضي ذلك، فإن المقام الآن في ذكر مآل النبي ﷺ ومآل المكذبين له، وأن مآله أن ينصره الله وأن تكون الغلبة له، وأن يكون الذل والخذلان لأعدائه، فالمقام هنا يقتضي الصفة التي تكون بها الغلبة وهي العزة، قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في سورة المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨] وهذه حقيقة يخرج الأعز الأذل، لكن من الأعز ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨] وأما المنافقون فلا عزة لهم، وعلى هذا فنقول: إن الله ذكر هنا صفة العزة دون غيرها؛ لأن المقام يقتضي ذلك، حيث أنه في سياق الغلبة للرسول ﷺ والذل لأعدائه، ومن أسماء الله ـ تعالى ـ: العزيز، وما أكثر وروده في الكتاب العزيز، قال العلماء: وللعزة ثلاثة معانٍ:

الأول: عزة الغلبة. **الثاني**:) عزة القدر. **الثالث**: عزة الامتناع.

فعزة الغلبة معناها: أن الله ـ تعالى ـ غالب لكل شيء.

وعزة القدر أن الله ـ تعالى ـ فوق كل شيء قدرًا.

وعزة الامتناع أن الله ـ تعالى ـ ممتنع أن يناله أحد بسوء.

ومن الثالث قولهم: أرض عزاز يعني صلبة قوية ما تؤثر فيها المعاول.

﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يجوز في (ما) أن تكون مصدرية ويكون تقدير الكلام: سبحان ربك رب العزة عن وصفهم.

ويجوز أن تكون (ما) موصولة، ويكون العائد محذوفًا، والتقدير: عما يصفونه به.

وقول المؤلف: [بأن له ولدًا] هذا كالمثال لما يصفون الله به مما ينزه عنه، وإلا فهم يقولون: إن له ولدًا، وله زوجة، وله شريكًا، وله معينًا وهكذا، فكل وصف لا يليق بالله فإن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ منزه عنه، وإن وصفه به هؤلاء الأفاكون الكذابون.

ثم قال ختامًا: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

﴿وَسَلَٰمٌ ﴾ مبتدأ، و ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ خبره، والسلام هنا بمعنى التسليم، فهو اسم مصدر سلم مثل: كلام بمعنى التكليم ومعنى السلام عليهم: أن ما قالوه في ذات الله وفي صفات الله سلام من كل نقص.

فيكون الله ـ تعالى ـ قد سبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول، ثم سلم على الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لسلامة ما قالوه من نقص وعيب، فليس فيه كذب، وليس فيه سوء، ولهذا قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ المبلغين عن الله التوحيد والشرائع].

ولما ذكر التنزيه فيما وصف به نفسه وفيما وصفته به رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، ذكر بعد ذلك الحمد الذي هو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، فيكون في الآيات جمع بين التنزيه عن صفات النقص وبين إثبات صفات الكمال، وأتى بإثبات صفات الكمال بعد التنزيه؛ لتكون التحلية بعد التخلية، يعني التزين بعد إزالة الأذى.

وقوله: ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الحمد: وصف المحمود بالكمال المحبة والتعظيم، وكمال الله ـ سبحانه وتعالى ـ يدور على أمرين: كمال ذاتي، وكمال فعلي:

أما الكمال الذاتي فهو ـ سبحانه وتعالى ـ كامل في ذاته المتصفة بكل صفة كمال.

والكمال الفعلي أن الله ـ تعالى ـ كامل في أفعاله، فله الفضل على عباده بجلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم، ولهذا شرع للإنسان إذا انتهى من الأكل والشرب أن يحمد الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ما رزقه من الطعام والشراب، وإن شئت فقل: إنك تحمد الله الذي لا يحتاج إلى ما تحتاج إليه من الأكل والشرب.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: خالقهم ومالكهم ومدبر أمورهم.

والعالم كل من سوى الله، وسموا عالمًا؛ لأنهم علم على خالقهم ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ففي كل شيء من مخلوقات الله آية تدل على وحدانيته وكماله.

﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [على نصرهم ـ أي: نصر الرسل ـ وهلاك الكافرين] ولو أن المؤلف جعلها مطلقة ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ على كل شيء حتى على ما يقدره أحيانًا من غلبة أعدائه على أوليائه فإنه يحمد على ذلك، لما يترتب عليه من المصالح العظيمة كما في غزوة أحد التي ذكر الله ـ تعالى ـ فيها من الحكم أشياء كثيرة، ذكر منها جزءًا كبيرًا ابن القيم

ـ رحمه الله ـ في زاد المعاد.

والفائدة من قوله: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أن يثبت لنفسه صفات الكمال بعد أن نفى عن نفسه صفات النقص، ليجمع فيما وصفه به نفسه بين النفي والإثبات.

الفوائد:

١ ـ **من الفوائد** أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كتب لعباده المرسلين النصر؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾، وكلمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الكونية لا تتبدل.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمة:** تسلية الرسول ﷺ وتثبيته على ما كان عليه من الرسالة.

٣ ـ **ومن فوائدها:** تهديد أعداء الرسل وأنهم مخذولون؛ لأنه إذا كتب النصر للرسول فسيكون الخذلان لأعدائهم.

٤ ـ ومنها: أن نصر الرسل يكون من الله وبما يسره ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من مخلوقاته وآياته، ولهذا قال: ﴿لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ ولم يبين من الناصر ليكون هذا أشمل، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢].

٥ ـ ومنها: أن الغلبة لجنود الله الذين قاموا بنصر شريعته والذود عنها؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

٦ ـ **ومن وفوائدها:** تثبيت من دعا إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من أتباع الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بأن لهم الغلبة، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

فإن قال قائل: كيف تجمع بين هذه الآية وبين ما حصل لبعض الرسل وبعض أتباعهم مما ينافي ظاهر الآية؟ سبق لنا الجواب عليه من عدة أوجه فلتكن معلومة.

٧ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ﴾ تهديد هؤلاء المكذبين للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأن طغيانهم لن يدوم؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ فسينتهي هذا الطغيان، إما على يد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين يؤمر بالقتال، وإما بالموت بتقدير الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، فهم لابد أن ينتهي أمرهم، ولا يمكن أن يستمر طغيانهم.

٨ ـ **ومن فوائدها:** تسلية الرسول ﷺ حيث أخبر أن أذاهم سينتهي أمره بعد حين.

٩ ـ ومنها: تهديد هؤلاء الأعداء الذين بلغوا من الطغيان والعدوان على رسول الله ﷺ ما بلغوا.

١٠ ـ **ومن فوائد هذه الآيات:** تحقيق هلاكهم وزوالهم؛ لقوله: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ يعني: إذا نزل بهم العذاب فسوف تبصر وتشاهد بعينك.

١١ ـ ومنها: إعادة التهديد مرة ثانية بأسلوب آخر بقوله: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

١٢ ـ **ومن فوائدها:** تأكيد المعنى بالعبارات المختلفة، ليكون ذلك أبلغ، وليترقب هؤلاء المهددون العذاب من كل وجه؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

١٣ ـ **ومن فوائد الآيات الكريمة:** بيان سفه هؤلاء المكذبين وطغيانهم، حيث كانوا يستعجلون العذاب.

ووجه هذا أنهم لو كانوا عقلاء لكانوا يخشون العذاب ولا يستعجلونه، وأنهم لو كان عندهم نوع من الاعتدال ما صاروا يتحدون الرسل فيقولون: هاتوا العذاب إن كنتم صادقين.

فهم عندهم سفه، وعندهم مبالغة بالطغيان والعدوان، قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢] وهذا يدل على سفه قريش، وأنهم من أبلغ ما يكون في السفه، وأنهم لو كانوا علماء راشدين لقالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليك.

فهذ هو الصواب، أما فأمطر علينا حجارة من السماء. فهذا من أسفه ما يقوله البشر.

١٤ ـ ومنها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يتحدث عن نفسه في مقام الوعيد بصيغة العظمة، إرهابًا وإزعاجًا لهؤلاء المتوعدين؛ لقوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ولم يقل: (أفبالعذاب)، ولهذا لما جاء العذاب على سبيل الخبر قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩ ـ ٥٠] ولم يقل: وأن عذابنا.

١٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه إذا نزل العذاب بقوم فلن يفلتهم؛ لقوله: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾.

١٦ ـ **ومن فوائدها:** أنهم لو آمنوا في هذا الوقت فلن ينفعهم؛ لأنه لو نفعهم الإيمان لم تصدق عليهم هذه الجملة صدقًا كاملاً وهي قوله: ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾؛ لأنه لو نفعهم الإيمان لزال عنهم هذا السوء، ولكن الإيمان لن ينفعهم، وهذه سنة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في عباده إذا نزل بهم العذاب، فآمنوا، أن لا ينفعهم إيمانهم، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر:٨٤ ـ ٨٥] وقال فرعون لما أدركه الغرق: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠] فقيل: له: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩١] يعني: لن ينفعك، وقال الله ـ تعالى ـ في سورة النساء: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء:٨١] وكل هذا يوجب للإنسان العاقل أن يبادر بالتوبة وألا يتأخر وألا يهمل؛ لأنه لا يدري متى يفاجئه الموت، وإذا نزل به الموت فإنه لن تنفعه التوبة، فلابد أن تكون التوبة في وقت تقبل فيه، ويستثنى من هذا قرية واحدة آمنت بعد نزول العذاب فيها ونفعها إيمانها وهم قوم

يونس - عليه السلام -، والدليل على أنه نفعها إيمانها: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨] والحكمة أن هؤلاء نفعهم إيمانهم بعد نزول العذاب بهم؛ لأن نبيهم - عليه السلام - خرج مغاضبًا قبل أن يؤذن له بالخروج فكان هذا عذرًا لهم.

١٧ - **ومن فوائد هذه الآيات:** أن الله - سبحانه وتعالى - لن يهلك قومًا حتى يقيم عليهم الحجة بالإنذار ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، وهذا موجود في القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥]

والصحيح: أن هذا عام، في التوحيد وما دونه، فهو شامل لفروع الإسلام كالصلاة والزكاه والطهارة وما إلى ذلك، فإن الإنسان لا يلزمه شيء منها إلا بعد قيام الحجة وبلوغ الرسالة، ولهذا كان القول الراجح أن من عاش في بادية بعيدًا عن الناس، ولم يصم، ولم يصل، ولم يزك، وهو جاهل، فإنه لا قضاء عليه، ولو بقي سنوات، والدليل على هذا نصوص كثيرة من السنة تدل على أن من كان جاهلاً نشأ في بادية بعيدة لا يدري عن الشرع شيئًا فإنه لا قضاء عليه، فمثلاً الرجل الذي كان لا يطمئن في صلاته، بقي على هذا مدة الله أعلم بها، لا يحسن إلا هذا: إلا صلاة لا يطمئن فيها، ولم يأمره النبي ﷺ بإعادة ما مضى من صلاته، إنما أمره بإعادة صلاة الوقت الحاضر[1]؛ لأن مطالبته بها في هذا الوقت قائمة، فلهذا أمره أن يعيد حتى تكون صلاته صحيحه، أما ما قبل فلم يأمره بالإعادة، ولم يأمر المرأة التي قالت: إنها تحيض حيضة كبيرة شديدة تمنع من الصلاة، لم يأمرها أن تعيد الصلاة مع أنها مستحاضة، والمستحاضة تصلي، والأمثله على هذا كثيرة.

ولا فرق بين التوحيد وما دونه، فلو فرضنا: أن رجلاً مسلمًا كان قد نشأ في بلد بعيد يعبد هذا القبر، ولا يدري أنه كفر، فإنه لا يرمى بالكفر؛ لأنه مسلم ارتكب هذا خطأ ولم يتعمد بقلبه، فليس عليه شيء، كما أن من ارتكب محظورًا: شركًا فما دونه متأولاً، ولم يجد من يفتح عليه، فإنه لا يكون كافرًا؛ لأنه لابد من القصد، ومما ورد الرجل الذي ضاعت ناقته في فلاة من الأرض، وطلبها ولم يجدها، وأيس منها، واضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو كذلك إذا بخطام ناقته متعلقًا بالشجرة، فأخذ بخطامها وقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك[2]، فجعل نفسه ربًا، وجعل رب العالمين عبدًا، وهذه كلمة كفر، ولا شك في هذا، لكن هذا الرجل أخطأ من شدة الفرح، ولم يقصد الكلام، فلم يكن كافرًا لعدم قصده الكفر، وكذلك الرجل الذي كان مسرفًا

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٨٥٦)، والترمذي (٣٠٢)، والنسائي (١٠٥٣).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤).

على نفسه وقال لأهله: إذا مت فأحرقوني وذروني في اليم، ظنًّا منه أنه إذا فعل ذلك نجا من عذاب الله، ولكن الله قال له: كن فكان، فاجتمع فسأله - عَزَّ وَجَلَّ - : لم فعلت هذا؟ قال: خوفًا من عذابك يا رب.

قال له: خوفك من عذابي أنجاك من عذابي[1]، فأنجاه الله من العذاب، مع أن هذا كان شاكًّا في قدرة الله، لكن ليس عن قصد بل متأولاً، فلم يكن كافرًا، ومثل هذه المسائل لا يجوز الإنسان أن يتسرع فيها. - أعني مسألة التكفير والتفسيق أيضًا - ؛ لأن بعض الأخوة يسارع في التكفير، ويلاحظ المقالة دون القائل، ويلاحظ الفعل دون الفاعل.

فإذا كان هذا القول كفرًا، قال: من قال به فهو كافر مطلقًا، وإذا كان هذا الفعل كفرًا، قال: من فعله فهو كافر مطلقًا، ولم ينظر إلى الموانع؛ لأن هذا القول مثلاً: إذا كان مكفرًا كان سببًا للكفر، لا شك، وهذا الفعل إذا كان مكفرًا كان سببًا للكفر، لكن هل الأسباب يعتريها موانع أو لا؟

قد يكون هناك مانع في هذا الشخص المعين يمنع من الحكم بكفره، فمنه الجهل والإكراه والنسيان والغلبة على النفس بحيث لا يتمكن، ولهذا لو أن أحدًا سها وقال كلمة الكفر لا نقول: إنه يكفر، والنسيان والجهل صنوان في كتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ - وفي سنة رسول الله ﷺ.

إذن يجب على طالب العلم أن يفرق بين القول والقائل، والفعل والفاعل، فقد يكون القول كفرًا لكن القائل ليس بكافر، وقد يكون الفعل كفرًا، لكن الفاعل ليس بكافر، أرأيت لو أكره رجل أن يسجد لصنم، وقيل: إما أن تسجد وإما تضرب بالسيف.

فسجد دفعًا للإكراه لا تقربًا للصنم، أي: كفر؟ فلا يكفر؛ لأن الله يقول: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ [النحل:١٠٦] يعني: اختاره منشرحًا به صدره، فهذا الذي يقطع بكفره، وأما من ليس كذلك، فلا.

لهذا يجب علينا ألا نسارع في التكفير والتفسيق.

وبعض الناس لغيرته يسارع في التكفير والتفسيق، فاتق الله، واعلم أنك إذا كفرت شخصًا ليس بكافر عاد الكفر عليك، كما ثبت ذلك في الحديث عن رسول الله ﷺ[2]، أتريد أن تكون كافرًا؟ فلا تكفر إلا من قامت الحجة على كفره.

ولا تقوم الحجة على كفره إلا بأمرين:

١ - ثبوت أن هذا الشيء كفر.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠).

٢ـ تحقق شروط الكفر بحق هذا الفاعل أو هذا القائل.

وهذه المسألة أكررها لأهميتها؛ لأنه يبلغني أن قومًا من الناس لمجرد ما يقال إن فلانًا فعل كذا، يقول: أعوذ بالله، هذا كافر، ونبرأ إلى الله منه، وهذا غلط، فقتل النفس من كبائر الذنوب، ولما قتل أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ الرجل الذي قال: لا إله إلا الله متأولاً، ما قتله الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وغاية ما هنالك: أنه قال: «أَقَتَلْتَه بَعْدَ أَنْ قَالَ لَا إِلَه إِلَّا الله»؟ فقال أسامة: «يَا رَسُولَ الله إِنَّمَا قَالَهَا تَعَوُّذًا»[1].

والقصة: أن رجلاً من الكفار قالها فهرب، فلما أدركه أسامة قال: لا إله إلا الله، فقتله أسامة، ظنًّا منه أنه قالها تعوذًا، يعني خوفًا من القتل.

والقرينة قوية جدًّا، ولكن الرسول ﷺ لا يريد منا أن نحكم بها نظن، بل يريد أن نحكم بالظاهر، إنها أقضي بنحو مما أسمع.

قال: أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟ قال: يا رسول الله، إنما قالها تعوذًا من القتل، قال: «أَقَتَلْتَه بَعْدَ أَنْ قَالَ لَا إِلَه إِلَّا الله؟» قال: إِنَّمَا قَالَهَا تَعَوُّذًا، قال: «أَقَتَلْتَه بَعْدَ أَنْ قَالَ لَا إِلَه إِلَّا الله؟» يقول: فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت بعد.

فالحاصل: أنه يجب علينا أن نرفق بأنفسنا وبالناس، وأن لا نكفر أحدًا حتى يتبين لنا أن هذا الشيء كفر، وأن هذا الذي قاله أو فعله ينطبق عليه شروط التكفير حتى لا نبوء نحن بالكفر أو الفسق، والحمد لله الحكم إلى الله، فإذا كان الله لم يكفر هذا الشخص فلماذا نكفره؟

وإذا كفرنا من لم يكفره الله لم يكفر هذا الشخص فلماذا نكفره؟

وإذا كفرنا من لم يكفره الله، فكأنما حرمنا ما أباحه الله، أو أبحنا ما حرمه الله، فعلينا أن نتق الله، والأصل في المسلم الإسلام، فما دام يدين بالإسلام، لكن يفعل خصلة من الكفر، أو يقول قولاً هو كفر وهو جاهل، لم ينشأ في بلد استتب فيه الإسلام، فكيف نقول: إن هذا كافر؟

رجل بدوي ناشيء في أرض بعيدة عن العلوم الشرعية، لكن مسكين، كل صباح ينصب حجرًا ويسجد له وهو لا يدري فهل نقول: هذا كافر؟ وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولهذا نص العلماء ـ رحمهم الله ـ: على أنه لو أن رجلاً جحد وجوب الصلاة، لكان كافرًا، لكن قالوا لو جحد وجوب الصلاة وهو ناشيء في بلد بعيد عن العلم الشرعي أو كان حديث عهد بالإسلام لم يكن كافرًا؛ لأنه جاهل.

إذن قوله: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ يدل على أنه لا يمكن أن يعذب أحد إلا بعد إبلاغه.

وهل يكفي بلوغ الحجة أو لابد من فهم الحجة.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

لابد من فهم الحجة. ولهذا قال الله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٩٨ ـ ١٩٩]؛ لأنهم لا يفهمونه، وإذا لم يؤمنوا به لعدم فهمهم فهم معذورون.

وقال الله ـ تعالى ـ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم:٤] أي: بلغتهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، فلابد من بيان الحجة.

فلو قلت لإنسان أعجمي: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وهو لا يدري معناها. فلا تقوم عليه الحجة، ولو قلت له: يا فلان أطلقت امرأتك؟ فقال: نعم.

قلت: ثلاثًا قال: نعم، وأربعًا وخمسًا، وفهم أن أطلقت امرأتك جعلتها طليقة تروح وتجي؛ لأنه أعجمي؛ لأنه لا يفهم معناها فلا تطلق.

فهذه المسائل مهمة ينبغي للإنسان أن يعتني بها، وألا يوقع نفسه في هلكة، ويوقع غيره في هلكة على غير وجه شرعي، ويوالي ويعادي على وجه غير شرعي، فهذا شرع فمن حكم الله بكفره كفّرناه، ومن حكم بفسقه فسّقناه، ومن لم يحكم بكفره لم نكفره، ومن لم يحكم بفسقه لم نفسقه ـ والله أعلم ـ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



تم بحمد الله تفسير سورة الصافات

تفسير سورة ص

تفسير سورة ص

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

قال الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ①﴾

قال المؤلف – رحمه الله تعالى –: [سورة (ص) مكية] والقرآن الكريم مكي ومدني، وأصح الأقوال في تمييز المكي من المدني: أن ما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعدها فهو مدني وإن نزل في غير المدينة، فالحد الفاصل زمني وليس مكاني، فما بعد الهجرة مدني وما قبلها مكي.

قال: [ستٌ أو ثمانٌ آية] والآيات هي عبارة عن الفواصل التي تكون بين جملة أو جملتين فأكثر، وسُمِّيت آية لأنها معجزة، فإن القرآن – كما سبق – قد تحدى اللهُ فيه الناسَ أن يأتوا بحديث مثله وإن قَلَّ.

قال: [بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ] هذه البسملة آية من كتاب الله يؤتى بها في ابتداء كل سورة إلا سورة براءة فإنه لا يؤتى بها، وذلك أن الصحابة رضي الله عنهم لما كتبوا المصحف أشكل عليهم هل براءة بقية الأنفال، أم هي سورة مستقلة؟ فوضعوا فاصلًا دون بسملة؛ لأن لو جزموا بأنها من الأنفال لم يضعوا فاصلًا، ولو جزموا بأنها مستقلة لوضعوا البسملة، ولكن هذا الاجتهاد منهم نعلم أنه هو المطابق للواقع، وأنهم مصيبون فيه قطعاً، وذلك لأن البسملة لو نزلت بين الأنفال وبراءة لبقيت؛ لأن الله يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩] فلما لم تبق باجتهادٍ من الصحابة عُلِم أنهم كانوا مصيبين للواقع.

والبسملة جار ومجرور، ومضاف إليه، وصفة، أي: نعت.

والقاعدة النحوية: أن كل جار ومجرور لا بد له من متعلَّق، أي: من شيء يتعلق به، والشيء الذي يتعلق به الجار والمجرور هو العامل، والجار والمجرور معمول، ولهذا قال ناظم الجمل:

لا بد لِلجارِ وَالمجرورِ مِنَ التَّعلّق   بِفِعلٍ أَوْ مَعْنَاهُ نَحْوَ مُرْتقي
واستثنى كلَّ زائدٍ له عملٌ   كالباءِ ومِن والكافِ أيضاً ولعلّ

فكل حرف أصلي غير زائد فلا بد له من متعلق بفعل، أو بما كان بمعنى الفعل، كاسم الفاعل واسم المفعول. إذًا البسملة لا بد لها من متعلَّق، فما هو هذا المتعلَّق؟ أصح ما قيل في متعلَّق البسملة أنه فعل متأخر مناسب للمقام، فإذا كنت تريد أن تقرأ كان التقدير بسم الله أقرأ، وإذا أردت أن تأكل كان التقدير بسم الله آكل، وإذا أردت أن تذبح ذبيحة كان التقدير بسم الله أذبح. ولهذا قال الرسول ﷺ وهو يخطب في الناس يوم النحر: «مَنْ لَمْ يذبحْ فَلْيذْبَحْ بسمِ الله» (١) وإنما يُقدّر فعلًا لأن الأصل في العمل هو الفعل، ولذلك يعمل في معموله بدون شرط، وأما اسم الفاعل واسم المفعول واسم التفضيل والمصدر فلا يعمل إلا بشرط.

ونقدّره متأخرًا فنقول: بسم الله أقرأ لسببين:

السبب الأول: التبرك بالبداءة باسم الله.

والسبب الثاني: إفادة الحصر، لأن تأخير العامل يفيد الحصر، فإن من طرق الحصر: تقديم ما حقه التأخير، وقدرناه مناسبًا للمقام؛ لأنه أدلّ على المقصود مما لو قدرناه فعلًا عامّاً كما لو قيل: إن التقدير باسم الله أبتدئ، أو بسم الله أبدأ؛ لأن بسم الله أبدأ أو أبتدئ لم تعين الفعل الذي ابتدأت به، فالحاصل أننا نقدر المتعلَّق في البسملة أنه فعل متأخر مناسب للمقام.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية:** أنه ينبغي الابتداء بها في الأمور الهامة، ولهذا يبتدئ الله بها كل سورة إلا براءة، ومن المعلوم أن السورة من الأمور الهامة، وجاء في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بالٍ لَا يُبْدأُ فيه ببسمِ الله فهو أَبْتَرْ» (٢) والحديث حسن.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات الألوهيَة الله في قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** إثبات أسماء الله لقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ وهذا مفرد مضاف في كل اسم لله عزَّ وجلَّ، ولهذا يفسرها بعض المفسرين بقولهم: أي: بكلِ اسم من أسماء الله أبتدئ.

٤- **ومن فوائدها:** التبرك بذكر اسم الله عزَّ وجلَّ، فتكون أسماء الله مما يدعى الله بها لقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] ومما يُتبرك به ويُستعان به؛ لأنها قدمت بين يدي الأمور الهامة.

وإذا أردت أن تعرف مدى بركة هذه التسمية فانظر على الذبيحة يُسمّى عليها فتكون طيبة

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩٨٥)، ومسلم (١٩٦٠).
(٢) ضعيف: انظر «إرواء الغليل» (١).

حلالًا، ولا يُسمّى عليها فتكون خبيثة حرامًا مع أن الذابح واحد، والآلة المذبوح بها واحدة، ومكان الذبح واحد، وإنهار الدم واحد، لكن لما فقدت التسمية صارت خبيثة ميتة لا يحل أكلها، فإذا سُمِّي عليها صارت طيبة.

وإذا أتى الرجل أهله فقال: "بسم الله اللهم جَنِّبْنا الشيطانَ، وجَنِّب الشيطان أبدًا"(١) وإنْ لم يُسمِّ بهذه التسمية كان عُرْضَة لأن يصاب ولده بالشيطان ويضر به.

٥- **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات الرحمة لله في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وأنها رحمة واسعة لقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لأن الرحمة صفة تدل على السعة والامتلاء.

٦- **ومنها:** إثبات الأسماء الثلاثة لله، وهي: الله والرحمن والرحيم.



قال الله تعالى:

﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ [ص: ١، ٢]

التفسير

قال الله عز وجل: ﴿صٓ﴾ قال المؤلف: [الله أعلم بمراده به] وذلك لأن كلمة (ص) حرف هجائي لا يدل على معنى في اللغة العربية، فذهب جماعة من العلماء إلى أن هذه الحروف الهجائية التي ابتُدِئتْ بها بعضُ السور رموز إلى معانٍ، وعيَّنها كل إنسان بما يرى أنه مناسب. وذهب آخرون إلى أنها أسماء من أسماء الله، أو من أسماء الرسول ﷺ، وذهب آخرون إلى ما ذهب إليه المؤلف، بأنها مجهولة المعنى، لا ندري ما معناها، ولكن القول الراجح ما ذهب إليه إمام المفسرين في عهده مجاهد – رحمه الله – أن نقول: ليس لها معنى، وذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥] واللسان العربي لا يُثْبِت معنىً لهذه الحروف الهجائية، وعلى هذا فتكون هذه الحروف الهجائية مثل نٓ، قٓ، صٓ، الٓمٓ وما أشبهها ليس لها معنى في اللغة العربية، إذًا ليس لها معنى في القرآن، لأن القرآن باللغة العربية.

ولكن يشكل عليَّ هذا القول مع رُجحانه أنه يقتضي أن يكون في القرآن كلمات لغو ليس منها فائدة!

والجواب عن هذا أن نقول: هي ليست لغوًا في سياقها، فإنها جاءت لمغزىً عظيم، وهذا المغزى أن هذا القرآن العظيم الذي أعجز فصحاءَ اللغة وأمراءَ البيان لم يكن بحروف غيرِ مألوفة

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤١)، ومسلم (١٤٣٤).

عندهم حتى يقولوا: لا نعرف هذه الحروف، بل كان بالحروف التي يتكون منها كلامهم.

قال الذين ذهبوا هذا المذهب، ودليل ذلك أنك لا تكاد ترى سورة مبدوءة بحرف هجائي إلا وجدتَ بعد هذا الحرف ذكر القرآن ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢]، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ١-٣]، ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١-٢]، ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، فكل سورة مبدوءة بهذه الحروف الهجائية ذكرُ من القرآن، ما عدا قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم: ١-٣]، و﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٢]، ويمكن أن يُجاب عن ذلك بأن يُقال:

أما قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ فلأنه ذكر صفة عظيمة من صفات مَن تمسك بالقرآن وهي الصبر على الأذى في ذات الله.

وأما الثانية: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ فقد ذكر شيئًا من خصائص الوحي، وهو علم الغيب، فإن كون الروم غُلِبت الآن وستَغلبِ في بضع سنين، من الأمر الذي لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ، وهو من خصائص الوحي، وسواء كان هذا الجواب سديدًا مقبولًا أم لم يكن، فإن النادر لا حكم له.

قال الله تعالى: ﴿صٓۚ﴾ نقول فيها: "ص" حرف هجائي ليس له معنى، لكن جيء به للإشارة إلى أن هذا القرآن الكريم الذي أعجز العرب كان من هذا الحروف التي يتركب منها كلامهم.

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾ الواو هنا: حرف قسم لهذا جَرَّت الكلمة التي بعدها "القرآن". والواو حرف قسم لا تدخل إلا على الاسم الظاهر، ولا يُذكر معها فعل القسم، بخلاف باء القسم، فإنها تدخل على الاسم الظاهر، وعلى الضمير، ويُذكر معها فعل القسم، ويُحذَف، وتدخل على كل اسم، قال الله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ [الأنعام:١٠٩] فذُكِر معها فعلُ القسم. وتقول: ربي به لأفعلنَّ، أو أقسم به لأفعلن، فهنا دخلت على الضمير. أما التاء فهي أخص أدوات القسم، لا تدخل إلا على لفظ الجلالة "الله"، ولا يُذكر معها فعلُ القسم. وقيل: تدخل على لفظ الجلالة "الله" وعلى "ربّ" قال ابن مالك: والتاء لله وربِّ، وأكثر ما يُقسم اللهُ به الواو، وذلك لأنها الأكثر على الألسن، فجاءت الأكثر في القرآن. ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ ذي بمعنى صاحب، وهي مجرورة، لكنها مجرورة بالحرف نيابة عن الكسرة، وقوله: ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ قال المؤلف: [أي: البيان أو الشرف] يعني أن القرآن ذو ذكر، أي: ذو بيان للناس، يُذكِّرهم ويتذكَّرون به، أو ذو شرف لشرفه وشرف من يعمل به. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:٤٤] فهو ذكر: يُذَكِّرُ به ما ينفع الناسَ في معاشهم ومعادهم. وذكر: يتذكَّر به الناس

ويتعظون به، وهو أعظم موعظة. وذكر: أي شرف لمن تمسك به.

قال المؤلف: [وجواب هذا القسم محذوف] إنما قال المؤلف: وجواب هذا القسم؛ لأنه ما من قسم إلا وله جواب. إذ إن القسم أركانه أربعة: مُقسِم، ومُقْسَم به، ومُقْسَم عليه، وصيغة. فكل قَسَم لا بد فيه من هذه الأركان، والمقسم عليه هو جواب القسم إذن لا بد لكل قسم من جواب، والجواب إن كان مذكورًا فهو معلوم، وإن كان محذوفًا فيعيّنه السياق. قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ [النور:٥٣] الجواب هنا مذكور ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧] مذكور، جواب القسم ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾.

وفي هذه الآية قد وجد المُقْسَم به والصيغة ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ والمُقسِم هو الله عز وجل. بقي المَقْسَم عليه، وهو جواب القسم.

يقول المؤلف: [إنه محذوف، وتقديره ما الأمر كما قال كفار مكة من تعدد الآلهة] وحسب هذا التقدير يكون جواب القسم جملة منفية: ما الأمر كما قال كفار مكة من تعدد الآلهة، لكن الأمر أن الإله واحد، وهو الله، وهذا التقدير الذي ذكره المؤلف لا يتعين، يعني لو قال قائل: التقدير والقرآن ذي الذكر إن إلهكم لواحد. لو قال قائل هكذا، حصل به ما حصل من قول المؤلف: ما الأمر كما قال كُفارُ مكة من تعدد الآلهة.

وذهب بعض العلماء إلى أن مثل هذا القسم لا يحتاج إلى جواب؛ لأن جوابه معلوم منه كقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ [القيامة: ١-٣]، وقوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١-٥]، جواب القسم محذوف، فيكون المُقْسَم به متضمنًا للجواب، كيف يكون متضمنا للجواب في هذه الجملة القسمية ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾؟ يعني أنكم قد ذكرتم بهذا القرآن الذي من جملة ما ذكر به أن الله واحد، ولهذا ذهب ابن القيم - رحمه الله - في كتبه "التبيان في أقسام القرآن" إلى أن القسم أحيانًا لا يحتاج إلى ذكر الجواب، بل ولا يحتاج إلى تقديره؛ لأنه يعلم من السياق المقسم عليه.

ثم قال الله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ بل: هنا للإضراب، والإضراب نوعان: إبطالي وانتقالي، فالإبطالي إبطال لما قد سبق كأنه مسحه وأتى ببدله، والانتقالي إقرار لما سبق لكن انتقل من شيء إلى آخر، وما قبل هذا الإضراب يبقى كما هو لا يبطل.

قال المؤلف: [﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة] وتقييد المؤلف للذين كفروا بأهل مكة فيه نظر، والأولى الأخذ بالعموم، وسلوك هذه الطريق، أعني أن يُخصَّ القرآن ببعض أفراد العام ليس بسديد ولا جيد، وذلك أنه نقص في التفسير، إلا أن يقوم دليل على ذلك، فإذا قام دليل على ذلك وجب الأخذ بالدليل، أما إذا لم يقم دليل على ذلك فالواجب الأخذ بالعموم، لأنه أعم وأكثر

معنىً، فالذين كفروا من أهل مكة وغيرهم إلى يوم القيامة ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ ولكنها ليست عزة غلبة كالعزة التي في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وإنما هي عزة أنفة وكبرياء وعناد، ولهذا قال المؤلف: [﴿فِي عِزَّةٍ﴾ حمية وَتكَبُّرٍ عن الإيمان]، وهذه العزة مذمومة؛ لأنها عزة تمنع صاحبها من قبول الحق. وأما العزة التي هي عزة النصر فهي تأييد لصاحبها. وبينهما فرق كبير.

قوله: ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ يعني: مشاقة، فالشقاق مصدر شاقَّ، كقتال مصدر قاتل، والمعنى مشاقة لله ورسوله. قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الحشر: ٤] وهنا قال المؤلف: [خلاف وعداوة للنبي ﷺ] وهذا أيضًا فيه نظر. لأنه خصَّ الشقاق بالنبي ﷺ مع أن الكافرين يشاقون الله ورسوله، فهم في أنفه وكبرياء وحمية ومشاقة لله ورسوله. يعني أنهم يجانبون ما أمر الله به ورسوله، كأنما يكونون في شِقٍّ، وما جاء به الوحي في شِقٍّ آخر، وربما يقول قائل: إنهم أيضًا في شقاق فيما بينهم، ولا سيما اليهود، فإن الله تعالى قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

الفوائد:

١- **من فوائدها:** أن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى بحرف، تكلم به بالحروف العربية التي يتكلم الناس بها ويتركب منها كلامهم؛ لقوله: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** فضيلة القرآن وشرفه، حيث أقسم الله به، ولا يقسم الله إلا بالشيء العظيم.

٣- **ومن فوائدها:** جواز الإقسام بالقرآن، من أين يؤخذ؟ هل يؤخذ من القرآن؟ هذا خطأ ليس في القرآن دليل على جواز الإقسام بالقرآن؛ لأن الله تعالى يقسم بما لا يجوز أن يقسم به المخلوق كقوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] فإذا أقسم الله بشيء فإنه لا يلزم أنه يجوز لنا الإقسام به؛ لأن الله يقسم بما شاء، لكننا نقسم بالقرآن بدليل آخر لا بهذه الآية، وهو أن القرآن كلام الله، فهو صفة من صفاته، والإقسام بصفات الله جائز.

٤- **ومن فوائدها:** أن القرآن ذِكرٌ على الوجوه التي ذكرناها في معنى الذكر، فهو موعظة يُتَذَكَّر به، وهو ذِكر يتذكر به الإنسان ويتعلم، وهو ذكر ينال به الشرف، وهو ذكر لله يُتَعَبَّدُ لله تعالى بتلاوته كما يُتَعَبَّدُ بغيره من الأذكار، مثل: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله.

٥- **ومن فوائدها:** بيان ما في نفوس الكفار من الحمية والأنفة الباطلة؛ لقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن الكفار لا يسكتون على كفرهم ويستمرون في طغيانهم وأنفتهم، بل يحاولون أن يصدوا عباد الله عن دين الله، لأنهم في شقاق دائم، يشاقون الله ورسوله.

٧- **ومن فوائدها:** أن لنا أن نقول: إنهم في عزة وشقاق مع الحق دائمًا، سواء مع الله، أو مع

الرسول، أو مع ورثة الرسول وهم العلماء، أو مع أتباع الرسول عمومًا وهم المؤمنون، فهم في شقاق دائم مع الحق.



قال الله تعالى:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣]

التفسير

قال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ قال المؤلف: [﴿كَمْ﴾ أي: كثيرًا ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: أُمَّةٌ من الأمم الماضية].

قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ قدره المؤلف بقوله: كثيرًا، وعلى هذا تكون كم تكثيرية، وهي في محل نصب على أنها مفعول مُقَدَّمٌ لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾ و﴿مِن قَبْلِهِم﴾ متعلق بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تمييز لـ﴿كَمْ﴾، لأن كم اسم مبهم تحتاج إلى تمييز، أي: إلى شيء يبينها ويميزها، فلو قيل: كم أهلكنا من قبلهم، لم يتبين الكلام، ماذا أهلك؟ فإذا قال: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾، تبين الكلام، ولهذا نقول: إن﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تمييز لـ﴿كَمْ﴾ مجرور بـ﴿مِّن﴾.

وقوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ أي: من قبل الكفار الذين كانوا في عهد النبي ﷺ وقوله: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أمة. والمعنى أن الله أهلك كثيرًا من الأمم قبل هؤلاء، وَمَن أهلك كثيرًا من الأمم قبل هؤلاء فإنه حَرِيّ أن يُهلك هؤلاء، لكن إهلاك الأمم السابقة كان بعذاب من الله، وإهلاك المكذبين لرسول الله ﷺ كان بأيدي المؤمنين، فالحروب والقتال التي وقعت بينهم وبين الرسول ﷺ كان عذابًا لهؤلاء المكذبين، وكان على يدي النبي ﷺ وأصحابه، كما قال الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤-١٥] ولا شك أن عذاب الأعداء على يد النبي ﷺ وأصحابه أشفى لصدورهم مما لو كان العذاب من الله سبحانه وتعالى. وهذا شيء مشاهد. إذا كان غلبة عدوك على يدك، كان ذلك أشفى لصدرك، وأحيا لنفسك وأقوى وأعز، مما لو أهلكه الله بعذاب من عنده. فلهذا كان عذاب المكذبين لرسول الله ﷺ على يد الرسول ﷺ وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا﴾، الضمائر تعود على الألفاظ باعتبار لفظها، ويجوز أن تعود على الألفاظ باعتبار معناها. ألم تروا إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩] قال: ﴿ٱقْتَتَلُوا﴾ ولم يقل: اقتتلا، لو قال: اقتتلا لكان الضمير عائدًا على اللفظ ﴿طَآئِفَتَانِ﴾،

ولما قال: ﴿اقْتَتَلُوا﴾ صار عائدًا على المعنى، لأن الطائفة جماعة. إذًا قوله: ﴿فَنَادَوا﴾ أي: القرن، فأعاد الضمير عليها باعتبار المعنى.

وقوله: ﴿فَنَادَوا﴾ يقول المؤلف: [حين نزول العذاب بهم] ولكن نادوا مَنْ؟ هل المعنى نادى بعضهم بعضًا؟ يستغيث بعضُهم ببعض، أو المعنى أنهم نادوا الله، أي: دعوه أن يغيثهم، أو المعنى أنه حصل منهم الأمران؟

القاعدة عندنا في التفسير متى كان اللفظ صالحًا لمعنيين فأكثر فإنه يحمل عليهما جميعًا. وعلى هذا يكون (نادوا) محذوف المفعول من أجل العموم، أي: أن بعضهم ينادي بعضًا: يا فلان أغثني أغثني، وكذلك ينادون الله؛ لأن الله يقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [غافر: ٨٤].

ولكن قال الله تعالى: ﴿فَنَادَوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾ لات: (لا) النافية زيدت عليها تاء التأنيث لتأنيث اللفظ، كما زيدت تاءُ التأنيث في "رُبَّتَ" وفي "ثُمَّتَ" لتأنيث اللفظ. تقول: رُبَّ رجلٍ لقيتُه، وتقول: رُبَّت رجل لقيته، وتقول: قام زيدٌ ثُمَّ قام عمرو، وتقول: قام زيد ثُمَّت قام عمرو. فإذًا هي (لا) النافية زيدت عليها تاءُ التأنيث، لتأنيث اللفظ فتصبح "لات"، و(لا) النافية تعمل عمل ليس، واسمها محذوف في هذه الآية، وخبرها: ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ والتقدير: [أي: ليس الحينُ حينَ فرار] فَسَّره المؤلف بالمعني، فعليه تكون "لا" بمعنى "ليس" واسمها محذوف تقديره الحينُ، وخبرها موجود، وهو قوله: ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ والغالب أن خبر "لا" يكون زمانًا نحو: لات حين، ولات أوان، قال الشاعر:

نَدِمَ البُغاةُ ولاتَ ساعةَ مندمٍ والبَغْيُ مَرْتعُ مُبْتَغِيْه وَخِيمُ

يعني وليست الساعةُ ساعةَ مندم.

وقوله: ﴿مَنَاصٍ﴾ المناص: الفرارُ والنجاة. يعني ليس الحينُ حين فِرارٍ ونجاة، لأنه بعد نزول العذاب لا ينفع نفس إيمانُها. قال المؤلف – رحمه الله تعالى -: [أي: ليس الحينُ حين فرار، والتاء زائدة لتأنيث اللفظ، والجملة حال من فاعل "نادوا"] وعلى هذا تكون في محل نصب؛ لأن الجملة الحالية دائمًا في محل نصب. يعني نادوا في حال لا مناص لهم مما نزل بهم، ولهذا قدَّر المؤلف: [أي: استغاثوا والحال أن لا مهرب ولا منجى]. هذا ما قدره المؤلف في جملة ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: أنها حالية، فتكون مقيدة بحال مناداتهم، ولكن يجوز أن تكون استئنافية، فنادوا، ثم يخبر الله عزَّ وجل أن هذا الوقتَ ليس وقتَ مفرٍ، والفرق بين قولنا استئنافية أو حالية: أنه إذا كانت حالية صارت قيدًا للمُناداةِ. يعني نادوا في حال لا ينفعهم فيه النداء، وإذا كانت استئنافية تكون منفصلةً من حيث القيدية عما قبلها، فيكون الله قد أخبر بأنهم نادوا، ثم أخبر بأنهم في حال ليسوا متمكنين من الفرار.

قال المؤلف: [وما اعتبر بهم كفار مكة] وهذه الثمرة من ذكر أن الله أهلك قرونًا كثيرة فيما

سبق، ومع هذا لم يعتبر بذلك أهلُ مكة، بل كذبوا الرسول ﷺ وآذوه وقالوا: إنه مجنون، وإنه ساحر، وإنه كذاب، وإنه شاعر، وإنه كاهن، وَكُلُّ وصف ينفِّرُ الناسَ عنه وصفوه به ﷺ، ولم يعتبروا بمن سبق، بل زادوا على هذا.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية:** تسليةُ الرسول عليه الصلاة والسلام في أن الله تعالى أهلك المكذبين قبلهم فَحَرِيّ أن يهلك هؤلاء. وقد بَيَّنا أثناء التفسير أن الله تعالى أهلك هؤلاء لكن على يد الرسول ﷺ وأصحابه في الغزوات التي انتصر فيها، وقلنا: إن هذا النصرَ والتأييدَ أبلغُ من النصر الذي يأتي به الله من عنده؛ لأن الله يعذب هؤلاء بأيدي عباده المؤمنين وحزبه.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تحذير هؤلاء المكذبين، وأنهم لن يعجزوا الله في شيء كما لم يعجزه من سبقهم ممن كان قبلهم من الأمم التي أهلكت ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن التكذيب للرسل كان كثيرًا، لأن إهلاك القرون إنما كان بسبب تكذيبهم، فإذا كثرت القرون فلازم ذلك أن يكثر التكذيب، أي: إذا كثرت القرون المهلكة، كان لازم ذلك أن يكثر التكذيب.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان قوة الله وعظمته، حيث أهلك أممًا كثيرة وقرونًا عظيمة، قال الله تعالى ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٥-١٦] فبيَّن اللهُ عزَّ وجل أن الذي خلقهم أشدُّ منهم قوةً، وأنه عذبهم بما هو من ألطف الأشياء، وهي الريح.

٥- **ومن فوائد هذه الآية:** أن الأمم المُهْلَكَةَ إذا نزل بهم العذاب لم يستفيدوا من الاستغاثة بالله ولا بأنفسهم؛ لقوله: ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ يعني ليس هناك فرارٌ من هذا العذاب الذي نزل بهم.



قال الله تعالى:

﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ العجب يكون له سببان: السبب الأول: الإنكار، والسبب الثاني: الاستحسان، يعني يقال: عجبت من كذا، أي: أستحسنه، وأعجب من كذا، أي:

أنكره، فهو شبيه بأفعال الأضداد، لأن في اللغة العربية كلماتٍ تدل على المعنى وضده، تسمى عند علماء العربية: الأضداد في اللغة.

فالعجب تارة يكون استحسانًا، وتارة يكون استنكارًا، فقول عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يعجبه التيامُن في تنعله وترجله [1]. المراد بالإعجاب هنا الاستحسان، وفي قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾ هذا عجب استنكار وَرَدٍّ، وليس عجب رضًى واستحسان، وهذا نظير قوله تعالى في سورة (ق): ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢].

قوله: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أن مصدرية على تقدير مِنْ، أي عجبوا مِنْ أن جاءهم، وقلنا: إنها مصدرية؛ لأن ما بعدها يُحَوَّلُ إلى مصدر، أي عجبوا من مجيء المنذر منهم، وقوله: ﴿مُّنذِرٌ﴾ المنذر: هو المخبر بالخبر للتخويف، ولهذا نقول: إن الإنذار خبر مقرون بتخويف، والنبي ﷺ كان منذرًا، وكان مبشرًا، ولكنَّ الكفارَ يليق بحالهم الإنذارُ، قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الكهف: ٢] والتبشير يكون للمؤمنين. وهنا قال: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾؛ لأن هذا هو اللائق بحالهم، وقوله: ﴿مِّنْهُمْ﴾ نسبًا وجنسًا، فهو منهم جنسا، لأنه بشر، ولم ينزِل الله رسوله على البشر من الملائكة. ونسبًا؛ لأنه من قريش فهو منهم جنسًا ونسبًا، ومع ذلك عجبوا.

قال المؤلف: [رسولٌ من أنفسهم ينذرهم ويخوِّفهم النارَ بعد البعث] أي: بعد أن يبعثوا [وهو النبي ﷺ] عجبوا عجب استنكار ورفض وردٍّ مع أنهم كانوا يصفون الرسول ﷺ بالصادق الأمين، ولما جاءهم بالرسالة صار كاذبًا خائنًا - والعياذ بالله - إذًا معاداتهم له ليس لشخصه، ولكن لِمَا جاء به.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمر، ويكون الكلام لو أتى بالمضمر، وعجبوا أن جاءهم منذر منهم، وقالوا: هذا ساحرٌ كذاب، لكن قال: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ والفائدة من الإظهار في موضع الإضمار:

أولًا: تنبيه المخاطب؛ لأن الكلام إذا تغير نسقُه أوجب للسامع أن ينتبه بخلاف ما إذا كان على نسق واحد، فقد يأتيه النوم، لكن إذا اختلف انتبه.

ثانيًا: التسجيل على هؤلاء بالكفر؛ لأنه لو قال: وقالوا هذا ساحر كذاب، لم نعرف حكمهم، أما إذا قال: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عرفنا أنهم كافرون.

ثالثًا: أن الحامل لهم على هذا هو الكفرُ، فلا يبعد أن يأتي مِن غيرهم مثل ما أتى منهم، لأن العلة واحدةٌ، فمتى وُجِدَت هذه العلة حصل المعلول من أي شخص كان، فهذه فوائد الإظهار في مواضع الإضمار.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٦٨)، ومسلم (٢٦٨).

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يشيرون إلى أن المنذر منهم، وهو الرسول ﷺ ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ جمعوا بين وصفين ذميمين: ساحر؛ لأنه يسبي عقول الناس، وكذاب؛ لأن ما جاء به كذب غير مطابق للواقع، فصار الرسول عليه الصلاة والسلام الذي هو أصدق الخلق، عندهم كذابًا، ولم يقولوا: كاذبًا؛ لأن كذابا تكون صفة لازمة للمتصف بصفة الكذب، كما تقول: نجار وحداد وما أشبه ذلك مما يكون صفةً لازمة، فهم قالوا: إنه ساحر لقوة تأثيره على سامعه، فإن الرسول ﷺ كان إذا سمع الناسُ قراءَته تأثروا بها تأثرًا عظيمًا، وكانت النساء والصبيان يجتمعون إلى بيت الرسول ﷺ ليسمعوا قراءته، وكانوا يتأثرون بهذه القراءة، فكان كفار قريش يقولون: إن محمدًا سحر أبناءنا ونساءنا، وإنه ساحر؛ لقوة تأثيره فيهم، وكذاب، يعني أن ما جاء به فهو كذب لا حقيقة له. والكاذب هو المخبر بخلاف الواقع. فكل مَن أخبرك بخلاف الواقع فقد كَذَبَكَ.

الفوائد:

١- **في هذا دليلٌ على:** سفه قريش الذين كذَّبوا الرسول ﷺ، واستنكروا ما جاء به. ووجه ذلك أنه لم يأتهم أحدٌ غريب عليهم لا في جنسه، ولا في نسبه، فالذي جاءهم جِنسُه بشر مثلهم، ونسبه منهم من قريش، ومع ذلك يعجبون استنكارًا مما جاءهم.

٢- **ومن فوائد الآية:** إقامة الحجة للرسل ﷺ على هؤلاء؛ لقوله: ﴿مُّنذِرٌ﴾ يعني لقد أقام عليهم الحجةَ بالإنذار، وقد قامت الحجة للرسول ﷺ بأنه لم يُفرِّط في رسالته، بل أنذر، وقام بما قام به من البلاغ.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء الذين عجبوا استنكارًا كفارٌ؛ لقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن كل من قال مثلَ قولهم، وعجب مثل عجبهم فإنه كافر، من أي جنس كان من البشر.

٥- **ومن فوائدها:** بيانُ قوةِ تأثير كلام الرسول ﷺ في نفوس القوم؛ لقولهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ﴾ والساحر يؤثر في المسحور.

٦- **ومن فوائدها:** كذبهم في وصف الرسول عليه الصلاة والسلام حيث قالوا: إنه ساحر كذَّاب، والحقيقة أنهم هم الكذابون بما وصفوا به الرسول ﷺ.

٧- **ومن فوائدها:** أن أعداء الرسل لا يعادونهم عداءً شخصيًا، ولكن يعادونهم عداءً معنويًا، لما جاءوا به من الرسالة. ويتفرع على هذه الفائدة أن الكافرين سيكونون أعداءً لكل من يتبع الرسول. كل مَنْ اتبع الرسول سيجد له أعداءً من الكافرين والمنافقين. ويتفرع على ذلك تسليةُ من وجد عداء من أعداء الله لتمسكه بكتاب الله وسنة رسوله، فإنه يقال: هذا العداء الذي حصل

لك قد حصل لِمَنْ هو خير منك فلا تعجب.

٨- ومن فوائد هذه الآية: أن أعداءَ الرسل بل أعداء الرسالة يطلقون ألقاب السوء على من تمسك بالشريعة؛ لقولهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ وقد حصل هذا، فإن أهل التعطيل مثلًا يصفون أهل الإثبات من السلف بأنهم حشويةٌ مجسمة مُمَثِلَةٌ رعاع غوغاء وما أشبه ذلك من ألقاب السوء من أجل أن ينفروا الناس، والعجب أن هؤلاء الذين يضعون ألقاب السوء لو تأملْنا لوجدنا هذا اللقب الذي وضعوه للمتمسكين بشريعة الله، يصدق عليهم هم، ألم يبلغكم قولُ المنافقين في الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه، قالوا: «ما رأينا مثلَ قُرَّائنا هؤلاء أرغبَ بطونًا، ولا أكذبَ لسانًا ولا أجبنَ عند لقاء من هؤلاء القرَّاء[(١)]. وهذه الأوصاف الثلاثة تنطبق عليهم هم، فهم أكذبُ الناس لسانًا، وأجبنُ الناس عند اللقاء، وأرغبُ الناس بطونًا، وليس لهم هَمٌّ إلا بطونهم.

٩- ومن فوائد هذه الآيات: أن هؤلاء المكذبين للرسول عليه الصلاة والسلام لم يقيموا حجةً فيما كذَّبوه فيه، وليس عندهم إلا السبُّ والعيب، وهذا يدل على ضعف حجة مَنْ ناوأك، فإذا وجدت الذي ناوأك ليس عنده إلا الصراخُ والعويلُ، ولطمُ الخَدِّ، ونتف الشعر وما أشبَهَ ذلك، فاعلمْ أنه ليس له حجةٌ إنما يريد أن يشوِّشَ عليك، لعلك تنهزم، وإلا فصاحبُ الحجة يدلي بحجته بهدوء وبدون إثارة، وأما أن يسب ويشتم ويثور فإن هذا دليلٌ على أنه مهزوم ومخذول، وأنه يريد أن يتخذ من هذا السلاح مهربًا ومَخْلَصًا مما هو عليه من الضيق، الذي عجز أن يدفعَ به حجة خصمه.



قال الله تعالى:

﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٥، ٦]

التَفسِير

قال الله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ هذا مصبُّ الإنكار.

هذا الاستفهام يحمل معنيين:

المعنى الأول: التعجب الاستنكاري.

---

(١) أورده الطبري في "تفسيره" (١٤/ ٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٥٥٢)،وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٣٠).

والثاني، الإنكار البليغ على رسول الله ﷺ، حيث جعل الآلهة إلهًا واحدًا. هنا قال: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ جعل نصبت مفعولين: الأول: الآلهة، والثاني: إلهًا واحدًا. يعني أصيَّر محمدٌ الآلهة إلهًا واحدًا! وهم يعبدون آلهةً متعددة: اللات والعُزَّى ومناة وهبل وغيرها من الأصنام. كيف يأتي محمدٌ ويقول: ليس هناك آلهةٌ إلا الله. هذا عندهم من أكبر الكذب، حيث قال لهم: "قولوا: لا إله إلا الله" أي: كيف يسع الخلقَ كلَّهم إلهٌ واحد؟ وهذا من جهلهم وغباوتهم أن ينكروا كونَ الآلهة إلهًا واحدًا، فنقول لهم: مَن الخالق؟ وكم؟ يقولون: الخالق هو الله؟ وإنه واحدٌ. فإذا كان الخالقُ هو الله، وهو واحدٌ كما تؤمنون به، فإنه لا غرابة أن يكون الإلهُ هو الله وهو واحد، ومن وَسَعَ الخلقَ خلقًا وَسِعَهُم تَعبُّدًا، فإذا كانت الآلهةُ لم تخلق شيئًا بإقراركم، فكيف تستحق أن تكون آلهة؟!، وإذا كان يمكن انحصارُ الخلق في واحد، فإنه يمكن أن تنحصر العبادةُ في واحد، ولهذا قال: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ إنَّ هذا: المشار إليه جَعله الآلهة إلهًا واحدًا ﴿لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ أي: عجيب، لكنَّ كلمةَ عجابٍ أبلغُ من كلمة عجيب؛ لأنها تدل على المبالغة، أي: لا شيء يتعجب منه الإنسان عجبا عظيما كثيرًا، ولهذا عدلوا عن عجيبٍ إلى عُجاب ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ لم يُذكرَ مكانُ الانطلاق؛ لِيَعُمَّ كل مكان يجتمعون فيه ويذكرون مِثْل هذا الشيء، فكلما اجتمعوا في مكانٍ وتذاكروا فيما بينهم ما جاء به الرسول ﷺ من التوحيد، انطلقوا من هذا المكان وهم يتواصون بالباطل والصبر عليه، ولهذا قال: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ والملأ هم الأشراف والكبراء والوجهاء، وهم الذين كانوا يقابلون الرسل بالردِّ والرفض خوفًا على مكانتهم من أن تزول باتباع الرسل.

ولو تأملتم القرآنَ لوجدتم أن الذين يقومون في وجوه الرسل هم الملأ والأشراف. أما الضعفاءُ من النساء والأولاد والفقراء فهم الذين يكونون أول من ينقاد للرسل.

وأمَّا قولُ المؤلف: [﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ من مجلس اجتماعهم عند أبي طالب وسماعهم فيه من النبي ﷺ: «قولوا: لا إله إلا الله» (١)] فهذا تقييدٌ لمطلق، وقد ذكرْنا أن تفسير القرآن بما هو أخص تفسير قاصر؛ لأنه يقصر المعنى المطلق على هذا المعنى المقيد، أو المعنى العامّ على المعنى الخاصّ، وهذا نقص بلا شك، إلا إذا قام الدليل على ذلك فليُتَّبَع الدليل.

فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] هذا عامّ، ولكن إذا طبَّقْنا هذا الكلام على الواقع وجدْنا أن المرادَ بالناس الخاصّ.

﴿قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ القائل واحد ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ أيضًا ليس كُلُّ الناس قد جمعوا

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٢٠٥٦)، والبيهقي في «سننه»(١/ ٧٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٩/ ٤٤٨).

لرسول الله ﷺ، الذين لم تبلغهم الدعوةُ لم يجمعوا له، فيكون تفسيرُنا الناس بخاصٍّ في هذه الآية، تفسيرًا دل عليه الواقع، أما إذا لم يكن دليلٌ فإن الواجبَ إبقاءُ القرآن على عمومه إنْ كان من العام، وعلى إطلاقه إن كان من المطلق.

هنا نقول: إن المؤلف - رحمه الله - جعلَ الانطلاقَ من مجلسٍ خاصٍّ، وهو المجلس الذي اجتمعوا فيه مع رسول الله ﷺ عند أبي طالب حين قال: «قولوا لا إله إلا الله» ولكنَّ الأَوْلى أن نجعله عامًّا يشمل هذا المجلس وغيره.

وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ هل المراد هنا المشي بالقدم؟ أو المراد المشي على الطريقة؟ بمعنى سيروا على طريقتكم واصبروا على آلهتكم، من نظر إلى الانطلاق، ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ قال: إن المراد بذلك المشي بالقدم، بمعنى أنهم إذا انطلقوا حثَّ بعضُهم بعضًا على المشي والسير؛ لئلا يعودوا فيعرِّجوا على ما انطلقوا منه، كأنهم إنما ينطلقون فرارًا، فيوصي بعضهم بعضا بالمشي. وإذا نظرنا إلى المعنى أو إلى عموم أحوالهم قلنا: إن المراد بذلك المشي على الطريقة، يعني سيروا على طريقتكم ولا يهمّنكم أحد.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ يعني: احبسوا أنفسكم عليها لا تحيدوا عنها. وهذا من باب التواصي بالباطل، يقول بعضُهم لبعض: امشوا واصبروا على آلهتِكم واثبتوا على عبادتها. إن هذا المذكور من التوحيد لشيءٍ يراد ﴿وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ يعني اثبتوا عليها في عبادتها، والدفاع عنها، وعدم قبول كل شيء يبطلها. اصبروا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ هذا المشار إليه، ما جاء به النبي ﷺ من التوحيد.

﴿لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي: يريده مَنْ جاء به، وهذا يدلُّ على صدقِ الرسول ﷺ. معناه أن هذا الرجل قال قولًا يريده، فهو جادٌّ في قوله، والشيء الذي يُرادُ لا بد أن يسعى مُريدُهُ ليُحقِّقَه، بخلاف الإنسان الذي يقول القول باللسان لا بالقلب، ولهذا تجد الذي يقول القول بلسانه وقلبه، يصمم ويعزم على أن ينفذ ما قال، لكن الذي لا يريد يكون قولُه بلسانه سطحيًّا، فقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي يريده قائلُه وهو النبي عليه الصلاة والسلام، وإذا صدر القول عن إرادةٍ فهذا يعني أن صاحبه مصمم عليه، وعلى غلبته، وأن يكون هذا القول هو القول السائد الذي يمشي عليه الناسُ، بخلاف مَن قال قولًا لا يريده، مثل أن يقول القول مجاملةً، أو من أجل إمضاء الوقت أو ما شابه ذلك. فإنه لا يكون عنده العزم الصادق على تنفيذ ما قاله.

الفوائد:

١- **من فوائدها:** أن النبيَّ ﷺ كان يدعو هؤلاء إلى توحيد الله عزَّ وجل في ألوهيَّته وهو مع هؤلاء يُجادلُهم في ألوهيته تعالى، ويدعوهم إلى توحيد الألوهية، لأن توحيد الربوبية عندهم ثابت مُقرّون به، يقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] لا ينكرون توحيدَ الربوبية لكنهم ينكرون توحيد الألوهية، ولذلك قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ فكان الصراعُ بين الرسول ﷺ وبين كفار قريش على توحيد الألوهية، أما توحيد الربوبية فقد أقرّوا به.

٢- **ومن فوائد هذه الآية:** وجوب تقديم الأهمِّ فالأهم في الدعوة إلى الله؛ لأن الرسول ﷺ أول ما دعا هؤلاء إلى التوحيد لم يقل: صلُّوا ولا زكّوا ولا صوموا ولا حجّوا، بل دعاهم إلى التوحيد، وهذا هو شأنُ القرآن، وهذا هو شأن سنة الرسول عليه الصلاة والسلام العملية، فإنه لما بعث معاذًا إلى اليمن أمره أن يدعوهم أول ما يدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** مكابرةُ هؤلاء الذين أنكروا توحيد الألوهيّة حيث ادَّعوا أن الدعوة إليه من الأمور العجيبة جدًّا لقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ وكما قلت آنفًا: إن مَن وصف الحقَّ بأوصاف الباطل فإن حقيقتَه أن تعود هذه الأوصافُ إليه، فأيُّهما أشد عجبًا رجلٌ يدعو إلى توحيد الله، وآخر يدعو إلى الإشراك به وفي التوحيد؟ أيهما أعجب؟ ولهذا نقول: والله إن الشيء العُجاب أن تنكروا توحيد الله، وأن تَدَّعوا أن لله شريكًا. هذا هو الشيء العُجاب. أما رَجل يدعو إلى توحيد الله الذي دلَّت عليه الفطرةُ، ودلت عليه الآياتُ الكونيةُ والشرعية، فإنَّ هذا ليس بعجاب، بل العُجابُ فعلكم أنتم.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** استعمال المؤكدات في الكلام، وأنه من الأساليب اللغوية، لقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ﴾ فهم أكَّدوا هذه الجملة بمؤكدين بـ"إنَّ" واللام ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾.

١- **في هذه الآية دليل** على تخوّف هؤلاء من تأثير دعوة الرسول ﷺ فيهم، ولهذا كانوا يتواصون بالصبر على آلهتهم، وكانوا يتواصون بالبقاء والثبات على طريقتهم، وكانوا يتواصون بالهروب من الأماكن التي يدعى فيها إلى التوحيد. كل هذا يؤخذ من قوله: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾.

٢- **ومن فوائد الاية:** أن أهل الباطل يَحِنّون على باطلهم، ويحافظون عليه ويخافون من تزعزعه، لقوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ وهكذا أهل الباطل تجدهم دائمًا يحوطون باطلهم بالسياج الذي يمنع من الوصول إليه على وجه يُمزِّق هذا الباطل.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن للاجتماع على الشيء تأثيرٌ في بقائه وثباته. تؤخذ من التواصي بالثبات على ما هم عليه، والصبر على آلهتهم. ولا شك أن العمل الجماعي أكثر تأثيرًا من العمل الفردي مهما كان الفرد في القوة، ولهذا أمر النبيُّ عليه الصلاة والسلام بأن نتزوج الودود

الولود من أجل كثرة الأمة [1]، فإن الكثرة لها تأثير عظيم، ولهذا امتنَّ الله بها في كتابه على بني إسرائيل حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦]، وذكَّر شعيب قومه بها حيث قال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]، والعامة يقولون: الكثرة تغلب الشجاعة.

٤- **ومن فوائدها:** أن النبي ﷺ كان يقول قولًا يعني به ما يقول؛ لقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

٥- **ومن فوائدها أيضا:** أن الإنسان إذا عنى ما يقول فإن تأثيره في المُخَاطَب أكثر؛ لأن الخطاب يكون باللسان، واللسان وسيلة للتعبير عما في القلب، ثم إن كان اللسان يعبر عما في القلب حقيقة، فإن الوسيلة التي تتلقى هذا القول وهي الأذن، توصل ما تسمع إلى القلب، ولهذا يقول العامة: إذا خرج الكلامُ من اللسان فلن يتجاوز الآذان، وما خرج من القلب نفذ إلى القلب، وهذا صحيح أن القول الخارج من القلب يؤثر أكثر بكثير من القول الخارج من اللسان، وأضرب لذلك مثلًا: لو قام رجلان يعظان الناس، أحدهما يعظ من قلبه، وتشعر أنه يتكلم من أعماق قلبه، ويظهر أثرُ قوله على صفحات وجهه، والآخر أبلغ منه واشدُّ ترصيعًا للكلام وتنميقًا له، لكنَّ قوله يخرج من لسانه فقط، وقلبُهُ على خلاف ذلك، أو على الأقل لا يؤمن بما يقول، فالأول أشدُّ تأثيرًا.

ولو قام عاميٌّ يتكلم بكلام عاميٍّ لكنْ من أعماق قلبه تأثر الناسُ به أكثر مما لو تكلم رجل فصيح اللسان قويُّ البيان، لكن قلبه خالٍ مما يقول، وهذا الشيء مُشاهَد، ولهذا قال الكافرون: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ يعني يُقال ويراد حقيقة، فَهم لقوة إرادة النبي ﷺ لما يقول، كانوا يخافون من هذه الإرداة ويقولون: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ والله أعلم.



قال الله تعالى:

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: ٧، ٨].

التفسير

قال الله تبارك وتعالى حاكيًا عن قريش ما كانوا يتواصون به من الصبر على آلهتهم، والثبات

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٣٢٢٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٩٤٠).

عليها، نقل عنهم من جملة كلامهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ ما سمعْنا بهذا، والمشار إليه التوحيد، أي: أنه لا إله إلا الله ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ الملةُ: هي الدين الذي يكون عليه الإنسان، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، وتُطلَق الملة على الحق وعلى الباطل، فالكفار على مِلَّةٍ والمسلمين على ملة، وفي كلام أهل الفقه في الفرائض:

لا يتوارث أهل مِلَّتين، وجاء في ذلك حديث عن رسول الله ﷺ[1]، فالملة هي الدين الذي يكون عليه المَرْء من عقائد وعبادات وأخلاق.

وقوله: ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ قال المؤلف: [أي: ملة عيسى عليه السلام] لأن عيسى هو آخر الرسل قبل محمد ﷺ، لم يكن بينه وبين محمد ﷺ نبيٌّ، وما قيل عن نبوة بعض العرب مثل خالد بن سنان أو غيره فإنه لا صحة له، وذلك لأن العرب ليس فيهم رسول إلا إسماعيل عليه الصلاة والسلام ومحمد ﷺ، وما سوى ذلك فكلُّ ما يُدَّعَى من أن في العرب رسولًا أو نبيًّا فهو كَذِب.

يقول: ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أي: ملة عيسى عليه الصلاة والسلام، وذلك أن الذي سمعوه في ملة عيسى هو أن الله ثالثُ ثلاثة، وهذا ليس بتوحيد. والعجب من ضلال النصارى حيث يقولون: إننا نوحِّدُ الله، وهم يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، فأين التوحيدُ في ثلاثة، لا يمكن أن نجعل الثلاثة واحدا؟! ولهذا يعتبر هذا من أضل ما ضل فيه النصارى، وهم كما هو معلوم ضالون، ولكن هذا من أشد ما يكون من الضلال. كيف تقول: إنك موحد وأنت تقول: إن الله ثالث ثلاثة: مريم وابنها والله، فالعرب الذين في عهد الرسول ﷺ ما سمعوا في ملة عيسى توحيدًا، وإنما سمعوا فيها تثليثًا، فكأنهم يقولون: أنت يا محمد أتيت بملة لم تكن لمن قبلك، فالذين من قبلك آخرهم الملة النصرانية، وهم لا يقولون بالتوحيد.

﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝٧﴾ إن يقول المؤلف: [ما] وعلى هذا فهي نافية، وعلامة "إِنْ" النافية أن يأتي بعدها الإثبات بـ"إِلَّا" أو نحوها، وهنا أتى بعدها الإثبات بـ "إلا" ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي: ما هذا إلا اختلاق، و"إن" تأتي في اللغة العربية على أوجه: نافية، وزائدة، وشرطية، ومُخَفَّفَةٌ من الثقيلة، فهنا "إن" نافية وفي قولك: إن أكرمتَني أكرمْتُك؛ شرطية، وفي قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢] نافية: إذا أثبت "إلَّا" فهي نافية. وفي قول الشاعر:

أَنَا ابنُ أُبَاةِ الضيمِ مِن آلِ مَالِكٍ ... وإنْ مالكٌ كانتْ كِرامَ المعادنِ

إنَ مَالِكَ مخففة من الثقيلة، وفي قول الشاعر:

بني غُدانةِ مَا إنْ أَنتُم ذهبٌ ... ولا صَريفٌ ولكنْ أنتُمُ الخزفُ

قال المؤلف هنا: [﴿إِنْ﴾: ما ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾: كذب] هذا المشار إليه ما جاء الرسول ﷺ

---

(١) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ١٧٨)، وأبو داود (٢٩١١)، وابن ماجه (٢٧٣١)، وحسنه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٧١٩).

من التوحيد، وقوله: ﴿إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ أي إلا كذب، يقال: اختلق الكلامَ، أي: افتراه وكذبه، وهذا بناء مبني على قوله فيما سبق ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾، والكذّاب لا يأتي إلا بالكذب والاختلاق، ولما أنكروا التوحيدَ أنكروا الرسالةَ أيضًا فقالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ هذا الاستفهام للنفي لكنَّه أتى بصيغة الاستفهام مبالغةً في نفيه، كأنهم يتعجبون كيف ينزل عليه الذكر من بيننا ولم ينزل على أحد غيره؟! وهذا كقوله تعالى حكاية لقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] القريتان: هما مكة والطائف.

يقولون: لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من الأكابر والأشراف، لا على هذا الغلام الذي يعتبر من أصغر القوم، فكيف ينزل عليه الذكرُ بيننا.

وقوله: ﴿أَءُنزِلَ﴾ ذكر المؤلف فيها قراءاتٍ قال: [بتحقيق الهمزتين]: أي: همزة الاستفهام وهمزة الفعل، والتحقيق أن تقرأه هكذا ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ [وتسهيل الثانية] تسهيل الثانية بأن تمرَّ عليها مرًا فلا يظهر أنك حذفتَها ولا أنك بَيَّنتها، [وإدخال ألف بينهما على الوجهين] أي: وجهي التحقيق والتسهيل. ألف بينهما، أي: بين الهمزتين فتقول على قراءة التحقيق ﴿آأُنزِلَ﴾ وعلى قراءة التسهيل ﴿آأُنزِلَ﴾ فالقراءات إذن أربع: تحقيق الهمزتين بلا ألف، وتحقيق الهمزتين بألف، وتسهيل الثانية بدون ألف، وتسهيلها مع ألف.

وقوله: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ عليه: على محمد ﷺ الذي جاء بهذا القرآن الذي يُذكِّرُهم به. ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾ القرآن. وهذا إقرار منهم بأن القرآن ذِكْر، وإن كان يحتمل أن يكونوا قالوه على سبيل الاستهزاء والتهكم، وأنهم لا يؤمنون بأنه ذكر، وأيًّا كان فالمقصود بذلك نفي أن يكون محمدٌ ﷺ هو الرسول.

يقول المؤلف: [﴿مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ وليس بأكبرنا ولا لأشرفنا] ويريدون أن يكون نزول القرآن على أكبرهم وأشرفهم، ولكن الذي نتيقن- أنه لو نزل على أشرفهم وأكبرهم لكذَّبوا أيضًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨-٩] فهم معاندون لا يريدون الحق، وعلم أنه لو نزل على غير محمد ﷺ لطلبوا أن يكون نزل على غيره؛ لأنهم لم ينفوا الرسالة حقيقة من أجل شخصية محمد ﷺ، فإن شخصيته عندهم من أفضل الشخصيات، وأقواها أمانةً، وأحسنها خُلقًا، ولكن يقولون هذا على سبيل العناد والمكابرة، فهو كقولهم لما حُدِّثوا بالبعث: ﴿قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥] وهذا مكابرة منهم، لأنهم لم يحدثوا بالبعث الآن،وإنما حدثوا بالبعث يوم القيامة، فلم يأت الموعدُ الذي حُدِّدَ للبعث حتى يتحدوا بهذا التحدي فيقال لهم: إن الله يميتكم ثم يحييكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة، والرسل ما قالت لهم: إنكم تبعثون الآن حتى تقولوا: هاتوا آباءنا، وإنما يقولون: ستبعثون يوم القيامة، وسيأتي الله

بآبائهم ومن سبقهم.

وقول المؤلف رحمه الله: [ليس بأكبرنا ولا أشرفنا]، أما قوله: ليس بأكبرنا، إن كانوا قالوه فهم صادقون، فالرسول ليس بأكبرهم سنًا، فيهم من يكبره سنًا، وأما قولهم: ولا أشرفنا، فهم كاذبون، فإن محمدا ﷺ أشرف الخلق. وقال النبي ﷺ: «إنَّ الله اصْطفى بني إسماعيلَ، واصطفى من بني إسماعيل كِنانة، واصطفى من كنانةَ قُريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[1]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فلم يجعل رسالته إلا في أحقِّ الناس بها، وأجدرهم بها، وأولاهم بها.

يقول المؤلف: [أي: لم ينزل عليه] هذا تفسير للاستفهام في قولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي: أن الاستفهام للنفي، لكنَّه جاء على سبيل الاستفهام؛ للتعجب والاستبعاد من أن يُنَزَّلَ عليه الذِكرُ من بينهم.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ بل : إغراء لإبطال ما ادعوه من كونهم يريدون أن ينزل القرآن على أشرفهم. يقول: هم في شك من ذكري، فكيف يقولون: لو نُزِّل على أشرفنا، لو نزل على غير محمد، والشَّاكُّ في الأصل لا يطلب الفرع أصلًا، فإذا كانوا في شكٍّ من نزول هذا الذكر، بقطع النظر عن كونه من محمد ﷺ فكيف يقولون: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وعلى هذا فقولهم ليس مبني على أصل. يعني أنهم لم يؤمنوا بهذا الذكر أصلًا فضلًا عن أن يكون أنزل على محمد أو غيره.

وقوله: ﴿مِّن ذِكْرِى﴾ قال المؤلف: [وَحْيِيْ، أي: القرآن، حيث كذبوا الجائي به]، فإن مَنْ كَذَّبَ مَنْ جاء بالشيء فإنه منكر للشيء؛ لأنه لو قال لك قائل: قَدِمَ فُلانٌ اليوم، فقلت: أنت كاذب، هل تكون مؤمنًا بقدومه؟ لا، لا تكون مؤمنًا بقدومه، وكيف تكون مؤمنا بقدومه وهو لم يأتك إلا من هذا الطريق الذي زعمت أن صاحبها كذَّاب، ولهذا إذا كان هذا الذكر لم يأتِ إلا عن طريق محمد ﷺ، وقالوا: إنه كاذب، وإنه ليس برسول، وليس له حق في الرسالة؛ لأنه يوجد مَن هو أحقّ منه، فكيف تقولون بأنه ذِكر. إذًا هم في شكٍ من هذا الذكر، وهل هذا الشك حقيقة أو على سبيل العناد؟

الظاهر - والله أعلم - : أنه على سبيل العناد، لكن منهم مَنْ يشك لقوة الدعاية المضادة، ولا سيما إذا جاءت من أكابر،فسوف يلحق العامةَ شكٌ من هذا القول.

وقوله: ﴿مِّن ذِكْرِى﴾ أي: من الذكر الذي أنزلتُ، وهو القرآن، والشكُّ هو التردد وعدم الجزم.

وقد قيل: إن الإدراك ينقسم إلى خمسة أقسام: إدراكُ الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا،

---

(١)صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٧٦)، والترمذي (٢٦٠٥).

وإدراك الشيء على خلاف ما هو عليه، وإدراك الشيء برجحان، وإدراك الشيء بمرجوحية، وإدراك الشيء على السواء، فهذه خمسة أقسام.

فإدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا يُسمَّى علمًا، كإدراكنا أن الواحد نصف الاثنين، هذا علم. وإدراك الشيء على خلاف ما هو عليه جهل مُرَكْب، مثل: أن تدركَ أن غزوة بدر مثلًا في السنة الثالثة للهجرة، هذا نسميه جهلًا مركبًا، وعدم إدراكه بالكلية هذا جهل بسيط، وإدراك الشيء مع رجحان ظن، وإدراكه مع المرجوحية وَهْم، وإدراكه مع التساوي شك، فهذه ستة أقسام. إدراكه على ما هو عليه، وعدم الإدراك بالكلية، والإدراك برجحان، والإدراك بمرجوحية، والإدراك بالتساوي.

والشك أحيانًا يُراد به التساوي، وأحيانًا يُطلق على الراجح والمرجوح والمساوي، ففي كلام الفقهاء عندما يتحدثون عن الشك في الحدث أو الشك في نجاسة الطاهر، فإنهم يريدون الشكَّ الراجح والمرجوح والمساوي، أي: بمعنى أنه إذا شككت في نجاسة الماء الطاهر ولو غلب على ظنِّك أنه ناجس فهو طاهر، وإذا شككت هل أحدثت، ولو غلب على ظنك أنك أحدَثْت فأنت طاهر، وعللوا ذلك بأن الرسول ﷺ قال: «لَا ينصَرفُ حتى يَسْمَعَ صوتًا أو يجد ريحًا»[1] يعني حتى يتيقن ولا عبرةَ بالظن.

يقول الله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ بل: للإضراب الانتقالي لا الإبطالي ﴿لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ قال المؤلف: أي: [لم] وهذا تفسير ببعض المعنى؛ لأن "لما" و"لم" تشتركان في النفي لكنهما تختلفان فيما عداه؛ لأن "لم" لنفي غير المُتوقَّع، و"لما" لنفي المتوقع القريب، فإذا قلت: لم يقمْ زيدٌ، فهذا نفي لقيامه على وجه لا يُتوقع منه القيام، وإذا قُلتَ: لما يقُم زيدٌ، فهو نفي لقيامه على وجه يُتوقع منه القيام عن قرب، وعلى هذا فقوله: ﴿لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أي: لم يذوقوه ولكن سيذوقونه قريبًا.

قالوا: و"لَمَّا" تأتي على أوجه: تأتي نافية فتجزم الفعل المضارع كما تجزمه "لم"، وتأتي بمعنى حين، وتأتي شرطية، وتأتي استثنائية. هذه أربعة أوجه. تأتي نافية كنفي "لم" لكنها تختلف عنها بأن منفي "لم" لا يتوقع، ومنفيها يتوقع قريبًا، مثل هذه الآية، وتأتي شرطيّة كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢]، وتأتي استثنائية لقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[الطارق: ٤] أي: ما كل نفس إلا حافظ، وتأتي بمعنى "حين" فتقول: قَدِمْتُ البلد لما طلعتْ الشمس، أي: حين طَلَعَتْ الشمس. قال: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ يذوقوا أصلها يذوقون لكن حذفت النون للجزم؛ لأن "لما" من حروف الجزم.

وقوله: ﴿عَذَابِ﴾ قد يشكل على طالب العلم، وهو أن الفعل واقع عليه، وهو مع ذلك لم يُنصَب، أي لم يقل: بل لَمَّا يذوقوا عذابًا، فكيف توجيه ذلك؟ كيف لم ينصب ﴿عَذَابِ﴾ مع أن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٧)، ومسلم (٣٦١).

الفعل واقع عليها؟ والجواب عن ذلك أن نقول: إن ﴿عَذَابِ﴾ أصلها: عذابي بالياء، والمضاف إلى ياء المتكلم تقدر عليه الحركات، ولذلك لا بد أنه يُكسر من أجل مناسبة الياء، فتكون الحركات مقدرةً عليه، وعلى هذا فنقول: عذاب مفعول يذوق، منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة تخفيفًا، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، والياء هنا حذفت للتخفيف، وهذا كثير في القرآن واللغة العربية أن تُحذف ياء المتلكم للتخفيف، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١] والتقدير: المتعالي، ومن والي.

وقوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ العذاب ليس مطعومًا يذاق، ولكن الإصابةُ به ذوق، وذوق كل شيء بحسبه، فإذا أعطيْتُك قطعة لحم ومضغتها فهذا ذوق، وإذا ضربْتُك وأحسستَ بالضرب فهذا ذوق، فذوق كل شيء بحسبه، وليس ذوق العذاب كذوق الطعام والشراب، بل هو ذوق مناسب له ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾. قال المؤلف: [ولو ذاقوه لصدَّقوا النبي ﷺ فيما جاء به] ولكنَّ هذا التصديق لا ينفعهم؛ لأنه إذا صدَّق الجاحدُ بعد نزول العذاب به فإن ذلك لا ينفعه، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

الفوائد:

١- **من فوائد قوله تعالى:** ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾: أنَّ المُكذِّبين للرسول ﷺ فيما جاء به من التوحيد ليس عندهم دليلٌ إلا ما كان عليه آباؤهم؛ لقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء مكابرون معاندون فمع كونهم لا دليل عندهم قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** أن كلَّ إنسان ليس عنده عِلْمٌ شرعي فإنه يلجأ إلى ما كان الناس عليه في العادة، وهذا كما هو فِيمَنْ سبق فهو فِيمَنْ حضر، كثير من الناس تنهاه عن المنكر فيقول: هذا الذي مشى عليه الناس، وهذا ليس بحجة، وهذا كما أنه سابق فهو أيضًا لاحق، فمن الناس مَنْ إذا أنكرتَ عليه المنكر قال: هذا ما زال الناسُ عليه، أو يقول: ما سمعْنا بهذا، ومنه قول بعض العامة إذا نُبِّهُوا على شيء لم يكونوا يعرفونه، قالوا: هذا دِينٌ جديد، ما سمعْنا بهذا، وهذا ليس بحجة. وإنما الحُجةُ الدليل القائم من كتاب الله، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

٤- **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾: أن هؤلاء يريدون أن يكون الشرع تابعًا لأهوائهم، يأتي الوحيُ مَن يشاءون، ويمتنع عَمَّنْ يشاءون؛ لقوله: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن صاحب الباطل لا يعرف أن حجته حجةٌ عليه؛ لأن قولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ هي حجة فيما لو نزل الذكرُ على من يشاءون، لأنه لو نزل على مَن عيَّنوه وأرادوه، لقال غيرهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ ويتفرع على هذه الفائدة كل مُبطِل يحتج بحق، لكن استدلاله به باطل، فإنه لا حجة له، ومن ذلك ما يحتج به أهل التحريف في باب الصفات أو غيرها من الأدلة الصحيحة التي ليس لهم فيها استدلالٌ، فمثلًا أهل التعطيل يستدلون لتعطيلهم بقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ومن المعلوم أنه عند التأمل يكون هذا الدليل حجة عليهم؛ لأن نفي المماثلة يدل على ثبوت أصل المعنى، ولو لم يكن أصل المعنى ثابتًا لم يكن لنفي المماثلة فائدة. وهكذا كل مبطل يحتج لباطله بحجة صحيحة، لكن استدلاله بها غير صحيح، نجد أن هذه الحجة حجةٌ عليه. وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه "دَرْء تعارض العقل والنقل" المعروف بالعقل والنقل أنه ملتزم بأنه ما من صاحب باطل يحتج بآية أو حديث صحيح إلا كان دليلُه حجةً عليه وليس له.

٦- **ومن فوائدها أيضًا:** أن هؤلاء الذين اقترحوا هذا الاقتراح وأنكروا أن ينزل الوحي على النبي محمد ﷺ هم في شك مما يدَّعون، فإذا كانوا في شك فكيف يقترحون؟ ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾.

٧- **ومن فوائدها:** أن المكذبين للرسل يوشك أن ينزل بهم العذابُ، لقوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** أن العذاب إذا نزل فإنه يكون ماسًا للإنسان مؤثرًا فيه، لأنه عبر عن ذلك بقوله: ﴿يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** أن الكلماتِ تُفسَر بحسب السياق، فالذوق في الأصل إنما هو للطعام والشراب، ولكن قد يُراد به ما أصاب الإنسان إصابةً مباشرة فإنه يسمى مذوقًا.



قال الله تعالى:

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ [ص: ٩، ١٠].

التفسير

قال الله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾، هذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] قال بعدها: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾

[الزخرف: ٣٢] حتى يقولوا نجعل النبوة في فلان دون فلان وهنا لما قالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ﴾ قال بعدها: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ يعني هل هم الذين يقسمون هذه الخزائن فيجعلون الرسالة في فلان دون فلان. و"أم" هنا بمعنى "بل"، والاستفهام يراد به النفي، وعلى هذا فتقدير الكلام: بل أعندهم خزائن رحمة ربك، أي: ليست خزائن رحمة الله عندهم حتى يقولوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ﴾ ولماذا لم ينزل على فلان أو فلان؟

قوله: ﴿خَزَآئِنُ﴾ جمع خزينة، والخزينة: مُستودَع الشيء يسمى خزينة، والرحمة: رحمة ربك، أي: ما يكون برحمته من الأرزاق الحسية والمعنوية؛ والجواب: لا ليس عندهم خزائن ربك.

وقوله: ﴿الْعَزِيزِ﴾ قال المؤلف: [الغالب] ﴿الْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ أي: الكثير الهبات، وهي العطايا. قال: ﴿رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ فأضاف الرحمة إلى رب، ثم أضاف الربوبية إلى النبي ﷺ ﴿رَبِّكَ﴾ اعتناءً به وبيانًا أنَّ ما حصل له من الرسالة فهو بمقتضى ربوبية الله الخاصة له، ولهذا نقول: أخصُّ أنواع الربوبية ما كان للرسل، كما أن أخص العبودية عبودية الرسل، ولهذا أضاف الربوبية إليه، لأن أخصَّ الربوبية ربوبية الله سبحانه وتعالى لرسله وعلى رأسهم محمد ﷺ، فكأنه يشير إلى أن رسالة الله للرسول ﷺ من رحمته به. وقوله: ﴿الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ فيه مناسبة عظيمة. العزيز لمقابلة هؤلاء الذين كانوا في عِزَّةٍ وشقاق، ليُبيِّن أن عِزَّةَ الله فوق عزتهم وأنفتهم وحميتهم، وأنه غالب لهم وقاهر لهم. والوهَّابُ بالنسبة للرسول ﷺ، يعني أنه وهبه النبوة.

العزيز: يقول المؤلف: إنه الغالب، وهذا أحد معانيه، ولكن اللفظ يشتمل على معانٍ أكثر، فالعزيز يدل على ثلاثة أنواع من العزة: عزة القدر، وعزة الامتناع، وعزة القهر، فعزة الامتناع: تعني امتناع الله سبحانه وتعالى عن كل نقص وعيب، فهو عزيز يمتنع عليه كل نقص وعيب. وعزة القدر: تعني عزة الشرف والسيادة، فالسيادة المطلقة لله عزَّ وجلَّ، والعزة المطلقة لله عزَّ وجلَّ، يقول تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠] والثالث عزة القهر: وهي عزة الغلبة، أي: أنه غالب لكل أحد، فعزة القهر تعني عزة الغلبة وأنه غالب لكل أحد، ومن أشعار الجاهلية:

أيْن المفرُّ والإله الطـــــالبُ ... والأشــرَمُ المغلوبُ ليس الغالبُ

فإذنْ يكون تفسير المؤلف رحمه الله للعزيز بالغالب تفسيرٌ للفظ ببعض المعاني، وهو تفسير قاصر؛ لأننا ذكرنا فيما سبق أن كل من فسر القرآن ببعض ما يدل عليه فإنه تفسير قاصر، لكن أحيانًا يُفسَّر القرآن ببعض ما دلَّ عليه تمثيلًا لا حصرًا، كتفسير بعضهم قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

فَسَّرَ الظالم لنفسه بأنه الذي يؤخر الصلاة عن وقتها، والمقتصد الذي يصليها في آخر الوقت، والسابق بالخيرات الذي يصليها في أول الوقت، وبعضُهم فَسَّرَ الظالم لنفسه بالذي لا يُزكي،

والمقتصد بالذي يزكي ولا يتصدق، والسابق بالخيرات بالذي يزكي ويتصدق. فهذا التفسير نقول: لا شكَّ أنه قاصر، لكن لم يرد المفسر أن المعنى منحصر في هذا، وإنما أراد بذلك التمثيل، يعني مَثَلُ الظالم لنفسه مثل الذي لا يزكي، والمقتصد مثل الذي يزكي ولا يتصدق، والسابق بالخيرات مثل الذي يزكي ويتصدق.

قال المؤلف: [﴿ٱلْوَهَّابِ﴾ من النبوة وغيرها، فيعطونها من شاءوا؟] هذا مفرع على النفي، يعني هل عندهم خزائن الله من النبوة وغيرها فيعطونها من شاءوا ويمنعونها من شاءوا؟ الجواب: لا.

ثم قال الله عزَّ وجل: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أم هنا للإضراب فهي بمعنى بل والهمزة، يعني بل ألهم ملك السماوات والأرض؟ وهذا الاستفهام للنفي، يعني ليس لهم ملك السماوات والأرض، وقوله: ﴿مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السموات: جمع سماء، وهو في اللغة العربية كل ما علا، فكل ما علاك فهو سماء، ولكنَّ المراد به هنا السماوات المعروفة المحفوظة، والمعروف أنها سبع سماوات كما صرَّح الله به في عدة آيات، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ هي هذه الأرض المعروفة، وهي سبع أراضين كما هو ظاهر القرآن في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] فإن المثلية هنا في العدد لا في الحجم ولا في الكيفية، وكما جاءت السنة بذلك صريحًا في قول النبي ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبرًا من الأرض بِغَيْرِ حَقِّهِ، طَوَّقَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَاضِينَ»(١).

وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ما بين السماء والأرض من المخلوقات العظيمة كالشمس والقمر والنجوم والكواكب وغيرها مما لا يعلمه إلا الله، وجعل ما بين السماوات والأرض قسيمًا لهما يدل على أن ما بينهما مخلوقات عظيمة تقابل السماوات والأرض.

قال المؤلف: [إن زعموا ذلك] أي: أن لهم مُلكَ السماوات والأرض فهل يملكون ذلك؟ لا، لا يمكن.

قال المؤلف رحمه الله: [إن زعموا ذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ وكَأَنَّ المؤلف - رحمه الله - جعل قوله: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ جوابًا لشرطٍ مُقَدَّر، يعني إن زعموا أن لهم ملك السماوات والأرض، ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ [الموصلة إلى السماء، فيأتوا بالوحي، فيخصوا به من شاءوا].

قوله: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟﴾ الفاء واقعة في جواب شرط مُقَدَّر، أي: فإن زعموا ذلك فليرتقوا، واللام: لام الأمر، سُكِّنَتْ لوقوعها بعد فاء العطف، لأن لَام الأمر تُسَكَّن إذا وقعت بعد الفاء وثم والواو، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩] هذه بعد ثُمَّ، ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩] هذه بعد الواو، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ١٥] هذه بعد الفاء،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠).

بخلاف لام التعليل فإن لام التعليل تكون مكسورةً ولو وقعت بعد هذه الحروف، كما قال تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ [العنكبوت: ٦٦] ولَمْ يقل: وليتمتعوا؛ لأنَّ اللام للتعليل، فلام التعليل تكون مكسورة دائمًا، ولام الأمر تكون مكسورة إلا إذا وقعت بعد الواو والفاء وثم، ولهذا قال: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [الحج: ١٥] فاللام هنا للأمر، والظاهر أن المراد بالأمر هنا التحدي. يعني: إن كانوا صادقين فليرتقوا في الأسباب، والأسباب: جمع سبب وهو كلُّ ما يوصل إلى المقصود، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [الحج: ١٥] أي: بشيء يوصله إلى السماء كالحبل ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥] فهنا قال: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أي: فليجعلوا أسبابًا يرتقون بها، ويصلون إلى السماء. ومعلوم أن هذا التحدي لا يمكن لهم أن يحققوه.

ثم قال المؤلف: [الموصلة إلى السماء، فيأتوا بالوحي، فيخصُّوا به من شاءوا] بناء على قولهم: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ يعني إذًا فارتقوا إلى السماء، وأنزلوا الوحي، وخصوا به من شئتم.

ثم قال المؤلف: [و"أم" في الموضعين بمعنى همزة الإنكار]، الإنكار الذي بمعنى النفي. ثم قال: ليس عندهم خزائن الله وليس لهم ملك السماوات والأرض بل هم خالون من هذا كله.

الفوائد:

١- **من فوائد هاتين الآيتين:** إبطال حجة هؤلاء الذين قالوا: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ وذلك لأن إنزال الوحي على شخص ما هو من فضل الله عليه، ومن خزائن رحمته، وهذا لا يملكه هؤلاء المقترحون؛ لأن الأمر والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

٢- **ومن الفوائد:** إثبات هذين الاسمين من أسماء الله: العزيز والوهَّاب، وإثبات ما تضمَّناه من صفة، فالعزيز تضمن صفة هي العزة، وأقسامها ثلاثة كما مرعلينا في التفسير، والوهاب تضمن صفة هي الهبة الكثيرة، وما أكثر هبات الله عزَّ وجلَّ، وتضمن القدرة؛ لأنه لا يهب إلا القادر، وتضمن الغنى؛ لأن مَنْ لا شيء عنده لا يكن لأن يهب، وتضمن الكرم، لأن البخيل لا يهب. ودلالة الوهَّاب على الهبة من باب دلالة التضمن، وعلى الهبة والوهاب من باب دلالة المطابقة، وعلى القدرة والغنى والكرم من باب دلالة الالتزام.

فإذًا في هذا الاسم أنواعُ الدلالة الثلاثة، وهي الالتزام والمطابقة والتضمن، والفرق بين هذه الثلاثة أنَّ دلالة اللفظ على جميع معناه دلالةٌ مطابقة، وعلى جزء معناه دلالة تضمن، وعلى اللازم الخارج الذي لا يدل عليه بلفظه لكن من لوازمه دلالة التزام. وأضرب لها مثلًا في أمر حسي ليتبين به الأمرُ المعنوي. هذا بيت يشتمل على غرف ومجالس وبراحات، أي: أحواش. دلالة هذا البيت على جميع ما فيه من الغرف والمجالس والأحواش دلالة مطابقة، ودلالته على كل حجرة واحدة، ولكل مجلس وحده، ولكل حوش وحده، دلالة تضمن، ودلالته على أن بانيًا دلالةُ التزام، لأن

البيت لا بد له من بانٍ، فنقول: هذا قد بناه بانٍ، ما هو الدليل؟ لأن البيت لا بد له من بان.
فالوهَّاب مثلًا دلالته على الاسم والصفة التي هي الهبة دلالة مطابقة، وعلى الاسم وحده أو الهبة وحدها دلالة تضمن، وعلى القدرة والغنى والكرم دلالة التزام.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** مراعاة فواصل الآيات لسياق الآية، لأن العزيز الوهاب يناسب قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ ومناسبة فواصل الآيات لمضمون الآية دليل على البلاغة، ولا يشذُّ عن هذا شيء، ولهذا لما قرأ رجل عند أعرابي: [(والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالًا من الله والله غفور رحيم)] استغرب الأعرابيُّ كيف يقول: نكالًا من الله، ثم يقول: والله غفور رحيم؟ المغفرة والرحمة لا تتناسب مع النكال، فقال الأعرابي للقارئ: أعد، قال: (والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالًا من الله والله غفور رحيم) قال: أعد ما هكذا الآية، قال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨] قال: الآن عزَّ وحكم فقطع، ولو غفر ورحم ما قطع سبحانه وتعالى.

ولهذا قال الله تعالى في سورة المائدة في الذين يحاربون الله ورسولَه ويسعون في الأرض فسادًا: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣-٣٤] فأخذ العلماء من هذه الآية أنهم إذا تابوا قبل القدرة عليهم سقط عنهم الحدُّ، لأن الله قال: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإذا غفر لهم ورحمهم، فإنهم لا يقام عليهم الحدُّ.

وفي هذه الآية ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ مناسبة ظاهرة؛ لأنَّ الله ذو رحمة، وذو عِزَّةٍ وغلبةٍ، وذو هبةٍ وعطاء، فيعطي مَن شاء بما تقتضيه عزَّتُه من خزائن رحمته.

لكن بعض الآياتِ تكون فواصلها مخالفة لمضمونها فيما يظهر، مثل قول عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٧-١١٨] فهنا جاء قوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ جوابًا لقوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وكان المتوقع أن تكون الآية: وإن تغفرْ لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، فاستشكل بعضُ العلماء هذا، قالوا: كيف يقول: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ولم يقل: فإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم؟

وأجيب عن ذلك بأن عيسى عليه السلام لم يقتصر على ذكر المغفرة، بل ذكر المغفرة

والتعذيب، قال: إن تعذبهم، وإن تغفر لهم، فكان الحكم الآن مترددًا بين المغفرة والرحمة، إن نظرنا إلى قوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وبين العزة والحكمة والحكم إذا نظرنا إلى قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾، فصار ختام القول بقوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أنسب لأن المغفرة إن حصلت فهي من عِزَّةٍ وحكمة.

٤- **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ أنَّ الخلق لا يملكون خزائن رحمة الله، ولا يملكون السموات والأرض وما بينهما؛ لأن ذلك لله عزَّ وجلَّ. ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «اللَّهُمَ لا مَانِع لِمَا أَعْطَيْتَ، ولا مُعطِيَ لِمَا مَنَعْتَ»[1] فخزائن رحمة الله الذي يملكها هو الله عزَّ وجلَّ، وفي حديث ابن عباس «وَاعْلَمْ أَنَّ الأمَّة لو اجتمعوا على أن ينفعوكَ بشيءٍ، لم ينفعوكَ إلا بشيءٍ قد كتَبه الله لك، وإن اجتمعوا على أنْ يضرُّوك بشيءٍ، لم يَضرُّوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك»[2]. ويتفرع على هذه الفائدة أنه لا ينبغي للإنسان أن يُعَلِّقَ رجاءه إلا بالله عزَّ وجلَّ، ولا يعلق رجاءه بمخلوق إلا في الحدود الضعيفة المرسومة. يجعل الرجاء كلَّه والتعلق كلَّه بالله عزَّ وجلَّ، وإذا جعل هذا في الله، سخَّر الله له المخلوقات، حتى البشر يسخرهم له، لكن إذا تعلق بغير الله وُكِلَ إلى من تعلق به وضاع.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات ملكية الله للسماوات والأرض وما بينهما؛ لأن نفي ملك هؤلاء لها دليل على ثبوت الملكية لغيرهم ولا مالك لهذه إلا الله.

٦- **ومن فوائدها:** عظم ما بين السماء والأرض، ووجهه أن الله جعل ما بينهما قسيمًا لهما، والقسيم لا بد أن يكون معادلًا أو مقاربًا لقسيمه، لا يمكن أن تأتي بشيء عظيم تقارن بينه وبين شيء بعيد منه في العِظَم.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تحديه هؤلاء المكذبين أن يأتوا بما يدل على أن لهم شيئا من ملك السموات والأرض، لقوله: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** أنه لا ينبغي التحدي إلا بما لا يستطيعه المُتحدَّى، لماذا؟ لأنك لو تحديته بشيء يستطيعه ثم قام به بطلت حجتك نهائيًا، وهذا يفيدك في باب المناظرة، وفي باب النظر، لأن الناس ناظر ومناظر، فالناظر هو الذي يتأمل الأدلة من ذات نفسه ويُحكِّمُ عليها، والمناظر هو الذي يناقشها مع غيره، فمن فوائد النظر والمناظرة أن الإنسان لا يفرض شيئًا على وجه التحدي إلا إذا علم أنه غير ممكن للمُتحدَّى، لأنه لو فرض شيئًا يتحدى به، ثم أتى به المتحدى، بطلت حجتُه وانهارت، وانهارت قوة المدافعة والمهاجمة، كما هو معلوم، من أن يرتقوا إلى السماء والله أعلم.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٩٣)، والترمذي(٢٥١٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

٩- **ومن فوائد هذه الآية:** أن بعض العلماء أخذ منها أنه لا يمكن الوصول إلى القمر؛ لأن الله قال: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ۝١٠﴾.

ومعلوم أن القمر في السماء، فإذا كان هؤلاء الذين يحاولون أن يرتقوا في الأسباب إلى السماء، جندًا حقيرين مهزومين، فإنه لا يمكن أن يصلوا إلى القمر، فهل يمكن أن يؤخذ هذا من هذه الآية؟ ظاهر الآية أنه ممكن أن نأخذ من هذه الآية دليلًا على أن الناس يصلون إلى القمر، إذا كان هذا ظاهر الآية فمعناه أن الآية دلَّت على إمكان الوصول إلى القمر، وهذا عكس ما استدل به بعضُ الناس.

والحقيقة أنه لا يمكن أن يكون فيها دليلٌ على الامتناع من الوصول إلى القمر؛ لأن القمر في السماء، التي بمعنى العلو، وليس في السماء التي جعلت سقفًا محفوظًا، وهذا أمر مُؤَكَّدٌ لا يختلف فيه اثنان، وإذا كان السحاب في السماء، ويطلق عليه سماء، كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧] والناس الآن يصعدون فوق السماء الذي هو السحاب. كثير منكم ركب الطائرة وهي فوق السحاب، والسحاب تحتها، فكذلك القمر في السماء، قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١] فلا شكَّ أن القمر في السماء، ولكن هل هو في السماء التي هي السقف المحفوظ الذي لا يدخل إليه أشرف الملائكة وأشرف البشر إلا باستئذان؟ لا، قطعًا، بل هو تحتها بكثير، إذن نقول: إنه ليس في الآية دليلٌ على استحالة الوصول إلى القمر، كما إنه ليس فيها دليل على إمكان الوصول إلى القمر، ويترك هذا الأمر للواقع، فإذا صحَّ أنهم وصلوا إلى القمر فإن الشرع لم يقل باستحالة ذلك، وإذا لم يصحّ فإن الشرع لم يثبته. فإذا قالوا: وصلْنا إلى القمر وثبَت ذلك، قلنا : الحمد لله، هذا لا يعارض شرعَنا، لا يعارض كتاب الله ولا سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ومعلوم أن القمر تحت النجوم، والنجوم قال الله فيها: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[الملك: ٥].

لكنَّ القمر تحتها، وأنا وغيري شاهدنا أن القمر حجَب النجوم، وأنا شاهدت ذلك بعيني، كان القمر يساير النجمةَ التي تسمى نجمة الصباح، ومعروف أن القمر يتأخر فإذا بها تختفي، لم نعد نشاهدُها، فصار كما لو جاءت سحابةٌ فحالت بيننا وبين القمر. وحدَّثني من أثق به، قال: إن هذا قد يقع أحيانًا ونشاهده. إذًا القمر ليس في السماء التي هي السقف المحفوظ، فإذا ثبت أنهم وصلوا إليه فلا غرابة في ذلك. إذًا ليس في الآية دليل على انتفاء الوصول إلى القمر.

١٠- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ، وأن الجنود مهما عظموا، حقيرون بالنسبة إلى قوة الله عزَّ وجل وعِزَّته، مهزومون أمام قوته، ولهذا قال: ﴿مَهْزُومٌ﴾.

١١- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه يجب على هؤلاء المكذبين للرسول عليه الصلاة

والسلام أن يعتبروا بمن سبقهم، لقوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: هم جند حقيرون مهزومون كما هُزِم غيرُهم من الأحزاب. قالت عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] فقال الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].



قال الله تعالى:

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١١ـ١٤].

التفسير

قال تعالى: [﴿جُندٌ مَّا﴾ أيّ: هم جندٌ حقير ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في تكذيبهم لك ﴿مَهْزُومٌ﴾ صفة جند ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ صفة جند أيضًا] ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ جند: خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هم جند، وما: نكرة واصفة، لأن "ما" لها عشر معان جمعت في قول الشاعر:

محامل ما عشر إذا رُمْتَ عَدَّها فحافظْ على بيتٍ سليْمٍ من الشِّعرِ
ستفهْم شَرْط الوصْل فاعجب لنكرها بكفٍّ ونفيٍ زِيدَ تعظيمِ مصدرِ

نوضح ذلك: ستفهم: استفهامية، شرط: شرطية، الوصل: موصولة، فاعجب: تعجبية، لنكرها: نكرة سواء واصفة أو موصوفة، بكف: كافة، ونفي: نافية، زيد: زائدة، تعظيم: للتعظيم، مصدر: مصدرية.

﴿جُندٌ مَّا﴾ قال المؤلف: [هم جند حقير] فعلى هذا تكون "ما" هنا واصفة، يعني موصوف بها، لكن المراد بهذا التحقير، والدليل على ذلك التحقير قوله: ﴿مَهْزُومٌ﴾ والمهزوم حقير.

وقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ هنا إشارةٌ للمكان، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، ومعنى هُنالك أي: في ذلك المكان، والمؤلف يقول: [أي: في تكذيبهم لك] فجعل الظرفية المكانية هنا بمعنى: التكذيب، ولكن يبدو أن الأمر على خلاف ما قال المؤلف رحمه الله، وأن المشار إليه المكان الحسي، لا المكان المعنويِّ، أي: أنهم إن ارتقوا في الأسباب، فسوف يهزمون، فيكون «هنالك» أي: في المكان الذين يرتقون إليه، فإذا قدر أنهم ارتقوا إلى السماء فهل ستكون لهم الغلبة؟ أبدًا، بل بالعكس، حتى لو ظنُّوا أنهم لو وصلوا إلى السماء، وصعدوا إلى السماء أنهم انتصروا، وصارت لهم العزّةُ فالأمر بالعكس. هذا هو الذي يظهر من الآية الكريمة. أمَّا جعل الظرف هو التكذيب فهذا بعيد، بل التكذيب سبب للخذلان.

وقوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ﴾ (مهزوم) يقول المؤلف: [صفة جند] صفة ثانية والأولى "ما" و﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ صفة جند أيضًا، يعني جند من الأحزاب مهزوم.

واعلمْ أنه إذا تكررت الصفةُ للنكرة فإن ما بعد الصفة الأولى يجوز أن يكون حالًا، فإذا قلت: مررتُ برجلٍ عظيمٍ كريمٍ شجاعٍ، جاز لك أن تقول: مررتُ برجل عظيم كريمًا شجاعًا، ولكن الأولى أن تكون صفة، أي: نعتًا؛ لتناسق الكلام، وكونه على وتيرةٍ واحدة، فهنا عندنا ثلاث صفات لجند: "ما" و"مهزوم"، و"من الأحزاب"، ما الذي يجوز أن يكون منصوبًا على الحال؟ مهزوم، لكن لا يمكن هنا لأن حركةَ الإعراب ظهرَت على أنه مرفوع صفة، وكذلك من الأحزاب مثله يعني يجوز أن يكون صفةً وهو الأصل، ويجوز أن نجعلَه في موضع نصب على الحال.

قال المؤلف رحمه الله: [أي: كالأجناد من جنس الأحزاب المتحزبين على الأنبياء قبلك، وأولئك قد قُهِروا وأُهلِكوا فكذلك نُهلِك هؤلاء] يعني أن هؤلاء جند من الأجناد الأخرى، والأجناد الأخرى الأحزاب الذين كذَّبوا الرسل كان مآلهم الهلاك والدمار، وقد مر علينا في أول السورة: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

ثم بدأ الله عزَّ وجلَّ الإشارة إلى قصة أولئك الأجناد أو أولئك الأحزاب فقال عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل الذين كذَّبوك من قريش ومن اليهود وغيرهم ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ ونوح هو أول رسول أرسله الله عزَّ وجلَّ بدلالة القرآن والسنة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦] ولو كان أحد قبل نوح لخرج من ذريتهما، وبه نعرف أن ما يوجد من شجرة الأنبياء التي كتب فيها أن إدريس قبل نوح خطأ، فإن إدريس بعد نوح بلا شك، أما السنة فصريحة في ذلك فإنه ثبت في حديث الشفاعة الطويل [«أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ إِلَى نُوحٍ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ»][1] وهذا صريح، وبه أيضًا نعرف أن ما يذكر في كتب التاريخ من أن إدريس جد لنوح فهو خطأ بلا شك، فإدريس فيما يظهر - والعلم عن الله - من أنبياء بني إسرائيل.

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوح عليه الصلاة والسلام بُعِثَ إلى البشر حين اختلف الناسُ، وكان الناسُ في الأول على مِلَّةٍ واحدة، فاختلفوا، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، وهو يدعوهم إلى الله، ويأتيهم بالآيات، ويتحدَّاهم، ولكنَّهم - والعياذ بالله - كلما دعاهم ازدادوا عتوًّا ونفورًا، قال تعالى: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ [نوح: ٧] ولما أَذِنَ الله تعالى بهلاكهم دعا نوح ربه ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر: ١٠] فانتصر الله له ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر:١١- ١٤] وأمره اللهُ أن يحمل معه مَنْ آمنَ من قومه، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: ٤٠].

فتصوروا أيها الدُعاةُ كيف لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا وهو رسول الله، والناس لم يكثروا بعد، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل، حتى أحد نسله قد كفر به وهو ابنه الذي كان من المغرقين.

وقوله: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ قال المؤلف رحمه الله: [تأنيث "قوم" باعتبار المعنى] هل قوم مؤنث؟ أو الفعل الذي كان القوم يفعلونه هو الذي أُنِّثَ؟ نقول: الفعل هو الذي أُنِّثَ ﴿كَذَّبَتۡ﴾، أما قوم فليس فيها تاء التأنيث، لكن من المعلوم أن الفعل إذا أُنِّثَ فالفاعل مؤنث، فإذا وقع الفاعلُ لفعل مؤنث فهو مؤنث، لكن هل هذا اللفظ هل هو مؤنث لفظًا أو باعتبار المعنى؟ قال المؤلف: باعتبار المعنى، وهنا نسأل كيف يكون مؤنث باعتبار المعنى؟ لأن القوم جماعة، وكل جمع يجوز تأنيثه، قال ابن مالك رحمه الله:

والتَّاءُ مع جَمْع سوى السالم مِنْ ... مذكَّر كالتاءِ مع إحدى اللَّبِنْ

إحدى اللَّبِنْ: هي لَبِنَة، فَلَبِنَة يجوز فيها التذكير والتأنيث، لكن التأنيث أرجح، كذلك جميع الجموع ما عدا جمع المذكر السالم يجوز فيه وجود التاء في الفعل.

﴿وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ عادٌ قوم هود، كانوا بالأحقاف، وكانوا ذوي شدّة وقوة، من أشد الناس قوةً، فأُعجبوا بقوتهم واستكبروا وعصوا رسولهم عليه الصلاة والسلام، وافتخروا بما أعطاهم الله من القوة، كما قال الله عنهم: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ [فصلت: ١٥].

فتأمل قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ﴾ لأن فيها إشارة إلى أنهم ضعفاء أمام خالقهم، ولم يقل: أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات، قال: خلقهم، فهم مخلوقون، والخالق أعلى من المخلوق، وأشد منه قوةً ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥] فأهلكهم الله.

أهلكهم الله وعلى حين طمع في رحمته، أرسل الله عليهم ريحًا عظيمة، ولما رأوا ما تحمله الريحُ من الرمال العظيمة ظنُّوا أن ذلك سحاب. لما رأوا هذا قالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾ فقال الله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤- ٢٥] فعصفت بهم الريحُ العقيمُ حتى كانت تحمل الواحد منهم إلى جوِّ السماء ثم تقلبه على رأسه، فصاروا ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٧]، أعجاز النخل يعنى أصولها وجذوعها؛ خاوية منتكسة،

﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ومع ذلك ما آمن معه إلا نفرٌ قليل.

وقوله: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ قال المؤلف: [كان يَتِدُ لكل من يغضب عليه أربعة أوتاد يشد إليها يديه ورجليه ويعذبه] فرعون الذي أُرسل إليه موسى، وكان ملكًا لمصر جبارًا عنيدًا، استعبد أهل مصر وقال لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وسخر بموسى وقال لهم: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] وفخر بما أعطاه الله تعالى من الأنهار، قال لهم: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١] وكذَّب موسى وحاربه، لكن ليس بالسلاح بل بما جَمَع من السحرة، لأنه أَوْهَم الناس أن موسى كان ساحرًا، قال: هذا ساحرٌ يرمي العصا في الأرض فتكون حيَّةً، ويُدخِل يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، هذا ساحر.

وجمع السحرَة، وألقوا ما عندهم من السحر العظيم الذي أرْهبَ الناس، حتى موسى عليه السلام رهب وخاف، فقال الله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ [طه: ٦٨- ٦٩] فأيَّده الله، وألقى ما في يمينه وهي العصا، فصارت حيَّةً عظيمة التهمت الحبال والعصيِّ التي ملئوا بها الأرض، وصار يُخيَّل للناس أنها حيات وثعابين تسعى، فالتهمتها كلَّها، وسبحان الله كيف هذه الحية التي كانت عصا تلتهم كل هذا؟! هذا من آيات الله.

فلما رأى السحرةُ هذا الأمر دهشوا، وعلموا أن هذا ليس بساحر؛ لأن الساحر لا يمكن أن يأتي بمثل هذا الأمر، بل هو حقيقة، وهو آية أيَّدَ الله بها موسى، فآمنوا كلهم، وسجدوا لله ذُلًا وعبادةً، وقالوا معلنين: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١- ١٢٢].

فماذا يكون تأثير هؤلاء القوم الذين انتصر بهم فرعون بين الناس؟ سيكون تأثيرُهم على الناس كبيرًا وعظيمًا. أرأيتم لو أنَّ أحدًا من الملوك جمع أكبر ما عنده من المهندسين في حشد عظيم، ثم أقرُّوا وأذعنوا لخصوم هذا الملك، ماذا يكون شعور الناس؟ سيكون شعورهم أن الملك مهزوم.

ولهذا لما حصل إيمانُ السحرة لجأ فرعون إلى القوّة والقهر، وهددهم بأنه سيُقطِّع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم على جذوع النخل حتى يذوقوا العذاب، ولكنهم بإيمانهم قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٢- ٧٣] فصمدوا أمام هذا الطاغية العنيد. لقد كانوا في أول النهار من السحرة الكفرة، وصاروا في آخر النهار من المؤمنين البررة، وبقي فرعون مستمرًا على طغيانه - والعياذ بالله - حتى أهلكه اللهُ بالغرق بجنس ما كان يفتخر به على قومه وعلى موسى حين قال: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف:

٥١] فأُهلِكَ بالماء الذي كان يفتخر به.

وقول المؤلف في قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ قال: [كانَ يتِدُ ...] إلى آخره. الذي يظهر أنَّ هذا ليس سببَ الوصف بذي الأوتاد، وإنَّما السببُ الحقيقي أن يُراد بالأوتاد القوة التي ثَبَّتَ بها ملكه، كأوتاد الخيمة تثبت بها الخيمة، ولا يبعد أن يكون من جبروته أن يضع أوتادًا أربعة يصلب عليها الإنسان ويعذبه، لكن هذا لا يمكن أن يمتدح بها فرعون على أنه ذو قوة، بل الصحيح المراد بالأوتاد هنا ما كان عليه من القوة التي ثبَّت بها ملكه، كأوتاد الخيمة تثبت بها الخيمة.

قال الله تعالى: ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ قوله: ﴿وَثَمُودُ﴾ معطوفة على ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ يعني: وكذَّبت قبلهم ثمودُ أصحابَ صالح، وهم في مكان يقال له: الحِجْر، وتسمى الآن بمدائن صالح. أرسلَه اللهُ سبحانه وتعالى إليهم ولكنَّهم كفروا به، ولم يؤمن معه إلا قليلٌ، وآتاهم الله تعالى آيةً عظيمةً، وهي ناقة يحلبونها يومًا وتشرب الماء يومًا آخر. وقيل: إن الواحد منهم يأتي إليها فيسقيها ويأخذ من لبنها بقدر ما أسقاها، والله أعلم. والمهم أنَّ هؤلاء القوم عندهم قوةٌ مكَّنتهم من أن يتخذوا من الجبال بيوتًا. ولا تزال آثارهم باقية إلى اليوم. وقد مرَّ النبي ﷺ بها وهو ذاهب إلى تبوك، فقنَّع رأسه ﷺ - يعني غطاه - وأسرع في السير، وقال: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ المُعَذَّبِينَ إِلَا وَأَنْتُم بَاكُونَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِم، أَنْ يُصِيبَكُم مَا أَصَابَهُم»(١).

قال: ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ لوط: ابن أخي إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أرسله الله إلى قومه، وكانوا قد ارتكبوا الفاحشة - والعياذ بالله - فكانوا يأتون الرجال ويَدَعُون النساء. فوبَّخهم لوطٌ على ذلك وقال: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ [الشعراء: ١٦٥- ١٦٦] فأنتم الآن تركتُم الحلال إلى الحرام، وتركتم النزيه إلى الخسيس. ولكنهم أبوا واستكبروا حتى إن زوجَتَه كانت منهم، فأمره الله أن يسري بأهله، وأرسل على قومه حجارةً من سجيل، حتى جعل عاليَها سافلَها، وهذا من المناسبة بوضوح، فإن هؤلاء لما انقلبوا عن الحقيقة، ونزلوا إلى أسفل الأخلاق، جعل الله أعالي قريتهم سافلها. واختلف العلماء في معنى هذا، فقال بعضهم: إن الأرض حُمِلت ثم نُكِّست فصار عاليَّها سافلَها، وقال بعضهم: بل إنها تهدَّمت من الحجارة التي أُرسِلَت عليهم حتى صار عاليَّها سافلَها.

قال: ﴿وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ﴾ والأيكة فيها قراءتان، قال المؤلف: [﴿لْـَٔيْكَةِ﴾ أي: الغَيْضة وهو قوم شعيب عليه السلام] والغيضة: هي الأشجار المُلتَف بعضها إلى بعض، وكانوا في نعيم ولكنهم عصوا شعيبًا وسخروا منه ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١] ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٤١٩)، ومسلم (٢٩٨٠).

نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧] يسخرون منه، وقال الله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ [الشعراء: ١٨٩] قال أهل العلم: إنهم أصيبوا بحَرٍّ شديد جدًا، فأرسل الله غمامةً لها ظلٌّ، فتنادوا إليها يستظلون بظلها، فكان ظلها أكثر إحراقًا من الشمس - والعياذ بالله - فأُتُوا من حيث أمنوا.

هؤلاء يقول الله عزَّ وجل فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ يعني: أولئك الأحزاب العظماء الذين طغوْا واستكبروا وكذَّبوا الرسل، فالإشارةُ هنا بصيغة البعد إما لدنوِّ منزلتهم وبعدها عن الصواب، وإما لعلوِّها باعتبار حالهم التي كانوا عليها من الطغيان والعتوّ، وذلك لأن "أولئك" لا يشار بها إلا إلى الشيء البعيد علوّاً، أو نزولًا أو مساحة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ جمع حزب، والحزب هو الطائفة، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٢] أي: كلُ طائفة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ يحتمل أن تكون مبتدأ وخبر، يعني: أولئك هم الأحزاب الذين كذبوا الرسل فأهلكناهم، ويحتمل أن تكون الأحزاب صفة لأولئك.

وقوله: ﴿ إِن كُلٌّ ﴾ الجملة خبر المبتدأ، قال المؤلف: [﴿ إِن ﴾ ما ﴿كُلٌّ ﴾] أي: أن "إنْ" نافية، وقد سبق لنا أن قلنا: إن "أنْ" تستعمل في اللغة العربية على وجوه: النفي، والشرط، والمُخفَّفة من الثقيلة، والزائدة. قال المؤلف: [﴿ إِن كُلٌّ ﴾ ما كل من الأحزاب ﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾] كُلٌ من هؤلاء الأحزاب كذب الرسل، والرسل: جمع رسول، ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: كُلْ حزب كذَّب رسولَه، وعلى هذا فالجمع موزَّع على الجمع الذي قبله توزيع أفراد، أو هو توزيع جملة؟ أي: كل حزب كذَّب جَميعَ الرسل؟ المؤلف مشى على الثاني، قال: [لأنهم إذا كذَّبوا واحدًا منهم، فقد كذبوا جميعَهم، لأن دعوتَهم واحدةٌ، وهي دعوة التوحيد] فمشى - رحمه الله - على أن الجمع موزَّع على الأفراد توزيع جمع، يعني كل حزب كذَّب جميع الرسل، ويؤيد ما ذهب إليه - رحمه الله - قولهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥] فإن الله ذكر أن قوم نوح كذبوا المرسلين، ومن المعلوم أنه لم يُبعث رسولٌ قبل نوح حتى نقول: إنهم كذبوا من سبق، وعلى هذا فيكون ما ذهب إليه المؤلف أرجح مما يحتمله اللفظ احتمالًا مرجوحاً، وهو أن يكون الجمعُ موَّزعًا على ما قبله توزيع أفراد.

وقوله: ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ يعني سبحانه وتعالى باعتبار الجملة؛ لأن بعض القوم آمنوا لكنهم كانوا قلةً، والقلة مع الكثرة تنغمر فيها، فلهذا قال: إن كل من الأحزاب إلا كذَّب الرسل، ويحتمل أن يقال: إنه لا حاجة إلى هذا التقدير، أي: لا حاجة إلى أن نقول: إن هذا باعتبار الكثير من هؤلاء الأقوام، لأنه قال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ فيكون قوله: ﴿ إِن كُلٌّ ﴾ أي: من المكذبين إلا كذَّب الرسل، وعلى هذا فلا حاجة إلى استثناء الذين آمنوا، وإلى القول بأن الآية جاءت على الأغلب.

قال الله تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ الرسل الذين أُرسِلوا إليهم، وهنا نحتاج إلى الفرق بين الرسل والنبيين فنقول: أولًا: كل من ذكر في القرآن من النبيين فهو رسول، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨] وعلى هذا فيكون كلُ من ذُكِر في القرآن من الرسل؛ لأنهم قُصّوا علينا، وكل من قُصَّ علينا فهو رسول، أما على سبيل العموم فإن العلماء يقولون على المشهور عندهم: إن الرسول مَنْ أُوحِي إليه بشرع وأُمِر بتبليغه والدعوة إليه، لأنه رسول، والرسول ليس عليه إلا البلاغ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المادة: ٦٧] وأما النبيُّ هو الذي أُوحِي إليه بوحي لكن لم يُؤمَر بالتبليغ، فيكون كالمُجدِّد من هذه الأمة، فالمُجدِّد من هذه الأمة صالح في نفسه لكنه يدعو بحسب استطاعته، فالنبي لم يُكلَّفْ بالرسالة، وإنما أُوحِي إليه بما يُصلِحه ويَصْلَحُ به غيره لا على سبيل الإلزام بالرسالة.

وذهب بعضُ أهل العِلْم إلى الفرق: أن النبيَّ هو من جدَّد شرع مَن قبله ولم يستقلّ بوحي، فهو يأتي بالشريعة السابقة، وأما الرسول فهو الذي يُجدِّد له الوحيُ، ويأتي بشريعة مستقلةٍ، وهذا القول قد نقول: إنه جيد كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤] ولكنَّه ينتقض بآدم عليه الصلاة والسلام، فإن آدم نبي ولم يكن تابعًا لشريعة سابقة، والقولُ إذًا انتقض فهو ضعيف غير مُعْتَمدٍ عليه.

قال الله تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ حقَّ، أي: وجب وثبت، وقوله: ﴿عِقَابِ﴾ فاعل "حق" مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، أي: يكسر ما قبل ياء المتكلم ليُناسب الياء، فالكسرة التي يؤتى بها لمناسبة الياء تسمى حركة المناسبة أو كسرة المناسبة، وهي تمنع من ظهور ضمة الإعراب وفتحته على آخر الكلمة.

والعقاب: هو المؤاخذة على الذنب، ولهذا سُميَّ عقابًا؛ لأنه يأتي عقب الجريمة، فَكُلُّ عذاب على جريمة فإنه يسمى عقابًا. وهذا العقاب الذي أنزله الله بهم هو عقاب مبني على العدل؛ لأن الله سبحانه وتعالى أضافه إلى نفسه فقال: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾، ونحن نعلم أن الرَّبَّ عزَّ وجلَّ لا يظلم أحدًا أبدًا، لا يزيد في سيئاته، ولا ينقص من حسناته، لكن لو كان العقاب من غير الله لكان يمكن أن يزداد على الجريمة، أما العقاب الذي أضافه الله لنفسه فهو عقاب عدل.

الفوائد:

١- في هذه الآية تسلية وتهديد، تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام، وتهديد للمكذبين له أن يصيبَهم مثل ما أصاب من قبلهم.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات الرسالة لنوح عليه الصلاة والسلام لقوله: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ وهو كذلك،

فإن نوحًا هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض.

٣- **ومن فوائدها أيضًا:** إثبات الرسالة لهود لقوله: ﴿وَعَادٌ﴾ وعاد هم قوم هود، فإنهم كذبوا هودًا.

٤- **وفي الآية:** إثبات رسالة موسى لقوله: ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ ومعلوم أن الذي أُرسل لفرعون هو موسى، ففي الآية إثبات لرسالة موسى.

٥- **ومن فوائدها:** أنَّه مهما عظم سلطانُ المكذبين للرسل فإنهم أذِلَّاء بالنسبة لسلطان الله عزَّ وجلَّ لقوله: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾.

٦- **من فوائد الآية:** إثبات رسالة صالح لقوله: ﴿وَثَمُودُ﴾ والمرسل إلى ثمود أخوهم صالح.

٧- **ومن فوائدها:** إثبات رسالة لوط لقوله: ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** إثبات رسالة شعيب لقوله: ﴿وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام.

٩- **ومن فوائدها:** أن جميع هؤلاء الأحزاب كذَّبوا الرسل لقوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾.

ومن فوائدها: الاعتبار بالأغلب، وأن الكُلَّ قد يطلق على الأغلب، لأن قومَ نوحٍ لم يكذبوا كلُّهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] وكذلك عادٌ، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود:٥٨] وكذلك لوط آمن معه مَن آمن مِنْ أهله، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الذاريات:٣٥] كذلك فرعون لم يُؤمن إلا حينما أدركه الغرقُ إيمانًا لا ينفعه، وكذلك صالح آمن معه مَن آمن، وعلى هذا فالله عزَّ وجلَّ قال: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ إن كل، أي: من هؤلاء إلا كذب الرسل.

١١ – **ومن فوائد الآية:** أنه من كذَّب رسولًا من الرسل فهو مُكَذِّب باعتبار الأغلب لجميع الرسل لقوله تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ وقد ذكرْنا في تفسيرها أنها محتملة أن تكون عائدةً لكل فرد باعتبار الجمع أو باعتبار الأفراد، أي: هل هو من توزيع الجمل أو من توزيع الأفراد، وذكْرنا أنه من الراجح أنها من توزيع الجمل على الأفراد، وذكرنا الدليل على ذلك.

١٢ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن تكذيبَ الرسل سببٌ للعقوبة لقوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ والفاء هنا سببية وهي عاطفة تدل على الترتيب والتعقيب، ففيها سببية وتعقيب، وأن العقاب حَلَّ بهم، وهم ما زالوا على تكذيبهم.

- **وقوله:** ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ يُؤخذ منه فائدة وهي شدة هذه العقوبة لأنَّ الله أضافها إلى نفسه، وقد قال سبحانه وتعالى عن نفسه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[المائدة:٩٨] و﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة:٩٨].



قال الله تعالى:

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥]

التفسير

ينظر إذا تعدَّت بـ «إلى» فهي نظر العين، وإن جاءت متعدية بنفسها صارت بمعنى الانتظار، وإن جاءت مُطلقة فهي على حسب السياق، يعني إذا جاءت غير مُقيدة بحرف جر ولا مُقيدة بمفعول، فهي على حسب السياق، مثال التي قيدت بـ «إلى» قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣] فإن ناظرة هنا بمعنى باصرة بالعين؛ لأنها تعدت بـ «إلى» وأُضيفت إلى الوجوه أيضًا التي هي مكان العيون، وإذا جاءت مُتعدِّية بنفسها فإنها تكون بمعنى الانتظار، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾[محمد:١٨] وقد تأتي مُتعدية ويكون المُراد بها نظر العبرة والتفكر كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس:١٠١] وإن جاءت مُطلقة غير مُتعدية بنفسها ولا بـ «إلى» فهي بحسب السياق، مثل قوله تعالى: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾[المطففين:٢٣] منهم من قال: ينظرون بمعنى ينتظرون النعيم الذي يُؤتى به إليهم، ومنهم من قال: ينظرون، أي: ينظرون إلى ما أنعم الله به عليهم، ومنه النظر إلى وجه الله.

قوله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ مُتعدِّية بنفسها، فهي بمعنى ينتظر، أي: ما ينتظر هؤلاء، أي كُفَّار أهلِ مكة، كما قال المؤلف: [أي: كفار مكة] ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يُصاح بهم، واحدة لا تُعاد مرةً أخرى، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[القمر:٤٦]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾[القمر:٤٩ - ٥٠]، وقال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[يس:٥٣] فالصيحةُ هي التي تكون يوم القيامة، كما قال المؤلف: [هي نفخة القيامة تحل بهم العذاب] وهي الساعة، هذه الصيحة الواحدة ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [بفتح الفاء وضمها، أي: رجوع].

﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ ما: نافية، وليست هنا حجازية لاتفاق التميميين والحجازيين على عدم عملها، لأن الحجازيين يعملونها بشرط الترتيب، أي: تقدم الاسم على الخبر، وهنا لم يتقدم الاسم على الخبر، بل تأخر، فهي إذًا نافية، ولها: جار ومجرور خبر مُقدم. و ﴿مِن فَوَاقٍ﴾ من: حرف جر زائد للتأكيد، و ﴿فَوَاقٍ﴾ مبتدأ مرفوع بضمة مُقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. أمَّا من حيث التصريف قال المؤلف: [إنها بفتح الفاء وضمها] فواق وفُواق، ومعناه الرجوع وقيل: معناه الإمهال، يعني إنها لا تُمهلهم، بل تأخذُهم بسرعة، وقيل:

إنها إن كانت فَواق فهي بمعنى الرجوع لأنها من أفاق يفيق إذا رجع إلى عقله، وإذا كانت فُواق فهي بمعنى الإمهال مأخوذ من قولهم: فُواق الناقة، وفُواق الناقة: هو ما بين الحَلْبَتيْنِ أو ما بين الرَّضْعَتينِ. ما بين الحلبتين إذا كانت تُحلب، وهي مدة وجيزة، مثاله: يعصر الإنسان الثدي ثم يتوقف ثم يعود ويعصره، فالمدة بين الحلبتين قليلة، وكذلك بين الرضعتين. الطفل الرضيع إذا كان يرضع ثدي الأم، يمص ثم يمص. وهم يُطلقون هذا على سرعة الشيء وعدم إمهاله، ويمكن أن نقول: إن القراءتين تجمعان المعنيين، فيكون معنى أي: ﴿مَا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾ ما لها من رجوع ولا إمهال.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة** في هذا أشد التهديد للمُكذبين لرسول الله ﷺ، ولازم ذلك إثبات رسالته ﷺ، ووجه أن الله توعدَّ المكذبين له، ولولا أن رسالته حق لكان الوعيد عليه هو كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[الحاقة:٤٧] الله أكبر، انظر إلى هذا الأسلوب الشديد للآيات المُوجَّهة للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ بالقوة، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ حتى لا يبقى به حياة. والوتين هو عرق يتصل بالقلب إذا قُطِع مات الإنسان فورًا ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ هذا وهو الرسول ﷺ، لو تقوَّل على الله كلمةً واحدة لأخذَه الله باليمين، فكيف بالذين يتقولون على الله كلماتٍ، ولا يُبالون أن يقولوا: قال الله، وهو لم يقل.

ولهذا كان الإمام أحمد - رحمه الله - مِنْ ورعه لا يمكن أن يقول: هذا حرام إلا إن كان قد نُصَّ على تحريمه، وإلا تجده يقول: أكره هذا، أو لا يعجبني، أو لا يُفْعَل، أو تركه أحبُ إليَّ أو ما أشبه ذلك، ولكن كان إمامًا، وصار الناس يتداولون هذه الكلمات ويحللونها، هل إذا قال: لا تعجبني، يعني التحريم أو الكراهة، ثم بدأ الناس يتلقون كلامه ويُحللونه، لأنه - رحمه الله - خاف الله واتقاه فجعل الله لكلماته نورًا، بخلاف الذين يقولون الآن: الإسلام يُحرم كذا وكذا، وإذا رأيت الإسلام يُحلله، ويمكن أن يوجبه في بعض الأحيان، وهذا يقول: يُحرمه الإسلام، يتكلم واحد مُعرَّض للخطأ باسم الإسلام. وأنت لو قلت: أرى أن هذا حرام، قلنا: هذا رأيك، ويمكن أن تُخطيء وتُصيب. أما أن تقول: حرَّم الإسلام، وقال الإسلام، وفعل الإسلام، فهذه الأقوال خطيرة، لأن أعداء المسلمين إذا أخذوا مثل هذه الأقوال، وقالوا: هذا الإسلام وكانت تُخالف الإسلام، أخذوا من هذا سببًا للقدح في الإسلام. والإسلام بريء منه، لكن بعض الناس يجعل لنفسه منصبًا عاليًا فوق مستواه.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، لأنه إذا قيل له: سنهلك أعداءك، سوف يتسلى.

٣ – **ومن فوائد هذه الآية:** أن العذاب إذا أخذهم فإنه لن يرجع ولن يتأخر، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤ – ٨٥].



قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]

التفسير

لما توعَّدهم الرسولُ عليه الصلاة والسلام بيوم القيامة، وأنَّ لهم العذاب فيه، تحدوا الرسول عليه الصلاة والسلام، بل تحدوا الله ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ بمعنى نصيبنا، يقولون ذلك تحديًا واستكبارًا وعنادًا – والعياذ بالله – وهذا كقولهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢] هذا قول مُعاند مُستكبر، وكان الواجب عليهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ووفقنا له. هذا الواجب، أما أن يقولوا: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فهذا لا شك أنه في غاية الاستكبار – والعياذ بالله –.

قال المؤلف: [وقالوا لَمَّا نزلت ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة:١٩] ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: كتاب أعمالنا ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ قالوا ذلك استهزاءً] ما ذهب إليه المؤلف يحتمله اللفظ، لكن لا دليل عليه فيه، والصحيح أن المراد بقطِّنا، أي: نصيبنا من العذاب الذي توعدتْنا به، وقلت إنه سيأتيكم عذاب كما أتى الأحزاب من قبلكم، فكأنهم يقولون: إذا كان الأحزاب قد أُوتوا العذاب من قبلنا فليأتنا نصيبُنا. وهذا لا شك أنه في غاية ما يكون من التحدي والسخرية والاستكبار – والعياذ بالله – وأنت تعجب أن تصل الحالُ بالبشر، إلى هذا التحدي – والعياذ بالله – ولكن الشيطان عدو للإنسان، فإذا أطاعه حمله على شيء، يكاد الإنسان أن يقول: إن هذا الشيء لا يمكن أن يقع.

الفوائد:

١ – **في هذه الآية من الفوائد:** اعتراف المشركين بالربوبية لقولهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ وهم مُقرُّون بالربوبية، ومُقرُّون بانفراد الله تعالى بها، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزُّخرُف:٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥].

٢ - **ومن فوائدها**: أن الإقرار بالربوبية لا يُخرج الإنسانَ من الكفر إذا كان لم يُقر بتوحيد الألوهية؛ لأن هؤلاء مُقروُّن بالربوبية، وأن الله هو الخالق الرازق والمنفرد بالخلق والرزق، لكنَّهم يُشركون به في العبادة، أي يعبدون معه غيره، فلم يدخلهم ذلك في الإسلام.

٣ - **ومن فوائدها**: بطلان ما ذهب إليه كثير من المتكلمين في تفسير التوحيد، حيث قالوا في تفسير التوحيد: [(أن تؤمنَ بأنَّ الله واحد في ذاته لا قسيم له، واحد في أفعاله لا شريك له، واحد في صفاته لا شبيه له)]، فإنَّ هذا لم يتعرضوا فيه لذكر الألوهية إطلاقًا، قالوا: إن الله واحد في ذاته لا قسيم له ... إلخ هذا هو التوحيد عند عامة المتكلمين، ولا شك أن هذا التوحيد لم يَدْخُل فيه توحيد الألوهية الذي جاءت الرسل بتحقيقه وإثباته والقتال عليه، لم يقولوا واحد في ألوهيته لا يُعبد غيره، أسقطوا هذا نهائيًّا، ولا شك أن هذا قولٌ باطل في أن هذا هو التوحيد الذي دعت إليه الرُسل، بل هذا من التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وليس هو التوحيد كله، بل فيه أيضًا إجمال في قولهم: واحد في صفاته لا شبيه له، ولكن هذا ليس موضوعنا، لأننا نتكلم عن التفسير.

فالمشركون الذين قاتلهم الرسول ﷺ، واستباح دماءهم وأموالهم ونساءهم وذريتهم، كانوا يُقرون بما يدعي المتكلمون أنه هو التوحيد.

٤ - **ومن فوائدها**: استكبار هؤلاء المُكذبين للرسول عليه الصلاة والسلام حيث تحدوه هذا التحدي وقالوا: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: نصيبنا من العذاب، وهذا غاية ما يكون من الاستكبار والعناد.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إيمانهم بيوم الحساب. يُؤخذُ من قوله: ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ ممكن أن نقول هكذا ويمكن أن نقول: إنهم قالوا ذلك على سبيل التهكم، فيكون هذا أشد في العناد والاستكبار، أي: قبل يوم الحساب الذي يزعمه محمد، فيكون المُراد بهذا: التهكم برسول الله ﷺ، وبما أخبر به من يوم الحساب، وهذا هو الظاهر، أي: كأنهم يقولون: عجل لنا نصيبنا من العذاب قبل هذا اليوم الذي يقوله هذا الرجل.



قال الله تعالى:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ هم بقولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ يريدون بذلك مضايقةَ الرسول - عليه الصلاة والسلام - حتى يضجر ويتعب نفسيًا وفكريًّا وربما جسميًّا، ولا شك أن

هذا يؤذي الداعية.

وأنت لو دعوت إلى الله وقام واحد وقال: أهذا ما تتوعدنا به! ائتنا به، عجل لنا به، لا شك أنك تضيق، فالرسول ﷺ بشر، لكن الرب عزَّ وجلَّ يُصبره شرعًا، ويعينه على ذلك قدرًا، يصبره شرعًا بالأمر اصبر اصبر ويُعينه على ذلك قدرًا، فقد صبر النبي صبرًا لا يصبره أحد، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[الأحقاف:٣٥].

والعجيب أن مِنْ صبره أنه صبر حين المقدرة عليهم، صبر على العذاب الذي يكون بيده، وعلى العذاب الذي يكون من عند الله، صبر على العذاب الذي يكون بيده حين فتح مكة، ووقف على باب الكعبة وقريش تحته وقال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟» قالوا: خيرًا، أخٌ كريمٌ، وابنُ أخٍ كريم، قال: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءِ»(١) في هذا الحال يستطيع أن يبطش بهم فكلهم أذِلَّة بين يديه، لكنْ قال: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءِ» بل قال قبل ذلك: «مَنْ دَخَلَ دَارَهَ فَهُو آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُو آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ» كل هذا من باب التسامح والعفو مع المقدرة.

أما عفوه وتسامحه مع المقدرة بأمر يوقعه الله سبحانه وتعالى فيهم، فإنه لما رجع من الطائف بعد أن فعل به أهل الطائف ما فعلوا أرسل الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، وقال: إن الله يُقرئك السلامَ وهذا مَلَك الجبال يفعل ما تأمر به، فقال له ملك الجبال: إن شِئْت أن أُطبق عليهم الأخشبين لفعلت، ولكن الرسول ﷺ قال: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِم مَنْ يَعْبُدَ اللهَ وَحْدَه، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»(٢) اللهم صلِّ وسلم عليه.

انظر إلى العفو وإلى النظر البعيد، فأخرج الله - ولله الحمد - مِنْ أصلاب هؤلاء مَنْ عَبَدَ الله ولم يُشرك به، وكانوا أئمة يهدون بأمر الله، فالنبي - عليه الصلاة والسلام - يجد المضايقات العظيمة من قريش لكنه يصبر على كل أذى، ولهذا قال الله له: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[ص:١٧].

اصبر على ما يقولون من أقوال الاستهزاء والسخرية والكذب، قالوا: إنه ساحرٌ مجنون كذاب كاهن، ولكنه يصبر، صبر على ما يقولون، وصبر على ما يفعلون أيضًا، أعظم شيء علمْتُ به أنه كان ذات يوم ساجدًا عند الكعبة في آمِن مكان، وأعظمه حُرمةً، وأقرب ما يكون من ربه ساجدًا لله، وكان حوله ملأ من قريش، فقالوا: من ينتدب لنا يأتي بسلا جزور بني فلان يضعه على محمد وهو ساجد، فانتدب أشقاهم، وذهب وأتى بسلا الجزور ووضعه على ظهره، دم وروث وقذر ونجاسة على ظهره وهو ساجد، ولكن لم يقم من السجود حتى جاءت ابنته فاطمة وهي صغيرة

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (٤/ ٣١-٣٢)، وعنه الطبري في «التاريخ» (٣/ ١٢٠)، كذا قال الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١١٦٣).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

فأزاحته عنه، فقام ﷺ، ثم لما فرغ من الصلاة دعا الله عليهم، فأجاب الله دعوته، فعذبهم بيده، وسُحبوا في قُليب بدر في غزوة بدر جُثثًا مُنتنة خبيثة، وطُرحوا في أحد الآبار هنالك[1]. اللهم انصر الحق أينما كان يا رب العالمين.

قال تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ الخطاب في قوله تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ لرسول الله ﷺ، أمره الله أن يصبر على ما يقوله له أعداؤه مما يتعلق بجانب الرب عزَّ وجلَّ من إنكار توحيده، ومما يتعلق بالرسول ﷺ مِن وصفه بأنه كذَّاب وساحر ومجنون، ومما يتعلق بأصحابه، وكل ما يقولون مما يسوءُ الرسول عليه الصلاة والسلام. أمره الله تعالى أن يصبر عليه، وكذلك أيضًا أن يصبر على ما يفعلون؛ لأن أذية المُشركين له كانت بالقول وبالفعل جمعًا وإفرادًا.

والصبر هو حبس النفس عما لا يجوز في مقابلة البلية والمصيبة. وقد قَسَّم العلماء رحمهم الله الصبر إلى ثلاثة أقسام فقالوا: صبر على أقدار الله المؤلمة، وصبر عن محارم الله، وصبر على طاعة الله، وهذا الأخير هو أعلى أنواع الصبر؛ لأن الصبر الأول هو صبر قهري. فالصبر على المصائب صبر قهري؛ لأن المصائب لم تقع باختيارك، وإنما هي بغير إرادتك فأنت أمامها إما أن تصبر صَبْر الكرام، وإما أن تسلوا سلوَّ البهائم، ثم الصبر عن محارم الله دون الصبر على أوامره، وذلك أنَّ الصبر على محارم الله ليس فيه إلا كفُّ النفس فقط، والكفُّ أسهل من الفعل، وأما الصبر على الطاعة فهو أعلاها؛ لأن فيه صبرًا على كفِّ النفس وعلى فعلها، على كفِّ النفس عن ترك هذا المأمور به، وعلى الفعل يرغمها على أن تفعل؛ ولهذا قال أهل العلم: إنَّ الصبر على أوامر الله أفضل من الصبر عن نواهيه، والصبر عن نواهي الله أفضل من الصبر على أقدار الله المؤلمة.

ومن ثم لو سألنا سائلٌ: أيُّها أعلى مقامًا وأفضل، صبر يوسف عليه الصلاة السلام على الحبس، أو صبره عن فعل الفاحشة بامرأة العزيز؟ قلنا: صبره عن الفاحشة أعظم وأعلى مرتبة.

قال تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: في الله أولًا، لأن السورة من أولها في إنكار توحيد ألوهية الله، وفي الرسول، وفيما جاء به، وفي أصحابه. ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ اذكر يُحتمل أن يكون من الذكر، أي: الإخبار عن حاله، أي: اذكر للناس قصةَ داود، ويُحتمل أن ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ بمعنى تذكر داود، وإذا كان اللفظ يحمل معنيين لا يتنافيان، فالقاعدة التفسيرية أن يُحمل عليهما جميعًا؛ لأنه كلما كانت دلالة الآية أشمل وأعمَّ كان أولى. ﴿عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ وصف الله داود عليه الصلاة والسلام بالعبودية، وهذه أخص أنواع العبودية؛ لأن العبودية إما عامة، وإما خاصة، وإما خاصة الخاصة، فوصف الرسل بالعبودية تكون خاصة الخاصة، ووصف المؤمنين بالعبودية تكون خاصة، ووصف عموم الناس بالعبودية تكون عامة، وعليه فالعبودية في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم:٩٣] هذه عامة، وفي قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤).

﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] هذه خاصة، وفي قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ هذه خاصة الخاصة، وداود من أنبياء بني إسرائيل وهو بعد موسى، والدليل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾[البقرة:٢٤٦] وفي أثناء القصة قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ إذًا فهو من بني إسرائيل من بعد موسى عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ قال المؤلف رحمه الله: [﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي: القوة في العبادة] إذًا فالأيد ليست جمع يد، بل هي مُفرد مصدر آد يئيد أيدًا، ونظيره في التصريف باع يبيع بيعًا، وكال يكيل كيلًا، إذًا الأيد: القوة، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾[الذاريات:٤٧] أي: بقوة، وقول المؤلف رحمه الله: [القوة في العبادة]، ينبغي أن يُقال: القوة مُطلقًا في العبادة وغير العبادة حتى في الملك؛ لأن الله قال في هذه الآيات: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾[ص:٢٠] فهو ذو أيد في كل ما تكون القوة فيه صفة مدح، إذًا الأيد الأَوْلى أن نجعلها عامة في كل ما تكون القوة فيه، وهذه صفة مدح؛ لأن المقام مقام مدح لداود عليه الصلاة والسلام، ولهذا أمر الله نبيه ﷺ أن يذكره.

قال المؤلف: [﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي: القوة في العبادة، كان يصوم يومًا ويُفطر يومًا، ويقوم نصف الليل، وينام ثُلثه، ويقوم سُدسه] هذا عكس ما جاء في الحديث: «كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ»(١) فالعبارة فيها انقلاب على المؤلف؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان ينام نصف الليل؛ ليعطي نفسه حظَّها من الراحة، وليُجدِّد نشاطه؛ لأن في النوم فائدتين للجسم: الأولى: قطع التعب السابق والاستراحة منه، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾[النبأ:٩] أي: قطعًا لما حصل من المشقة والتعب، واستعداد الجسم للقوة في المستقبل، ولهذا إذا نام الإنسان وهو مُشتهٍ للنوم، ثم قام وجد نفسه نشيطًا، فكان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سُدسه؛ لِأَجْل أن يُعطي نفسه راحتها من تعب قيام الليل، وهكذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يفعل، فكان لا تُلفِيه السحرَ إلا نائمًا، أي غالب أحيانه ينام عليه الصلاة والسلام في آخر الليل.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ الجملة استئنافية لبيان حال داود: أنه قوي، وأنه رجَّاع إلى الله سبحانه وتعالى، كلما حدَّثته نفسُه بالكسل عاد فنشط، وكلما حصل منه زلةٌ عاد فتاب إلى الله. والأواب صيغة مبالغة من آب يؤوب، واسم الفاعل «آئِب»، وصيغة المبالغة أَوَّاب. قال المؤلف: [رجاع إلى مرضاة الله].

الفوائد:

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

١ - أنَّ الرسول ﷺ يتأثر بتكذيبهم، ولهذا أمره الله بالصبر؛ لأجل أن يُعينه على صبره عليهم،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).

وهذا أمرٌ لا شك فيه، أي: أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - يتأثر من تكذيبهم ويتألم؛ لأنه عليه الصلاة السلام جاء رسولًا من عند الله، فإذا كذَّبه هؤلاء، فإنهم يكونون قد كذَّبوا الله عزَّ وجلَّ، فيتألم النبي ﷺ لذلك، كما أنه بشر يتألم بمقتضى الطبيعة البشرية أيضًا، فإن البشر لا بد أن يتألم إذا رُد قولُه وكُذب وعُورض وقُدح فيه من أجله، لا بد أن يتأثر مهما كانت حاله.

٢ - **ومن الفوائد:** وجوب الصبر على أذى الكفار، لقوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

٣ - **ومن الفوائد:** أن النبي ﷺ عبدٌ مأمور، يُؤمر ويُنهى، وليس ربًّا آمرًا ناهيًا، ولولا أن الله أمرنا بطاعته لكان كغيره من البشر، لا تجب طاعته، لكنَّه رسولُ الله، أمَرنا الله بطاعته ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[النساء:٥٩].

٤ - **ومن الفوائد:** أن هذا الأمر الصادر صادر منهم جميعًا، أو من أكثرهم، أو من أشرافهم ووجهائهم، لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فأضاف القول إلى الجميع، فإما أن يكون الجميع كلُّهم يقولون هذا، وإما أن يكون الأكثر يقول بذلك، فنُسب إلى الجميع اعتبارًا بالأكثر، وإما أن يكون القائل هم الأشراف والوجهاء، فيكون قول هؤلاء قولًا للجميع؛ لأن الأتباع سوف يُقلدونهم.

٥ - **ومن الفوائد:** ذكر ما يتسلَّى به العبد، وتذكيره بذلك لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾.

٦ - **ومن فوائدها:** فضيلة داود عليه الصلاة والسلام، وأنه عبد.

٧ - **ومن فوائدها:** أن داود قويٌّ في عبادته لقوله تعالى: ﴿عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ ذا الأيد أي: القوة في الوصف الذي وصفْناه به وهو العبودية.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الثناء على القوي في العبادة لقوله تعالى: ﴿عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي: ذا القوة في العبادة، وعليه يتنزلُ قولُ الرسول ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»(١) فإن المراد بالقوة هنا القوة في الإيمان، يعني القوي في إيمانه، لأن القويَ وصف يعود على المؤمن، فيكون المراد القوي في هذا الوصف، وليس قويَّ البدن؛ لأن قوة البدن قد تنفع وقد تضر، بخلاف قوة الإيمان فإنها نافعةٌ لا مضرة فيها.

٩ - **ومن الفوائد:** فضيلة داود أيضًا من جهةٍ أخرى وهو أنه مع قوته في العبادة رجَّاع إلى الله من ذنبه في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: رجَّاع إلى ربه لو أذنَب فإنه يرجع إليه كما تدل عليه القصة التي ستأتي.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** إثبات العلل والأسباب، لأن الجملة في قوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ تعليلية لكون داود عليه الصلاة والسلام موصوفًا بالقوَّة والعبودية؛ لأنه رجَّاع إلى الله عزَّ وجلَّ، وكل من كان رجاعًا إلى الله فسوف يكون قويًا في عبوديته.



(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٦٦)، وابن ماجه (٧٩).

قال الله تعالى:

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٨، ١٩]

التفسير

ثم ذكر الله تعالى ما مَنَّ به عليه فقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ﴾ أي: ذللناها له، والله سبحانه وتعالى يَذُلُّ له كل شيء، فسخر الله الجبال، أي: ذللها حتى تُسبِّح بتسبيح داود، وهي، أي: الجبال تسبح تسبيحًا مُطلقًا، وهذا هو التسبيح العام، وتسبح تسبيحًا خاصًا، كما أُمِرت أن تُسبح مع داود عليه الصلاة والسلام، وإلا فهي تُسبِّح تسبيحًا عامًّا مُطلقًا، كما قال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[الإسراء:٤٤] أي: ما من شيء إلا يُسبِّحُ بحمده ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[الإسراء:٤٤].

أما التسبيح الذي سخر الله الجبال عليه مع داود فهو تسبيح خاص ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ والجبال جمع جبل وهو معروف، ﴿مَعَهُ﴾، أي: مع داود قال المؤلف رحمه الله: [يُسبحن بتسبيحه ﴿بِالْعَشِيِّ﴾: وقت صلاة العشاء ﴿وَالْإِشْرَاقِ﴾: وقت الضُحى]. قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ﴾ الباء هنا ظرفية بمعنى «في» لكن يظهر – والله أعلم – أنَّه إذا أُريد بالظرفية استيعاب الوقت أُتي بدل «في» بالباء، لأن الباء تدل على الاستيعاب والإحاطة كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ﴾[الحج:٢٩] وكما قال: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة:١٥٨] ولهذا لا بُدَّ من استيعاب البيت بالطواف، واستيعاب ما بين الصفا والمروة في السعي. إذًا الباء هنا للظرفية لكنها جاءت مكان «في» للدلالة على الاستيعاب، يعني كل العشي.

وقول المؤلف: [﴿بِالْعَشِيِّ﴾: وقت صلاة العشاء] هذا فيه نظر، والصحيح أن المُراد بالعشي آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[الأحزاب:٤٢]. فالمراد بالعشي آخر النهار، وفي حديث أبي هريرة المشهور بحديث ذي اليدين، قال: صلَّى بنا الرسول ﷺ إحدى صلاتي العشي[1]. يعني الظهر أو العصر.

قال المؤلف: [﴿وَالْإِشْرَاقِ﴾: وقت صلاة الضحى، وهو أن تُشرق الشمس ويتناهى ضوؤها] هناك إشراقٌ، وهناك شروقٌ، وبينهما فرق، فالشروق ظهور الشمس، يُقال: شرقت الشمس،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٢)، ومسلم (٥٧٣).

يعني ظهرت، والإشراق: ارتفاع الشمس حتى يصحو ضوؤها وتكون بيضاء، فالإشراق معناه دخول الشمس في الإضاءة الكاملة البيضاء، والشروق ظهور الشمس، فإذا طلع حاجب الشمس من المشرق، يُقال له: شروق، وإذا ارتفعت حتى زادت حُمرتها أو صُفرتها، يُقال: إشراق. ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أي: بعد أن ترتفعَ الشمس ويحْسُنَ ضوؤها.

﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ قال المؤلف رحمه الله: [وسخَّرْنا الطير] أفادنا المؤلف أن الطير معطوفة على الجبال. أي: سخرنا الجبال وسخرنا الطير، وليست معطوفةً على الضمير المُستتر في قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ على أنها مفعول معه، وقد يقول القائل: يُسبحن والطيرَ، كقوله: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾[سبأ: ١٠] فالمؤلف – رحمه الله – أفادَنا بتقدير: سخرْنا، أن الطير معطوفة على الجبال، وقوله: ﴿مَحْشُورَةً﴾ منصوبة على الحال، يعني والطير حال كونها محشورة.

فإذا قال قائل: لماذا لا تجعلونها صفةً للطير؟ قلنا: الذي يمنع من أن تكون صفةً أنها لم توافق الموصوف في التعريف، والصفة تتبع الموصوف في التنكير والتعريف، و(محشورة) نكرة، بينما (الطير) معرفة.

﴿مَحْشُورَةً﴾ يقول المؤلف: [مجموعة إليه تُسبِّح معه] لو قال قائل: أليست الحال صفةً؟ فلماذا لا نقول: محشورة صفة للطير؟ نقول: هي صفة في المعنى، وخبر مبتدأ صفة في المعنى، وما يعرف بالنعت عند النحويين صفة، لكن لا يلزم من الصفة في المعنى أن تكون صفة له في اللفظ.

قال المؤلف: [﴿كُلٌّ﴾ من الجبال والطير ﴿لَهُ أَوَّابٌ﴾ رجَّاع إلى طاعته بالتسبيح]. ﴿كُلٌّ﴾ منونة تنوينًا يُسمَّى تنوين العوض. وكلّ وبعض تنوينهما تنوين عوض، وذلك لأنه لا بد من إضافة، ولكن قد يُحذف المُضاف إليه ويعوض عنه التنوين. كمثل ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ والتقدير بدون قطع الإضافة: كلهن، أي: الجبال والطير، لأنها لا تَعقِل، كلهن له أواب، فحذف المضاف إليه وعوض عنه التنوين. قال المؤلف:[من الجبال والطير] هذه بيان للمضاف إليه، يعني أنها على تقدير كلهن، أي: الجبال والطير، ﴿لَهُ﴾ أي: لداود ﴿أَوَّابٌ﴾ أي: رجَّاع إلى طاعته بالتسبيح، ويحتمل أن يكون رجَّاع بمعنى أن هذه الطيور تذهب وتتعيش ثم ترجع لأجل أن تُؤَوِّب معه، والسياق والمعنى لا يمنعه، فكلٌّ من الجبال والطير أواب إلى داود بمعنى مُطيع له، وبمعنى آخر بالنسبة للطير أنها ترجع إليه بعد أن تذهب لتقوم بقوتها ثم تعود إليه.

الفوائد:

١ – **من فوائد هذه الآية الكريمة** بيان أن الأمور كلها بيد الله لقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ﴾ أي: ذلَّلناها، والجبال خَلْقٌ عظيم لا يستطيع أحد أن يؤثر فيه، ولكن الله تعالى بقدرته يُسخرُها ويُذللها.

٢ – **ومن الفوائد أيضًا:** أن للجماد إرادةً، يدل عليه قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ لأن التسبيح لا بد أن

يكون بإرادة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ويترتب على هذه الفائدة ردُّ قول من يقول: إن قوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾[الكهف:٧٧] فيه مجاز حيث قالوا: إنه لا إرادة للجدار، ونحن نقول: بل له إرادةٌ، لأن الله تعالى أثبت له الإرادة.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل شيء خاضع لأمر الله، الطير التي تسبح في الهواء خاضعة لأمر الله، وهذا هو ما أكده الله في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[المُلك:١٩].

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الجبال والطير تُسبِّح مع داود عليه السلام وترجّع معه؛ لقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: كل لداود رجّاع، أي: مُرجِّع معه، إذا سبَّح سبَّحت الجبال، إذا سبَّح سبَّحت الطيور المجموعة إليه، وقيل: إن الأوَّاب: الرجّاع وليس المرجِّع الذي يرجع إلى داود، والمعنيان مُتلازمان؛ لأنه إذا كان رجّاع يرجع إلى داود ليسبح معه فهو مرجِّع معه، على أن في الآية قولًا آخر في مَرجِع والضمير في قوله تعالى: ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ فإن من أهل العلم من قال: إن الضمير في قوله: «له» يعود إلى الله، وأنه من باب الالتفات بدلًا من أن يقول: كل لنا أواب، قال: كل له أواب، ولكن هذا المعنى لا يتعين، بل المعنى الأول أظهر كما مشى عليه المؤلف رحمه الله.



قال الله تعالى:

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ (٢٠)﴾ [ص:٢٠]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي: قوَّينا مُلكَه؛ لأن الشدَّ يأتي بمعنى التقوية، قال الله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾[النبأ:١٢] أي: قوية بدليل قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ﴾[الذاريات:٤٧] أي: بقوة، فالشدُّ هنا بمعنى القوة، أي: قوَّينا مُلكَه، وتقوية المُلك فسَّرها المؤلف بقوله: [قوّيناه بالحرس والجنود] وهذا لا شكَّ نوع من التقوية أن يكون لدى الملك حُرَّاس وجنود، الحراس هم الموالون له، والجنود هم التابعون له وإن لم يوالوه، لكنهم جنود له، متى أمرهم ائتمروا، وأما الحراس فهم المباشرون للملك، فالله شدَّ مُلكه بالحراس والجنود، هذا وجه من شدِّ المُلك، وشد ملكه بقوة السلطان؛ لأن السلطان إذا كان ضعيفًا مهما كان عنده من الحرس والجنود فإنه ضعيف، لكن إذا أعطاه الله القوة والعزيمة وعدم المبالاة بأعدائه فهذا شُدُّ ملك. وإن كان الملك عنده آلاف الجنود والحراس ولكنه ضعيف، يخاف من ظله، ولا يحمي

حدوده، هذا لا شك أنه وإن كان عنده حراس كثيرون وجنود، فإن مُلكَه ضعيف؛ لأن غاية ما ينفعه الجنود به أن يكونوا مُدافعين فقط، لكن إذا قَوَّى الله مُلكه بما عنده من قوة العزيمة والجلد والصبر والتحمل وعدم المبالاة بالأعداء، صار حينئذٍ عنده قوة مُهاجمة ومُدافعة، الأمرين جميعًا. أما من عنده جنود فالغالب أنه يُحرَس لضعفه، ولا أحد يشك بأن عمر بن الخطاب ﷺ من أقوى الناس مُلكًا لكن خلافة، ومع ذلك ليس عنده جنود يحرسونه، بل هو بنفسه كان يجمع الحصباء في المسجد، ويضع رداءه عليها وينام عليه، ليس عنده أحد ومع ذلك فقد حماه الله عز وجل.

إذنْ شدُّ المُلكِ ليس مُقتصرًا على كثرة الحرس والجنود، بل قد يكون في الحرس والجنود ما يؤدي إلى الضعف، إذا كان الإنسان لا يقوى ولا يتحرك إلا بالحرس والجنود، فهذا قد يكون دليلًا على ضعفه وخوفه وعدم أمنه، لذلك فإن اقتصار المؤلف - رحمه الله - على كثرة الحرس والجنود في شَدِّ المُلك، لا شك أنه ضعيف جدًّا، وأهم شيء أن يُقوِّى مُلكه بما لديه من الشخصية وقوة العزيمة وعدم المبالاة بأعدائه.

قال رحمه الله: [﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ قوَّيناه بالحرس والجنود، وكان يحرس محرابه في كل ليلة ثلاثون ألف رجل] هذه إسرائيلية بلا شك، لم ترد عن معصوم، وبناءً على ذلك، فإن كانت قريبةً من التصور فإننا لا نصدقها ولا نُكذِّبها، وإن كانت بعيدةً من التصور فإننا نُكذِّبها. والبعيد من الواقع الذي لم يرد عن معصوم يُكذَّب؛ لأنه ليس فيه خبر ثابت، فإذا لم يكن هناك خبر ثابت رجعْنا إلى تحكيم العقل. فهل يُعقل مثلًا أن يكون عند داود كل ليلة ثلاثون ألفًا يحرسون محرابه! على كل حال هذا خبر إسرائيلي، وأقرب ما يكون عندي أنه كذب، وأنه إن صحَّ أن عنده حرسًا فليكونوا خمسة أو عشرة وما أشبه ذلك، ثم إنه سيأتينا في قصة الخصوم أنهم تسوروا المحراب، فهل يتسورون المحراب وحوله ثلاثون ألفًا؟

فالحاصل أن مثل هذه القصص الإسرائيلية تكون عندنا على ثلاثة أوجه:

الأول: ما شهد شرعُنا ببطلانه فهو باطل.

الثاني: ما شهد شرعُنا بصدقه فهو حق بشهادة شرعنا.

الثالث: ما لم يشهد شرعنا بخلافه فإننا نرجع إلى العقل إن كان قريبًا فإننا لا نصدق ولا نكذب، وإن كان بعيدًا فإننا نكذب؛ لأن هذا لمَّا انتفى فيه الدليل الشرعي، نرجع فيه إلى الدليل العقلي، فإذا كان العقل يستبعده أبعدْناه.

يقول تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ آتيناه: أعطيناه، وهناك فرق بين آتيناه وأتيناه، آتيناه بمعنى أعطيناه، وتنصب مفعولين، من باب كسى، وأتيناه بمعنى جئناه، وتنصب مفعولًا واحدًا ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلَت:١١] أي: جئنا طائعين، ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الحِجر:٦٤] أي: جئناك بالحق، أما آتى بالمد بمعنى أعطى، فتنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ

والخبر، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ هنا نصبت مفعولين: الأول: الهاء، والثاني: الحكمة. وما هي الحكمة؟ قال المؤلف: [النبوة والإصابة في الأمور]؛ لأن النبوة حكمة بلا شك. كل نبي فإنه مؤتىً للحكمة، قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾[البقرة:٢٦٩] والإصابة في الأمور أيضًا حكمة، كون الإنسان يُوفَّق للإصابة في الأمور مثل أن يكون ذا رأي سديد، فإن هذا لا شك أنه حكمة، ولهذا يُقال: فلان حكيم زمانه، أي: لإصابته في الأمور.

وقوله: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ قال المؤلف: [البيان الشافي في كل قصد] فصل الخطاب، هل المعنى أنه يفصِل الخطاب الصادر من غيره بمعنى أنه يفصِل بين الخصوم، ما تخاطبوا فيه، كما يدل عليه قوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ لأن المتخاصمين كل منهما يأتي بحجة، يتكلم ويقول، ولهذا قال ﷺ: «إِنَّكُم تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُم أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِن بَعْضٍ، وإِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ»(١).

إذًا فصل الخطاب يعني فصل الخطاب الحاصل من غيره، أي: يفصل في خطاب الناس، أو فصل الخطاب يعني خطابه هو، يعني أن خطابه كان فصلًا، أي: ذا بيان وفصاحة، نقول: المعنيان مُحتملان، فالآية تحتمل هذا وهذا، وهما لا يتنافيان، فيجب أن تكون الآية محمولةً عليهما، حتى إن بعضهم قال: إن فصل الخطاب هو قوله: أما بعد؛ لأن «أما بعد» تفصل ما قبلها عمّا بعدها، ولكن هذا ليس بصحيح، أما بعد لا شك أنها تُعطي الكلام رونقًا وجمالًا وتفصيلًا، لكن كوننا نجلعها هي فصل الخطاب فيه نظر، والله أعلم.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** أن الله سبحانه وتعالى قَوَّى ملك داود بما ذكرْنا من التقوية المعنوية والحسية.

٢ - **ومن فوائدها:** أن تقوية المُلك من أكبر أوصاف المَلِك التي يتمتع بها؛ لأن الله تعالى مَنَّ بها على داود عليه السلام في قوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** الثناء على داود عليه السلام بأن الله تعالى مع تقوية مُلكِهِ آتاه الحكمة في تصرفه، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** أن الله تعالى مَنَّ على داود عليه السلام بفصل الخطاب، أي: الخطاب الفصل البين الذي يفصل به بين الناس، ويفصِل به بين الحق والباطل، وبين الضار والنافع.



(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

قال الله تعالى:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص:٢١-٢٥]

التفسير

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ الواو عاطفة والجملة معطوفة على ما سبق لأن الكلام كلُّه في شأن داود، والاستفهام هنا يقول المؤلف: [للتعجب والتشويق إلى استماع ما بعده] يعني أن هذه القصة عجيبة، وأنها لكونها عجيبة مما يشوق إليه، والاستفهام كما نعلم جميعًا تختلف معانيه بحسب السياق، وإلا فإن الأصل فيه أنه الاستخبار عن الشيء، أي: طلب الإفهام عنه، يُقال: استفهم عن كذا، أي: طلب الإفهام عنه. هذا الأصل، لكن سياق الكلام يُغير المعاني الأصلية إلى ما يقتضيه السياق، فالمُراد به هنا التشويق، وله نظير، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الصف:١٠] المُراد به هنا التشويق، وقد يكون المُراد بالاستفهام التهويل مثل: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾[الغاشية:١] يقول: [﴿هَلْ﴾ استفهام هنا للتعجب والتشويق إلى استماع ما بعده ﴿أَتَاكَ﴾ يا محمد] جعل المؤلف الخطاب هنا للرسول عليه الصلاة والسلام، ولكن يجوز أن يكون الأمر كما ذهب إليه المؤلف، ويجوز أن تكون الكاف لكل مَن يصحّ خطابه، أي: وهل أتاك أيها المُخاطب، وإذا قلنا بهذا القول صارت دلالة الآية أعمَّ.

والقاعدة عندنا في التفسير أنه كلَّما كان أعمّ فإنه أولى، وعليه فيكون المُراد بالكاف هنا المخاطبة لكل من يصحّ خطابه، واعلم أن كل خطاب في القرآن الكريم موجَّه إلى مُخاطب فإنه على ثلاثة أقسام:

الأول: أن يدل الدليلُ على أنه عامٌّ فيؤخذ بعمومه.

الثاني: أن يدل الدليلُ على أنه خاصٌّ فيؤخذ بخصوصه.

الثالث: ألَّا يكون هناك دليل لهذا ولا لهذا فيؤخذ بعمومه.

مثال الأول: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾[الطلاق:١] فـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ خطاب موجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، لكن حكمه عامٌّ؛ لقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ فجعل الحكمَ عامًّا لجميع الأمة.

وما دل الدليلُ على خصوصه فمثل قوله تعالى: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[يس:١ - ٣] هذا خطاب خاصٌّ بالرسول عليه الصلاة والسلام لا يَشْرَكُهُ غيره.

وما كان مُحتملًا لهذا وهذا، فهو كثير ومنه هذه الآية ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ﴾.

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾ مرَّ علينا قريبًا الفرق بين أتاك وآتاك، ﴿نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ﴾ نبأ بمعنى خبر، ولكنه لا يُقال غالبًا إلا في الخبر الهام ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾[النبأ:١ - ٢]. فهنا نبأ بمعنى خبر، لكنه في أمرٍ هام، وقوله: ﴿ٱلْخَصْمِ﴾ أي: المتخاصمين بدليل قوله: ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ فالخصم لفظه مفرد لكن معناه الجمع، وسُمِّي المتخاصمون خصمًا؛ لأن كل واحد منهما يريد أن يَخْصِم صاحبه، أي: أن يغلبه في الحجة، ويقطع حجته ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ قوله: إذ متعلقة ولا يصح أن تتعلق بـ ﴿أَتَىٰكَ﴾؛ لأن تسورهم للمحراب سابق ولا بـ (النبأ)؛ لأن تسورهم للمحراب أيضًا سابق، ولكنها تتعلق بشيء مُقدر يدل عليه السياق، يعني اذكر إذ تسوروا المحراب. قال المؤلف: [محراب داود، أي: مسجده، حيث مُنعوا الدخول عليه من الباب لِشُغْلِهِ بالعبادة] ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ بمعنى دخلوا مع سوره لأن المكان مُسور، لأنه بيت يتعبد فيه، فهو مُسور وله أبواب، فجاءوا ذات يوم – أي الخصم – فوجدوا الباب مُغلقًا، والخصوم كما تعرفون كل ذي حاجة فهو أعمى، قالوا: هذا الذي أغلق باب بيته أو محرابه نتسلق أو نتسور عليه، نأتيه من فوق، فتسوروا المحراب، يقول المؤلف: [حيث مُنعوا الدخول عليه من الباب لِشُغْلِهِ بالعبادة، أي: خبرُهم وقصتُهم] فهو عليه الصلاة والسلام أغلق الباب؛ لأنه أراد أن يتعبد لله، وهذا لا شك أنه يمنع من وصول الخصوم إليه، لكن الله سبحانه وتعالى سلَّط هؤلاء حيث جاءوا فوجدوا الباب مُغلقًا، أو مُنعوا من الدخول، فتسوروا المحراب من السور.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ «إذ» بدل من «إذْ» الأولى، ويحتمل أن تكون متعلقة بتسوروا، وأنا أقول هكذا؛ لأن إذ: ظرف، والظرف والجار والمجرور لا بد لهم من متعلَّق، ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ أي: خاف، وذلك لأنهم جماعة وتسوروا المحراب، ومثل هؤلاء يخيفون. أرأيت لو أن

أحدًا تسوَّر عليك البيت وهم جماعة، لا شك أنك ستخاف، والخوف هنا طبيعي تقضيه الطبيعةُ والجبلةُ، ففزع منهم، فلما رأوه قد فزع ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ يعني أننا ما جئنا لقتل ولا نهب ولا تخريب ﴿خَصۡمَانِ﴾ أي: نحن خصمان، [قيل: فريقان ليطابق ما قبله من ضمير الجمع، وقيل: اثنان، والضمير بمعناهما]، يعني خصمان، أي: طائفتان مُختصمتان، والذين قالوا: إن المُراد هنا بالخصمين الطائفتان استدلوا بدليل الجمع السابق، وهو قوله: ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ و ﴿دَخَلُواْ﴾ وقيل: إنهم خصمان، أي: رجلان اثنان اختصموا، [والضمير بمعناهما]، أي: ضمير الجمع السابق بمعنى هما، أي: بمعنى الاثنين، ولكن الذي يظهر الأول، خصمان، أي: فريقان مختصمان؛ لأن ذلك هو المطابق لضمير الجمع، ولأن ذلك هو الذي يحصل منه الفزع، لأنهم إذا كانوا جماعةً صار الفزع منهم أكثر.

وقول المؤلف: [والخَصم يُطلق على الواحد وأكثر] صحيح فيُقال لِمُدَّعٍ خصم ومدعى عليه خصم، ولو كان واحدًا، ويُقال لجماعة مع جماعة: هم أيضًا خصم.

يقول المؤلف رحمه الله: [وهما مَلَكان جاءا في صورة خصمين، وقع لهما ما ذُكر على سبيل الفرض لتنبيه داود على ما وقع منه، وكان له تسع وتسعون امرأة، وطلب امرأة شخص ليس له غيرها، وتزوجها ودخل بها] يقول المؤلف: إن هذين الخصمين مَلَكان أرسلهما الله سبحانه وتعالى إلى داود من أجل أن يُنبهه على قضية معينة. هذه القضية كما تقول الإسرائيليات: إنه عشق امرأة رجل، فأمر زوجها أن يخرج للجهاد لعله يُقتل، فإذا قُتل تزوجها، فأرسل الله تعالى إليه الملكين من أجل أن يُنبهاه على بشاعة هذه القضية؛ لأنها بشعة من أدنى الناس فكيف تكون من نبي ؟! وكأن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يُنبهه بالوحي فيقول: يا داود لِمَ تفعل كذا؟ كما نبَّه الله آدم حينما أكل من الشجرة بدون ضرب مثل، وكذلك نبَّه الله مُحمدًا عليه الصلاة والسلام حين عفى عن قومٍ من المنافقين بدون أن يتبيَّن أمرهم بدون ضُرب مثل، ونبّهه على تحريمه ما أحل الله له لابتغاء مرضاة أزواجه بدون ضرب مثل، إلى غير ذلك من الشواهد الكثيرة التي تدل على أن الله سبحانه وتعالى يُنبه على ما يحصل من الرُسل بدون أن يضرب لهم أمثالًا، لكن هذه القصة الإسرائيلية أبتْ إلا أن يُضرب مثلًا لفعل داود المُدّعي المزعوم.

والحقيقة أن هذه القصة باطلة، لا يحل لأحد أن يعتقدَها في داود عليه الصلاة والسلام، أنه عشق امرأة رجلٍ وأراد أن يتزوجها، وأنه كان عنده تسعٌ وتسعون امرأة، فأراد أن يكمل بها المئة. هذا غير لائق بأدنى واحد من الناس فضلًا عن نبي من أنبياء الله، لكن اليهود – لعنة الله عليهم – لا يُبالون أن يُلطخوا الأنبياء كما لطخوا مَنْ أرسل الأنبياء فقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾ وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ﴾ وقالوا: إن الله يتعب، فليس غريب أن يُلطخوا الأنبياء بالعشق والحيل والمكر، فلهذا لطخوا داود عليه السلام بهذه الكذبة.

والصحيح الذي لا شك فيه: أنهم خصمان من البشر وليسوا ملائكة، خصمان من البشر تنازعا في قضية بينهما ستأتي في القرآن الكريم، وكل ما سوى ذلك فإنه كذب، لأن القرآن يُكذِّبه فإن القرآن إذا أتى بالقصة فلا بد أن يأتي بها على وجه الكمال؛ لتكون عبرة، وعلى وجه الصراحة؛ لئلا يكون فيها التباسٌ أو اشتباه، فالقصة كما هي في القرآن تمامًا، لا يوجد ملائكة ولا يوجد رجل له زوجة حسناء أرادها داود أبدًا، ولا يجوز للمسلم أن يعتقد هذا في أحد من أنبياء الله.

والقصة هي: أنهم دخلوا عليه فقالوا: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ خصمان بغى بعضهما على بعض، أي: اعتدى عليه؛ لأن البغي هو العدوان، وطلبوا منه: أن يحكم بينهم لكنهم أضافوا كلمة ليست بجيدة قالوا: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ ومثل هذا لا ينبغي أن يُقال لنبي من الأنبياء، بل ولا ينبغي أن يُقال لأي حَكَم يُتحاكم إليه، لأنك إذا تحاكمت إلى رجل مع خصمك فإنكما تعتقدان أن ما يقوله هو الحق. ليس الحَكَم في مقام تهمة حتى يُقال: احكم بيننا بالحق، ولهذا انتقد الصحابة رضي الله عنهم في قصة العسيف[1] الذي زنى بامرأة من استأجره لما حضر أبو الولد الزاني وزوج المرأة، قال أحدهما: للرسول ﷺ: أَنْشُدُكَ اللهَ إلا قضيتَ بيننا بكتاب الله، فناشد الرسول ﷺ أن يقضيَ بينهم بكتاب الله، قالوا: وقال الآخر، وكان أفقه منه: نعم فاقض بيننا بكتاب الله، ولم يُناشد الرسول ﷺ، لأن طلب المناشدة في هذا المقام خطأ. فأنت ما جئت إليه إلا وأنت تعلم أنه يحكم بكتاب الله، فلا حاجَة لأن تُناشده.

هؤلاء قالوا: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ وهو لن يحكم إلا به حتى بإقرارهم، لأنهما جعلاه حكمًا ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ الشطط يعني النقص أو الجور، ولهذا قال المؤلف في تفسيره: [لا تجُر] أي: لا تجُر بالحكم فتميل مع أحدنا [﴿وَٱهْدِنَآ﴾ أرشدنا ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ وسط الطريق الصواب] يعني إذا حكمتَ فاحكم بالحق، بالعدل، وبدون جور ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: دُلَّنا إلى الصراط السواء، يعني إلى وسط الصراط، أو إلى الصراط المستقيم، وعليه فتكون ﴿سَوَآءِ﴾ من باب إضافة الصفة إلى موصوفها. يعني اهدنا إلى الطريق السوي العدل، والهداية هنا هداية دلالة وإرشاد لأنه لا يستطيع أن يُجبِرَهم على ما يحكم به، لكن هي دلالة، فلو قال المؤلف في ﴿وَٱهْدِنَآ﴾ لو قال: دلنا لكان أحسن.

والقضية هي: أن أحدَ الخصمين قال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ سبحان الله، هذان الخصمان غريبان، يتخاصمان ثم يقول أحدهما للآخر: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ والخصومة عادةً، أن الخصم يَسُبُّ خِصمه فيقول: هذا المعتدي الظالم الفاجر، أما هذا فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ وهو يدل على أن الخصومة ليست تحمل وراءها شيئًا من العداوة والبغضاء.

قال المؤلف: [﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ أي: على ديني] وقال المؤلف هذا؛ ليفيدَ أن الأخوة هنا ليست

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٨٥٩)، ومسلم (١٦٩٧).

أخوة نسب، بل هي أخوة الدين، ﴿لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً﴾ أي: مئة إلا واحدة.

و ﴿نَعۡجَةً﴾ منصوبة على أنها تمييز، وكلّ عدد له تمييز؛ لأن العدد إذا لم يذكر المعدود كان مُبهمًا، وإذا ذُكر المعدود كان هذا تمييزه، ثم هذا التمييز قد يكون مجرورًا وقد يكون منصوبًا ففي قولنا: عشرة رجال، التمييز مجرور، وفي قولنا: عشرون رجلًا، التمييز منصوب، هنا ﴿نَعۡجَةً﴾ التمييز منصوب؛ لأن كل ألفاظ العقود من عشرين إلى تسعين كلها يكون تمييزها منصوبًا.

قال المؤلف في تفسير ﴿نَعۡجَةً﴾: [يعبر بها عن المرأة] يفيد بأن هذا ليس هو الأصل في النعجة، وهو كذلك، فالأصل أن النعجة أنثى الغنم، أنثى الشياه وليست هي المرأة، فإذا كان هذا هو الأصل فمن ادعى أن المراد بالنعجة هنا المرأة فعليه الدليل، فالنعجة ليست هي المرأة، في هذه الآية، بل هي واحدة الضأن.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِيَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي: مئة إلا واحدة ﴿وَلِيَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ وأكّدها بقوله: ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ من أجل تقليلها، وإلا فإن الواحدة مفهومة من قوله: ﴿وَلِيَ نَعۡجَةٌ﴾ لكنه قال: ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ تأكيدًا للقلة، أي: ليس لي إلا واحدة ثم قال: ﴿أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أي: اجعلني كافلها، وذلك بأن تضمها إلى نعاجي؛ لأنه إذا ضمها إلى نعاجه صارت في ملكه، وهو الكافل لها، ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ غلبني في الخطاب، قال المؤلف: [أي: الجدال] يعني أنه صار يُجادلني حتى غلبني فأقررت له [واقره الآخر على ذلك] الآخر يعني المُدَّعَى عليه، وليس في الآية ما يدل على أن المُدَّعَى عليه أقرَّ أو أنه أنكر. المدعى عليه مسكوت عنه، فدعوى أنه أقرَّه يحتاج إلى دليل، ولو كان هذا هو الواقع لذكرَه الله عزَّ وجلَّ، لما في حذفه من الإيهام الذي يجعل حُكْم داود حُكمًا فيه شيء من الجور. لأن حذفه يؤدي إلى سوء الظن بداود عليه الصلاة والسلام، حيث لم يستكمل مُجريات القضية.

فالظاهر - والله أعلم -: أن داود عليه الصلاة والسلام لَمّا سمع هذا العدوان من هذا الشخص الذي أنعم الله عليه بنعم كثيرة، ثم ذهب يحاول أن يستلب حقّ هذا الفقير الذي ليس عنده إلا نعجة واحدة، كأنه عليه الصلاة والسلام غضب وحكم للمدعي فقال: ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ﴾ الجملة هنا مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم المقدر واللام وقد، لأن تقدير الكلام: والله لقد ظلمك.

وقوله: ﴿ظَلَمَكَ﴾ أصل الظلم في اللغة: النقص، ومنه قوله تعالى: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـًٔا﴾[الكهف:٣٣] ويُطلق في الشرع على النقص والعدوان، يعني على نقص الحق والعدوان في طلب ما ليس للإنسان، فهو في الحقيقة العدوان سواء كان بنقص ما يجب أو بادعاء ما لا يستحق، فمن ضرب شخصًا أو أخذ ماله، قيل: إنه ظلمَه، ومن جحد ما هو له وأنكر، قيل: إنه ظلمَه. والظلم في قوله ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ﴾ من العدوان، ولهذا قال المؤلف: [﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ

نَعۡجَتِكَ﴾ ليضمها ﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾] قدر المؤلف: ليضمها، من أجل أن يصح التعبير بـ «إلى» لأن السؤال لا يتعدى بـ «إلى» لكنه مُضمَن معنى الضم، أي: بسؤاله أن يضم نعجتك إلى نعاجه.

وجه الظلم في هذا ظاهر؛ لأن صاحب التسعة والتسعين قد أنعم الله عليه نعمة كبيرة، وصاحب الواحدة مُعدم فقير، وأيضًا فإن هذه الواحدة ملك له، فكيف يعتدي هذا ويقول: أعطنيها، ويلحُّ عليه حتى يغلبه في الحجاج والمخاصمة.

ثم قال داود: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ الشركاء ﴿لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡۗ﴾ عندنا كثير وقليل، كثير يبغي بعضهم على بعض، وقليل لا يبغي بعضهم على بعض، فالقليل الذي لا يبغي بعضهم على بعض هم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فالمؤمن العامل للصالحات لا يحدث منه البغي لما معه من الإيمان والعمل الصالح، ومَنْ فاته شيء من هذا الوصف حصل منه من البغي بمقدار ما فاته من الوصف، فمن نقص إيمانه حصل منه البغي، ومن قلَّت أعماله الصالحة حصل منه البغي؛ لأن الأعمال الصالحة يجرُّ بعضها بعضًا، فإذا عمل الإنسان عملًا صالحًا أتبعه بعمل آخر؛ لأن للطاعة لذةً وسرورًا في القلب، إذا قام الإنسان بها ازداد رغبةً فيها، وإذا أعرض قلَّت أهميةُ الطاعات عنده وضعف قصدُه للطاعات وتجرَّأ على المعاصي.

وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ يعني الشركاء ﴿لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ اللام في قوله: ﴿لَيَبۡغِي﴾ للتوكيد، ويبغي: من البغي، وهو العدوان، وهذا هو الواقع: أن كثيرًا من الشركاء يبغي بعضُهم على بعض، إما بأخذ بعض من مال الشركة، أو بكتمان الربح لو ربحت، أو التغرير بالمال بحيث يتصرف فيه على وجه ليس فيه حظ للشركة، أو بادعاء أن المشترك ملك خاص له. وأنواع العدوان بين الشركاء كثيرةٌ، ولكن كثيرًا من الشركاء يبغي بعضهم على بعض، ولهذا إذا أصلح الشركاء النيةَ، ونصح بعضهم بعضًا أفلحوا، وفي الحديث: «إنَّ الله تعالى يقول: أنا ثالث الشريكين ما لم يخنْ أحدُهما صاحبَه فإذا خانَه خرجْتُ من بينهما»(١).

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلا: أداة استثناء وما بعدها في محل نصب؛ لأن الجملة السابقة كلام تام موجب، وإذا سبق الاستثناء كلام تام موجب وجب النصب. قال ابن مالك:

ما اسْتَثْنَتْ إلَّا مَعْ تمامٍ يَنْتَصِبْ ... وَبَعْدَ نَفْيٍ أو كَنَفْيٍ انْتُخِبْ
إتباعُ ما اتَّصَلَ وانْصِبْ ما انْقَطَعْ ... وَعَنْ تميمٍ فيه إبدالٌ وَقَعْ

ولتمام الفائدة: إذا جاءت «إلا» بعد كلام تام موجب وجب نصب ما بعدها على الاستثناء،

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٣٣٨٣)، والدارقطني (٣٠٣) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٢) كذا قال الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٤٦٨).

وإذا جاءت بعد كلام تام منفي، أي: مستكمل المفاعلة لكنَّه منفي، جاز فيما بعدها وجهان: الأول: النصب على الاستثناء، وإتباع ما بعدها لما قبلها في الإعراب، إلا إذا كان الاستثناء مُنقطعًا، أي: أن ما بعد «إلا» ليس من جنس ما قبلها فيجب النصب، وإذا وقعت «إلا» بعد كلام منفي ناقص كانت بحسب العوامل التي قبلها، إن كان العامل يقتضي رفعًا رُفع، وإن كان يقتضي نصبًا نُصب، وإن كان يقتضي جرًّا جُر.

ونضرب لذلك أمثلة: (قام القوم إلا زيدًا)، بالنصب، لأن الكلام تام موجب. قام القومُ تم الكلام، موجب ليس به نفي، فتقول: إلا زيدًا، وإذا قلت: (ما قام القوم إلا زيدًا، أو إلا زيدٌ) جاز الوجهان الرفع على البدل، والنصب على الاستثناء، فيجوز أن تقول: (ما قام القوم إلا زيدٌ) بتنوين ضم، أو (ما قام القوم إلا زيدًا) بتنوين الفتح.

أما قولنا: (ما قام القوم إلا بعيرًا)، هنا يتعين النصب، لأن البعير ليس من جنس القوم، فالاستثناء منقطع، فيجب النصب هنا لتعذر البدلية، وعلى هذا إذا قال قائل: ما قام القوم إلا بعيرٌ قلنا: هذا خطأ، لأن الاستثناء مُنقطع فيجب النصب، وإذا قلت: (ما قام إلا زيدٌ) بالرفع؛ لأن ما قبلها ناقص منفي، فيجب أن تقول: (ما قام إلا زيدٌ)، وفي قولنا: ما رأيت أحدًا إلا زيدًا) هذا تام منفي، وهذا منصوب على كل حال، ويجوز الوجهان، لكنه منصوب لأنك إن قلت: ما رأيت أحدًا إلا زيدًا، هو مُستثنى فهو منصوب، وإن أعربته بدلًا فهو منصوب، إذًا يجوز الوجهان إعرابًا أما شكلًا فلا يجوز إلا وجهًا واحدًا وهو النصب؛ لأنك حتى وإن جعلته بدلًا سيكون منصوبًا.

وفي الآية هنا ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تام موجب، فالذين إذًا في محل نصب. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم.

والعمل يُطلق على القول والفعل، بخلاف الفعل فإنه يطلق على فعل الجوارح والقول على قول اللسان. ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هذه صفة لموصوف محذوف، أي: عملوا الأعمال الصالحات، وجمعها باعتبار أنواع الصالحات: صلاة، وصدقة، وصيام، وحج، وبر، وصلة، وأنواع كثيرةٌ فلهذا جُمعت. وأحيانًا يقول: عَمِلَ صالحًا فيفرد باعتبار جنس العمل على سبيل العموم.

والأعمال الصالحات قال أهل العلم: هي ما جمعت شرطين، وهما: الإخلاص لله، والمتابعة لرسوله ﷺ، فلا صلاح مع شرك، ولا صلاح مع بدعة، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف:١١٠] وعلى هذا لو أن رجلًا صلَّى رياءً فعمله غير صالح لفقد الإخلاص. ولو أن رجلًا تعبد لله بما لم يُشرّعْه الله، ولكنه مُخلص يُريد التقرب إليه، لا يُريد شيئًا من الدنيا، فعمله غير صالح لعدم المتابعة.

وقد دلَّ على بطلان ما فيه الشرك آياتٌ من القرآن متعددة، وأحاديثُ من السُنة متعددة، مثل قوله ﷺ عن الله تعالى في الحديث القدسي: «قال اللهُ تباركَ وتعالى: أنا أغْنى الشركاءِ عن الشركِ،

مَن عَمِل عملًا أشركَ فيه معي غيري تركتُه وشِرْكَهُ»[(١)].

ودل أيضًا على اشتراط المتابعة آيات وأحاديث منها قوله ﷺ: «مَنْ عمِل عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردّ»[(٢)] أي: مردود عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ الواو: حالية، وقليل: خبر مُقدم، وهم: مبتدأ مؤخر، يعني وهم قليل، و «ما» في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ زائدة لفظًا وزائدة معنى، والمقصود بها تأكيد القلة، أي: قلة قليلة من العباد الصالحين من المؤمنين العاملين للصالحات.

وإذا تدبَّرنا الواقع وجدنا الآيةَ مُنطبقة تمامًا عليه، فإن الله يقول يوم القيامة: «يا آدمُ، فيقول: لبَّيك وسعديك. فيقول: أخرج بعثَ جَهْنَمَ من ذرّيتك فيقول: يا ربِّ كم أُخرجُ؟ فيقول: أخرج من كل مئة تسعةً وتسعين»[(٣)] هؤلاء كلهم في النار وواحد في الجنة، إذًا القلة قليلة، واحد من مئة قليل جدًا. قال ابن القيم في النونية:

يا سلعةَ الرحمنِ ليس ينالُها في الألفِ إلا واحدٌ لا اثنانِ

إذن نقول: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات من بني آدم قليلون جدًا، ويؤكد القلة قوله: ﴿مَّا﴾ في ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [﴿مَّا﴾ لتأكيد القلة، فقال الملكان صاعدين في صورتيهما إلى السماء: قضى الرجلُ على نفسه، فتنبَّه داود] الرجل يعني داود؛ لأنه حسب القصة الإسرائيلية المزعومة أن له تسعًا وتسعين امرأة، فطلب من رجل ليس عنده إلا امرأة واحدة أن يطلِّق امرأته ليتزوجها داود. وفي وجه آخر للقصة أنه أمرَه أن يخرج في الجيش من أجل أن يُقتل حتى يتزوج امرأته. وقد بيَّنا أن هذا لا دليلَ عليه، وأنه لا يليق بمقام العقلاء فضلًا عن الأنبياء، وأن هذه قصة مزعومة من اليهود، فهم الذين ركَّبوها على داود عليه السلام؛ لأن اليهود لا يعتقدون داود نبيًا، وإنما هو على زعمهم مَلِك.

قال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ قال المؤلف: [أي: أيقن أنما أوقعْناه في فتنة، أي: بلِّية بمحبته تلك المرأة] ظن، أي: أيقن، وإنما نفسره باليقين لأن الأمر أمر واقع من داود حسب القصة، والشيء الواقع لا يُقال: إنه ظن، بل يُقال: إنه علم، فإن قال قائل: هل لديك شاهد على أن الظن يأتي بمعنى العلم؟ قلت: نعم، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾[البقرة:٤٦] فإن يظنون هنا بمعنى يتيقنون؛ لأن الظن الذي هو الراجح لا يكون إيمانًا بملاقاة الله عزَّ وجلَّ، بل يجب على الإنسان أن يؤمن إيمانًا يقينيًا بأنه مُلاقِ ربِّه، والظنُّ لا يكفي فيه، وإذا كان الظن لا يكفي فلا يمكن أن يكون مدحًا.

---

(١)صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

(٢)متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨).

(٣)متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٨) وفي عير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٢٢)..

[﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ أيقن ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ قال: أوقعْناه في فتنة، أي: بلية]. هذا ما ذهب إليه المؤلف رحمه الله بناءً على صحة القصة، ولكنَّ الصحيح أن المراد بالفتنة الاختبار، فتناه، أي: اختبرناه؛ لأن الفتنة من معانيها الاختبار، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] أي: اختبارًا وابتلاء، كما قال تعالى عن سُليمان: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[النمل:٤٠] إذًا ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي: اختبرْناه، وعلى رأي المؤلف، أي: ابتليْناه بمحبة تلك المرأة، ولكن هذا ليس بصحيح. ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ الصحيح أنما اختبرْناه، ولكن بأي شيء اختبرناه، لننظر:

أولًا: داود عليه السلام مأمور بأن يحكم بين الناس، فإنما وظيفته عامة، واختصاصه في الوقت بدخوله المحراب، وإغلاق الباب عليه، هذا يُخالف مُقتضى وظيفته. إذ مُقتضى وظيفته أن يتفرغ للناس حتى يُقابلَ الخصوم ويحكم بينهم، هذه واحدة، ولهذا سيأتينا - إن شاء الله - في الفوائد، أنه لا يجوز للحاكم بين الناس، ولمن كان في وظيفة عامة أن يشتغل بشيء خاص لنفسه.

ثانيًا: أن داود عليه السلام سمع كلام الخِصم الأول ولم يستمع إلى كلام الخصم الآخر، لأن القرآن ليس فيه أنه سمع إلى كلام الخصم الآخر.

ثالثًا: أنه حكم وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ والحُكْم قبل سماع جوابِ الخِصم الآخر فيه شيء من التسرع ما دام الخصم حاضرًا.

لهذا علم داود عليه الصلاة والسلام أن الله تعالى ابتلاه بهذه الخصومة التي جاءَت وهو يتعبد في محرابه وتسوروا عليه المحراب، فاستغفر ربه وخر راكعًا وأناب.

قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ أي: طلب المغفرة، والمغفرة لغةً: مأخوذة من المِغفَر، وهو ما يُستر به الرأس ليتقي بها السهام. أما شرعًا: فالمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه، أي: إن الله يستر على العبد ذنبه فيما بينه وبين الخَلْق، ويتجاوز عنه فيما بينه وبين العبد، وهنا تتحقق الوقاية مع الإخفاء؛ لأنه إذا سُتِر عن الخَلْق، ثم عُفي عنه من جانب الخالق عزَّ وجلَّ، حصلت الوقاية بالعفو من الخالق، والثاني الستر بعدم إظهار الخلق عليها.

فداود عليه الصلاة والسلام طلب من ربه أن يغفر له ما جرى منه ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ خرَّ بمعنى نزل من أعلى إلى أسفل، ومنه خرير الماء من الميزاب أو من الشلال. وقوله: ﴿رَاكِعًا﴾ حال من فاعل خر، ولكن المؤلف - رحمه الله - فسَّر الركوع بالسجود، فقال: [أي: ساجدًا] وذلك لأن الركوع الذي هو الانحناء لا يمكن أن يكون فيه خرور؛ لأن الراكع يبقى ثابتًا، ولا يُتصور الخرور إلا بالسجود، ولكنَّ التعبير بالركوع عن السجود من باب التعبير بالمعنى العام عن المعنى الخاص، لأن أصل الركوع في اللغة العربية هو الذُل، كما قال الشاعر:

لا تُهين الفقيرَ علَّك أنْ ... تَركَعَ يومًا والدهرُ قد رفَعهْ

يعني أن تذل، والدهر قد رفعه: أي قد رفع هذا الفقير. إذًا فالذي عُين أن يكون الركوع هنا

بمعنى السجود هو قوله: ﴿وَخَرَّ﴾ ولكنه عبر بالركوع عن السجود لإظهار أن هذا الركوع ركوع ذُلٍّ لله عزَّ وجلَّ، ثم قال: ﴿وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: رجع إلى الله، والإنابة: الرجوع مع الخشية فهو رجع إلى الله مع خشية الله سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي: ستْرنا وتجاوزْنا، له أي: لداود، واللام في ﴿لَهُۥ﴾ يُحتمل أن تكون للتعدية، أو أن تكون للتعليل، لكنها للتعدية أولى، وفي كونها للتعليل تأمل، أي: أننا غفرنا لداود ذلك الذي وقع منه، وهي الفتنة التي افتُتن بها، ولم يتخذْ الإجراء اللازم في الحكم.

قال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ مع المغفرة. أضاف الله له هذه المنقبة ﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾ أي: لداود عندنا ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ قال المؤلف رحمه الله تعالى: [أي: زيادة خير في الدنيا]، ويُحتمل أن المُراد بالزُلفى زيادة القرب، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[ق:٣١] أي: قُرِّبت، فالزُلفى تفسيرها بزيادة الخير فيه شيء من النظر، والصواب أن المُراد بالزُلفى القُربى، أما حُسن المآب، فهو زيادة الخير، قال المؤلف رحمه الله تعالى: [﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ مرجع في الآخرة]. هذا هو زيادةُ الخير، فصارت النتيجة بعد أن وقع من داود ما وقع ثم رجع إلى الله واستغفره، أن الله سبحانه وتعالى رفع عنه آثار هذا الذنب، فغفر له، وزاده على ذلك زيادتين عظيمتين مهمتين إحداهما: القرب من الله، والثانية: حُسن المآب.

الفوائد:

١ - **أن هذه القصة عجيبة**، وأنها مثار للعجب ولهذا شوَّق الله إليها بقوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** بلاغة القرآن حيث يأتي بمثل هذه الصيغة في الأشياء التي ينبغي للإنسان أن يتشوق إليها، ويهتم بها.

٣ - **ومن فوائدها:** أن الخَصْم يطلق على الواحد والمتعدد اعتبارًا بالمعنى، فإن الجماعة إذا كانت دعواهم واحدة صاروا كأنهم رجل واحد.

٤ - **ومن فوائدها:** أن من أتى البيوت من غير أبوابها فإنَّ فعله هذا سبب للخوف والفزع، لقوله: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أن داود عليه الصلاة والسلام في هذه الحال كان قد أغلق الباب، أو جعل عليه حاجبًا يمنع الناس من الدخول عليه.

٦ - **ومن فوائدها:** أن الحُكْم بين الناس أفضل من العبادات الخاصة، لأن نفعه متعدٍّ، والعبادات الخاصة نفعها قاصر.

٧ - **ومن فوائدها:** أن الأنبياء يلحقهم من الطبائع البشرية ما يلحق غيرهم؛ لقوله: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ حيث لحقه الفزع كما يلحق سائر الناس.

٨ - **ومن فوائدها:** أنه ينبغي إن لم نقل يجب، أن يطمئن المُفزِع مَنْ فزع منه بنفي سبب الفزع قبل كل شيء، حيث قالوا: ﴿لَا تَخَفْ﴾ ثم ذكروا القصة ولم يبدؤوا بالقصة مباشرة.

٩ - **ومن فوائد القصة:** بيان أن هذين الخصمين قد اعتدى بعضهم على بعض، أي أن المسألة ليست مسألة كلامية، أو ليس فيها عدوان، بل فيها عدوان اعتدى بعضهم على بعض بما ذكروا من السبب.

١٠ - **ومن الفوائد:** أن هذين الخصمين أساءا الأدبَ مِن بعض الوجوه، حيث قالا: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ ووجه الإساءة أنهم ما جاءا إلى الحكم إلا وهما يعتقدان أنه سيحْكُم بينهم بالحق، فإذا قالا: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فإن هذا قد يولد تهمةً من أنه لن يحكم بالحق.

١١ - **ومن الفوائد:** أن الحُكم يحتاج إلى إلزام لقولهم: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ فإن هذا أمر زائد على الحُكم؛ لأن الحُكم أن يُفصل بينهم، والهدايةُ أن يدلهم على ذلك من أجل إلزامهم به.

١٢ - **ومن فوائدها:** أنَّ كلَّ البشر يطلب الصراط السوي الذي ليس فيه ميلٌ ولا إجحافٌ، لقولهم: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾.

١٣ - **ومن فوائد هذه القصة:** لباقة هذين الخصمين حيث لم تثر الخصومة ضغينتيهما، ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ مع أنه قال في الأول: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لكن هذا البغي لم تُفقد به الأخوة؛ لقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾.

١٤ - **ومن الفوائد لهذه القصة:** أن هذه الخصومةَ غريبةٌ، فإن أحدهما كان له تسع وتسعون نعجةً، والآخر له نعجةٌ واحدة، ومع هذا طمع الأولُ في الثاني، وكان الذي يتبادر في الذهن أن يضيف الأول صاحب النعاج الكثيرة إلى الثاني ما تيسر.

١٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن بعض الخصوم قد يكون أقوى في المخاصمة من الآخر حتى يغلبه لقوله: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّكم تختصمون إليّ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحُجتّه من بعض، فأقضي له بنحو مما أسمع منه، فمن قطعْت له من حق أخيه شيئًا، فلا يأخذْه، فإنما أقطع له به قطعةً من النار»[1].

١٦ - **ومن الفوائد:** أنه ينبغي أن يكون الإنسان قوي الحجة، قوي البيان حتى يحصل له الغلبة على صاحبه، هذا إذا كان بحق، أما إذا كان بغير حق فإن الواجب على الإنسان أن يصمت لنطقَ غيرُه بالحق.

١٧ - **ومن الفوائد في القصة:** أن داود عليه الصلاة والسلام حكم بينهم دون أن يسمع دفاع الخصم الآخر لقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ ولعلَّ داود عليه الصلاة والسلام أراد السرعة في إنهاء القضية؛ ليتفرغ لما احتجب له عن الناس من عبادة الله، وخاف أن يُدلي هذا بشيء

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

وهذا بشيء فيطول النزاعُ والخصامُ فبادر بالحكم.

١٨ - **ومن فوائد القصة:** أن أكثر الشركاء يحصل من أحدهم بغيٌ على الآخر لقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وهذا من الغريب أن يكون الإنسان كلما قرب إلى الشخص تَقَعَ منه البغيُّ أكثر مما لو كان بعيدًا؛ لأن البعيد ليس بينه وبينه صلة، لكن الذي بينه وبينه صلة وهو الشريك، هو الذي ربما يجحده أو ينكره، أو يفعل شيئًا لم يأذن به أو ما شابه ذلك.

١٩ - **ومن الفوائد في القصة:** أنه ليس جميعُ الخلطاء يحصل منهم البغيُّ، لقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ﴾.

٢٠ - **ومن فوائد القصة:** أنه كلما كان الإنسان أقوى إيمانًا وأكثر عملًا من الصالحات كان أبعد عن الظلم والبغي.

٢١ - **ومن فوائدها:** أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يحصل منهم البغي، والذي يمنعهم من ذلك هو إيمانهم بالله وبالحساب، وعملهم الصالح الذي يكون درعًا بينهم وبين العدوان والبغي، ووجهه أن استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، إنما كان من أجل إيمانهم وعملهم للصالحات، والحُكْم إذا عُلق بوصفٍ ازداد قوةً بقوة ذلك الوصف. وهذه قاعدة.

٢٢ - **ومن الفوائد:** أن العمل لا ينفع إلا إذا بُني على الإيمان وكان صالحًا، فعملٌ بلا إيمان لا يُقبل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾[التوبة:٥٤] وكذلك لو كان هناك إيمان، لكن لم يكن العمل صالحًا لِفَقْد الإخلاص أو الاتباع فيه فإنه لا ينفع.

٢٣ - **ومن فوائد هذه القصة:** أن الجمع بين هذين الوصفين: الإيمان والعمل الصالح قليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

٢٤ - **ومن فوائدها:** أن الحاكم لا يَحكُم حتى يستوعبَ حجج الخصمين لقوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾.

٢٥ - **ومن فوائدها:** أن الحاكم الذي نصَّب نفسَه ليكون حكَمًا بين العباد لا يَحِلُّ له أن يختفي عنهم في الوقت الذي يكون وقتًا للتحاكم.

٢٦ - **ومن فوائدها:** أن الاشتغال بما فيه مصلحةٌ عامة أفضل من الاشتغال بما فيه مصلحة خاصة.

٢٧ - **ومن الفوائد:** أن الأنبياء قد يُفتنون ويُختبرون لقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ ولكنَّ الفتنة التي يُفتن بها الأنبياءُ لا يمكن أن تعود إلى إبطال مقومات الرسالة والنبوة، كالفتنة التي تعود إلى الكذب أو الشرك أو الأخلاق الرديئة وما أشبهها، هذا لا يمكن أن يقع من الأنبياء.

٢٨ - **ومن فوائد القصة:** أن كلَّ شخص مُحتاج إلى الله عزَّ وجلَّ مُفتقِر إليه؛ لقوله: ﴿فَاسْتَغْفَرَ

رَبَّهُۥ﴾.

٢٩ – **ومن فوائد هذه القصة**: أن الاستغفار سببٌ لمحو ما حصل من الذنوب؛ لأن الفاء في قوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ﴾ مبنية على قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ﴾.

٣٠ – **ومن فوائد القصة**: أن السجود خضوعًا لله من سنن الأنبياء؛ لقوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤)﴾، وهل يشرع لمن أذنب أن يفعل كما فعل داود، أو أن يصلي ركعتين تامتين؟

الجواب: المشروع إذا أذنب الإنسان أن يتوضأ ويسبغَ الوضوء، ويصلي ركعتين لا يُحدِّث فيهما نفسه، فمن فعل ذلك فإنه يغفر له ما تقدم من ذنبه.

٣١ – **ومن فوائد هذه القصة**: إجابة الله سبحانه دعاء مَنْ دعاه؛ لقوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ وهذا يستلزم عدَة صفاتٍ، منها العلم والسمع والبصر، يؤخذ ذلك من قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ لأن الذي حصل من داود قول يسمع، وفعل يُرى، فالقول الذي يسمع قوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ والفعل الذي يرى قوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ فلما قال: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾، عُلم أن الله قد سمع ما قال ورأى ما فعل، وتستلزم هذه الصفةُ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ من الصفات – إضافة إلى العلم والسمع والبصر – القدرة؛ لأن المغفرة لا تقع إلا من قادر على الغفران، وتستلزم كذلك كرم الله عزَّ وجلَّ ولطفه بعباده، حيث يغفر لكل من استغفر مهما عظم ذنبه، كما قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزُّمَر:٥٣].

٣٢ – **ومن فوائد هذه القصة**: أن الله تعالى غفر لداود عليه السلام، وبيَّن ما لديه من الثواب لداود في قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٢٥)﴾.

٣٣ – **ومن الفوائد لهذه الآية**: إثبات العندية لله، وهي عندية قرب وعندية علم، ففي قوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾[الأنعام:٥٩] هذه عندية علم، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾[الأنبياء:١٩] هذه عندية قرب، ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

٣٤ – **ومن فوائدها أيضًا**: الثناءُ على داود عليه الصلاة والسلام بحسْن مآبه، أي: مرجعه إلى الله، لقوله: ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٢٥)﴾.



۞ قال الله تعالى:

﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ (٢٦)﴾ [ص:٢٦]

التفسير

ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ يُخاطب الله تعالى داود عليه الصلاة والسلام بالنداء، والمخاطبة بالنداء يُراد بها التنبيه؛ لأن هناك فرقًا بين أن تقول: محمد قام وبين أن تقول: يا علي محمد قام، ففي القول الثاني تنبيه، وإذا كان الكلام يحتاج إلى تنبيه فإنه دليل على أهميته. إذ إن الكلام الذي يهتم به يقدم بين يديه ما يكون به التنبيه، فالله عزَّ وجل يُنادي داود عليه الصلاة والسلام تنبيهًا لما سيلقي عليه فيقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: صيَّرناك، لأن جعل تارة يكون للتصبير، وتارة يكون للإيجاد كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[الأنعام:١] أي: أوجدهما، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[الزُّخرُف:٣] أي: صيَّرناه، والفرق بينهما أنه إن تعدى إلى مفعول واحد، صار بمعنى الإيجاد، وإن تعدى إلى مفعولين صار بمعنى التصيير، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تعدى إلى مفعولين، الكاف وخليفه، فتكون بمعنى التصيير، ﴿خَلِيفَةً﴾ أي: خالفًا لنا في تبليغ شرعنا، وليس المُراد أنه خالفًا لله أنه يأتي بعده، لأن الله تعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن، لكن خليفةً لله في تبليغ شرعه وحكمه بين الناس.

وقوله: ﴿فَٱحْكُم﴾ الفاء هذه للتفريع، أي: فبناء على كونك خليفةً في الأرض احكم. قال المؤلف رحمه الله: [﴿فَٱحْكُم﴾ تدبُّر أمر الناس] كما يدبر الخلفاءُ أمر مَنْ جعلهم الله راعين له، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل؛ لأن الحق إن كان في مقابلة الخبر فهو بمعنى الصدق، وإن كان في مقابلة الحُكم فهو بمعنى العدل، فإذا قيل: أخبرَني محمدٌ بكذا وهو حق يعني صدق، وإذا قلت: حكم فلان بكذا وهو حق يعني عدلًا. هنا يقول: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل؛ لأن الحق هنا وصف به الحكم فصار بمعنى العدل، وهذا يتضمن الحكم، وطريق الحكم، ولوازمه، فالحكم بأن تحكم بالشرع، وطريق الحق أن تعدل بين الخصمين في كل شيء، حتى إن العلماء يقولون: يجب على القاضي أن يعدل بين الخصمين في لفظه ولحظه وكلامه، وجلوسهما ودخولهما عليه، يعدل في كل شيء، ففي لفظه لا يغلظ القول لأحد الخصمين ويلين القول للآخر، وفي لحظه لا ينظر إلى أحد الخصمين نظرةَ غضبٍ وإلى الثاني نظرة رضا، وفي مجلسه لا يُجلس أحد الخصمين إلى جانبه والآخر بعيد عنه، وفي دخولهما عليه لا يقول لأحدهما: ادخل، قبل الآخر حتى ولو كان كافرًا، فإنه لا يُقدَّم المسلم عليه في الدخول، وإن كان بعض العلماء قد قال: إذا كان أحدهما كافرًا فإنه يُقدَّم المسلم عليه في الدخول، ولكن المقام مقام حُكم فالواجب فيه العدل، وهذا كفره عليه، وهذا إسلامه له، هذا إذا كان الدخول يحتاج إلى تقديم وتأخير. أما إذا كان الباب مفتوحًا فإنه لا يلزمه أن يجعل عند الباب رجلًا يقول: ادخلا جميعًا. يجعل الأمر موكولًا إلى الخصوم. مَن جاء

فليدخل، قبل الآخر أو بعده، لكن إذا كان هناك ترتيب الدخول فلا يقدِّم أحدهما على الآخر، هذا طريق الحكم.

أما الحُكم فإذا عَلِم أن الحق مع أحدهما وجب عليه أن يحكم له به مهما كان، سواء كان عدوًّا أم صديقًا.

وقوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ الناس: أصلها الأناس، لكن حذفت الهمزة تخفيفًا كما حذفت من شر وخير، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ﴾[المائدة:٦٠] أي: بما هو أشر من ذلك، ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ أي: هوى النفس، وإنَّما نهاه عن اتباع الهوى تعظيمًا لهذا الأمر، ولا يلزم من نهيه عنه أن يكون ممكنًا في حقه، كما قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزُّمَر:٦٥] ولا يلزم من هذا أن يكون الإشراك في حقه ممكنًا. وقد يُقال: إن الله نهاه عن اتباع الهوى لقوة الهوى في البشر، فإن الهوى في البشر أمر مفطور عليه، لأنه يندر أن شخصًا يتقدم إليه أبوه مع شخص آخر عدوٍّ له، يندر ألا يكون له هوى، أو يتقدم إليه شخص من أصدقائه الحميمين مع آخر من أعدائه الألداء ثم لا يميل مع الأول، يندر هذا، فلقوة الداعي وهو الهوى نهى الله عنه، وإن كان لا يمكن في حقه.

وقوله تعالى: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ فيضلك الفعل هنا مضارع ولكنه منصوب لأنه وقع بعد النهي، والمضارع إذا اقترنت به الفاء – وهذه الفاء تُدعى فاء السببية – بعد النهي صار منصوبًا بأن مُضمرة وجوبًا.

وقوله: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: يجعلك تضلّ وتحيدُ يمينًا وشمالًا، وقوله ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ قال المؤلف – رحمه الله –: [أي: عن الدلائل الدالة على توحيده] وهذا التفسير ضعيف جدًا، بل المُراد بسبيل الله طريقه الموصل إليه؛ لأن السبيل في الأصل هو الطريق، وأُضيف إلى الله لأن الله هو الذي وضعه، وهو الذي شرعه، ولأن هذا السبيل يؤدي إلى الله، فأُضيف إلى الله باعتبار وضعه، وباعتبار نهايته، وإذا قلنا: إن المُراد بسبيل الله، أي: طريقه وشرعه، صار أعمّ مما قال المؤلف، والصق باللفظ؛ لأن السبيل في اللغة الطريق، وليست الدلائل الدالة على التوحيد، لكن الدلائل الدالة على التوحيد لا شك أن النظر فيها من شريعة الله.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ لم يقل الله: إنك إن تتبع الهوى أو إن تضل عن سبيل الله فلك عذابٌ شديد، بل أتى بالجملة الاستئنافية الاستقلالية، أولًا: تفاديًا لمخاطبة داود عليه السلام بذلك، وثانيًا: ليكون أعمّ. إذن فيه فائدتان، ولهذا قال الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣﴾[عبس:٣] فعبَّر بالفعل الماضي الدال على الغائب، ولم يقل: عبست وتوليت أن جاءك الأعمى وما يُدريك لعله يزّكى، بل قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ تفاديًا لمخاطبة الرسول ﷺ بمثل هذا الوصف.

قال المؤلف: [﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن الإيمان بالله] وهذا أيضًا فيه نظر، والصحيح أن سبيل الله هنا هو سبيل الله الأول، والمُراد به شريعته؛ لأنها هي الطريق الموصل إليه.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ الجملة خبر إن، واسمها (الذين) و ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ خبرها، فالجملة هنا خبر لـ «إنَّ»، وكل جملة تقع خبرًا فلا بد فيها من رابط يربط بين هذه الجملة وبين المبتدأ، والرابط هنا الضمير في قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وقوله ﴿شَدِيدٌ﴾ أي: قويّ وعظيم، ويدلك على قوته وعظمته ما وصفه الله به في القرآن العظيم من صفات تنزعج لها القلوبُ، وتنفطر لها الأكباد.

وقوله: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: بسبب نسيانهم يوم الحساب، فالباء هنا للسببية، وما: مصدرية، ولهذا قال المؤلف: [بنسيانهم ﴿يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ المرتب عليه تركهم الإيمان، ولو أيقنوا بيوم الحساب لآمنوا في الدنيا] وقوله: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ المراد بيوم الحساب يوم القيامة، وأضيف إلى الحساب؛ لأن الناس يُحاسبون فيه على أعمالهم، وأول ما يُحاسب عليه الإنسان فيما يتعلق بحق الله هو الصلاة، وأول ما يُحاسب عليه فيما يتعلق بحق العالمين هو الدماء، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «أولُ ما يُقضى بين الناس بالدماء»[1].

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** إثبات كلام الله، وأنه بحرف وصوت، وذلك من قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ﴾ فإن هذه الجملة مُركبة من حروف، ولا بد أن تكون بصوت، لأنه يُخاطَبُ بها داود، ولا بد أن يكون المُخاطَبُ سامعًا ولا سماع إلا بصوت، فيؤخذ منه الرد على الأشاعرة وغيرهم ممن قالوا: إن الله سبحانه وتعالى يتكم، وأن كلامه هو المعنى القائم بذاته، المُلازم له أزلًا وأبدًا.

٢ - **ومن الفوائد:** أن الأمر أمر الله، هو الذي يُنَصِّبُ من شاء ويعزل من شاء.

٣ - **ومنها:** أنه لا مانع من أن يقول القائل للسلطان صاحب السلطة العليا في الأرض، أن يقول له: إنه خليفة الله، ولا يعني ذلك أن الله مُحتاج إلى أن يستخلف أحدًا ليقوم عنه بتدبير الخلق، ولكنه خلَّفه، أي: جعله حاكمًا بين الناس بما شرع الله سبحانه وتعالى.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب الحكم بين الناس بالحق لقوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾.

٥ - **ويتفرع عن هذه الفائدة:** أن مَنصِبَ القضاء فرض كفاية، كما قال ذلك أهل العلم، وإذا لم يوجد إلا الشخص المُعين المؤهل فإنه يكون في حقه فرض عين.

٦ - **ومن فوائد الآية:** أنه لا ينبغي للشخص إذا وُكِّل إليه تولِّي القضاء أن يَفِرَّ منه ما دام يعرف من نفسه الكفاءة؛ وذلك لأنه إذا فر منه، وفر الثاني والثالث والرابع تعطل هذا المنصب

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٣٣)، ومسلم (١٦٧٨).

العظيم الذي هو منصب الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولكن إذا أتى الإنسان هذا الشيء بدون سؤال فليستعن بالله والله يُعينه عليه.

٧ - **ومن الفوائد:** أنه يجب أن يحكَم بين الناس بالحق، سواء كان ذلك في طريق الحُكْم، أو في نفس الحكم، أما طريق الحكم فهو معاملة الخصمين بحيث تكون المعاملة بينهما على وجه العدل، وأما في الحكم فأن يحكم بما تقتضيه الشريعة.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية:** أنه لا يجوز للقاضي الحاكم بين الناس أن يُحابي أحدًا لقرابة، أو صداقة، أو غِنًى، أو فقرٍ، أو جاه، أو غير ذلك لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ويؤيد هذا قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾.

٩ - **ويُستفاد من هذه الآية:** أنه في المقام المهم ينبغي أن يُذكر الإثبات المطلوب ويذكر ضدّه، كأن يُقال: احكم بالحق حكمًا لا يدخله الهوى؛ لأنَّ من الكمال إثبات الكمال ونفي ضده، فمثلًا: احكم بين الناس بالحق، هذا إثبات كمال، ولا تتبع الهوى نفي ضده، وإنما يؤتى بنفي الضد من أجل أن يتبين أنَّ المطلوب ينبغي أن يكون مُجردًا عن كل ما يُنافيه.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنَّ اتباعَ الهوى سبب للإضلال عن سبيل الله لقوله: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولكنْ هل الإضلالُ في نفس المخالفة؟ أم أن المخالفة نفسها ضلال، وتكون سببًا لإضلال آخر؟ الجواب هو الثاني؛ فإن الهوى يجلب للإنسان الضلالَ كما أنه هو نفسه ضلال، فإذا اتبعت الهوى في قضيةٍ ما، فانتظر اتباع الهوى في القضية التي تليها؛ لأن المعصية قبل أن يقع فيها الإنسان يجد نفسه تستوحش منها وتنفر، فإذا فعلها مرة هانت عليه، وانكسر الحجاب، فإذا هانت عليه أول مرة هانت عليه الثانية ثم الثالثة، حتى تصبح وكأنها لا شيء، ولهذا يضرب العامة مثلًا له فائدة، يقولون: بكثرة الإمساس يقل الإحساس، يعني إذا أكثر الإنسان مماسة الشيء قل إحساسه به.

والحاصلُ: أن اتباع الهوى ضلال بنفسه، وسبب للضلال، ووجه ذلك أن المعصية تنفِّر منها النفس، فإذا فعَلَتْها مرة هانت عليها، ثم الثانية تكون أهون، ثم الثالثة أهون، والرابعة أهون، حتى تصبح المعصية وكأنها ليست بمعصية؛ ولهذا قال: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. فتجد القاضي مثلًا لا يمكن أن يحكم بالحيف والجور، وتجده نافرًا من ذلك، فإذا حكم مرة هان عليه، ثم الثانية هان عليه، ثم الثالثة والرابعة وهكذا؛ لذلك قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

ويمكن أن يُقال: إن هذا لا يختص بالحكم بين الناس، أي: أن اتباع الهوى سبب للإضلال عن سبيل الله في كل شيء، حتى في غير الحكم، حتى في المعاصي الخاصة التي في نفسك إذا اتبعت هواك فيها فاعلم أن هذا سبب في الإضلال عن سبيل الله، فعليك أن تتوقى المعاصي فإنها شرٌّ كلها.

١١ - **ومن الفوائد:** أن دين الله تعالى واحدٌ لا يتشعب لقوله: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فأفردها، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾[الأنعام:١٥٣] فسبيل الله واحدة، وما خالفها فهو المُتشتت. فهذا سببه الهوى، وهذا سببه خشية الناس، وهذا سببه كذا، وهذا سببه كذا، فتفرق السُبل.

١٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الثناء العظيم على شريعة الله، وذلك بإضافتها إلى الله، لأن كل ما أضيف إلى الله فإنه إذا كانت الإضافة خاصة فإن الإضافة تدل على شرفه.

١٣ - **ومن الفوائد:** أن الضالِّين عن سبيل الله متوعدون بهذا الوعيد ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾ أي: قوي، ويتفرع من هذه الفائدة الحذر من الضلال عن سبيل الله.

١٤ - **ومن الفوائد:** أن من أسباب الضلال عن سبيل الله نسيانَ يوم الحساب، والغفلة عنه، والانغماس في الدنيا حتى تُنسي الإنسان ما خُلق له، وما هو مُقبلٌ عليه؛ ولهذا قال: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: غفلوا عنه. وليس المُراد بالنسيان الذهول الذي يُعفى عنه، بل المُراد بالنسيان الترك الذي هو الغفلة وعدم المبالاة به.

١٥ - **ومن فوائد الآية:** الحذر من الانغماس في الدنيا الذي يوجب نسيان يوم الحساب. ومن ثم حَرَّم الشرعُ كلَّ لهوٍ يلهو به الإنسان - إلا ما استثنى - يعني باطلًا ليس فيه خير، ثم قد يكون مُحرمًا، وقد يكون ضياعًا للوقت بدون تحريم، لكن كل لهوٍ يصد عن سبيل الله يُنسي يوم الحساب؛ ولذلك تجد أقل الناس إيمانًا بيوم الحساب أكثرهم ممارسةً للملاهي. ولا يمكن أن يقع في قلبه تذكر ليوم الحساب إلا نادرًا. إن وُفِّق لسماع موعظة أو ما أشبه ذلك وإلا فهو غافل لاهٍ.

١٦ - **ويتفرع على هذا:** أن يعرف الإنسان عداوة أعداء الله الذين أغرقونا بالملاهي وأنواعها حتى صرفوا الشباب عن ما ينبغي أن يُؤهِل نفسه له، فأغرقوه بالملاهي بأنواعها حتى صار الإنسان كأنما خُلق لهذا اللهو، وصار رأس ماله وعقب ماله كله هو هذا اللهو، لا يتكلم إلا به، ومن فاز به، ومن لم يفز، فضاع الشباب بسبب هذا اللهو الذي انغمسوا فيه، ونسوا يوم الحساب إلا من شاء الله.

١٧ - **ومن فوائد هذه الآية:** إثباتُ الأسباب. تؤخذ من قوله تعالى: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ لأن الباء هذه للسببية.

ويتفرع عن هذه الفائدة إثبات حكمة الله عزَّ وجلَّ، وأنه تعالى لا يفعل شيئًا إلا لسبب يقتضيه، حتى إن بعض أهل العلم قال: إن كون الله عزَّ وجل خلق السماوات والأرض في ستة أيام دون أن يخلقها بلحظة من أجل ترتب هذا الخلق بعضه على بعض، حتى تكون الأسباب فاعلة فعلها فتنتج الشيء شيئًا فشيئًا حتى يتم، وهذا ليس ببعيد ما دمنا نؤمن أن الله عزَّ وجلَّ حكيم، وأن كل شيء يكون بسبب، فلا يستبعد أن يكون بقاء خلق السماوات والأرض ممتدًا إلى

ستة أيام هو من أجل هذا، من أجل أن يترتب الخلق بعضُه على بعض، وينبني بعضُه على بعض، حتى يكون مُطابقًا للحكمة، وإلا فنحن نعلم علم اليقين أنه لو شاء الله تعالى لقال: كن فيكون بلحظة، لكن الله تعالى حكيم.

١٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الحساب في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)﴾ الحساب يختلف، حساب المؤمن أن يخلو الله به من غير أن يَطَّلِع عليه أحد فيُقرره بذنوبه، فيقول: فعلت كذا، وفعلت كذا، حتى إذا رأى أنه هلك، قال الله له: «إنّي قد سترْتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرُها لك اليوم»(1)، هذا حساب المؤمن، وهذا حسابٌ يسير، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[الانشقاق:٧ - ٨] وما أيسر أن يخلو بك الله عزَّ وجلَّ وحدك، وليس عندكما أحد، ويُكلمك وليس بينكما تُرجمان، ويقول: إني قد سترتها لك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، الحمد لله على هذه النعمة.

أما الكافرُ فليس كذلك، الكافر يُنادى عليه على رؤوس الخلائق ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[هود:١٨] يخزون ويفضحون ﴿كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فهم يخزون بأعمالهم ويُفضحون بها.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٧،٢٨]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ﴾ قال المؤلف: [أي: عبثًا ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: خلق ما ذُكر لا لشيء ﴿ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ﴾ من أهل مكة ﴿فَوَيْلٌ﴾ واد ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧)﴾].

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ﴾ خلقْنا أي: أوجدنا، فالخلق بمعنى الإيجاد، لكنه إيجاد عن تقدير؛ لأن الإيجاد قد لا يكون عن تقدير ولا عن ترتيب، ولكن الخلق لا بد أن يكون عن ترتيب وتقدير، يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ﴾ السماء المُراد بها

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

الجنس، ويشمل جميع السموات، وكذلك الأرض، وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ معطوف على السماء، أي: ما خلقنا ما بينهما باطلًا، والذي بين السماء والأرض من المخلوقات مخلوقات عظيمة، بعضها معلوم لنا، وبعضها مجهول لنا لم نعلمْه حتى الآن، لكن يغلب على الظن أنها مخلوقاتٌ عظيمة؛ لأن الله تعالى جعلها قسيمة لخلق السماء والأرض، وقسيم الشيء لا بد أن يكون مُقارِبًا له، أو مساويًا له.

وقوله: ﴿بَٰطِلًا﴾ هذا محطُّ النفي؛ ولهذا نقول: لا يجوز الوقف على قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لأنك لو وقفت لأدى ذلك إلى أن يكون المعنى معنىً باطلًا، بل لا بد أن تصل فتقول: ﴿... وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾؛ لأن ذلك هو محط النفي، يعني ما خلقناهم باطلًا، أي: لأجل الباطل، وهذا كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨] فالباطل هنا بمعنى اللهو الذي لا فائدة فيه، فالله لم يخلقْ السماء والأرض باطلًا، ولو كان خلقها باطلًا لكان ذلك في غاية السفه أن تخلق هذه المخلوقات العظيمة بما فيها لا لشيء بل للعب واللهو.

وقوله: ﴿بَٰطِلًا ۚ﴾ قال المؤلف: [أي: عبثًا] ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: اعتقاد أن خلق السماء والأرض باطلًا ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ يعني هذا ظن الكافرين الذين يظنون أن خلق السموات والأرض لمجرد اللعب واللهو، ولا يترتب على ذلك شيء، ومن هذا قولهم: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾[الجاثية:٢٤] ومن ذلك ما يظنه بعض الناس أن المقصود من خلق السماء والأرض وجود هذه الخليقة ثم فناؤها إلى غير رجعة، فنقول: من ظن ذلك أي أن الله خلقها عبثًا ولعبًا فهو كافر، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ هم الذين يظنون: أن خلق السماء والأرض كان باطلًا، وقول المؤلف: [﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ من أهل مكة] فيه نظر؛ لأنه قصر للدليل على بعض أفراده، والصواب أنه عامّ لأهل مكة وغيرهم، فالذين كفروا لا يظنون بالله إلا ظن السوء، فيظنون أن أفعاله عبث وباطل وليست لحكمة.

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وقال المؤلف: [﴿فَوَيْلٌ﴾ وادٍ] في جهنم، ولكن هذا ليس صحيحًا بالنسبة للآية هذه، بل كلمة «ويل» كلمة وعيد بأمرٍ شديد؛ لأنه قيل: ويل له من النار فهو يتوعد بها، كما تقول: ويلٌ لك من فلان. وليس معنى ويلٌ لك من فلان يعني وادٍ في فلان، بل هي كلمة وعيد على أمرٍ شديد فقوله: ﴿فَوَيْلٌ﴾ أي: وعيدٌ شديدٌ للذين كفروا من النار، يعني ما أعظم ويلهم من نار جهنم – والعياذ بالله – وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ خبر ويل، وقوله: ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ بيانٌ لويل، أي: أن هذا الشيء العظيم يكون للذين كفروا من النار.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أم: هنا مُنقطعة؛ لأنه لم يذكر لها مُعادل، فهي بمعنى (بل) والهمزة، يعني بل أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهذا الاستفهام المقصود به النفي والاستنكار، يعني لا يمكن

أبدًا أن نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، والمُراد بالاستفهام النفي والإنكار، والإضراب هنا انتقالي ﴿أَمْ نَجْعَلُ﴾ أي: نُصيِّر، فهي تنصب مفعولين: الأول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، والثاني: ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يمكن أن نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: صدقوا بما يجب التصديق به على وجه القبول والإذعان، أي: تصديقًا مُستلزمًا للقبول والإذعان، وقوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: عملوا الأعمال الصالحات، والأعمال الصالحات هي التي اجتمع فيها شيئان: الأول: الإخلاص لله عزَّ وجلَّ، والثاني: المتابعة لشريعة الله، فمن عمل عملًا موافقًا للشريعة في ظاهره لكنه يُرائي فيه، فعمله ليس بصالح، لاختلال الإخلاص لله، والذي عمل عملًا مُخلِصًا فيه لله يريد به وجه الله، لكنه على غير الشريعة، ليس بصالح لأنه غير موافق لشريعة الله. فلا بد من أن يكون العمل خالصًا لله، وموافقًا لشريعة الله.

وقوله: ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، المُفسِد مقابل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فيكون المُراد بالمفسدين في الأرض: الكفَّار الذين يعملون السيئات.

فكلُّ كافرٍ فهو مُفسِد في الأرض، في مقابل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. وكل عاصٍ، فهو مُفسد في الأرض، في مقابل: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فالشيء يُعرَف بمقابله.

ولهذا فسَّر أهل العلم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[الأعراف:٥٦] فسَّروا ذلك بالمعاصي، قالوا: لا تفسدوا في الأرض بالمعاصي وهذا التفسير صحيح، يشهد له قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم:٤١].

فإن قيل: هل هدْمُ البيوت فسادٌ في الأرض؟

فالجواب: أنها لا تُنفي ولا تُثبت، إن هدمها الإنسان ظُلمًا وعدوانًا، فهو فساد في الأرض؛ لأنه معصية لا يجوز للإنسان أن يعتدي على بيت أخيه، فيهدمه، وإن هدمَها لإصلاحها، فهذا ليس فسادًا في الأرض.

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ أم هنا أيضًا بمعنى بل، وهمزة الاستفهام الذي يُراد بها الإنكار والنفي.

قال المؤلف رحمه الله: [﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ - لَمَّا قال كفار مكة للمؤمنين: إنَّا نُعطي في الآخرة مثل ما تُعطون] هذا قد يكون صحيحًا، وقد لا يكون صحيحًا، لكن إن كان صحيحًا فهو كقول اليهود: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[البقرة:٨٠]، فكلُّ أحدٍ يَدعي أنه على حق، وكل أحد يدعي أن الثوابَ له وأن الآخرة له، ولكن الشأن كل

الشأن بمن شهد الله له بذلك.

يقول: [﴿أَمْ﴾ بمعنى همزة الإنكار] أم، يعني قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ لكن يُقدَّر قبلها، بل لأن أم هذه تفيد الإضراب.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: نُصيِّر المتقين كالفجار، أي: لا يمكن أن نجعل المتقي كالفاجر.

والمتقي مَنْ اتخذ وقايةً من عذاب الله، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، وهذا أجمع ما قيل في تعريف المتقي. والفجار خلاف المتقين، يعني الذي فجروا وخرجوا عن طاعة الله إلى معصيته.

وهنا قابل المتقي بالفاجر، وفي سورة المُطففين قابل الفاجر بالبَرّ، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾[المطفِّفين:٧]، ثم قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾[المطفِّفين:١٨]. ومنه نأخذ أن التَّقوى والبِرَّ إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، يعني أن البِرَّ كلمة إن ذُكرت وحدها، فهي شاملة للتقوى، والتقوى إن ذُكرت وحدها، فهي شاملة للبِرّ، وإن جُمعتا جميعًا، البِرُّ والتقوى، صار البِرُّ فعل الطاعة، والتقوى اجتناب المعصية، كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة:٢] يعني على فعل الطاعات، وترك المعاصي.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** إثبات خلق السماء والأرض، وأنها حادثة بعد العدم، وليس في الكون شيء يكون أزليًا أبديًا أبدًا. فالسموات ليست أزليةً، بل هي مُبتدَعَة، وسوف تفنى، وكذلك كل شيء سوف يفنى إلا ما استثنى الله عزَّ وجلَّ وخلقه للبقاء، مثل الأرواح، فإنها خُلقت للبقاء، ومثل ذلك ما في الجنة من النعيم والوِلدان والحور، وما أشبهها، فما دلَّ الكتابُ والسُنة على بقائه وأبديته، فهو باقٍ أبدي، ولكن كلُ شيء لا يمكن أن يكون أزليًا أي: ليس له أول إلا الله عز وجل.

٢ - **ومن فوائدها:** أن الذي خلقها هو الله؛ لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ﴾[الطور:٣٦] يتحداهم: هل هم الذين خلقوا السموات والأرض؟

٣ - **ومن فوائدها:** أن الله تعالى خلَقَها لحكمة عظيمة، ليس فيها سفه؛ لقوله: ﴿بَٰطِلًا﴾ فإن نفي خَلْقِها باطلًا يستلزم أنها خُلقت لحكمة عظيمة بالغة، وهو كذلك، وهذا فرد من أفراد مخلوقات الله عزَّ وجلَّ، فإن الله تعالى لم يخلق شيئًا عبثًا، ولم يُشرِّعْ شيئًا عبثًا، بل كل ما خلَقَه وشرَّعه الله ودَبَّره، فهو لحكمة عظيمة، أحيانًا نعرفها، وأحيانًا لا نعرفها.

٤ - **ومن فوائدها:** إثبات الحكمة في أفعال الله؛ لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ إذ لو انتفت الحكمة لأمكن أن تُخلق السماء والأرض باطلًا.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن لا أحد يظنُّ أن ذلك باطلًا إلا الكافر؛ لقوله:

﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

٦ – **ومن فوائدها:** أن من ظنَّ ذلك، فهو كافر.

والفرق بين الفائدتين: أن الفائدة الأولى يكون الكفر سابقًا، على هذا الظنّ، فيكون الكفرُ سببًا لهذا الظن.

أما الفائدة الثانية: أنَّ الظنَّ سابقٌ على الكُفر، فيكون هذا الظنُّ سببًا للكفر.

إذًا، لا يَظن أحد أن الله خلق السماء والأرض باطلًا إلا الكفار، وإذا ظنَّ أحد أن الله خلق ذلك باطلًا، صار كافرًا.

٧ – **ومن فوائدها:** إثبات الوعيد للكفَّار في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وأنهم سيدخلون النار، وهم أيضًا مُخلدون فيها أبدًا، كما ذكر الله تعالى ذلك في ثلاث آيات من كتاب الله في سورة النساء، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[النساء:١٦٨ - ١٦٩]، وفي سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[الأحزاب:٦٥]، وفي سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[الجن:٢٣].

وبعد هذه الآيات الثلاث، لا ينبغي أن يلحقَنا شكٌّ في أبدية النار، وإن قال ذلك من قاله من الناس؛ لأن هذا كلام الله، وهو خبر، والخبر في كتاب الله لا يمكن أن يَكْذِب، ولا يمكن أن يلحقه النَّسْخُ، فلا عبرة بقول مَن قال: إن النار لا تُؤبد، بل قوله مرفوض، باطل، مردود عليه، بدلالة القرآن الصريحة.

٨ – **من فوائد الآيات كلها:** أنَّ من جملة الحكمة، التي هي من صفات الله عزَّ وجل أنَّه لا يمكن أن يجعل المؤمن العامل للصالحات كالمفسد في الأرض؛ لأن ذلك ينافي الحكمةَ مُنافاةً بالغةً، لا يمكن أن يستوي المؤمنون والكافرون، كما لا يستوي الأعمى والبصير، قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود:٢٤].

٩ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أنَّ الإيمان والعملُ الصالح سبب لصلاح الأرض، وهذا يؤيده آيات كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[الأعراف:٩٦].

١٠ – **ومن فوائدها:** أن المعاصي سبب للفساد في الأرض؛ لأنه قابل هذا بالإيمان والعمل الصالح، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[الروم:٤١]، فكلُّ فسادٍ يحدث في الأرض من جدبٍ وفقر ومرض وفساد ثمار، وغير ذلك؛ فإنه بسبب المعاصي، بما كسبت أيدي الناس.

١١ - **ومن فوائدها:** أنَّ الله لا يمكن أن يجعل المُتَّقين كالفجار في مآلهم، فالمتقي في جنات النعيم، والفاجر في عذاب الجحيم ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾.



قال الله تعالى:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾.

﴿كِتَٰبٌ﴾ قال المؤلف: [خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا] والمُشارُ إليه القرآن الكريم.

وكتاب بمعنى: مكتوب. ووُصف القرآن بأنه كتاب لعدة أوجه:

الأول: أنَّه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾[البروج:٢٢].

الثاني: أنَّه مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾[عبس:١٦].

الثالث: أنَّه يُكتب في المصاحف، كما هو معروف، وربما يَدَّعي مُدَّعٍ أنه بمعنى مفروض على الأمة الإيمان به، والعمل به. فيكون هذا معنى رابعًا لكلمة (مكتوب).

وقوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ أنزله الله إلى مُحمد ﷺ، وإنزاله إلى محمد ﷺ من الله يدل على أنه كلام الله. ووجه ذلك: أن هذا الكتاب كلام، والكلام لا بد له من مُتكلِّم، فإذا كان الله هو الذي أنزله، لزِم أن يكون هو المتكلِّم به، فيكون في هذا إثبات أن القرآن كلام الله.

وأحيانًا يأتي التعبير بـ: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾[النحل: ٦٤، طه:٢] والجمع بينهما: أن «إلى» تفيد الغاية، أي: أن غاية هذا الإنزال إلى مُحمد ﷺ، و «على» تفيد الاستعلاء.

وذلك لأن هذا القرآن جاء من (عَلٍ)، أي: من فوق، من الله عزَّ وجلَّ، ثم إن في «على» إفادة التحمل للشيء.

أنزله عليك: يعني لتتحملَه، وتقوم به.

فالفرق إذًا من وجهين:

الوجه الأول: أن (إلى) تفيد الغاية، أي: أن غاية الإنزال إلى مُحمد ﷺ، لا يتعداه إلى غيره، ولا نبي بعده، وأما (على) فتفيد الاستعلاء، أي: أنه نزل إلى الرسول ﷺ من فوق، وتفيد أيضًا

التحمل لأنه نزل عليه كأنه فوقه، والشيء الذي فوقك لا بد أن تتحمله، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[المزَّمل:٥]، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾[الإنسان:٢٣ - ٢٤] مما يدلُّ على ثقله، وهو كذلك.

قال: ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ مبارك: صفة لكتاب. و ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أيضًا صفة لكتاب، هذا بناءً على إعراب المؤلف: أن ﴿كِتَابٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون ﴿كِتَابٌ﴾: مبتدأ، و ﴿مُبَارَكٌ﴾: خبره، وجملة ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ صفة لكتاب، وسوّغ الابتداء به وهو نكرة؛ وَصْفُهُ بجملة ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾.

وبركة القرآن من عدة أوجه:

١ - **الوجه الأول:** في الثواب الحاصل بتلاوته، فإنَّ من قرأ حرفًا واحدًا منه، فله بكل حرف عشر حسنات، وهذه بركة عظيمة.

٢ - **مبارك:** من حيث الأثر المُترتِّب على تلاوته، سواء كان عامًّا أم خاصًّا. فالخاصُّ ما يحصل للإنسان بتلاوة القرآن من انشراح الصدر، ونور القلب وطمأنينته، كما هو مُجرب لمن قرأ القرآن بتدبر. وأمَّا العام، فإن الله تعالى فتح بهذا القرآن مشارق الأرض ومغاربها، فإن المسلمين لما كانوا متمسكين بهذا الكتاب، سادوا العالم كلَّه، ولا شك أن هذا من البركة بهذا القرآن.

٣ - ما يحصل بهذا القرآن من اجتماع الكلمة، وحفظ اللغة الأصيلة للقوم الذين نزل بلغتهم، فمن المعلوم أن الناس إذا كانوا على لغةٍ واحدة، صاروا إلى الاجتماع أقرب، وإذا تفرَّقت لغاتهم، صاروا إلى التفرق أقرب؛ لأنه إذا اتفقت لغاتهم، استطاعوا أن يتفاهموا فيما بينهم، وأن يعرف بعضهم ما عند بعض، وإذا اختلفت اللغات لم تحصل هذه الفائدة، فهذا من بركة القرآن الكريم.

وله أوجه أخرى ربما لا نستطيع أن نستوعبها في هذا المكان، لكنَّها ظاهرةٌ لمن تأملها.

وقوله: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ هذه مُتعلِّقة بأنزلناه، يعني أنزلناه ليدبروا آياته، ليدبروا: اللام: لام التعليل، ويدبروا: فعل مضارع منصوب بأن مُضمرة بعد لام التعليل، والواو: فاعل والجار والمجرور مُتعلقان بـ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني: أنزلناه ليتدبروا آياته. والتدبُّر معناه التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، وتكرار اللفظ على القلب، مرة بعد مرة، حتى يتضح المعنى، أي معناه: التأمل في معاني القرآن، وترديد هذا التأمل، حتى يتضح ما فيه المعنى. وأصل هذه الكلمة: ليتدبَّروا، فأُدغِمت التاء في الدال، وإذا أُدغمت التاء في الدال جعلنا التاء دالًا، فصارت ليدَّبروا آياته، وقوله: ﴿آيَاتِهِ﴾ جمع آية، والآية هي ما تنتهي بفاصلة.

ومن حفظ الله لهذا القرآن أن آياتِه محفوظةٌ مُرقَمَّةٌ، أو محجوزة بعضها عن بعض، إلى يومنا هذا.

والآيات هي: العلامات، وهي علامات على أن هذا القرآن من عند الله عزَّ وجل بما تحويه من

اللفظ والمعنى.

ولهذا كانت الآية الواحدة مُعجزة للبشر، بل مُعجزة للخلق كلهم؛ لأنها آية من آيات الله.

قال المؤلف: [﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: ينظروا في معانيها، فيؤمنوا]. هذه حكمة من حِكم إنزال القرآن أن يتدبرَ الإنسان في الآيات، الثانية: قال: [﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾: يتعظ ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ أصحاب العقول] هذه فائدة ثانية، جعل التذكر بعد التدبر؛ لأنه لا يمكن أن يتعظ الإنسان بالشيء إلا إذا عرف المعنى الذي يتضمنه، فيتدبر أولًا، ثم يتذكر ثانيًا.

ففي المرحلة الأولى يقرأ الإنسانُ القرآن، وفي المرحلة الثانية يتدبَّره لفهم معانيه، ثم المرحلة الثالثة: يتعظ به، والاتعاظ بالقرآن هو التأثر به في القلب والجوارح.

والتأثر بالقلب: إخلاص العبد لله، وإنابته إليه، وتوكله عليه، وما أشبه ذلك من أعمال القلوب.

وتأثر الجوارح: القيام بطاعة الله بالجوارح الظاهرة مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم، وغير ذلك.

فالفائدة من إنزال هذا القرآن المبارك تتركز على شيئين، هما: التدبر والتذكر.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ أولو: بمعنى أصحاب، وهي مُلحقة بجمع المُذكر السالم؛ لأنه ليس لها مُفرد من لفظها، بل لها مُفرد من معناها. إذا قلنا: إنها بمعنى أصحاب، صار مُفردها من المعنى صاحِب، فأولو: جمع صاحب باعتبار المعنى.

وقوله: ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قال المؤلف: [أصحاب العقول] لأن صاحب العقل هو الذي يتعظ أما مَنْ لا عقل له، فإنه لا ينتفع بذلك.

والعقول هنا، هي عقول الرُّشد؛ لأن العقل عقلان: عقل إدراك، وعقل رُشد. فعقل الإدراك هو ما يتعلق به التكليف. وعقل الرشد ما يكون بحُسن التصرُّف. فالكفار مثلًا لهم عقول إدراك؛ لأن هذا هو الذي يتعلق به التكليف وليس لهم عقول رُشد؛ لأنهم لم يُحسنوا التصرف. وكل مَنْ لا يَحسُن التصرف، فإنه يصح أن يُنفى عنه العقل، قال تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[البقرة:٤٤] ونحن فيما بيننا إذا وجدنا شخصًا يُسيء التصرف، قلنا: إنه غير عاقل، وإن كان عاقلًا من حيث الإدراك، لكنَّه غير عاقل من حيث التصرف.

والعقل الذي يُمدح، هو عقل الرُشد. أما عقل الإدراك، فهذا يحصل لكل أحد، حتى الكفار والفُجَّار.

وقوله: ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ألباب: جمع لُبْ، ولُبِ كل شيء المقصود منه. فالحبَّةُ مثلًا لُبها كان بداخلها، المخ الذي بداخلها هو اللب، وما فوقه قشور، والبيضة الذي بداخلها هو اللب وما فوقه قشور.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** أن هذا القرآن كلام الله؛ لأن الله أضافه لنفسه في قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ والقرآن كلامٌ، وإذا أُضيف الكلام إلى أحد، لزم أن يكون صفةً له، لأن الكلام معنى لا يقوم إلا بغيره.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات علوِّ الله عزَّ وجلَّ لقوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾. والإنزال لا يكون إلا من العُلو. وقد قررنا هذا كثيرًا في عدة مجالس، قرْرنا علوَّ الله بذاته فوق خلقه، وبيَّنا أنه ثابتٌ بجميع أنواع الأدلة السمعية: الكتاب، والسُنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن القرآن كتاب، أي: مكتوب. وقد بينا أنه مكتوب في ثلاثة مواضع:

أ - اللوح المحفوظ.

ب - والكتب التي بأيدي الملائكة.

جـ - والكتب التي بأيدي الإنسان.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات رسالة النبي ﷺ بقوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** فضيلة رسول الله ﷺ حيث كان أهلًا لأن يُنزَّلَ عليه القرآن. والقرآن لا يُنزَّل إلا على من هو أهلٌ لإنزاله عليه لجمعه صفات الكمال البشرية.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن القرآن الكريم مُبارك، حسب الوجوه التي ذكرناه.

٧ - **ومن فوائدها:** الحث على العناية به والتزامه؛ لأنه إذا كان مُباركًا، فإن كل أحد من البشر يريد أن ينال بركة هذا الشيء المُبارك.

٨ - **ومن الفوائد:** أن القرآن يُستشفى به، كما دلَّت على ذلك آيات كثيرة أخرى، يُستشفى به من أمراض القلوب، ومن أمراض الأبدان؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[يونس:٥٧].

إذًا فمن بركة القرآن؛ أنه يُستشفى به من أمراض القلوب، ومن أمراض الأبدان.

والاستشفاء به من أمراض الأبدان يقع على وجوه متنوعة:

أ - منها: **أن يُقرأ على المريض به،** كقراءة الفاتحة على المريض، فإنها مُفيدة جدًا.

ب - ومنها: **أن يُكتب في إناء ويُصبُّ عليه الماء، ويُدار عليه الماء حتى يتغير بهذه الكتابة، ثم يُشرب،** وهذا مُجرَّب.

جـ - ومنها - على رأي بعض العلماء من السلف والخلف -: **أن يُعلَّق بصفة تميمة،** أي: يُكتب في جلد أو ما شابهه، ثم يُعلَّق على المريض، فإن هذا قد اختلف فيه السلف، فرخَّصَ فيه بعضُهم، ومنعه بعضُهم. ومن رخَّص فيه، استدلَّ بعموم الأدلة الدالة على أن القرآن فيه الشفاء.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن من أعظم الحِكَم في إنزال القرآن؛ تدبر القرآن، لقوله تعالى: ﴿لِيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ﴾.

١٠ - **ومن فوائدها:** حثُّ الإنسان على تدبُّرِ الآيات. وأن لا يُقرأ القرآن قراءةً لفظيةً فقط، فإن الله تعالى قد ذمَّ هذا الجنس من الناس، أعني الذين يقرؤونه قراءةً لفظيةً، فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾[البقرة:٧٨]. ﴿أَمَانِىَّ﴾: يعني قراءة لفظية فقط، فوصفهم الله بأنهم أميُّون لأنهم لم ينتفعوا بالقرآن، إذ لا يمكن أن يُنتفع بالقرآن إلا بفهم معانيه. فإذا لم تُفهم معانيه، صار العربيُّ والعجميُّ على حدٍّ سواء.

١١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن تدبُّر القرآن فرض؛ لأن العمل بالقرآن فرض، ولا يَتِمُّ العمل إلا بالتدبُّر، وما لا يتم الفرضُ إلا به، فهو فرض.

ولكن هل التدبر فرض عين، أم فرض كفاية؟ حسب الحال. قد يكون فرض عين، وقد يكون فرض كفاية، فما لا يتمُّ دينُ العبد إلا به، فهو فرض عين، وما زاد على ذلك، فهو فرض كفاية. ولا بد أن يكون في الأمة الإسلامية مَنْ يفهم القرآن.

١٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنَّ القرآن كله آيات دالة على المتكلِّمِ به سبحانه وتعالى؛ ولهذا قال: ﴿لِيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ ولم يقل: آيات منه، أو عشر آيات، بل كل الآيات.

١٣ - **ومن الفوائد أيضًا:** أنَّ مِنْ أعظم ما نزل القرآن لأجله: التذكر؛ لقوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾.

١٤ - **ومن فوائدها:** أن القرآن الكريم نزل موعظةً للناس، كما قال الله تعالى في آياتٍ أخرى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[يونس:٥٧] وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء:٥٨] فالقرآن نزل ليُؤثِّر، ولم ينزل ليَتَبَرَّكَ الإنسانُ بقراءته، أو ينالَ الأجر بقراءته فقط، هذا سهل، ولكن لا بد أن يؤثر تذكرًا وموعظة.

١٥ - **ومن فوائد الآية:** أنه لا يتذكر بالقرآن إلا أصحابُ العقول؛ لقوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

١٦ - **من فوائدها:** أن من تذكَّر بالقرآن، فهو صاحب عقلٍ، ومَنْ لم يتذكر، فليس له عقل رشد؛ وجه ذلك أن الله جعل التذكر لمن اتصفوا بالعقول.

١٧ - **ومن فوائدها:** أن لُب الإنسان وروحه هو العقل؛ عقل الرُشد لأن الله تعالى سمى هذه العقول ألباب، جمع لُب، كأسباب: جمع سبب.



قال الله تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص:٣٠-٣٣]

التفسير

قال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ﴾ وهبنا: أعطينا. ووصف الله ذلك بأنه هبة؛ لأنه محض فضل منه لا يحتاج منا إلى شيء. قال الله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾[الشورى:٤٩ - ٥٠] إذًا وهبْنا لداود: أعطيناه هبة فضلًا منا.

وقوله: ﴿سُلَيْمَانَ﴾ لم يُنوَّن، لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، ولزيادة الألف والنون.

وداود: ممنوع من الصرف للعجمية والعلمية. قال المؤلف: [﴿سُلَيْمَانَ﴾ ابنه]، من أين عرف المؤلف أنه ابنه؟ ألَّا يجوز أن يكون المراد وهبْنا لداود سليمان يعني خادمه؟ الجواب: لا؛ لأن الله سبحانه وتعالى سمى الأولاد هبة في قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ يعني: يُصنِّفهم ذُكرانًا وإناثًا ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾[الشورى:٥٠].

قال: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ أي: سليمان، ونعم: فعل ماضٍ جامد لإنشاء المدح، والجملة أُتي بها للمدح والثناء، وعلى نقيضها (بئس) فإنَّها كلمة لإنشاء الذم.

وقوله: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ المعروف أن (نعم أو بئس) تحتاج إلى فاعل، ومخصوص بالمدح في (نعم)، والذم في (بئس)، ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ العبد: هو الفاعل، نعم في الماضي والعبد فاعل والمخصوص بالمدح: إما أن نقدره اسمًا ظاهرًا، أو ضميرًا.

وقوله: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ هذا سبب ثناء الله عزَّ وجلَّ على سُليمان ﴿إِنَّهُ﴾ أي: سليمان.

﴿أَوَّابٌ﴾ أي: رجَّاع إلى الله عزَّ وجلَّ، سواء كان ذلك بترجيع الصوت بالذِّكْر، أو بالرجوع إلى طاعة الله عزَّ وجلَّ.

والظاهر: أنَّ الآيةَ شاملة للمعنيين: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجَّاع إلى طاعة الله، و ﴿أَوَّابٌ﴾ رجَّاع بالتسبيح، أي: يُرجِّع الصوت به ويُردِّدُه.

يقول المؤلف - رحمه الله -: [رجَّاع بالتسبيح والذكر في جميع الأوقات] ولكنَّ الصحيح أنَّه

أعمّ مما قال المؤلف؛ أنه رجّاع بالتسبيح والذكر، وكذلك رجّاع إلى الله بالتوبة والطاعة.

وقوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾.

وقوله: ﴿عُرِضَ﴾ العارض، أبهمه للتفخيم؛ لأن الفعل هنا مبني للمجهول. يعني كأنَّه يوحي بأن له جنودًا كثيرة يعرضون عليه ما يعرضون.

وقوله: ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ هو ما بعد الزَّوال إلى غروب الشمس، وقوله: ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ الباء هنا للظرفية؛ أي: فيه، ولكن الغالب أن الباء إذا جاءت في مكان «في» أنها تكون مستوعبة لجميع الوقت، كأن العشي صار كله مُستوعبًا؛ لهذا العرض، لكثرة الخيول التي تُعرض عليه.

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ الصافنات مرفوعة وهي نائب فاعل ﴿عُرِضَ﴾. فإذا قال قائل: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ جمع، والفعل مذكر ﴿عُرِضَ﴾ وهذا جمع ذات حِرٍ، يعني جمع مؤنث حقيقي، وابن مالك يقول في تاء التأنيث:

وتاءُ تأنيثٍ تلِي الماضي إذا ... كان لأنثى كأبَت هندُ الأذى
وإنَّما تَلزمُ فعلَ مُضمَرِ ... مُتَّصِلٍ أو مُفْهِمِ ذاتَ حِرِ

نقول: إنما لم يجب التأنيث لوجود الفاصل، وهو قوله: ﴿عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ﴾.

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ قال المؤلف: [الخيل، جمع صافنة، وهي القائمة على ثلاث، وإقامة الأخرى على طرف الحافر، وهو من صَفَنَ يَصْفِنُ صُفونًا].

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ هي: الخيل تقوم على ثلاث أرجل، وترفع الرابعة قليلًا، بحيث يكون طرف الحافر على الأرض، وهذا يدل على قوتها. وهو أيضًا من ناحية الجمال أجمل عند رؤيتها. ولو تصوَّرتَ الخيل مصفوفة صافنة، لكان لها أُبهّة، وتشعر بشيءٍ من العَظَمة من هذا المشهد الذي تُشاهده.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْجِيَادُ﴾ قال المؤلف: [جمع جواد، وهو السابق، المعنى: أنها إذا استُوقِفَت سكنت، وإن ركضت سبقت] يعني: أنَّ هذه الخيل التي عُرضت عليه موصوفة بهذين الوصفين: أنَّها من الصوافن، وأنها من الجياد؛ فهي إذا استُوقِفت وقفت على أحسن هيئة، وهو الصّفون، وإذا ركضتْ؛ ركضتْ على أكمل هيئة، وهي الجود. جيدة في السَّبق، وتتحمل المشاق، ولو طال السير، وهذا غاية ما يكون من جمال الخيل؛ أن تكون هيئتُها حين الوقوف مما يسر النفس، وأن يكون فعلها وأداؤها حين السير مما ينفع؛ لكونها من ذوات الجود.

وقول المؤلف: [كانت ألف فرس، عُرِضَتْ عليه، بعد أن صلَّى الظهر؛ لإرادته جهاد العدوِّ عليها، فعند بلوغ العرض منها تسع مئة، غربت الشمس، ولم يكن صلى العصر، فاغتم].

تقديره هذه الخيل بألف فرس يحتاج إلى دليل عن معصوم، عن النبي ﷺ، وليس هناك دليل عن رسول الله ﷺ بأنها ألف أو ألفان أو أقل أو أكثر؛ وحينئذٍ تكون مسؤوليتنا أن نقفَ حيثُ

يقف القرآن، فلا نُحددها بألف ولا بأكثر ولا بأقل، إنما هو عُرضت عليه في آخر النهار هذه الخيول الصافنات الجياد، فلما عرضت عليه نسي أن يُصلِّي لقوة ما في قلبه من التعلق بهذه الخيول التي أعدَّها للجهاد في سبيل الله، أو أعدها للزينة والتمتع؛ لأن سليمان كان من الأنبياء الملوك، قال تعالى: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾[ص:٣٥].

والملوك من عادتهم أن يُسرّوا ويبتهجوا بالنظر إلى الخيول، وسواء كان أعدَّها للجهاد إن كان قد أُمِر به، أو أعدها للتمتع بها بصفته أنه ملك ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾.
أحببت، أي: أردت، حب الخير. يعني محبة الخير، والخير يُطلَق على المال عمومًا، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[العاديات:٨] أي: لحب المال، والدَّليل على أن الخير هو المال قولُه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾[البقرة:١٨٠].

فقوله: ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: حب المال، وتفسير المؤلف - رحمه الله - لهذا الخير بالخيل أخصّ من دلالة اللفظ، وقد مرَّ علينا أنه لا يجوز أن يُفسر اللفظ الأعمَّ بالمعنى الأخصَّ؛ لأن هذا قصور في التفسير، لكن قد يكون عُذر المؤلف أن السياق في الخيل، فيكون حمله لهذا العامّ على الخاصّ بقرينة السياق.

وهنا إشكال، وهو قوله: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ هل الحب يُحب، أي: لو قال قائل: لماذا لم تكن الآية: إني أحببت الخير، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[العاديات:٨]؟

لقد أوَّل المؤلف - رحمه الله - المحبَّة التي جاءت بلفظ الفعل بالإرادة فقال: [﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ﴾ أي: أردْت ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾] لكنه - رحمه الله - وإن تخلص من تضارب اللفظ لم يتخلص من فساد المعنى؛ لأنه إذا قال: أردت ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ فالمراد قد يحصل، وقد لا يحصل مع أن حبَّه حاصل.

والجواب أن نقول: إن ﴿أَحْبَبْتُ﴾ الأولى على بابها و ﴿حُبَّ﴾ الثانية على بابها من باب التوكيد، كأنه أحب حُب الخير فضلًا عن الخيل، ومن أحب حب الشيء لزم أن يكون مُحبًا للشيء، كما لو قلت: أنا أحب أن أحب فلانًا، أو أنا أحب أن أحب قراءة الكتاب الفلاني، فيكون هذا من باب التوكيد، كأنه كرر المحبة مرتين، وبهذا نتخلص من الإيراد الذي يَرِدُ على تفسير المؤلف - رحمه الله -.

وقوله تعالى: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾، قال المؤلف: [أي: صلاة العصر]، وهذا أيضًا فيه تفسير للعام بما هو أخصّ، وهو قصور في التفسير؛ وذلك لأن الذكر أعمّ من الصلاة، فكلُّ صلاةٍ ذكر، وليس كلُّ ذكرٍ صلاة، إذًا إذا فسَّرْنا الذكر بالصلاة فقد فسَّرْنا الأعمّ بالأخصّ، وهذا قصور، لكن ربما يُعتذر عن المؤلف بسياق الآية، ولكن هذا العذر لا يُقبل؛ من الذي يقول: إن سليمان أراد بذكر ربه صلاة العصر؟ إذ قد يكون أنه أراد ذكر الله في المساء؛ لأن المساء له أذكار مُعيَّنة، وتكون صلاة

العصر داخلة في هذا الذكر، وهذا هو الصحيح، أن المراد بالذكر في قوله: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ عموم الذكر، الذي يدخل فيه صلاة العصر.

وقوله: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ يشمل التَّذكُرَ الذي هو ذكر القلب، ويشمل القول الذي هو ذكر اللسان، ويشمل الفعل الذي هو أفعال الجوارح، وإذا أدخلنا صلاة العصر في هذا؛ لأن صلاة العصر تشتمل على أنواع الذكر الثلاثة، فيها ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وذكر بالجوارح.

وقوله: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ في إضافة الربوبية إلى الله، استعطاف من سليمان لله عزَّ وجلَّ حيث أذعن له في الربوبية التي تقتضي أن يكون مشغولًا بذكره سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ استشكل بعضُ العلماء تعدِّي الفعل بـ «عن».

قيل: إن «عن» تعني البدلية هنا، أي: بدل ذكر ربي، وقال بعض العلماء: إن ﴿أَحْبَبْتُ﴾ ضُمِّن معنى آثرت، أي: آثرت حب الخير عن ذكر ربي. ومرّ علينا فيما سبق أنّه إذا جِيء بمُتعلِّق لا يُناسب المتعلَّق ظاهرًا فإن لعلماء النحو في ذلك قولين:

الأول: تضمين المتعلَّق معنى يُناسب المتعلِّق.

والثاني: أن يضمَّن الحرفُ الذي لا يُناسب المتعلَّق حرفًا يناسب المتعلَّق. وذكرنا أن الأولى أن يكون التجوّز بالفعل.

قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ قال المؤلف: [أي: الشمس ﴿بِٱلْحِجَابِ ٣٢﴾ أي: استترتْ بما يحجِبُها عن الأبصار].

إذا قال قائل: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ الفاعل ضمير مستتر، والشمس لم يسبق لها ذِكْرٌ، فلماذا لا يُقال: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ أي: الخيل ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾ يعني أنها أُبعدت حتى استترت عنه، وكأنه شُغل بالنظر إليها، وهي تتطارد وتتسابق حتى وصلت إلى مسافة بعيدة بحيث غابت عنه؟

نقول: لا شك أنه معنى مُحتمل في الآية: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ أي: هذه الخيول أُبعِدَت واستُتِرَت. ولكن وردت أحاديثُ تؤيد ما ذهب إليه المؤلف من أن التي توارت هي الشمس. ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾ أي: بما يحجبها عن الأبصار.

فما هو هذا الحجاب؟ الحجاب هو الأرض، كما قال الله تعالى عن ذي القرنين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾[الكهف:٨٦] أي: في البحر، إذًا، الذي يسترها إذا غابت هي الأرض؛ لأن الأرض كروية الشكل؛ إذا دارت الشمس عليها ووصلت الجانب المُنحني؛ لا بد أن تغيب، وهكذا تغيب عن كل قوم شيئًا فشيئًا، حتى تطلع على مَنْ غابت عنهم أولًا.

ثم قال تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾.

قوله: ﴿رُدُّوهَا﴾ الضمير راجع إلى الخيل التي عُرِضت عليه. أمر أن تُردَّ عليه، وترجع عليه مرة ثانية، من أجل أن يقضي عليها غضبًا لله عزَّ وجلَّ، وتنكيلًا لنفسه التي تعلَّقت بهذه الخيول،

وأعرضت بها عن ذكر الله. ﴿فَطَفِقَ﴾، طفق: فعل ماضٍ من أفعال الشروع، ويكون خبرها فعلًا. وبناءً على ذلك فإن قوله: ﴿مَسْحًا﴾ ليست خبرًا لها، بل مصدرًا (مفعولًا مُطلقًا) للفعل المحذوف الذي هو الخبر، والتقدير: فطفق يمسح مسحًا، والجملة: خبر طفق.

وقوله: ﴿مَسْحًا بِالسُّوقِ﴾ يعني يضربها مع سوقها جمع ساق و ﴿وَالْأَعْنَاقِ﴾ مع العنق؛ لأن الخيل تتعلق بها النفس، باعتبار المشي، وباعتبار الصفون عند الوقوف، وباعتبار الرقبة وطولها، وما عليها من الشعر وحُسن العنق وهو دالٌّ على فراهتها؛ ولهذا ضرب عليه الصلاة والسلام مواقع الحُسن في الخيل، وهي سوقها وأعناقها.

يقول المؤلف - رحمه الله -: [ذبحها وقطع أرجلها تقربًا إلى الله حيث اشتغل بها عن الصلاة، وتصدَّق بلحمها فعوضه الله خيرًا منها وأسرع وهي الريح تجري بأمره كيف شاء] يُحتمل ما قالها لمؤلف، ويُحتمل أنه لم يتصدق بها؛ لأنه ذبحها تقربًا إلى الله تعالى بإتلافها، وما كان كذلك فإنه لا يُؤكل. وعلى كل حال يُحتمل أن سُليمان تصدق بها كما قال المؤلف، أو أكلها، أو تركها، والله أعلم.

الفوائد:

١ - أن الأولاد هبة من الله عزَّ وجلَّ للعبد، ويتفرع على ذلك أنه يجب على العبد شكرُ الله على هذه النعمة.

٢ - الثناء على سليمان في قوله: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ والعبودية هنا: العبودية الخاصة.

٣ - إثبات العلل والأسباب لقوله: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾؛ فإن هذا هو سبب الثناء عليه.

٤ - فضيلة الأوبة إلى الله عزَّ وجلَّ، والرجوع إليه بالقلب والعمل؛ لأن الله أثنى على سُليمان بسبب ذلك.

٥ - **من فوائد هذه الآية:** ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١)﴾ بيانُ عظمةِ مُلك سليمان عليه السلام، حيث كان الناس يُعرِضون عليه هذه الخيول للتمتُّعِ بها، ومن أجل الاطِّلاع عليها وتفقدها؛ ووجه ذلك أنه قال: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾.

وهذا يدلُّ على أنَّ هناك أُناسًا يُعرِضون عليه هذه الخيول.

٦ - أنَّ هذه العادة، وهي عَرْضُ الخيول والتمتُّع بجريها في آخر النهار، عادة قديمة ما زال الناس عليها إلى اليوم. يعني لا تكاد تجد أحدًا يُجري مسابقة على الخيل في أول النهار إنما يكون في آخر النهار؛ وهذا من العادات القديمة في الناس إلى اليوم.

٧ - أنه ينبغي اختيار الخيل الجيدة الجميلة، التي تَسُرُّ النفس في رؤيتها، وفي جريها لقوله: ﴿الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾.

٨ - ينبغي اقتناء الخيل؛ حيث كان هذا من دأب الرسل عليهم الصلاة والسلام. وقد قال

الرسول ﷺ: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة»[1]. فمتى كانت الخيل أداة حرب، فالخير في نواصيها إلى يوم القيامة.

٩ - ذكر أنموذج من وصف سليمان عليه السلام بالأوّاب، حيث قال: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾.

١٠ - أن المال خير، وهو كذلك؛ لأن الإنسان إذا رُزق المالَ تمكَّن من أن يتمتع تمتعًا كاملًا فيما يختص بالمال، بخلاف إذا ما ضُيِّق عليه المال، فإنه لا يستطيع أن يتمتع.

١١ - أن الإعراض عن ذكر الله بأمور الدنيا أمرٌ مذمومٌ؛ لأن سليمان عليه الصلاة والسلام وَبَّخ نَفْسَه في كونه أحبَّ الخير وقدَّمه على ذكر الله.

١٢ - إثبات أن الشمس تجري دائمًا، وليست تغيب بمعنى أنها تَحتَجب عن الأنظار في السماء؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾.

١٣ - إثبات أن الشمس هي التي تدور على الأرض في طلوعها وغروبها؛ لأنه أضاف الفعل إليها فقال: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ ولو كان الأمر كما يقول أهل الجغرافيا اليوم: إن الأرض هي التي تدور وتحتجب الشمس بسبب دورانها لقال: حتى تواريْنا بحجاب، أو حتى توارى بالحجاب؛ لأنه إذا كنت أنت الذي تدور، ومقابلك ثابت؛ فالذي يتوارى هو الدائر.

فإذا كان الله تعالى أثبتَ أنَّ التواري للشمس، دلَّ هذا على أنها هي التي تدور، وهذا كقوله: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾[الكهف:١٧]، وهذه أربعة أفعال أُضِيفت كلها إلى الشمس.

وفي الصحيح عن أبي ذر ﵁ أنه كان مع النبي ﷺ حين غربت الشمس، قال له: «أتدري أينَ تذهب؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تسجدُ تحت العرشِ، فتستأذن، فإن أُذن لها وإلا قيل: فارجعي من حيثُ جئتِ، فتخرجُ من مغربها»[2]. هذا هو ظاهر القرآن. والواجب على المؤمن أن يتَّبع ظاهرَ القرآن؛ لأن هذا هو الطريق في كل شيء، كما في أسماء الله وصفاته نتبع ظاهر القرآن؛ وكما في الأحكام الشرعية نتبع ظاهر القرآن. إذًا في الأمور الكونية نتبع ظاهر القرآن، لأن ظاهر القرآن صدر من الخالق العليم، فهو أعلم مِن خَلْقِه بخَلْقِه، قال الله تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾[الكهف:٥١] فإذا كان هذا صادرًا من رب العالمين، يجب علينا أن نصدقه.

فالواجب علينا إذًا إجراء ظواهر الكتاب والسُنة على ما هي عليه حتى يقوم لنا دليلٌ حسي واضح يبين أن اللفظ ليس على ظاهره، فلو فُرض أنه تبيَّن تبينًا واضحًا مثل الشمس، أن الأرض

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٥٠)، ومسلم (١٨٧٣).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩).

هي التي تدور، فإننا نقول: عبّر بهذه الأفعال التي ظاهرها أن الشمس هي التي تدور باعتبار ما نشاهد، فتكون غربت باعتبار مشاهدتنا؛ لأن المُشاهَدَ المحسوس حسب الأمر الظاهر لعامة الناس أن الأرض ثابتةٌ والشمس تدور عليها، فيكون التعبير بحسب ما يُشاهد الناس في الظاهر ولكن لا نحتاج إلى تأويل الآيات إلا إذا ثبت ثبوتًا حسّيًا قطعيًا لا إشكال فيه؛ لأن الظاهر دلالته ظنية، ولا يمكن زحزحة هذه الدلالة إلا بدليل قطعي يكون أقوى منها.

١٤ - **ومن فوائد الآية:** أن الأرض كروية؛ لأنه لما أثبت أنها تتوارى بالحجاب، دل هذا على أن الأرض هي التي تحجبها، وهي كما نُشاهد تنزل شيئًا فشيئًا حتى تكون في الأرض فيدلُّ ذلك على أن الأرض كروية، وهذا أيضًا أمر مقطوع به ولا إشكال فيه، فهو ظاهر من القرآن، وظاهر في الواقع، ففي القرآن يقول الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾[الانشقاق: ٤]. ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢﴾ وذلك يكون يوم القيامة، فقوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣﴾ يدل على أنها قبل هذا ليست ممدودة، بل هي كروية، وهذا لا يُعارض قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾[الغاشية: ٢٠]؛ لأن سطحها باعتبار المشاهدة، فأنت الآن إذا وقفت على الأرض تجدها مستوية إلى مد البصر.

١٥ - **ومن فوائد الآية في قوله:** ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ۝٣٣﴾: جواز التعزير بإتلاف المال، وهذه مسألة اختلف فيها الفقهاء، هل يجوز أن نعزر الإنسان بإتلاف ماله؟ أو لا يجوز؟ فمن العلماء من قال: إنه لا يجوز؛ لأن إتلاف المال إفساد له، ويمكن أن نعزره بأخذ المال دون إتلافه. نأخذه منه وننفقه في جهةٍ نافعة.

ومنهم من قال: بل إن ذلك جائز، واستدلوا لذلك بأن الغالَّ من الغنيمة الذي يكتم ما غنم يُحرَّق رحلُه، وهذا إتلاف له، مع أن الجيش قد يكون فيه حاجة إلى ماله، ومع هذا أُتلف، وهذا هو القول الراجح: أنه يجوز التعزير بإتلاف المال؛ أولًا: لدلالة السُنة على ذلك. ثانيًا: لأن إتلافه أنكى وأعظم أثرًا؛ لأنه لو أُخذ وجُعل في مصالح صار التنكيل خفيًا، ثم قد يكون فتَح بابًا للولاة الظلمة إذا أرادوا المال أقاموا دعوى على شخص ما ثم قالوا: نعزره بأخذ ماله، ثم يأخذون ماله على أن يكون في بيت المال، ولكنه سيكون في جيوب هؤلاء الظلمة، فإذا قلنا: بأنه يُحرق ويُتلف أمام الناس، زال هذا المحظور، وبناءً على ذلك إذا وجدنا مع الإنسان آلة لهو تصلح أن تُستخدم في غير اللهو، وعزرناه بتكسيرها. كان ذلك سائغًا ولا نقول: حوِّلها إلى آلة غير آلة اللهو؛ لأن إتلافها أمام الناس أنكى وأشد مما لو أتلفت بإنفاقها في جهةٍ ما.

١٦ - **ومن فوائد الآية:** أنَّ الإنسان لا بأس أن يُعزِّر نفسه بإتلاف ماله بنفسه لفعل سليمان عليه الصلاة والسلام. فلو فرضْنا أن الإنسان اشتغل بشيء معه عن ذكر الله تعالى وأراد أن

يكسره، لكان ذلك سائغًا جائزًا؛ لأن هذا يؤدي إلى ألَّا يعود مرةً أخرى إلى التشاغل عن ذكر الله عزَّ وجلَّ بشيءٍ من المال.

١٧ - **ومن فوائد هذه الآية:** قوة سلطان سليمان عليه الصلاة والسلام في أمره ونهيه لقوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ فإن هذا يدلُّ على أنَّ له جنودًا كثيرة تأتمر بأمره، إذ لم يقل: رُدَّها، لو قال: رُدَّها، لكان الخادم واحدًا، لكن لما قال: ﴿رُدُّوهَا﴾ دلَّ على أن له جنودًا وخدمًا كثيرون يخدموه.

١٨ - **ومن فوائدها:** سرعة مبادرة سليمان عليه السلام في تنفيذ ما أراد من إتلاف هذا المال لقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

قد يقول قائل: أليس في هذا تعذيب للحيوان إذا جعل يضرب سوقه بالسيف، فيُقال: بلى، ولكن الظاهر أنه يعقرها أولًا، ثم يقطع عنقها ثانيًا، وهذا لا بأس به؛ لأن الآلم لا يدوم. وإنما خصَّ السوق بالضرب؛ لأنها صافنات، والصافنة إذا رفعت حافرها بعض الشيء، صار لسوقها منظر جميل، فهو مُتعلَّق الرغبة؛ ولهذا جعل يضرب السوق، وأما الأعناق فظاهر من أجل إتلافها نهائيًا.



قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٣٤-٤٠]

التفسير

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ هذه الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات وهي القسم المُقدَّر، واللام المؤكِّدة للقسم، والثالث قد في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾. ﴿فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾، أي: اختبرْناه، والضمير في ﴿فَتَنَّا﴾ يعود على الرب عزَّ وجلَّ، وجاء بضمير الجمع تعظيمًا، لا تعديدًا؛ لأن الله سبحانه وتعالى واحد، ولكنه تارةً يُعبِّر عن نفسه بلفظ الإفراد، وتارةً يُعبِّر عن نفسه بلفظ الجمع، ولم يُبين سبحانه وتعالى هذه الفتنة، لا عينها ولا نوعها، ولهذا ينبغي لنا أن نُبهم ما أبهمه الله، ونُجمل ما أجمله، ونعلم أنه إذا كان هنالك فائدة لنا في تعيين ما أبهمه لذكره؛ لأن الله تعالى

يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[النحل:٨٩] فكل شيء فيه مصلحة لا بد أن يُبينه الله عزَّ وجلَّ لنا، ولهذا نقول: إن هذه الفتنة إذا سألَنا سائل: ما نوعُها، وما عينُها؟ نقول: الله أعلم؛ لأن الله تعالى لم يُبيِّنها لنا، ولم تَرد في خبر عن معصوم، فوجب علينا أن نسكت.

وأما ما ذُكر في هذا الموضع من الإسرائيليات؛ فإنها إسرائيليات كاذبة لا تليق بمقام النبوة، ولكن الإسرائيليون أتوا بها لأنهم لا يعتقدون أن داود وسليمان رسولان، بل يعتقدون أنهما ملكان، والملك يجوز عليه كل شيء.

يقول المؤلف: [﴿فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾: ابتليناه بسلب مُلكه] ثم بدأ المؤلف بذكر القصة الإسرائيلية بسلْب مُلكه؛ وذلك لتزوجه بامرأة هواها، وكانت تعبد الأصنام – نسأل الله العافية –، هم جعلوا داود وسليمان كليهما عشيقين، ليس لهما هم إلا النساء. وداود، – كما قالوا – أراد أن يتزوَّج امرأة شخص، وكان عنده تسع وتسعون امرأة، فأراد أن يكمل المئة.

أما سليمان فيقول حسب القصة الكاذبة: إنه هوى امرأة وعشقها، وكانت تعبد الأصنام في داره من غير علمه إذن صارت الدار دارَ كفر وشرك، وهذا نقطع بأنه كذب؛ لأنه لو كان كذلك لبيَّنه الله عزَّ وجلَّ كما بيَّنه في قصة امرأتي نوح ولوط.

وقال: [وكان مُلكُه في خاتمه، فنزعه عند إرادة الخلاء، ووضعه عند امرأته المُسماة بالأمينة على عادته، فجاءها جِنيٌّ في صورة سليمان، فأخذه منها]. ومما يدل على كذبِ هذه القصة قولهم: (فإذا أراد دخول الخلاء، نزعه) لماذا ينزعه؟ واسم سليمان ليس فيه لفظ الجلالة حتى يقول قائل: إنه تحرَّزَ من الدخول بشيء فيه ذكر الله، وأيضًا يضعه عند امرأته المُسماة بالأمينة على عادته. وهذا أيضًا يدل على كذب القصة.

ثانيًا: كيف يكون المُلك في الخاتم فقط؟

ثالثًا: إذا كان مُلكه في خاتمه فهل يمكن أن يُفرِّط فيه هذا التفريط، يُلقيه عند امرأة. وقد يقول قائل: إنها أمينة. ولكن نقول: ما هو الدليل على هذا؟ [فجاءها جنيّ في صورة سليمان، فأخذه منها] فلما أخذ الخاتم، صار سليمان بلا مُلك؛ لأنَّ المُلك يتبع هذا الخاتم.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾، قال المؤلف: [هو ذلك الجِنيَّ، وهو صخر أو غيره، جلس على كرسي سليمان، وعكفت عليه الطير وغيرها، فخرج سليمان في غير هيئته، فرآه على كرسيه، وقال للناس: أنا سليمان، فأنكروه]. لما جاء وجد هذا الجني المُسمى بصخر أو غيره على الكرسي، فجعل يقول للناس: أنا سليمان، ويقولون له: لست سليمان؛ لأن سليمان جالس على كرسي المُلك، فأما أنت، فلستَ سليمان. فكيف ستكون حسرته؟ لا بد أن تكون حسرةً شديدةً وهذا هو القول الأول.

وقال بعض العلماء: إن الله سلط شيطانًا دون أخذ الخاتم وبقطع النظر عن كون المُلك في

الخاتم، وأنه أعطاه امرأته، وأن الجِنِّي جاءها، وأخذه منها، يقول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ يعني في غيبة سليمان؛ لأن سليمان ليس دائمًا على الكرسي، ولكنَّ الله تعالى سلط عليه شيطانًا، جلس على الكرسي، جعل يُدبِّر شئون الدولة، وسليمان لما جاء إلى مكان جلوسه وجده مشغولًا بهذا العفريت، وعجز عن إنزاله عن الكرسي، وعن تولي تدبير شئون الدولة، فعرف أنه مفتون، وأن الله تعالى سلط عليه هذا الشيطان ليختبرَه. هذا قول بعض العلماء.

وقد رُوي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه شيطان، ولكن ابن عباس - كما هو معلوم - كان قد أخذ عن بني إسرائيل كثيرًا، وربما يكون هذا مما أخذه.

والقول الثالث: أنَّ الجسَدَ هو شقُّ الولد، الذي اختبر الله تعالى به سليمان عليه السلام، حيث قال: «لأطوفنَّ الليلةَ على تسعين امرأةً تلد كل واحدة منهن غُلامًا يُقاتل في سبيل الله». حلف أن يطوف - يعني يُجامع تسعين امرأة - وأنَّ كل امرأة تلد غلامًا يُقاتل في سبيل الله، فقال له المَلَكُ: قل: إن شاء الله، فلم يقل اعتمادًا على ما في نفسه من العزم على تنفيذ ما أراد، فنفذ ما أراد، وجامع تسعين امرأة، ولكن ما أراده لم يتمكن منه، وهو أن تلد كل امرأة غلامًا يُقاتل في سبيل الله؛ لأن إرادة الله هي النافذة، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة، فولدت شقَّ إنسان[1]؛ لأجل أن يعرف سليمان وغيره أن الأمر بيد الله، وأنَّهُ لا يجوز أن يتألَّى أحد على ربه سبحانه وتعالى.

يقول بعض المفسرين: إن هذا الولد هو الجسد؛ لأن هذا الولد ليس كامل التدبير، نصف إنسان كيف يُدبِّر؟ هذا هو الذي أُلقي على الكرسي ففتن به سليمان عليه السلام.

القول الرابع: أن قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ يعني بها سليمان نفسه، أي: ألقيْناه هو نفسه على الكرسي جسدًا، والجسدُ هو الذي لا يُدبِّر، وليس عنده تفكير، أي: أن الله سلبَ من سليمان تفكيرَه الذي يُدبِّر به شئون مملكته فصار لا يُحسن التدبير، ومَنْ لا يُحسن التدبير كالجسد بلا روح، فيكون المُراد بالجسد سليمان نفسه، ويكون تقدير الكلام: وألقيْناه جسدًا على كرسيه لا يُحسن التدبير، وهذا أيضًا قريب، أنَّ الله تعالى يسلب عن الإنسان عقله وتفكيره حتى يكون جسدًا بلا روح، ومن المعلوم أن مملكةً عظيمةً كمملكة سليمان إذا فُقد منها المُدبِّر سوف تتخلخل وتتزعزع.

فهذه أربعة أقوال في معنى قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾.

أما ما ذكره المؤلف فهو باطل بلا شك، وأمَّا ما ذكر من أنه الولد الشق فالظاهر أنه ضعيف.

بقي عندنا قولان:

الأول: أنه شيطان سُلِّط على كرسي سليمان فبقي فيه، وصار يُدبِّر شئون مملكته.

والثاني: أنه سليمان نفسُه سَلَبَ الله منه التفكير وتدبير شئون المملكة فصار لا يُحسن التدبير.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٢٤)، ومسلم (١٦٥٤).

هذان القولان مُحتملان، أقربهما إلى اللفظ الأول، أي: أنه شيطان أُلقي على الكرسي؛ لأن جسدًا نكرة تقتضي أن يكون المُلقى غير المُلقى على كرسيه، ولكن الثاني أقرب من حيث المعنى، أي: أن الله تعالى إذا سلب من الإنسان عقله وتفكيره وسلطته فهو بمنزلة الجسد.

وعلى كل حال هذه الفتنة التي حصلت لسليمان عليه السلام بإلقاء الجسد على كرسيه، سواء أكان هو نفسه أم شيطان جلس على الكرسي، لا شك أنها فتنة عظيمة، ولا يتصوَّرها أحد لم تمسَّه هذه الفتنة؛ لأن ما نسمع من المصائب والفتن وغيرها نسمعها على أنها تمرُّ علينا مرورًا ذهنيًا، وليس هذا كالذي يُباشر المصيبة والقضية نفسها.

وعلى كل حال سليمان عليه السلام لما وصل به الأمر إلى هذه الحال أناب إلى الله؛ لأن من طبيعة الإنسان إذا أُصيب بمصيبة أن يُحاسب نفسه. أما قبل أن يُصاب فقد يغفل، لكن إذا أُصيب صار يُحاسب نفسه، ورجع إلى الله، حتى المشركون إذا ركبوا في الفُلك، وأصابتهم الأمواج التي يضرب بعضها بعضًا، يلجؤون إلى الله سبحانه وتعالى، يدعونه مخلصين له الدين أن يُنجيهم. فمن طبيعة الإنسان أن يعود إلى القوة التي يُمكنها أن تدفع عنه المُصيبة التي نزلت به، إلا مَنْ خرج عن هذه الطبيعة، وقد يخرج عن هذه الطبيعة ناس كثيرون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[المؤمنون:٧٦] فقد يخرج بعضُ الناس عن هذه الطبيعة الفطرية فتصيبه المصائبُ والنكباتُ والعذابُ، ولكن قلبُه يكون قاسيًا لا يتأثر. نسأل الله العافية.

قال المؤلف: [﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رَجع سليمان إلى مُلكه بعد أيام، بأن وصل إلى الخاتم فلبسه، وجلس على كرسيه] هذا من أبعد ما يكون في التحريف لكلام الله عزَّ وجلَّ، والمتعيَّن أن المعنى: أناب إلى الله، أي: أنه عَرف أن هذا الذي نزل به لأمرٍ صدر منه، فرجع إلى الله وأناب إليه، وأحسن التوبة، وأصلح العمل.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ بدأ بطلب المغفرة قبل طلب المُلك العظيم، الذي لا ينبغي لأحد من بعده؛ وذلك لأن زوال أثر الذنوب هو الذي يحصُل به المقصودُ، فالذنوب في الحقيقة تتراكم على القلب، وتمنعه من كثير من المصالح، فيسأل الإنسانُ التخلُّصَ من آثار هذه الذنوب، قبل أن يسأل ما يريد.

والمغفرة مأخوذة من المِغْفَر، وهو الذي يُوضَع على الرأس، لاتِّقاء السهام في حال القتال، وهو شيء من حديد يُلبس تحت البيضة، أي: الخوذة، فهو يقي الرأس، وفي نفس الوقت يستره.

ولهذا نقول: إنَّ مغفرة الذنوب ستْرها عن الخلق، مع التجاوز عن عقوبتها، أي: أنَّ المغفرة جامعة لمعنيين هما: السَّتْر والتجاوز عن الذنب، أي: أنَّ الله تعالى لا يُعاقِب عليه.

﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا﴾ يعني أعطني مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعدي، أي: لا يصلح أن يكون لأحد من بعدي. يُعني مُلكًا عظيمًا، لا يفكر فيه أحدٌ من بعدي، فغفر الله له واستجاب له.

قال المؤلف: [﴿مِنۢ بَعۡدِيٓ﴾ أي: سوى الله]، وليس المُراد من بعدي زمنًا، بل لا ينبغي لأحد في زمني أو زمن بعد زمني، ولكن المُراد بـ ﴿مِنۢ بَعۡدِيٓ﴾: سواي، واستشهد لذلك بقوله: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ﴾[الجاثية:٢٣] ومعلوم أنه لا أحد بعد الله، فالله هو الآخر الذي ليس بعده شيء، ولكن ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ﴾ أي: من سوى الله.

والقول الثاني: أن المُراد ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ أي: مُلكًا لا يغلبه عليه أحد، ويؤيد القول الأول قوله عليه الصلاة والسلام حين تفلَّت عليه عفريت وهو يُصلي، وأراد أن يمسكه وأن يربطه بسارية المسجد ليلعب به صبيان أهل المدينة، وقال: «لولا أنِّي ذكرتُ قول أخي سليمان: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ لفعلت»[1]، وهذا يدلُّ على المُراد ﴿مِنۢ بَعۡدِيٓ﴾ زمنًا.

والمُرجِّحُ أن سليمان عليه الصلاة والسلام سأل مُلكًا عظيمًا لا يكون لأحد من بعده، وبناءً عليه، فإنه يحصل الإشكال: لماذا تحجَّر هذا المُلك؟ قد نقول: إن القول الثاني أصح، وإن النبي ﷺ ترك ذلك تورُّعًا؛ لأنه خاف أن يكون مُراد سُليمان زمنًا، فترك هذا من باب التورُّع، ولكن هذا الجواب فيه أيضًا بعض الشيء؛ لأن النبي ﷺ إذا فسَّر الآيةَ بشيء أو أتى بشيء يقتضي تفسيرها على وجهٍ ما، فإنه لا شك أولى من الاحتمال الآخر، وأن يكون المُراد ﴿مِنۢ بَعۡدِيٓ﴾ أي: من سواء، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ : هذه جملة تَعلُّقها بما قبلها، أنها من باب التوسل. لما سأل الله مُلكًا توسَّل إلى الله بالاسم الذي يُناسب ما دعا به: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ (أنت): يُسمِّيها العلماء ضمير الفصل، وتفيد ثلاثة أشياء: التوكيد، والحصر، والتمييز أو الفصل بين الصفة والخبر.

وقوله: ﴿ٱلۡوَهَّابُ﴾: صيغة مبالغة، وذلك لكثرة هبات الله، وكثرة من يهبه الله، كل ما في الخلق من نعمة فهو من هبات الله، وما أكثر النعم على الإنسان، وما أكثر من أنعم الله عليه؛ ولهذا جاءت صورة المبالغة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾.

قال تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾.

الفاء: للسببية من وجه، وللتعقيب من وجهٍ آخر، أي: بسبب دعائه، وفور دُعائه يعني ذلَّلْناها له، والريح: الهواء.

يقول الله تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾: تجري أي: تسير، ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي: على وفق أمره. ﴿رُخَآءً﴾ أي: ليِّنة في سيرها وهبوبها، ليِّنة في طاعتها، لا تستعصي، مثلًا: إذا كانت الريح جنوبًا وهو يريد أن يذهب إلى الجنوب يأمرها أن تهب شمالًا، فتهب شمالًا، فتحمله حيث أراد.

قد يقول قائل: كيف يتم الجمع بين قوله: ﴿رُخَآءً﴾ وبين قوله في آيات أخرى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٨١]؟

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١).

والجواب: أنَّ الجمع بينهما سهل، فهي رخاء، أي: ليس فيها زعزعةٌ، وهي عاصفة، أي: سريعة؛ لأن غُدوَّها شهر ورواحها شهر، يعني تمشي في الصباح، ولا يأتي زوال الشمس إلا وقد قطعت مسافة شهر. وبعد الزوال تمشي ولا يأتي الغروب، إلا وقد قطعت مسافة شهر، قال أهل العلمَ: إنه يضع على الأرض شيئًا كالبساط، ويجلس هو وحاشيته على البساط ثم يأمر الريح فتحمله فيطير بين السماء والأرض، ومع ذلك هي رُخاء، وكان المُتبادر إلى الذهن أنَّ مثل هذا الطيران يُزعج الراكبين، على هذا البساط، ولكنَّ الله تعالى جعلها رُخاءً ليِّنة، حتى كأنهم لا يطيرون، وليس فيها إزعاج، وهذا من آيات الله.

﴿حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: حيث أراد، أي: الجهة التي يريد، وهذا لم يحصلْ لرسول غيره فيما نعلم، ولا لملك من الملوك يأمر الريح فتسير به حيث أراد.

ثم قال: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ يعني سخْرْنا له الشياطين، والشياطين جمع شيطان، وهم عفاريت الجن. سخَّر له ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾، يبني الأبنية العجيبة، ﴿وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ في البحر يستخرج اللؤلؤ.

وقوله: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي: مشدودين في الأصفاد، وهي القيود، بجمع أيديهم إلى أعناقهم، سخَّرَ الله له الشياطين، أي: ذلَّلهم له، يُطيعونه، وينفذون أوامره، وقد صنَّفهم ورتَّبهم حسب قدراتهم واختصاصاتهم، منهم من يُبني له البناء الشامخُ العجيب، و﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾[سبأ:١٣].

والقسم الآخر: ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ يغوصون في البحار؛ يأتون له بأنواع اللؤلؤ والمرجان والدُّرر وغيرها، يأتون بكل ما يريد.

وفيهم قوم مَردة من الشياطين يؤذون الناس، وربما يتمردون عليه ويعصونه، هؤلاء يُقرنهم في الأصفاد، ويشدُّ أيديهم إلى أعناقهم، ويحبسهم في الأصفاد.

وقد يقول قائل: هل هذا من التسخير؟

نقول: نعم، هذا من التسخير. أنَّ الله تعالى جعل له سلطةً عليهم، فالله تعالى جعلهم يعصونه ويتمرَّدون عليه، ويؤذون مَنْ في مملكته من أجل أن يُنزل بهم هذا العذاب؛ حتى يتبين بذلك كمال سلطانه على هؤلاء الشياطين؛ لأنه لا يُعرف تمام السلطان إلا بإنزال العقوبات على المتمردين.

أما إذا كان السلطان يُداهن المتمرِّدين، فإن هذا يدلُّ على ضعْف السلطان، وأنه ليس عنده قدرة على تدبير مملكته. وجعل الله تعالى هؤلاء يتمردون على سليمان، أو يؤذون من في مملكته؛ لأجل أن يُنزل بهم بطشَه، ويُعرف أنه قوي، وذو سلطة، وسيطرة على هؤلاء الجن.

قال تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾، ﴿هَذَا﴾ المشار إليه ما سخَّره الله له من الريح والسلطة على الشياطين.

﴿عَطَآؤُنَا﴾ يعني الذي أعطيناك إياه؛ لأنه قال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص:٣٥] فأعطاه الله هذا العطاء، والذي فهمنا مما أعطاه تسخير الريح، وتسخير الشياطين.

قال المؤلف: [﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ﴾ أعط منه من شئت، ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ عن العطاء ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ أي: لا حساب عليك في ذلك].

أعطاه الله تعالى هذا المُلك، وقال له: أنت بالخيار، امنن على مَنْ شئت، وأمسك المنة عمَّن شئت، لا حساب عليك في ذلك. وهذا من التخيير المُطلق في التصرف.

وقال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، لما ذكر الله ما منَّ على سليمان عليه السلام في الدنيا؛ ذكر ما مَنَّ عليه في الآخرة، وهو أن له عند الله مرتبة عالية في الآخرة، ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ قريبة من الله عزَّ وجلَّ، ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: حُسن مرجع؛ لأن مرجعه على الجنة، التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ ذكرْنا فيما سبق أن العندية المُضافة إلى الله تنقسم إلى قسمين: عندية علم (عندية الصفة)، وعندية قُرْب، كما في هذه الآية. أما عندية العلم (عندية الصفة) كما في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام:٥٩] فإن هذه عندية علم (عندية صفة).

أما عندية القرب فتكون منفصلةً عن الله، يكون الشيء عند الله، أي: قريب منه، وقوله: ﴿لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ الزلفى، أي: القربى؛ لأن أعلى مراتب الخلق هي مراتب الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾[النساء:٦٩].

فوائد الآيات:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية:** أنَّ الله قد يَختبر عباده المُصطفين عنده بما يشاء من اختبار، وينبغي أن نُبْهِم ما أبهمه الله تعالى، وألَّا نبحث عنه، ونتكلف ذلك كما يفعل بعض الناس.

٢ - **ومن فوائدها:** أن لسليمان عليه السلام كرسيًا يجلس عليه كما يجلس الملوك؛ لأن الله جمع له بين النبوة والمُلك.

٣ - **ومن فوائدها:** أن الإنسان قد يُسلب بعضُ النِّعم؛ إما جزاء على عمل عمله، واستحق عليه أن يُسلب بعض النِّعم، وإما من أجل أن يترقَّى إلى درجة الصابرين؛ لأن الصبر درجة عالية لا تُنال إلا بأسبابها.

والصبر ثلاثة أقسام:

١ - صبر على طاعة الله.

٢ - وصبر على معصيته.

٣ - وصبر على أقداره.

أما الصبر على طاعة الله، وعن المعصية فهو باختيار الإنسان، وأما الصبر على أقدار الله، فالأقدار بغير اختياره، فقد يَبتلي اللهُ العبدَ بأقدار تحتاج إلى صبر ومصابرة من أجل أن يستكمل مراتب الصبر. ومنه إلقاء الجسد على كرسي سليمان عليه الصلاة والسلام.

٤ - **ومن فوائدها:** أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا بدَّ أن يرجعوا إلى الله، وينتبهوا، وهذا مُستفاد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ بخلاف غيرهم، فإنهم قد يُبتلون بالذنوب، ولا يرجعون عنها، وهذا هو الفرق بين الأنبياء وغيرهم: أن الأنبياء معصومون عن الاستمرار في المعاصي، أما غيرهم، فلا.

٥ - **ومن فوائدها:** أن مسلوب التصرف والسُّلطة كأنه جسدٌ بلا روح، لقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾، وهذا على أحد الأقوال الأربعة التي ذكرناها.

وقال تعالى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية:** أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معنيون أكثر بأمور الآخرة، ولهذا طلب من الله المغفرة قبل أن يطلب المُلك.

٢ - **ومن فوائدها:** أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مُحتاجون إلى مغفرة الله، لقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾.

٣ - **ومن فوائدها** أنهم مربوبون، وليسوا أربابًا لقوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** جواز الذنوب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذا مُستفاد من قوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾، وذلك أنه لو لم يكن ذنب لما استغفر.

٥ - **ومن فوائدها:** جواز طلب الإنسان المُلك، لقوله: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا﴾، ولكن يُشترط في ذلك أن يكون لدى الإنسان استعداد للقيام بما سأل، أما أن يقول: رب هب لي مُلكًا، وبِنِيَّته أن يضيِّعه؛ فإن هذا لا يجوز.

وقد اختلف أهل العلم في جواز سؤال الإمارة، هل يجوز للإنسان أن يسأل الإمارة أو القضاء أو ما أشبهها من الولايات؟! منهم مَنْ قال: إن ذلك جائز، ومنهم مَنْ قال: إنه مُحرَّم، ومنهم مَنْ فصَّل.

أما من قال: إنه جائز، فاستدلُّوا بقصة يوسف، حيث قال لملك مصر: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٥] فسأل الولاية، وشرعُ من قبلنا شرعٌ لنا، ما لم يرد في شرعنا ما يُخالفه.

كما استدلُّوا بحديث عثمان بن أبي العاص حين قال للنبي ﷺ: اجعلني إمام قومي. قال: «أنت إمامُهم»(١).

أمَّا مَنْ منع ذلك، فاستدل بحديث عبد الرحمن بن سمرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال له: «لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وُكلت إليها، وإن أُعطيتها من غير مسألة، أُعِنت عليها»(٢).

فنهاه النبي ﷺ أن يسأل الإمارة، وَبَيَّنَ له السبب؛ أنَّ مَنْ أُعطِيَها عن مسألة، وُكِّلَ إليها، ولم يعنه الله، ومن أتته من دون مسألة، أعانه الله عليها.

واستدلوا أيضًا بأن رجلًا طلب من الرسول ﷺ أن يكون عاملًا، فقال: «إنَّا لا نولِّي هذا الأمر أحدًا سأله»(٣). وهذا يَدُلُّ على أنه لا يُسأل، وأن من سأل، فليس أهلًا لأن يُولَّى.

وفصَّل آخرون، فقالوا: إن سألها لإصلاح ما فَسَدَ منها، فإن ذلك جائز، إذا علم من نفسه القدرة، وإلا فلا يجوز؛ لأن السلامة للإنسان أسلم.

وهذا القول التفصيلي هو الصَّحيح؛ لأن به تجتمع الأدلة، فإن الإنسان، مثلًا، إذا رأى ولايةً قام عليها شخص ليس أهلًا لها، إمَّا في دينه، أو أمانته، وتصرفه، وهو يعلمُ من نفسه القدرة على القيام بها على أحسنِ حالٍ، أو على الأقل بوجهٍ أحسن مما كانت عليه، فلا بأس أن يسألها؛ لأن غرضَه بذلك غرضٌ عملي وإصلاحي وليس غرضه شخصيًا.

أمَّا إذا لم يكن هنالك سببٌ، أو يعرف الإنسان من نفسه أنه ضعيفٌ لا يستطيع القيام به، فلا يسأل، ولا يجوز أن يسأل.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية:** الثناءُ على الله تعالى بأنه وهَّاب يُعطي العطاءَ الكثيرَ لقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** التوسُّل إلى الله تعالى بالاسم المناسب لما يدعو به لأن قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ يناسب قوله: ﴿وَهَبْ لِى﴾ وهذا هو أحد معاني قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠] فإنَّ أحد معانيها أن تجعلها وسيلة لما تدعو به؛ فإن أردت أن تسأل المغفرة تقول: يا غفور، أو الرحمة فتقول: يا رحيم ... وهكذا.

ثم قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية:** بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ، وكمال سُلطانه، حيث سخرَّ الريح وذللها.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٢١)، أبو داود (٥٣١)، والنسائي (١/ ١٠٩)، والطحاوي (٢/ ٢٧٠)، كذا قال الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٤٩٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٧١٤٩)، وأبو داود (٢٩٣٠)، والنسائي (٥٣٨٢).

٢ - **ومن فوائدها:** عموم سلطان الله عزَّ وجل على الجماد والحي وغير ذلك؛ لأنه أمر الريح، وهي جماد، فامتثلت.

٣ - **ومن فوائدها:** أن الله تعالى قد يُسخِّر شيئًا من الكون لعبدٍ من عباده، كما سخَّر الريح لسُليمان عليه السلام، فإنه من الجائز أن يُسخِّرها لغيره، إذ دُعي.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن الرياح لها شعور واختيار؛ لقوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ﴾ لأنه إذا كان يأمرها وتشعر بالأمر، ثم تمتثل، فهو دليلٌ أن لها شعورًا ولها إرادة.

وهكذا كل شيء في الكون له شعور، وله إرادة، بحسب ما يليق به؛ لقول الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[الإسراء:٤٤] ولا تسبيح إلا بإرادة، ولا تسبيح إلا بشعور بعظمة المُسبَّح. ومن هنا نَردُّ على من قالوا: إنَّ المُراد بقوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾[الكهف:٧٧] أنَّه مجازٌ، لأننا نقول لهم: ما الذي يمنع من إرادة الجدار؟ هو له إرادة، ولكن ليست كإرادة البشر، أو إرادة الحيوان المتحرك الذي يتحرك بإرادة، لكن الجدار له إرادة وهو ساكن لا يتحرك.

٥ - **ومن فوائدها:** أنَّ هذه الريح المُسخرة تجري بسهولة ولين، وليس بعصف مُقلق، كما هي عادة الرياح، إنما هي رُخاء ولينة سهلة، كأنهم على سطح.

٦ - **ومن فوائدها:** أنَّ مَنْ ترك شيئًا لله، عوَّضه الله شيئًا خيرًا منه؛ لأن كثيرًا من المفسرين جعلوا تسخير الريح لسليمان عليه الصلاة والسلام، تنقله حيث يشاء، عوضًا عن الخيل التي أتلفها غضبًا لله عزَّ وجلَّ، حينما ألهته عن ذكر الله.

وهذا قد يكون حقيقةً، أن هذا الذي أعطاه الله تعالى من تسخير الريح، كان جزاء له على فعله بالخيل. ولا شك أن من ترك شيئًا لله، عوَّضه الله خيرًا منه، وهذا يقع كثيرًا في مسائل عديدة. وإن أردت أن تطبق هذا على نفسك، فجرِّب.

٧ - **ومن فوائدها:** أنَّ هذه الريح تتجه حيث أراد سليمانُ عليه الصلاة والسلام، ولو كانت في الأصل على وجهٍ آخر. بمعنى أنه إذا كانت الريح جنوبية، وأراد أن يذهب بها إلى الجنوب، فإنه يأمرها أن تكون شمالية، لتحملَه إلى الجنوب.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية:** بيان ما بسَط الله لسليمان عليه الصلاة والسلام من السلطان، حيث كانت الشياطين المؤذية لبني آدم مُسخَّرة له على هذا الوجه العظيم، وعلى هذا التقسيم.

٢ - **ومن فوائدها:** حُسن تدبير سليمان عليه الصلاة والسلام؛ حيث وَزَّع هذا الجُند من الشياطين حسب ما يليق بهم؛ فمنهم البنَّاء، ومنهم الغواص.

٣ - **ومن فوائدها:** جواز تفخيم الأبنية وتكثيرها، والبناء الذي تبنيه الشياطين لا بد أن يكون

فخمًا مُحكمًا، ولكن هل يُقال: إنَّ هذا كان في شريعة سليمان؟ لأنه مَلِك يحتاج إلى أُبَّهةٍ وعظمةٍ، وإظهار قوة، وإظهار غِنىً، وإظهار سلطة، أم أنها عامة؟

أم أنها عامة للناس فلا. ولهذا جاءت شريعتنا بذمِّ من يجعل ماله في البناء. ورُبَّما يُقال: إنَّه يُفرَّقُ بين المَلِك السلطان وبين غيره؛ لأنَّ إظهار المَلِكِ السلطان نفسه بمظهر العظمة أمام أعدائه؛ لا شك أن ذلك أمرٌ مطلوب.

ويُذكر أنَّ معاوية بن أبي سفيان ﷺ، وكان أميرًا على الشام، في إمارة عمر بن الخطاب ﷺ، وكان معاوية إذا أتى الإنسانُ إليه يجد حُجابًا وحُرَّاسًا وشيئًا من الأُبهة، وإذا جاء إلى الخليفة الذي فوقه، يجد أمرًا بخلاف ذلك، يجد رداءً مُرقَّعًا، وشخصًا ينام في المسجد، يكوِّم كتلةً من الرمل والحصباء ويتوسَّدها وليس بين يديه حاجب، ولا حوله جنود، فيتعجب كيف أمير هذا الرجل بهذه الأُبَّهة؟ وهذا الخليفة الذي فوقه بهذا التواضع؟!

أجاب العلماء عن ذلك بأنَّ معاوية ﷺ كان في بلاد الشام، وكانوا لا يخضعون لأمرائهم وسلاطينهم إلا إذا كانوا أمامهم على وجهٍ فيه أُبَّهةٍ وعَظَمةٍ، فرأى معاوية أنه من المناسب للحال أن يُكوِّن نفسه هذا التكوين، وليس قصدُه أن يتعاظم، والدليلُ على هذا أنه لما أتاه كتاب عمر ﷺ، وأظنُّه في كِسْرةِ عظم، في قصة اليهودي الذي أدخل معاوية بيته في بيت المال، بعد أن أُعطي عنه عِوضًا كثيرًا؛ فرأى أنَّ ذلك ظلم، فركب إلى عمر في المدينة يشكو معاوية، يقول: إنَّ معاوية غصبني، وأخذ بيتي، وأدخله في بيت المال، فكتب عمر إلى معاوية يأمره بأن يرد عليه بيته، فلما جاءه الكتاب، أخذه معاوية ووضعه على رأسه تعظيمًا للكتاب، وقال لليهودي: الآن افعل ما تشاء، تُريد أن نعيد إليك بيتك ونبنيه بأحسن ما تريد، أو تأخذ قيمته؟ فلما رأى هذا الأمر انبهر؛ كيف أن معاوية يفعل في كتاب عمر هذا الفعل، فشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحمدًا رسول الله، وقال: بيتي لبيت مال المسلمين، لما رأى العدل، انبهر وأسلم.

ونقول: قد يكون سليمان عليه السلام أراد بهذا العمل أن يُظهر قوةَ سلطانه وعظمته أمام أعدائه، وأن يفصل بين ما يكون فيه غرضٌ مقصود وبين ما ليس فيه غرض، والإنسان بشكل عام لا يشرع له أن يُذهب مالَه ببناء القصور وتفخيمها. أما ذو السلطة الذي يُريد أن يُظهر سلطته ليكون مهيبًا أمام الناس حتى يتم له الأمر؛ لا حرج عليه في هذا.

قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾.

١ - **من فوائد هذه الآيات:** كمال مُلك سليمان عليه السلام وسلطانه وتنظيمه لعمله وعمّاله؛ حيث جعل لكل طائفةٍ ما يختصٍ بها من العمل، فمنهم البنَّاء، ومنهم الغوَّاص. ومن تمام سلطانه؛ أن العاصي منهم والمتمرد قد صفَّده وقرنه مما يدل على عقوبة هؤلاء المخالفين.

٢ - **ومن فوائدها:** جواز التعزيرُ بمثل هذا العمل، أي: بالشدِّ والغلِّ؛ وذلك لأن التعزير لا يختص بعقوبة معينة؛ لأن المقصود به الإصلاح، فأي عقوبة كان بها الإصلاح، فهي الواجبة.

وقد يكون التعزير بالضرب وبالحبس وبالحرمان من بعض الحقوق، وبالتغريم المالي، وبالتوبيخ أمام الناس، والتعزير يُقصَد به الإصلاح، فأي طريق يُقصد به الإصلاح كان به التعزير.

٣ - **ومن فوائدها:** أنَّ الله تعالى أباح لسليمان العطاءَ والإمساك كما يشاء، بدون أن يُحاسبَه على اختياره، ولكنَّا نعلم أن سليمان لن يتجرَّأ على الإعطاء في معصية الله، ولا الإمساك عما أوجب الله؛ لأنه نبيٌّ من الأنبياء لا يُقرّ على خطأ، وتكون الإباحة له هنا في الأشياء التي يُباح له فعلها أو تركها، ويكون هذا من باب التوسعة الصريحة له أن يُمسك أو يُعطي.

٤ - **ومن فوائدها:** أنَّ الله لما ذكر بأنه أنعمَ عليه في هذه الدنيا، وكان الواهم قد يتوهم أن ذلك يُنقِص من ثوابه يوم القيامة؛ بيّن أن ثوابه في الآخرة لا ينقص بهذا العطاء الذي أعطاه له في الدنيا، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية:** أنَّ الناس يختلفون في القرب من الله تعالى لقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾. وأقربهم من الله جوارًا يوم القيامة أقربهم من عبادته في الدنيا، فكلما كان الإنسان في الدنيا أقوم بطاعة الله، وأقرب إلى الله؛ كان في الآخرة كذلك؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

٦ - **ومن فوائدها:** أنّه ينبغي للإنسان أن ينظر إلى مآبه ومآله، هل هو حسن أو سيئ؛ حتى إذا كان سيئًا سعى في إصلاحه، وإن كان حسنًا حمد الله وازداد من فضله.



قال الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤١-٤٤].

التفسير

الخطاب لرسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون موجَّهًا لكل من يتأتى خطابُه من البشر، وقوله:

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ﴾ أعاد الفعل ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ مع أنَّه في قصة سليمان لم يعده بل قال: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ﴾[ص:٣٠] ولم يقل (اذكر). قال بعض العلماء: لأنَّ سليمان بن داود فقصتهما مُتقاربة، وكأنهما هي قصة نبيٍّ واحد، أما أيوب فهو منفصل عنهما، ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ والمراد بالعبد هنا المتذلل لطاعة الله، وهذه العبودية من عبودية أخصّ الخاصة؛ لأنها عبودية الرسالة.

وقوله: ﴿أَيُّوبَ﴾: عطف بيان أو بدل من ﴿عَبۡدَنَآ﴾.

وقوله: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ : إذ: متعلقة بـ ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ ويجوز أن تُعلَّق بمحذوف حالًا من عبد، يعني في حال نداء ربه، ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: دعاه بصوت مرتفع؛ لأن النداء يكون بالصوت المرتفع، والمُناجاة تكون بالصوت المنخفض، قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾[مريم:٥٢]، ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [أي: بأني ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾] قدَّر المؤلف الباء هنا لأن همزة (أن) مفتوحة، والقاعدة: أن همزة (أن) تكون مكسورة إذا جاءت بعد القول، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾[مريم:٣٠] ولكنَّها هنا مفتوحةٌ، فقدر المؤلف الباء؛ لأنه إذا قدرنا الباء صارت تُسبَك هي وما بعدها بمصدر، وإذا سبكت (أن) وما بعدها بمصدر، صارت مفتوحة الهمزة، كما قال ابن مالك:

وهَمْزَ إِنَّ افْتَحْ لِسَدِّ مصدَرِ ... مَسَدَّها وفي سِوى ذاكَ اكْسِرِ

و﴿مَسَّنِيَ﴾ يعني أصابني، و ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ هو شيطان الجن.

وكان الشيطان قد آذاه. ولكن هل هو إيذاء نفسيّ بأن ألقى في قلبه الوساوس التي أنهكت بدنه، أو أنَّه إيذاء حسي كما قال بعضهم: إنَّ الشيطان نَفَثَ في جسده، حتى أصبح جسدُه كلُّه جدري يعني حبوبًا ضارةً، فالله أعلم؛ يُحتمل هذا وهذا.

قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ النصب يعني الضرر، والعذاب يعني الألم.

يقول المؤلف: [ونسبَ ذلك إلى الشيطان، وإن كانت الأشياء كلُّها من الله تعالى؛ تأدبًا معه تعالى] نسب ذلك إلى الشيطان؛ لأنه السبب، وإلَّا فالأمر كله بقدر الله، والله تعالى بحكمته سلَّط عليه الشيطان، ولكنَّ تسلطَه كان بقضاء الله وقدره. وأقول: نسَبه إلى الشيطان؛ لأنه هو المباشر للعلة، وهو سبب لا شك، ولكنَّه سبب مباشر. وفي الحقيقة أنَّ الشيطان إنَّما سُلِّط عليه بقضاء الله وقدره. والمؤلف يرى أنَّه نُسبَ إلى الشيطان تأدبًا، وإلا فالأصل نسبته إلى الله، فهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾[الجن:١٠] فالجن قالوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ومعلوم أنَّ مُريدَ الشرِّ هو الله عزَّ وجل لحكمة، ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾، فهم حذفوا الفاعل تأدبًا مع الله عزَّ وجلَّ؛ لأن الشر ليس إليه.

على كلِّ حالٍ الشيطانُ هو الذي مسَّ أيوبَ، ومسَّه إمَّا أن يكون مسًّا نفسيًا أو حسيًا.

ولما نادى ربَه عزَّ وجلَّ، وتضرع إليه، وعلم ألَّا ملجأ من الله إلا إليه، وبعد أن تفرغ قلبُهُ مِن

كل شيء سوى الله، جاءه الفرج فقيل له: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ ...﴾ أي: اضرب برجل الأرض، فضرب الأرض بها فنبع منها الماء بإذن الله، ولم يحتجْ إلى حفَّار ولا إلى أحد يُساعده. بل ضرب الأرضَ برجله ضربةً واحدةً فنبع الماءُ، والله على كل شيء قدير، وهذه إحدى الضربات التي نبع بها الماء على أنه آية من آيات الله.

والثانية: موسى ضرب الحجرَ فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا.

والثالثة: جبريل ضرب بجناحيه مكان زمزم، فنبع الماء، والله سبحانه وتعالى على كل شيءٍ قدير.

قال المؤلف - رحمه الله -: [فنبعت عين ماء فقيل له: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ﴾ أي: ماءٌ تغتسل به ﴿بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ أي: تشرب منه، فاغتسل وشرب فذهب عنه كلَّ داءٍ كان بباطنه وظاهره] أي: أُبيح له أن يغتسل ويشرب من الماء الذي نبع من الأرض، والغالب أن الماء النابع من الأرض يكون ساخنًا، ولكن هذا بارد، فشرب منه واغتسل به، فذهب عنه كل داء كان في باطنه وظاهره بقدرة الله عزَّ وجلَّ وإرادته.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾.

قال المؤلف: [أحيا الله له مَنْ مات مِن أولاده، ورزقه مثلهم]. فجعل المؤلف الهبةَ بمعنى الإحياء، ولكن هذا فيه نظر؛ لأن الإحياء يحتاج إلى ثبوت الإماتة من قبله، وليس في الآية ما يدلُّ على هذا، بل إنَّ الله تعالى وهب له أهله حيث أووا إليه بعد أن شردوا منه؛ لأن الرجل بسبب مرضه الحسي البدني أو النفسي، شُرِّدَ منه أهلُه، وعجزوا عن أن يعيشوا معه، ولما عافاه الله، أوى إليه أهله، فتكون هذه الهبة إعادة ما سبق، كما سمَّى عمرُ بن الخطاب ﷺ إعادةَ قيام رمضان جماعة سمَّاها بدعةً، وهي ليست بدعة في الواقع، وهذه هبة مع أنها ليست هبة، ولكنها إعادة موهوب شرد.

وأمَّا القولُ بإحيائهم بعد إماتتهم فهذا يحتاج إلى ثبوت الإماتة من قبل، ولكن الصحيح أنه لم تثبت الإماتة ولا الإحياء، وإنَّما هذه الهبة إعادة موهوب سابق؛ لأنهم نَفروا منه، وشَردوا عنه.

وقوله: ﴿وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ نقول: إنَّ الله رَزَقَهُ أولادًا جُددًا؛ لأنَّ زوجتَه رجعتْ، وصلُحتْ حاله، وصار يُنجب، فبارك الله له في ولده.

ثم قال تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾. ﴿رَحۡمَةٗ﴾ قال المؤلف: [نعمة، ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ موعظة]، قوله: ﴿رَحۡمَةٗ﴾ إنْ كان عائدًا على الأهل ومَنْ وُهب له من جديد؛ فهي رحمةٌ مخلوقة. والرحمة قد تُطلق على المخلوق، كما قال الله تبارك وتعالى: «أنتَ رحمتي أَرحمُ بِكَ مَنْ أشاء»(١) ولذلك فإن تفسير المؤلف للرحمة بالنعمة تفسير صحيح؛ إذا جعلْنا الرحمةَ هنا عائدة على الأهل

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

والأولاد ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فإن تفسيره صحيح؛ لأن الرحمة مخلوقة.

وإن أُريد بالرحمة صفة الله عزَّ وجلَّ؛ يعني: أن هذا من رحمتنا؛ أي: ناشيء عن رحمة الله، فالرحمة هنا غير مخلوقة؛ لأن صفات الله سبحانه وتعالى غير مخلوقة.

إذًا كلام المؤلف لا يمكن أن يُخطَّأ على الإطلاق؛ حيث فسَّر الرحمةَ بالنعمة، ومعلوم أن الأشاعرة يُفسِّرون رحمة الله بالنعمة والإحسان، ولا يرون أن لله رحمةً هي صفتُهُ، فكلام المؤلف لا يُنتقد من كلِّ وجه لاحتمال أن يكون المُراد بالرحمة ما وهب الله له من الأهل ومِثْلهم معهم، يعني أراد بها الموهوب، والموهوب لا شك أنه مخلوق، أما إذا أردنا أن نفسِّر قوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ برحمة من عندنا، أي: الرحمة التي هي صفة الله عزَّ وجلَّ، أي: أن هذا ناشيء من رحمتنا، الرحمة التي نحن متصفون بها، فإن تفسير المؤلف هنا ليس صحيحًا؛ لأن الرحمة هنا تكون صفةً من صفات الله، وليست بمعنى نعمة يعني خلقًا بائنًا عن الله عزَّ وجلَّ.

قوله: ﴿رَحْمَةً﴾ تُعرب مفعول لأجله، وهذه عِلةٌ سابقة، والعلل قسمان: علل غائية مُنتظَرَة، وعلل سابقة مُوجبة، فمثلًا إذا غَضَب الإنسان وضَرَب ولده، الضْرب هنا من الغضب؛ لأن العلة سابقة موجبة. أما إذا سافر الإنسان ليتَّجر، فهنا العلة غائية لاحقة.

﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾، ﴿مِّنَّا﴾ يعني نفسه تبارك وتعالى، وأتى بصيغة الجمع، تعظيمًا لله عز وجل. والغريب أن الجمع من الألفاظ المتشابهة التي استدلَّ بها النصراني على تعدُّد الآلهة؛ لأن النصراني يقول: إن الله ثالث ثلاثة، ليس إلهًا واحدًا، ويقول عندي دليل: خلقْنا، أنزلْنا، من لدنا، منا، عندنا، كل هذه تدل على الجمع، فنقول له: إنَّ في قلبك لزيغًا؛ لأنك اتَّبعت المتشابه، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾[آل عمران:٧]، ما الذي أعمى بصيرتَك عن قول الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة:١٦٣]؟ هذا مُحكم، والإتيان بصيغة الجمع للتعظيم أمرٌ واردٌ في اللغة العربية، حتى الناس أنفسهم وهم بشر – لا يستحقون من العظمة ما يستحقه الخالق – يعبرون عن أنفسهم بصيغة الجمع تعظيمًا لأنفسهم.

﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: من عند الله، ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: عِظة لأصحاب العقول، ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ هذه خاصّة بأيوب وأهله، ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ عامّة، يتذكَّر بها أصحاب العقول، يتذكرون بأن المصائب تكون على الرسل وعلى غيرهم، وبأنَّ الشيطان يمكن أن يُسلَّط على الرسول، ويتذكرون بها أن الإنسانَ إذا لجأ إلى ربه، ودعا ربه، فإنَّ الله يُجيبه، ويتذكرون بها أنه كلما اشتد الكربُ، قَرُب الفرج، وقال رسول الله ﷺ: «اعْلموا أنَّ النَّصر مع الصبرِ، وأن الفرجَ مع الكرْب، وأن مع العسر يُسرًا»(١). وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ

(١) متفق عليه: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٠٧)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٣٨٢).

﴿إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة:٢١٤]، يعني قريب من هذه الحال التي وصلت بالرسل إلى أن يقولوا: متى نصر الله؟ يعني يطلبونه شوقًا، لا استبعادًا، كأنهم يقولون: يا رب عَجِّل لنا بالنصر، فقال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

إذنْ ذكرى لأولي الألباب فيما يلي:

أولًا: أنَّ البلَاء يشمل الأنبياء.

ثانيًا: أنَّ الشيطَان قد يُسلَّط على الأنبياء.

ثالثًا أنَّ الله تعالى يُجيب دعوَة المُضطرين إليه، إذا صدق الإنسان في دعوته.

رابعًا: أنَّه كلما اشتدت الأمور؛ فانتظر الفرجَ، فهذا أيوّب لما اشتد به الأمر، ولجأ إلى الله، أجاب الله تعالى دُعاءَه.

خامسًا: زوالُ كرب النبي أيوب عليه السلام كان على يده؛ لأن الله تعالى لم يُنزل شفاءً دون سبب ظاهر، بل بسبب هو الذي يُباشره. قيل له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ فضرب برجله فخرج الدواء، وقيل له: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاغتسل فعالج نفسه إذًا هو الذي استخرج الدواء، وباشر العلاجَ، وكان علاجُه على يده باستخراج الدواء واستعماله.

قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾، قال المؤلف: [﴿ضِغْثًا﴾ هو حزمةٌ مِن حشيش أو قضبان ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾ زوجتك، وكان قد حلف ليضربنَّها مئة ضربةٍ لإبطائها عليه يومًا ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ بترك ضربها، فأخذ مئة عود من الإذخر أو غيره، فضرب بها ضربة واحدة].

وهذه الفتوى من الله عزَّ وجلَّ لأيوب، أفتاه بها تسهيلًا عليه وعلى أهله. وقد أشرْنا قبل قليل أنَّه لما أُصيب بهذه المُصيبة مِن قِبَلِ الشيطان، مُصيبة نفسية ومصيبة بدنية ظاهرة شرَّد أهله، ومن ضِمْنهم زوجته التي كان ينبغي أن تبقى معه على السرَّاء والضرَّاء، فحلف أن يضربها مئة ضربةٍ؛ لأنها أغضبته وتركته. فلما شفاه الله عزَّ وجلَّ من المرض وجب عليه أن يفي بيمينه فيضرب زوجته مئة ضربة. والمئة ضربة قد يكون فيها شيء من الاشمئزاز بالنسبة لزوجته، ومن الإحراج بالنسبة له؛ فأفتاه الله تعالى هذه الفتوى ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ فيه مئة شمراخ، واضربها به مرة واحدة، تكفي عن مئة ضربة، فأخذ بيده ضغثًا وضربها به ضربةً واحدةً، فصار ذلك برًّا بيمينه، ولهذا قال: ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾، ومفعول ﴿فَٱضْرِب﴾ محذوف وحذف - والعلم عند الله - للستر؛ لأنه ليس في القرآن أمرٌ بضرب الزوجة، ولكنَّه جاء في القصص المعروفة عن بني إسرائيل. وليس المقصود أنْ نعرف عينَ المضروب، ولكنَّ المقصود أنْ الضربَ الذي كان قد حلف عليه؛ يحصل بأخذ هذا الضِغث والضرب به.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ أصل الحنث: الإثم، كما قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الواقعة:٤٦] يعني على الإثم العظيم. والمُراد به هنا ألَّا يبر بيمينه، وعدم البرّ باليمين أن

يُترك ما حلف على فعله، أو يفعل ما حلف على تركه، وهذا هو الحنث.

على سبيل المثال: حلف ليشترينَّ كتابًا قال: والله لأشترين كتابًا ولم يشترِ، حنث بترك ما حلف على فعله. أو حلف ألَّا يبيع الكتاب قال: والله لا أبيع الكتاب وباعه، حنث بفعل ما حلف على تركه، أو حلف ليشترينَّ هذا الكتاب، فاشتراه، فهذا برّ بيمينه، أو حلف ألا يبيع هذا الكتاب، فلم يبعه؛ بر بيمينه، إذًا موافقة اليمين برّ، ومخالفتها حنث.

قال أهل العلم: يُؤخذ من هذا أنَّ عدم إبرار اليمين مكروهٌ إلى الله تعالى؛ لأنه يُسمى حِنثًا، ولكن من نعم الله أنَّهُ رخَّص لعباده بفعله، ولكن إذا فعلوه كفّروا بكفارة عن الحنث؛ لأنه لو كانت الكفارةُ عن اليمين لكان كل من يَحلف يُكفِّر، لكنها عن الحنث؛ لأنَّ الأصل الإثم في مخالفة اليمين. ولكن من رحمة الله عزَّ وجلَّ أن رخصَّ لنا الحنثَ وأن نُكفِّر عنه، ولهذا قال: ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ أي: وجْدنا أيوبَ عليه الصلاة والسلام، يعني ألفيْناه صابرًا، و(وجدَ) فعل ينصب مفعولين: الأول: (الهاء) في قوله: ﴿وَجَدْنَٰهُ﴾، والثاني: ﴿صَابِرًا﴾.

وصبرُ أيوب عليه الصلاة والسلام كان صبرًا على قدرِ الله، وهذا ظاهر؛ لأنه صبر على ما مسَّه من الشيطان، وكان صبرًا عن معصية الله؛ لأنه لم يجزع ولم يسخط، وكان صبرًا على طاعة الله؛ لأنه لجأ إلى الله، ودعا الله عزَّ وجلَّ فأجابه. وأحيانًا يكون الدواء بالدعاء أنجح بكثير من الدواء الحسّي المادي، وفيما سبق إذا تعسَّرتْ الولادة، يُؤتى إلى شخص، ويُطلب منه أن يقرأ للحامل عند تعسُّر الولادة، فيقرأ في ماء، ويذهبون به ويمسحون به ما حول المنطقة، وتشرب منه الحامل، فتضع بدون ألم، وهذا شيء مُجرَّب ومُشاهَد، وهذا أهون بكثير من المعالجة بالأدوية الحسية المادية، فهو عليه الصلاة والسلام لجأ إلى الله، وطلب الشفاء منه، وهذا صبرٌ على طاعة الله، فحصل له أنواعُ الصبر كلها.

ثم قال تعالى: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾. صبرُ أيوب عليه السلام هذا الصبر العظيم على المرض وفقد الأولاد وفقد الأهل، ومع ذلك لم ينس الله عزَّ وجلَّ، لجأ إليه عند الشدائد.

وقوله: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ نعم: فعل ماضٍ جامد لإنشاء المدح، والعبد: فاعل. وهذا الفعل وشبهه، يحتاج إلى شيئين: إلى فاعل ومخصوص بالمدح، فإن تقدَّم ما يدل على المخصوص، أُستُغني بها تقدم، وإلا فإنه يُقدَّر، وإن كان ظاهرًا، فظاهر، فمثلًا هنا ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ السياق يدلُّ على المخصوص، وحينئذٍ لا حاجةَ إلى تقديره؛ لأنه من المعروف أن العبد هو أيوب، فلا حاجة إلى التقدير. ولكن بعض النحويين يُقدِّر ولو عُلِم؛ لأنه يرى أنه لا بُدَّ من ذكر الفاعل والمخصوص. فيقول المؤلف: [﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أيوب] أيوب هو المخصوص، والعبد فاعل.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ هذه جملة استئنافية تعليلية، تعليلًا للثناء على أيوب أنه نعم العبد؛ لأنه كان

﴿أَوَّابٌ﴾ أي: رجّاع إلى الله عزَّ وجلَّ.

فوائد الآيات:

١ - في هذه الآيات الثناءُ على أيُّوب عليه الصلاة والسلام بما ذُكر من أوصاف، وفيها الإشادة بمناقبه، حيث أمر اللهُ نبيه مُحمدًا ﷺ أن يَذكرَ عبده أيوب.

٢ – **ومن فوائدها:** بيان أنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا لقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

٣ - بيان صدق لجوء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى الله تعالى في كونهم يفزعون إليه عند الشدائد لقوله: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

٤ – **ومن فوائدها:** جواز إضافة الأشياء إلى أسبابها؛ لأن أيوب عليه السلام أضاف هذا الضُرَّ إلى الشيطان لأنه سببه.

٥ – **ومن فوائدها:** جواز التوسُّل إلى الله تعالى بحال العبد؛ لأن أيوب عليه الصلاة والسلام توسَّلَ إلى الله تعالى بحاله؛ وهو أنه مسَّه الشيطان بنُصبٍ وعذاب. ونظير هذا قول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[القصص:٢٤] فتوسَّلَ إلى الله تعالى بذكر حاله وأنه فقير إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا أحد أنواع التوسُّل الجائز.

ويحسُن هنا ذكر أنواع التوسل وهي:

أولًا: التوسُّل إلى الله تعالى بأسمائه.

ثانيًا: التوسُّل إلى الله تعالى بصفاته.

ثالثًا: التوسُّل إلى الله تعالى بأفعاله.

رابعًا: التوسُّل إلى الله تعالى بذكر حال الداعي.

خامسًا: التوسُّل إلى الله تعالى بدعاء من تُرجى إجابتُه.

سادسًا: التوسُّل إلى الله تعالى بالإيمان.

سابعًا: التوسُّل إلى الله تعالى بالعمل الصالح.

كل هذه الأنواع من التوسُّلِ جائزةٌ.

فالتوسُّل إلى الله بأسمائه مثلَ أن نقول: اللهُمَّ يا غفور اغفر لي.

والتوسُّل إلى الله بصفاته مثل قولك: اللهُمَّ برحمتك أستغيثُ، اللهُمَّ بعلمكَ الغيبُ وقدرتك على الخلق، أحيني إذا علمْت الحياة خيرًا لي.

والتوسُّل إلى الله بأفعاله مثل: اللهُمَّ صلِّ على مُحمدٍ وعلى آل مُحمدٍ كما صليْتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

والتوسُّل إلى الله بذكر حال الداعي: كما في هذه الآية: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

والتوسُّل على الله تعالى بدعاء مَنْ تُرجى إجابتُه: كتوسل الصحابة بدعاء النبي ﷺ.

والتوسُّل إلى الله تعالى بدعاء مَنْ تُرجى إجابتُه: كتوسل الصحابة بدعاء النبي ﷺ.

والتوسُّل إلى الله تعالى بالإيمان مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾[آل عمران: ١٩٣].

والتوسُّل إلى الله بالعمل الصالح: كقصة الثلاثة الذين لجأوا إلى الغار، فانطبقت عليهم الصخرة، فتوسَّلَ كل منهم بعمله الصالح(١).

أما التوسُّل الممنوع: فهو التوسُّل إلى الله تعالى بما لم يجعله وسيلة، لا شرعًا ولا قدرًا، وهذا التوسل مُحرَّم. وهو نوع من الاستهزاء بالله عزَّ وجلَّ، كأنَّ الإنسان يتقدَّم بشيء يجعله وسيلة، وهو ليس بوسيلة، فكأنَّه يستجهل الله عزَّ وجلَّ.

٦ - **ومن الفوائد:** بيان إجابة الله عزَّ وجل للدعاء، وهو دليل على مِنَّته على عباده لقوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾.

٧ - بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ حيث أنبع الماءَ من ضرب الرِّجل.

٨ - إثبات الأسباب لقوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ ولو شاء الله تعالى لأنبع له الماء بدون الركض بالرِّجل، ولكن الله تعالى جعل ذلك سببًا.

٩ - أن الله تعالى قد يجعل السبب الضعيف الذي لا يقوم بالمسبَّب سببًا مؤثِّرًا، كما أنَّه قادر على أن يمنع السبب المؤثِّر فلا يؤثِّر؛ فالركض بالرِّجل ليس من العادة أن يُنبع الماء، والإلقاء في النار من العادة أن يُحرق، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام أُلقي في النار ولم يحترق، وأيوب عليه الصلاة والسلام ركض برجله الأرض فنبع الماء. ففيه دليلٌ على أنَّ الله تعالى قد يجعل السبب الضعيف قويًا مؤثرًا، ويجعل السبب القوي المؤثِّر غير مؤثِّر.

١٠ - بيان القدرة الإلهية بكون هذا الماء النابع من جوف الأرض باردًا وصالحًا للشرب.

١١- الإشارة إلى المطهر للباطن، وهو ما يُعرف عند الناس الآن بالهلول، أي يتخذون أشياء مُليِّنة للبطن، تُنظِّفه، لقوله، لقوله: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

١٢ - أنَّ الله تعالى يَمُنُّ على العبد بأكثر مما فقد إذا صبر واحتسب؛ لأن أيوب عليه الصلاة والسلام وهب الله له أهله ومثلهم معهم، فأنت اصبر، تظفر.

١٣ - أنَّ ما حصل للإنسان من نعمةٍ فإنه بمقتضى رحمة الله تعالى، لقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾.

١٤ - أن في هذه القصة العظيمة ذكرى لأولي الألباب، وقد بيَّنا وجوه هذه الذكرى.

١٥ - جواز استعمال الحِيل المُباحة لقوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾، وهذا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

الحُكم ثابت حتى في الشريعة الإسلامية، فلو حلف رجلٌ على أن يضرب شخصًا مئة مرة، وكان هذا الشخص لا يتحمل الضرب مئة مرة، قال أهل العلم: فله أن يأخذ ضغثًا به مئة شمراخ؛ ويضرب به ضربةً واحدة، وبنوا على هذا ما لو زنى رجلٌ مريضٌ مرضًا لا يُرجى زواله، ولا يتحمَّل الضرب مئة على انفراد، قالوا: فإنه يُجمع له ضغث به مئة عود، ويُضرب به ضربة واحدة؛ أخذًا بما أفتى الله عزَّ وجلَّ به أيوب عليه الصلاة والسلام.

١٦ - أن الحِنثَ في اليمين في الأصل حرام؛ لقوله: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾، ولكنَّ الله تعالى يسَّرَ لعباده، وأجاز لهم الحِنثَ مع الكفَّارة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾[المائدة:٨٩]، إلى قوله: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[المائدة:٨٩] قال العلماء: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أي: لا تُكثروا اليمين، وقال بعضهم: أي: احفظوها من الحنث، فلا تحنثوا فيها، والوجهان كلاهما لا يتنافيان.

والإنسان ينبغي له أن يحفظَ يمينه فلا يحنث، ولكن مع ذلك أحيانًا يكون الحنث خيرًا.

وقد قسَّم العلماء الحنثَ في اليمين إلى الأحكام الخمسة فقالوا: قد يجب الحنث، وقد يَحرُم، وقد يُكرَه، وقد يُستحَب، وقد يُباح.

فإذا حلف ألا يُصلي مع الجماعة؛ فالحنث واجب؛ لأنه يجب أن يُصلِّي ويُكفِّر. ولو حلف أن يشرب الخمر، فالحنث واجب، يجب أن يدعه وأن يُكفر. ولو حلف على ألا يشرب الخمر، كان الحنث مُحرم؛ لأنه لو شربها لفعل مُحرَّمًا، ووقع في المُحرم. ولو حلف ألا يُصلِّي راتبةَ الظهر، فالحنث هنا مُستحَب. ولو حَلَف أن يأكلَ بصلًا أو ثومًا، وهو ممن يحضر المسجد؛ كان الحنث مُستحبًا. ولو حَلَف على ألا يأكل البصل، يكون الحنث مكروهًا. المهم أن المكروه والمستحب مُتضادان، والواجب والمحرم متضادان، أما المباح فهو إذا تساوت المصلحة والمفسدة، فهو مُباح.

١٧ - الثناء على أيوب عليه الصلاة والسلام بالصبر، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ وهذا يتعدى إلى غيره أيضًا، فإن من كان صابرًا فهو محل للثناء.

١٨ - الثناء على أيُّوب عليه السلام بهذا الوصف: والعبودية لله عزَّ وجلَّ لا شكَّ أنها تمام الحرية، وكل من كان لله أعبد، فهو أشد تحرُّرًا ممن كان على العكس.

وقد قال ابنُ القيم - رحمه الله - بيتًا في النونية مفيدًا، قال:

هربـــوا من الرِّقِّ الذي خُلقُوا له ... وبُلُوا بـــرِقِّ النَّفس والشَّيْطانِ

هؤلاء هربوا من عبادة الله سبحانه وتعالى وصاروا عبيدًا لنفوسهم وشياطينهم، فأشرف أوصاف الإنسان أن يكون عبدًا لله عزَّ وجلَّ، أسألُ الله تعالى أن يجعلَني وإيَّاكم من عباده الصالحين.

١٩ - الثناء على أيوب عليه السلام بكونه رجَّاعًا إلى الله بفعل الطاعات وترك المعاصي لقوله:

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾. وعلى هذا يكون هذا الوصف لكل مَنْ اتصف به، وكل من كان رجَّاعًا إلى الله فإنه يُثنى عليه.

٢٠ - إثبات الأسباب، وجواز نسبة الشيء إلى سببه المعلوم حِسًا، أو شرعًا بدون أن يُنسب إلى الله. فلو قلت مثلًا: سقطْتُ في البحر، ولولا فلان لغرقت، لكان هذا صحيحًا؛ لأنه أضافه إلى سبب معلوم، لأنه هو الذي انتشله من الماء. ومن ذلك قول الرسول ﷺ في عمه أبي طالب: «لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»(١) فأضاف الشيءَ إلى سببه المعلوم.

أمَّا إذا أضافه إلى سببٍ غير معلوم، فهذا نوعٌ من الشرك، ثم قد يكون شِركًا أكبر، وقد يكون شِركًا أصغر، بحسب الحال. فإذا قال: سقطْت في البحر ولوْلا فلان - الولي الميت - لهلكْت، لكان هذا شِركًا، وهو شرك أكبر في هذه الحالة.



قال الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥-٤٧].

التفسير

اذكر يا مُحمد، وتذكَّر أيها المُخاطَب هؤلاء السادةُ الأبرار، ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إبراهيم بدل من عبادنا، بدل بعض من كل، وما عطف عليه يُكمِّل الكل. والعبادة هنا أخصُّ الخاصّة؛ لأنها عبودية الرسالة والنبوة، وإبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام إمام الحنفاء، الذي أُمرنا باتباع ملته: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾[النحل:١٢٣]، وإسحاق ابنه، ويعقوب حفيده ابن ابنه.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾ قال المؤلف: [أصحاب القوى في العبادة، ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ البصائر في الدين] يعني اذكرهم مُشيرًا إلى قوتهم في الدين؛ لأن الأيدي جمع يد والمُراد باليد هنا القوة، وكذلك الأبصار أي: البصائر في دين الله؛ لأنهم رسل، وأبصرُ النَّاس في عبادة الله هم الرسل.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ﴾ قال المؤلف: [وفي قراءة ﴿عَبْدَنا﴾، وإبراهيم بيان له، وما بعده عطف على عبدنا]، أي: أنها تُقرأ بالجمع وبالإفراد، والقراءة هنا سبعية؛ لأنَّ القاعدةَ أنَّ المؤلف إذا قال: [وفي قراءة] فهي سبعية، وإذا قال: [قُرِئ] فهي شاذة.

ثم قال: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ أي: نقيناهم وصفيناهم؛ لأن إخلاص الشيء أن تزيل شوائبه

---

(١) متفق عليه:أخرجه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩).

حتى يبقى خالصًا، ومنه إخلاص الدين لله وهو أن تزيد عنه شوائب الشرك.

وقوله: ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ بيَّنها المؤلف بقوله: [هي ذكرى الدار] أفادَ المؤلفُ أنَّ ﴿ذِكْرَى﴾ خبر لُمبتدأ محذوف تقديره: هي ذكرى، ويجوز أن تكون (ذكرى) بدلًا من (خالصة) أو عطف بيان لها. والمُراد بالدَّار هنا الآخرة، أي: ذكرى الدار الآخرة. ذكرها والعمل لها. وفي قراءة بالإضافة، أي: «بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ» وهي للبيان، أي الإضافة هنا بيانية على تقدير مِنْ؛ لأن الإضافة البيانيةَ تكون على تقدير مِنْ، كما تقول: خاتم فضة، أي: من فضة، أو تقول: ثوب خَزٍّ، أي: من خز. باب خشب، أي: من خشب، وهكذا قال: ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ أي: الدَّار الآخرة، أي: تذكرها والعمل لها.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ الضمير يعود على الثلاثة: إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿عِندَنَا﴾ عند الله. والعندية هنا عندية المرتبة لا عندي المكان؛ لأن مرتبتهم عند الله أنهم من هؤلاء ﴿الْمُصْطَفَيْنَ﴾.

المصطفى اسم مفعول بمعنى المختار، وهنا ﴿الْمُصْطَفَيْنَ﴾ جمع مذكر سالم، ولكن فيه إشكال، وهو أن من المعروف أن جمع المذكر السالم بكسر ما قبل الياء، نقول: المسلمِين والمؤمنِين والقانتِين والصابرين والصادقين، وهنا ما قبل الياء مفتوح، والمعروف أنَّ الذي يفتح فيه ما قبل الياء هو المُثنى، كما تقول: الرجلَيْن والمسلمَيْن والمؤمنَيْن وهكذا، فلماذا فتح ما قبل الياء في ﴿الْمُصْطَفَيْنَ﴾؟ قال النحويون: لأنَّ أصله المصطفى بالألف فَحُذِفَت الألف لأنها ساكنة؛ ولأن الياء بعدها ساكنة فتُحذف، كما قال ابن مالك:

إنْ ساكنان التقيا اكسر ما سبق وإنْ يكن ليِّنًا فحذْفه استحق

فالآن التقى ألفٌ وياء فتُحذف الأولى منهما وهي هنا الألف وتبقى الفتحةُ دليل عليها، ﴿الْمُصْطَفَيْنَ﴾ يعني في العبادة والعلم والرسالة ﴿الْأَخْيَارِ﴾ [جمع خيِّر بالتشديد]، والخيِّر على وزن فَيْعِل، وهو كثير الخير، ولا شك أن هؤلاء الرسل الثلاثة فيهم خير كثير، وجاء من نسلهم رسل كرام، وأمم من أفضل الأمم. جاء من نسْل إبراهيم أمَّة مُحمد ﷺ، وهي أفضل الأمم وأكرمها عند الله.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآيات:** الثناء على إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام بأنهم أصحاب قوة في عبادة الله، وبصيرة في دين الله تعالى.

٢ - **ومن فوائد هذه الآيات:** أنَّه ينبغي ذِكر أهل الخير بالثناء؛ لأن في ذلك فائدتين:

الفائدة الأولى: إحياء ذكر هؤلاء ليتبين فضلُهم ويُدعى لهم.

والفائدة الثانية: الاقتداء بهم واتباعهم فيما هم عليه مما استحقوا به الثناء.

٣ - **ومن فوائد هذه الآيات:** أنَّ الله تعالى أخلصَ هؤلاء بخالصة، وهي أن تُذكُر الدار

الآخرة، بحيث لا ينغمسون في ترف الدنيا.

٤ - **ويتفرع عن هذه الفائدة:** أن من أنعم الله عليه بهذه الصفة وهي أن تُذكِّر الدار الآخرة فإنَّ هذا من الأمر الذي يستحق الثناء عليه هو، ويستحق الربَّ عزَّ وجلَّ عليه الشكر، حيث لم يجعل هذا ممن ينطوي في سلك أهل الدنيا.

٥ - **ومن فوائد هذه الآيات:** أنَّ لله تعالى عبادًا مُصطَفَين لقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ لأنَّ «مِن» هنا إمَّا للجنس أو للتبعيض، فتدلُّ دلالةً واحدة.

٦ - **ومن فوائدها:** أنَّه إذا كان العامل له مراتب فإنَّ العمل كذلك له مراتب؛ لأن العامل إنما ينال المراتب بحسب عمله. ويتفرع عن هذه الفائدة ما فيه دليل لمذهب أهل السُنة والجماعة: مِن أن الإيمان يزيد وينقص.

٧ - **ومن فوائد هذه الآيات:** أنَّ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ عليهم الصلاة والسلام من هؤلاء المُصطَفين.

٨ - **ومن فوائدها أيضًا:** أنَّ مَن اصطفاهم الله فإنهم أصحاب خير وفضل لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ فرتَّب الخيِّرين على الاصطفاء.



قال الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٨].

التَّفسِيرُ

قوله: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ إسماعيل ابن إبراهيم أفرده بالذكر؛ لأنَّ سلالته تختلف عن سلالة إسحاق ويعقوب، فإسحاق ويعقوب سلالتهما بنو إسرائيل، وهؤلاء سلالتهم العرب، ولهذا أفرده. ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ وهو نبيّ، واللام زائدة، فإذا كانت اللام زائدةً فإن الأصل هو يسع، وهو نبي ولكنَّه نبي رسول؛ لأن كل نبي ذكر في القرآن فهو رسول. ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ مختلف في نبوته، فقيل: إنه نبيٌّ، والكفل يعني العمل والنصيب، يعني صاحب العمل الكثير والنصيب. هذا على القول بأنه رسول، أما على القول بأنه غير رسول فقد قال المؤلف: [قيل: إنه كفل مئة نبي فروا إليه من القتل]، وكلمة قيل: تدلُّ على أنه ضعيف، فالظاهر أنَّ معنى ذا الكفل صاحب العمل الكثير، والجدِّ والنشاط.

وقوله: ﴿وَكُلٌّ﴾ أي: كلهم، وعلى هذا فإن التنوين عوض عن اسم كلهم ﴿مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [جمع خيِّر بالتثقيل]. وقول المؤلف: [جمع خيِّر بالتثقيل] مثل قوله السابق: [جمع خيِّر بالتشديد].

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** الثناءُ على إسماعيلَ واليسعَ وذي الكفل عليهم الصلاة والسلام؛ لأن الله أمر بذكرهم للثناء عليهم، وبيان فضيلة هؤلاء الرُسل الثلاثة: إسماعيل واليسع وذا الكفل عليهم الصلاة والسلام.

٢ - **ومن فوائدها:** أنَّ لله عبادًا أخيارًا منهم هؤلاء الثلاثة، لقوله: ﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** أنَّ لله تعالى فضلًا على بعض العباد، يُحرمه على البعض الآخر. حيث يجعل هؤلاء من المصطفين الأخيار، والآخرين على العكس من ذلك.



قال الله تعالى:

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص:٤٩-٥٤].

التفسير

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ قال المؤلف: [لهم بالثناء الجميل هنا ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الشاملين لهم ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾ مرجع في الآخرة].

قوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ يُحتمل ما قال المؤلف، أي: أنَّ هذا ذكر لهؤلاء السادة بالثناء الجميل، ويحتمل أنَّ المراد هذا ذِكْر للناس، أي: تذكيرٌ لهم، كما قال الله تعالى في أول السورة: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ وهذا الأخير أرجح، يعني هذا المذكور في آخر السورة ذِكْر لجميع الناس، ثم الناس ينقسمون إلى مُتَّقٍ وغير مُتَّقٍ ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ومنهم الرسل بل سادة المتقين وعلى رءوسهم، ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾ أي: مرجع، وهنا قال: ﴿لَحُسْنَ﴾ ففيه إشكالٌ حيث إنَه منصوب مع دخول اللام عليه؛ لأنها لام الابتداء، وتُسمَّى باللام المُزحلقة دخلت على «حُسْن» اسم «إن» مؤخر، و ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: خبر مُقدم.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾: بدل أو عطف بيان ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾ ولهذا نُصبت ﴿جَنَّٰتِ﴾ لكن نُصبت بالكسرة نيابة عن الفتحة، والجنة في الأصل البستان الكثير الأشجار، سُمي به لأن يَجُنُّ من كان فيه أي: يستره، والمُراد بها دارُ النعيم التي أعدَّها الله للمتقين في الآخرة، وعدن بمعنى إقامة، أي: الجنات التي يقيم فيها ساكنُها ولا يتَحول عنها، ولا يبغي عنها حِولًا، ولا يرى أن لغيره فضلًا

عليه، كلُّ واحدٍ من أهل الجنة يَرى أنَّه لا فضل لأحد عليه، وهذا هو تمام النعيم؛ لأن الإنسان إذا رأى أنَّ غيره أفضل منه احتقر ما أعطاه الله، ولهذا قال النبي ﷺ: «انْظُرُوا إِلَى مَن هُوَ أَسْفَلَ مِنكُم وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُو فَوْقَكُم»(١).

قال: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ مفتحة ولم يقل: مفتوحة، وذلك لكثرة الفاتحين أو لكثرة الأبواب أو لهما جميعًا. فعلى الأول كثرة الفاتحين، يكون المعنى أنَّ لهم خَدمًا كثيرين يفتحون لهم الأبواب، وعلى الثاني يدل على أنَّ أبوابها كثيرة لكثرة مَنْ يدخلها. ومن المعلوم أن أبوابَ الجنة الأصلية الكبيرة ثمانية، ولكن هناك غُرف في وسط الجنة تجري من تحتها الأنهار لها أبوابٌ فتفتح لهم الأبواب.

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي: في هذه الجنات، والاتكاء يدل على الهدوء والطمأنينة وعدم القلق، وأيضًا يدلُّ على أنَّ الإنسانَ ذو سلطان يُخدم ولا يَخدِم. وقوله: ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنات. وبيَّن المؤلفُ على أي شيءٍ يتكئون فقال: [على الأرائك]، كما جاء ذلك في آيات أخرى.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ يدعون، أي: يطلبون يعني يقولون: هاتوا فاكهة ﴿كَثِيرَةٍ﴾ كثيرة النوع وكثيرة العين، أي: أنواع كثيرة، وكذلك أعيان كثيرة. فأيًّما تطلب حصل لك.

﴿وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾ هذا الشراب بيَّن الله أنواعه وأجناسه بأنه أربعة ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[محمد:١٥] هذه أربعة أنواع مِن شراب الجنة، ولكن هذه الأصناف تختلف عمَّا في الدنيا اختلافًا عظيمًا، أي: فلا تظن أن الماء كالماء الذي في الدنيا، أو أنَّ العسل كالعسل الذي في الدنيا، أو أن اللبن كاللبن الذي في الدنيا، أو أن الخمرَ كالخمرِ الذي في الدنيا، بل تختلف اختلافًا عظيمًا لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[السجدة:١٧] ولو كان لا يختلف لكنَّا نعلم هذا، وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَينٌ رَأَت، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(٢) اللهم اجعلْنا من أهلها.

وقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قال المؤلف: [حابسات العين على أزواجهن] قاصراتُ الطَّرف، أي: حابسات، والطرف: النظر، أي: أنهن يقصرن النظر على أزواجهن. هذا معنى من المعاني. والمعنى الثاني: قاصرات طرف أزواجهن فلا ينظر أزواجهن إلى غيرهن، والفرق بينهما ظاهر، ولكنَّ اللفظ صالح للأمرين، فهن قاصرات طرفهن لا ينظرن إلى غير أزواجهن، وهن قاصرات طرف أزواجهن، فلا ينظر أزواجهن إلى غيرهن.

أما نساء الدنيا فإن بعضَ النساء إذا خرجت إلى السوق أخذتْ تنظر إلى الرجال، وتقارن بين

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٩٠)،و مسلم (٢٩٦٣).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

هذا الرجل وبين زوجها، وكذلك الرجل إذا خرج إلى السوق فبعض الرجال يتطلع إلى النساء ويُقارن بين من يرى من النساء وبين زوجته، وتجده إذا وجد من النساء مَن هي أجمل مِن امرأته انشغل قلبه بها، وأعرضَ عن امرأته، وزهدَ فيها، ولهذا كان من الحكمة العظيمة وجوب ستر الوجه لأن الرجل إذا لم يرَ وجه المرأة لم يتغيَّر نظره بالنسبة إلى امرأته، لكن إذا رأى امرأة كالشمس، وزوجته على خلاف ذلك، تعلَّق قلبُه بهذه المرأة التي كالشمس، وزهد في امرأته.

وقوله: ﴿أَتْرَابٌ﴾ يعني أنهن على سنٍ واحدة شابات بنات ثلاث وثلاثين سنة. كذلك أهل الجنة يدخلون الجنة وهم أبناء ثلاث وثلاثين سنةً، ولا يتغير أحد منهم، يبقى على ما هو عليه، وكونهن أتراب يُقال: إنَّهُنَّ أتراب في السن، وأتراب في الجمال، وفي كل شيء؛ لئلا يميل الإنسان إلى مَن فاقت غيرها، ويكون نظره إليهن على حدٍ سواء.

قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ قال المؤلف: في قراءات في ﴿تُوعَدُونَ﴾ [بالغيبة والخطاب التفاتًا] الخطاب (ما توعدون)، والغيبة (ما يوعدون)، والقراءتان سبعيتان قال المؤلف: [التفاتًا] أيُّهم الذي فيه التفات الغيبة أم الخطاب؟ قال تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ «لهم» غيبة ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾ «يدعون» غيبة «وَعِندَهُمْ» غيبة إذًا الالتفات في أي شيء؟ الالتفات في الخطاب ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ يعني يُقال لهم: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ على ضمير الخطاب وعلى ضمير الغيبة يكون هذا خبر من الله عزَّ وجلَّ بأنَّ المذكور هو الذي يوعدون به يوم القيامة.

﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [أي: لأجله] هذا ما مشى عليه المؤلف، أي: أن اللام في قوله: ﴿لِيَوْمِ﴾ للتعليل، ولكنَّ الصحيحَ أن اللام للتوقيت فهي كقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[الطلاق:١] فاللام هنا بمعنى «في» لأنها للتوقيت، أي: هذا ما توعدون في ذلك اليوم ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾ وهو يوم القيامة، وسُمِّي يوم الحساب؛ لأن الناس يُحاسبون فيه على أعمالهم.

قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ إنَّ هذا يعني المشار إليه ما ذكر من نعيم الجنة ﴿لَرِزْقُنَا﴾ لعطاؤنا، واللام في قوله: ﴿لَرِزْقُنَا﴾ للتوكيد، ﴿مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ من: حرف جر زائد لفظًا ومعنىً، نفاد: اسم مجرور لفظًا بـ «من» في محل رفع مبتدأ مؤخر. ﴿مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ أي: انقطاع، و «ما» هنا يتفق فيها التميميون والحجازيون لتقدُّم الخبر، ولا تكون ما حجازية إلا مع الترتيب، لقول ابن مالك:

إِعمالَ ليس أُعمِلت ما دونَ إنْ ... مع بقا النفي وترتيبٍ ذُكِنْ

قال المؤلف: [﴿مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ أي: انقطاع، والجملة حال من (رزقنا) أو خبر ثانٍ لـ «إن» أي: دائمًا أو دائم]. اختصار شديد من المؤلف رَحمه الله. والجملة حال من (رزقنا) وعلى هذا يكون

المعنى ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ أي: انقطاع دائمًا أو نقول: خبر ثانٍ لـ «إن» هذا لرزقنا، إن هذا ما له من نفاد، ويكون التقدير دائم إذًا في الكلام لف ونشر مُرتب.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآيات:** أنَّ القرآن الكريم ذِكرٌ يُذكرَ به الله لتلاوته، وذِكرٌ يتذكر به الإنسان معادَه ومعاشه. وذكرٌ يُذكِّر به غيره. وقد ذكرْنا هذا في أول السورة.

٢ - **ومن فوائد هذه الآيات:** بشارة المتقين بأنَّ لهم حُسنَ المآب، أي: المرجع، وعلى العكس من ذلك غير المتقين لهم سوء المآب؛ لأن الله إذا حكم للشيء بصفة من الصفات، فإنه يُحكم له بضده إذا انتفت هذه الصفة. لو قال قائل: لماذا لا تقولون: إنَّه إذا انتفت هذه الصفة ولم تثبت الصفة المُتضادة، فلا يُستحق الثناء المُثبت بالصفة، ولا القدح الذي يكون بضدها؟ فالجواب على ذلك أن نقول: لا شك أنَّ الأمور طرفان ووسط، الطرفان مُتضادان، والوسط بينهما، لكن قد دلَّ الكتابُ والسُنةُ على أنَّ التقوى وضدها ليست طرفًا ووسطًا بل هما طرفان متقابلان، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾[يونس:٣٢] فإذا ثبت للمتقين حُسن المآب فلغيرهم سوء المآب، ولا نجعل هنا شيئًا وسطًا؛ لأنه لا وساطة بين الإيمان والكفر، والتقوى والفسوق.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** الحثُّ على التقوى وذلك بذكر ثوابها. لأن الحثَّ على الشيء بالأمر به كما هو ظاهر، ويكون بالوعيد على تركهِ والثناء على فعله. وطرق الحث على الشيء متنوعة ومنها ذِكر حُسن المآب.

٤ - **من فوائد قوله تعالى:** ﴿جَنَّـٰتِ عَدۡنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾: إثبات الجنات لهؤلاء، وأنها هي حُسن المآب لقوله: ﴿جَنَّـٰتِ عَدۡنٍ﴾ ولا شكَّ أن أحسن مآب يؤوب إليه البشر هو الجنات، فإن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وكل إنسان مؤمن إنما يسعى إلى الوصول إلى هذه الغاية العظيمة.

٥ - **ومن فوائدها:** أن الجنات دار إقامة؛ لقوله: ﴿جَنَّـٰتِ عَدۡنٍ﴾ فالناس مُقيمون فيها لا يرحلون عنها، ولا يبغون عنها حولًا ففيها إقامتان: إقامة لا ارتحال عنها. والإقامة الثانية لا يبغي المقيم عنها حولًا. يرى أنها محل إقامة وأنها أشرف مكان؛ وذلك لأنه لو رأى أن غيره أشرف منه لم يتم نعيمه؛ لأنه يرى أنه قاصر، وهذا بخلاف أهل النار فكل واحد يرى أنه لا أحد أشد منه عذابًا؛ لأنه لو رأى أن أحدًا أشد منه عذابًا لتسلَّى به، لكنه بالعكس يرى أنه أشد الناس عذابًا.

وأهل الجنة لا يرى أحدهم أن أحدًا آخر أكمل منه نعيمًا، على وجهٍ يفوقه، بل يرى أنه هو في أكمل ما يكون من النعيم حتى لا يتنغص عليه نعيمه.

٦ - **ومن فوائد الآية:** أن للجنة أبوابًا لقوله: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** كثرةُ الخدَم المستفاد من قوله: ﴿مُّفَتَّحَةً﴾ ولم يقل: مفتوحة، بل هي تفتح

ويستقبلون بها، كلما دنوا من غرفة فتحت لهم الأبواب.

٨ - **من فوائد قوله تعالى:** ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾: أنَّ أهل الجنة يطلبون كل ما يشتهون من الفواكه لقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾ وفي سورة الدخان: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان:٥٥].

٩ - **ومن فوائدها:** أنَّ لأهل الجنة شرابًا، يدعون فيها بكل شراب، وقد مرَّ علينا في التفسير أنَّ أنواع الشراب أربعة.

١٠ - **من فوائد قوله تعالى:** ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ يعني: في الجنة الأزواج المُطهرات العفيفات البالغات في الحُسْن غايته لقوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾.

١١ - **ومن فوائدها:** أنَّ هؤلاء قاصراتُ الطرف، خيِّرات الأخلاق، طيبات ليس فيهن نشوز إطلاقًا لقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ في الدنيا الزوجة تارةً تكون عندك، وتارةً تغضب وتذهب إلى أهلها. لكن في الجنة زوجاتهم دائمًا عندهم، ليس هناك نشوز ولا غضب، بل أخلاق طيبة على ما ينبغي.

١٢ - **ومن فوائدها:** كمالُ عفة هؤلاء النساء لكونهن قاصرات الطرف على أزواجهن، لا ينظرْن إلى غير أزواجهن، وفيها كمال جمال هؤلاء النساء؛ لأنهن يقصرن أطراف أزواجهن عليهن، فالزوج لا ينظر إلى غيرها؛ لأنها قد ملأت عينه، وسرت قلبه.

١٣ - **ومن فوائدها:** أنَّ هؤلاء النساء أو هؤلاء الأزواج أتراب متساويات في السن والخلق، بحيث لا تَغار واحدة من الأخرى لكونها أجمل منها، أو أسن منها، أو ما أشبه ذلك لقوله: ﴿أَتْرَابٌ﴾.

١٤ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾: أنَّهم يُخاطبون بما يسرهم، ويدخل السرور في قلوبهم لقوله: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ عكس أهل النار فإنهم يوبخون ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾[غافر:٥٠] وما أشبه ذلك، أما هؤلاء فيدخل في قلوبهم السرور فيُقال لهم: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ به أخذتموه، ووصلتم إليه، وجنيتموه.

١٥ - **ومن فوائد هذه الآية:** إثباتُ يوم القيامة، وأنَّه يوم الحساب لقوله: ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

١٦ - **ومن فوائدها:** حثُّ الناس على العمل؛ لأنه كلما تذكر الإنسان أنه سوف يُحاسب عن عمله، فإنه سوف يحرص ويجتهد في العمل حتى لا يُحاسب على شيء يكون عليه.

١٧ - **من فوائد قوله تعالى:** ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ أنَّ هذه الجنات التي وُعد بها هؤلاء المتقون فضلٌ من الله ومِنَّة لقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا﴾.

١٨ - **ومن فوائدها:** أنَّ هذا الرزق لا ينفد أبدًا، ولا ينقطع أبدًا. فالفاكهة في كل وقت، ولحم

الطير في كل وقت، والشراب في كل وقت، والزوجات في كل وقت، وليس في الجنة فصل صيف ليس فيه فاكهة شتاء، ولا فيها فصل شتاء ليس فيه فاكهة صيف. بل كلُّ شيء ليس له نفاد.



قال الله تعالى:

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص: ٥٥ - ٦٤].

التفسير

قال: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ هذا: مبتدأ، لا بد له من خبر، وخبرُه محذوف قدَّره المؤلف بقوله: [للمؤمنين]، ولكنَّ الصحيح أن نقدِّر: للمتقين؛ لأن الله قال: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ فالأولى أن نقول: هذا للمتقين، فما لغيرهم؟ قال: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ كلام مُستأنف ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ الطاغين: جمع طاغية، والطاغي مَن تجاوز الحدَّ، وحدُّ الإنسان أن يكون عبدًا لله ممتثلًا لأمره مُجتنِبًا لنهيه، فمن لم يَمتثل للأمر فهو طاغٍ، ومن ارتكب النهي فهو طاغ. قال تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طه:٤٣].

فإن قال قائل: ما الشاهد على أنَّ الطغيان تجاوزَ الحد؟ قلنا: قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة:١١]. أي: لما تجاوز الماءُ حدَّه.

﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ أي: شرُّ مرجع، وشر منصوبة على أنها اسم إن مؤخر. ما هو شر المآب؟ قال: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ هذا عطف بيان ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ وهي نار جهنم، سُمِّيت بهذا الاسم لأنها تتضمن الجهمة لسوادها؛ لأنه ليس فيها نور، ولبعد قعرها - والعياذ بالله - فقد سمع النبي ﷺ ذاتَ يوم وهو وأصحابه رضي الله عنهم في المدينة وجبة، يعني وقعة شيء، فقال: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَا»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبعِينَ خَرِيفًا فَهُو يَهْوِي فِي

النَّارِ حَتَى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا»[1] سبعين سنةً، وَهو حَجَرٌ كَبير لَهُ صَوتٌ عَظيم يَهْوِي فِي النار؛ لأَنَّهَا بعيدةُ القَعْر جدًّا، ولهذا صارت مُدلهمَة – والعياذ بالله – سوداء.

وقيل: إن لفظ جهنم ليس عربيًّا وأنَّ أصلَه في الفارسية كهنام، ولكنَّه عُرِّب فصار جهنم. وعلى هذا فلا يُرد علينا أنه من الجهمة، وهو السواد والبُعد، فيُقال: جهنَّم اسم للنار علم غير مُشتق، وأيًا كان فهو اسم من أسماء النار نعوذ بالله منها.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال؛ لأن جهنَّم معرفةٌ، والمعرفة تكون الجملة بعدها حالًا. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ قال المؤلف: [أي: يدخلونها]، لكن هذا لا يكفي، بل يصلونها، يُعذبون بصلاها، وهو شدة الحرارة ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾: الفراش، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾[النبأ:٦] وفي آية أخرى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾[البقرة:٢٢] ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ أي: هي؛ لأنه – والعياذ بالله – افتراشها شديد، ولحافها شديد، قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزُّمَر:١٦] نعوذ بالله.

﴿هَٰذَا﴾ قال المؤلف – رحمه الله –: [أي: العذابُ المفهوم مما بعده ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾] اللام في قوله: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ للأمر، والدليل على أنها لام الأمر وليست لامَ التعليل، أنها سُكِّنت بعد الفاء، ولام الأمر تُسكَّن بعد الفاء والواو وثم. ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ أي: فليكتووا بحره، والاكتواء بحره هو ذوقه، وذوق كل شيء بحسبه، فالطعام والشراب يذوقه الإنسان بمذاق الفمِّ، والنار يذوقها بحرارتها في أي موضع من مواضع الجسم، والبرْد كذلك يذوقه بلسعه في أي موضع من الجسم ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ﴾ قال المؤلف: [أي: ماء حار مُحرق، ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ بالتخفيف والتشديد ما يسيل من صديد أهل النار] نعوذ بالله.

﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، و ﴿حَمِيمٌ﴾: خبر، ﴿وَغَسَّاقٌ﴾: معطوف عليه، وتكون جملة ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ مُعترضة بين المبتدأ والخبر للمبادرة بإهانتهم، فإن قوله: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ لا شكَّ أنه إهانة، فمن أجل المبادرة قدم هذا على الخبر، أي: قدَّم قوله: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ وأصلُ الكلام على الترتيب: هذا حميم وغساق فليذوقوه.

انظر للشراب ﴿حَمِيمٌ﴾: ماءٌ حار وليست حرارته سهلةً أو يسيرة، قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾[الكهف:٢٩] أولًا لا يأتيهم هذا الشراب بسهولة، إنما يأتيهم بعد أن يعطشوا عطشًا شديدًا ثم يسألوا الله أن يُغيثَهم من هذا العطش، وإذا أُغيثوا يغاثوا بهذا الماء كالمهل يشوي الوجوه، إذا دنى من وجوه من يشربوه شواها، قال العلماء: تتساقط لحومُ الوجه، ثم إذا شربوا في البطون قطَّع أمعاءهم، قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[محمد:١٥] فيُقَطِّع ظاهرَهم وباطنَهم والعياذ بالله، قارِن بين هذا الشراب وبين شراب أهل الجنة: ﴿أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٤٤)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٧١).

غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[محمد:١٥] ومع ذلك يشربون ما يشاءون، وهذه الأنهار لا تجري في أخاديد، ولا ضمن جدران تمنع سيلان الماء، إنما تجري على وجه الأرض، قال ابن القيم في النونية:

أنهارُها في غير أخــدودٍ جرتْ سُبحانَ مُمْسِكِها عــن الفيضان

والغِساق أيضًا – والعياذ بالله – بمجرَّد ما تسمع معناه تشمئز، صديد أهل النار، الصديد الذي يجري من أجسامهم من احتراقها هذا أيضًا نوع من شرابِهم، فصار شرابُهم إمَّا ماءً حار يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء، وإمَّا صديد أهل النار ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾[إبراهيم: ١٧].

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَاخَرُ﴾ قال المؤلف – رحمه الله -: [بالجمع والإفراد] ﴿وَءَاخَرُ﴾ مفرد و «أُخَرَ» جمع، ففيها قراءتان سبعيتان، ﴿شَكْلِهِۦٓ﴾ أي: من جنسه، [أي: مثل المذكور من الحميم والغساق ﴿أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي: أصناف، أي عذابهم من أنواع مختلفة]. ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ مِن جنسه، ﴿أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ أصناف من العذاب يُعذَّبون بها كما أراد الله عزَّ وجلَّ، ويُهانون غاية الإهانة، يُقرَّعون ويُوبَّخون، ثم يُمَنَّون بالخروج، ترتفع بهم النارُ حتى يقتربوا من أبوابها ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾[السجدة:٢٠] وهذا من شدة العذاب. لو أن شخصًا محبوسًا، وكان يقرب من الباب، يظن أنه سيخرج فإذا به يُرد، فهذا أشد عذابًا عليه مما لو بقي في مكانه، فهم يُنوَّع عليهم العذاب أنواعًا عظيمة لا تخطر بالبال، ولا تدور في الخيال.

قال المؤلف: [﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ أصناف، أي: عذابُهم من أنواع مختلفة. ويُقال لهم عند دخولهم النار بأتباعهم ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ جمع ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ داخل ﴿مَّعَكُمْ﴾ النار بشدة، فيقول المتبوعون: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ أي: لا سعةَ عليهم ﴿إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ ﴿قَالُواْ﴾ أي: الأتباع ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ﴾ أي: الكفر ﴿لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ لنا ولكم النار] أعوذُ بالله ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[الزُّخرُف:٦٧]، انظر كيف العداوةُ بين أهل النار ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[الأعراف:٣٨] وهكذا المجرمون في الدنيا الذين يوالي بعضُهم بعضًا سوف يكونون يوم القيامة أعداء. فلا ولايةَ لأحد في الآخرة إلا من كان مُتقيًا، هؤلاء هم الذين تبقى ولايتهم، وأما غير المتقين فهم وإن كانوا أولياء في الدنيا فإنَّ ولايتَهم في الآخرة تزول نهائيًا.

وقوله: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ الفوج: الطائفة، والغالب أنَّها تكون لطائفةِ الكبيرة ﴿مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ أي: داخل بمشقة؛ لأن الاقتحام لا بُدَّ أن يكون هناك ازدحامٌ شديدٌ ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾[البلد:١١] أي: صعدها بشدة، هؤلاء أيضًا يدخلون النار بزحامٍ شديد، فهو فوج مُقتحمٌ معكم، أي: يُقال لهم، إذا دخلوا النار، وهذا من قبل أهل النار بعضَهم لبعض، أو قبل خزنة جهنم للقادة: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾: يعنون الأتباع، داخل معكم النار. فيقول القادةُ والرؤساءُ المتبوعون:

﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أي: لا نريدُهم، نتبرأ منهم، ولا تتسع صدوُرنا ولا أمكنتُنا لهم، والمرحب مأخوذ من الرحبة، وهي السعة فيقولون: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أي: لا نرحب بهم ولا نريدهم، بل نحن نابذهم غاية المُنابذة ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ إنهم، أي: هؤلاء الذين اقتحموا معنا ﴿صَالُوا النَّارِ﴾ كما صليّناها، فيجيبُ أتباعُ هؤلاء الرؤساء المتبوعين، ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ بل إضراب إبطال، يعني أبطلوا قولهم: ﴿لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ يعني: قدَّمتم لنا الكفر، وسهلتم لنا سلوك سُبله، وزيَّنتموه في نفوسنا حتى تبعناكم ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ لنا ولكم النار. أعوذ بالله كل منهم الآن يتبرأ من الآخر.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالُوا﴾ أي: الأتباع: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾ [أي: مثل عذابه على كفره في النار]. ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ أي: مَن قدَّم لنا الكفر، وهم المتبوعون ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾ ضعفًا يعني زائدًا على عذاب الأصل، يعني عذِّبهم لكونهم كفروا، وعذِّبهم لكونهم قدَّموا لنا هذا الكفر، ولكن هذا ليس إليهم لكلِّ امرئٍ منهم ما عمل، وهؤلاء المتبوعون هل أجبروا الأتباعَ على اتباعهم؟ أبدًا لم يجبروهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾[غافر:٤٨] حكم بينهم بعدله فجازى كل واحد منهم ما يستحق.

ثم قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ يقول المؤلف: [﴿وَقَالُوا﴾ أي: كفار مكة وهم في النار] والصواب: أنَّ المراد بهم كل الكفار. الكفارٌ يرون أن المؤمنين كلهم ضالون. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾﴾[المطففين:٢٩ - ٣٢] وليس هذا خاصٌ بكفار مكة، كلُّ الكفَّار إلى اليوم يروْن أن المؤمنين أشرار ضالون. ويصفونهم بأنهم طُغاة مُفسدون في الأرض، والحقيقة أنَّ الأمر بالعكس. الطُغاة المُفسدون في الأرض الضالون الظالمون المُعتدون هم الكافرون، كما قال الله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[البقرة:٢٥٤] فلا أحدَ أشدُّ فسادًا وعدوانًا وظُلْمًا وطُغيانًا من الكافر؛ لأنه يتمتع بنعم الله ويُبارز الله بالكفر به.

ثم يقول الكفار: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ كنا، أي: في الدنيا ﴿نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ نعدهم يعني باعتقادنا ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [أي: في الدنيا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾﴾ فلم نرهم؟] يقول بعضهم لبعض: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ ما لنا لا نرى فلانًا وفلانًا الذين كُنَّا نعدُّهم من الأشرار؟ هل نحن اتخذناهم في الدنيا سخريًا، نسخر بهم ونقول: أنتم الأشرار، وأنتم الطُغاة وما أشبه ذلك، وهم

ليسوا كذلك؟ أم أنَّهم كما تصوَّرْناهم في الدنيا وعددناهم من الأشرار وأنهم الآن في النار، لكن أبصارنا زاغت عنهم.

فانظر كيف الاهتمام، يقولون: هل نحن اتخذناهم سخريًا في الدنيا وقلنا: إنَّهم من الأشرار وهم ليسوا منهم؟ هذا أولًا، وإذا كانوا ليسوا منهم فلن يدخلوا النار، أم أنَّهم كانوا أشرارًا حقيقة، وإنَّ قولنا: إنَّهم كانوا أشرارًا كلامُ جَدٍّ، وهم الآن في النار، ولكن زاغت عنهم أبصارنا؟ والجواب الأول هو الحقيقي.

ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ عنهم: ﴿أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، سقطت لأجلها همزةُ الوصل، استغناء عنها، واتَّخذناهم: فعل ماض، وفاعل، ومفعول به أول، وسخريًا: مفعول به ثانٍ، والياء للنسب فالسخري أقوى من السخر، كما قيل في الخصوص: خصوصية، للدلالة على قوة ذلك، فافهمه؛ فإنه جيد.

وقوله: ﴿أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [أي: أمفقودون هم ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ مالت ﴿عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٦٣﴾﴾ فلم نرهم؟] والجواب أن يُقال: إنَّكم اتخذتموهم سِخريًا وسخرتم بهم، واستهزأتم بهم، ووصفتموهم بالعيب والشر، وهم براء منه.

قال المؤلف: : [﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ مالت ﴿عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ فلم نرهم؟ وهم فقراء المسلمين، كعمَّار وبلال وصهيب وسلمان] هذا بناء على أن القائلين كُفَّار مكة، أمَّا إذا قلنا بالعموم، فكل زمان له أهل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: المشار إليه من كل ما ذُكِر مِن تخاصم أهل النار ﴿لَحَقٌّ﴾، أي: أمرٌ ثابت واقع، وهذا تأكيد لخبر الله عزَّ وجلَّ، مع أنَّ خبر الله كله حق وصدق وثابتٌ. والمراد بالحق هنا الصدق؛ لأنه إخبار عن أمر سيقع.

وقوله: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ تخاصم: بدل أو عطف بيان لقوله: «حقٌّ» والمؤلف - رحمه الله - قدَّرَهُ خبرًا لمبتدأ محذوف فقال: [وهو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ كما تقدم] يتخاصم الأتباعُ مع المتبوعين.

الفوائد:

١ - **ومن فوائد الآيات:** كمال القرآن في التعليم والتبليغ، وأنَّه مثاني إذا ذكر المتقون وثوابهم ذكر المجرمون وعقابهم، ولهذا قال: ﴿هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ الطاغين ضد المتقين لهم شر مآب.

٢ - **ومن فوائد هذه الآيات:** أنَّه ينبغي للداعية إلى الله أن تكون دعوتُه تارةً بالترغيب، وتارة بالترهيب، بل الأفضل أن يجعل دعوتَه مُشتملة على الترغيب والترهيب؛ وذلك لأنها أي: الدعوة إذا كانت مُقتصرة على الترغيب صارت سببًا للأمن من مكر الله، وأن يتمادى الإنسان في معصية الله، وإذا كانت مُشتمِلةً على الترهيب صارت سببًا للقنوط من رحمة الله، واستبعاد الرحمة، وهذا

ضرر، بل ينبغي أن يكون الداعيةُ جامعًا بين هذا وهذا؛ ليحملَ الناسَ على الرجاء وعلى الخوف. ولهذا قال الإمامُ أحمد: ينبغي أن يكونَ خوفُه ورجاؤه واحدًا، فأيُّهم غلب هلك صاحبه. وقال بعض أهلُ العلم: الرجاء والخوف كالجناحين للطائر إنْ انخفض أحدُهما سقط الطائر، وإن تساويا صار طيرانه مُتزنًا.

وقال بعضِ أهل العلم: ينبغي للإنسان عند فِعْل الطاعة أن يُغلِّب جانب الرجاء، وعند الهمِّ بالمعصية أن يُغلِّب جانب الخوف؛ لأنَّه إذا فعل الطاعةَ فقد فعل سبب الرجاء، وإذا فعل المعصية فقد فعل ما يكون سببًا للخوف.

وقال بعض العلماء: ينبغي في حال الصِّحة أن يُغلِّب جانب الخوف، وفي حال المرض أن يُغلِّب جانب الرجاء حتى يموتَ وهو يُحسن الظن بالله عزَّ وجلَّ.

ولعلَّ القول الوسط هو أنَّ الإنسان إذا فعل المعصية أو هَمّ بها غلَّب جانب الخوف، وإذا فعل الطاعةَ أو هَمَّ بها غلَّب جانب الرجاء. وهذا قول طيب، ولكن ليس قولُنا: أن يُغلِّب جانب الرجاء أو الخوف ألا يكون لديه شيء من الطرف الآخر، بل يجمع بين هذا وهذا، لكنَّ الكلام على التغليب.

٣ - **ومن فوائد هذه الآيات**: أنَّ الطاغين مآبهم شر مآب، بخلاف المُتَّقين فإن مآلهم أحسن مآب. الطاغون مآلهم شر مآب؛ لأنَّ مآلهم إلى جهنم - والعياذ بالله - وقد ذكر الله تعالى من أنواع العقوبات في هذه الدار ما يكفي ردعًا للمؤمن عن المعصية.

٤ - **من فوائد قوله تعالى**: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ أنَّ من أسماء النار جهنمَّ.

٥ - **ومن فوائدها**: أن هؤلاء يَصلونها، أي: يقعون في صلاها، أي: حرها الذي لا يمكن أن يُبَرَّدَ أبدًا، لكنْ مع ذلك ورد أنهم يُطاف بهم أحيانًا في زمهرير شديد البرودة وأحيانًا في نار شديدة الحرارة.

٦ - **ومن فوائدها**: الثناءُ بالقدح على هذه الدار، أي: ذمَّ هذه الدار، أما الجنة فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾[النحل:٣٠] فمدحَ دار المتقين، أما هذه فقال هنا: ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ فأثنى عليها بالقدح والقبح والسوء.

٧ - **من فوائد قوله تعالى**: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ أن أهل النار - والعياذ بالله - يذوقونه، أي: العذاب، بين حميم وغسَّاق، أي: يسقون ماءً حارًا وصديد أهل النار الغساق - والعياذ بالله -، والإنسان منهم ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾[إبراهيم:١٧].

٨ - **ومن فوائدها**: تنويع العذاب للطُغاة لقوله: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ أي: أصناف متنوعة من العذاب، وهذه الأصناف مذكورة في الكتاب والسُّنة فمن

أحب أن يُراجعها فليُراجعها في الكتب المؤلفة في ذلك.

٩ - **ومن فوائد الآيات:** أنَّ أهل النار يتنازعون فيما بينهم ويتخاصمون ويتلاعنون، كلَّما دخل فوج لعن الثاني ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[الأعراف:٣٨] وهنا يقول الله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾.

١٠ - **ومن فوائدها:** أنَّ الأتباع والمتبوعين من أهل النَّار كلهم يكونون في النار، فلا يَعذر هؤلاء بتبعيتهم للسادة والكبراء، ولكن هذا ليس على إطلاقه؛ فإنَّه قد دلت النصوص على أنَّه لا يُعذَب أحد حتى تقوم عليه الحُجةُ، وعلى هذا فيحمل الأتباع هنا على الأتباع الذين بلَغَتْهم الحجة وبلغتهم الرُسل، ولكن قالوا: إنَّا وجدْنا آباءنا على أُمَّةٍ، ولهذا قال تعالى في الأحزاب: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[الأحزاب:٦٦ - ٦٨] فدلَّ هذا على أنَّ هؤلاء الأتباع قد قامتْ عليهم الحُجةُ، ولهذا يقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾.

١١ - **ومن فوائد هذه الآيات:** أنَّ أهل النار يُكلِمُ بعضُهم بعضًا، ويَنظر بعضُهم إلى بعض، وهم ليسوا أحياءً ولا أمواتًا، ليسوا أحياءً مُنعَّمين، ولا أمواتًا مُستريحين، بل هُم أحياء مُعذبون.

١٢ - **ومن فوائد هذه الآيات:** تبرؤ التابع من المتبوع، وبالعكس كما دلَّتْ آياتُ سورة البقرة ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[البقرة:١٦٦ - ١٦٧].

١٣ - **ومن فوائد الآيات:** أنَّ أهل النَّار يتذكَّرون ما جرى لهم في الدنيا؛ لقوله: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ وكذلك أهلُ الجنَّة يتذكرون ما كان لهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ يقول لصحبه الذين معه في الجنة ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ رأى قرينه ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ وهو يسمع هذا في أعلى عليين وهذا في أسفل السافلين يسمع ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥١ - ٥٧] أي: من المُحضرين في العذاب كما أنت مُحضَر في العذاب.

١٤ - **ومن فوائد هذه الآية:** قصور عقل أهل النار حيث قالوا: ﴿كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ لأنَّهم إذا لم يروهم الآن فهم إما إنهم ليسوا في النار، وإمَّا إنَّ هؤلاء قد زاغت أبصارهم، وقد صرحوا بذلك في قولهم: ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾﴾ فيُقال: إنَّ الواقع أنكم الآن مُقصرون إما في الدنيا وإما في الآخرة، إن كنتم اتخذتموهم سخريًا فهذا تقصير في الدنيا، وإنْ

كانت أبصاركم زاغتْ عنهم فهذا قصور في الآخرة.

١٥ - **ومن فوائد هذه الآيات**: أنَّ هذا الخصام الذي يقع بين أهل النار حق لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ﴾ ويتفرع عن هذه الفائدة: أنَّه يجب على كلِّ أحدٍ ألا يغتر بالسادة والمتبوعين، بل يكون همه نفسه.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [ص: ٦٥، ٦٦].

التفسير

ثم أمر الله رسوله مُحمدًا ﷺ أن يقول لكفار مكة: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ﴾ ﴿قُلْ﴾ لا شكَّ أنَّ الخطابَ للرسول ﷺ، وأنَّه من الخطاب الخاصّ به؛ لأن الإنذار الذي هو إنذار الرسالة خاصّ بالرسول ﷺ، وقول المؤلف: [﴿قُلْ﴾ يا مُحمد لكفار مكة] وجه التخصيص أنَّ هذه السورة مكيّة قبل أن يُهاجر النبي ﷺ، فيكون الخطاب الموجه إليه بالإعلام بأنه مُنذِر خاصٌّ بأهل مكة، ولكنه يُقال: إن الأولى أن يجعلها عامة، وأن يُقال: العِبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والمكان.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ﴾ مخوف بالنار الكفار، فالإنذار بالنار للكفار، والبشارة بالجنة للمؤمنين، لكن المقام هنا يقتضي الإنذار.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ هذا حصر من أعظم أنواع الحصر؛ لأنه مبني على النفي والإثبات، النفي المؤكد بـ «مِنْ» ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لأن «مِنْ» حرف جر زائد، والزائد يفيد زيادةَ المعنى في القرآن الكريم، وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي: ما من معبود حقّ إلا الله، وإلا فهناك آلهة تُعبد لكن ليست بآلهة حقًا، بل هي أسماء سماها أصحابها ما أنزل الله بها من سُلطان، ولهذا لا يعبدونها العبادة الحقة. إذا أصابهم الضُرُّ يدعون الله وحده، وهم بلسان حالهم يشهدون بأن هذه الأصنام التي يعبدونها ليست آلهة.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي: ما مِن إله حقٍّ إلا الله خالق السماوات والأرض عزَّ وجلَّ، الواحد الذي لا شريك له، القهَّار الذي لا غالب له، بل هو قاهر لخلقه. والقهَّار هنا يجوز أن يكون التضعيف فيها للنسبة، ويجوز أن يكون التضعيف فيها للتكثير فتكون صيغة مبالغة، ويمكن أن نقول: إنها للأمرين جميعًا، فالله تعالى من صفاته اللازمة له أنَّه قهار، ولكثرة مَن يقهرهم مِن الجبابرة يكثر قهره، فتكون هذه للنسبة وللتكثير الذي يُسمَّى المبالغة.

وقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ رَبُّ: هذه بدل من ﴿ٱللَّهُ﴾ ويجوز أن تكون خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره: هو رَبُّ.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ سبق الكلام عليهما كثيرًا.

وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: من المخلوقات العظيمة التي نعلمها والتي لا نعلمها. وقد سبق لنا أن بيَّنا أن كون الله تعالى يجعل ما بين السماوات والأرض قسيمًا للسماوات والأرض يدلُّ على عظم ما بينهما من المخلوقات التي لم نصل إلى الآن إلى غايتها.

وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ قال المؤلف: [الغالب على أمره] وهذا أحد معاني العزيز؛ لأن العزيز له ثلاثة معانٍ: العزيز بمعنى ذي القدر والشرف، والعزيز بمعنى القهر والغلبة، والعزيز بمعنى الذي يمتنع أن يناله السوء، مأخوذ من أرض عزاز، أي: صلبة لا تؤثر فيها الفئوس. إذًا العزة لها ثلاثة معانٍ: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع، أي: يمتنع أن يناله السوء سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي: الكثير المغفرة، ولنا أن نجعلها نسبة، أي: أنَّه موصوف بالمغفرة دائمًا فما أكثر مَنْ يَغفرَ الله لهم، وما أكثر الذنوب التي يغفرُها الله عزَّ وجلَّ، وهنا قرن العِزَّةَ بالمغفرةِ فأكسب معنىً ثالثًا غَير العزةِ والمغفرة، وهو أنه مع عزَّته وغلبته وقهره هو مع ذلك غفار بخلاف من يتصف بالعزة من المخلوقين فإنه في الغالب تكون عزته تغلب مغفرته، أو من اتصف بالمغفرة فتجد عنده ضعفًا وليس عنده عِزَّةٌ، فإذا اجتمعت العزَّة والمغفرة حصل من ذلك معنى مركب من اجتماعها، وهو أكمل مما لو انفرد أحدهما، ولا شكَّ أن غلبة المغفرة على العزة فيها نقص، وغلبة العزة على المغفرة فيها نقص، فإذا اجتمعا جميعًا صار هذا أكمل، أي: أن عزَّته وغلبَته وقهره لا تخلو من المغفرة.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** أمر النبي ﷺ بإعلان رسالته لقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أنَّه ينبغي في الكلام مراعاةُ الحال حيث إنَّ المقام هنا مقام تهديد، فلهذا اقتصر على الإنذار فقط مع أن الله تعالى قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[البقرة:١١٩].

٣ - **ومن فوائدها:** توحيدُ الله تعالى بالألوهية ونفيها عما سواه لقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** أنَّ الأسماء لا تُغيِّرُ المُسمَّيات؛ فإن هناك من يُسمى إلهًا ولكنه حقًّا ليس بإله، ويتفرع عن هذه الفائدة أننا لو سمَّينا الشيء المُحرم باسم حلال فإنه لا يتغير الحكم فيه، ولهذا جاء في الحديث «أنَّه يشرب الخمرَ أُناسٌ يسمُونها بغير اسمها»[1] وهذا يدلُّ على أنَّ الأسماء لا تُغيرِّ المسميات والحقائق.

٥ - **ومن فوائد الآية:** إثبات الوحدانية لله في قوله: ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٣٧)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٤١٤).

٦ - **ومن فوائدها:** الردُّ على النصارى القائلين بأنَّ الله تعالى ثالثُ ثلاثة، ويتفرع عن هذه الفائدة أيضًا أن دينَهم كَذِبٌ، وأعني دينهم الذي يدينون به الآن، لأنَّ عيسى عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يأتي بآلهةٍ مُتعدِّدة، ولهذا يقول له الله عز وجل: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٧].

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثباتُ القهْر التام لله عزَّ وجلَّ لقوله: ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ وهذا يستلزم للمؤمن به أن يخافَ من الله عزَّ وجلَّ من قهره، ويستلزم أيضًا تقوية المؤمن الواثق بالله في قهر أعدائه؛ لأنك إذا وثقت بأن الله هو القهار، وأنَّ الله معك لكونك أتيتَ بالأوصاف التي تستوجب معيَّة الله لك، فإنَّ هذا يُقويِّك على عدوِّك، وتعلم أن هذا العدو لا بُدَّ أن يكون مقهورًا بقهر الله عزَّ وجلَّ.

٨ - **وفي قوله عز وجل:** ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ إثبات عموم ربوبية الله عزَّ وجلَّ لقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ لأنَّ السماواتِ والأرض وما بينهما هي كل الكون الذي نعلم به، ولعلَّ العرشَ والكرسي داخل في السماوات من حيث العلو.

٩ - **ومن فوائدها:** إثباتُ اسمين من أسماء الله وهما: العزيزُ والغفار، وإثباتُ ما تضمناه من الصفة مُجتمعين ومنفردين، وهما أي: العزَّة والمغفرة مُجتمعين أقوى وأشدُّ وأعظم في كمال العزة والمغفرة.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص: ٦٧ - ٧٠].

التَّفْسِيرُ

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ هو، أي: النبأ الذي أنبأتُكم به والذي جِئْت به مُنذِرًا؛ نبأ عظيم، والنبأ بمعنى الخبر، لكنَّه لا يكون إلا في الأمر الهام. قال الله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١ - ٢] ووصف الله هذا النبأ بأنه عظيم، وهو القرآن، وقد وصفَ الله القرآن بأنَّه عظيم وكريم ومجيد؛ لأنَّه يتصف بهذه الصفات، ومن أخذ به نال من هذه

الأوصاف بقدر ما أخذ به.

وقوله: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ جملة استئنافية يُراد بها لفْت الانتباه إلى فداحة ما يرتكبونه من جريرة الإعراض عن ذلك النبأ، وهو القرآن، وشدة الشناعة على هؤلاء المُكذبين لرسول الله ﷺ فهم مع هذا النبأ العظيم لم يقبلوا عليه، بل أعرضوا عنه، ولم يلتفتوا إليه، ولم يقيموا له وزنًا.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ يعني: هذا النبأ العظيم لا يمكن أن آتي به من عند نفسي؛ لأنه ليس لي علم بالملأ الأعلى، يعني: الملائكة فهم ملأ لكنهم فوق، إذ إن الأصل في مساكنهم السماوات، ولكن ينزلون إلى الأرض لأداء الوظائف التي كُلِّفوا بها ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ قال المؤلف: [أي: الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ في شأن آدم حين قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة:٣٠)] والصحيح أنَّ معنى الآية أعمُّ مما قاله المؤلف؛ لأن ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ في شأن آدم، وفي الدرجات العُلى وغيرها مما يختصم فيه الملائكة، ويرجعون فيه إلى الله.

قال المؤلف: [﴿إِن﴾: ما ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا﴾ أي: أني ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ بين الإنذار]. نقول: إنما أفادنا المؤلف أن «إنْ» هنا نافية، وهو أحد معانيها، دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنَّمَا﴾ أي: أني ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ قوله؛ [أي: أني] تفسير لـ ﴿أَنَّمَا أَنَا﴾ لأنَّ أصله أنِّي، لكن دخلت ما الكافة على «أن» فأبطلت عملها. ثم لما دخلت عليها لزم أن ينفصل الضمير المتصل، دخلت (ما) على (أن) ففصلت بين (أن) والضمير، والضمير المتصل إذا وُجد ما يفصله عما اتصل به صار منفصلًا، فهنا تكون ﴿أَنَا﴾ هي الياء في قول المؤلف: [أني].

قوله: ﴿إِلَّا أَنَّمَا أَنَا﴾ هذه الصيغة تكون أشدُّ تأكيدًا للحصْر؛ لأن الحصر استنفدناه من قوله: ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا﴾ واستثناه أيضًا من قوله: ﴿أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ فحُصِرَ حالُ النبيِّ عليه الصلاة والسلام بأنَّه نذير مبين، وهذا الحصر حصْر إضافي، أي: إنما أنا في هذه المسألة خاصَّة، وهو الوحي نذير مبين، وإلا فإنه بشر ينسى ويأكل ويشرب، فالحصر إذًا إضافي بحسب السياق. وقوله ﴿مُبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ قال المؤلف: [بين الإنذار] والصواب: مُظهر، وليست من أبان اللازم، بل هي من أبان المُتعدي؛ لأنَّ كلمة أبان تكون لازمة، كما تقول: أبان الصبح، أي: ظهر، وتكون مُتعدية، كما لو قلت: هذا مبين لهذا، أي: مُظهر له، فالصواب: أن مُبين هنا بمعنى مُظهِر.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآيات:** عِظم ما جاء به الرسول - عليه الصلاة والسلام - مِنْ الوحي، وأنه نبأ عظيم، وهذا كقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾﴾ [النبأ:٣].

٢ - **ومن فوائدها:** أنَّه متى عظُم هذا النبأ العظيم، عظُم مَنْ يأخذ بهذا النبأ لأنه أساس

ومنهاج وطريق، فإذا عظُم، عَظُم الآخذ به؛ ولهذا كانت الأمةً الإسلامية عظيمة مرموقة مهيبة حين كانت آخذةً به.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** القدح في من أعرضَ عن هذا النبأ العظيم لقوله: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾ يعني كيف يليق بكم أن تُعرضوا عنه مع أنه نبأ عظيم؟!

٤ - **ومن فوائد قول الله عزَّ وجلَّ:** ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩﴾ نفْي عِلْم الرسول ﷺ بالغيب سواء كان مستقبلًا أم حاضرًا ولكنَّه غائب عنه لقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ نفي عِلْم بملأ موجود لكنَّه غائب عنه، فإذا كان لا يَعلم الغائبُ الموجود، فالغائب عنه المنتظر من باب أولى.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الملأ الأعلى وهم الملائكة عليهم السلام.

٦ - **ومن فوائدها:** بيان علوِّ مرتبة الملائكة، كما أن مكانهم كذلك عالٍ؛ لأنهم في السماوات، كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم:٢٦] وعلوُّ المرتبة فيهم اختلف العلماء هل هي أعلى من البشر الصالحين أم صالحو البشر أعلى من الملائكة وأفضل؟ فمنهم من قال: إن الملائكة أفضل، ومنهم من قال: إن صالحي البشر أفضل، والنزاع هنا قليل الفائدة؛ لأننا نعلم أن الملائكة لهم خصائص لا يلحقهم فيها البشر، وللبشر خصائصُ لا يلحقهم فيها الملائكة، فالتفضيل على الإطلاق لا يصحُّ؛ لأن هؤلاء لهم ميْزة وهؤلاء لهم ميزة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إنَّ الملائكة أفضل باعتبار كمال البداية؛ لأنهم خُلقوا من نور، والنور أكمل وأفضل من الطين والتراب، وإن البشر أفضل باعتبار النهاية؛ لأن البشر يكونون في رحمة الله، والملائكة أنفسهم يدخلون عليهم من كل باب يُهنئونهم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[الرعد:٢٤].

ولكن الذي أرى أنه ينبغي أن يُقال: إن التفضيلَ ليس باعتبار البداية والنهاية بل باعتبار بعض الخصائص التي تكون لهؤلاء دون هؤلاء.

٧ - **ومن فوائد الآية:** إثباتُ أنَّ الملائكة عليهم السلام ذوو عقول لقوله: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** إثباتُ المناظرةِ والمخاصمة بين الملائكة، كما هي أيضًا تكون بين الرسل وأقوامهم، وبين أتباع الرسل بعضهم مع بعض.

٩ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٧٠﴾ إثبات الرسالة للرسول ﷺ لقوله: ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ والوحْيُ يكون للرسول إذا كان أوحي إليه أن يُنذر الناس ويُبشِّر الناس، ولكنَّ الوحي يكون أحيانًا بالإلهام كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾[النحل:٦٨] فهذا وحيُ إلهام، وكما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾

[القصص:٧] هذا أيضًا وحيُ إلهام وليس وحيُ نبوةٍ وإرسال.

١٠ - **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات أنَّ الرسول ﷺ نذير.

١١ - **ومن فوائدها:** أنَّ الرسول ﷺ مبيِّن لكلِّ ما أَنْذرَ به؛ لأنَّ معنى مُبِيِّن مُظهر للحق والوحيُّ الذي جاء به.

١٢- **ومن فوائدها:** أنَّه لا يمكن أن يكون في شريعة النبي - عليه الصلاة والسلام - شيء مجهول أبدًا، بل كل ما جاء به فهو بيِّن، لكنَّ الجهل أمرٌ نسبي قد يكون المجهول شيئًا مُعَيَّنًا لبعض الناس، وهوَ بيِّن معلوم لأُناس آخرين.



قال الله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٧١-٨٥]

التَّفْسِيرُ

قوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ قال المؤلف: [اذكر ﴿إِذْ قَالَ﴾] فأفادنا - رحمه اللهَ - أنَّ ﴿إِذْ قَالَ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوف تقديره: اذكر ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ هو آدم، وقوله: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ بشرًا: مفعول به لخالق لاستكمال شروط العمل [﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾: أتممته ﴿وَنَفَخْتُ﴾: أجريت ﴿فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ فصارَ حيًّا ...] إلى آخره. قال المؤلف:

[﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أجريت] وكأنَّه - رحمه الله - أوَّل النفخَ بالإجراء، ولكن هذا خلاف ظاهر الآية، فظاهر الآية أنَّ الله تعالى نفخ فيه من روحه، وهذا النَّفخُ نثْبته على ظاهره، لكن بدون أن يكون مُماثلًا لنفخ المخلوقين. وتفسيرُه بالإجراء تفسير باللازم؛ لأنَّه إذا نفخ فيه الروح لزم أن تجري في البدن وتسري فيه.

وقوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾ قال المؤلف: [إضافة الروح إليه تشريف لآدم] يعني من روحي، ليس المُراد جُزْء من روحي، أي: من الأرواح التي خلقْتها، وأضافها الله على نفسه تشريفًا وتعظيمًا، كما أضاف البيت إليه في قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾[الحج:٢٦] وكما أضاف المساجد إليه في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾[البقرة:١١٤] وكما أضاف الناقَةَ إليه في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾[الأعراف:٧٣] فالمضاف إلى الله إذا كان مخلوقًا فإن إضافتَه إليه تكون من باب التشريف والتعظيم، إذا كان هذا خاصًّا، أما إذا كان عامًّا فهو من باب الشمول والعموم، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[الجاثية:١٣].

ثم قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ قال المؤلف: [والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه] لو قال المؤلف: يحيا به الكائن الحيّ لكان أعمَّ؛ لأن الإنسان له روح، والبهائم لها روح، وقول المؤلف: [جسم لطيف] أمَّا كونه جسمًا فلأنه ثبت في القرآن الكريم أنها تُقبض وتتوفى، وثبت في السُّنة أنها تُكفن، تُلف في الكفن إمَّا من الجنة أو النار، وهذا يدل على أنها جسم، لكنَّه جسمٌ لطيف لا يُرى بالعين، إذا حلَّ في الجسد حَيِيَ، وإذا فُقد من الجسد صار الجسم جمادًا.

ونحن نشاهد مما يصنعه الآدمي ما يكون مثل هذا، إذا كان عندك سالب وموجب في الكهرباء واتصل بعضهما ببعض يسري التيار الكهربائي في المصباح الكهربائي فيُضيء، والتيار الكهربائي شيء لا يُرى بالعين، وإذا فقد أو قطع التيار أظلم المصباح. هذا وهو من صنع البشر، فكيف بالأمور الخارقة التي لا يعلمُها إلا الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[الإسراء:٨٥]. وهذا الذي فسَّر المؤلف الروحَ به هو أحسن ما قيل في تفسير الروح.

يقول الله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُۥ سَاجِدِينَ﴾[ص:٧٢] قعوا: فعل أمر، والوقوع معناه: خرُّوا على الأرض ساجدين، قال المؤلف: [سجود تحية بالانحناء] أما قوله: سجود تحية، فلا شك أن هذا هو المُراد، يعني لا سجود عبادة، وأما قوله: بالانحناء ففيه نظر؛ لأنَّ السجود هو الوقوع على الأرض، وهو ظاهر الآية، ولكن يُقال: إنَّ هذا السجود تحيةً كان جائزًا، ولكنه نسخ بعد ذلك ﴿سَاجِدِينَ ٧٢﴾ محلها من الإعراب حال من الفاعل في قعوا.

قال الله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [فيه تأكيدان] وهما: كل وأجمعون ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ قال المؤلف: [هو أبو الجن كان بين الملائكة] قوله: هو أبو الجن دليلُه قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾[الكهف:٥٠] والدليل على أنه من الجنِّ قوله تعالى:

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾[الكهف: ٥٠] إذن فالجن ذرية الشيطان، والإنس ذرية آدم. نعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

قال المؤلف: [﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ كان بين الملائكة] ولم يقل المؤلف: كان من الملائكة؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾[الكهف: ٥٠] إذن هو كان بينهم، ومن كان بين الناس فهو من الناس، قال النبي ﷺ: «إِنَّ مَوْلى الْقَوْمِ مِنْ أَنْفُسِهِم»[1] فهذا إبليس كان مع الملائكة يتعبد بعبادتهم فصحَّ أن يشملَه الخطابُ الموجَّه إلى الملائكة، ولهذا لامه الله على عدم السجود، فدلَّ على أن الخطاب كان شاملًا له.

وقوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [في علم الله]، قول المؤلف: [في علم الله] بناءً على أن «كان» تدلُّ على الماضي، ولكنَّه قد مرَّ علينا أن «كان» قد تكون مسلوبة الدلالة على الزمان، ويكون المُراد بها الاتصاف بخبرها، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾[النساء:٩٦] المعنى اتصف بالرحمة. إذًا نقول في هذه الآية ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: واتصف بالكفر، ولا حاجةَ أن نقول: كان في عِلْم الله؛ لأننا نقول: إن «كان» هنا مسلوبة الدلالة على الزمن فالمُراد بها مُجرَّد الاتصاف.

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾ الفاعل في قال هو الله؛ لأنه قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ قال: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ يعني: أي شيء منعك؟ وهذا الاستفهام للتوبيخ والتعجب. يعني: كيف تمتنع أن تسجد لمن خلقْته بيديَّ، فالله تعالى خلق آدم بيديه، وهذا شرفٌ له، وأمرَ الملائكة، وكان بينهم إبليس، بالسجود له تشريفًا له، فما الذي منعك أن تسجد؟

قال المؤلف في تفسير قوله: ﴿بِيَدَيَّۖ﴾ [أي: توليْتُ خلقَه، وهذا تشريف لآدم، فإنَّ كل مخلوق تولَّى الله خلقه] عفا الله عنك أيها المؤلف يقول: [توليت خلقه] فرارًا من إثبات اليد لله، ولا شكَّ أن هذا تحريف، وأجاب عن الإضافة في قوله: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ بأنَّ هذا تشريف لآدم، وإلا فكلُّ مخلوق فإن الله قد تولَّى خلْقه.

وبناءً على كلام المؤلف لا يبقى لآدم عليه السلام فضلٌ على سائر المخلوقات ما دُمنا نُفسِّر ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ أي: توليْتُ خلقه؛ لأن الله تولَّى خلْقَ بني آدم، وخلْق الإبل والبقر والغنم وغير ذلك، فلم يبق لآدم فضْل على أي أحد، بل لم يبقَ لآدم فضل على الشيطان الذي أبى أن يسجد؛ لأنَّ الشيطان تولَّى خلْقَه الله عزَّ وجلَّ، ولهذا نقول إن المؤلف: أخطأَ في هذا، وأن معنى الآية: أن الله تعالى خلقَ آدم بيده، وخلقَ غير آدم من الشياطين والملائكة بكلمته، أي: بقول كن، أما آدم

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٨)، وأبو داود (١٦٥٠)، والترمذي (٦٥٧)، والنسائي (٢٦١٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢٨١).

فبيده، وهذا هو وجه الميزة والخصيصة لآدم عليه السلام أن الله خلقه بيده.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ [الآن عن السجود؟ استفهام للتوبيخ ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ المتكبرين، فتكبرت عن السجود] مع الذين منزلتهم فوق؛ لأن الذي يأبى إمَّا أن يكون في مكان أرفع فيكون مُستحقًا للإباء، أو يكون مُستكبرًا وموضعه دُون، فيجعل نفسه في محلٍّ عالٍ، والله يقول له: هل أنت مُستكبرٌ أو أنك عالٍ في مرتبة أعلى من آدم، بل أعلى ممن أمرك؟ الجواب:

قال المؤلف: [﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ المتكبرين، فتكبرتَ عن السجود لكونك منهم] أي: من العالين، وأما قول المؤلف: إن العالين هم المتكبرون فإنه يؤدي إلى ألا يكون فرق بين المتقابلين؛ لأنه قال: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ ولم يقل: من المتكبرين، ولذلك يُعتبر تفسير المتعالين بالمتكبرين خطأ بل ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أي: الذين علت منزلتُهم بحيث لا يُوجه إليهم الأمر بالسجود لمن هو دونهم، فإباء الشيطان عن السجود لآدم إمَّا أن يكون لوصف يستحقه، وهذا يدلُّ عليه ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أو لِوصْفٍ لا يستحقه ولكنَّه استكبر، ورأى نفسه كبيرًا، وهذا في قوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾.

قال الشيطان جوابًا على سؤال الله تعالى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ أي: مِن آدم، وهذه دعوى، وكلُّ إنسان يضيف الشيءَ إلى نفسه فإن مُدَّعٍ، وهذه قاعدة في الفقه، والمدعي عليه البيِّنة. أتى إبليس ببينته فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ ولهذا نقول الجملة هنا استئنافية لبيان وجه الخيرية ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾، سبحان الله، الذي يُخلق من النار خير من الذي يُخلق من الطين، مع أن النار التي خُلِق منها الشيطان ليستْ هي نارًا مُضيئة إنما هي ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[الرحمن:١٥] أي: النار التي تكون في أعلى اللهب بين الدُخان وبين النار المُضيئة، حمراء مُعتمة، إنه اللهب المُختلط بسواد النار، هذا المخلوق من هذه النار أيكون خيرًا من المخلوق من الطين البارد النافع؟ سبحان الله، هذا قلب للحقائق، ولهذا نقول: هذه دعوى مُستندة إلى بينة زائفة باطلة الدعوى ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ والبيِّنة ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ وهذه ليست بينة، هذه حُجَّة عليه وليست حُجة له، وقد ذكر أهلُ العلم في هذا المقام بيان أن ما خُلِق منه آدم خير مما خُلق منه إبليس.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ قيل: من الجنة، وقيل: من السماوات. والملائكة كلهم في الجنة في السماوات ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من السماوات هو أقرب للفظ. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ رجيم، أي: مرجوم فهي فعيل بمعنى مفعول، ومعنى مرجوم، أي: مطرود مُبعد، كما يُبعد الإنسان إذا رُجِم، ومن المعلوم أن الرجل إذا أردْنا أن نُبعده كثيرًا صِحْنا به أولًا، فإذا هرب أتبعْناه الحجارة فكان هذا أشد إبعادًا.

وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ حاقة عليك لعنة الله، أي: طرده وإبعاده ﴿إِلَىٰ يَوْمِ

﴿ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء، وبْعد يوم الدين لا تزول اللعنة لكنَّها إذا امتدت إلى يوم الدين فمعناه أنه قانط من رحمة الله، لا يمكن أن يُرحَم. والذي تبقى معه اللعنة إلى يوم الدين لا يمكن أن تناله الرحمة.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: الناس ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ طلب من الله أن يُنظِرَه إلى يوم بعث الناس، فهل أجابه الله إلى طلبه؟ أجابه الله إلى يوم الوقت المعلوم، قال المؤلف: [وقت النفخة الأولى] أي: قبل البعث؛ لأن الناس لا يُبعثون إلا في النفخة الثانية، لكنَّهم يُصعقون في النفخة الأولى، وهو أي: الشيطان إنما يريد أن يبقى حتى لا يبقى من بني آدم أحد، لأنه صار في نفسه غِلّ وحِقد عظيم على آدم وذريته، كيف أُمر أن يسجد له؟ وكيف حُكم بكفره لما أبى؟ صار في نفسه غِلٌّ وحِقد، فسأل الله أن يبقيَه إلى يوم البعث، فأجابه الله أن يبقى إلى يوم الوقت المعلوم، وإجابة الله إياه لِحِكَم عظيمة نذكرها إن شاء الله مع الفوائد.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ يحتمل أن تكون الباء للقسم، ويُحتمل أن تكون للإستعانة، فإن قلنا: إنَّها للقسم فقد أقسم بعزة الله، واختياره الإقسام بالعزة؛ لأنَّ العزَة فيها الغلبَة، فأقسم بوصف لله يكون به الغلبة، وإن قلنا: إنها للاستعانة فظاهر أن الاستعانة بعزَّة الله التي إذا أعان الله بها العبد غلب. ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ اللام الواقعة في جواب القسم في قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ تؤيِّد أنَّ الباء هنا للقسم؛ لأنَّ هذا هو جواب القسم، وأغوينهم، أي: أسلك بهم طريق الغي، وهو خلاف طريق الرشد ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ﴾ أي: من بني آدم الذين هم ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أخلصتهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[الحجر:٤٢].

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ﴾ الحق: مُبتدأ لأنه مُتضمِن معنى القسم بدليل أنه أُخبر عنه بجواب القسم وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ وقد أعربه المؤلف فقال: [بنصبهما ورفع الأول ونصب الثاني] ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ فنصَبه بالفعل بعده، أي: أن ﴿وَٱلْحَقَّ﴾ مفعول مُقدم لأقول، أي: لا أقول إلا الحق، وتقديم المفعول أفاد الحصر، [ونصب الأول، قيل: بالفعل المذكور، وقيل: على المصدر، أي: أُحِقُّ الحقَّ، وقيل: على نزْع حرف القسم، ورفعه على أنه مُبتدأ محذوف الخبر، أي: فالحقُّ مني، وقيل: فالحقُّ قسمي، وجواب القسم ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾].

إعرابات مُتعددة بنصبهما، نقول الثاني نصبه بالفعل بعده وهو واضح ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ لأنَّ الفعل بعده لم يستكمل مفعولَه، ولم نجد مفعولًا له إلا الحق الذي سَبق، إذًا الحق الثانية منصوبة بأقول على كل حال، والخلاف في الأولى، الأولى إما منصوبةً وإما مرفوعةً، نصبُها فيه أوجه: قيل: بالفعل المذكور، أي: فالحقَّ أقول والحقَّ أقول، فيكون الحق الأولى والثانية منصوبة بأقول، كما لو

قلت:زيدًا وعَمْرًا ضربْتُ، فزيدًا وعمرًا منصوبان بضربت، إذن الحق، والحق منصوبان كلاهما بأقول، وقيل على المصدر أي: فأُحِقُّ الحقَّ، وعلى هذا فيكون مصدرًا عامله محذوف تقديره: فأحق الحق، وقيل: على نزْع حرف القسم، يعني فبالحق أقسم؛ لأنه إذا نزع الخافض نصب المخفوض، ولهذا يَرِد كثيرًا قولهم: منصوب بنزع الخافض، هذه ثلاثة أوجه، ورفع (الحقُّ) الأولى على أنه مبتدأ محذوف الخبر، أي: فالحقُّ مني، وهذا ضعيف، وقيل: فالحقُّ قسمي، وهذا أقل ضعفًا من الأول، والذي يظهر له أنه لا حاجة إلى هذا، والأحسن أن نقول: الحق: مبتدأ ضُمِّنَ معنى القسم، وأجيب بقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ وصار في جواب القسم كفايةٌ عن خبر المبتدأ، واستغني بجواب القسم عن خبر المبتدأ كما يُستغنى بجواب القسم عن جواب الشرط فيما إذا اجتمع شرط وقسم.

قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ المُراد الجنس ولهذا قال المؤلف: [بذريتك ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي: الناس] الذين أقسمْتَ أن تُغويهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾. ولهذا كانت النار دارًا لصنفين من المخلوقات فقط، وهما الجن والإنس، فالملائكة ليسوا من أهلها، والوحوش والحشرات وغيرها ليسوا من أهلها، لا يدخل النار إلا صنفين من المخلوقات، وهما الناس والجن.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآيات:** إثبات الكلام لله عزَّ وجلَّ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ﴾ وإثبات أن كلامَه بصوتٍ مسموع تسمعه الملائكة في هذه القصة، وإثبات أنه بحرف، أي: بحروف مُتتابعة يتبع بعضها بعضًا لقوله: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ وكلُّ هذا تأكيد لمذهب أهلِ السُّنة والجماعة، وفي هذا إثبات أنَّ الكلام يتعلق بمشيئته.

٢ - **ومن فوائد هذه الآيات:** إثبات الخلق لله تعالى وأنه مُتعلِّق بمشيئته لقوله: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ أي: سأخلقه.

٣ - **ومن الفوائد:** إثباتُ أنَّ أصل بني آدم هو الطين، ولهذا جاءت طبائع بني آدم وألوانهم مُختلفة كاختلاف الأرض، أو كاختلاف تربة الأرض فيها السهل واللين، والأحمر والأبيض والأسود، والحزن والصعب؛ لأنهم خُلقوا من هذه التُّربة فصار اختلافهم كاختلاف الأصل الذي خُلقوا منه.

وقلنا هنا: إن في هذه الآية إثبات أن بني آدم خُلقوا من الطين، وفي آيات أخرى أنَّهم خُلقوا من التراب، وفي آيةٍ ثالثة من صلصال كالفخار، ولا منافَة بين هذه الآيات؛ لأن التراب أصلُه طين، والطين أصل الصلصال الذي كالفخار، فالتراب يصير طينًا وحين يمكث مُدة يتحجر فيكون صلصالًا.

٤ - **ومن فوائد الآيات:** إثباتُ الأفعال لله تعالى لقوله: وأنَّ أفعاله تتعلق بمشيئته؛ لأن (إذا)

شرطية تفيد المستقبل.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية:** أنَّ الله تعالى أتم خلْقَ آدم فسواه كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤].

٦ - **ومن فوائدها:** تشريف الروح التي نُفخت في آدم عليه السلام لقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ وهذا تشريف من وجهين:

الأول: أنَّ الله هو الذي نفخها ولم يأمر أحدًا من الملائكة بنفخها.

والثاني: أنَّ الله أضاف هذه الروح إلى نفسه المُقدسة.

٧ - **ومن فوائد الآية:** أنَّ العبادة طاعةَ الله على أي وجه كانت، حتى وإن كانت مُحَرَّمة في وقتٍ من الأوقات لقوله: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ فالسجود لغير الله علامةُ شرك، لكن لما أمر الله به صار طاعةً، والاستكبار عنه كفر.

٨ - **ومن فوائد الآية:** جواز تعليق الأمر بالشرط لقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي: إذا جاز تعليقُ الأمر بالشرط فإنَّ المأمور به يُمكن أن يُنفذ فيه الشرط، ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام لضُباعة بنت الزبير وقد اشتكت إليه عند إرادة الحج قال: «حُجِّي واشْتَرِطِي أن مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي»[1] «فإنَّ لَكِ عَلى رَبِّكِ مَا اسْتَثْنَيتِ»[2].

٩ - **ومن فوائد هذه الآية:** أنَّ الملائكة عليهم السلام ذوو عقول يصحُّ توجيه الخطاب إليهم وائتمارهم لقوله: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

١٠ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أنَّ الملائكة كلهم سجدوا؛ لأنَّ الآية عامةً مُؤكدٌ عمومها بمؤكدين وهما: كل وأجمعون في قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

١١ - **ومن فوائد الآية:** جواز تَوجُّه الأمر (الخطاب) إلى العموم، وإنْ كان فيهم من غير جنسهم؛ لقوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ فإن إبليس بلا شك أنه من غير الملائكة أصلًا ونهايةً، لكنه كان فيهم، فصح أن يتوجه الخطاب إليه، وهذا ظاهر. لو أنك أمرْتَ جماعةً بالسجود، وفيهم من ليس منهم، ولكنه على صفتهم، ويعمل بعملهم، فتخلف لا بد أن تلومه؛ لأن الخطاب موجه للجميع.

١٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** أنَّ الاسم قد يحمل معنى المُسمَّى؛ لأنَّ إبليس يبدو أنه اسم عربي من الإبلاس، وهو اليأس لأنه أيس من رحمة الله عزَّ وجلَّ، وَرُدَّ بأنه لو كان عربيًا لانصرف.

١٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** ذم الاستكبار عن أمر الله لقوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾؛ لأنَّ الاستفهام في قوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ للتوبيخ وذم الاستكبار.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٨٩)، ومسلم (١٢٠٧).

(٢) صحيح: أخرجه النسائي (٢/ ٢٠)، والدارمي (٢/ ٣٤-٣٥) كذا قال الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٠١٠).

١٤ - **ومن فوائد هذه الآية:** أنَّ الاستكبار عن أمر الله كُفْر لقوله: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾ جزاء لاستكباره كان من الكافرين. وفرع بعض العلماء على هذا أن تارك الصلاة يكون كافرًا؛ لأن إبليس كفر؛ لأنه ترك سجدة، فما بالك بالذي يترك سجدات وركوعات وقيامٌ وقعودًا، وهذا ليس بعيد، أي: أن الاستدلال بهذه الآية على كفر تارك الصلاة ليس ببعيد.

١٥ - **ومن فوائد هذه الآية:** توبيخ إبليس لتَرْك السجود لِمَنْ شرَّفه الله عزَّ وجلَّ وأمَرَه بالسجود له لقوله: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾.

١٦ - **ومن فوائدها:** أنَّ كلام الله تعالى يتعلق بمشيئته حيثُ صدر هذا القول بعد استكبار إبليس وتركه السجود.

١٧ - **ومن الفوائد:** إثباتُ اليدين لله تعالى لقوله: ﴿بِيَدَيَّ﴾ وهذه صيغة تثنية تفيد أنَّ لله يدين اثنتين تليق بجلاله.

١٨ - **ومن فوائدها:** شُرف آدم عليه السلام من حيث إن الله خلَقَه بيديه وفضَّلَه على غيره بهذا، إلا أنَّ أهل العلم يقولون: إنَّ الله غرس جنة عدن بيده وكتب التوراة بيده.

١٩ - **ومن فوائد هذه الآية:** الردُّ على أهل التعطيل الذين قالوا: إنَّ المُراد باليدِّ النعمة أو القوة، وذلك أن النعمة أو القوة لا تأتي بصيغة التثنية؛ لأن صيغة التثنية تدل على الحصْر، وقوة الله غير محصورة، ونعمه أيضًا غير محصورة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

٢٠ - **ومن فوائد هذه الآية:** أنَّ يد الله لا تُماثِلَ أيدي المخلوقين؛ لأن الله أضافها إلى نفسه، والمُضاف يكون حسب المُضاف إليه، فكما أنَّ ذات الله مُقدسة لا تُماثِل ذوات المخلوقين، كذلك صفاته.

٢١ - **ومن فوائد هذه الآية:** استعمال الحصْر، أو كما يقولون: السبر والتقسيم في المناظرة والمجادلة لقوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ وقد سبق تفسيرها. بأنَّ المعنى: هل أنت استكبرت في نفسك، وأنت لست أهلًا للعلو، أو كنت عاليًا في أصلك حتى تمتنع عن السجود، أم أنْت أكبر وفي مرتبة عالية أعلى من آدم حتى تمتنع عن السجود؟

٢٢ - **ومن فوائدها:** تنزيل الأشياء منازلها كقوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ لأنَّ العالي إذا كان عاليًا على غيره فإنه لا يمكن أن يُنزَّل حتى يكون أنزل من غيره، بل كل أحد يُنزَّل في منزلته.

٢٣ - **ومن فوائدها:** بيان الدعوة الكاذبة التي ادعاها إبليس في قوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾.

٢٤ - **ومن فوائدها:** أن الإنسان قد يُعمى عن الحق فيستدل بما هو حُجة عليه، يظن أنه حُجة له لقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

٢٥ - **ومن الفوائد:** أنَّ مَن قدم العقل على السمع فإنما هو مُتَّبع لخطوات الشيطان؛ لأن

الشيطان قدَّم العقل على السمع فإنما هو مُتبع لخطوات الشيطان؛ لأن الشيطان قدَّم ما يدعي أنه عقل على السمع فأخطأ في ذلك، فهكذا كلُّ من قدَّم العقل على السمع سواء في العلميات وهي علم العقائد، أو في العمليات فإنه مُشابه لإبليس، مُتبع لخطواته، واعلم أنَّ كلَّ بليه تقع من تحريف الكلم عن مواضعه، والاستكبار عن عبادة الله وغير ذلك فأصله من إبليس.

٢٦ - **ومن الفوائد:** إقرار إبليس بأنَّ الله هو الخالق لقوله: ﴿خَلَقْتَنِي﴾ ﴿وَخَلَقْتَهُۥ﴾.

٢٧ - **ومن الفوائد في هذه الآية:** أنَّ إبليس كان قد أقرَّ بانحطاط منزلته عن الربوبية لقوله: ﴿خَلَقْتَنِي﴾ والمخلوق لا يمكن أن يكون ربًّا.

٢٨ - **ومن الفوائد في الآيات:** أنَّ إبليس أعلَم بحقائق صفات الله تعالى من كثير من أهل التعطيل، فالذين فسَّروا اليدَ بالقوة هنا لو كان تفسيرهم صحيحًا لقال إبليس: يا رب وأنا خلقتني بيديك؛ لأن الله خلق إبليس بقوته كما خلق آدم، لكنَّ إبليس فَهِم أن المُراد باليد غير القوة، ولهذا لم ينقض فضيلة آدم بأنه هو خُلِق بيد الله.

٢٩ - **ومن فوائدها:** أنَّ إبليس في استكباره وإبائه صار مُستحقًا للطرد والإبعاد ولهذا قيل له: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾.

٣٠ - **ومن فوائدها:** أنَّ إبليس لما أُخرج أُبلغ بأنه مرجوم، والرجم زيادة على الطرد.

٣١ - **ومن الفوائد:** أنَّ إبليس ملعون لقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وفي آية أخرى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾[الحِجر:٣٥] فهل نقول: إن اللعنة المُطلقة في قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ هي المقيدة في قوله هنا: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾ أو نقول: إنَّ اللعنة هناك أعمّ فعلى إبليس لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، يُحتمل هذا وهذا، يحتمل أن نأخذَ بالمُطلق؛ لأنه أعمّ، ويُحتمل أن نَحمل المطلق هناك على المُقيَّد هنا.

٣٢ - **ومن الفوائد في الآية:** أننا لا ندعو على إبليس باللعنة؛ لأنه قد استحق هذه اللعنة بأمر الله أو بخبر الله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾ فلا حاجةَ إلى أن تقول: إبليس لعنه الله، لأنَّه ملعون. وقد قال ابن القيم رحمه الله على قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَتَعَاظَمُ فِي نَفْسِهِ إِذَا قِيلَ: تَعِسَ الشَّيطَانُ»(١) قال: إنَّ مِثْل ذلك إذا دُعي عليه باللعنة والتقبيح وما أشبه ذلك، فإنه يتعاظم في نفسه، أي: كأنه لم يُقدر عليه ذلك، فإذا كان قد قُدِّر عليه فلا حاجة أن أدعو الله عليه، ولكن أستعمل ما أمرني الله به في قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾[الأعراف:٢٠٠]. فإن قيل: أليس النبي ﷺ قال لإبليس لما جاءه في الصلاة بشهابٍ من نار

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٥٩)، وأبو داود (٤٩٨٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٤٠١).

ليجعله في وجهه، قال: «أَعوذُ باللهِ مِنْكَ» ثلاثَ مراتٍ، ثم قال: «أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ»(١).

فالجواب: بلى، لكن الرسول قيدها فقال: « أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ».

٣٣ - **ومن الفوائد في هذه الآية:** إثبات الجزاء لقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨﴾ والدين هنا بمعنى الجزاء.

٣٤ - **ومن الفوائد في هذه الآيات:** أنَّ الله أجاب طلب إبليس ودعاءَه لكن لا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ بل ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ ويوم الوقت المعلوم، هو يوم موت الناس أجمعين حين يُنفخ في الصور فيُصعقون جميعًا.

٣٥ - **ومن الفوائد في هذه الآيات:** أنَّ الله قد يُقدِّر أسباب الشر لحكمة، وذلك بإجابة دعاء إبليس أن يُنظره إلى يوم الوقت المعلوم، وإبليس لا شك أنه مبدأ كل شر، ولكنَّ الله تعالى أبقاه لحكمة عظيمة، ولولا بقاء إبليس ما وُجد عاصٍ في الأرض، وإذا انتفى العصيان صار الناس أمةً واحدة، ولم يكن الإيمان مزية، ولم يكن جهاد ولا أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر، ولو كان الناسُ أمة واحدة لتعطل كثير من شعائر الإسلام، فكان من الحكمة بقاء إبليس، وبقاء ما يدعو إليه إبليس.

٣٦ - **ومن فوائد هذه الآيات:** مَعْرفة إبليس بالله حيث أقسم بعزة الله أن يُغوي بني آدم لقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾.

٣٧ - **ومن فوائدها:** أنَّ من أسباب الإعانة أن يستعينَ الإنسان بما يُناسبُ المقام من أسماء الله وصفاته؛ لأنه لم يقل: فبمغفرتك لأغوينهم، لو قال: فبمغفرتك لم يُناسب المقام؛ لأنه يريد أن يتسلط والسلطة يُناسبها من الصفات العزَّة دون المغفرة.

٣٨ - **ومن فوائد هذه الآيات:** أنَّ إبليس وعد متوسلًا بعزَّةِ الله أن يغوي جميع بني آدم. ويتفرع عن هذه الفائدة أنه يجب الحذرُ من إبليس ووساوسه، فإذا قال قائل: ما الذي يُعلمُني بوساوس الشيطان؟

الجواب سهل: كلُّ شيء يأمرك بمنكر فهو من إبليس، وكل ما يُثبِّطك عن الخير فهو من إبليس، فاحذر. فإذا وجدت في نفسك تأخرًا في الخير فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وإذا وجدت في نفسك إقدامًا على الشر فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾[البقرة:٢٦٨].

٣٩ - **ومن فوائد هذه الآيات:** مزية عباد الله تعالى المُخلصين حيث سَلِمُوا من إغواء إبليس.

٤٠ - **ومن فوائدها:** أنَّ كلَّ من كان لله تعالى أعبدَ كان أشد عِصمة من الشيطان ووساوسه؛ لأنه استثنى من إغواء بني آدم عباده المُخلصين، والمعلَّق بوصف يقوى بقوة ذلك الوصف.

---

(١) صحيح: أخرجه مُسلم (٥٤٢)، والنسائي (١٢١٥).

٤١ - **ومن فوائد الآيات**: أنَّ الله تعالى يَمُنُّ على من يشاء من عباده فيخلصهم له لقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

٤٢ - **ومن فوائد هذه الآيات**: أنَّ قوله الله تعالى كلَّه حقٌّ لقوله: ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ قدَّم المعمولَ لإفادة الحصر.

٤٣ - **ومن فوائدها**: أنَّ كل ما قدَّره الله تعالى فهو حق، سواء كان مُلائمًا لبشر أو غير مُلائم. وجه ذلك أنَّ كل شيء قدره الله كائن بقوله: كن، وكن قول، فإذا كان كل ما قاله الله حقًّا لَزِم أن يكون كل ما قضاه حقًّا، وهو كذلك، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «الخيرُ كُلُّه بيديك، والشَّرُ ليس إليك»(١).

٤٤ - **ومن فوائد هذه الآيات**: أنَّ الشيطان في جهنم لقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾.

٤٥ - **ومن فوائدها**: أنَّ الله تعالى وعد جهنمَ بملئها، ويتفرع عن هذه الفائدة الحذرُ الشديد من أن يكون الإنسان من أهل جهنم، نعوذ بالله منها، وقد ثبت في الصحيحين: «أنَّ جَهَنَّم لَا تَزَالُ يُلْقى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فِيهَا قَدَمَه فَينْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُول: قَطْ قَطْ»(٢).

٤٦ - **ومن فوائد هذه الآيات**: أنَّ للشيطان أتباعًا لقوله: ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ فإذا قيل: مَن أتباعه؟ قيل: المستكبرون عن عبادة الله؛ لأن أعظم ميزة يتميز بها الشيطان أنه مُستكبر عن طاعة الله، فكل من استكبر عن طاعة الله فإنه من أتباع الشيطان.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٦-٨٨].

التفسير

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ الخطابُ للرسول ﷺ ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما جئت به وعلى تبليغه ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ مِن: زائدة، وأجر: مجرور لفظًا منصوب محلًا على أنَّها مفعولٌ به

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٧١)، وأحمد في «مسنده» (١/ ١٠٢)، والترمذي (٣٤٢٣)، والنسائي (٨٩٧)، وأبو داود (٧٦٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٤٨)، ومسلم (٢٨٤٨).

ثانٍ لقوله: ﴿أَسْئَلُكُمْ﴾.

واعلم أن سأل إن تعدت بـ «عن» فهي بمعنى الاستفهام، وإنْ تعدَّتْ بنفسها نصبَت مفعولين، فهي بمعنى طلب العطاء، فإنَّ قولك: سألته عن كذا، يعني: الاستفهام، وإذا قلت: سألْتُه كذا، فهو طلب العطاء، وهنا سأل طلب عطاء وعلى هذا فإن ﴿أَجْرٍ﴾ محلّها النصب، وقول المؤلف: [جُعل] تفسير لأجر، يعني لست أطلب منكم أن تعطوني دراهم، أو تعطوني أرزاقًا، أو تزوِّجوني بناتكم، أو تُسكنوني قصوركم على تبليغ الرسالة، ولكنَّه ﷺ إنما يسأل الأجر مِن الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: المتقولين القرآن من تلقاء نفسي، أي: وما أنا من المتقولين، ولكن عدل عن المتقولين إلى المتكلفين؛ لأن القرآن لا يمكن أن يأتي بمثله البشر حتى لو تكلفَّ الإنسان وبذلك الجهد، فإنه لا يمكن أن يأتي بمثله، ولما كان هذا القرآن لا يأتي بمثله البشر صار مَن أتى به مُتكلفًا لو كان جاء به من عنده، فهو يقول: ألا أتقول القرآن لا عن يُسر ولا عن كلفة.

﴿إِنْ هُوَ﴾ [أي: ما القرآن]. ﴿إِنْ﴾ فسرها المؤلف بـ «ما»، وقد ذكرْنا علامة «إن» التي بمعنى «ما» أن يأتي بعدها «إلا». [﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ٨٧﴾ للإنس والجن العُقلاء دون الملائكة] وقول المؤلف: [دون الملائكة]، إن أرادَ بإخراج الملائكة أنَّهم لا يُكلفّون بالعمل به فقد يكون مُسلمًا، وإن أرادَ أنهم لا يتذكرون به ولا يتقرَّبون به فهذا غير مسلم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾[عبس:١٦] والمراد بهم الملائكة.

وقوله: ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ٨٧﴾ تقدَّم معنى الذِكْر في أول السورة، وتقدم قريبًا ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ [ص:٤٩] وهذه الثالثة، والمعنى أنَّه ذكر بنفسه وشرفه وذكر بالوعظ به.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ يا كفار مكة ﴿نَبَأَهُۥ﴾ خبر صِدقه ﴿بَعْدَ حِينٍۭ﴾ أي: يوم القيامة] قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ جعل المؤلف الضمير في تعلمن عائدًا إلى كفَّار مكّة بناءً على أن الخطاب المذكور في هذه السورة لأهل مكة؛ لأنها مكية، ولكن قد ذكرْنا أن العبرة بالعموم لا بخصوص المكان أو السبب، والخطاب لجميع الناس ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ فإن هذا النبأ الذي أنبأ الله به بواسطة هذا القرآن الكريم سيعلمه الناس كلهم، وذلك ما أخبر به عما يكون يوم القيامة، فإنَّ هذا القرآن أخبر عن ما يكون يوم القيامة، وهذا سيعلمه الناس كلهم بعد حين.

وهناك أشياءٌ أخبر عنها القرآن مضت وانقضت، فهذه عَلِمَها بعد حين مَن سبق هذه الحوادث وأدركها، وهناك حوادث ستأتي يعلمها بعد حين مَنْ يُدركها، وأمَّا الذي يُدركه جميع الناس فهو ما يكون يوم القيامة قال: ﴿بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [أي: يوم القيامة، وعَلِمَ بمعنى عرف]، قال: علم بمعنى

عَرف؛ لأنَّه تعدى إلى واحد ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ وعَلِم إذا تعدَّت إلى واحد فهي بمعنى عرف، كما تقول: علمت المسألة يعني عرفتها، قال: [واللام قبلها: لام قسم مُقدر، أي: والله] لتعلمُن نبأه.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** أنَّ الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يُعلن بأنَّه لا يُسأل عن الرسالة أجرًا، أي: أجرًا دنيويًا، وأمَّا أجر الآخرة فلا شكَّ أنَّ النبي ﷺ يرجوه؛ لأنه هو الدال على الخير، الآمر به، ولهذا مُنع ورثة الرسل مِن أن يرثوا شيئًا من أموالهم خوفًا من أن يُقال إنما اكتسبه الرسل من أجل الرسالة. قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «لا نُورَثُ، ما تركْنَا صدقٌ»(١) بتنوين الضم، أما قول الرافضة: صدقة، بتنوين النصب «لا نورث ما تركنا صدقةً» فهذا تحريفٌ لفظي ومعنوي؛ وذلك لأن ما ترك صدقة لا يورث من الأنبياء ولا من غيرهم. لو أوصى الإنسانُ بشيء يُجعل صدقةً بعد موته نَفَذَ ولم يُورث لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ﴾ [النساء:١٢] إلا أن ما زاد على الثُلث يكون راجعًا إلى اختيار الورثة.

٢ - **ومن فوائد هذه الآيات الكريمة:** أنَّ النبي ﷺ لا يسأل الناس أجرًا على دعوة الخلق إلى الحق، وهل هذا خاص به أو عامّ له وللأمة، أي: أنَّه يُحرم على الإنسان أن يأخذَ شيئًا على تبليغ الشريعة؟ الجواب: أنه متى وجب الإبلاغ حَرُم أخذ الأجر عليه؛ لأنه لا يجوز للإنسان أن يأخذ أجرًا على قيامه بالواجب، أما إذا كان ليس بواجب فلا بأس أن يأخذ أجرًا؛ لأنه يكون تطوعًا إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل. فإذا قال: أنا لا أحبس نفسي إلا بأجر، قلْنا له: لا حرج ما دام الإبلاغ ليس بواجب، ويدلُّ لهذا قول النبي - عليه الصلاة والسلام -: «إنَّ أحقَّ ما أخذتُم عليه أجرًا كتابُ الله»(٢) لكن متى وجب تعليمُ القرآن على شخص فإن أخذَ أجرة على هذا التعليم يكون حرامًا.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنَّ النبي ﷺ صادق فيما أخبر به مِن الوحي لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** الإشارةُ إلى أن مِن الناس من يتقوَّل على الله، فيدَّعي أنه رسول، وهو ليس كذلك، وحينئذٍ نقول: من ادعى الرسالة فإن جاء بآية تدل على صدقة فهو رسول، وإلا فليس برسول، هذا قبل النبي محمد ﷺ أمَّا ما بعد النبي عليه الصلاة والسلام فمن ادَّعى الرسالة فهو كاذب؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠] فَمَنْ ادَّعى الرسالة، وأنَّ الله تعالى أرسله بعد محمد - عليه الصلاة والسلام - فهو كاذب مُرتد عن الإسلام ويجب قتلُه، ولا يُرد على هذا أنَّ عيسى عليه السلام ينزل آخر

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٧٣٧).

الزمان بصفته رسولًا؛ لأنَّهُ كان رسولًا قبل مُحمد ﷺ، ثم هو أيضًا لا يأتي بشيء جديد، بل يأتي بشيء أقرَّه النبي ﷺ وأخبر به من قبل، وهو أنَّه يقتل الخنزير، ويكسُر الصليبَ، ويضع الجزيةَ، ولا يقبل إلا الإسلام(١) يعني أنَّ أخذَ الجزية من غير المسلمين لإقرارهم على دينهم له أمدٌ في الشريعة الإسلامية.

٥ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧)﴾ أنَّ هذا القرآن الكريم ذكرَ للعالمين عمومًا يتذكرون به، لكن لا ينتفع به إلا المؤمنون، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾[يونس:٥٧] وهذا عام ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧] وهذا خاصّ إذا جعلْنا الهدى بمعنى التوفيق، وإذا قلْنا الهداية هدايةُ الإرشاد صار عامًّا.

٦ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)﴾ أن آياتِ النبي ﷺ تأتي متتابعة منها ما علم في عهده، ومنها ما علم بعد ذلك، ومنها ما لا يعلم إلا يوم القيامة، والذي يُعلم يوم القيامة يكون معلومًا لكل أحد، والذي يعلم في وقته يكون معلومًا لِمَنْ أدركه ولمن أتى من بعده، وكذلك نقول في الذي يأتي بعد الرسول ﷺ.

٧ - **ومن الفوائد:** أنَّ الله تعالى تكفَّل بأنَّ يُعلِّم الناسَ صدق نبأ الرسول ﷺ لقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ فإنَّ هذه الجملة خبرية مُؤكَّدة بثلاثة مؤكدات: اللام والقسم المُقدَّر ونون التوكيد ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)﴾.

وإلى هنا انتهتْ هذه السورةُ الكريمةُ ونسأل اللهَ تعالى أن يُعيدنَا عودًا حميدًا مُستزيدين مِن الإيمان والعمل الصالح والعلم، إنه جوادٌ كريم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

[اتم تفسير سورة ص
والحمد لله رب العالمين]



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥).

تفسير سورة الزمر

تفسير سورة الزُّمَر

هذه السورة تُسمَّى «سورة الزمر»، لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ فيها: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾، وقوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر:٧١]، وتسمية السور تكون لأدنى مُلابَسة وأدنى مناسبة، ولهذا سُمِّيت «سورة البقرة» دون أن تُسمَّى سورة الدَّين مثلًا، أو سورة العِدَد، مع أنَّ ذكر الدَّين وما يتعلَّق به قد يكون كآياتِ البقرة، لكن التسمية تكون لأدنى مُناسبة ومُلابسة.

يقول (المؤلف): [مكية] يعني: أنها من السور المكية، وأصحُّ ما يُقال في السور المكية: إنَّما ما نُزِّل قبل الهجرة، فما نُزِّل قبل الهجرة فهو مكيٌّ، وما نزل بعدها فهو مدنيٌّ[1]، حتى لو نزل في مكة، وهو بعد الهجرة، ولهذا نقول: إن قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ نقول: إنها مدنية، مع أنها نزلت في عرفة[2].

قال المؤلف: [مكية إلا الآيات: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾] [الزمر:٥٢، ٥٣].

هذا الاستثناء يحتاج إلى دليلٍ، والقاعدة: أن كلَّ مَن استثنى آياتٍ من سُورٍ مكية قال: إنها مدنية، فعليه الدليل، والعكس بالعكس، من استثنى آيات من سور مدنية وقال: إنها مكية، فعليه الدليل؛ لأن الأصل أن السورة إذا كانت مكية فهي مكية بجميع آياتها، هذا هو الأصل، حتى يقوم دليلٌ على الاستثناء، ولا أعلمُ لهذا الاستثناء الذي ذكره (المؤلِّف) دليلًا؛ بل إن ظاهره من حيث المعنى يقتضي أن يكون من المكِّيَّات قوله: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، كلُّه يتعلَّق بالتوحيد والتوبة.

---

(١) البرهان فى علوم القرآن (١/ ١٨٧ و ١٨٨)، ومباحث فى علوم القرآن (ص٦٠ و ٦١).

(٢) كما رواه البخارى (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧) من حديث أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه.

[قوله: وهي خمسٌ وسبعون آية].

والآيات مُقسَّمةٌ تقسيمًا توقيفيًّا؛ يعني: أن الذي يُحدِّد الآيات هو الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، فهو يُحدِّد الآيات، ويُحدِّد مكانها وترتيبها، ولهذا نقول: إن ترتيب الآيات توقيفيٌّ، وترتيب السور منه توقيفيٌّ، ومنه الاجتهاديٌّ من الصحابة؛ فمثلًا: سورتا (الجمعة والمنافقون) ترتيبها توقيفيٌّ؛ لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان يقرأ في صلاة الجمعة، (بالجمعة) و(المنافقين) [1]، (سبِّح) و(الغاشية) كذلك، والبقرة وآل عمران كذلك توقيفيٌّ،

ومنه شيءٌ اجتهاديٌّ ثبت باجتهاد الصحابة قد تختلف فيه مصاحف الصحابة؛ لأنه عن اجتهاد.

وترتيب الآيات؛ حيث قلنا: إنه توقيفي لا يجوز الإخلالُ به، فلا يجوز أن تُقدِّم آية على آية في التلاوة؛ لأن الذي وضع الآية في مكانها هو الرسول ﷺ، ترتيب الكلمات أيضًا توقيفي، لا يجوز أن تُقدِّم كلمةً على كلمة، ترتيب الحروف توقيفي، لا يجوز أن تُقدِّم حرفًا في كلمة على حرف، فعندنا الآن ترتيبات عدة: (ترتيب الحروف)، و(ترتيب الكلمات)، و(ترتيب الآيات) كله توقيفي لا يجوز الإخلال به، وترتيب السور منه توقيفي، ومنه اجتهادي.



(١) كما روى مسلم (٨٧٩)، والنسائي (١٤٢١)، والطيالسي في مسنده (٢٦٣٦)، وأحمد في مسنده (٣١٦٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

التفسير

البسملة آيةٌ مُستقلة في كتاب الله - عزَّ وجلَّ، ليست من الفاتحة، ولا من غير الفاتحة على القول الراجح[1]، فهي آيةٌ مُستقلَّة يُؤتَى بها للبدء بالسورة، ولا نقول: للفصل بين السورتين؟ للبدء؛ لأننا لو قلنا: للفصل بين السورتين أُورِد علينا سورة الفاتحة؛ لأنها ليس قبلها سورة، إذنْ للبدء في السورة، وسقطت بين الأنفال والتوبة؛ لأنها لم تَرِد عن النبي ﷺ، ولو ثبتت ما أهملها الصحابة - رضي الله عنهم -.

والبسملة - كما نشاهد ونقرأ - شبه جملة، وليست بجملة؛ لأنها جار ومجرور، والجار والمجرور، والظرف يُسمَّى شبه جملة، ولا يُسمَّى جملة؛ لأنه لم توجد فيه أركان الجملة، ولكنَّ الجملة مُقدَّرة فيه.

فقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، وصفة مُتعلِّقة بمحذوف ولكن شبه جملة لأنه لأبدَّ من تقدير تتم به الجملة، ولهذا قيل في نظم الجمل:

لَابُدَّ لِلْجَارِّ مِنَ التَّعَلُّقِ ... بِفِعْلٍ أَوْ مَعْنَاهُ نَحْوَ مُرْتَقِي
وَاسْتَثْنِ كُلَّ زَائِدٍ لَهُ عَمَلْ ... كَالْبَا وَمِنَ الْكَافِ أَيْضًا وَلَعَلّْ

مُرتقِي بمعنى الفعل؛ لأنه اسم فاعل.

وذلك لأن الذي فيه حروف جر زائدة يُقدَّر كأنه لا حرف فيه، لو قلتَ: ليس زيدٌ بقائم، فإنك تقول: قائم: خبر ليس، ما تقول: مجرور بالباء، هو جار ومجرور والجار والمجرور متعلِّق بمحذوف. على كل حال البسملة مُتعلِّقة بمحذوف، فما هو المحذوف؟

الجواب: أحسنُ ما يُقدَّر به هذا المحذوف أن يُقدَّر: فعلًا متأخِّرًا مناسبًا للمبدوء به؛ فمثلًا: إذا كنت تريد أن تقرأ، تقول: التقدير: باسم الله أقرأ، إذا أردت أن تتوضَّأ، التقدير: باسم الله أتوضَّأ، أردتَ أن تدخل، باسم الله أدخل وهكذا.

قدَّرناه فعلًا؛ لأنه الأصل في العمل، فالأصل في العمل الأفعال.

واسم الفاعل واسم المفعول والمصدر العامل مُلحق بالفعل، فلذلك اخترنا أن نُقدِّرُهُ فعلًا لا

(١) راجع تفسير ابن كثير (١/ ١٠١ و ١٠٢).

اسمًا؛ لأنه الأصل في العمل.

واخترنا أن يكون متأخِّرًا لوجهين:

الوجه الأول: التبرُّك بالابتداء باسم الله، والجملة: بسم الله، تبرُّكًا.

والوجه الثاني: إفادة الحصر؛ لأن تأخير العامل يُفيد الحصر.

واخترنا أن يكون مناسبًا لما ابتُدئ به أو للموضوع؛ لأنه أدلُّ على المقصود؛ حيث يُعيِّن أن البسملة لهذا الشيء.

فلو قلنا: تقدير الكلام: باسم الله أبتدئُ، ما الذي فاتنا؟

فاتنا أنه غير مُناسبٍ للمقام، أو للموضوع.

إذا قدَّرنا: أقرأُ باسم الله، ما الذي فاتنا؟

فات التأخير، لكن فائدة التأخير: هي الحصر والتبرُّك بالبداءة باسم الله.

إذا قلنا: باسم الله قراءتي، ما الذي فات؟

فات أن يكون فعلًا عاملًا في العبارة.

قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ (اسم) مفرد مُضاف، والمفرد المُضاف يفيد العموم، وعلى هذا يكون المعنى: بكلِّ اسمٍ من أسماء الله؛ لأن المفرد المُضاف يكون للعموم، والدليل على أن يكون للعموم: قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨] فنعمة: مفرد، ومع ذلك قال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا﴾، و ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ فدلَّ ذلك على أنها عامة في كل نعمة.

والباء في قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ للاستعانة، والمُصاحبة والمُلابسة؛ يعني: مُستعينًا أو مُصطحبًا أو مُتلبِّسًا بسم الله، و﴿اللَّهِ﴾ علَمٌ على ذات الله ـ سبحانه وتعالى ـ خاصٌّ به لا يُسمَّى به غيرُه.

واختلف العلماء هل هو مُشتقٌّ أو جامد؟

والصحيح: أنَّه مُشتقٌّ، لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠] ولو جعلناه اسمًا جامدًا لكان غير دالٍّ على الوصف؛ بل كان علَمًا محضًا، وحينئذٍ لا يكون دالًّا على الأحسن؛ بل لا يكون دالًّا على الحَسَن فضلًا على الأحسن، فالصحيح الذي لا شكَّ فيه أنه مُشتقٌّ، من أي شيءٍ مشتق؟ مُشتقٌّ من الألوهية، وهي: التقرُّب والتعبُّد للمألوه على وجه المحبة والتعظيم.

وأما قوله: ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ فهو أيضًا علَمٌ على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، لا يُسمَّى به أحدٌ غيرُه، فهو من أسماء الله الخاصة به، ولا يُوصَفُ به غيرُه، وهو مُشتقٌّ من الرحمة، وكان بصيغة فَعلان لدلالة هذه

الصيغة على السَّعة والامتلاء، فهو دالٌّ على سعة رحمة الله -عزَّ وجلَّ-، وشمولها لكل شيء.

وأما ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: فهو اسمٌ من أسماء الله، لكن يُوصَفُ به غيرُه، قال الله -تعالى- عن النبي ﷺ: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وهو مُشتقٌّ من الرحمة، لكنه إذا قُرِن بالرحمن؛ أي: إذا ذُكِرا جميعًا كانت الرحمن دالَّةً على الوصف، والرحيم دالةً على الفعل؛ أي: إنَّهُ يرحم برحمته -عزَّ وجلَّ- من يشاء.



قال الله تعالى:

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر:١].

التفسير

الكتاب: هو القرآن، وسُمِّي كتابًا؛ لأنه مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، ومكتوبٌ في الصُّحُف التي بأيدينا، ومكتوبٌ في الصُّحُف التي بأيدي الملائكة، قال الله -تعالى-: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١١-١٦]، وعلى هذا ففِعال بمعنى: مفعول، وهذه الصيغة -أعني: فِعالًا- تأتي بمعنى: مفعول في اللغة العربية كثيرًا.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال المؤلف: [القرآن مبتدأ] يعني: ﴿تَنزِيلُ﴾، قال: [﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبره] إذن معنى الآية: أن الله يُخبِر -عزَّ وجلَّ- بأن تنزيل الكتاب من عنده من الله؛ أي: أنه نازلٌ من عند الله، لا من جبريل، ولا من محمد، ولا من أي مصدرٍ كان؛ بل هو نازلٌ من الله -سبحانه وتعالى-، تكلَّم به، وألقاه إلى جبريل، ثم إنَّ جبريل نزل به على قلب النبي ﷺ، قال الله -تعالى-: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤]، وتأمَّل قوله: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ لتعلم أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- وعي القرآن وعيًا تامًّا؛ لأن ما نزل على القلب لابد أن يعيَه القلب.

قال المؤلف: [﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في مُلْكه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في صُنْعِه]:

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ لها معان:

أولًا: عزيز بمعنى: غالب، ومنه قوله -تعالى-: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، قاله الله -تعالى- جوابًا على قول المنافقين: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، فسلَّم الله ذلك أنَّ الأعزَّ يُخرِجُ الأذلَّ، ولكن العزَّة لمن؟ لله، ولرسوله، وللمؤمنين، أما المنافقون فلا عزَّة لهم، حتى يستطيعوا أن يُخرِجوا المؤمنين

منها.

ثانيًا: عزيز بمعنى: قوي شديد القوة، ومنه: قولهم: أرضٌ عَزازٌ؛ يعني: صلبة قوية، ومن المعلوم أن الله ـ تعالى ـ في صفاته كلها شديدٌ قويٌّ، كل الصفات كاملة ليس فيها نقص، ولا وهن، ولا ضعف.

ثالثًا: بمعنى: الامتناع؛ يعني: أنه ممتنع عن أن ينالَه سوء، وممتنع من كل نقص.

وأما قول (المؤلِّف): [في مُلكِه] فإنه قاصرٌ في الحقيقة، قاصرٌ جدًّا؛ لأنه إذا قُيِّدت العزَّة بالمُلك فإنها لا تتناول إلا العزيز بمعنى: الغالب أو القوي.

وأما الحكيم فيقول: [الحكيم في صُنْعه]؛ في صنعه أي: فيما صنع، وهل يُوصَف الله ـ تعالى ـ بأنه صانع، وأن له صنعًا؟

الجواب: نعم، يُوصَف بأنه صانع، وأن له صُنعًا، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، لكن يجب أن نعلم أننا إذا وصفنا الله بالصُّنْع فليس كصفتنا للمخلوق بالصُّنع، المخلوق إذا كان صانعًا يحتاج إلى أدوات، إن كان نجّارًا يحتاج إلى منشار، وقدُّوم، ومخراط، وما أشبه ذلك، لكن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يحتاج، فعندما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧] هل يؤخذ منها أن بناء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كبناء المخلوق يحتاج إلى زنبيل، وإلى لبِن، وإلى طين؟ لا، فالبناء غير البناء، والصُّنع غير الصُّنع، قد يتوهَّم الإنسان أنه إذا وصف الله بالصُّنْع، وأنه صانع قد يتوهَّم أنه يحتاج إلى آلات يصنع بها، ولكنَّ هذا خطأ؛ لأن صُنع الله ليس كصُنع البشر.

وقول (المؤلِّف): [الحكيم في صُنْعه] تقييدُها بالصُّنع فيه قُصُور، والصواب: أنه حكيمٌ في صُنْعه، وفي شرعه، ولهذا قد يختم الله أحيانًا آيات التشريع بالحكمة، كما في قوله ـ تعالى ـ في سورة (الممتحنة): ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٠]، فهو حكيمٌ في صُنْعه، حكيمٌ في شرعه، في صُنْعه يعني: جميع مصنوعاته كلها مُحكَمة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ [الملك:٣] قلِّب فكِّر ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك:٣، ٤] يعني: كرَّةً بعد أخرى، وفي النهاية: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك:٤]، هذا من الإحكام في الصُّنْع.

أما في الشرع: فيقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢] وتناقُضًا، القرآن لا يمكن أن يتناقض أبدًا، وإذا رأيتَ آيةً ظاهرُها يُناقِض الآية الأخرى، فاعلم أن ذلك إما من سوء فهمك، أو من قصور علمك.

إمَّا من قُصور علمك: بأن تكون الآية هذه ناسخة لآية أخرى، وأنت لا تعلم، أو من سوء فهمك: بأن تكون كلتا الآيتين مُحكمة، ولكن لم تفهم الجمع بينهما، وإلا فلا يمكن أبدًا أن يكون في كلام الله تناقُض، ولا فيما صَحَّ عن رسول الله ﷺ تناقُض أبدًا، هذا لا يمكن؛ لأنه شرعُ الله، والله

- تعالى - قد أحكم شرعَه، إذنْ الله حكيمٌ في صُنْعه، وفي شرعه.

وبناءً على هذا تكون ﴿حَكِيمٌ﴾ بمعنى: مُحكِم، لا بمعنى: حاكم، فالحكيم هو المحكِم في صنعه وشرعه. وهنا نقول: هل تأتي فعيل في اللغة العربية بمعنى: مُفعِل؟

الجواب: نعم، تأتي فعيل بمعنى: مُفعِل، ومنه قول الشاعر(١):

أَمِنْ رَيْحَانَـــــةِ الدَّاعِي السَّمِيْعِ يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَـــــابى هُجُـــوع

هل السميع بمعني: الذي يسمع، أو السميع بمعنى: المُسمِع؟ بمعنى: المُسمِع؛حينئذ تكون حكيم بمعني محكِم.

وهل يمكن أن تكون حكيم بمعنى: حاكم؟

الجواب: نعم، يمكن أن تكون بمعنى: حاكم، وعلى هذا فتكون حكيم بمعنى: أن له الحكم، والحكم المُضاف إلى الله - عزَّ وجلَّ - يشمل الحكم الكوني، والحكم الشرعي.

الحكم الكوني هو: إيجادُه للأشياء وخلْقُه للأشياء، والحكم عليها بالفناء والبقاء، والتحوُّل والتغير، وما أشبه ذلك.

والحكم الشرعي هو: ما جاءت به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - من أحكام الله التي يُلزم بها المُكلَّف، فقوله - تعالى -: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ﴾ حكم شرعي، وقوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ هذا حكم كوني، قوله: ﴿الْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠] حكم شرعي، وكذا قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:١٠] حكم شرعي، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف:٨٠] كوني.

الفوائد:

١- في هذه الآية: يُخبر الله - عزَّ وجلَّ - أن تنزيل الكتاب من عنده، وعلى هذا فتفيد الآية الكريمة: أن القرآن مُنزَّلٌ غير مخلوق، أما إفادتها لكونه مُنزَّلًا فظاهر ﴿تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ﴾، ولكن كيف تُفيد أنه غير مخلوق؟

لأن هذه الفائدة قد يُعارِضُ فيها مُعارِض، ويقول: ليس كل مُنزَّل غير مخلوق؛ بل في المُنزَّل ما هو مخلوق، قال الله - تعالى -: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق:٩] والماء مخلوق، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦] والأنعام مخلوقة، فلا يلزمُ من الإنزال، أو التنزيل أن يكون المُنزَّل غير مخلوق، فما هو الجواب عن هذا الإيراد؟ لأن هذا الإيراد قوي، يُورِدُه الجهمية

(١) وهو : عمرو الزبيدي ، عمرو بن معدي كرب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدي. فارس اليمن، وصاحب الغارات المذكورة، وفد على المدينة سنة ٩هـ في عشرة من بني زبير، فأسلم وأسلموا وعادوا. ولما توفي النبي ﷺ، ارتد عمرو في اليمن، ثم رجع إلى الإسلام، فبعثه أبو بكر إلى الشام، فشهد اليرموك، وذهبت فيها إحدى عينيه. وبعثه عمر إلى العراق، فشهد القادسية .

الذين مسألة: قالوا: إن كلام الله مخلوق؟

الجواب: عن هذا الإيراد سهل: أن يُقال: إن الإنزال إذا أُضِيفَ إلى عينٍ قائمةٍ بنفسها، فهذه العين مخلوق، وإذا أُضيفَ إلى وصفٍ كان هذا الوصف حسب الموصوف، والكلام وصفٌ، فإذا كان الله أنزل القرآن وهو كلام، وأضافه إلى نفسه، فهو -عزَّ وجلَّ- بصفاته أزليُّ الوجود، واجب الوجود، إذنْ يتمُّ الاستدلال أن نقول أن في قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ دليلٌ على أن القرآن مُنَزَّلٌ غير مخلوق.

٢ـ **وفيها دليلَ على،** عُلُوِّ الله، ووجهُه: أنه قال: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ ومِنْ للابتداء، فإذا كان ابتداء الكتاب من عند الله وهو مُنَزَّل دلَّ على علُوِّ من كان من عنده، وهو الله -عزَّ وجلَّ-.

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية:** تعظيمُ القرآن، وجهُه: أنه نازلٌ من عند الله، وأنه كلام الله، فيكون عظيمًا كعِظَمِ المُتكلِّم به.

٤ـ **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات ثلاثة أسماء من أسماء الله، وهي: الله، والعزيز، والحكيم، ويتفرَّع على هذه الفائدة: إثبات ثلاث صفات من صفات الله عز وجل، وهي: الألوهية، والعِزَّة، والحكمة؛ بل أربع: الحِكْمة، والحُكْم.

إذا قيل: كيف استفدنا أربع صفات؟

نقول: لأن لدينا قاعدة، وهي: أن الأسماء الحُسنى كلُّ اسمٍ منها مُتضمِّن لصفة. واستفدنا مما سبق: أن القرآن منزَّل غير مخلوق.

قال العلماء: والحكمة تكون في صورة الشيء، وهيئة الشيء، وذات الشيء، وتكون في غايته.

الحكمة في نفس الشيء؛ يعني: أن الشيء نفسه مُشتمل على الحكمة، فإذا تأمَّلتَ الشرائع وجدتَ أنها مُشتملة على الحكمة، وإذا تأمَّلتَ الغاية منها وجدتها أيضًا في غاية الحكمة، كذلك أيضًا إذا تأمَّلتَ الصنائع التي صنعها الله -عزَّ وجلَّ-، وهي: الحكمة التي تكون في الكون وجدتَ أنها مُشتملة على الحكمة، وإذا تأمَّلتَ الغاية منها وجدت أنها حكمة أيضًا.

فالعبادات المقصود بها: إصلاحُ الخلق، وهي موضوعة على وفق الحكمة، الصلوات كونها بهذه الهيئة حكمة، وكذا الزكاة، والحج، وبقية العبادات، الكون، السماء، الأرض، الشمس، القمر، كونها على هذا النظام البديع هذا حكمة، والغاية منها أيضًا حكمة، قال الله -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].



قال الله تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:٢]

التفسير

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الزمر:٢] لما بيَّن أنَّ تنزيل الكتاب من الله بيَّن إلى مَن أُنزِل، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الزمر:٢] يا محمد، أنزلنا: (نا) ضمير جمع، لكنه إذا كان عائدًا إلى الله فليس للجمع قطعًا؛ بل هو للتعظيم.

وقد اشتبه على النصارى مثل هذا الجمع، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة؛ لأن الله يذكر الضمير عائدًا إليه بصيغة الجمع، وأقل الجمع ثلاثة !

فنقول في الردِّ عليه: إن هذا من زيغ النصارى، قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] فاتبعوا المتشابه من القرآن، ولو أنهم ردُّوا هذا المُتشابِه إلى المُحكَم لعلموا أنهم مُخطِئون غاية الخطأ، وذلك أنَّ الله صرَّح في آيات كثيرة بأنه إلهٌ واحد، فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وهذا نصٌّ صريحٌ مُحكَم.

وأما (نا) التي هي ضمير الجمع: فإنها في اللغة العربية التي نزل بها القرآن صالحةٌ للجمع، وللمُعظِّم نفسه، إذن هي من المُتشابِه؛ لأن اللفظ إذا احتمل معنيَيْنِ فإنه يُقال فيه: مُتشابه، والمُتشابِه يُردُّ إلى المُحكَم.

قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الزمر:٢] إليك: هذه الغاية، والخطاب للرسول ﷺ، الكتاب؛ أي: المكتوب، وهو القرآن، وسبق وجهُ كونه كتابًا.

[بالحق] مُتعلِّقٌ بـ (أنزل)، الباء ـ هنا ـ للمُلابسة وللتعدية؛ يعني: أن الكتاب نفسه نزل حقًّا من عند الله، لا من عند غيره، أنزلنا بالحق؛ يعني: بالتأكيد أننا أنزلناه إليك من عندنا.

وقلنا أيضًا: للتعدية؛ بمعنى: أن الكتاب نزل بالحق؛ أي: أن ما اشتمل عليه القرآن فهو حقٌّ، فعلى الوجه الأول يكون المراد بقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: تأكيد أنه نزل من الله.

وعلى الوجه الثاني يكون المعنى: أن كل ما اشتمل عليه القرآن من أخبار وأوامر ونواهٍ وغيرها فهو حق.

إذن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ له معنيان:

المعنى الأول: أن القرآن نزل من عند الله حقًّا، لا باطلًا.

الثاني: أن ما اشتمل عليه القرآن فهو حقٌّ؛ سواء أوامر، أو نواهٍ، أو أخبار، أو قصص، فإنه كله حق.

قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال المؤلف: [مُتعلِّق بأنزل]، ولم يقل: مُتعلِّق بأنزلنا؛ لأن المُتعلِّق إنما يتعلَّق بالفعل، أما (نا) فهي ضمير خارج عن الفعل.

قال - تعالى -: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ الفاء للتفريع، وعلامة التفريع: أن ما بعدها يكون مُرتَّبًا على ما قبلها، فالمعنى: فلإنزالنا إليك الكتاب اعبد الله مخلصًا له الدين، والخطاب للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿مُخْلِصًا﴾ حال من فاعل ﴿فَٱعْبُدِ﴾ وإخلاصُ الشيء: تنقيتُه من الشوائب، وإزالة ما يُخالِطُه، فإذا كان مُخلصًا له الدين فالمعنى: أن تُنقِّي دينَك من كل شيءٍ، ولهذا قال المؤلف: [مخلصًا له الدين من الشرك؛ أي: مُوحِّدًا له] أي: لله.

وقوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ الدين يعني: العمل، والمراد به هنا: العمل المخصوص، وهو العبادة، لقوله: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ﴾.

﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ ولم يقل: مُخلصًا له العبادة؛ لأن الدين هو العمل الذي يُريد العامل عليه مكافأة.

ومنه قولهم: (كما تدين تُدان).

واعلم أن الدين يُطلق على العمل الذي يُراد به المكافأة، ويُطلَق على نفس المُكافأة، وهي الثواب على العمل.

فمن الأول: مثل هذه الآية: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، ومثل قوله - تعالى -: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]، ومثل قوله - تعالى -: ﴿نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] أي: عملًا تتعبَّدون به.

ومثال الثاني: قوله - تبارك وتعالى -: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] يعني: يوم الجزاء على العمل، ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧، ١٨] أي: يوم الجزاء على العمل.



قال الله تعالى:

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣].

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [ألا] أداة استفتاح، وهي حرفٌ يُراد به التنبيه؛ لأن المُتكلِّم إذا قال: ألا، انتبه المُخاطَب، وقوله: ﴿لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الجار والمجرور خبر مُقدَّم، والدين مبتدأ مؤخَّر، ويُفيد تقديم الخبر: الحصر؛ أي: لله وحده، وقوله: ﴿الدِّينُ﴾ يعني: العمل الذي يُراد الثواب عليه.

وقوله: ﴿الْخَالِصُ﴾ يعني: النقي من الشوائب والشرك؛ أي:إنَّه يجب على العاقل أن يجعل الدين الخالص لله وحده، فكيف يليقُ بالعاقل أن يتعبَّد بحقِّ الله من أجل التقرُّب إلى غيره، هذا خلاف العقل، فإذا قام الإنسان يُصلِّي من أجل أن يراه الناس، فهو سفيهٌ في عقله، ضالٌّ في دينه، كيف تجعل الحق الخالص الذي هو لله تجعله للناس، نعم العمل الذي للناس يكون للناس، لكن العمل الذي لله يجب أن يكون لله، ولهذا قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ﴾ وحده ﴿الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ فلا يجوز أن نجعله لغيره، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ الواو ـ هنا ـ للاستئناف، والذين مبتدأ، واتخذوا صلة الموصول، وخبر المبتدأ محذوف تقديرُه: يقولون: ما نعبدهم، أو قالوا: ما نعبدهم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ اتخذوا بمعنى: صيَّروا، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥] يعني: صيَّره، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:٢٣] أي: صيَّر إلهه هواه، إذا كانت اتخذ بمعنى: صيَّر فإنها تحتاج إلى مفعولين: مُصيَّر، ومُصيَّر إليه.

أين المفعول الأول؟

يقول (المؤلف) ـ رحمه الله ـ: [الأصنام أولياء] وعليه فيكون المفعول الأول محذوفًا، والثاني: أولياء، وحذف المفعول إذا دلَّ عليه الدليل جائز، قال (ابن مالك) ـ رحمه الله ـ في باب المبتدأ والخبر:

وَحَـذْفُ مَا يُعلَمُ جَـائِزٌ كما ... تَقُولُ: زَيْـدٌ بَعْدَ مَـنْ عِنْدَكُمَا[1]

الواقع أن هذا البيت في المبتدأ والخبر، لكن هل هو عام؟ نعم، هو عام، حذف ما يُعلم جائز، وقد يكون من الفصاحة والبلاغة أن يُحذَف، إنما الأصل أن ما يُعلَم يجوز حذفُه، وما لا يُعلَم لا يجوز حذفُه؛ لأن الكلام لابد أن يكون مُبيِّنًا مراد المُتكلِّم، وهذا لا يكون مع حذف ما لا يُعلَم.

إذن المفعول الأول: محذوف، والتقدير: الأصنام، والثاني: موجود، وهو قوله: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ جمع ولي؛ أي: يتولونها ولاية عبادة يتضرَّعون إليها، يسجُدون لها، ينذُرُون لها، يتصدَّقون لها، لكن لا يعتقدون أن هذه الأصنام تنفعهم أو تضرُّهم بذاتها، ولا أنها تخلق، ولا أنها ترزق، لكن يدَّعون أنهم اتخذوها وسيلة، وفي هذا يقول ـ عزَّ وجلَّ ـ: [﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ وهم كفار مكة].

وتخصيص هذا بكفَّار مكة فيه قُصور، ولا ينبغي أن نُفسِّر العام بما هو أخصُّ إلا على سبيل التمثيل، أما على سبيل تحديد المعنى؛ بحيث يأتي اللفظُ في القرآن عامًّا ثم نُفسِّره بمعنى أخص، فإن هذا قُصور في الحقيقة، لكن إن أراد الإنسان بهذا التفسير التمثيل؛ يعني: مثل كفَّار مكة، فهذا لا بأس به، لكن القارئ الذي يقرأ مثل هذه العبارة من كلام المُؤلِّف لا يشُكُّ أن المؤلِّف أراد بهذا: التخصيص، وفي هذا نظرٌ ظاهرٌ، فالواجب إبقاء دلالة عموم الآيات، وكذلك الأحاديث على ما هي عليه حتى يقوم دليل عقلي، أو قرينة لفظية على أن المراد الخاص.

يقول: [قالوا: وهم كفار مكة ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾]، قالوا هذه الجملة محذوفة؛ لأنها معلومةٌ من السياق، ويصحُّ أن نُقدِّر: يقولون: ما نعبدهم، ولعلَّها أنسب من قول المؤلِّف: قالوا حكايةً للحال التي هم عليها، وعلى كلٍّ فالجملة المحذوفة هي خبر المبتدأ، وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾، ولا يجوز أن نجعل جملة: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ هي الخبر لفساد المعنى.

وقوله: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ هذا حصرٌ لمُرادهم بعبادة هذه الأصنام؛ يعني: ما نعبُدُهم إلا لهذا الغرض: ليُقرِّبونا إلى الله زُلفَى، وهذا إقرارٌ منهم، واعتراف بأنهم يعبدون الأصنام، لقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ وأن هذه العبادة وسيلة لغايةٍ أشرف منها، وهي: القُربَى إلى الله عز وجل، وهذا من جهلهم؛ لأنهم الآن إذا عبَدُوهم جعلوها غاية؛ لأن المقصود هو الوصول إلى الله عز وجل، والوصول إلى الله لا يكون إلا بعبادته، فهم إذا عبَدوهم جعلوهم الغاية.

قوله: [﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ قُربى مصدر بمعنى: تقريبًا].

﴿زُلْفَىٰٓ﴾ يقول (المؤلف): إنها مصدر، لكنها مصدرٌ معنويٌّ لموافقته العامل بالمعنى دون اللفظ؛ لأن المصدر قد يكون لفظيًّا، وقد يكون معنويًّا، فإن وافق عاملَه في اللفظ فإنه لفظيٌّ؛ مثل: قُمتُ قيامًا، وإن خالَفَه في اللفظ دون المعنى صار معنويًّا، كقولك: قُمتُ وقوفًا.

---

(1) شرح ابن عقيل (1/ 243).

يقول: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [بمعنى: تقريبًا]، وقُربى أيضًا يُراد بها التقريب، وإنما قال المؤلف: يُرادُ بها التقريب من أجل أن يُطابِق الفعل، الفعل قرَّب، مُضارعه يُقرِّب، المصدر المُطابق تقريبًا، لا قُربَى، ولكن من المعلوم أنه قد يُوافق المصدر عامِلَه في اللفظ، ولكن لا يُطابقُه بالحروف، ومثل هذا يُسمَّى عندهم: اسم مصدر، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧] لو كان مصدرًا لقال: إنباتًا، فلما قال: نباتًا، ونقصت حروفه عن حروف فعله سُمِّي اسم مصدر.

المهم أنهم يقولون: نحن لا نعبُد هذه الأصنام إلا من أجل أن تُقرِّبنا إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قُربَى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ الجملة استئنافية لبيان مآل هؤلاء الذين اتخذوا الأصنام أولياء؛ يعني: فماذا تكون نهايتُهم؟ يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿بَيْنَهُمْ﴾ قال (المؤلف): [وبين المسلمين] فأشار إلى أن الطرف الآخر من البينيَّة محذوف: وبين المسلمين، وهذا التقدير ليس في السياق ما يدُلُّ عليه، لو قال: بينكم لكان صحيحًا المراد: بينكم وبينهم، لكن هو قال: بينهم؛ أي: بين هؤلاء الكفار ﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وكأنَّ (المؤلف) ـ رحمه الله ـ ظنَّ أنه لا اختلاف بين الكفار، وليس كذلك؛ بل الخلاف بينهم حاصِلٌ في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ۝ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٣٨، ٣٩] إلى آخر آيات المحاورة، محاورة، منازعة، مُخاصمة، فيحكم الله بينهم، وقد ذكر الله ذلك في عدَّة آيات.

فالصواب: أن الضمير ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يعود على الكفار، وأن الاختلاف حاصلٌ بينهم أنفسهم، فالنصارى واليهود بينهم خلاف، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة:١١٣]، وهذا خلافٌ ثابت بين الأمم الكافرة.

قوله: [﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين] فيُدخِل المؤمنين الجنة، والكافرين النار، هذا بناءً على ما ذهب إليه (المؤلِّف)، ولكن على القول الذي هو ظاهر الآية الكريمة قوله: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيجعل كل إنسانٍ في منزلته، وقد بيَّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ذلك في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣] لما ذكر المُحاورة بين المُستضعفين والمُستكبرين.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ هذه الجملة مُؤكَّدة بـ (إنَّ)، وقوله: ﴿ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ المراد بذلك: هداية التوفيق، وأما هداية الدلالة فإنها حُجَّة الله على خلقه، لابد أن تنال

كلِّ أحدٍ، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧] هديناهم هداية دلالة، إذن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ هذه هداية توفيق، لا هداية دلالة؛ بل هداية الدلالة ثابتة لكل أحد.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: الذي هو كاذبٌ، قال المؤلف: [في نسبة الولد إليه)] والذين نسبوا الولد إليه هم اليهود، والنصارى، والمشركون.

أما اليهود، فقالوا: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]، وأما النصارى، فقالوا: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]، وأما المشركون، فقالوا: الملائكة بنات الله.

والآية: ﴿مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ عامة، لكن المؤلف خصَّصها بنسبة الولد إلى الله، لقوله فيما بعد: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر:٤]، وإلا فلو نظرنا إلى الآية: ﴿كَٰذِبٌ﴾.

لكانت مطلقة، لم تُقيَّد بنسبة الولد إلى الله عز وجل، لكن المؤلِّف قيَّدها بقرينة السياق.

وقوله: ﴿كَفَّارٌ﴾: يحتمل أن تكون صيغة مبالغة، ويحتمل أن تكون للنسبة، فإن كانت للنسبة صارت صفةً لازمة؛ كما نقول: نجَّار، وحدَّاد، وخشَّاب، وبنَّاء، وما أشبه ذلك، وإن كانت صيغة مبالغة لم تكن صفةً لازمة لكنها تدلُّ على الكثرة، وعلى كل حال، فسواءٌ للمبالغة أو للنسبة فالمراد بها: الكفر بالله عز وجل، وقال المؤلف: [بعبادته غير الله] ولا شكَّ أن هذا كفر، عبادة غير الله، تخصيص الكفر هنا بعبادة غير الله يُؤيِّده السياق، وهو قوله فيما سبق: ﴿ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** فضيلةُ رسول الله ﷺ، وعلُوُّ مرتبته، وذلك بإنزال كتاب الله إليه، لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وهنا نسأل: مسألة: هل إنزال القرآن إلى الرسول إنزالٌ إلينا؟ الجواب: نعم، إنزالٌ إلينا؛ لأنه رسولنا، وقد قال الله - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [المائدة:١٧٤] فالنازل إلى رسول الله نازلٌ إلينا، ولكنه هو المُباشِر لهذا الإنزال، ويُبلِّغُه لنا.

٢ - **من فوائد الآية:** ما سبق من أن القرآن نازلٌ من عند الله، فيكون كلامه أي - كلام الله -.

٣ - **ومنها:** علُوُّ الله؛ لأن النزول إنما يكون من أعلى، والعُلُوُّ دلَّ عليه الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة، خمسة أنواع من الأدلة كلها تُثبِت علُوَّ الله - عزَّ وجلَّ - على خلقه، وقد خالَفَ في هذا طائفتان:

الطائفة الأولى: طائفة الحُلُولية الذين يقولون: إن الله بذاته بنفسه في كل مكان؛ في المسجد،

وفي السوق، في البيت وفي السطح، وفي الحُجرة، في أقبح مكان - والعياذ بالله - وهؤلاء أقول: إنهم كفَّار، لكن من كان مُتأوِّلًا وجَبَ إعلامُه وبيان الحقيقة له، فإن أصرَّ فهو كافرٌ.

الطائفة الثانية: المخالفة المُعطِّلة الجاحدة الذين يقولون: إن الله ليس فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا متصل، ولا منفصل، هؤلاء وصفوا الله بالعدم، كما قال (محمود بن سبكتكين) رحمه الله (لابن فورك) لما قال: إن الله لا موجود، ولا معدوم.. إلخ، قال له (محمود بن سبكتكين): إنك وصفتَ الله تعالى بالعدم، وصدق، لو أردنا أن نصِف معدومًا ما وجدنا أشدَّ إحاطةً من هذا الوصف للمعدوم.

أما أهل السنة فقد هداهم الله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾، وقالوا: إن الله تعالى نفسَه فوق كل شيء، كما دلَّ على هذا الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن الكتاب حقٌّ من عند الله، لم يتقوَّله النبي ﷺ على ربه؛ بل هو من عند الله، لقوله: ﴿أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: أنه حقٌّ من عند الله عز وجل، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة:٤٤ - ٤٦].

ولا بأس أن نتكلَّم عن هذه الآية:

قال - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ بعد أن قال - عزَّ وجلَّ -: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة:٤٠] لئلا يتوهَّم واهم أنه لما قال - سبحانه -: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ صار القرآن من عند الرسول - عليه الصلاة والسلام، وأنه هو الذي قاله، فقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٤ - ٤٧].

٥ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن جميع ما في القرآن حقٌّ على الوجه الثاني: أخباره، وقصصه، وأوامره، ونواهيه، إذن أخبارُه ليس فيها كذِب بوجه من الوجوه، قصصه ليس المراد منها: إمضاء الوقت، وإتلافه؛ بل هي قصص نافعة.

٦ - قوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ يستفاد منه: أن إنزال القرآن حُجَّة على الناس يُلزِمهم بعبادة الله، والفاء هذه للتفريغ؛ أي: فلأجل إنزال الكتاب إليك اعبُد الله.

٧ - **ومن فوائدها:** أن من لم يبلغه الكتاب لم تلزمه العبادة، ويدلُّ لهذا آيات أخرى؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، ومثل قوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص:٥٩]، ومثل قول النبي ﷺ: «وَالذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ لَا يَسْمَعُ بِي مِنْ

هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِمَا جِئْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[1]، فقال: «لَا يَسْمَعُ بِي»، والنصوص في هذا المعنى كثيرة في أن من لم تبلُغه دعوة الرسل لا تلزمه العبادة، والدليل التطبيقي لهذه المسألة عدَّة شواهد؛ منها: حديثُ عمار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ بعثه النبي ﷺ في سرية فأجنبَ، فلم يجد الماء، فتمرَّغَ في الصعيد كما تتمرَّغ الدابَّة، ظنًّا منه أن هذا لازمٌ له، وصلَّى، وأخبر النبيَّ ﷺ عن هذا، فبيَّن له النبي ﷺ أنه يكفيه عن الغُسْل أن يضرِب الأرض بيديه، ثم يمسح وجهه وكفَّيْه[2]، ولم يأمره بإعادة الصلاة.

وكذلك الرجل الذي جاء فصلَّى ولم يطمئنَّ في صلاته، فقال له النبي ﷺ: «إِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»[3]، فقال: والذي بعثك بالحق لا أُحسِنُ غير هذا، فعلَّمَه النبي ﷺ، ولم يأمُره بإعادة ما مضى من صلاته، مع أنه كان لا يُصلِّي، يُصلِّي صلاةً لا تُجزئُه.

وكذلك المرأة التي كانت تُستحاض، فتظنُّ أن هذا حيضٌ، فلا تُصلِّي، فلم يأمُرها النبي ﷺ بالإعادة، وأمثال هذا كثير.

وعليه فلو أن رجلًا أسلم في بلاد الكفر، أو في بلادٍ نائية لا يصِلُها أحكام الشرع، وترك الصلاة مُدَّة، ثم علِمَ بعد ذلك بوجوب الصلاة، فإننا لا نأمُرُه بإعادة ما ترك، وإنما نأمُرُه بصلاة ما حضر وقتُه فقط، وكذلك إذا كانت امرأة بلَغَت بالحيض وهي صغيرة، ولم تصُم رمضان، ولكنها في محلٍّ ليس حولها علماء تسألُهم، قد غلَبَ عليها الجهل؛ كالبادية مثلًا، فإننا لا نأمُرُها بقضاء ما تركَتْ من الصوم للجهل، وهذا هو اللائق بالشريعة الإسلامية المبنية على اليُسْر والسهولة، وعلى أن الله تعالى لا يُكلِّفُ نفسًا إلا وسعها، ولا يُكلِّفُ نفسًا إلا ما آتاها.

وهنا الآية التي معنا يمكن أن يكون فيها إشارة إلى ما ذُكِر ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ﴾، ﴿فَٱعْبُدِ﴾ بعد الإنزال أُمِر بالعبادة.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** وجوب الإخلاص لله في العبادة، لقوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ والإخلاص: تنقية الشيء مما يشوبُه، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن الله قال: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[4]، فلو تصدَّق الإنسان بمالٍ لكنه مُراءٍ بذلك من أجل أن يُمدَح، فإنه لم يعبُد الله، وهو آثمٌ وليس بمأجور، ولو صلَّى ليُمدَح فإنه لم يعبُد الله، وهو آثمٌ وليس بمأجور؛ لأن الله أمر بعبادةٍ خاصَّةٍ وهي: الإخلاص في قوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٥٣)، وأحمد في مسنده (٨١٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٣٤٠)، ومسلم (٣٦٨) من حديث أبي موسى الأشعري وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري (٧٢٤)، ومسلم (٣٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، وابن خزيمة في صحيحه (٩٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية**: أن العبادة دين يدين به الإنسان، ومعنى كونه دينًا: أنه يعمل ليُثاب، ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنه ينبغي على الإنسان حين العبادة أن يُلاحِظَ هذا المعنى، وهو: أنه يعمل ليُثاب؛ لأنه إذا شعُر بهذا الشعور فسوف يُتقِن العمل؛ إذن العقل يهدي الإنسان إلى أن الثواب على قدر العمل، إن أحسنتَ العمل حسُن الثواب، وإن قصَّرتَ فالثواب ينقُص.

وهذه المسألة - أعني: شعور كون الإنسان يعمل من أجل الثواب - أعتقدُ أنها تفوتُ كثيرًا من الناس، لا ينتبهون لها.

١٠ - **ومن فوائد هذه الآية**: الإشارة إلى نية المعمول له، حينما تعمل تُريد التقرُّب إلى الله - عزَّ وجلَّ - بامتثال أمرِه، فمثلًا: عندما تُريد أن تتوضَّأ، تنوي بأنك تتوضَّأ امتثالًا لأمر الله حينما قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة:٦] من أجل أن تشعر بالعبادة، ولذَّة العبادة، لا من أجل أن تُبرِئ ذمَّتك بفعل ما هو فرضٌ عليك من الطهارة للصلاة، هذا لا شك نية طيبة، لكن أطيب منها: أن تستشعر بأنك تمتثِل أمر الله لتشعُر بلذَّة العبادة، وأنك حقيقةً عبدٌ لربك عز وجل، هذه مسائل ينبغي للإنسان أن ينتبه لها في عبادته، ولهذا قال: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

ثم قال الله تعالى:

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ [الزُّمَر:٣]

١ - **من فوائد الآية الكريمة**: أن الله لا يقبل إلا دينًا خالصًا، أما ما سواه فليس لله، حتى وإن أشركتَ به مع الله؛ لأن الدين لله ما هو؟ الخالص النقي من شوائب الشرك.

فإن قال قائل: إذا كان العمل خالصًا في أوله مُشرَكًا فيه في آخره، المسألة الأولى: فهل يبطُل العمل كله، أو يبطُل ما فيه الشرك، أم ماذا؟

نقول: في هذا تفصيل: إذا كانت العبادة التي وقع الشرك في أثنائها ينبني بعضها على بعض، فإنها تبطُل؛ مثل: الصلاة، فمثلاً رجلٌ أحرَمَ بالصلاة مُخلِصًا لله، وفي أثنائها سمِع حوله أحدًا، فراءى في ذلك في صلاته، في أثنائها، ماذا نقول؟

نقول: الصلاة تبطُل كلها؛ لأن أولها وآخرها مبني بعضُه على بعض.

أما إذا كانت لا ينبني بعضُها على بعض، فإن ما كان خالصًا يصحُّ، وما كان مشوبًا فإنه لا يصحُّ؛ مثل: رجلٌ كان يتصدَّق عنده ألف ريال، كلما جاءه فقيرٌ أعطاه، أنفق خمسمائة ريال خالصة لله، وفي أثناء الإنفاق حضَرَه ناسٌ فراءاهم، فهل تبطُل الصدقة الأولى التي بها الإخلاص؟

لا؛ لأن بعضها لا ينبني على بعض، كل ريال منفصل عن الذي قبله، هذه مسألة مهمة.

المسألة الثانية: أحيانًا يُهاجِمُ الرياءُ القلبَ، ويُدافِعُه الإنسان، فهل يُؤثِّر هذا على إخلاصه؟

الجواب: لا، لا يُؤثِّر على إخلاصه، ما دام يُدافِعُه ويُعرِضُ عنه؛ لأنه الآن في جهادٍ لعدُوِّه، والشيطان دائمًا يأتي الإنسان من كل وجهٍ، قال الله تعالى عنه في سورة الأعراف: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يعني: في كل مكان، يأتي الإنسانَ يُثبِّطُه عن العبادة، يُثبِّطُه عن طلب العلم، يُثبِّطُه عن صلة الرَّحِم، عن برِّ الوالدَيْن، وما أشبه ذلك مما أوجَبَ الله عليه، فإذا رأى منه تصميمًا على القيام بالعبادة أتاه من جهةٍ أخرى، وهو: الغُلُوُّ في العبادة، والزيادة فيها، والتنطُّع، والتكلُّف.

فإذا عجز من هذه الناحية، أتاه من جهة النية أنك مُراءٍ، ولكن الإنسان يجب عليه أن يُدافِع الشيطان بقدر ما يستطيع مُستعينًا بالله عز وجل.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** في قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ غِنَى الله - عزَّ وجلَّ - الغنى التام، ووجه ذلك: أنه إذا كان الله لا يقبلُ إلا ما كان خالصًا دلَّ على غِناه عن عمل العباد؛ لأنه - وحاشاه من ذلك - لو كان مُحتاجًا لذلك لاكتفى بما يأتيه منهم ولو على سبيل المُشاركة، فالإنسان المُحتاج يقبل منك ما كان خاصًّا له، وما كان مُشتركًا، فلما كان الله لا يقبل إلا ما كان خالصًا عُلِم بهذا غِناه عن العباد، وإلى هذا يُشيرُ قوله تعالى في الحديث القُدُسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ».

ثم قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾

٣ - **من فوائد هذه الآية:** أن عابِدِي الأصنام قد تولوا الأصنام، واتخذوها أولياء.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية:** أنهم - أي: عُبَّاد الأصنام - يُموِّهون على الناس، يقول: نحن ما نعبُدهم إلا لغاية، وهي: أن يُقرِّبونا إلى الله زُلْفَى.

٥ - **ومن فوائدها:** أنه يمكن أن نُعدِّي هذا الحكم إلى جميع أهل الباطل، يدَّعون أنهم يُحسِنون صُنْعًا وهم كذَبَة، ولنضرب لهذا مثلًا بأهل التعطيل، أهل التعطيل يدَّعون أنهم بتعطيلِهم هذا مُنزِّهون لله، وأن قصدَهم تنزيه الله - عزَّ وجلَّ - عن النقص، وعن مُشابهة المخلوقين، وهم كاذِبون في ذلك؛ لأنهم إذا عطَّلوه عن كمال صفاته، فهو ضدُّ التنزيه، هؤلاء يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ والحقيقة أن هذه العبادة تُبعِدُهم من الله مسافات كثيرة.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** إقرارُ المُشركين بأنهم يعبُدون أصنامًا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾، فهم يُصرِّحون بأنهم يعبدونهم، لكن ما يقولون: نعبدهم لنتقرَّب إليهم؛ بل ليُقرِّبونا.

٧ ـ **ومن فوائدها:** أن المُشركين في عهد الرسول ﷺ يُقرُّون بوجود الله، وأنه أعظم من كل عظيم، لقولهم: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فهم مُعترِفون بالله عز وجل، وأنه أعظم من أصنامهم، ولهذا جعلوها وسيلةً له، أو للتقرُّب إليه.

٨ ـ **ومن فوائدها:** أنه سيكون بين هؤلاء المشركين، وبين أوليائهم نزاعٌ وخصومة يوم القيامة، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها:** أن الحكم لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحده في ذلك اليوم – أعني: يوم القيامة – وأن المرجع إليه.

٨ ـ **من فوائد هذه الآية:** أن من كان كاذبًا كفَّارًا فإن الله لا يُوفِّقُه، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر:٣].

٩ ـ **ومن فوائدها:** التحذير من الكذب وخِصال الكفر، وأن الكذب سببٌ لمنع الهداية؛ وذلك لأن الحكم إذا عُلِّق بوصفٍ – هذه القاعدة التي يمكن أن نُطبِّق عليها هذه الفائدة – وُجِد بوجود ذلك الوصف، وانتفي بانتفائه، يدلُّ لهذا: أن النبي ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ، فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ[1]، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ».

١٠ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الصدق سببٌ للهداية، وجهه: أنه إذا كان الكذب سببًا للغواية، فضِدُّه سببٌ لضِدِّه، يكون الصدق سببًا للهداية، ويتفرَّع على هذه الفائدة:

أ ـ الترغيب في الصدق، ولكن الصدق مع من؟ مع الله، ومع رسول الله، ومع عباد الله.

ب ـ الصدق مع الله بالإخلاص له، ومع الرسول باتباعه، ومع عباد الله بحُسن المعاملة، فعليك بالصدق «فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ[2]، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي[3] إِلَى الجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ، وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ[4] عِنْدَ اللهِ صِدِّيْقًا»[5] جعلنا الله وإياكم منهم.

يقول بعض السفهاء: الكذب منجاة، ويقولَ بعض الباعة: الكذِب مسامير السِّلَع.

نقول: الكذب مهلكة، والصدق منجاة، وبالنسبة للسِّلَع الذين يبيعون ويشترون يقولون: اكذب لأجل أن تُحكِم السِّلَع مثل المسامير للأبواب.

---

(١) اسم جامع لكل شر أي الميل إلى الفساد والانطلاق إلى المعاصي.

(٢) اسم جامع لكل خير أي العمل الصالح الخالص من كل ذم.

(٣) أي يوصل.

(٤) يحكم له.

(٥)رواه البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

ماذا نقول له؟

نقول له: بل اصدُق، فإن هذا الصدق هو مَسَامِرُ التَّثبيتِ حقًّا والذي يُثبِت البَرَكَة، لكن الكذب منفقةٌ للسلعة، ممحقةٌ للكسب.

١١ ـ **من فوائد هذه الآية:** أن الكفر سببٌ للغواية، لقوله: ﴿مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾، ويؤيِّد هذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

١٢ ـ **ومن فوائدها:** التحذير من خِصال الكفر؛ لأن الحكم إذا عُلِّق بوصفٍ ثبت بوجوده، وانتفى بانتفاءه، خِصال الكفر التي لا تُؤدِّي إلى الكفر المُطلق قد تكون سببًا – والعياذ بالله – للغواية؛ مثل: الطعن في النسب، النياحة على الميت، قتل المعصوم المسلم، لقوله عليه الصلاة والسلام: «سِبَابُ المُسْلِمِ[1] فُسُوقٌ[2]، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ[3]»[4].



قال الله تعالى:

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر:٤]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما قالوا: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [مريم:٨٨]، ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لو هذه: شرطية، والشرط الذي فيها أراد، وجوابُه: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، واعلم أن لو الشرطية إذا كان جواب الشرط فيها مُثبَتًا فالأكثر اقترانُه باللام مثل قوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ﴾، وقد يأتي غير مُقترِنٍ باللام، كقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة:٧]، أما إذا كان منفيًّا فإنه لا يقترن باللام، كما قال الشاعر[5]:

---

(١) شتمه والتكلم في عرضه بما يعيبه ويؤذيه.

(٢)فجور وخروج عن الحق.

(٣)أي إن استحله. والمراد إثبات ضرر المعصية مع وجود الإيمان.

(٤) رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٥) ينسب هذا البيت إلى: الشلبي، أبو عبد الله محمد بن أبي العباس أحمد بن محمد بن هشام الشلبي المالقي. وقال عنه ابن خميس أنه كان كاتباً بليغاً وشاعراً مطبوعاً وهو المذكور ضمن شعراء المقامة المحسنية باسم عبد الله الشلبي.وترجمته ضمن أدباء مالقة تعني أنه شلبي من الوافدين على مالقة.وأبو العباس والد الشاعر هو أبو

ولــو نُعطَى الخيــار لما افترقْنا ولكن لا خيــار مع الليــالي

قوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أراد إرادةً كونية، فتكون بمعنى: المشيئة؛ يعني: لو شاء الله أن يتخذ ولدًا؛ يعني: أن يجعل لنفسه ولدًا، كما قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾، ﴿لَّٱصْطَفَىٰ﴾ من الصفوة، وهو خيار الشيء، فيكون معنى اصطفى: اختار.

وقوله: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ﴾ أي: مِنَ الذي يخلق ﴿مَا يَشَآءُ﴾ و(ما) هنا مفعول اصطفى؛ أي: لاصطفى ما يشاء مما يخلق، وقوله: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾: هذه اسم موصول - أعني: ما، والعائد محذوف، والتقدير: مما يخلُقُه، وعبَّر بـ (ما) دون (مَنْ) مع أنهم قالوا: الملائكة بنات الله، قوله: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ فعبَّر بـ (ما)؛ لأنها أعمُّ من (مَنْ)، هذا من وجه.

والوجه الآخر: أنه إذا أُريدَ ملاحظة الصفة فإنه يُعبَّر بـ (ما) عن (مَنْ)، وهنا يُراد ملاحظة الصفة، وهي العبادة.

وهذا مثال يتضح به ما قلنا: قال الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣] ولم يقل: (مَنْ)؛ لأنه ليس المقصود امرأة بعينها، إنما المقصود الوصف، ولهذا عُبِّر بـ (ما) عن (مَنْ).

وقوله: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ﴾ أي: من مخلوقاته ذات الإرادة والشعور؛ كعُزير، والمسيح، والملائكة، وغيرهم؛ كالجمادات من الأصنام المنحوتة، وغيرها.

وقوله: ﴿مِمَّا يَشَآءُ﴾ نقول في: ﴿مِمَّا يَشَآءُ﴾، كما قلنا في ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾.

[واتخذه ولدًا غير من قالوا: من الملائكة بنات الله، وعُزيرُ ابن الله، والمسيح ابن الله] يعني: أنه - عزَّ وجلَّ - لو أراد أن يتخذ ولدًا ما منعه أحد، لاصطفى مما يخلق ما يشاء مما قالوه أو غيره، فهو - عزَّ وجلَّ - له الملك الكامل، ولكنه لا يتخذ ولدًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٢] يعني: مستحيل غاية الاستحالة أن يتخذ ولدًا، ولهذا قال هنا: [﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهًا له عن اتخاذ الولد ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ لخلقه].

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزيهًا له، وسبحانه هذه اسم مصدر من سبَّحَ، والمصدر تسبيح، واعلم أن سبحان ملازمة للإضافة دائمًا، ولكن ربما تأتي نادرًا أو شُذُوذًا بغير إضافة، وربما تقترن بـ (ال)، فيُقال: ذا السُّبْحان، ولكن الأصل أنها مُلازمة للإضافة، وأنها منصوبة على المفعولية المطلقة، وعاملها يكون محذوفًا دائمًا، والمراد: تنزيهًا له.

وقول المؤلف: [عن اتخاذ الولد] إنما خصَّه باتخاذ الولد؛ لأن السياق في ذلك، وإلَّا فإنه مُنزَّه عن اتخاذ الولد، وعن كل عيبٍ ونقصٍ.

مسألة: فإذا قال قائل: هل في اتخاذ الولد من عيبٍ؟

العباس أحمد بن محمد بن هشام الشلبي الذي ترجم له ابن عبد الملك ترجمة مختصرة. والشلبي من شعراء القرن السادس.

فالجواب: نعم، فيه عيبٌ؛ لأنه:

أولًا: يدلُّ على احتياج الوالد للولد، ولهذا تجد الإنسان إذا لم يأته ولد يرى أنه ناقص، ويتمنَّى كل الأمنية أن يأتيه ولد يُساعده على شئون الحياة، ويُبقِي ذِكْره بعد موته، فاتخاذ الولد نقص، ولهذا نزَّه الله نفسَه عنه.

ثانيًا: الولد إنما يأتي من أجل بقاء النوع الذي تولَّد منه، والله سبحانه وتعالى غير مُحتاج لذلك؛ لأنه هو الواحد الباقي عز وجل.

ثالثًا: أن الولد يكون مُماثلًا لأبيه، وما سمعنا أن بشرًا جاءه تيسٌ، وإنما يأتيه ولدٌ مثلُه، فلو فُرِض أن الله اتخذ ولدًا لكان الولد مثل الله عز وجل، والله تعالى مُنزَّه عن أن يُماثِلَه أحد.

إذن ففي هذه الوجوه الثلاثة يتبيَّن أن الولد ممتنع على الله غاية الامتناع، ثم إن الله ذكر مانعًا رابعًا، وهو أنه ليس له زوجة، فقال تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٠١]، فبيَّن أنه ليس له زوجة، كيف يأتي الولد؟! وإنما جاء الولد من آدم مثلًا؛ لأنه آية مُعجِزة.

قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ ولو كان له ولد لشارَكه في الألوهية، والألوهية ليست إلا له، ولو كان له ولد لكانا اثنين؛ لأنه لابد أن يكون الولد مُماثلًا لوالده، والله واحد لا ثاني له عز وجل.

وقوله: ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ صيغة مبالغة، وصيغة نسبة؛ أي: إنَّهُ ذو القهر الدائم المُتكرِّر، فكم من ذي جَبَروت قهَرَه الله -عزَّ وجلَّ- ما أكثر الرجال والأمم ذوات الجبروت التي قهَرَها الله عز وجل.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية:** بيان كمال سلطان الله سبحانه وتعالى، وأنه لو أراد شيئًا لم يمتنع عليه، لقوله: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

ومن وجهٍ آخر: أنَّ فيه ردًّا لافتراءاتهم أو دعواهم أن الملائكة بنات الله، أو المسيح، أو العُزَير، فيقول: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ دون أن يتَّخذ ما ادَّعوه.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات إرادة الله عز وجل، لقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾، وإرادة الله تعالى في فعله متفقٌ عليها، لا نظنُّ أن أحدًا يُخالف في أن الله تعالى يُريدُ فِعْلَه، مسألة: ولكن هل تتعدَّى إلى فعل المخلوق أو لا؟

الجواب: في هذا خلافٌ بين أهل السنة وأهل البدعة:

أ- فمنهم من قال: إنها تتعدَّى إلى فعل المخلوق، وغلا في ذلك، وقال: إن المخلوق ليس له إرادة، وهذا قولُ الجبرية.

ب- ومنهم من قال: إنها تتعدَّى إلى فعل المخلوق، لكن لا على سبيل الجبر، وهذا مذهب أهل

السنة والجماعة.

جـ- ومنهم من قال: إنها لا تتعدَّى إلى فعل المخلوق، وأن المخلوق مُستقلٌّ بفعله، ولا إرادة لله تعالى فيه، وهذا مذهب القدَرية مجوس هذه الأمة.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الأفعال الاختيارية لله عز وجل، لقوله: ﴿لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، والأفعال الاختيارية لله ثابتة بالسمع والعقل، أما السمع؛ فما أكثر الأفعال التي يُضيفها الله لنفسه، وأما العقل فلأن الفاعل بالاختيار أكمل ممن لا يفعل.

وذهبت الأشاعرة وغيرهم من المُعطِّلة إلى أن الأفعال الاختيارية لا تقوم بالله عز وجل، بحُجَّة أن الفعل الحادث يستلزم حُدُوث الفاعل، ولا شكَّ أن هذا قولٌ باطلٌ، يستلزم لوازم باطلة؛ منها: أن الله سبحانه وتعالى غير قادرٍ على الفعل، وهذا تنقُّص لله عز وجل، وتكذيبٌ لأخباره الكثيرة التي لا تُحصَى في إثبات الفعل له.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية:** إثباتُ المشيئة لله، لقوله: ﴿لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، والمشيئة نقول فيها كما قلنا في الإرادة؛ من حيث تعلُّقُها، هي تتعلَّق بأفعال الله، وهذه تتعلَّق بأفعال المخلوق على الخلاف السابق الذي شرحناه في الإرادة، لكن هنا أمرٌ يجب التنبُّه له، وهو: أن الإرادة تنقسِمُ إلى قسمين:

إرادة شرعية، وإرادة كونية، أما المشيئة فهي قسمٌ واحدٌ فقط.

الإرادة الكونية: تُرادِف المشيئة، فهي بمعناها، فإذا قلت: ما أراد الله كان، فهو بمعنى: ما شاء الله كان، أما الإرادة الشرعية: فإنها تُرادِف المحبة؛ أي: إنَّها تتعلَّق بما يُحبُّه الله عز وجل، فتقول: إن الله يُريدُ منَّا أن نشكُرَه، هذه الإرادة شرعية.

والفرق بين الإرادة الشرعية والكونية من وجهين:

الوجه الأول: أن الإرادة الكونية شاملة لما يُحبُّه الله وما لا يُحبُّه، فهو يُريدُ الإيمان ويُريدُ الكفر، ويُريدُ الطاعة ويُريدُ الفِسْق، أما الشرعية: فإنها لا تتعلَّق إلا بما يُحبُّه فقط، فلا يمكن أن تقول: إن الله يُريدُ الفِسق؛ أي: يُحبُّه، هذا مستحيل.

والوجه الثاني: الإرادة الكونية لابد فيها من وقوع المراد؛ يعني: إذا أراد شيئًا كونًا لابد أن يقع، والإرادة الشرعية قد يقع، وقد لا يقع.

يُريدُ منَّا سبحانه وتعالى الإيمان والطاعة، قد توجد، وقد لا توجد، هذا هو الفرق بينهما، وبهذا تنحلُّ إشكالات أوردها القَدَرية على أهل السنة، فقالوا لهم: إذا أثبتُّم تعلُّق إرادة الله بكل شيء حتى بالمعاصي لزِمَكم أن الله يُريد الشر، فيكون الله على تقدير قولهم شريرًا – نسأل الله العافية – !

مسألة: ماذا نقول؟

الجواب: نقول: أما الإرادة الشرعية: فإن الله تعالى لا يمكن أن يُريد الشر أبدًا، وأما الإرادة

الكونية: فإنه يُريدُ ما شاء، لكن إرادته كونًا للشر له حكمةٌ بالغةٌ كبيرة معروفة.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** تنزيهُ الله سبحانه وتعالى عن كل ما وصفه به الكافرون الجاحدون، لقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾.

٦ ـ **ومن فوائدها:** إثبات ثلاثة أسماء لله: (الله، والواحد، والقهار)، وكل اسم يُثبِتُه الله لنفسه فإنه يتضمَّن الصفة التي اشتقَّ منها، فالله مُشتقٌّ من الألوهية؛ ففيه: إثبات الألوهية صفة من صفاته، الواحد؛ الوحدانية، وفيه: إثبات الوحدانية لله عز وجل، القهار؛ القهر، ففيه: إثبات القهر لله عز وجل، وأنه القهَّار الغالب لكل شيءٍ.



قال الله تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر:٥].

التفسير

قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [بالحق] مُتعلِّقٌ بـ ﴿خَلَقَ﴾ هذه الآية جاءت عقِب ردِّ قول من يقول: إن لله ولدًا؛ ليُبيِّن أن الخالق للسماوات والأرض غنيٌّ عن الولد، ولا يحتاج إليه؛ لأن الكل مُلكُه، ولا يحتاج إلى الولد إلَّا من كان غير مالكٍ تمام المُلْك.

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السماوات جمع سماء، والسماء يُطلَق على معنيين:

المعنى الأول: العلوّ، وإن كان دون السماوات.

والمعنى الثاني: السماوات: المعروفة وهي السقف التي بناها الله عز وجل.

فمن الأول: قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الزمر:٢١] من السماء يعني: من السحاب، والسماء ليست لاصقة في السقف، ولكنه في العلو، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج:١٥] أي: إلى العلو.

وأما الثاني الذي هو البناء فهو كثير، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:١١، ١٢]، ومنه هذه الآية: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. وجمعها؛ لأنها جمع سبع سماوات، كما في القرآن الكريم، وكما في السنة النبوية.

والأرض: هي الأرض التي وضعها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لخلقه يعيشون عليها، كما قال تعالى:

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن:١٠]، ولم يأت في القرآن ذِكْرُ عددها صريحًا؛ يعني: ليس في القرآن أن الأراضين سبع، لكن جاء ذِكْرُها بهذا العدد لا على سبيل التصريح، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] أي: مثلهن في العدد، وليس مثلهن في الصفة للتباين ما بين السماوات والأرض في الصفة.

أما السنة؛ فصريحةٌ في أن الأراضين سبع، قال النبي ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ[١] شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا، طُوِّقَهُ[٢] يومَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَاضِينَ»[٣]، والظاهر من النصوص: أن هذه الأراضين مُتطابقة؛ يعني: بعضها تحت بعض كالسماوات؛ لأن قوله عليه الصلاة والسلام: «طُوِّقَهُ يومَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَاضِينَ» لولا إنها مُتطابقة لم يُعذَّب بها تحت الأرض العُليا، فهي مُتطابقة.

ولكن هل هذه الأرضون مُتباينة، مُنفصلٌ بعضها عن بعض، مسألة: أو هي كتلة واحدة؟

نقول في الجواب عن هذا: الله أعلم، لا ندري، لكن يجب أن نُؤمن بأنَّ هناك سبع أراضين، كما جاء ذلك في النصوص.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مُتعلِّق بـ ﴿خَلَقَ﴾ يعني: أن خلْقَه إياها بالحق، الحق؛ أي: أنه خلقها حقًّا لا خالق لها غيره، هذه واحدة.

والثانية: بالحق؛ أي: من أجل الحق، لا باطلًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص:٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:٣٨، ٣٩] وصدق الله عز وجل، فإن في خلق السماء والأرض من الحق ما هو ظاهرٌ، فبهما يُعرَفُ الله عز وجل، وتظهر آياته الكونية، وآياتُه الشرعية، وبهما يعيش الخلق، ولا يمكننا في هذا المجلس أن نحصُر ما في خلق السماوات والأرض من الحق.

قوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ﴾.

قال المؤلف: [(﴿يُكَوِّرُ﴾ يُدخِل)] ولا شكَّ أن الله يُولِجُ الليل في النهار، ويُولِجُ النهار في الليل، كما في الآية الأخرى، مسألة: ولكن هل معنى التكوير هنا: الإيلاج؛ أنه يُدخِل النهار على الليل فيطول، ويُدخِل الليل على النهار فيطول؟

الجواب: ظاهر اللفظ يأبى ذلك؛ لأن الله قال: ﴿يُكَوِّرُ﴾ والتكوير هو: التدوير، ومنه: كَوْرُ العِمامة؛ أي: ليُّها، ليّاتُها تُسمَّى: أكوارًا، فيكوِّر يعني: يُديرُ الليل على النهار، وهذا يُشبِه قوله

(١) أي أخذ والمراد الأخذ بغير حق.

(٢) أي جعله طوقا في عنقه.

(٣) رواه مسلم (١٦١٠)، وأبويعلى في مسنده (٩٥٩) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه، وأحمد في مسنده (٩٥٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تعالى: ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾، وإذا كان هذا ظاهر اللفظ فإن الواجب أن نُجرِيَ اللفظ على ظاهره؛ لأنه -أي: الظاهر- هو الذي يتبادر إلى ذهن السامع.

فإذا قال قائل: لماذا لا تجعلون الأمر كما قال المؤلف من أجل أن نُفسِّر القرآن بالقرآن، فنجعل يُكوِّر؛ يعني: يُولِج؟

قلنا: هذا لا يصحُّ، لوجهين:

الوجه الأول: أنه خلاف ظاهر اللفظ.

والوجه الثاني: أنه يفوتُ به المعنى المُستفاد من كلمة ﴿يُكَوِّرُ﴾، أما المعنى المُستفاد من الإدخال فهذا يُعرَف من الآيات الثانية، حينئذٍ نستفيدُ فائدةً جديدةً غير فائدة الإدخال.

قوله: [﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [الرعد:٢] أي: ذلَّلَهما].

التسخير بمعنى: التذليل؛ يعني: ذلَّلَهما، لأي شيء؟ لمصالح العباد، بدليل قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [النحل:١٢] إذن التذليل هنا لمصلحة العباد، والشمس والقمر معروفان لا يحتاجان إلى تعريف، ولو أننا أردنا أن نُعرِّفهما بما يُعرِّفُه أهلُ الفلك لزِدناهما غُمُوضًا، لو قلنا: إن الشمس كتلة نارية ملتهبة.. إلخ ما قالوا، لقال الناس: ما الشمس؟ أين الكتلة النارية؟

القمر أيضًا كتلة صخرية جامدة باردة.. إلخ ما قالوا، أيضًا يذهب الذهن كل مذهب، لكن إذا قلنا: الشمس ما نراها آية النهار، والقمر آية الليل كلٌّ يعرفها أوضح من كل شيء.

قوله: ﴿وَسَخَّرَ﴾ ذلَّل، في جريانهما، وفي اختلاف هذا الجري. كونهما يدوران على الأرض، ويختلفان طولًا وقِصَرًا، هذا لا شك أنه لمصالح العباد.

قوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر:١٣] كل من الشمس والقمر ﴿يَجْرِي﴾ أي: يسير في فلكه، الفلك الشيء المُستدير، وهما يدوران باستدارة واضحة، لكنها تختلف باختلاف الليل والنهار.

وقوله: ﴿لِأَجَلٍ﴾ أي: إلى أجل؛ أي: لغاية.

﴿مُّسَمًّى﴾ مُعيَّن من قِبَلِ الله عز وجل، وهذا الأجل المُسمَّى، قال المؤلف: [ليوم القيامة] ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١ - ١٤] ومتى يكون هذا؟ يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران:٣٠].

فهذان يجريان إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة ذهبت حاجة الناس إليهما، وذهبا.

وقوله: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ ألا: أداة استفتاح، وتأتي للتنبيه، وقوله: ﴿هُوَ﴾ يعود على الله عز وجل، و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ قال المؤلف: [الغالب على أمره، المُنتقِم من أعدائه]، وهذا أحدُ معاني العِزَّة التي أثبتها الله لنفسه، وسبق أن لها معنى ثانٍ وثالثٍ: عزة القدر، وعزة الامتناع بالإضافة إلى عزة القهر، فالله سبحانه وتعالى مُتصفٌ بالعزة كاملةً، قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ فجميع أنواع العِزَّة ثابتةٌ لله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ صيغة مبالغة من الغَفْر، والغَفْر أو الغُفران ستر الذنب والتجاوُز عنه، ولا يكفي أن نقول: إن المغفرة، أو المغفرة هو التجاوُز عن الذنب؛ لأن المعنى المُشتق منه يأبى ذلك، فالمغفرة: مُشتقة من المِغْفَر، والمِغْفَر شيءٌ يُوضَع على الرأس يقيه من سِهام الأعداء، ففي هذا المِغْفَر سترٌ ووقاية، ولهذا نقول في معنى الغفار: هو غافرُ الذنب؛ أي: الذي يستُر الذنب ويتجاوزُ عنه.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات خلق السماوات والأرض، وهذه الفائدة: يترتَّب عليها الردُّ على الطبيعيين الذين هم الفلاسفة، الذين يقولون بِقِدَم العالم، وأن العالم أزليّ، وأن هذه السماوات ليس لها أول، هي موجودةٌ بالأزَل، فإن هذه الآية تَرُدُّ عليهم، فإنه يقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: أوجَدَها بعد العدم.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن للسماوات عدد؛ وجهه: الجمع؛ لأن الجمع يدلُّ على العدد، وقد بيَّنت نصوص أخرى أنها سبع.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن خلق السماوات والأرض بالحق، وضِدُّه الباطل، فلم تُخلَق باطلًا، وسُدًى، ولعبًا.

٤ - **ومن فوائدها:** أن الخالق للسماوات والأرض هو الله، لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ على أحد المعنيين الذَيْن أشرنا إليهما.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية:** إثباتُ كروية الأرض، من قوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾، ومعلومٌ أن الليل والنهار يتعاقبان على الأرض، فإذا كان سيرُهما تكويرًا دلَّ على أن الأرض كُروية.

٦ - **ومن فوائدها:** إثباتُ قُدرة الله - عزَّ وجلَّ - بتكوير الليل والنهار، وقد أشار الله - عزَّ وجلَّ - إلى ذلك في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧١، ٧٢] لو اجتمع الخلق كلهم على أن يأتوا بالليل في موضع النهار، أو النهار في موضع الليل ما استطاعوا، ففي هذا بيان كمال قدرة الله عز وجل؛ حيث يُكوِّر الليل على النهار، ويُكوِّرُ النهار على الليل.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** بيان نعمة الله علينا بتسخير الشمس والقمر، لقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [العنكبوت:٦١].

٨ ـ **ومن فوائدها:** أن الشمس والقمر يجريان في فلكهما، ففيه الردُّ على من زعم أن تعاقُب الليل والنهار يكون بدوران الأرض، فإن الآية صريحة في أن الشمس تجري، والقمر يجري، وعلى الأقل نقول: هي ظاهرة في ذلك.

وإذا كان لدينا ظاهرٌ من الكتاب والسنة، فإنه لا يجوز لنا أن نعدو هذا الظاهر،

إلا بدليل بيِّن يُسوِّغُ لنا أن نخالف هذا الظاهر؛ لأن الله خاطَبَنا في كلامه باللسان العربي، فوجَبَ علينا أن نأخذ بمُقتضى هذا اللسان العربي ما لم يُوجد دليل على خلافه، هم يقولون الآن: إن الشمس والقمر لا يجريان، وأن القمر يدور حول الشمس، وأن الأرض ـ أيضًا ـ تدور حول الشمس، وأن تعاقُب الليل والنهار يكون بدوران الأرض، وكل هذا خلاف ظاهر القرآن، فلا عبرة به، إلا إذا علِمنا شيئًا نُقابِل به الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بإخراج كلامه عن ظاهره، وإلَّا فالواجب إبقاؤه على الظاهر، حتى لو فَرَضنا أننا أقررنا بأن الأرض تدور، فإنه لا يلزمُ من ذلك ألاَّ تكون الشمس تدور عليها؛ لأن بعض الناس يقول: إذا أقررتم بأن الأرض تدور، فإنه يلزمُكُم أن يكون اختلاف الليل، والنهار بسبب دوران الأرض.

نقول: لا يلزم؛ لأنه إذا اختلفت دورة الأرض مع دورة الشمس حصل تعاقُب الليل والنهار، ولا مانع.

على كل حال؛ المهم: أنه يجبُ علينا أن نأخُذ بظاهر كلام الله؛ لأن الله هو الخالق، وخبرُه هو الصادق، وقد خاطَبَنا بما نفهمُه من لغتنا لغة العرب، فلا يجوز لنا العدول عن الظاهر إلا بدليلٍ حِسِّي نُخاطِب به الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يوم القيامة، إذا سألَنا: لم اعتقدتم أن الأرض هي التي تدور، وأن الليل والنهار يكون بسبب دورانها؟

يكون لنا حُجَّة، نقول: لأننا لَمَسْنا هذا.

فإذا قُدِّر أنه ثبت أن الليل والنهار يكون بدوران الأرض لا بدوران الشمس، فكيف نُجيبُ عن الظواهر؟

نقول: تجري بحسب مرأى الإنسان؛ لأن الشيء إذا كان قارًّا وهو يدور، فالذي فوقه ساكنًا يُظنُّ أنه هو الذي يتحرَّك ويدور، فإذا ثبت هذا قلنا: إنها تجري بحسب نظر الإنسان، وإن كانت هي ثابتة والأرض هي التي تدور.

٩ـ **من فوائد هذه الآية:** بيان أهمية معرفة أسماء الله وصفاته، لقوله: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾؛ لأن (ألا) هنا للتنبيه، ولا يُحتاج إلى التنبيه إلَّا في أمرٍ هام ينبغي التنبُّه له.

١٠ـ **ومن فوائدها:** إثباتُ هذين الاسمين وما دلَّا عليه من صفة وحكم، وهما: العزيز،

والغفار.

والقاعدة في باب أصول العقيدة: أن كل اسم من أسماء الله فهو مُتضمِّنٌ لصفة، وقد يتضمَّن مع الصفة حكمًا، وهو ما يُسمَّى بالأثر إذا كان مُتعدِّيًا، وإن لم يكن مُتعدِّيًا ففيه الاسم والصفة؛ فمثلًا: الحي من أسماء الله مُتضمِّنٌ لصفة وهي الحياة، ولكنه لا يتعدَّى لغيره؛ لأن الحي وصف لازم؛ يعني: لا يتعدَّى الموصوف.

فالغفار مثلًا اسمٌ من أسماء الله، مُتضمِّنٌ لصفة وهي المغفرة، مُتعدٍّ للغير، وهو أنه يغفر الذنوب.

فهذه قاعدة في أسماء الله سبحانه وتعالى: أن كل اسم منها مُتضمِّنٌ لصفة، وقد يكون مُتضمِّنًا للحكم الناتج من هذه الصفة إذا كان مُتعدِّيًا، أما إذا كان لازمًا لا يتعدَّى الموصوف، فإنه ليس له حكم؛ يعني: ليس له حكم مُتعدٍّ لغيره.



قال الله تعالى:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر:٦]

التفسير

الخطاب هنا لبني آدم ﴿خَلَقَكُم﴾ يعني: يا بني آدم، ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهي آدم، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وصفة خلق آدم: أن الله سبحانه وتعالى خلَقَه من تراب، والتراب هذا صار طينًا بإذن الله، وبقي حتى صار كالفخَّار له صلصلة، وصوت عند دقِّه، ثم بعد ذلك خلق الله منه آدم، وبعد أن خلق جُثَّة آدم نفخ فيه الروح فصار حيًّا سويًّا بشرًا، هذا هو أول خِلْقة الإنسان، كما دلَّ على ذلك كتاب الله عز وجل.

وأما القرود، الذين زعموا أن أصل الآدمي قرد، فنحنُ نُسلِّمُ لهم ذلك بالنسبة لهم، أما بالنسبة لنا فنحن – ولله الحمد – من بني آدم بشر، خلق الله تعالى أبانا (آدم) بيده، وعلَّمَه أسماء كل شيء، وأسجَدَ له ملائكتَه، وأما هم فلهم ما أحبُّوا أن يرُدُّوا أنفسَهم إليه.

قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [ثم] للترتيب بمُهْلة؛ لأن خلق هذه الزوج متأخِّر عن خلق آدم، فإن الله سبحانه وتعالى أبقاه مُدَّة حتى عرف أنه مُحتاج إلى زوجة ليسكُن إليها، فخلق الله له زوجة،

وجعل هذه الزوجة من نفس آدم، وقول النبي ﷺ في النساء: «إِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ»(١) يقتضي أن حواء خُلِقَت من ضَلَع آدم، والله على كل شيء قدير، أن يخلق بشرًا من غير زوجة؛ بل ومن غير زوج، فإن حواء خُلِقَت بلا أمٍّ ولا أب.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ لا يُنافي ما ذكر الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف:١٨٩] لأن الواو لمُطلق الجمع، لا تستلزم الترتيب، فإذا جاءت آية أخرى فيها التصريح بالترتيب، حُمِلَت الآية التي فيها الواو الدالَّة على مُطلق الجمع، حُمِلَت على الترتيب، على أن تقديم الشيء على الشيء في الذِّكْر وإن كان بالواو يقتضي أن يُقدَّم، هذا هو الأصل، ولهذا لما دنا النبي ﷺ من الصفا حين أتى إلى السعي قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨] «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ»(٢)، فبدأ بالصفا، وهذا يدلُّ على أن ما قُدِّم في الذِّكْر فهو مُتقدِّمٌ على ما بعده رُتبة، أو زمنًا، أو مكانًا حسب ما يقتضي الحال، لكن ليس هذا بلازم، قد يتقدَّم ما بعد الواو على ما قبلها ولا يُعدُّ هذا تناقُضًا، لكن في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ لا يمكن أن نقول: إن الجَعْل هنا قبل خلق آدم.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا﴾ للابتداء، ومنها عينًا، أو منها وصفًا؟

الظاهر: الأمران؛ لأنها من آدم خُلِقَت، وهي مثل آدم، فهي من نوعه، وهي أيضًا منه عينًا، فهي جزءٌ منه وبَضْعة منه، ولهذا خطب النبي ﷺ في الناس وأخبر أن فاطمة بَضْعةٌ منه(٣).

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الزوج يُطلَق على عدة معانٍ؛ منها: الصِّنف، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص:٥٨] أي: أصناف، وكقوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢] أي: أصنافهم.

ويُطلق الزوج على ما سوى الفرد؛ فيُقال: فرد وزوج.

وكلمة زوج هنا تشمل المعنيين؛ فهي صِنفٌ من البشر، وهي أيضًا زوج فقد شفعت آدم بعد أن كان فريدًا.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: هذا ابتداءُ خلق الإنسان.

قال: [﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والغنم والضَّأن والمَعْز ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾].

الإنزال هنا بمعنى: الخلق؛ لأنها أُضيفَت إلى أعيان، وهي الأنعام، والأنعام: جمعُ نَعَم؛ كأسباب جمع: سبب.

---

(١) رواه البخاري (٤٨٩٠)، وأحمد في مسنده (١٠٤٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (١٢١٨)، وعبد بن حميد في مسنده (١١٣٥)، والدارمي (١٨٥٠)، وابن خزيمة (٢٧٥٧)، وابن حبان في صحيحه (٣٩٤٤) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٣) كما روى ذلك البخاري (٣٥٢٣)، ومسلم (٢٤٤٩) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

وقوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي: ثمانية أصناف، وقد بيَّن الله هذه الأزواج في «سورة الأنعام»، فقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ من الضَّأْن اثنين، ومن المَعْز اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الإبل اثنين، فالجميع ثمانية ذكر، وأنثى من كل صِنفٍ من الأصناف الأربعة، وإذا ضربت اثنين في أربعة صارت ثمانية.

قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ قال المؤلف رحمه الله: [من كلٍّ زوجان ذكرٌ وأنثى كما بُيِّن في «سورة الأنعام»].

ثم قال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾.

لما ذكر ابتداء الخلق الأول، وهو آدم ذكر ابتداء الخلق الثاني، وهو النوع الإنساني، فقال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ في: للظرفية، والبطون: جمع بطن، والأصل أن هذه المادة: الباء والطاء والنون خلاف الظهور، فالبطون خفيَّة، والظهور ظاهرة، من أسماء الله: (الظاهر، الباطن)، الظاهر: العالي، والباطن: الذي لا يحولُ دونه شيءٌ، فهنا البطون جمعُ بطن، وهو مُشتقٌّ من البطونة، بطن الشيء بطونًا؛ أي: خفي.

وقوله: ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ جمع: أم، ويُقال: أمَّات لغير العاقل، ويُقال في العاقل: أمهات.

قوله: ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا﴾ مصدر يخلق ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي: خلقًا مُتطوِّرًا؛ قال المؤلف: [أي: نُطَفًا، ثم علَقًا، ثم مُضغًا].

وقد أشار الله تعالى إلى هذه الأصول في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج:٥] من تراب باعتبار آدم، من نُطفة باعتبار النوع الإنساني، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ المُضغة: هي قطعة اللحم بقدر ما يُمضَغ، وقد بيَّن النبي ﷺ مُدَّة هذا التطوُّر في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ(١) أَرْبَعِيْنَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً(٢) مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً(٣) مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيْهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيْدٌ(٤)»(٥) أربعين يومًا نطفة يعني: ماءً، وهو المني، لكنه في هذه المُدَّة يتطوَّر تطوُّرًا خفيًّا إلى أن يصِل إلى الغاية في تمام أربعين يومًا، حتى يكون علَقَة؛ أي: دمًا أحمر، والظاهر أنه ليس المراد: إنه يبقى نُطفةً إلى تمام الأربعين، ثم ينقلِب في لحظة

---

(١) يضم بعضه إلى بعض أو المراد بالجمع مكث البويضة بالرحم بعد تلقيحها بالنطفة.

(٢) دما غليظا جامدا.

(٣) قطعة لحم قدر ما يمضغ.

(٤) حسب ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته وما علمه سبحانه مما سيكون من هذا المكلف من أسباب السعادة أو الشقاوة.

(٥) رواه البخاري (٣٠٣٦)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

إلى دم؛ بل هو يتطوَّر، وينقلب شيئًا فشيئًا إلى أن يتم كونه دمًا في أربعين يومًا، ثم يبقى هكذا علَقَة، لكنه أيضًا يتجمَّد شيئًا فشيئًا، وينمو حتى ثمانين يومًا، ثم بعد ذلك يكون مُضغةً قطعة لحم مُخلَّقة، وغير مُخلَّقة، يحتمل - والله أعلم - أن مُخلَّقة عند انتهاء الطور الثالث، غير مُخلَّقة في ابتداء الطور؛ يعني: فتكون في هذا الطور في الابتداء غير مُخلَّقة، وفي النهاية مُخلَّقة.

ويحتمل أن تختلف الأجِنَّة في ذلك، فيكون بعضُها مُخلَّقًا من حين أن تنتقل من العلَقَة إلى مُضْغة، وبعضُها يتأخَّر، فالله أعلم، ويُرجع في هذه المسألة إلى العلماء.

ثم قال عز وجل: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ﴾ لا يصل إليها الضوء، فسَّرها المؤلف بقوله: [هي ظُلمةُ البطن، وظُلمةُ الرحم وظُلمةُ المشيمة] هذه ثلاث ظُلُمات جعلها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقايةً لهذا الجنين؛ لأن أشعة الضوء لو وصلَت إليه لأفسَدَتْه، ولكن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جعله في هذه الظُّلُمات الثلاث.

ثم إنه سبحانه وتعالى جعل ظهره إلى بطن أمِّه، ووجهه إلى ظهر الأم، وهذا من أجل ألَّا يتضرَّر وجهُه بالصَّدَمات التي تكون على بطن الأم، ليكون الظهر وقاية للوجه، وخلف الجنين الذي يلي البطن قوي؛ لأن فيه الظهر والأضلاع، فهو قويٌّ مُتحمِّل للصدمات، فإذا أراد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إخراجه انقلب هذا الجنين، تحرَّك واضطرب بإذن الله عز وجل، ثم انقلب حتى يكون رأسُه هو الأسفل، ويخرج الرأس أولًا من أجل أن يكون خروجُه مُنسلًّا؛ إذ لو خرج من عند قدَمَيْه لكان في ذلك ضرر وخطأ، قد تعلقُ مثلًا إحدى اليدين في أحد الجوانب فيحصل في هذا ضرر، وربما يحصل تلف على الجنين، ولله سبحانه وتعالى في خلقه شئون.

المهم: أن الله سبحانه وتعالى اعتنى بنا عنايةً كاملةً، ونحن في بطون أمهاتنا وعند الخروج منها، ولهذا قال: ﴿فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ﴾.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ونعم الرب ـ عزَّ وجلَّ ـ ذلكم: المُشار إليه ربُّنا، والمُخاطَب في [ذلكم]: البشر، وإنما أتى باسم الإشارة المُفيد للبُعْد (ذلكم)، ولم يقُل: (هذا) إشارةً إلى علو منزلته عز وجل، وأن له العلو: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ربٌّ: إما أن تكون صفة، أو بدل، وفي ذكر الربوبية بعد الألوهية إشارة إلى التربية الخاصة في حال الحمل والعناية التامة؛ لأن الحمل في بطن أمِّه لا يمكن لأحدٍ أن يصِل إليه لا بجلبِ منفعة، ولا بدفع مضرَّة، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتولَّى العناية به.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ الجملة هذه جملة خبرية، قُدِّم فيها الخبر على المبتدأ لإفادة الحصر.

وقوله: ﴿لَهُ﴾ أي: وحده لا يُشاركه أحد ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ يعني: الملك المُطلق؛ مُلك الأعيان،

ومُلك الأوصاف، فهو مالكُ الأعيان كلها، ومالكُ أوصافها وتصريفها وتدبيرها.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا توحيد الألوهية، الجملة مُكوَّنة من نفي وإثبات؛ نفيٍ من أبلغ أنواع النفي؛ لأنه مُصدَّرٌ بـ (لا) النافية للجنس، ولا النافية للجنس يقول علماء النحو والبلاغة: إنها نصٌّ في العموم؛ يعني: ليست ظاهرةً في العموم؛ بل هي أبلغ من الظاهر هي نص في العموم، ولهذا يُقال فيها: نافية للجنس، لا للوحدة، للجنس كلِّه، إذن لا يوجد إله إلا الله، ولكن يجب أن نعلم أن المنفيَّ ـ هنا ـ الإله الحق؛ يعني: لا إله حقٌّ إلا الله، أما الآلهة الباطلة فإنها موجودة، كما قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود: ١٠١]سمَّاها آلهة، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص:٨٨] فسمَّاه إلهًا، لكنَّه إلهٌ باطل، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [سبأ: ٣٠].

مسألة: فإذا سألَنا سائل: هل مع الله إله؟

فالجواب: يكون بالتفصيل، وهو:

إن أردتَ إلهًا حقًّا فلا، وإن أردتَ إلهًا باطلًا يُسمَّى إلهٍ وليس بإلهٍ، فهذا موجود.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذا قال قائل: مسألة: أين خبر (لا)؛ هل هو (هو) أم ماذا؟

نقول: لا يمكن أن يكون خبر (لا) هو؛ لأن لا النافية للجنس لا تعمل إلا في النَّكِرات، قال «ابن مالك»:

عملُ إنَّ اجعل لـ (لا) في نكـــرة　　　مفرَدَةً جـــاءَتْكَ أوْ مكرَّرهْ

لا تعمل (إلا) في النكرات، و(هو) معرفة إذن أين الخبر؟

نقول: الخبر محذوف، تقديرُه: لا إله حقٌّ إلا الله، هكذا يجب.

وأخطأَ من قال: لا إله موجودٌ إلا الله؛ لأن هذا يتضمَّنُ أمرًا إمرًا؛ إذ إنَّك إذا قلتَ: لا إله موجود إلا الله جعلتَ الآلهة الموجودة جعلتَها الله، وهذا خطأٌ عظيم؛ بل الواجب أن نقول: لا إله حقٌّ إلا الله، أما في الآية: ﴿إِلَّا هُوَ﴾.

إذن ما محلُّه من الإعراب؟ هو بدلٌ من الخبر المحذوف.

قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أنَّى: اسم استفهام، والمراد به: التوبيخ والتعجُّب؛ يعني: كيف تُصرَفون عن عبادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا هو؟! هذا سفَهٌ في العقل، وضلالٌ في الدين.

وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ قال المُفسِّر: [عن عبادته إلى عبادة غيره].

إذا كان هذا الاستفهام للتوبيخ والتعجُّب، فإنه يقتضي أن يكون هذا الانصراف حرامًا؛ لأنه لا يُوبَّخ إلا على شيءٍ مُحرَّم، وكلمة «تصرفون» تدل على الانصراف.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** أن أصل البشرية من آدم، وليس كما يُقَال القرود: إن أصلها قرد ثم تطوَّر، لقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى كيف خلق هذه النفس في مواضع من القرآن.

٢ - **ومن فوائدها:** أن البشرية حادِثة وليست أزليَّة، لقوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ والخلق يقتضي الحُدوث.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن الله جعل أزواج بني آدم من جِنسِه، لقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ولو كانت الزوجة من غير الجِنس لم تحصُل الألفة والمودة، ولكن الله جعلها من الجِنس.

٤ - **ومن فوائدها:** ما منَّ الله به علينا، من إنزال الأنعام الأصناف الثمانية.

٥ - **ومنها:** أن إنعام الله بهذه الأصناف الثمانية أكثر من إنعامه بغيرها؛ كالظِّباء والأرانب، وما أشبهها؛ لأن الله امتنَّ بهذه الأصناف الثمانية دون غيرها؛ لأنها أشد، و إنَّ نعمة الله أظهر وأبيَن، ولأنها أنعامٌ مألوفة وأليفة، بخلاف الأنعام الأخرى.

٦ - **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أن تكوين هذه الخليقة من زوجين، كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩] فكل شيء من الخليقة فلابد لتركيبه من زوجين، حتى المياه، وحتى الهواء، وكل شيء، وهنا يقول: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** بيانُ حكمة الله - عزَّ وجلَّ - في تطوير الخلق، لقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾، ولو شاء لخلَقَنا طورًا واحدًا، ولكن حكمته تأبى ذلك؛ بل يتطوَّر الإنسان من طورٍ إلى آخر للتدرُّج في الخلق، كما أن التدرُّج أيضًا في التشريع هو الحكمة، فالشرع لم ينزل جملة واحدة يُكلَّف الناس به من أوله إلى آخره، ولكنه نزل بالتدريج، وما نحن فيه من الحمل، لو أن هذا الحمل نشأ في بطن الأم دُفعةً واحدة لكان في ذلك ضررٌ عليها، لكن يتطوَّر وينمو شيئًا فشيئًا حتى يتَّسِع البطن شيئًا فشيئًا بدون مشقة على الأم.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية:** منَّة الله سبحانه وتعالى على البشر في أنَّه يُطوِّرُهم في هذا الخلق في مكانٍ لا يمكن أن يصِل إليه أحدٌ، لقوله: ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات:٢١، ٢٢].

٩ - **ومن فوائدها:** حماية الله الجنين بكونه في هذه الظلمات الثلاث؛ لأن أشعة الضوء ربما تضُرُّه، فجعله الله سبحانه وتعالى في هذه الظلمات الثلاث.

١٠ - **ومن فوائدها:** أن القادر على هذا هو المُستحقّ للألوهية والعبادة، لقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

١١ - **ومن فوائدها:** انفراد الله سبحانه وتعالى بالمُلْك، لقوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ فلا مالك إلا الله،

وهل المُلك مُلك التصرُّف الكوني، مسألة: أو الكوني والشرعي؟

الجواب: الكوني والشرعي، فلا مالك إلا الله كونًا، ولا مالك إلا الله شرعًا، ولهذا له الحكم الكوني والشرعي عز وجل.

١٢ ـ **ومن فوائدها:** النداء الصارخ في تسفيه هؤلاء القوم الذين اتخذوا من دونه أولياء بعد ظهور هذه الآيات العظيمة، لقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ يعني: كيف تُصرَفون عن الحق مع وُضوحه وبيانه.



قال الله تعالى:

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر:٧].

التفسير

قوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ تكفروا بمن؟ تكفروا بالله، وبما يجب الإيمان به فإنكم لن تضُرُّوا الله؛ لأن الله ﴿غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ ولم يأمر الله سبحانه وتعالى العباد بعبادته والإخلاص له لحاجته إليهم، ولكن لمنفعتهم هم؛ لأنهم يُثابُون على هذا أعظم الثواب، وينجون به من العقاب، أما الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإنه لا يضُرُّه إذا كفر كل الخلق، ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ ولو كل الخلق ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾، وقد جاء في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي ! لَو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»(١) لو كان الناس كلهم؛ بل البشر وغير البشر لو كانوا على أفجر قلب رجلٍ لم ينقص ذلك من مُلك الله شيئًا، ولن يضُرَّ الله شيئًا، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ ولا يرضى لهم أن يكفروا بالله، وتأمَّل قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ﴾ يعني: أن الكفر أمرٌ لا يليقُ بالعباد، فلا يرضى لهم أن يقوموا به؛ وذلك لأن الله خلَقَهم؛ فكيف يرضى الإنسان العاقل أن يصرِف العبادة لغير الخالق؟ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ﴾، ولم يُقل: من عباده، أو عن عباده؛ لأن اللام أبلغ في كون هذا الشيء لا يليقُ بهم.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧)، والحاكم فى مستدركه (٧٦٠٦)، والبيهقى فى الكبرى (١١٢٨٣) من حديث أبى ذر رضى الله عنه.

وقوله: ﴿يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ العبودية تنقسم إلى قسمين:

* عبودية عامة.

* عبودية خاصة.

فمن الأول – أي: من العام -: قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] (إن) هنا بمعنى: ما، وعلامة إن التي بمعنى: ما أن يأتي بعدها: إلا، ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٣] يعني: ما أنت إلا نذير، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ هذه من العبودية العامة، حتى الشياطين والكفار كلهم عباد الله بالمعنى العام.

المعنى الخاص للعبادة: عبادة المؤمنين، وهي العبادة الشرعية؛ أي: التعبُّد لله تعالى شرعًا، وهذه خاصَّةٌ بمن أطاعه فقط، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، وقوله في الرسل: إنهم عباد الله قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص:٤٥] هذه عبودية خاصة.

قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ﴾: هل هي من العامة أو من الخاصة؟

من العامة؛ يعني: لا يرضى الكفر لأي واحد من عباد الله.

قال: [وإن أراده من بعضهم] هذا كلامٌ جيِّدٌ؛ يعني: هو لا يرضاه لكن يريده من بعضهم، يُريدُه بالإرادة الكونية لا الإرادة الشرعية، وهذا ردٌّ على قولِ مُبتدع، يقولون: إن الله لا يُريدُ إلا ما يرضى، وأما ما لا يرضاه فلا يُريده، وعلى هذا القول الباطل تكون المعاصي واقعةً بغير إرادة الله، ولا شكَّ أن هذا قولٌ يُبطِلُه نصوص كثيرة؛ مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥] فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ مُريدٌ لهذا وهذا لكن بالإرادة الكونية؛ لأن الكل مُلكُه سبحانه وتعالى، ولهذا قال: [وإن أراده من بعضهم] يعني: فإرادته من بعضهم لا يقتضي أن يكون راضيًا به؛ إذ قد يريد ما لا يرضاه.

فإن قال قائل مسألة: كيف يُريد ما لا يرضاه؟ وهل أحد يُكرِهُه؟

الجواب: قلنا: لا، لا يُكرِهُه أحد، لكن يُريد ما لا يرضى لحكمةٍ بالغة، لو كان الله تعالى لا يُريد إلا ما يرضى لأصبح الناس كلهم مؤمنين، ولم يكن هناك ميزة للمؤمن من الكافر، ولم يُقَم علَمُ الجهاد، ولا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولا مُلِئَت النار كما وعدها الله عز وجل، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة التي تنتُج عن وجود الكفر في عباد الله.

قال المؤلف: [﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾ الله فتؤمنوا: ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾].

وقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾ مُقابل: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟﴾؛ لأن الإنسان في نعم الله بين كافرٍ وشاكر، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ وهو ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾، وتأمَّل كيف قال في الكفر: إن ﴿ٱللَّهَ

غَنِيٌّ﴾، و ﴿وَلَا يَرْضَىٰ﴾، وهنا قال: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ فبدأ في جواب الشرط في ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ ببيان غِناه عن الخلق عز وجل، أما الشكر فإنه هو الذي يُثيبُه عليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ فإذا رضيَه فسوف يُثيبُه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة:٧، ٨] ولهذا أثابَهم الجنات، نسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم.

قال: ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ في هذا الفعل إشكالٌ من الناحية النحوية، فإنه جوابُ الشرط ومع ذلك فهو مفتوح؛ لأنه مجزوم بحذف الألف، وأصلها يرضى، ولكن حُذِفَت الألف للجزم [يرضى] جواب الشرط هو مجزوم بحذف الألف.

وقوله: ﴿يَرْضَهُ﴾ [بسكون الهاء]، وهذا خفيف جدًّا، تسكينُها تقرأه بخفَّة.

الثاني يقول: [وضمِّها] يرضَهُ في حال الضم [مع إشباعٍ ودونه]، فإنك تُشبِعها حتى يخرج منها الواو، ودونه تحذِف الواو، كل هذا جائز وهذه قراءات سبعية مُتواترة، وكما مرَّ علينا أنه ينبغي للإنسان أن يقرأ القرآن بجميع القراءات؛ لأن الكل حقٌّ، فلا ينبغي أن يهجُر حقًّا من الحقوق، ولكن بشرط أن يكون مُتيقِّنًا القراءة، فلا يكفي غلَبة الظن، لابد يتيقَّن وإلا قرأ في المُتيقَّن.

شرطٌ آخر: ألَّا يكون عند العامة؛ لأن العامة إذا قرأتَ عندهم قراءة تُخالِف مُصحفهم صار في ذلك تشويشٌ عليهم بالنسبة للقرآن، وسوء ظنٍّ بالنسبة إليك، ورحِمَ الله امرأً كفَّ الغِيْبَة عن نفسِه، أما في مقام التعليم، أو في القراءة بينك وبين نفسك، فإنه ينبغي إذا كنت عالمًا بالقراءة أن تَقرأ بها أحيانًا، بهذا أحيانًا، وبهذا أحيانًا؛ فمثلًا: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فيها قراءة، وقراءة ﴿مَالِكِ﴾ تقرأ مرة بهذا، ومرةً بهذا.

وقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ قال المؤلف: [أي: الشكر].

مسألة: فما هو الشكر؟

الجواب: الشكر حدَّه بعضُهم بحدٍّ جامعٍ مانعٍ، فقال: الشكر: هو القيام بطاعة المُنعِم اعترافًا له بالجميل، ويكون بالقلب، واللسان، والجوارح، وعلى هذا قول الشاعر:

أفادتكُمُ النَّعماءُ منِّي ثلاثةً ... يَدِيَ وَلِسَانِي وَ الضَّمِيرَ المُحجَّبا[1]

بالقلب: أن يؤمن الإنسان بقلبه أن هذه النِّعَم من الله - عزَّ وجلَّ - تفضُّلًا منه، ولا يقول: هذا لي أوتيتُه على علم عندي؛ بل يقول: هذا من فضل ربِّي.

وباللسان: أنَّ يتعبَّد لله تعالى بكلِّ قولٍ شرَعَه، ومن ذلك: أن يتحدَّث بنعمة الله، فإن هذا من الشكر؛ لأنه قولٌ مشروعٌ، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

وأما بالجوارح: فظاهرة، أن تُظهِر نعمَة الله عليك بالجوارح؛ فمثلًا: إذا أعطاك الله قوة،

---

(١) نفح الطيب (٦/ ٢٧٤).

وشجاعةً تُظهِر ذلك بالقوة في عبادة الله، من جهة الكفار، والمنافقين، وغيرهم، المهم: أن تظهر عليك أثر النعمة في أفعالك، فتقوم بعبادة المُنعِم عز وجل.

يقول: [﴿وَإِن تَشْكُرُواْ﴾ الله فتؤمنوا] يعني: الإيمان المُستلزِم للعمل الصالح، لا مُجَرَّد الإيمان بالله عز وجل، الإيمان بالله لا يكون إيمانًا حقيقيًّا حتى يستلزم القبول والإذعان، كثيرٌ من العامة يظنُّون أن الإيمان بالله أن تؤمن بوجود الله فقط؛ بل الإيمان بالله هو الإيمان المُستلزم للقبول والإذعان، القبول لما أمر به، وانشراح الصدر به، والإذعان والانقياد التام، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

على رأي من يقول: إن الإيمان هو الإيمان بوجود الله، يظنُّون أن اليهود والنصارى مؤمنون، وقد يُصرِّحون بهذا، يقول: النصراني مؤمن يُؤمن بالله، وإذا مات له شخص قال: رحمه الله، واليهود كذلك.

نقول: ليس هذا هو الإيمان بالله، الإيمان بالله لا يصحُّ إلا بالقبول والإذعان، القبول لما جاء به الوحي، والإذعان والانقياد التام.

وقوله: ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ قال المؤلف في التفسير: [﴿وَلَا تَزِرُ﴾ نفس ﴿وَازِرَةٌ وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمله].

(لا) نافية، وازرةٌ: فاعل وهو نكرة في سياق النفي، فيعُم كل وازرة، والوازرة: التي تتحمَّل الإثم وتقوم به، وعلى هذا فمن دون البلوغ ليس نفسًا وازرة؛ لأنها لا تتحمَّل الإثم، ومن كان بالغًا ولم يفعل الإثم فليس بوازر، إذن فالوازرة يعني: القابلة للوزر، وهي النفس المُكلَّفة، وإذا أردنا أن نقول: وازرة بالفعل، نقول: هي الفاعلة للإثم، فـ(وازرة) هنا: تشمل الوازرة حكمًا، وقد تشمل الوازرة فعلًا أيضًا، الوازرة حكمًا وحقيقة.

١ ـ الوازرة حكمًا هي: القابلة للإثم؛ يعني: التي يمكن أن تتحمَّل الإثم وإن لم تعمل الإثم.

٢ ـ أما الوازرة حقيقةً هي: التي فعلت الإثم.

مثال ذلك: رجل بالغ عاقل، لكنه صالح، نقول: هذا وازرٌ حكمًا، ورجلٌ آخر زنى أو سرق، نقول: هذا وازرٌ فعلًا إذا كان بالغًا عاقلًا، وهذا هو السر في أن الله قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ ولم يقل: ولا تزر نفسٌ وِزر أخرى؛ لأن من ليست وازرة لا تزِرُ شيئًا لا عن نفسها، ولا عن غيرها.

وقوله: ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: إثم نفسٍ أخرى، ومعنى: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ أي: لا يلحقها وِزرٌ؛ أي: الإثم، ولهذا فسَّرها المؤلف بقوله: [أي: لا تحمله] لا تحمل وازرةٌ وِزرَ أخرى.

ثم قال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ [ثم] يعني: بعد الشكر من الشاكر، والكفر من الكافر يكون إلى الله وحده المرجع.

وفي هذه الجملة حصرٌ، طريقُه: تقديمُ ما حقُّه التأخير؛ لأن قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ خبرٌ مُقدَّم، و﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخَّر.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ ولم يقل: إلى الله؛ لأن المقام هنا: مقام ربوبية؛ لأن الرب: هو المالك المُتصرِّف الخالق، فكان المُناسب أن يقول: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ ولو قال: إلى الله مرجعكم لصحَّ؛ لأن الله تعالى هو المُستحقّ للعبادة ،ولا يستحقُّ العبادة إلا من كان ربًّا.

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ متى؟ يوم القيامة، ولكن اعلموا أن كل من مات فقد قامت قيامتُه؛ لأنه انتقل من دار العمل إلى دار الجزاء.

قال «شيخ الإسلام ابن تيمية» رحمه الله في «العقيدة الواسطية»: (ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت) مع أن الذي يكون بعد الموت قبل قيام الساعة، لكن من مات فقد قامت قيامتُه.

قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يُنبئُكم: يُخبِرُكم، لكن قد قيل: إن النبأ لا يكون إلا في الأمر الهام، بخلاف الخبر، فيكون حتى في الأمور التوافه، وقال بعض العلماء: هما بمعنى واحد.

وقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (ما) اسم موصول بمعنى: الذي، وعائدُها محذوف وهو المفعول به في قوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ أي: بما كنتم تعملون، وما الموصولة؛ بل وجميع الأسماء الموصولة تُفيدُ العموم، والدليل على أن الأسماء الموصولة تفيد العموم: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣] فأعاد الإشارة إليه جمعًا، مع أنه مفرد، وهذا يدلُّ على أنه يُفيدُ العموم، إذن كل ما نعمل من خيرٍ، وشرٍ، وصغيرٍ، وكبيرٍ، وسابقٍ، ولاحقٍ، فإن الله تعالى يُنبئُنا به؛ أي: يُخبِرُنا به.

وتأمَّل اللُّطف والإحسان؛ حيث قال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ ولم يقُل: يُؤاخِذُكم؛ لأنه ثبت في الصحيح أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يخلو بعبده المؤمن فيُقرِّرُه بذنوبه، ويقول: عمِلتَ كذا في يوم كذا، وعمِلتَ كذا في يوم كذا، حتى يعترف، ثم يقول الله له: قد سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، إنباءٌ بدون مُؤاخذة، ولهذا قال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم المُؤاخَذة إليه، الإنباء وعدٌ عليه، والمُؤاخذة إليه، قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، ولهذا كان الكفار لا يُنبَّئون بعملهم كما يُنبَّأُ المؤمن؛ يعني: أن الله يخلو به، ويسترُ عليه، ويُقرِّرُه بذنوبه معه وحده؛ بل إنه – والعياذ بالله – يُنادَى على رؤوس الأشهاد: قال تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود:١٨].والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليمٌ بذات الصدور، وهي القلوب، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

[الحج:٤٦] فالمراد بذات الصدور؛ أي: صاحبة الصدور «القلوب»، وإنما ذكر الله هذه الجملة بعد قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للإشارة إلى أن الحساب يكون على ما في القلب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾[العاديات:٩، ١٠] فالمدارُ يوم القيامة على ما في القلب، أما في الدنيا فالمدار على الأعمال الظاهرة، ولهذا كان النبي ﷺ يُعامِل المنافقين معاملة المسلمين؛ لأنهم كانوا يتظاهرون بالإسلام، ونحن نُحاسِب الناس في الدنيا على ما يظهر من أعمالهم، ونكِلُ سرائرهم إلى الله، أما في الآخرة فإن الحساب على ما في القلب، ولهذا يجب على الإنسان أن يعتني بصلاح قلبه قبل صلاح الجسم؛ لأن صلاح جسمه واجهة أمام الخلق، لكن صلاح القلب هو الذي يكون بين الإنسان وبين ربِّه عز وجل.

الفوائد:

١ ـ **في هذه الآية من الفوائد:** بيان أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إنما أمر العباد بعبادته لحاجتهم لذلك ومنفعتهم به، وليس لحاجته إلى ذلك، لقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها:** إثبات اسم (الغني) لله عز وجل، وإثبات ما دلَّ عليه من صفة؛ لأن كل اسمٍ من أسماء الله مُتضمِّنٌ لصفة، وليست كل صفةٍ مُتضمِّنة لاسم، ولهذا نقول: إن صفات الله أوسع من أسماء الله؛ بمعنى: أنها أكثر، ووجه ذلك ظاهر، إذا قلنا: كل اسمٍ مُتضمِّن لصفة، تساوَت الأسماء والصفات، على أن الاسم الواحد يمكن أن يتضمَّن عدَّة صفات، لكن لنقُل على أدنى تقدير: إنه لم يتضمَّن إلا صفةً واحدةً، فإذا قلنا: كل اسمٍ مُتضمِّنٌ لصفة تساوَت الأسماء والصفات، هناك صفاتٌ لا يمكن أن يُشتقَّ منها أسماء كثيرة جدًّا، وبهذا تبيَّن أن الصفات أوسع وأكثر من الأسماء.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يرضى الكفر للعباد؛ لأنه غير لائقٍ بهم؛ إذ هم عبادُ الله، فاللائقُ بهم أن يقوموا بطاعته وعبادته، ولا يليقُ بهم أن يكفروا به.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات الرضا لله، لقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ﴾، وقوله فيما بعدها: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، والرضا: صفة من صفات الله الفعلية؛ لأنه مُتعلِّق بمشيئته، وكل وصفٍ يتعلَّقُ بمشيئة الله فإنه يُسمَّى عند أهل السنة: صفةً فعلية، وكل وصفٍ مُعلَّقٌ بسبب فإنه من الصفات الفعلية؛ لأنه يوجد عند وجود السبب، والحق أن الرضا صفة حقيقية لله عز وجل؛ كالفرح، والعجب، والضحك، وما أشبه ذلك.

وزعم أهل التعطيل أن المراد بالرضا: الثواب، ففسَّروه بشيءٍ بائنٍ عن الله، مُنفصِلٍ عنه مخافة أن تتعلَّق به الأفعال الاختيارية؛ وهذا من جهلهم وذلك لأننا إذا فسَّرناه بالثواب، فالثواب لا يقع إلا بإرادة، والإرادة لا تكون إلا حين يوجد سبب الرضا، وحينئذٍ تكون الإرادة حادثة، فهم فرُّوا

من شيء ووقعوا في مثله، مع تحريفهم للنصوص بصرفها عن ظاهرها، وتعطيلهم للصفة التي دلَّ عليها النص، فهذه ثلاثة محاذير:

المحذور الأول: أنهم وقعوا - وهم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه - في مثل ما فرُّوا منه، فإن كان ما فرُّوا منه محذورًا، فما وقعوا فيه محذور.

الثاني: أنهم حرَّفوا النص عن ظاهره أي: صرفوه إلى معنى آخر.

الثالث: أنهم عطَّلوا الله عن الصفة التي دلَّ عليها النص الذي حرَّفوه.

فهم مثلًا عطَّلوا الله عن صفة الرضا، وحرَّفوا النص عن ظاهره، ووقعوا فيما فرُّوا منه، وهكذا في جميع الصفات التي حرَّفوها عن ظاهرها.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية:** أنه لا تلازُم بين الرضا والإرادة، ووجهه: أنه قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ مع إنَّه أخبر في آياتٍ كثيرة أن الكفر واقعٌ بإرادته، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] فإذا جمعنا بين هذا، وهذا عرفنا أنه لا تلازُم بين الرضا والإرادة، فقد يُريدُ ما لا يرضاه، وقد يرضى ما لا يُريدُه، فهو مثلًا يرضى من كل واحد من الناس أن يشكر لله، وهل أراد ذلك؟ لا.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية:** الإشارة إلى أن الكفر غير مرضيٍّ لله، لقوله: ﴿لِعِبَادِهِ﴾ والعبد يجب أن يكون مؤمنًا بسيِّده، مُطيعًا له، كيف يكون عبدًا لله ثم يكفُر به؟!

٧ - **ومن فوائد هذه الآية:** فضيلة الشكر، وأن الشاكر ينال رضا ربِّه، لقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، وقد جاء في الحديث: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ يَأْكُلُ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»[1] الأكلة هل المراد الوجبة من الطعام، أو المراد كل لقمة؟

يوجد من يرى أن المراد: الوجبة، ويوجد من يرى أن المراد: اللقمة، وكان «الإمام» أحمد رحمه الله يأكل كل ما أكل لُقمةً حمِدَ الله، فقيل له في ذلك، فقال: أكلٌ وحمدٌ خيرٌ من أكلٍ وصمتٍ؛ لأن لفظ الحديث: «يَأْكُلُ الأَكْلَةَ» يحتمل أن يكون المراد به: اللقمة، أو الوجبة من الطعام، وكذلك يُقال في الشرب، والإنسان ينبغي له في الشرب أن يشرب بثلاثة أنفاس كل نفسٍ يحمدُ الله عليه إذا قلنا: المراد بالشربة: النفس.

٨ - **ومن فوائدها:** أن الله يرضى الشكر لعباده، وإذا رضِيَ الله عن العبد كان ذلك سببًا في إرضاء العبد، ودليل ذلك: قوله تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ فيرضى الله عنهم بعبادتهم إياه، ويرضَون عنه بما أثابهم، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم، أن الإنسان يرضى عن ربه، ويرضى الله عنه.

(١) رواه مسلم (٢٧٣٤)، والترمذي (١٨١٦)، وأحمد في مسنده (١١٩٩٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أنه لا تحمل نفسٌ إثم نفسٍ أخرى، حتى وإن ضمِنَت النفس الأخرى ذلك الذنب؛ يعني: مثلًا لو قال شخصٌ لآخر: افعل كذا من الذنوب والإثم عليَّ؛ هل يصح؟!

فإذا كان كذلك؛ لماذا لا يصح أن يضمن إثم من فعل الإثم؟

نقول: لقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت:١٢]، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [العنكبوت:١٢]؛ بل إنه يوم القيامة يكون الأمر أشدَّ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة:١٦٦] يتبرَّأون منهم، ويتحاجُّون في النار، كل طائفة تتبرَّأ من الأخرى، فلا يمكن لأحدٍ أن يحمل إثم أحدٍ أبدًا.

إذا قال قائل: مسألة: كيف يُجمَع بين هذه الآية الكريمة، وبين قول الرسول ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»(١)، وإخباره أنه ما قُتِلَت نفسٌ بغير حقٍّ إلا كان على ابن آدم الأول الذي قتل أخاه كِفلٌ من ذلك؟

الجواب: أنَّ مَنْ سَنَّ السُّنَّة السيئة فإن آثام من استنَّ بها عليه؛ لأن هذا من فعله، فهو في الحقيقة لم يحمل إثم غيره إلا لأنه هو السبب الذي جرَّ الناس إلى هذا الإثم، قد يكون الناس مُستوحشين من هذا الإثم، يخشون منه ويهابُونه، فإذا فعله شخصٌ هانَ عليهم الأمر، واقتدوا به، لاسيَّما إذا كان الشخص ذا كلمةٍ مُطاعة؛ كالأمير، والعالم، وما أشبه ذلك، إذن لا تعارُضَ بين الآية والحديث، وجهُه: أن من سنَّ السُّنَّة السيئة فإنه عمِلَ العمل الذي به الإثم والسبب، فاقتدَت الناسُ به.

١٠ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** الإشارة إلى أن الإثم إنَّما يتحمَّله من كان قابلًا له، لقوله: ﴿وَازِرَةٌ﴾ والوازرة هي التي تكون أهلًا لتحمُّل الوِزر، والذي يكون أهلًا لتحمُّل الوِزْر هو من جمع وصفَيْن: البلوغ، والعقل، لقوله في الحديث الصحيح: «رُفِعَ القَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ المَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَبْلُغَ» صحَّحه كثيرٌ من أهل العلم.

فإن قال قائل: أليس الأب الراعي على أولاده، إذا أهملوا شيئًا كان عليه إثمٌ من إهمالهم؟

فالجواب: بلى، ولكنَّ إهمالَه إيَّاهم وِزْرٌ وإثم، لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم:٦]، ولأن النبي ﷺ قال: «الرَّجُلُ رَاعٍ فِي أهله، وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(٢).

ثم قال عز وجل: ﴿أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ...﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٣٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤)، وابن ماجه (٢٠٣) من حديث جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٧١٩)، ومسلم (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

١١ـ **من فوائد هذه الجملة:** أن المرجع إلى الله يوم القيامة، ويتفرَّع على هذه الفائدة:

* وجوبُ الاستعداد لهذا اللقاء وهذا المرجع؛ والاستعدادُ له يكون بتركِ المعاصي، وفعل الطاعات.

١٢ ـ **ومن فوائدها:** بيان شمول علم الله؛ لقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالذي كنتم تعملون كلِّه، صغيره وكبيره، والخطاب لجميع الناس، وهذا يدُلُّ على شُمُولِ علم الله عز وجل، وهو كذلك، فعلم الله تعالى واسعٌ مُحيطٌ بكل شيء، وقد نبَّه الله سبحانه وتعالى على بيان كيف كان واسعًا، فقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾؛ يعني: إذا كان الله هو الخالق – وهذا شيءٌ مُقرٌّ به – لزِمَ أن يكون عالمًا بما خلق؛ إذ كيف يُمكن أن يخلُق ما لا يعلم، هذا مُستحيل. «ألا يعلم من خلق»: (من) تجوز أن تكون فاعلًا أو مفعولًا؛ أن تكون فاعلًا أي: ألا يعلم الذي خلق من خلق، أو مفعولًا به أي: ألا يعلم الله من خلق.

١٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن الله سبحانه وتعالى عالمٌ بأسرار العبد، لقوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾؛ بل يعلم ما يستقبل للمرء، الإنسان يعلم ما تُوسوسُ به نفسُه، لكن لا يعلم ماذا يكسِبُ غدًا، لكن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يعلمُ ماذا يكسِبُه العبدُ غدًا.

١٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** الإشارة إلى أن الحساب يوم القيامة يكون على ما في الصدور؛ لأنه لما ذكر الإنباء قال: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني: فالمرجع في الحساب إلى ما في القلب، صحِّح ما في قلبك؛ لأن المدار عليه، ولهذا شواهد من الآيات.

١٥ ـ **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أن القلب هو الذي عليه مدار الصلاح؛ لأنه إذا كان الحساب على ما في القلب فإن عليه مدار الصلاح، ويُؤيِّده قول النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»[1].



قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر:٨].

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

التَّفْسِيرُ

قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ﴾ أي: أصاب، والإنسان يقول المؤلف: [المراد به: الكافر] وإنما جعل هذا العام خاصًّا لظاهر سياق الآية كما يتبيَّن، وإلاَّ فالأصل: أن الإنسان من ألفاظ العموم، فـ (ال) فيه لاستغراق الجنس، وعلامة (ال) التي لاستغراق الجنس أن يحِلَّ محلَّها (كلّ) أي: كل إنسان، لكن المؤلف رحمه الله جعله عامًّا أُريدَ به الخاص بقرينةِ السياق، فإن السياق يدُلُّ على أن المراد به: الكافر؛ لأنه لا يمكن أن يتأتَّى ما يدُلُّ عليه السياقُ من مؤمن.

قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ ضُرٌّ نكرة في سياق الشرط، فتكون عامة؛ أي ضُرٍّ يكون، في بدنه، في أهله، في ماله، عام، خاص، أي ضُرٍ يكون يدخل في قوله: ﴿ضُرٌّ﴾.

وقوله: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾، ولم يقُل: دعا الله، ففي هذه الحال – أي: في إصابة الضُّرِّ – عرَفَ ربَّه، وأنه لا ملجأ منه إلا إليه، فيدعو ربَّه مُعتقدًا أنه ربه يملُك ما يشاء، ويتصرَّف بما شاء.

قال المؤلف: [تضرَّع] يعني: فسَّر ﴿دَعَا﴾ بمعنى: تضرَّع، لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ والتضرُّع هو الاستكانة والذُّلُّ أمام الله عز وجل.

﴿مُنِيبًا﴾ راجعًا إليه، فإذا دعا الله مُنيبًا إليه كشف الله ضُرَّه؛ لأنه سبحانه وتعالى قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٦٢]، وإجابة الله للمُضطر تشمل الكافر والمسلم، حتى الكافر الذي يعلم الله أنه سيكفر بعد زوال اضطراره يُجيبُ دعوته، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥] فهو يعلم ـ عزَّ وجلَّ ـ أنهم سيُشرِكون بعد النجاة، ومع ذلك يُجيبُهم؛ لأن رحمته سبقَت غضبَه، ففي حال الضرورة يصْدُق لجوء الإنسان إلى ربه؛ لأنه يعلم أنه لا يكشف الضُّرَّ إلا الله، فإذا رجع إلى ربه سبحانه وتعالى فإنَّ رحمته سبقت غضبه يُجيبُه رحمةً به.

فهنا يقول عز وجل: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾.

يعني: كأنَّ هذا – والله أعلم – إشارة إلى أنه بعد أن تغمُرَه النعمة ويستمر فيها وقتًا ينعم به، بعد ذلك يكفر.

وقوله: ﴿إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً﴾ قال: (المؤلف) [أعطاه إنعامًا].

أما تفسيرُ ﴿خَوَّلَهُۥ﴾ بأعطاه فواضح، وأما تفسيرُه ﴿نِعْمَةً﴾ بإنعام فلا وجه له؛ لأن المُعطَى ليس الإنعام، وإنما المُعطَى النعمة، وعلى هذا فإبقاءُ الآية على ظاهرها أولى مما ذهب إليه المؤلف رحمه الله.

إذا أعطيناه إنعامًا لا يستقيم الكلام؛ لأن الإنعام فعل الله، والمُعطَى هو النعمة، وليس فعل

الله، فإبقاءُ الآية على ظاهرها لا شكَّ إنَّه هو الموافق للواقع.

وقوله: ﴿إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ منه للابتداء؛ أي: نعمة صادرة من الله عز وجل، يتبيَّن بها أنها فضلٌ محضٌ من الله.

[﴿نَسِيَ﴾ ترك ﴿مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ﴾ يتضرع ﴿إِلَيْهِ﴾ من قبل وهو الله] كان يتضرَّع إلى الله في أن يكشف عنه الضُّرَّ، كشف عنه الضُّرَّ وأعطاه نعمة زائدة على كشف الضُّرِّ، ماذا تكون حالُه؟

قال: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ والنسيان هنا بمعنى: الغفلة، وليس المراد به ذُهُول القلب، وإنما المراد: الغفلة المُتضمِّنة للترك، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ «ساهون» أي: غافلون عن صلاتهم.

قوله: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [إليه] الضمير يعود على الله عز وجل، و(ما) تعود على الله، ولهذا قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [ف(ما) في موضع (من)] يعني: مراد المؤلف: أن (ما) بمعنى: من؛ أي: نسِيَ من كان يدعو إليه من قبل من يوجه الدعاء إليه، كأنَّ الله أنعم عليه بكشف الضُّرِّ وتخويله النعمة.

قوله: ﴿مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ الأنداد ما غفل عنهم، والواحد القهار غفل عنه ـ والعياذ بالله ـ مع أن الأنداد لم تنفعه، ولم يتضرَّع إليها حينما أصابه الضُّر، ومع ذلك يُقبِل عليها ويدَع من أنعم عليه.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ شركاء، والأنداد: جمع نِد، والنِّد: هو المُسامي لندِّه المُماثِل له، فيجعلوا لله أندادًا في العبادة، يعبد هذه الأصنام كما يعبد الله عز وجل، ينذُر لها كما ينذر لله، يذبح لها كما يذبح لله وهكذا.

قال: [﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ بفتح الياء وضمِّها ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ دين الإسلام] (اللام) هذه في «ليضل» إما أن تكون للتعليل، وإما أن تكون للعاقبة.

فعلى قراءة الفتح فاللام للعاقبة؛ يعني: جعل لله أندادًا أدَّت به إلى الضلال، وإن كانت بضمِّ الياء فاللام للتعليل؛ يعني: جعل لله أندادًا ليقتدي به الناس فيضِلُّون، والآية فيها قراءتان بفتح الياء وضمِّها، فعلى الأولى: تعود إلى نفسه، والثانية: تعود إلى غيره، وهاتان القراءتان كلتاهما صحيح، وكلُّ واحدة تُفيد معنى يُكمِّل معنى الأخرى، فهو يَضِلُّ بنفسه ويُضِلُّ غيرَه.

لام العاقبة هل تأتي في اللغة العربية؟

نعم، تأتي، قال الله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] هل آل فرعون التقطوا موسى من أجل أن يكون لهم عدُوًّا وحزَنًا؟ أبدًا بل قالوا: عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا، لكن العاقبة صار عدُوًّا وحزنًا.

وتأتي اللام زائدة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ [الأحزاب:٣٣]

أي: أن يذهب، كما في قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:٢٦] أي: أن يُبيِّن، وإنما قالوا: إنها زائدة؛ لأن أراد تتعدَّى بنفسها لا باللام، ولا تصلُح أن تكون للتعليل؛ لأن التعليل مُستفادٌ من الإرادة، وعلى هذا فيُعرِبُونها على أنها زائدة، فتبيَّن أن اللام التي تدخل على المُضارع تكون زائدة، وتكون تعليلية – وهي الأكثر – وتكون للعاقبة.

وقوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [سبيله] أي: طريقه المُوصِل إليه طريق الله، والسبيل يُضاف إلى الله تارةً – كما في هذه الآية، وكما في آيات أخرى كثيرة – ويُضافُ إلى المخلوق، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:١٠٨] فما هو الجمع بينهما؟

الجمع بينهما: أنه يُضاف إلى الله باعتبار أنه هو الذي وضعه وأنه مُوصِلٌ إليه، ويُضاف إلى غير الله – للمخلوق – باعتبار أنه هو السالك له، إذن الله هو الذي شرع هذا السبيل ووضعه للعباد، وهو يُوصِل إلى الله، ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ أي: طريقي الذي أسلُكه، ومثل ذلك يقال في الصراط: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٥٣]، و﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فصراطُ الله باعتبار أنه هو الذي وضعه، وأنه مُوصِلٌ إليه، و﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ باعتبار أنهم هم الذين يسلُكُونه.

وقوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ قال المؤلف: [دين الإسلام] وهذا تفسيرٌ للكلمة بمُرادها؛ لأن التفسير للقرآن أحيانًا يكون تفسيرًا لفظيًّا، وأحيانًا يكون تفسيرًا معنويًّا، التفسيرُ اللفظي: أن تُفسِّر اللفظة بمعناها، والتفسير المعنوي: أن تُفسِّر اللفظة بالمُراد بها.

فمثلًا: دين الإسلام لا يُطابِق بالمعنى اللفظي لسبيل؛ لأن السبيل في اللغة الطريق، لكن السبيل المراد به دين الإسلام؛ لأن دين الإسلام – وهو شرائع الإسلام – يُوصِل إلى الله عز وجل، والذي وضعه هو الله سبحانه وتعالى، إذن المؤلف فسَّر السبيل هنا بالمعنى المُراد؛ يعني: أن المراد بذلك كذا وكذا.

وقول المؤلف: (دين الإسلام) واضح أنه هو سبيل الله؛ لأن الله هو الذي شرعه سبحانه وتعالى، ولأن من سلكه أوصله إلى الله.

قال الله تعالى: [﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ بقية أجلك ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾].

الخطاب للرسول ﷺ، ويحتمل أن يكون الخطاب لكل من يصحُّ خِطابُه لهذا الكافر، أو لهذا الإنسان الموصوف بهذه الصفات: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ هذا أمر، ولكنه ليس على ظاهره؛ بل المراد بالأمر هنا: التهديد، كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]، معلومٌ أن الإنسان ليس بالخيار بين الإيمان والكفر، لكن هذا من باب التهديد.

فهنا قوله: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ ليس معناها: أننا نُبيحُ له أن يتمتَّع بالكفر، أو نأمره أن يتمتع بالكفر؛ بل نُهدِّدُه، فالأمر هنا للتهديد.

مسألة: فإن قال قائل: ما الذي أخرجه عن المعنى الأصلي؟

فالجواب: أخرجه عن المعنى الأصلي قرينةُ السياق.

وقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ أي: اكفر وتمتَّع بالكفر؛ لأن الكافر يتمتَّع بكفره تمتُّع البهائم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد:١٢]، فالكافر - والعياذ بالله - لا يُقيِّد نفسه بعبادة، لا بصلاة، ولا بزكاة، ولا صوم، ولا حج، ولا غير ذلك من العبادات؛ بل هو قد اتبع هواه، وتمتَّع كما يتمتَّع الحمار.

وفي النهاية قال: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، كقوله تعالى: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ وما أسرع وصولهم إلى النار؛ لأن الدنيا قليلة، أي: زمن قليل مهما طال بك العمر، فإنه إذا وافاك الأجل كأن لم تلبث إلا ساعةً من نهار، وإذا شئتَ تصديق هذا فاعتبر بما مضى من عمرك فيما بقي، الآن كلنا يختلف سنُّه عن الآخر، لكن كلنا كأننا ولادة هذه الساعة؛ يعني: كل الذي مضى كأنه لم يكن، هكذا يكون بقية العمر، مهما طال بالإنسان العمر فإنه إذا جاء أجلُه كأنه لم يكن، ولهذا قال: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ وإن طال بك العمر.

يقول: [بقية أجلك ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾].

هذه الجملة مُؤكَّدة بـ (إنَّ)؛ يعني: ومهما تمتَّعتَ فمآلُك إلى النار، وأصحاب النار إنما تُطلَق على الذين يُخلَّدون فيها، فالمؤمن العاصي - وإن كان يستحقُّ العذاب بالنار - فإنه لا يُسمَّى من أصحاب النار؛ لأن الأصل في الصُّحْبة: طول المُلازمة، إلا في مسألة واحدة وهي الصحابة، لو اجتمع بالرسول ﷺ مؤمنًا به ولو لحظة، صار من أصحابه.

يقول: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ النار هي الدار التي أعدَّها الله - عزَّ وجلَّ - للكافرين، وقد بيَّن الله تعالى في الكتاب، وبيَّن رسولُه ﷺ في السنة ما فيها من ألوان العذاب، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٣: ٤٨] الماء الحار شديد الحرارة قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] وهذا من باب التهكُّم به؛ يعني: وأين عزَّتُك وأين كرمُك؟! في الدنيا يرى نفسه سيِّدًا شريفًا، ولكنه في الآخرة يُهان هذه الإهانة الشديدة، المهم: أن أنواع العذاب - والعياذ بالله - شيءٌ إذا تصوَّرَه الإنسان فإنه يتبيَّن له شدَّة ما يُلاقِي هؤلاء من العقوبة الشديدة.



قال الله تعالى:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٩].

التفسير

قال: ﴿أَمَّنْ﴾ بتخفيف الميم، وعلى هذا فتكون الكلمة مُركَّبة من همزة الاستفهام و(مَن) الموصولة؛ أي: الذي هو قانت.

قوله: [﴿هُوَ قَانِتٌ﴾ قائمٌ بوظائف الطاعات] القنوت يُطلق على معانٍ مُتعدِّدة؛ منها:

الخُشوع: كقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، وقوله:﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ أي: خاشعين.

ومنها: الدعاء في الوتر، أو في الفرائض عند النوازل.

ومنها: دوام الطاعة: كقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢] ولهذا لما نزلت الآية؛ أمر الصحابة بالسكوت ونهوا عن الكلام، وهنا (قانت) معناها مِن دوام الطاعة.

قال المؤلف: [قائمٌ بوظائف الطاعات] يعني: مُديمٌ لها.

وقوله: ﴿ءَانَاءَ ٱلَّيْلِ﴾ يعني: ساعاته ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ في الصلاة، نصَّ على السجود والقيام دون القعود والركوع؛ لأن السجود شريفٌ بهيئته، والقيام شريفٌ بذِكْره.

فأفضل هيئة للمُصلِّي أن يكون ساجدًا، ولهذا كان أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، والقيام شريفٌ بذكره، وما هو ذكره؟

القرآن كلام الله، وكلام الله تعالى أشرف الكلام، فلهذا نصَّ على هذين الرُّكنَيْن من أركان الصلاة: القيام والسجود، وكان الرسول ﷺ إذا سجد يُسمَعُ لصدره أزيزٌ كأزيزِ المِرْجَل[1]: أي القِدْر الذي يغلي.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا قام لا يمر بآية رحمة إلا سأل، ولا بآية تعوَّذ إلا تعوَّذ، ولا بآية

---

(١) صحيح : رواه النسائى (١٢١٤) ، وأحمد فى مسنده (١٦٣٦٠) من حديث مطرف بن عبدالله رضى الله عنها وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (٨٤٠) .

تسبيحٍ إلا سبَّح[1]، وهذا يدلُّ على أن القائم بالليل ينبغي له أن يُلاحِظ قوة الخُشوع في حال السجود، والبكاء، ويُلاحِظ أيضًا حُضور القلب أثناء القراءة؛ ليُتابع فإذا مرَّ بآية رحمةٍ سأل، وبآية وعيدٍ تعوَّذ، وبآية تسبيح سبَّح.

[﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: يخافُ عذابها ﴿وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ جنَّة ربِّه].

قوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾: هذه حال، حال كونه يحذر الآخرة، وحالٌ مُقارنة لقوله: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ يعني: حال كونه في سُجُوده وقيامه يحذرُ الآخرة؛ أي: يخافُها، وليس يخاف وقوعها؛ لأن وقوعها لابد، لكن يخاف عذابها، يخاف أن يُعذَّب.

وقوله: ﴿وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ يقول المؤلف: (جنة ربه) ولا شكَّ أن الرحمة يُرادُ بها الجنة، كما قال الله تعالى للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[2]، ولكن يُراد بالرحمة معنى آخر، وهو فعل الله بالعبد؛ أي: رحمتُه بالعبد؛ فأيُّهما أولى بهذه الآية؟ لماذا لا نقول: يرجو أن يرحمه الله، ويكون المراد بالرحمة هنا: رحمة الله التي هي فعله؛ يعني: يرجو أن يرحمه الله بالأمرَين: بالنجاة من النار، وبدخول الجنة، هذا المعنى أحسن؛ لأن المُتبادِر في الغالب لمعنى الرحمة أن تكون فعل الله أن الله يرحمه، وأيضًا إذا قلنا: رحمة الله، صار يرجو أن ينجو من النار، أو من عذاب الآخرة، وأن يفوز بالجنة.

وقوله: ﴿وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ يقول المؤلف: [كمن هو عاصٍ بالكفر أو غيره].

أفادنا المؤلف رحمه الله بهذا التقدير أن الآية يُبيِّن الله فيها أنه لا يستوي هذا وهذا، هل يستوي من هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا كمن هو عاصٍ بالكفر وغيره؟ الجواب: لا، وهذا من بلاغة القرآن.

القرآن فيه أشياء كثيرة تحذف لدلالة المذكور على المحذوف، وهذا من البلاغة، كيف يكون من البلاغة؟

لأنه إذا حذف الشيء استفاد المخاطب فائدتين: الفائدة الأولى اختصار الكلام.

الفائدة الثانية: قوة الانتباه؛ لأن الآية إذا كان فيها شيء محذوف فإن الذهن يتطلع إلى هذا الشيء المحذوف، فتجد الإنسان يتوقف، يفكر ويتأمل ما الذي حذف وما تقديره؟، لكن جاء الكلام مرسلًا هكذا لم يحصل له هذا التوقف وهذا التفكير، أنت الآن لو قرأت الآية الكريمة ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لوجدت نفسك متشوفًا إلى شيءٍ آخر، الكلام ما تم، لابد أن

---

(١) رواه مسلم (٧٧٢)، والنسائي (١٦٦٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦٠٤٠)، وأحمد في مسنده (٢٣٣٠٩) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٤٥٦٩)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هناك شيء آخر، وحينئذٍ يشتد انتباهك، وتزداد تأملًا في المعنى، فصار وجه البلاغة: الاختصار، وشدة الانتباه أعني أنه أحيانًا يَحْذِفُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أشياء يحتاج المخاطب إليها من أجل هذه الفائدة، بل من أجل هاتين الفائدتين.

قال المؤلف رحمه الله: [وفي قراءة: أم من]، وتزيد هذه القراءة على الأولى بـ (أم)، ومن اصطلاح المؤلف رحمه الله: أنه إذا قال: في قراءة، أو قال: بفتح كذا وضم كذا، أو قال بالتاء والياء، فإن القراءة سَبْعِيَّة، وأما إذا قال: وقُرِئ، فالقراءة شاذة، غير سبعية، وإذا أتى بقراءتين متساويتين، مثل أن يقول في قراءة، أو بالضم والفتح، أو بالياء والتاء، وما أشبه ذلك من العبارات، فالقراءة سبعية، أما إذا قال وقرئ بصيغة المبني للمجهول، فالقراءة شاذة.

بناءً على هذه القاعدة تكون القراءة أم من؟ سبعية، لأنه قال وفي قراءة أم من، فأم بمعنى [بل والهمزة]، أي (بل أمن هو قانت آناء الليل)، فتكون للإضراب، والإضراب هنا إبطالي أم انتقالي؟ انتقالي، والفرق بين الإضراب الإبطالي والإضراب الانتقالي أنه في الإضراب الإبطالي يكون الأول ملغى، والعمدة على الثاني، وأما في الانتقالي: فالأول باقٍ على ما هو عليه، والثاني استئنافي، لا علاقة له بالأول.

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قل يا محمد أو قل يا من يصح منه الخطاب هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، استفهام بمعنى النفي، والجواب: لا، لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وهذا عام في كل علم، فلا يستوي العالم والجاهل، حتى في علم النجارة والحدادة، والكيمياء وغيرها، لا يستوي الذي يعلم والذي لا يعلم، لكن هذا لا يقتضي أن يكون العالم ممدوحًا، لأن من العلوم مَنْ جَهْلُهُ خيرٌ من عِلْمِه، فإذا كان العلم مذمومًا، وقلنا: لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، صار غير العالم أفضل، وإذا كان العلم ممدوحًا، وقلنا هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، صار العالِم أفضل، فإذا جاءت هذه الجملة في علم الشريعة فالعالِم أفضل، في علم النحو فالعالِم أفضل، في علم الكلام فالجاهل أفضل، كما قال بعض السلف: الجهل بالكلام علم، لأن علم الكلام أدَّى بأصحابه إلى مهالك، حتى إن فطاحل علمائهم، يَتمنَّون وهم في سياق الموت أنهم ماتوا على دين العجائز، ودين العجائز أسلم، وإن كان جهلًا، لكنه أسلم من علم يؤدي بهم والعياذ بالله إلى الشرك والحَيْرة.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذه من الآيات القليلة اللفظ، الكثيرة المعنى؛ لأنه يمكن أن تطبقها على كل علم، لكن هل هذا العلم محمود، أو مذموم؟ على حسب الحال، أي لا يستويان كما لا يستوي العالم والجاهل، لو قال العلم والجهل كان أوضح.

وقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾، قوله: [بتخفيف الميم] أي: فالهمزة للاستفهام الإنكاري كما سيشير له بقوله: [أي: لا يستويان]، ومن اسم موصول بمعنى: الذي وتعرب هو مبتدأ في محل رفع خبره محذوف، قدَّره بقوله: [كمن هو عاصٍ]، وقوله: ﴿قَٰنِتٌ﴾ جملة اسمية صلة الموصول، وقوله: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ حالان من ﴿قَٰنِتٌ﴾ وقوله:﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾ حال أخرى متداخلة أو مترادفة أو جملة استئنافية معترضة، وقوله: [بمعنى: بل] التي للإضراب الانتقالي، [والهمزة] (أي) التي للاستفهام الإنكاري، وعلى هذه القراءة ترسم الميم في النون كرسمها على قراءة التخفيف، وهذا اتباع لخط مصحف الإمام، كما يؤخذ من الجزرية وشرحها لشيخ الإسلام، وهذا بالنظر لرسم المصحف، وأمَّا في غيره فترسم ميم (أَمْ) مفصولة من ميم (مَنْ)، كما في عبارة الشارح، ومن على هذه القراءة مبتدأ أيضًا، والخبر: مُقَدَّرٌ كما تقدم في الإعراب بعينه، وقوله: [أي لا يستويان] أي: القانت والعاصي، فهذا تفسير للنفي المستفاد من همزة الإنكار في قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ سواءٌ مصرَّحٌ بها على القراءة الأولى، والتي في ضمن أم على الثانية، وقوله: [وكما لا يستوي العالم والجاهل] تفسير لقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فالاستفهام فيه أيضًا إنكاري، قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾، قرأ الحرميان «نافع وابن كثير» بتخفيف الميم والباقون بتشديدها، فأما الأولى ففيها وجهان: أحدهما: أنها همزة الاستفهام دخلت على (مَنْ)، بمعنى: الذي، والاستفهام: للتقرير، ومقابله: محذوف تقديره: أمن هو قانت كمن جعل لله أندادًا، أو أَمَّنْ هو قانت كغيره، أو التقدير أهذا القانت خير أم الكافر المخاطب، لقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ ويدل عليه قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فحذَفخبر المبتدأ، وما يعادل المستفهم عنه، والتقدير أن الأوليين أول: لقلة الحذف، والثاني: أي تكون الهمزة للنداء، ومن المنادى؟ ويكون المنادي هو النبي ﷺ، وهو المأمور بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كأنه قيل: يا من هو قانت، قل كيت وكيت.

وأما القراءة الثانية فهي (أَمْ) داخلة على من الموصولة، أيضًا، فأدغمت الميم في الميم، وفي (أَمْ) حينئذٍ قولان: أحدهما أنها متصلة ومعادلها محذوف، تقديره: الكافر خير أم الذي هو قانت، والثاني: أنها منقطعة، فتقدر ببل والهمزة، أي بل أمن هو قانت كغيره، أو كالكافر المقول له تمتع بكفرك،انتهى.

على كل حال: تبين لنا من هذا البحث، أن قوله: [لا يستويان] أي القانت والكافر، كما لا

يستوي العالم والجاهل، فيكون قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ ليس عائدًا على قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ إنما: أداة حصر، والحصر: هو إثبات الحكم في المحصور فيه، ونفيه عما سواه، فإذا قيل: إنما القائم زيد، فهو كقولنا: لا قائم إلا زيد، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾: يقول المؤلف: [يتعظ، ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾: أصحاب العقول]، أصحاب تفسير لأولوا، والعقول تفسير للألباب، والألباب: جمع لُبْ هو العقل، لأن الإنسان بلا عقل قشور، ولا يكون إنسانًا حقيقةً إلاَّ بالعقل، وعلى هذا فالكفار بجميع أنواعهم، قشور لا خَيْر فيهم، لأنهم ليسوا بعقلاء، كما قال الله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]؛ والعقل الذي يحمد فاعله، هو عقل الرُّشْد، أي الذيَ يَحْجِزُك عماَ يضُرُّك، أما عقل الإدراك فإنه يستوي فيه المحمود والمذموم، عقل الإدراك الذي يترتب عليه التكليف، وهو الذي يأتي في كلام الفقهاء، يقولون في شروط العبادة: العقل، يعني: عقل الإدراك، أما عقل الرشد الذي يحجز صاحبه عما يضره، فهذا لا علاقة بالتكليف به، بل إنما يقال من حجزه عقله عما يضره فهو العاقل حقًا، ومن لم يحجزه عقله عما يضره فلا عقل له ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي ما يتذكر إلا هؤلاء.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾:

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** أن الكافر لا يَعْرِفُ ربه إلا عند الضرورة، لقوله ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن عبادة الضرورة لا تَنْفَعُ غالبًا، أي: أن الإنسان إذا عرف ربه عند الضرورة فقط، فالغالب أنه لا ينتفع بهذه العبادة؛ لأنها ليست عبادة عن رغبة، ولكنها عبادة من أجل إنجاء الإنسان من الهلكة، وإن كان أحيانًا يَنْتَفِع، ربما يكون هذا سببًا لفتح الله له، كما يوجد الآن من الناس ـ مثلًا ـ من يصاب بمرض شديد ويخاف منه الهلاك فينيب إلى الله عز وجل، ويدعو الله سبحانه وتعالى ثم يمن الله عليه بالاستمرار، لكن الغالب أن التعبد للضرورة لا يُفِيد.

٣ - **ومن فوائدها**: أن الكافر يؤمن بالله، وأن إيمانه بالله لا يخرجه من الكفر، لقوله: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾ فالإيمان بالله وبربوبيته لا يكفي، ولا يخرج الإنسان من الكفر، ودليل ذلك أن المشركين الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ، كانوا يقرون بالله قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: يقرون بأن الذي خلق هو الله، ويصفونه بالصفات الكاملة، ومع ذلك فهم كفار استباح النبي ﷺ دماءهم ونساءهم وأموالهم، وذريتهم.

وبه نعرف أن من قال عن النصارى: إنهم مؤمنون فهو جاهل، بل إن كان عالمًا بما يدل عليه الشرع من كفرهم فهو مرتد؛ لأن من حَكَمَ بالإيمانِ لِمَن كفّره الله فإنه مرتد مكذب لله عز وجل، وكذلك من قال عن اليهود إنهم مؤمنون بالله فإن هذا الكلام صادر إما عن جهل وإما عن ردة والعياذ بالله، فإذا قال إنهم يؤمنون بالله، يقولون الله - عزَّ وجلَّ - هو الكاشف للضر، وهو المدبر للأمور، قلنا هذا لا ينفعهم، ولهذا تجد عند العامة، عندما التبس على بعضهم هذا الأمر تجدهم إذا قيل لهم إنَّ تارك الصلاة كافر قالوا: كيف يكون كافرًا وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، أين الكفر، فيقال ليس كل من شهد بهذا يكون مؤمنًا، وكان المنافقون يأتون إلى رسول الله ﷺ، يقولون نشهد إنك لرسول الله، ويؤكدون هذا، فيؤكد الله - عزَّ وجلَّ - كذبهم فيقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون، وإن شهدوا بألسنتهم فهم كاذبون بقلوبهم، على كل حال هذه الآية تدل على أن مجرد اعتراف الإنسان بالرب لا يُخْرِجُهُ عن الكفر.

٤ - **ومن فوائدها**: أن الله - عزَّ وجلَّ - يجيب دعوة المضطر ولو كان كافرًا، لقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ فإن قال قائل: كيف يجيب الله دعوته وهو كافر؟ قلنا: هذا من آثار سبق رحمته لغضبه، فإن رحمته سبقت غضبه، فالكفر موجب للغضب، والضرورة موجبة للرحمة، فتسبق الرحمة الغضب، فيجيبه الله عز وجل، وهذا كإجابة المظلوم ولو كان كافرًا، المظلوم تجاب دعوته ولو كان كافرًا، إقامة للعدل، وانتصارًا للحق، قال النبي ﷺ، لمعاذ بن جبل «اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ(١) فَإِنَّهُ لَيسَ بَيْنَها وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ(٢)»(١)، إذن فهذان شخصان تجاب دعوتهما مع الكفر، هما المظلوم ومن وقع

(١) تجنب الظلم لئلا يدعو عليك مظلوم.

(٢) حاجز يحول دون وصولها واستجابتها.

في ضرورة إذا دعا الله، لماذا؟ لابد أن نعلل كيف يخرج هذا عن القاعدة بأن الكافر مغضوب عليه، نقول: أما إجابة المظلوم فمن أجل العدل والانتصار للحق، وأما إجابة المضطر: فلأن المضطر اجتمع في حقه سببان: سبب موجب للرحمة وهو الضرورة، وسبب موجب للغضب والانتقام وهو الكفر، ورحمة الله تعالى قد سبقت غضبه.

٥ ـ **ومن فوائدها:** أن النعمة محض فضل من الله، لقوله: ﴿إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً﴾ خوله نعمة، فالنعمة محض فضل من الله عز وجل؛ لأنها لا يمكن أن تكون مكافأة عن عمل، فإن الإنسان لو حوسب على عمله محاسبة دقيقة، لكان عمله لا يقابل واحد بالملايين من نعم الله عز وجل، فيخرج مغلوبًا؛ بل إن بعض العلماء ـ رحمهم الله ـ يقولون: إن العمل الصالح من نعمة الله، نفس العمل من النعمة، فإذا شكر العمل، صار الشكرُ نعمة، وإن شكر الشكر، صار نعمة أخرى، وعلى هذا قول الشاعر(٢):

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ الله نَعْمَةً ... عَلَي لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيفَ بلَوغُ الشَّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَت الأَيَّامُ وَاتَّصَلَ العُمْرُ

صحيح هذا أو لا؟ صحيح؛ لأنك إذا أنعم الله عليك نعمة ثم شكرتها، فشكرك إياه نعمة، ثم إن شكرته على الشكر، فهو نعمة أخرى، وَهَلُمَّ جَرًّا.

٦ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكافر إن شئت فقل الإنسان يَنْسى النعمة، إذا أنعم الله عليه نعمة بعد ضرورة، نسي، ثم عاد إلى غيِّه، وهذا خطير جدًا على الإنسان، هذا هو واقع الإنسان، أن الله إذا أنعم عليه نعمة بإنجائه من ضرورة، نسي ذلك ثم عاد إلى غيِّه، وهذا يقع، نجد الأحداث الآن تمر بالناس، يمكن في حال حلول هذه الأحداث يمكن أن يكون لهم رجعة بعض الشيء، لكن إذا زالت الضرورة عادوا إلى ما كانوا عليه من قبل، بل ربما يَحْمِلُهُم الأَشَرُ والبَطَرُ على أن يزيدوا في غيِّهم، وهذا له خطورته، فإن الله تعالى ذكر في القرآن أن الإنسان إذا عاد

(١) رواه البخاري (١٤٢٥)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) ينسب هذا البيت إلى: محمود الوراق، محمود بن حسن الوراق أبو الحسن. شاعر عباسي مشهور من شعراء القرنين الثاني والثالث المرموقين، وقد ذكر أنه كان مولى لبني زهرة وهو شاعر من بغداد لذلك علق به لقب البغدادي. وأكثر شعره في المواعظ والحكم وقد اشتهر بلقبين أحدها الوراق والآخر النخاس فأما الوراق فهو الناسخ بالأجرة ولعلها مهنة عمل بها. وأما اللقب الآخر النخاس فقد جاء من المهنة كذلك قال البغدادي: وقد كان نخاساً يبيع الرقيق وكان له رقيق.

إلى غيِّه بعد إنقاذه من الهلاك فإن الله يصيبه بعذاب أشد من الأول.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الكافر يعود إلى كفره، ولا يذكر ما دعا الله إليه من قبل، وهو إنقاذه من الضرورة، لقوله تعالى: ﴿مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾

٨ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا نِدَّ له؛ لأن الله أنكر على من جعل له أندادًا، فيكون في هذا ردٌّ على أهل التمثيل، الذين أثبتوا لله الصفات، مع التمثيل، فقالوا: إن الله تعالى له وجه كوجوهنا، ويد كأيدينا، وعين كأعيننا، وساق كسوقنا، وهكذا، نقول: كلامهم هذا كذب، وأنتم وأهل التعطيل سواء؛ لأنكم عطلتم النص عن مدلوله الصحيح، إذ إن مدلول النصوص في صفات الله، صفات لائقة بالله عز وجل، فإذا جعلتموها للتمثيل حرفتموها، وعلى هذا فيكون في الآية رد على أهل التمثيل الذين أثبتوا الصفات لله ـ عزَّ وجلَّ ـ مع التمثيل، نقول: هذا الفعل منكم تعطيل في الحقيقة لمدلول النص الصحيح؛ لأن مدلول النص فيما يتعلق بالصفات صفات لائقة بالله عز وجل.

٩ ـ **ومن الفوائد:** أن هؤلاء الكفار يحرصون على أن يضل الناس بفعلهم، لقوله ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ على قراءة الضم.

١٠ ـ **ومن فوائدها:** أنه كما يكون الاقتداء بالقول، يكون الاقتداء بالفعل، كيف ذلك؟ لأن هذا الكافر جعل لله أندادًا، وكان جَعْلُه الأنداد سببًا لضلال غيره، ويتفرع على هذه الفائدة: وهي تحذير الإنسان ولا سيما القدوة من المخالفة؛ لأن الناس سوف يقتدون به ويحتجُّون بفعله، فمثلًا طالب العلم، إذا قام إلى الصلاة يكثر الحركة، مرة يحك رأسه، ومرة يحك ظهره، ومرة يحك بطنه، ومرة يفرك عينه، ومرة ينظر إلى ساعته، ومرة يكتب ما تذكر في صلاته، إذا كان هذا طالب العلم يفعل هذا الشيء فإن الناس سوف يقتدون به، لو أُنكر على واحد من الناس كثرة الحركة لقال فلان يفعل، ولهذا أحيانًا ننكر على بعض الناس المعاملات الربوية التَحَيُّلِيَّة، فيقولون فلان يفعل كذا، من الناس ممن هو من طلبة العلم، فالناس يحتجون، وهذه الآية تدل على أن الاقتداء يكون بالفعل، لقوله: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ولم يقل ودعا الناس ليضلوا عن سبيل الله، بل جعل فعله سببًا لضلال الناس، وهذا يدل على الاقتداء بالفعل كالقول، وأما على قراءة الفتح، فيؤخذ منه فائدة، وهي أن جعل الأنداد لله ضلال، لقوله: ﴿لِّيَضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

١١ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تهديد هؤلاء الكفار الذين اتخذوا من دون الله

أندادًا، تؤخذ من قوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ وقد بين الله صفة هذا التمتع، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ البهائم ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾.

١٢ - **ومن فوائدها:** أن الدنيا مهما طالت، فهي قصيرة، ولا تُنْسَب إلى الآخرة، ولهذا قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ يقول للرسول ﷺ، ويقول للعموم: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى:١٦، ١٧] وقال النبي ﷺ، «لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1] السوط: عصا قصيرة، موضعه خير من الدنيا وما فيها، أي دنيا؟ كلها منذ نشأت إلى قيام الساعة، بما فيها من الزخارف واللهو والزينة خير من الدنيا وما فيها، ولهذا قال ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾، فهذه المتعة للكافر، وإن كان ينال شهوته، هي قليلة، زمنًا، وقليلة كمية، وقليلة كيفية.

١٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن الكفار ملازمون للنار لا يخرجون منها، لقوله تعالى: ﴿أَصْحَابِ النَّارِ﴾؛ لأن الصاحب هو الملازم.

١٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** مخاطبة الإنسان بما يليق بحاله، فهذا الكافر المعاند الذي بدَّل نعمة الله كفرًا، يخاطب بهذا الخطاب القاسي، وهو ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، بينما لو كانت المسألة مسألة دعوة ما قابلناه هذه المقابلة، لا نقول لمن ندعوه إلى الإسلام: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، لكن نقوله: لمن عاند وكابر وبدل نعمة الله كفرًا.

١٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات النار، لقوله: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ويجب علينا في إثبات النار شيئان:

الأول: إثبات وجودها الآن، وأنها موجودة، فإن النبي ﷺ عُرضت عليه الجنة وعرضت عليه النار في صلاة الكسوف، وشاهدها ورأى من يعذَّب فيها، رأى فيها امرأة تعذب في هرة[2] حبستها حتى ماتت، ورأى فيها صاحب المِحْجَنِ يُعَذَّب[3]، صاحب المحجن رجل معه محجن، والمحجن تعرفونه، هو عندنا في اللغة العامية محجان، محجان: عصا محنية الرأس، هذا الرجل يمر

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣٥)، والترمذي (١٦٦٤)، وأحمد في مسنده (١٥٦٠١) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) أي بسبب هرة لها.

(٣) رواه مسلم (٩٠٤)، وأحمد في مسنده (١٥٠٦٠) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

بالحجاج فيشبك متاع الحاج برأس المحجن فإن تفطَّن له صاحبُ المتاع قال والله هذا المحجن، المحجن أَمْسَكَ به، سامحني، يمكن أن يقول: سامحني أو ما يقوله، وإن لم يتفطن له أخذه، فرآه النبي ﷺ، يعذب في النار بمحجنه وهو يصلي صلاة الكسوف، ثم تأخر النبي ﷺ، تأخر مخافة أن يصيبه من لفح النار، إذن فرؤيته إياها حسية، هذا واحد.

الشيء الثاني: يجب أن نؤمن بأن النار مؤبدة أبد الآبدين يعذب فيها أهلها، ما هم عنها بمخرجين، وهي مؤبدة دائمًا؛ لأن الله تعالى ذكر تأبيدها في ثلاثة مواضع من القرآن، الموضع الأول: في سورة النساء، في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:٥٧] والموضع الثاني: في سورة الأحزاب، في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤، ٦٥] والموضع الثالث: في سورة الجن، في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣] بعد هذا لا يمكن أن نقبل قولًا من أي عالم كان بأن النار غير مؤبدة، ولا نقابل هذا النص الصريح بقياسات، لأن قوله تعالى: «إن رحمتي سبقت غضبي»، هذا صحيح نص محكم وخبر صادق، لكن الخبر يجوز تخصيصه، فنقول: أهل النار ليسوا أهلًا للرحمة، وعقوبة الله إياهم على التأبيد هي من كمال عدله وحكمته، فكما أمضوا أعمارهم بالكفر، كل الدنيا أفنوها بالكفر، فالآخرة أيضًا تذهب عليهم بالجزاء والعقوبة، هذا هو العدل، وهذه هي الحكمة، أليس كذلك؟ نقول: عمرك بالدنيا كله مضى في الكفر، إذن حياتك في الآخرة، تمضي بالجزاء والعقوبة، لا حياة لك في الآخرة كما أنه لم يكن لك حياة في الدنيا بطاعة الله.

الفوائد:

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** أن القرآن الكريم يفتح للإنسان الاستدلال العقلي، يعني أنه يعرض الأشياء عرضًا عقليًا، وذلك بطلب التدبّر والتفهّم، فمثلًا: من هو قانت ومن هو عاصٍ؟ بكل بساطة إذا عُرِضَت حال هذا وحال هذا على العقل ماذا يقول؟ يقول: لا يستويان، من هو قانت آناء الليل ليس كمن هو عاص، وهذه من الطرق التي ينبغي لطالب العلم عند المناظرة أن يتخذها سبيلًا إلى إفحام الخصم؛ لأن كثيرًا من الخصوم قد لا يقتنعون بمجرد الدليل الأثري،

فنسوق إليهم الدليل النظري، ولا سيما في الوقت الحاضر، حيث اتخذ كثير من الناس إن لم أقل أكثرهم طريق إبليس سبيلًا، وهو معارضة السمع بما يظنه عقلًا، يعني: معارضة النصوص بما يظنون أنه عقل، ونحن نعلم علم اليقين أنه ليس في النصوص ما يخالف العقل الصريح أبدًا، بل في النصوص ما يؤيده العقل الصريح، ويكون هذا شاهدًا لهذا، كل منهما يقوى بالآخر، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في النونية، أن لدينا أربعة أدلة كلها يشهد بعضها لبعض، هي الكتاب والسنة والعقل والفطرة، هذه الأدلة الأربعة لا يمكن أن تتناقض أو تتنافى، بل بعضها يؤيد بعضًا ويشهد له، والله أعلم.

وأما ما قيل عن شيخ الإسلام أنه قال بفناء النار؟ الجواب: هذا ليس صحيحًا ولنفرض أن الذي قال بفناء النار وحاشاه من ذلك أبو بكر، أفضل من شيخ الإسلام بألف مرة، هل نقبله مع وجود الآيات؟ لا نقبله، الحقيقة إذا وجدنا قولًا مخالفًا للكتاب والسنة من أي قائل به، فإن موقفنا أن نعتذر عنه، لا أن نجعل قوله حجة على كلام الله ورسوله، مهما كان، يعني لا يوجد أحد معصوم، لا يوجد أحد معصوم من الخطأ أبدًا إلا من عصمه الله - عزَّ وجلَّ - كالرسل.

مسألة: يمكن أن نقول إن قراءة: ﴿لِيُضِلَّ﴾ أبلغ من قراءة ﴿لِيَضَلَّ﴾؟

الجواب: لا، لكن ممكن أن نقول إنه أَضَلَّ، و(يُضل) متعدي ضرره للغير، لكن إذا قلنا إنه ضَلَّ أول فَأَضَلَّ ثانيًا، يكون مجموع القراءتين فيهما فائدة ما تحصل بانفراد أحدهما.



قال الله تعالى:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** بيان الفرق بين الناس في عبادة الله عز وجل، وأنه لا سواء بين من هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا إلى آخره، ومن هو عاصٍ بعيد عن الله عز وجل.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن ظاهرها: دوام الطاعة آناء الليل في السجود والقيام، أي في الصلاة، ولكن السنة بينت ذلك، وأن الأفضل في قيام الليل أن ينام نصفه، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وهذا من تقييد القرآن بالسنة.

٤ - **ومن فوائد الآية:** فضيلة صلاة الليل، لقوله: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ وقد دلت على ذلك السنة،

فقال النبي ﷺ: «**أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ**»[1].

٥ ـ **ومن فوائدها:** فضيلة القيام والسجود من بين أركان الصلاة، أن القيام شريف بذكره، والسجود شريف بهيئته.

٦ ـ **ومن الفوائد:** أنه ينبغي للإنسان أن يكون في سيره إلى الله جامعًا بين الخوف والرجاء، لقوله: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، ولكن هل يكونان سواءً؟ أو تُغَلَّب جانب الرجاء؟ أو يُغَلِّب جانب الخوف؟

في هذا أقوال لأرباب السلوك، فمنهم من قال: ينبغي أن يكون رجاءه وخوفه واحدًا، كجناحي الطير، إذا مال أحدهما اختل طيرانه، قال الإمام أحمد رحمه الله: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، فأيهما غلب هلك صاحبه؛ لأنه إن غلَّب جانب الخوف أَدْخَلَهُ في اليأس والقنوط، وإن غلَّب جانب الرجاء أدخله في الأمن من مكر الله.

وقال بعض أرباب السلوك: ينبغي أن يغلب جانب الرجاء، لقول الله تعالى في الحديث القدسي «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَإِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ بِي شَرًا فَلَهُ**»[2] وعلى هذا فيُغَلِّب جانب الرجاء، وقال بعض العلماء: يُغلِّب عند فعل الطاعات جانب الرجاء، فإذا فعل طاعة فليُغلِّب جانب القبول، دون جانب الرد، أما في فعل المعصية فإن الأَوْلَى أن يُغلِّب جانب الخوف، لئلاً يقع في المعصية.

وقال بعضهم: في حال المرض يُغلِّب جانب الرجاء، وفي حال الصحة يغلِّب جانب الخوف؛ لأن النبي ﷺ، قال: «لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُم إلاَّ وَهو يُحْسِن الظَّنَّ بِالله»[3] والمريض، قد وجد فيه سبب الموت وهو المرض، فيغلب جانب الرجاء، ليموت وهو يُحْسِن الظن بالله، ولو قال قائل: إنه يُرْجَعُ في ذلك إلى نَفْس الإنسان، والإنسان هو طبيب نفسه، إن رأى من نفسه جنوحًا إلى انتهاك المعاصي والمحرمات فليعدها، بل فليتوعدها بالعذاب، حتى يرتدع، وإن رأى من نفسه قوة على طاعة الله ومثابرة عليها وقيامًا بها، فليغلب جانب الرجاء، حتى يُحْسِن الظن بالله، وهذا يرجع إلى الإنسان نفسه، والإنسان في بعض الأحيان يغلب هذا وفي بعض الأحيان يغلب هذا.

٧ ـ **ومن فوائدها:** إثبات عذاب الآخرة، لقوله: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ ولا يُحذر الشيء إلا بثبوته، أما ما ليس بثابت فلا يحذر.

٨ ـ **ومن فوائدها:** أنه في باب الجزاء والأحكام يغلب جانب الربوبية، لقوله: ﴿وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ لأن الربوبية هي التي بها التصرف والسلطان.

(١) رواه مسلم (١١٦٣)، وأحمد في مسنده (٨٠١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) صحيح: انظر السلسلة الصحيحة (١٦٦٣).
(٣) رواه مسلم (٢٨٧٧)، وأبوداود (٣١١٣)، وأحمد في مسنده (١٤٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه.

٩ ـ **ومن الفوائد:** أنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، لقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١٠ ـ **ومن فوائدها:** أن هذا النفي أمر معترف به؛ لأنه جاء بصيغة الاستفهام، ونحن ذكرنا أنه إذا جاء الاستفهام مرادًا به النفي، صار مُشْرَبًا معنى التحدي.

١١ ـ **ومن فوائدها:** فضيلة العلم، ولكن يجب أن نعلم أن العلم يشرف بشرف موضوعه، وعلى هذا فأفضل العلوم العلم بأسماء الله وصفاته؛ لأن هذا أشرف موضوعات العلم، ثم العلم بأحكامه، لقوله ﷺ «**منْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خيرًا يفقههُ**[1] **في الدينِ**»[2] ثم تتلو العلوم حسب مراتبها، وأخس العلوم هو ما يصد عن سبيل الله، وعن طريق السلف الصالح، مثل علم الفلسفة، علم الكلام، وما أشبهها، إلا إذا تعلمه الإنسان من أجل أن يَرُدُّبه على أهله، فهنا قد يكون تعلمه واجبًا؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولهذا أمر النبي ﷺ، «زيد بن ثابت» رضي الله عنه أن يتعلم لغة اليهود[3]، مع أن تعلم اللغات الأجنبية ليس محمودًا ولا مأمورًا به، لكن لما كان وسيلة إلى معرفة ما يأتي من الكتابات من اليهود، والرد عليهم بلغتهم، أمره النبي ﷺ أن يتعلم لغة اليهود، وتعلم لغة اليهود في ستة عشر يومًا؛ «لأن زيد بن ثابت» رضي الله عنه من الأذكياء، فتعلمها، ثم إن اللغة العبرية قريبة من اللغة العربية فسهل تعلمها.

١٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أصحاب العقول هم أهل الاتعاظ، لقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

١٣ ـ **ومن فوائدها:** أن من لايتذكر فهو ناقص العقل؛ لأنه إذا كان لا يتذكر إلا أصحاب العقول، فمن لا يتذكر يكون ناقص العقل ولا شك، ونقصان عقله بحسب نقصه في التذكر، ووجه ذلك من الناحية العقلية النظرية، أن الإنسان العاقل لا يمكن أن يختار لنفسه إلا ما فيه النجاة، ولا نجاة من عذاب الله إلا بالتذكر والاتعاظ، فلهذا كان العقل السليم يستلزم أن يتذكر الإنسان ويتعظ من أجل طلب ما هو أحظ للنفس وأنفع، كما قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى:٤].

١٤ ـ **ومن فوائدها:** الثناء على ذوي العقول حيث جعلهم هم المتذكرين، المتعظين المنتفعين بما يسمعون.



(١) يجعله فقيها والفقه الفهم.
(٢) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.
(٣) صحيح: رواه البيهقي في الكبرى (١١٩٧٥) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه، وصححه الألباني في الصحيحة (١٨٧).

قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

التفسير

﴿قُلْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لكل من يَصِحّ توجيه الخطاب إليه، فعلى الأول يكون التقدير: قل يا محمد، وعلى الثاني: يكون التقدير: قل يا أيها الإنسان، ﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ (عبادِ): هنا فيها شيء محذوف، وهو الياء التي دلت عليها الكسرة، في قوله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ وحذفت الياء تخفيفًا، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾، الذين:عطف بيان أو وصف، الذين آمنوا: الإيمان في اللغة التصديق أو الإقرار؟ بل نقول الإقرار؛ لأنه هو المطابق للإيمان في التعدي والعمل، يُقال: أقر بكذا، وآمن بكذا، التصديق لا يطابقه تمامًا، وعلى هذا فنقول: الإيمان هو الإقرار، لكنه ليس مجرد الإقرار، كما قاله بعض طوائف المبتدعة، مثل مرجئة الجهمية، نقول هو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان، هذا الإيمان، إذا لم يستلزم للقبول والإذعان، فإنه ليس بإيمان.

وقوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ قال المؤلف: [أي عذابه] وفي هذا نظر، بل المراد تقوى الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى يضيف التقوى إلى نفسه، وأحيانًا إلى النار، وأحيانًا إلى يوم الجزاء، فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]، بعد أن قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾، فلو فسرت تقوى الله بتقوى عذابه، لكان في الآية تكرار، فالصواب أن الله يضيف التقوى إلى نفسه وأحيانًا إلى النار، وأحيانًا إلى يوم الجزاء، كما في قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والصحيح أنها تفسر بما تضاف إليه، فقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: اتقوا الله نفسه؛ لعظمته، وكمال سلطانه عز وجل، ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: عذابه بأن تطيعوه]، أي عذابه نقول الصحيح: أي الله نفسه، وقوله بأن تطيعوه: هذا تفسير للتقوى، وعلى هذا فنقول التقوى طاعة الله، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، لأن أصل التقوى مأخوذ من الوقاية، ولهذا يقولون: إن أصلها قوى من الوقاية، والوقاية: هي اتخاذ ما يقي الإنسان، وما يقي الإنسان من عذاب الله إلا طاعة الله، ولهذا نقول: إن أجمع ما قيل في التقوى أنها طاعة الله كما قال المؤلف رحمه الله، أو اتخاذ وقاية من عذابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل:٣٠]، للذين: خبر مقدم، وحسنة:

مبتدأ مؤخر، للذين أحسنوا في هذه الدنيا، أحسنوا بماذا؟ الإحسان يكون في عبادة الله ويكون إلى عباد الله.

أما الإحسان في عبادة الله، فلا أجمع ولا أصدق من تفسير النبي ﷺ، له، حين سأله جبريل عن الإحسان، فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1]، إذا عَبَدَ الإنسان ربه كأنه يراه، فسوف يعبده حق العبادة؛ لأنه يَعْبُد الله كأنه يرى الله وبهذا تكون عبادته مبنية على كمال اليقين، وإذا كانت كذلك فلابد أن تكون موافقة للأمر، ولابد أن تكون خالصة، إذن الإحسان تمام الإخلاص، وتمام المتابعة، من أين عرفنا أن هذا حده؟ لقوله: « **أن تعبد الله كأنك تراه**»، وعبادة الله على هذا الوجه، مبنية على تمام اليقين، أن تعبد الله كأنك تراه، وهذه المرتبة أعلى من المرتبة الثانية، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، يعني: فإن لم تعبده على هذا الوجه، فاعلم أنه يراك، ويقال: إن الأول إحسان في الطلب، والثاني: إحسان في الهرب، يعني العابد طلبًا، أكمل حالًا من العابد هربًا، إذن الإحسان في عبادة الله، بأي شيء نحده؟ بما حده النبي ﷺ، في قوله لجبريل:« **الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» أي: أن تعبده عبادة مبنية على تمام اليقين، وهذا يلزم منه أن تكون العبادة خالصة لله متابعًا فيها شريعة الله.

وأما الإحسان إلى عباد الله يكون بالمال، والبدن، وهو كثير، قد تحسن إلى عباد الله بالمال، كالصدقات والهدايا والهبات، وقد تحسن إلى عباد الله بالبدن كالمساعدة وما أشبه ذلك، وتُعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه، تعين عباد الله بالجاه، والشفاعة عند الحاجة إلى ذلك؛ المهم أن الإحسان إلى عباد الله متنوع كثير، وقد فسره بعضهم، بأنه كف الأذى، وبذل الندى، وطلاقة الوجه، كف الأذى عن الناس؛ لأن من لم يكف أذاه فإنه لم يحسن، والثاني: بذل الندى أي المعروف، والثالث: طلاقة الوجه، بأن تلقى الناس بوجه منطلق منشرح، لا بوجه مقطم معبس، إذن الإحسان إحسان في عبادة الله، وإحسان إلى عباد الله، ولهذا قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أي في عبادة الله، وإلى عباد الله.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ هذا يقول المؤلف: [للذين أحسنوا في هذه الدنيا بالطاعة]، يعني ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ متعلقة بماذا؟ بـ﴿أَحْسَنُوا﴾ وقول المؤلف: [بالطاعة] فيه قصور، وجهه أننا قلنا: إن الإحسان يشمل الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى عباد الله، على كلام المؤلف في العبادة فقط، ولكن الصحيح ما ذكرنا، لهم حسنة: قال المؤلف: [هي الجنة]، ولعله اعتمد في هذا التفسير، على قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٩] فإن الحسنى هي الجنة، والزيادة: هي النظر إلى وجه الله.

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ ، ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾، كيف المناسبة بين قوله:

---

(١) رواه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾، وبين ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾، المناسبة أن من جملة الإحسان في الدنيا الهجرة، لا شك، لأن الهجرة من أكبر ما يدل على صدق العامل، إذ إن المهاجر، يدع أهله ووطنه وعشيرته، وماله، لله، يهاجرون إلى الله، فهذه هي المناسبة، وقوله: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾، فهاجِروا إليها من بين الكفار، ومشاهدة المنكرات، صدق الله - عزَّ وجلَّ - أرض الله واسعة، إذا ضاقت بك الأرض يومًا فَثَمَّ السَّعَة، اخرج، تسلم في دينك وعرضك، ولا تشح بمالك ودارك، وأهلك وعشيرتك، فإن الدين أغلى من ذلك كله.

وقوله: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾، لو أن الدار التي كانوا فيها ضيقة، نعم هي كانت ضيقة لكنه ضيق معنوي، لأن السعة والضيق، - في الحقيقة - إنما يكون بالقلب، كم من إنسان في بيت ضيق حجره بقدر فراشه وتجده مسرورًا منشرح الصدر، وكم من إنسان في قصور مَشِيْدَة ولكنه في ضيق وغم، فسَعَةَ الأرض - في الحقيقة - بالنسبة للمهاجر واضحَّة جدًا؛ لأن بقاءه يشاهد المنكرات ويشاهد ما يؤذيه وما يؤلمه لا شك أن هذا ضيق.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، ﴿يُوَفَّى﴾: أي يُعْطَي، وإنما: أداة حصر، والمعنى ما يوفى الصابرون أجرهم إلا بغير حساب، أي أجرًا كثيرًا أكثر من الأعمال، وقوله: ﴿يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾، لماذا قال: الصابرون وهم موفون؟، ولم يقل الصابرين؟ ونائب الفاعل يكون مفعولاً به في المعنى فاعلاً في اللفظ، ومعناه أنه يعرب إعراب الفاعل، ولكنه في المعنى مفعول به.

قال (ابن مالك):

يَنُوبُ مَفْعُولٌ بِهِ عِنْ فَاعِلِهْ   فيما لَهُ كَنِيْلَ خَيْرُ نَائِلِه

وقوله: ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ قال المؤلف: [على الطاعة، وما يُبْتَلْونَ به]، فذكر نوعين من أنواع الصبر، وبقي عليه واحد، وهو الصبر عن معصية الله، إلا أن يقال إن الطاعة بالمعنى الأعم تشمل امتثال الأمر واجتناب النهي فيكون قد وَفَّى المؤلف أنواع الصبر.

حيث إن أنواع الصبر ثلاثة:

صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، أعلاها: الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله، هذا من حيث نوع الصبر نفسه.

أما من حيث الصابر، فإن الإنسان أحيانًا يعاني من الصبر عن المعصية، أكثر مما يعاني من الصبر على الطاعة، وكذلك الصبر على البلاء قد يعاني منه أكثر مما يعاني على الصبر عن المعصية وعلى الطاعة.

لكن نقول: من حيث النوع، نوع الصبر، بقطع النظر عن الصابر أفضله، الصبر على الطاعة، ثم عن المعصية، ثم على الأقدار، لماذا؟ لأن الصبر على الطاعة يحتاج إلى جهد نفسي وجهد بدني، أما الصبر عن المعصية يحتاج إلى جهد نفسي فقط، لماذا؟ لأنه ترك، ما عليك أي تعب، لكن النفس

تتعب، إذا كانت المعصية مما تدعو إليه النفس، وكففت، عنها تعبت النفس ولا شك، إذن ليس فيها إلا تعب واحد وهو مجاهدة النفس على الترك.

وأما الصبر على أقدار الله المؤلمة، هو أدناها، لماذا؟ لأن الأمر ليس إليك، الأمر تَمَّ، فهو كما قال بعض السلف: إما أن تصبر صبر الكرام، وإما أن تسلوَ سلوَ البهائم، ليس منك أي عمل، شيء لابد أن يصيبك أصابك. يقولون: إن يوسف عليه الصلاة والسلام ابتلي بأنواع الصبر الثلاثة، الصبر على الطاعة إلى الله وهو في السجن، حيث قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ [يوسف:٣٩، ٤٠]، هذا لا شك صبر، إنسان مسجون ويدعوا الناس إلى التوحيد. والصبر عن المعصية: امتناعه عن موافقة امرأة العزيز حين راودته عن نفسه.

والصبر على أقدار الله ما حدث له من إخوته، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أجرهم، أي: ثوابهم، والله -عزَّ وجلَّ- بكرمه سمى الثواب أجرًا، من باب اطمئنان العامل إلى استيفائه، لأن الأجر مقابل عمل لابد أن يسلم، كأن العمل والجزاء معاوضة، وعقد بين الله وبين العامل، إن الله يعطيه الثمن الأجر، مع أن الله تعالى هو المتفضل أولًا وآخرًا، هو المتفضل أولًا بالتوفيق للعمل، ولولا أن الله أعانك وسددك ما قدرت، ثم المتفضل ثانيًا بالأجر، وقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يقول: بغير مكيال ولا ميزان، يعني: أن الأجر الذي يعطيه الله -عزَّ وجلَّ- على العمل ليس على سبيل التدقيق، والمعاوضة التي تكون بين العباد، المعاوضة بين العباد عدل، يعني ما يعطيك أكثر مما تستحق.

وأما ثواب الله -عزَّ وجلَّ- على الصبر فهو أكثر، بدون حساب، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة، والصبر لا حساب له، إذن يتوقع الصابر بأن له جزاءً لا يدركه عقله من كثرته؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، كما أن الصبر فيه فائدة عظيمة للإنسان نفسه، وهو ترويض النفس على التحمل.

كثير من الناس يريد أن تكون الأمور بسرعة، يدعو الله -عزَّ وجلَّ- بكشف ضر وتتأخر الإجابة، فيقول لماذا؟ وييأس، نقول اصبر، وطِّن نفسك على الصبر، هذه تربية، أن توطن نفسك على الصبر، والصبر مع انتظار الفرج، يعتبر من أعظم العبادات؛ لأنك إذا كنت تنتظر الفرج فإنك تنتظر الفرج من الله عز وجل، هذه عبادة، وقد قال النبي ﷺ، **«وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ»**[1] النصر قال مع الصبر، والفرج مع الكرب، فكلما اكتربت الأمور، فإن الفرج أقرب إليك، وأن مع العسر يسرًا.

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٢٨٠٤)، والطبراني في الكبير (١١/ ١٢٣)، والحاكم في المستدرك (٦٣٠٤)، والقضاعي في مسند الشهاب (٧٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١٧٥٢).

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يا عِبادِ الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾: ١ - في هذه الآية: أمر للنبي ﷺ أن يقول للناس: ﴿قُلْ يا عِبادِ الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، أي يأمرهم بتقوى الله تعالى وأن يقول لهم: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** أنه لابد مع الإيمان من التقوى، لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ وهذه الصيغة ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لن يقولها النبي ﷺ، بهذا اللفظ، لكن سيقول: يا عباد الله، أو كلمة نحوها، ولكن الله أضاف ذلك إلى نفسه، ليبين الإخلاص لله - عزَّ وجلَّ - في هذه العبادة.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن الرب وهو الخالق المالك المدبر، هو أهل التقوى دون غيره، كما قال تعالى في سورة المدثر: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦].

٤ - **ومن فوائدها:** أن للمحسنين في هذه الدنيا حسنة، لقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أن الله بفضله وكرمه يعجل الثواب لمن يستحق الثواب في الدنيا قبل الآخرة؛ لأن حسنات الدنيا دون حسنات الآخرة بكثير.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية:** وجوب المهاجرة إلى الله ورسوله، إذا كان الإنسان في بلد كفرٍ لا يقدر على إظهار دينه، لقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** أنه من الدعوة إلى الله ومن حسن الدعوة إقامة الحجة، لقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ فإنه لا عذر لأحد أن يقول لا أجد ملجئًا أو لا أجد مهاجرًا.

٨ - **ومن فوائدها:** أن الأرض لله، لقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ وهذا كما قال موسى لقومه: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

٩ - **ومن فوائدها:** فضيلة الصبر، وأن صاحبه يوفى أجره بغير حساب، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

١٠ - **ومن فوائدها:** كرم الله عز وجل، حيث جعل الثواب بمنزلة الأجر كأنه معاوضة يعاوض به العامل؛ لقوله: ﴿أَجْرَهُمْ﴾.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:١١]

التفسير

﴿قُلْ﴾: أي يا محمد، ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ : أي أمرني ربي، وهذه الصيغة تأتي بالبناء للمجهول؛ لأن الفاعل معلوم، وهذا يشبه حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن الرسول عليه الصلاة والسلام، قال «أمرتُ أنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةَ أعظم». ﴿أُمِرْتُ﴾، لأن الآمر معلوم وهو الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ وجاء بكلمة ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾، للإشارة إلى مقام النبي ﷺ، وأنه عبد يُؤمر وينهى وليس له من حق الربوبية شيء.

وقوله: ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ أي أتذلل له، والعبادة تطلق على معنيين:

الأول: التذلل لله، الذي هو فعل العابد.

والثاني: المُتعَبَّد به، وهي العبادات على جميع أنواعها، وعلى هذا يكون تعريف شيخ الإسلام (ابن تيمية) للعبادة في قوله: (العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأحوال والأعمال الباطنة والظاهرة)، وذلك؛ لأن العبادة كما قلت: تطلق على معنيين: الأول: التعبد الذي هو فعل العبد، الثاني: المتعبَد به وهي العبادات، وهنا ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا﴾ يشمل المعنيين، يعني أن أتعبد له بالعبادة.

وقوله: ﴿مُخْلِصًا﴾ حال من فاعل أعبد، أي حال كونه مخلصًا لله، من الشرك، لأن الإخلاص يعني التنقية، وينقى من أي شيء؟ ينقى من الشرك، لأن العمل إذا شابه الشرك أفسده وأبطله، قال الله في الحديث القدسي «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا اَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١).

وقوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، قال: [من الشرك]، والمراد بالدين هنا: العمل الذي يعمله الإنسان لأجل أن يدان به، وأما عمل لا يؤمل أن يدان به، فهذا لا يسمى مدينًا وإن كان عملًا، لابد أن يكون عاملًا من أجل أن يدان بهذا العمل حيث يقول الله عز وجل: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ ومر علينا كثيرًا أن الدين يطلق على العمل ويطلق على الجزاء، ففي قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] الجزاء، وفي قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ أي العمل.



---

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى:

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر:١٢].

التفسير

قال المؤلف المفسر: أي [بأن]، فجعل اللام بمعنى الباء، وذلك؛ لأن أمر إنها تتعدى بالباء، ولا تتعدى باللام، فلهذا فسرها المؤلف بالباء، وهذا أحد المسلكين للنحاة، فيما إذا تلا الفعل حرف لا يتعدى به غالبًا، فإنهم يجعلون هذا الحرف بمعنى الحرف الذي يتعدى به العامل، فمثلًا هنا [أُمِرْتُ لأن أكون] يجعلون اللام بمعنى الباء، وفي قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٦] يجعلون الباء بمعنى من، أي: يشرب منه، والمسلك الثاني للنحاة: أنهم يحولون الفعل إلى فعل يناسب المتعلق، ويسمون هذا تضمينًا، أي أن الفعل المذكور ضُمِّن فعلًا يتعدى بالحرف المذكور، فمثلًا ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾، يقولون: المعنى يروى بها، فضمن الشرب معنى الري، ولا شك أن هذا يعطي الآية أو النص معنىً أكثر؛ لأنه يبقي الحرف ما هو عليه ويعطي الفعل المذكور معنىً زائدًا على ما يدل عليه لفظه، فيكون هذا المسلك أولى، لكن أحيانًا يصعب على طالب العلم ولا سيما المبتدئ أن يقدر الفعل المناسب الذي يكون مضمونًا للفعل المذكور، حينئذٍ يلجأ إلى الأسهل وهو تحويل الحرف إلى حرف يناسب الفعل المذكور، فهنا ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ لا شك أنه من السهل أن نقول إن اللام بمعنى الباء، يعني أمرت بأن أكون، لكن لو أردنا أن نضمن أمرت معنىً يناسب اللام، (أُمِرتُ لأن أكون) يحتاج إلى تأمل وتفكير في المعنى، لماذا قال أُمِرتُ لأن أكون؟ ممكن أن نقدر؛ فنقول: (أمرت أن أعبد الله لأن أكون أول المسلمين)، فتكون اللام تعليلًا للفعل المحذوف وهو (أن أعبد الله لأن أكون أول المسلمين)، يعني: وجه الأمر إلي أولًا لأن أكون أول المسلمين، أي: المنقادين لأمر الله، وحينئذٍ نستفيد من هذا معنيين: معنى الأمر ومعنى العبادة التي حذفت ليصح تعليق الحرف به.

قال: [﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۝١٢﴾ من هذه الأمة)، قال المؤلف: [من هذه الأمة]، وكلمة أول المسلمين، الإسلام يطلق على الانقياد؛ لأنه مأخوذ من أسلم أمره إلى غيره، ومن الاستسلام في الحرب، لأن المستسلم ينقاد للغالب الذي غلبه، فالإسلام هو الانقياد ظاهرًا، وبناءً على هذا يكون المنافقون مسلمين ظاهرًا، ولهذا يطلق الإسلام على ضعيف الإيمان، كما قال تعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤] أحيانًا يطلق الإسلام على الشريعة كلها، فيشمل الاستسلام ظاهرًا وباطنًا، وهو الإيمان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] ليس المراد الاستسلام الظاهر وإنما المراد الشرائع كلها، رضيت لكم الإسلام: أي شرائع الإسلام كلها، ويقول أهل العلم: الإسلام إذا قرن بالإيمان فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالأعمال الباطنة، قالوا: ومن ذلك حديث جبريل لما سأل النبي ﷺ عن الإسلام قال:« أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وتَصُومَ رَمَضَانَ وتَحُجَ البَيْتَ»، ولما سأله عن الإيمان قال: «أَنْ تُؤمِنَ بَالله ومَلَائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالْقَدرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، أما إذا أطلق إي إذا أُفرِد أحدهما فإنه يشمل الآخر، فالإسلام إذا ذكر وحده شمل جميع الشرائع ومنها الإيمان، والإيمان إذا ذكر وحده شمل جميع الشرائع ومنه الإسلام.

قال: ﴿أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال: [من هذه الأمة]، لماذا قيد الآية مع أنها مطلقة؟ أول المسلمين، قيدها؛ لأنه رحمه الله، فهم أن الأولية هنا أولية الزمن، وإذا كانت أولية الزمن فإنه لا يصح أن يكون النبي ﷺ أول المسلمين، لماذا؟؛ لأن قبله أممًا مسلمة كثيرة، فكان لابد أن يقيد هذا بأول المسلمين من هذه الأمة، ومنه قوله تعالى في (سورة الأنعام): ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، على ما مشى عليه المؤلف من الفهم نقول: وأنا أول المسلمين من هذه الأمة.

هناك احتمال آخر أن الأولية هنا أولية الصفة، يعني: أنني أسبق المسلمين من حيث التقدم إلى الإسلام، كما تقول مثلًا لمن يخاطبك إن كان هذا الذي قُلتَه حقًا فأنا أول من يساهم، مثلًا لو قال أنه فتح مشروعًا في البلد الخيري، فقلت: إذا كان حقًا فأنا أول من يساهم، يعني: أول من حيث الانقياد والصفة، هذا فيه احتمال، وإذا كان هذا المعنى في الآية الكريمة فإننا لا نحتاج إلى القيد الذي قاله المؤلف لأننا نعلم أن رسولنا ﷺ، هو أول من ينقاد إلى الله تعالى وأنه أعظم الناس انقيادًا وأشدهم.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر:١٣].

التفسير

لماذا ﴿عَذَابَ﴾ مفعول لـ ﴿أَخَافُ﴾، وليست مفعولًا لعصيت؟ لأن العذاب لا يُعصَى.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾، الخوف: لا يمكن أن نُعرِّفه بأبين من لفظه، كلٌ يعرف الخوف، ولهذا نقول: إنَّ الانفعالات النفسية لا يمكن لأحد أن يعرفها، لأنها ليست أبين من لفظها، لو قال

إنسان عرف لي الكراهة، ماذا أقول؟ الكراهة هي الكراهة، عرف لي المحبة، المحبة هي المحبة، ولهذا يقول ابن القيم في «روضة المحبين»، والله أعلم هي له أو لا؟ يقول: (لا يمكن أن نحد المحبة بأبين من لفظها أبدًا، كلّ الذين عرفوها، فيها أكثر من عشرين تعريف، كلهم إنما يفسرونها بلوازمها ونتائجها،) وصدق رحمه الله حين قال: (الانفعالات النفسية لا يستطيع الإنسان أن يعرفها بأكثر من لفظها)، أخاف لو تسأل صبيًا لا يعرف التعريفات تقول له ما معنى الخوف؟ يقول: الخوف أني أرتعش أنتفض، لا يمكن، هذا من آثاره، الخوف أن أهرب، هذا من آثاره، إذن نقول الخوف معروف هو الخوف قال تعالى: ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾، المعصية معناها: المخالفة، وتكون بأمرين: إما بترك مأمور، وإما بفعل محذور، هذا إذا أُفرِدَت عن الطاعة، فإن قُرِنَت بالطاعة صارت الطاعة فعل المأمور، والمعصية ارتكاب المحذور.

هنا نقول: عصيت: مفردة عن الطاعة، فماذا يكون معناها؟ تشمل المعنيين: مخالفته؛ عصيت ربي أي خالفته بفعل المنهي عنه.

أو بترك المأمور به.

وفي قوله: ﴿رَبِّي﴾، إشارة إلى أنه عز جل هو الذي له الأمر والنهي، لأنه رب، والرب خالق مالك مدبر.

وقوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، وصفه الله تعالى في كتابه الكريم بعدة أوصاف، منها العظم: وذلك لشدته، وشدة أهواله، وشدة ما يكون فيه، وإذا سمعت الأوصاف التي ذكرها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لهذا اليوم العظيم، فإنه لا شك يعتريك من الخوف بقدر ما أنت مؤمن به، كلما كان الإنسان أقوى إيمانًا واليوم الآخر، كان منه أشد خوفًا، وكلما ضعف إيمانه باليوم الآخر، ضعف خوفه منه، ولهذا لدينا عبارة مشهورة، (كل من كان بالله أعرف كان منه أخوف)، وكل من كان أيضًا باليوم الآخر أعرف وأقوى إيمانًا كان أقوى مخافة.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤]

التفسير

في الأول قال: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أمر، في الثاني أَمَره أن يُعلِن بأنه مخلص لله الدين، ففي الأول يفعل هو، يعبد الله مخلصًا له الدين، في الثاني أُمِر أن يُعلِن للملأ أنه يخلص، وإعلانه أنه

مخلص يعني أنه متبرئ من شركه لأنه مخلص لله.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ﴾ إعراب اسم الجلالة: مفعول به لأعبد، قل الله أعبد، قدم المفعول به للحصر، يعني لا أبد غيره، ونظيره من حيث الترتيب مثل قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فقدم المفعول به، هنا ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ﴾ قدم المفعول به لإفادة الحصر، ثم أكد هذا أيضًا بقوله: ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ يعني لا أعبد غير الله، وفي عبادتي له أيضًا أكون مخلصًا له، لا يشوب عبادتي إياه شيءٌ من الشرك.

وقوله: ﴿دِينِي﴾ يعني عملي، قال المؤلف: من الشرك، إذا جمعت بين الآيتين، الآية الأولى وهي قوله: ﴿إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ والثانية عرفت شدة امتثال الرسول ﷺ لربه، وأنه عبد الله مخلصًا له الدين، وأعلن ذلك للملأ، غير مبال بمخالفته.



قال الله تعالى:

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥].

التفسير

﴿فَٱعۡبُدُواْ﴾: هذا يَحْتَمِل أن يكون تهديدًا ويَحْتَمِل أن يكون تحديًا، المؤلف يقول: إن فيه تهديدًا، ويمكن أن يكون تحديًا ظاهرًا، أمّا كونه تهديدًا فظاهر، فاعبدوا ما شئتم من دونه؛ لأنه قال بعده: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ إلى آخره، وأما كونه تحديًا؛ فلأنه لما ذكر أنه يعبد الله وحده مخلصًا تحداهم، قال: أنا لا أبالي أنتم اعبدوا ما شئتم، وأنا لا أبالي بكم فسوف لا أشرك بالله، سوف أعبد الله وحده مخلصًا، والقاعدة عندنا في التفسير أنه إذا كانت الآية تحتمل معنيين لا يتنافيان، يحمل عليهما جميعًا.

قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ يعني: الذي شئتم، من دونه: يعني: من سواه، اعبدوا ما تشاءون من سواه، ملك، ولي، شجر، حجر، شمس، قمر، أي شيء، يقول المؤلف: [من دونه: من غيره]، أي سواه، [فيه تهديد لهم وإيذانٌ بأنهم لا يعبدون الله]، إيذان: يعني إعلان، يعني هذه الجملة فيها التهديد، وفيها أنهم لا يعبدون الله وإنما يعبدون غيره، قل: يعني قل لهم مع تحديك إياهم وتهديدك إياهم، ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، الجملة فيها تأكيد، وفيها حصر، أين التأكيد؟ إن الخاسرين، والحصر: أن طرفي الجملة مَعْرِفَتان: الخاسرين الذين خسروا، فكأنه قال: إن الخاسرين هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، فإذن فيها، تأكيد وحصر.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ مَنْ الخاسِر؟ الخاسر بيَّنه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر:٢، ٣] يعني: الخُسران ضد الربح؛ وذلك أن المُعَامِل إما أن يَأْخُذ رأس ماله، وإما أن يخسر فيأتيه أقل من رأس ماله، وإما أن يربح، فيأتيه أكثر، الخسران الحقيقي ما ذكره الله هنا، في قوله تعالى: ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هؤلاء هم الذين خسروا، ليس الخاسر من فقد ملايين الدراهم، وليس الخاسر من فقد أهله في الدنيا، وليس الخاسر من فقد نفسه في الدنيا، ولكن الخاسر من خسر نفسه وأهله يوم القيامة، يقول: [بتخليد الأنفس في النار، وبعدم وصولهم إلى الحور المعدة لهم في الجنة لو آمنوا]، قوله: [بتخليد الأنفس في النار]، هذا بيان لخسرانهم أنفسهم، لأنهم خسروا أنفسهم في الحقيقة، ما وجه الخسران؟ وجه الخسران: أن حياته في الدنيا لم يستفد منها في الآخرة، إطلاقًا، فخسر نفسه، خسر عمره كله راح هباءً منثورًا، لو أنه مؤمن مخلص لاستفاد، لكانت كل حياته الدنيا ربح؛ لأنه سوف يخلد في الجنة التي فيها (ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)، أما الآن فسيُخَلَّد في النار، هذه خسارة النفس.

خسارة الأهل: فسرها المؤلف بأنه يفوته الحور العين في الجنة لو آمن، وهذا وإن كان له وجه، لكنه بعيد عن الصواب، وذلك؛ لأن الحور في الجنة لم تكن أهلاً له، حتى يقال: خسرها، وإنما المراد خسروا أهليهم؛ لأن أهليهم إن كانوا مؤمنين فَهُمْ في الجنة ولن يجتمعوا بهم، وإن كانوا كفارًا فهم في النار ولن يجتمعوا بهم أيضًا، ولو كانوا مؤمنين وذريتهم مؤمنة لكانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، يعني: لن يجتمع أحد مع أهله في الآخرة إلا إذا كان هو وهم مؤمنين، فسيجتمعون اجتماعًا لا فراق بعده، أما من لم يكن كذلك، فلا اجتماع، فالصحيح أن المراد بأهليهم: يعني أهليهم الذين في الدنيا حيث خسروا الاجتماع بهم في الآخرة، ووجه الخسران: لأن الأهل في الجنة وهؤلاء في النار، وإن كانوا كافرين، فكذلك لن يلتقوا بهم، لأن كل واحد مشغول بنفسه.

قوله تعالى: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ ﴿أَلَا ذَٰلِكَ﴾: تأكيد، ﴿أَلَا﴾ أداة استفتاح، والفائدة منها: التوكيد والتنبيه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة للبعد، لأنه خسران سحيق والعياذ بالله، يعني لم يقل ألا هذا، مع أن ذكره قريب، لكنه خسران صحيح، فأشير إليه إشارة البعد، ثم حُصِر، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ﴾ يعني: لا غيره، ثم أُكِّد بفداحةِ قال ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ أي البيِّن الذي لا يَخْفَى على أحد، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الرابحين.

قوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ﴿عَذَابَ﴾ مفعول به لأخاف، ما المراد باليوم؟ اليوم الآخر.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾:

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** أن الإنسان مأمور بأن يُعْلِن ما أَمَرَ الله به من عبادته، في قوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** الحث على اتباعه في هذا المأمور به.

٣ـ ومنها أيضًا: بيان استحقاق الله سبحانه وتعالى لذلك، وأنه هو المستحق لأن يعبد وحده.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه يجب في العبادة الإخلاص؛ لأنه أُمِرَ بأن يعبد الله على هذا الوصف، ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها:** أن من لم يخلص لم يكن قد أتى بالأمر، ويتفرع على هذه القاعدة أن عمله يكون مردودًا عليه، إذا أشرك يكون قد عمل عملًا ليس عليه أمر الله وأمر رسوله، وقد قال النبي ﷺ «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[1].

قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾:

١ ـ **من فوائد الآية الكريمة:** أنه يجب المبادرة بالإسلام من غير توقف؛ لأن الله أمر بذلك، وهذا بناءً على أن المراد بالأولية هنا: أولية الصفة، يعني: السبق.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن الرسول ﷺ، عبد مأمور، ويتفرع على هذا أنه ليس له من الأمر شيء، وقد صَرَّح الله بذلك في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨]، ويتفرع عليه أيضًا ضلال أولئك القوم الذين يدعون رسول الله ﷺ أن يغيثهم، أو أن يجلب لهم الخير ويدفع عنهم الشر.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾:

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** أنه يجب على الرسول ﷺ، أن يعلن هذا الإعلان للملأ أنه يخاف عذاب يوم عظيم إن عصى الله، وفائدته كما ذكرنا قبل قليل من أجل التأسي به في ذلك، ومن أجل بيان عظمة الله، وأنه مستحق لأن يخاف منه.

٢ ـ **ومن فوائدها:** إثبات اليوم الآخر، لقوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهل يمكن أن يستفاد منها أن النبي ﷺ تجوز عليه المعصية؟ نعم، لقوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ﴾ ولكن قد يقول قائل في هذا نظر، لأن الشرط قد يتحقق وقد لا يتحقق، وقد يكون تحققه ممتنعًا مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]، وقوله تعالى لرسوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥، ٦٦]، إذن هذه الفائدة فيها نظر؛ لأن قوله إن عصيت،

---

(١) رواه مسلم (١٧١٨)، وأحمد في مسنده (٢٥١٧١) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

لا يدل على أن المعصية تقع منه، لكن على فرض أن تقع، فإني أخاف.

وقد يقول قائل: إن كونه يخاف أمر محقق، إني أخاف، وإذا كان الأمر محققًا فإن المعلق عليه وهو المعصية يكون كذلك، أي يمكن أن يكون، يعني: معنى أنني إن عصيت فإني وعلى كل حال فإن الرسول ﷺ، أنه كان يدعو الله أن يغفر له ذنبه ـ أوله وآخره ـ كان يقول: «**أللهُم بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خطَايَايَ، اللهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ، اللهُمَ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ**»[1].

٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** تعظيم يوم القيامة، وأنه يوم عظيم، ويتفرع على هذا أنه ينبغي للعاقل أن يحذر منه.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز وصف غير الله بالعظم، لقوله تعالى: ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وقد قال الله تعالى عن ملكة سبأ: ﴿شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، ووصف الإفك بأنه عظيم، إلى غير ذلك، فَوَصْفُ غير الله بالعظم لا بأس به، لكن العِظَمُ المطلق إنما يكون لله عز وجل.

ثم قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾:

١ـ **يستفاد من هاتين الآيتين:** أنه ينبغي للإنسان أن يعلن بالحق الذي هو عليه، ولا يبالي بمن خالفه، لقوله: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾، يعني: فلا أبالي بكم، أنا سأعبد الله وأسير على الطريقة المستقيمة، وأنتم سيروا على ما شئتم.

٢ ـ **ومن فوائد الآيتين:** أن النبي ﷺ، من أشد الناس امتثالًا لأمر الله؛ لأنه قال فيما سبق: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾، ثم قال هنا: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾.

٣ ـ **ومن فوائد الآيتين:** أن النبي ﷺ، محتاج للعمل الذي ينجيه من عذاب الله، لقوله تعالى: ﴿مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾، بالياء بالإضافة، وهو كذلك، ولما حدَّث أصحابه بأنه «**لن يدخل الجنة أحد بعمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِه**»[2].

٤ ـ **ومن فوائد الآيتين:** تحريم عبادة غير الله، تؤخذ من قوله جل وعلا: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾؛ لأن ذكرنا أن الأمر هنا للتهديد، ولا تهديد إلا على شيء مخالف ومعصية.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، بيان أن الخسارة الفادحة التي ليس معها ربح هي خسارة هؤلاء الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وفيه الإشارة في الآية هذه، الإشارة إلى أن الشرك هو سبب هذه الخسارة؛ لأنه تلا قوله عز وجل: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾.

٦ ـ **ومن فوائدها:** أن أهل الشرك يوم القيامة لا يجتمعون بأهليهم لقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ

---

(١) رواه البخاري (٧١١)، ومسلم (٥٩٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٠٩٨)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَأَهْلِيهِمْ﴾.

٧ـ ومنها: أن عمر الإنسان حقيقة هو ما أمضاه في طاعة الله، ولهذا وصف الله هؤلاء بأنهم قد خسروا أنفسهم؛ لأنهم لم يعملوا خيرًا.

٨ ـ **ومن فوائد الآية:** أن هذه الخسارة أعظم خسارة تكون، لقوله: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.



قال الله تعالى:

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر:١٦].

التفسير

﴿لَهُم﴾: الضمير يعود على الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة وهم الكفار في قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، من فوق رؤوسهم، وكلمة ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾: تدل على أن هذه الظلل محيطة بهم، وقوله: ﴿ظُلَلٌ﴾: قال المؤلف: [طباق من النار]، وهذه الطباق من النار لا نعلم كيفيتها، لا نعلم هل هي حديد محمى أو حجارة أو غير ذلك، لكن إذا تأملنا قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦] فقد نقول: إنها من الحجارة، وليست أيضًا كحجارتنا، بل هي حجارة لا تُعلم كيفيتها.

وقوله: ﴿ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، أي: من النار، كما قال المؤلف، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:٤١]، أي: شيء يغشاهم يغطيهم، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ ذلك: أي المشار إليه من ذكر هذه الظلل، يخوف الله به عباده، به: الضمير يعود على العذاب المذكور، والباء للسببية، أي يُخَوِّف بسببه، ويجوز أن تكون للتعدية، أي يُخَوِّف به نفسه، ﴿عِبَادَهُۥ﴾: قال المؤلف: [أي المؤمنين ليتقوه]، يدل عليه، ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾، المؤلف رحمه الله سلك في تفسير الآية أن المراد بالعباد هنا شيء خاص، وهم المؤمنون، مع أن ظاهر الآية العموم، وأن المراد بالعباد هنا من يتعبدون لله بالمعنى العام، وهي العبودية الكونية، لأن العبادة نوعان:

عبادة يتعبد الإنسان لله بالشرع، وهذه خاصة بالمؤمنين.

وعبادة: يعني يتعبد الإنسان لله بالكون، أي يكون عبدًا لله كونًا وقدرًا، يفعل الله فيه ما يشاء، وهذه عامة، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]

فهل المراد بالآية هنا العبادة العامة؟ وأن الله يوجه الخطاب إلى جميع العباد، جميع الناس أن يتقوه؟ أو هي خاصة؟ يرى المؤلف رحمه الله أنها خاصة، ولكن لا دليل على ذلك، وإذا لم يكن هناك دليل فالأولى إبقاء النص على عمومه، فكما أن المؤمن يخوف بهذا الوعيد، فكذلك الكافر، الكافر أيضًا يخوف، بل إن تخويف الكافر أَوْكَدُ من تخويف المؤمن؛ لأن مع المؤمن ما ينجيه من الخلود في النار، لكن الكافر ليس معه ما ينجيه من الخلد في النار، إذن المراد بذلك العموم أم الخصوص؟ العموم، ووجهه أن هذا هو ظاهر النص، ثانيًا: أن الكافر أولى أن يخوف من النار من المؤمن، لأن مع المؤمن ما ينجو به من الخلد في النار، وليس مع الكافر شيء ينجو به، فكيف نصرف التخويف عمن هو أحق بالتخويف؟ إذن فالصحيح أن المراد بالعباد العموم، يعني يخوف الله بهذا العذاب جميع الناس.

ثم وجه الله الخطاب إلى الناس عمومًا فقال: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾، ﴿يَٰعِبَادِ﴾ يعني: جميع العباد، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ [لقمان:٣٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء:١]، والآيات كثيرة في توجيه الأمر بالتقوى إلى جميع الناس، والكافر محتاج إلى التقوى كما أن المؤمن كذلك، فقول المؤلف يدل عليه: فيه نظر، ففي حكم المؤلف نظر، وفي الاستدلال لهذا الحكم نظر.



قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر:١٧].

التفسير

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ﴾: أي ابتعدوا عن الطاغوت؛ لأنه مأخوذ من الجَنْب، وهو الشيء المنفصل عن الشيء، تقول إلى جانبي فلان أي أنه منفصل، غير متصل في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾: (الطاغوت): اسم من الطغيان، والتاء فيه للمبالغة، فما هو الطاغوت الذي اشتق من الطغيان؟ يقول (ابن القيم) ـ رحمه الله ـ: (الطاغوت) كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، ما تجاوز به حده: من أجل أن يصدق عليه أنه طغيان من معبود أو متبوع، أو مطاع، فمثلًا الأصنام التي يعبدها الكفار تسمى طواغيت، والمتبوعين من العلماء طواغيت، والمطاعين من الأمراء كذلك أيضًا طواغيت، لكنه ليس على ظاهره، أي كلام (ابن القيم)، مراده بالمعبود الذي لا إرادة له، كالأصنام من الجمادات، أو المعبود الذي رضي بعبادته وأما المعبود الذي عُبِد وهو لايرضى بالعبادة، فلا يسمى طاغوتًا، ولهذا لا يمكن أن نسمي عيسى ابن مريم طاغوتًا، وكذلك

أيضًا المتبوع، العلماء الذين لا يرضون أن يعبدهم الناس ليسو طواغيت، المطاع أيضًا، الأمراء الذين لا يَرْضَوْن أن يعبدهم الناس لا يُسَمَّوْن طواغيت، فكلام ابن القيم ليس على إطلاقه، ويمكن أن نقول إن قول ابن القيم: ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، أنه عائد على العمل، أي أن الطاغوت عمل الإنسان في معبوداته، أو من يطيعهم أو من يتَّبِعُهُم، يعني معصية الله في طاعة هؤلاء، فيكون الوصف بالطغيان عائدًا على الفعل لا على المفعول، وحينئذٍ نَسْلَم من الإشكال الذي قلنا: إنه لابد أن يقيد المعبود والمتبوع والمطاع بأنه راضٍ.

على كل حال إن الطاغوت مأخوذ من الطغيان وهو مجاوزة الحد، والصيغة فيه صيغة مبالغة، قال المؤلف: [الأوثان]، ففسر الطاغوت بالمعبودات، يعني الأوثان ولهذا قال: ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ (أَنْ) هذه مصدرية، وتأويل المصدر بعدها منصوب على أنه بدل من الطاغوت، من أيِّ أنواع البدل؟ بدل اجتماع: ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ في محل نصب بدل من الطاغوت، وقوله: ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ هم يعبدون الأصنام بدعائهم، ولكنهم يدعون أنهم لا يعبدونها إلا لتقربهم إلى الله.

ثم قال: ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

﴿وَأَنَابُوٓاْ﴾: أقبلوا إلى الله، والإنابة تكون بمعنى الإقبال كما قال المؤلف، وتكون بمعنى الرجوع، رجعوا إلى الله، والرجوع إلى الله يستلزم الإقبال عليه؛ لأن الإنسان يفر بالمعصية بعيدًا عن الله، فإذا تاب وأناب ورجع إلى الله، فهو مقبل في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ الجملة هذه خبرية، قدم فيها الخبر لهم لإفادة الحصر، لأن ما كان حقه التأخير إذا قدم أفاد الحصر.

وقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ الجملة هذه خبر الذين، الذين اجتنبوا الطاغوت لهم البشرى، فتكون هذه الجملة في موضع رفع على الخبر، فما هي البشرى؟ البشرى ما تحصل به البشارة، والبشارة هي في الأصل الخبر السار، وسُمِّي الخبر السار بشارة لأنه يَظْهَر أثره على البشرة، التي هي الجلد، فإن الإنسان إذا أخبر بما يسره استنار وجهه وتغير فسميت بشرى، وقول المؤلف: [الجنة]، هذا لا شك أنه مما يدخل في البشرى، لكنه أعم مما قال المؤلف، كما قال تعالى ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ [يونس:٦٣] فمن البشرى: الرؤية الصالحة، يراها الإنسان لنفسه، أو يراها له مؤمن، فإن هذه من البشرى، كما قال النبي ﷺ:«تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ[1] الرُّؤْيَةُ الصَّالِحَةُ يَرَاهَا أَوْ تُرَى لَهُ»[2] مثل أن يرى من يُبَشِّر بالجنة، أن يرى أنه في نعيم، وما أشبه ذلك،

(١) قال العلماء معناه هذه البشرى المعجلة له بالخير وهي دليل البشرى المؤخرة إلى الآخرة بقوله بشراكم اليوم جنات الآية وهذه البشرى المعجلة دليل على رضا الله تعالى عنه ومحبته له فيحببه إلى الخلق.

(٢) رواه مسلم (٢٦٤٢)، وابن ماجه (٤٢٢٥)، وأحمد فى مسنده (٢١٤١٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه.

ومن البشرى أيضًا أن يُوَفَّق للعمل الصالح.

إذا رأيت الله سبحانه وتعالى وفقك للعمل الصالح المبني على الإخلاص والمتابعة للنبي ﷺ، فإن هذه من البشرى، ومن البشرى أيضًا أن يوفقك الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لمصاحبة الأخيار، فإن المرء على دين خليله كما جاء في الحديث «فَلْيَنْظُرْ أَحَدَكُمْ مَنْ يُخَالِلْ»[1] فإذا وجدت الله وفقك لمصاحبة الأخيار فإن هذا عنوان على السعادة، ومن البشرى أيضًا أن يحب الإنسان من يحبه الله، فإن النبي ﷺ، سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال الرسول ﷺ «مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُم»[2] قال (أنس بن مالك) رضي الله عنه: (ما فرحنا بعد الإسلام بشيءٍ أحب إلينا من هذا الحديث)، ثم قال: فأنا أحب النبي ﷺ، وأحب أبا بكر وعمر، فهذا من البشرى، المهم أن البشرى كل خبر سار، فيشمل ما قاله المؤلف: [الجنة] وهي الغاية لكل إنسان، ويشمل ما كان علامة على ذلك لهم البشرى.

قوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر:١٧]، أمر الله النبي ﷺ، أن يبشر عباد الله، يبشرهم بماذا؟ يبشرهم بالجنة وبكل ما يسرهم حتى في الدنيا، المؤمن مسرور دائمًا وإن أصيب ببلاء فإنه مسرور، لأنه إذا أصيب بالبلاء فصبر كان خيرًا له.

قوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾، الدال مكسورة، مع أنها مفعول به، لماذا؟؛ لأن أصلها: عبادي، فحذفت الياء للتخفيف، كما في قوله تعالى ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١] أي من والي، وإن كانت الياء في من (وال) غير التي في عبادي، لأن من (وال) أصل الكلمة، وأما هنا فهي كلمة أخرى الياء.

وقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ من المراد بالعباد هنا؟ المراد خصوصية العبودية، أي عباد الله الصالحين، لا كل عبد، ثم بين من صفاتهم.



(١) حسن: رواه أبوداود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأحمد في مسنده (٨٣٩٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٤٥).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر، وفي معناه ما رواه البخاري (٥٨١٧)، ومسلم (٢٦٤٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال يا رسول الله كيف تقول في رجل أحب قوما ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم (المرء مع من أحب).

قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:١٨].

التفسير

هذه من علامات عباد الله عز وجل، أنهم لا يضيعون الفرص،﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾: أي يصغون إليه، ولم يقل يسمعون؛ لأن الاستماع هو متابعة المتكلم والإنصات إليه، بخلاف السماع، نضرب مثلًا لرجل مر بقارئٍ يقرأ فسمعه يقرأ، ورجل آخر مر برجل يقرأ فجلس إليه ينصت، الأول: سامع، والثاني: مستمع، ولهذا قال العلماء بناءً على هذا الفرق: إذا قرأ القارئ آية فيها سجدة وسجد فإن السامع لا يسجد والمستمع يسجد؛ لأن المستمع متابع، والسامع ليس بمتابع، إذن هؤلاء يستمعون القول لا يضيعون الفرصة، والمراد بالقول؟ القول: (ال) هنا للعهد، وتشبه أن تكون للعهد الذكري لقوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾، أي: أنهم يستمعون القول الحسن، ليس كل قول، فـ (ال) هنا: نقول إنها للعهد، ويشبه أن تكون للعهد الذكري لقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿أَحْسَنَهُۥٓ﴾، إذن ما المراد بالقول هنا؟ القول الحسن، أما اللغو أو السيء، فإن الله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥] فإذا كانوا يعرضون عن اللغو؛ لأنه لا فائدة فيه، فالمحرم من باب أولى، إذن هؤلاء قوم عندهم حزم عندهم شح في الوقت، لا يستمعون إلا إلى القول الحسن، لكنا نعلم أن الحسن فيه ما هو أحسن وما هو حسن، فما الذي يتبعون؟ يقول الله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ فمثلًا إذا سمعوا الترغيب في صلاة الليل، وأن أكثرها ـ مثلًا ـ إحدى عشرة ركعة، وأدناها ركعة واحدة ما الذي يتبعون؟ الإحدى عشر؛ لأنها أحسن، إذا سمعوا الإنفاق في طلب العلم، والإنفاق على فقير دون وجود ضرورة ماذا يتبعون؟ على طلب العلم؛ لأنهم يتبعون الأحسن، إذن لم يفرطوا في الوقت، ولم يفرطوا في الأفضل، بل كانوا يستمعون كل قول حسن، ويتبعون الأحسن منه، إذن فإن تبعوا الحسن وتركوا الأحسن، فإنهم لا يلامون على ذلك، لكنهم ليسوا في قمة الكمال، الذي في قمة الكمال هو الذي يتبع الأحسن.

قال الله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ وهو ما فيه صلاحهم، ما فيه صلاحهم لكن الأصلح، يتبعون الأصلح فالأصلح.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الإشارة للبعيد، وإنما أشار إليهم إشارة البعيد مع قرب ذكرهم للدلالة على علو منزلتهم، وهذا يقع كثيرًا في القرآن، يشير الله إلى الشيء القريب بصيغة البعيد لعلو مرتبته، كما قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١، ٢]، مع أنه يقول: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، الكتاب قريب، لكن إشارة لعلو مرتبته، أحيانًا يشير به للقريب لقربه من مريده، كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩] يعني: ليس بعيدًا عليهم، قريب لهم، ﴿مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هنا يقول ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أشار إليهم إشارة البعيد إشارة إلى عُلُوِّ مرتبته.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ هذه الجملة خبرية طرفاها معرفة، وقد قال العلماء: إن الجملة الخبرية إذا كان طرفاها معرفة فإنها تفيد الحصر، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني لا غيرهم، وقوله: ﴿هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾، يشمل هداية الدلالة وهداية التوفيق، يعني بين لهم الحق، وعلموه ثم اهتدوا به.

والناس في هذا المقام ثلاثة أقسام: قسم ضلوا عن الهدى علمًا وعملًا.

قسم: هدوا إلى الحق علمًا وعملًا.

وقسم: هدوا إلى الحق علمًا ولم يهتدوا إليه عملًا، هل يمكن أن أقول وقسم اهتدوا إلى الحق عملًا ولم يهتدوا إليه علمًا؟ لا يمكن لماذا؟ لأنه لا عمل بالحق إلا بعلم بالحق، فالقسمة رباعية لكن الطرف الرابع منها غير واقع، ممتنع، إذن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾، هداية دلالة وتوفيق، يعني وإن شئت فقل هداية علم وعمل، أيهما الدلالة؟ العلم، والتوفيق: العمل، أولئك الذين هداهم الله.

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ كرر اسم الإشارة تنويهًا بِعُلُوِّ مرتبته، في قوله: ﴿هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أصحاب العقول؛ لأن الإنسان كلما كان للحق أتبع كان أكمل عقلًا، وكلما نقص اتباع الحق في حقه كان أدل على قلة عقله، فأعقل الناس أتبعهم لدين الله، لا شك، لأنهم هم الذين عندهم الحزم وانتهاز الفرص، وحفظ الوقت، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أصحاب العقول.

ولكن إن قال قائل: أليس الكفار ذوي عقل؟ الجواب: بلى، لكنهم ذوو عقلٍ إدراكي، لا عقلٍ رشدي، ولهذا كانوا مكلفين ملزمين؛لأن عندهم عقل إدراك لكنهم غير موفقين، لأنهم فقدوا عقل الرشد.

الفوائد

١ - **من فوائد هذه الآية:** شدة العذاب على أهل النار؛ لأن العذاب يغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وإذا كان الإنسان لا يتحمل النار إذا أتته من وجهٍ ولو بعيد، فكيف إذا أتته من

الوجهين الفوق والتحت.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه يجب على الإنسان أن يخاف مما خوفه الله، حتى يحقق العبودية، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي للإنسان أن يسير إلى الله - عزَّ وجلَّ - على جانب من الخوف، الخوف من العذاب.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله - عزَّ وجلَّ - رب كل شيء، وأن كل شيء فهو عابد لله لقوله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب التقوى، لقوله تعالى ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر:١٧].

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** الثناء على مجتنب الطاغوت.

٢ - **ومن فوائدها:** أن لهم هذا الثواب العظيم، لقوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** أن التوحيد لا يتم إلا باجتناب الطاغوت والإخلاص لله، لقوله - جل وعلا -: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** أن الذين اتصفوا بهذه الصفة اجتناب الطاغوت، والإنابة إلى الله هم أهل البشرى؛ ولم يبين الله وقت البشرى فهو شامل للبشرى في الدنيا وفي والآخرة.

٥ - **ومن فوائدها:** حرمة من أشرك بالله من هذه البشرى؛ لأنه جعل البشرى لمن اجتنبوا الطاغوت، أن يعبدوها وأنابوا إلى الله.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات العبودية الخاصة، لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾، والعبودية الخاصة تكون منقسمة إلى خاصة أخص، وإلى خاصة ليست أخص، فالمؤمنون جميعًا كلهم عباد الله، والرسل عبوديتهم أخص، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، هذه من الخاصة أو الأخص؟ الأخص، وفي قوله تعالى:﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [ص:٤٥]، هذه من العبادة الأخص.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن عباد الله حريصون على استماع ما فيه المصلحة والمنفعة، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** أن هؤلاء السادة لا يضيعون وقتًا حتى إنهم يستمعون إلى عمل غيرهم، وهو قول غيرهم، فكيف بعملهم أنفسهم! لابد أن يكونوا قائمين به.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن عباد الله - عزَّ وجلَّ - الذين وصفهم الله بما ذكر، يأخذون من القول بأحسنه، لقوله ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء القوم هم الذين هداهم الله، لقوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ ويتفرع على هذه القاعدة: أنك إذا رأيت من نفسك الحرص على استماع قول الخير واتباع أحسنه، فاعلم أن هذا من هداية الله لك؛ لأنه قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾، وإذا رأيت من نفسك كراهة الاستماع إلى القول الحسن، فاتَّهِم نفسك؛ لأن الله جعل الهداية في هؤلاء القوم، فإذا لم يحصل لك هذا فاتَّهِم نفسك، صحح الخطأ، أَقْبِلْ على الله عز وجل.

١١ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن أفعال العباد واقعة بتقدير الله، وأنهم لا يَسْتَقِلُّون بها، من أين تؤخذ؟ قوله: ﴿هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾، ولهذا ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن أفعال العباد مخلوقة لله مرادة له، خلافًا لمن قال: إن أفعال العباد ليست مرادة لله ولا مخلوقة له، وهم القدرية مجوس هذه الأمة.

١٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان مِنَّةِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على هؤلاء الذين وفقوا إلى استماع القول واتباع أحسنه، يعني إظهار مِنَّةِ الله عليهم في قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾.

١٣ ـ **ومن فوائدها:** أنه يجب عقلًا أن تَحْمَدَ الله سبحانه وتعالى إذا هداك إلى مثل هذا؛ لأنك إذا علمت أن الهداية من الله فالعقل يقتضي أن تَحْمَدَه وأن تشكره، وهذه النعمة أبلغ من الإنعام بالأكل والشرب؛ لأن الأكل والشرب كلٌّ يأكل ويشرب حتى البهائم، لكن الهداية ما كل أحد يهتدي، فإن أنعم الله على الإنسان بالهداية العلمية والعملية أعظم من إنعامه عليه بالأكل والشرب.

١٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن المتمسكين بدين الله المُتَّبِعين لأحسن القول هم أصحاب العقول، من المتعارف عند الناس الآن أنهم إذا رأوا إنسانًا ذكيًا متأنيًا في الأمور، يقولون: هذا عاقل، ما شاء الله عاقل، ولو كان من أفجر الناس، والحقيقة أننا نقول: العاقل من وفقه الله تعالى للعلم والعمل، ولو كان من أبلد الناس، باعتبار الذكاء.

١٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أنه لا تلازُم بين الذكاء والعقل، الذكاء شيء والعقل شيء آخر، حتى في عقل الإدراك؛ لا تلازم بين الذكاء وعقل الإدراك؛ لأن من الناس من تجده ذكيًا شديد الملاحظة يفهم الشيء بسرعة ويُعْطِي الجواب بسرعة، لكنه في التصرف أحمق ليس عنده عقل، ومن الناس من يكون بالعكس عنده شيء من البلادة ولكنه في التصرف عاقل متأني، ولكن أعقل الناس أطوع الناس لله، لا شك، ولهذا قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ :

١ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الإشارة إلى انقسام الناس إلى قسمين: مُوَفَّق ومُخْفِق؛ لأن قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، يدل على أن هناك قسمًا آخر، وهم الذين لم يُوَفَّقوا ولم يهدهم الله، والأمر كذلك، كذلك الآية أشارت إلى هذا والواقع يشهد لذلك، فإن قال قائل: لماذا لم يجعل الله سبحانه وتعالى الناس على دين واحد، أمة واحدة؟ قلنا: لأن هذا

ينافي الحكمة، قال الله تعال:ى ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٨، ١١٩] ،لو لم يوجد هذا الانقسام ما مُلِئت النار، بل وما دخلها أحد، لو لم يوجد هذا الانقسام ما عَرَف الإنسان قدر نعمة الله عليه بالإيمان والعمل الصالح، لو لم يوجد هذا الانقسام ما مُدِح من آمن وعمل صالحًا، لماذا؟ لأن الناس هكذا ما يستطيع أن يَخْرج عما عليه الناس، لو لم يوجد هذا الانقسام لم يكن هناك سوق للجهاد، لأنك لا يمكن أن تجاهد من هو مِثْلُك في الإيمان والعمل الصالح، لو لم يوجد هذا لم يقم سوق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لو لم يوجد هذا لم يقم سوق الدعوة إلى الله، إلى غير ذلك من المصالح الكثيرة التي تفوت بفوات هذا الانقسام، أما من حيث القدرة الإلهية فإن الله قادر على أن يجعل الناس أمة واحدة على الدين الحق، ولكن الحكمة الإلهية تأبى ذلك، وقد علمتم شيئًا من كثير كثير من حكمة تفرق الناس إلى مؤمن وكافر.



۞ قال الله تعالى:

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر:١٩، ٢٠]

۞ التَّفْسِيرُ ۞

ما هي كلمة العذاب؟ قال المؤلف: [هي قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] هذا ما ذهب إليه.

الهمزة هنا: للاستفهام، ويحتمل أن المراد به الاستفهام الحقيقي أو أن المراد به الإنكار، يعني النفي، وقوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ﴾ أي: وجب عليه، وذكر الفعل مع أن الكلمة مؤنث لوجهين: الوجه الأول: أن تأنيث ﴿كَلِمَةُ﴾، تأنيث مجازٍ، والثاني: أنه منفصل عن عامله، ولا يجب تأنيث الفعل، إلا إذا كان الفاعل مؤنثًا حقيقيًا متصلًا، كما قال ابن مالك:

وإنما تلزم فعل مضمر ... متصلٍ أو مفهم بنت ذا حر

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: وجب عليه كلمة العذاب، وهي أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، أو كما قال المؤلف: ﴿رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] ، والأول أظهر.

وقوله تعالى: ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾، يعني: الكلمة التي يستحقون بها العذاب، وهي أن كل من خالف أمر الله، فإنه مستحق للعذاب.

قال الله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، أفأنت: الخطاب للرسول ﷺ، يعني: هل تنقذه إذا حقت عليه كلمة العذاب؟ والجواب: لا، وإذا كان جواب الاستفهام (لا) فهو علامة على أن الاستفهام للنفي.

وهنا نسأل الهمزة في: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾ ، والهمزة في: ﴿أَفَأَنتَ﴾ ، هل لكل واحدة معنى مستقل؟ أو أن الثانية توكيد للأولى؟ إن جعلنا الجمليتين جملة واحدة، يعني إن جعلنا الكلام واحدًا في الجملتين فالثانية توكيد للأولى، وإن جعلنا كل كلمة وكل جملة مستقلة عن الأخرى، فالثانية أصلية، يعني تأسيسية لا توكيدية، وعلى كلٍ فإن مثل هذا التركيب، أعني إذا أتت همزة الاستفهام وبعدها حرف عطف، قد سبق لنا مرارًا أن لعلماء النحو في ذلك قولين في الإعراب: فمنهم من يرى أن الهمزة داخلة على جملة مُقدَّرة تُناسِب المقام، وحرف العطف: على تلك الجملة المحذوفة، ومنهم من يرى أن الهمزة داخلة على الجملة التي بعد حرف العطف، فيكون حرف عطفٍ على ما سبق، وإنما قدمت الهمزة لأن لها الصدارة، وذكرنا أن القول الثاني أيسر، وذلك أن القول الأول قد يتعذر على الإنسان معرفة المناسب للسياق، أو ربما يقدر ما يظنه مناسبًا وليس بمناسب.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿تُنقِذُ﴾: تُخْرِج، ولكن تفسير (تنقذ) بـ (تخرج) قاصر؛ لأن كلمة تخرج لا تدل على أنه منقذ من هلكة، لكن (تُنْقِذ) تدل على معنىً أخص من تخرج، إذن لا ينبغي أن نفسر الأخص بالأعم، لأنك إذا فسرت الأخص بالأعم نَقَصْتَ التفسير، فالإخراج يكون من إنقاذ ومن غير إنقاذ، لكن الإنقاذ يكون عن هلكة، ولهذا لو فَسَّر تُنْقِذ: تُنْجِي لكان أوضح، لأن الإنجاء يكون من هلكة، في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾: أي تنجي.

وقوله: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ من عذابها، ﴿مَن﴾: بمعنى الذي، وهو مفعول به لتنقذ، في قوله: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، في النار جار ومجرور متعلق التقدير من دخل في النار وهو يقدَّر بما يناسب المقام، لا داخل لا يصلح في صلة الموصول؛ لأنك إذا قدرت (داخل) تحتاج إلى تقدير مبتدأ لتكون جملة، لكن لو قدرت فعلًا ما احتجنا إلى شيءٍ آخر، فنقول مثلًا في جميع صلة الموصول لا يُقَدَّر فيها إلا فعل؛ لأنك لو قدَّرْتَ الاسم احتجت إلى تقدير مبتدأ لتتم الجملة، فيكون التقدير مرتين، أما إذا قدرتها فعلًا صار التقدير مرة واحدة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، أي: من استقر في النار، أو من دخل في النار، أو من كان في النار حسب، المعنى متقارب، قال المؤلف: [جواب الشرط]، أين الشرط؟ الشرط هو: من، في قوله ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾ وهذا أحد الوجهين في ﴿مَن﴾، الأول: أنها اسم شرط، والثاني: قال بعض العلماء: إن (مَنْ) اسم موصول، يعني أفالذي حق عليه كلمة العذاب تنقذه، ودائمًا اسم

الشرط والموصول يتعاوران، أي يستعار بعضهما مكان البعض الآخر، يقول جواب الشرط، وأقيم فيه الظاهر مقام المضمر، أقيم فيه الظاهر الذي هو: (مَنْ)، مقام المضمر الذي يكون لولا الظاهر على هذا الوجه، أفأنت تنقذه، أفمن حق عليه كلمة العذاب، وهذا، كلام المؤلف يوحي بأن الجملتين مرتبط بعضهم ببعض، وليس كل واحدة مستقلة عن الأخرى، ولكن نقول: هناك احتمال آخر خلاف ما قاله المؤلف: وهو أن الثانية منفصلة عن الأولى، وأن تقدير الأولى: أفمن حق عليه كلمة العذاب، تدفع عنه، أو كلمة نحوها، يعني: أفتدفع عمن حق عليه كلمة العذاب؟ ثم استأنف فقال الله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، يعني: الأول تجعله مؤمنًا بحيث لا يستحق النار، والثاني تنقذه من النار إذا دخل فيها، هذا وجه للمفسرين، الوجه الثاني: أن تكون الجملتان واحدة، يكون المعنى أفمن حق عليه كلمة العذاب فهو في النار أفأنت تنقذه منها، وهذا هو الذي مشى عليه المؤلف، ومؤدى الجملتين واحد، في النهاية أن من حق عليه كلمة العذاب لا يمكن لا للرسول ﷺ، ولا لغيره أن ينقذه من النار، ويقول المؤلف: [وأقيم فيه الظاهر مقام المضمر]، وإقامة الظاهر مُقام المَضْمَر هنا تفيد معانٍ، منها: أن من حق عليه كلمة العذاب فهو في النار؛ لأنه لو قال أفأنت تنقذه، لكان الإنسان يقول من أي شيء ينقذه؟ فإذا قال أفأنت تنقذ من في النار؛ علمنا أن هذا الذي حق عليه كلمة العذاب في النار، ويقول والهمزة للإنكار، الهمزة في ﴿أَفَمَنْ﴾ وفي ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ ، وهما همزة واحدة، على القول: بأن الجملتين واحدة، فتكون الثانية توكيدًا للأولى، والحاصل أن الله يقول للرسول ﷺ، هل من حقت عليه كلمة العذاب يمكن أن تمنعه من استحقاقها، هل من دخل النار يمكن أن تنقذه؟ الجواب: لا يمكن، لا هذا ولا هذا، لأن النبي ﷺ، لا يَمْلِكُ أن يهدي أحدًا حتى لا تحق عليه كلمة العذاب، ولا يمكن أن يُنْقِذَ أحدًا من النار، يقول عليه الصلاة والسلام حين نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ جَمَع أقاربه وصار يخصصهم يا فلان بن فلان لا أغني عنك من الله شيئًا، إلى أن قال: «**يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئًا**»[1]، وهي ابنته، يقول المال أستطيع أن أنفعك به ولكن لا أغني عنك من الله شيئًا، وإذا كان لا يغني عن ابنته شيئًا فمن سواها من باب أولى.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذا وبين شفاعة النبي ﷺ لعمه أبي طالب حتى كان في ضحضاحٍ من النار وعليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه، كيف؟ هنا أغنى، وهنا شفاعة، ونفعت الشفاعة، فيقال: أولًا الرسول ﷺ لم يتمكن من إخراجه من النار، وإذا لم يتمكن من إخراجه من النار لم يكن معارضًا للآية، لأن الله تعالى قال: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، ما أنقذه، ثانيًا: أن التخفيف عن أبي طالب ليس من أجل أنه عم الرسول ﷺ، فهذا أبو لهب عمه ولم يغنِ عنه شيئًا، لكن من أجل ما قام به من الدفاع العظيم عن الإسلام وعن رسول الإسلام، فإنه دافع عنه

(١) رواه البخارى (٢٦٠٢)، ومسلم (٢٠٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

مدافعة عظيمة، بل إنه كان يمدح الرسول ﷺ، في المحافل، بل شهد له بالرسالة، فقال:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

هذا بيت من لاميته المشهورة، التي قال عنها ابن كثير رحمه الله: هذه ينبغي أن تكون من المعلقات، بل هي أبلغ من المعلقات، والمعلقات قصائد اختارها العرب سموها المعلقات السبع، وأضافوا إليها ثلاثًا سَمَّوْها المعلقات العشر، هذه القصائد علقوها في جوف الكعبة، حفاظًا عليها وتنويهًا بها، لكن لامية أبي طالب أشد وأشد، يعني وأحسن وأعدل، فشهد بالرسول ﷺ، بأنه غير مُكَذَّب، وأنه لا يُعنى بقول الأباطل السحرة، بل إنه عليه الصلاة والسلام أصدق الناس وأنزه الناس، ثم يقول في قصيدة أخرى:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينًا

لولا الملامة أو حذار مسبة لرأيتني سمحًا بذاك مبينًا

مثل هذا الكلام إذا سمعه الناس آمنوا، فهو في الحقيقة داع إلى الإسلام لكنه غير مسلم، نسأل الله العافية، إذن التخفيف عنه لا من أجل أنه عم الرسول ﷺ ولكن من أجل أنه دافع عن الإسلام وحمى النبي ﷺ حماية تامة، وأعاله أيضًا فإنه بعد موت جده عبد المطلب كان عند عمه أبي طالب، وهذا معروف، فَمِن عَدْلِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن الله شكر هذا العمل وخَفَّف عنه بشفاعة النبي ﷺ، حتى صار في ضحضاح منَ نار وعليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه، أعاذني الله وإياكم من النار.

قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ قال: والمعنى لا تقدر على هدايته فتنقذه من النار، هذا المعنى، وصدق الله سبحانه وتعالى، الإنسان لا يمكن أن ينقذ أحدًا من النار أبدًا، فإذا كان نبي الله ﷺ، لا يقدر على ذلك فمن دونه من باب أولى.

قال الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ [الزمر: ٢٠].

هذا الاستدراك من أحسن ما يكون، لما قال: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ استدرك هذه الحال، حال من لا يدخل النار، فقال ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۚ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾.

﴿لَٰكِنِ﴾ هنا لا تعمل؛ لأنها مخففة، ولكن إذا خففت تكون لمجرد العطف فقط ومعناها الاستدراك، إذن فالذين: مبتدأ، خبره جملة: (لهم غرف)، هذا الخبر، قال: [﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ بأن أطاعوه]، أفادنا المفسر رحمه الله بأن التقوى هي الطاعة، وهذا أجمع ما قيل في التقوى، أنها طاعة الله ـ عز وجل ـ بامتثال أمره واجتناب نهيه؛ لأنه أمر ونهى، لا للهوى، ولهذا من أطاع الله لمجرد الهوى لا يكون كمن أطاع الله لأن الله أمر أو نهى، كثير من الناس يطيع الله لأن نفسه تهوى ذلك، ولكن الطاعة الحقيقية هي التي يكون الباعث عليها امتثال أمر الله، تركًا للمنهيات وفعلًا

للمأمورات، إذن قوله: ﴿اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾: إشارة إلى أن تقواهم لله مبنية على أساس، لأنه ربهم، والربوبية هنا تشمل الربوبية القدرية والربوبية الشرعية، لأن الله رب مالك للكون قدرًا، ومالك للحكم شرعًا، فهم يتقون ربهم لأنه هو الذي خلقهم ورزقهم وأعدهم وأمدهم، يعبدون ربهم لأنه الحاكم فيهم، هو الذي يأمرهم وينهاهم فيقومون بأمره ويدعون نهيه، ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ ﴿غُرَفٌ﴾: جمع غرفة، والغرفة هي البناء العالي، إذا كان في الأسفل يسمى حجرة، وإذا كان فوق يسمى غرفة، فالبناء العالي يسمى غرفة، هذه الغرف غرف مبنية، يقول ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ يعني: طبقات قصور عالية شامخة، مبنية من أي شيء؟ من لبنات من الذهب والفضة، جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، هذه الغرف المبنية من الذهب والفضة، أيضًا ليست على ما نشاهد في الدنيا من اللمعان والحسن الجذاب، بل هي أشد وأعظم، لا يمكن أن نتصور حسن هذه الغرف ولا مواد بنائها، أبدًا، لماذا؟ لأن الله يقول: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧] ويقول في الحديث القدسي «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذنٌ سَمِعَتْ ولا خطر على قلب بشر**»[1] وهي أي الجنة ليس فيها شيء مما في الدنيا إلا الأسماء فقط، لكن الحقائق تختلف اختلافًا عظيمًا، فيها عنب، نخل، رمان، لكن ليست كالموجود عندنا في الدنيا، بل هي شيء لا يمكن أن يتصوره الإنسان، هذه الجنة معدة للمتقين، الذين اتقوا ربهم، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣] العمل يسير، والعوض كثير، لكن العمل يسير على من يسَّره الله عليه، والله ييسره على من صدق النية في التوجه إلى الله، ولم يركن إلى الدنيا، لأن الركون إلى الدنيا ولا سيما ممن أعطاه الله العلم ذل وانحطاط، قال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ [الأعراف:١٧٥، ١٧٦] والمثل أخس الأمثال، ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، إذن نقول إن هذه الغرف التي أعدها الله للمتقين الذين أخلصوا النية لله رجاء الوصول إلى ثوابه، والذين لا يفعلون طاعة إلا وهم يؤمنون بأن لها ثوابًا في هذه الجنة؛ لأن هذه العقيدة وهذا الشعور يحملك على إحسان العبادة، إذا علمت أنه ما من عبادة تقوم بها إلا من أجل الوصول إلى هذا الثواب سوف تحرص على العمل وتتقن العمل.

وقوله: ﴿مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: أي من تحت هذه الغرف العليا وما تحتها، ﴿الْأَنْهَارُ﴾: جمع نَهَر، أو نهْر، لأن نَهَر أو نَهْر الحلقية التي ثانيها حرف حلق، نهر: بحر يجوز فيها

---

(١) رواه البخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تسكين الحرف الثاني وفتحه، تقول نهَر ونهْر، وبحَر وبحْر، هنا نقول أنهار جمع نهْر، وهي أربعة أنواع: بينها الله تعالى في سورة القتال، فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥]، نعم، هذه أربعة أنواع، ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾: يعني غير قابل لأن يكون آسنًا، والآسن هو المتغير، وأنتم تعلمون أن الماء إذا كان بقي في الإناء مدة، أو في مقره في البئر مدة فإنه يتغير، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، ولا فيها سكر، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾، أنهار: ما هي تُحلَب من الضروع، ولا تأتي من نحل، أنهار تمشي على الأرض تجري، وقد جاء في الأثر أنها تجري بلا أخدود، تعرفون الأخدود ما تسمونها؟ بلا مجاري، على وجه الأرض، لا تحتاج إلى حفر سواقي، ولا إلى جدران تمنع سيلان الماء، بل هي تجري بدون شيء، وورد أيضًا أنها تجري باختيار الإنسان يوجه النهر حيث شاء، ويمسكه حيث شاء، لأن الله يقول تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف:٧١] نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم، إذن هل نهر النيل وسيحون وجيحون والفرات من الجنة؟) نعم، صحيح ورد فيه الحديث، لكن قالوا: إنه من أنهار الجنة يعني: أنها تشبه أنهار الجنة في الصفاء وليس معناه أنها نزلت من السماء، وهذا تشبيه بليغ، ولكن ما الفرق بين الربوبية الشرعية والقدرية؟ الربوبية الشرعية هي التصرف في الناس بالشرع، يعني أن يأمرهم الأمر والنهي، والقدرية معروفة

وهذا مر علينا مثل هذا، الحكم كوني وشرعي، نفس التصرف بمقتضى الربوبية كوني وشرعي، مثل الإرادة كونية وشرعية، قول المؤلف ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾، قال فيها [بأن أطاعوه]، بعض الناس عندما يؤدي عبادة من العبادات يأخذها كعادة ليس كأمر من الله، هل يؤجر على فعله هذا؟) والله أعلم تبرأ الذمة بذلك، لكنه لم يصل إلى درجة الكمال، ولهذا نحن نقول دائمًا ينبغي للإنسان عند فعل العبادة أن تكون له نيتان: نية العمل ونية المعمول له، نية العمل هذه كل الناس أظن ينونها، يأتي يصلي الظهر ينوي صلاة الظهر، لكن نية المعمول له، أنه يريد بذلك التقرب إلى الله عز وجل، هذا كثيرًا ما يغفل الإنسان عنه، يصده الشيطان عن ذلك، والتي بعدهما الثالثة: نية المتابعة للرسول ﷺ، فكل هذه المعاني - نسأل الله أن يعفو عنا - تغيب عنا كثيرًا، لا نية امتثال الأمر وهي نية المعمول له، ولا نية المتابعة للرسول ﷺ؛ لأنك إذا شعرت بهذه النية أحببت الله - عزَّ وجلَّ - وأحببت الرسول، وشعرت بأنك عبد لله متبع لرسوله ﷺ، وتجد للعبادة طعمًا لا تجده إذا أتيت بها على سبيل العادة، ولهذا نقول: عادات الموفق عبادات، وعبادات الغافل عادات ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ الخطاب لمن؟ للنبي ﷺ، والاستفهام للنفي وهل الهمزة الثانية أصلية مؤسسة أو زائدة للتأكيد؟ هي زائدة للتأكيد.

وقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾، هذا الاستدراك ما فائدته؟ العطف، لكن الاستدراك من أي

شيء؟ لقد بين أن العذاب يحصل لبعض الناس فاستدرك بعض الناس يعني: لما قال: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ استدرك فقال - جل وعلا - ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾، يعني: أنهم لم يحق عليهم، ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ هو اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، وخبر ﴿الَّذِينَ﴾ جملة ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾، ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لغرف.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾، وعد: يقول المؤلف [منصوب بفعله المقدر]، أي وُعدوا وعد الله، أو على رأي آخر محتمل: التقدير أنجزوا وعد الله، يعني أنجز الله لهم وعده، وعلى هذا فيكون منصوبًا بفعلٍ مقدر من غير فعل، أما على رأي المؤلف فهو مصدر محذوف العامل، يقول رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾: [وعده]، فأفادنا بأن (الـ) هنا نائبة مناب الضمير، وأن الميعاد بمعنى الوعد، وقوله تعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾، أي: أنه لا يخلف ما وعده بشيء آخر، لأن أخلف تدل على إبدال شيء بشيء، كما قال تعالى ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ ، بخلاف خلف، فإنها تدل على خُلْف شيءٍ بشيء، فيقال خَلَفَه أي أتى بعده، أَخْلَفَه: بمعنى جُعل له بديلًا، ولهذا يقول المصاب: اللهم أجرني في مصيبتي وأَخْلِفْ لي خيرًا منها[1]، يعني أعطني بدلًا منها، وقوله: ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾، إنما كان كذلك لكمال صدقه وكمال قدرته؛ لأن إخلاف الميعاد إما أن يكون لكذب الواعد، وإما أن يكون لعجزه، والله - عزَّ وجلَّ - منزه عن هذا وهذا، فهو كامل الصدق، كامل القدرة.

الفوائد

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية:** أن من حقَّت عليه كلمة العذاب فلا هادي له، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

٢ - **ومن فوائدها:** إثبات كلام الله؛ لأن الذي يقضي بالعذاب هو الله - عزَّ وجلَّ - لا غيره، فكلمة العذاب صادرة من الله، وفي هذا إثبات الكلام لله عز وجل، والقرآن كل حرف منه فيه إثبات كلام الله، لماذا؟ لأنه كلام الله، فكل حرف منه كلام الله، إذ أن كلام الله حرف وصوت.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ، لا يستطيع أن ينقذ من في النار؛ وإذا كان هذا للرسول ﷺ فغيره من باب أولى.

٤ - **ومن فوائدها:** أن من حقت عليه كلمة العذاب فإنه في النار؛ لأننا قلنا إن الظاهر هنا نائب مناب المضمر وأن التقدير أفأنت تنقذه.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية:** بلاغة القرآن وشدة زواجره، حيث يأتي بمثل هذا الأسلوب

(١) رواه مسلم (٩١٨)، وأحمد في مسنده (٢٦٦٧٧) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

الشديد الذي يَصْرِم القلب الواعي الحي، أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب، أفأنت تنقذ من في النار، أسلوب شديد جدًا ولا شك أن الأسلوب الشديد في موضعه يعتبر من البلاغة؛ لأن البلاغة أن يأتي الكلام مطابقًا لمقتضى الحال، أي لما تقتضيه الحال من لين وشدة وتطويل وإيجاز.

٦ـ ومن فوائد هذه الآية: إثبات النار، والنار هي الدار الثانية التي يستقر فيها الإنس والجن، وهي دار من اعتدى وكفر، وهي موجودة الآن، وستبقى أبد الآبدين.

قال الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الزمر:٢٠].

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** بيان علو منزلة المتقين؛ لأن الاستدراك هنا كأنه انتشال لهم مما سبق ذكره من الوعيد الشديد لهؤلاء الذين حقت عليهم كلمة العذاب.

٢ ـ **من فوائدها:** أن التقوى سبب لدخول الجنة، لقوله: ﴿رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها:** أن تقواهم لله له سبب سابق ولاحق، فالربوبية الخاصة في قوله: ﴿رَبَّهُمۡ﴾، اقتضت أن يتقوه، وهم يتقون ربهم الذي سيثيبهم، فالتقوى لها سبب وهو عناية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بهم، هذا سابق، ولها سبب لاحق، وهو ما يرجونه من ثواب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، كل هذا يحمل على التقوى، فهو ربهم حيث وفقهم للتقوى وربهم حيث أثابهم عليها.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن منازل الجنة غرف، مبنية بعضها فوق بعض، لقوله: ﴿غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾، وهل هذه الغرف تختلف بحسب العامل؟ نعم، وقد بين الرسول ﷺ، أن جنتين من جنات الخلد من ذهب آنيتهما وما فيهما، وأن جنتين من فضة آنيتهما وما فيهما[1].

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** تمام النعيم حيث كانت هذه الغرف تجري من تحتها الأنهار، وفيها الأشجار، وفيها من كل ما يتمناه الإنسان، بل فوق ذلك.

٦ ـ **ومن فوائدها:** أن هذا النعيم ثابت بوعد الله، لقوله تعالى ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها:** إثبات أن الله لا يخلف الميعاد لكمال صدقه وقدرته، ففيها إثبات كمال الصدق وإثبات كمال القدرة.



(١) رواه البخارى (٤٥٩٧)، ومسلم (١٨٠) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢١، ٢٢]

التَفسِير

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [تعلم].

وقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، الهمزة هنا للاستفهام، والغالب أن همزة الاستفهام إذا دخلت على نفي أن تكون للتقرير، فمعنى ألم ترَ: أي قد رأيت، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] أي: قد شرحنا لك صدرك، لذا يكون الاستفهام هنا للتقرير أما (لم) فهي حرف جزم ونفي وقلب، وتفسير المؤلف ﴿تَرَ﴾ بـ (تعلم) هذا فيه احتمال، أن الرؤية هنا رؤية العلم، وفيه احتمال أن الرؤية رؤية البصر، فإن كان شيئًا مشاهدًا للإنسان بحيث يكون حوله، فهي رؤية بصر تتبعها رؤية العلم، وإن كان بعيدًا يسمع عنه سماعًا فهي رؤية علم، والخطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إما للنبي ﷺ، وإما لكل من يتأتي خطابه أي من يصح منه الخطاب.

وقوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من السماء: من العلو، وليس المراد بذلك السماء السقف المحفوظ؛ لأنه من المعلوم أن المطر ينزل من السحاب، والسحاب قد بَيَّنَ الله في آية أخرى أنه مُسخَّر بين السماء والأرض، وعلى هذا فيكون المراد بالسماء العلو، وقوله: ﴿مَاءً﴾ هو المطر، ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ سلكه بمعنى أدخله، ومنه سِلْك الخَرز يدخل فيها حتى ينظمها، وقوله: ﴿يَنَابِيعَ﴾ جمع ينبوع، [أي أدخله أمكنة نبع]، أدخله في الأرض، ينابيع: يعني يَنْبُع متى أراده الإنسان، وذلك من تمام الحكمة وتمام الرحمة؛ لأن هذا الماء لو بقي على ظهر الأرض لأنتن وفسد ولأفسد غيره أيضًا فكان من رحمت الله أن يدخله في الأرض يخزنه، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون:١٨]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقوله: ﴿يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ ثم: تدل على الترتيب بمهلة، لأن هذا الذي يخرج بالمطر لا يخرج فورًا، ولكنه يخرج بالتدريج؛ لأن هذه سنة الله سبحانه وتعالى، أن تكون الأشياء بالتدريج، لئلا يحصل التصادم في الكون.

﴿يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ ﴿بِهِۦ﴾: الباء للسببية، أي بسببه، وليس المطر هو الذي يخلق هذا النبات، ولكنه سبب له.

﴿بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ مختلفًا هذه صفة لزرع، ولكن هل المختلف الزرع أو لونه؟ ألوانه، فهنا الصفة عادت إلى غير الموصوف معنىً، ويسمي العلماء علماء النحو، يسمون هذا النعت نعتًا سببيًا؛ لأن معناه يعود إلى غير المنعوت، فهو تابع للمنعوت في الإعراب، ولكن معناه لغيره، كما لو قلت: رأيت رجلًا كريمًا أبوه، من الكريم؟ الأب، والصفة: يعني إجراءها من حيث الإعراب على الرجل، ولهذا تقول كريمًا نعت لرجل، أو صفة لرجل، مع أن حقيقة الوصف في غيره، يسمى هذا نعتًا سببيًا.

وقوله تعالى: ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾، كيف اختلاف هذه الألوان؟ هل المراد في الألوان الأشكال أو الألوان التلوين؟ أو يشمل؟ يشمل هذا أوهذا، فألوانه يعني أصنافه، ويعني أيضًا اللون، فهذا الزرع الذي يخرج من الأرض بالمطر تشاهدونه يختلف في ألوانه ويختلف في أشكاله، واخرجوا إن شئتم إلى أدنى شارعٍ هنا تجدون الاختلاف العجيب، شجرتان جنبًا إلى جنب ومع ذلك تجد هذه أوراقها مختلفة عن هذه، وتجد لونها مختلف عن الأخرى، وتجد الزهرات التي فيها أيضًا تختلف، وتجد الثمر الذي يخرج منها يختلف مع أن الماء واحد، والأرض واحدة قوله تعالى: [﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ ييبس ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ بعد الخضرة مثلًا ﴿مُصْفَرًّا﴾] هذا النبات الذي خرج يسر الناظرين مختلف الألوان أصابه ريح أو حر شديد، أو مع طول الزمن يهيج أي ييبس، فتراه مصفرًا بعد أن كان أخضر، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فتاتًا متحطمًا؛ لأنه إذا يبس تكسر ثم تحطم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ تذكيرًا لأولي الألباب العقول، يتذكرون به لدلالته على وحدانية الله وقدرته، وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه كل ما سبق، إنزال المطر من السماء، إدخاله ينابيع في الأرض، إخراج الزرع به، عود الزرع إلى الاصفرار والتحطم، هذه عدة أشياء تذكر الإنسان، إنزاله من السماء، وإدخاله في الأرض، وإخراج الزرع به، واختلاف الألوان، هذا كله ذكرى يتذكر به أولو الألباب على قدرة الله عز وجل، وعلى رحمته وعلى حكمته، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ إلى آخره، يتذكر به أولوا الألباب على أن كل ما كمل من الدنيا عاد ناقصًا، ويدل على أن هذا من المراد قوله تعالى ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس:٢٤] إذن الذكرى هنا ليست مجرد الدلالة على وحدانية الله وقدرته، بل هي أشمل، ومن أهمها الدلالة على أن ما كمل في الدنيا فمآله إلى النقص؛ فالصحة مآلها إلى المرض، والحياة مآلها للموت، وهكذا قس كل ما في الدنيا على هذا المثال.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢].

[كمن طبع على قلبه]، ﴿أَفَمَن﴾: (الهمزة) للاستفهام (والفاء) عاطفة على إما شيء مقدر أو على ما سبق، وفي قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، شرح بمعنى وَسَّع، ومنه قولنا: فلان شرح الكتاب الفلاني، يعني وَسَّعه، شرح صدره للإسلام، المراد الصدر: ما في الصدر، أو المراد بالصدر نفسه ينشرح؟ يَحْتَمِل أن يراد ما في الصدر، أن الله يوسع القلب فيجعله منفتحًا للإسلام، لا يضيق به ذرعًا، ويحتمل أنه الصدر نفسه؛ لأن الإنسان يُحِسّ بالشيء إذا غَمَّه أن صدره يضيق، نفس الصدر يضيق، وإذا جاءه ما يفرحه نفس الصدر ينشرح، وإن كان الأصل القلب، لكن نفس المكان - مكان القلب - يكون فيه اتساع وضيق، وهذا شيء مشاهد، فإبقاء الآية على ظاهرها، وهو أن المراد بالصدر حقيقته، حقيقة الصد أَوْلَى، فينشرح الصدر للإسلام ويَتَقَبَّل جميع شرائعه، يتقبل الشرائع، إن أُمِر بالشيء انشرح لقبوله والعمل به، وإن نُهِي عن شيء انشرح لقبوله واجتنابه، وإن أخبر عن شيء انشرح لقبوله وتصديقه، وهكذا.

وقِسْ هذا برجل فاسق، إن أمرته بالصلاة تجده يضيق صدره وربما يقول: أنا أصلي لك دعني، وما أشبه ذلك، وبعض الناس إذا أمرته وذكَّرته فرح وانشرح صدره، وقد بيَّن الله في سورة الأنعام، سورة قريبة مقرِّبة لهذا المعنى، فقال سبحانه وتعالى في سورة الأنعام: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥] يعني: شديد الضيق، كأنما يصعد في السماء، يعني كأنه إذا عرض عليه الإسلام يَصَّعَّد في السماء، يعني يتكلف بالصعود، وقد اختلف العلماء، في معنى يصعد في السماء، هل معناه ما اشتهر الآن من أن الإنسان كلما ارتفع في الجو كثر عليه الضغط، أو المعنى يصعد جبلًا عاليًا شامخًا يتعب في رقيه، فالمفسرون السابقون لا شك أنهم لا يعرفون عن مسألة الضغط شيئًا، والمتأخرون يعرفون، والله - عزَّ وجلَّ - يعلم هذا وهذا، والآية صالحة للأمرين؛ لأنك لو تصورت جبلًا، صعب الرقي، وعاليًا، يعني في السماء معناه عالٍ، وصعده الإنسان، يتكلف أو لا؟ يتكلف، لا شك، لا سيما إن كان عنده ضغط، يتعب جدًا، وإذا قلنا: بأن المراد بذلك أن الإنسان يصعد في السماء فوق الغلاف الجوي فهو واضح أيضًا، يقول الله عز وجل: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، قلنا: علامة شرح الصدر قبول الخبر وتصديقه، قبول الأمر وامتثاله، قبول النهي واجتنابه، لا يكون عنده تردد، فهذا لا شك أن الله سبحانه وتعالى يجعله كما قال: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قال المؤلف: [فاهتدى] [فهو على نور]، فأفادنا المؤلف أن في الآية حذفًا، تقديره فاهتدى، ويؤيده: فهو على نور، ولكن الواقع أنه لا حاجة إلى هذا التقدير، في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مجرد أن يشرح الله صدره للإسلام فهو على نور، وهو إذا شرح الله صدره للإسلام فهو

سيهتدي قطعًا، وقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ نور حسي أو معنوي؟ معنوي، فهو على نور ولو كان في حجرة مظلمة، هو على نور، يعني يجد نفسه أنه يمشي على نور، وقوله ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، يشمل نور الدنيا ونور الآخرة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد:١٢].

وقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾، الربوبية هنا مضافة إلى هذا الذي شرح الله صدره للإسلام وهي ربوبية خاصة؛ لأنها أضيفت إلى من هداه الله، في الآية شيء محذوف دلت عليه الهمزة، وقدره المفسر رحمه الله بقول: كمن طبع على قلبه، ولو أن المؤلف قال كمن ضاق صدره بالإسلام لكان هذا أنسب في المقابلة؛ لأنه ينبغي أن تجعل مقابل الشيء مضادًا له، ولا تأتي بشيء آخر، فمثلًا لو قال الله تعالى: (أفمن وسع الله قلبه) لكان المناسب أن يكون المقدر كما قال المؤلف، لكن قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾ نقول: كمن ضيق الله صدره بالإسلام، فضاق به ذرعًا، الجواب: لا، فيكون الاستفهام مع المقدر للنفي، ومن لم يشرح الله صدره، فهو على ظلمة؟ نعم، من لم يشرح الله صدره للإسلام فإن قلبه مظلم والعياذ بالله ليس فيه علم، لا نور علم ولا نور إيمان، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ﴾ [كلمة عذاب]، ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ويل: مبتدأ، والقاسية: خبره، ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بالقاسية، ويل: قال المؤلف: إنها [كلمة عذاب]، وما قاله المؤلف أصح مما قيل إنها وادٍ في جهنم؛ لأن الإنسان يقال له ويل لك من كذا، في غير النار، وفي قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩] فهي كلمة عذاب ووعيد.

وفي قوله: ﴿لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، ﴿لِّلْقَٰسِيَةِ﴾ اسم فاعل، و﴿قُلُوبُهُم﴾ فاعل به، والقاسي ضد اللين، واللين قلب المؤمن، والقاسي قلب الكافر.

وقوله تعالى: ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [أي عن قبول القرآن]. فأفادنا المفسر رحمه الله أن مِنْ بمعنى (عن)، وأن المراد بذكر الله: القرآن، يعني فويل للذين تقسو قلوبهم عن القرآن، ولكن الأولى إبقاء الآية على ظاهرها، وأن قوله تعالى: ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي (أن) من للسببية، أي تقسو قلوبهم بسبب ذكر الله، وأن المراد بذكر الله ما هو أعم من القرآن، ويكون المعنى أن هؤلاء كلما ذكر الله قست قلوبهم، ووجه ذلك أنهم لا يريدون ذكر الله، فإذا كرهوا ذكر الله قسى القلب عقوبة لهم، ويدل لهذا قوله تعالى ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة:١٢٤، ١٢٥] فتجد هؤلاء القوم من المؤمنين تزيدهم السورة إيمانًا، والآخرون الذين في قلوبهم مرض تزيدهم رجسًا إلى رجسهم، إذن نقول القاسية قلوبهم من ذكر الله يعني الذين إذا ذكر الله قست قلوبهم عن قبوله، يعني لا يقبلونه، فإذا لم يقبلوه

ازدادت قلوبهم قسوة من ذكر الله.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: المشار إليهم القاسية قلوبهم، ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾: قال المؤلف: [بين]، وقوله: ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾ في: للظرفية، وما أحسنها في هذا الموضع، إشارة إلى أن الضلال قد أحاط بهم من كل جانب، كما تحيط الحجرة بساكنها، وإذا كان الضلال قد أحاط بهم من كل جانب فإنهم لا يرجى لهم خير والعياذ بالله، لأنهم في ضلال مبين، قابل هذه الآية التي قال فيها سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ بقوله ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يتبين لك أن النور في الآية نور العلم، ونور الإيمان، وضد العلم الضلال.

الفوائد

قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر:٢١].

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله عز وجل، في إنزال هذا المطر من السماء؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يستطيع إنزاله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ [لقمان:٣٤].

٢ - **ومن فوائدها:** حكمة الله ورحمته حيث جعل هذا الماء ينزل من السماء؛ لأنه لو كان ينبع من الأرض، لم تستفد به عامة الأرض من وجه ولم يصعد إلى قمم الجبال إلا إذا أَغْرَقَ الناس الذين تحت الجبال، فكان من الحكمة أنه ينزل من السماء ليَعُمَّ المرتفع والمنخفض، وليشمل الأرض كلها.

٣ - **ومن فوائدها:** بيان حكمة الله - عزَّ وجلَّ - في كيفية نزول هذا الماء، كيف ينزل؟ ينزل قطرات، لو نزل صبًا كما تصب أفواه القرب لأهلك الناس، وهدم البناء، ولكن من رحمة الله - عزَّ وجلَّ - أنه ينزل قطرات.

٤ - **من فوائد هذه الآية:** أن السماء يطلق على العلو، ويترتب على هذه الفائدة، أن قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يمكن أن يراد به من في العلو.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله ورحمته بالعباد حيث سلك هذا الماء ينابيع في الأرض، ولم يبقَ راكدًا على ظهرها، لما في ذلك من الحكمة والرحمة، يكون مخزونًا في الأرض متى أراده الناس استخرجوه.

٦ - **ومن فوائدها:** بيان قدرة الله حيث أَخْرَجَ بهذا الماء ذلك الزرع المختلف الألوان.

٧ - **ومن فوائدها:** إثبات الأسباب، ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** أن السبب لا يستقل بالتأثير في المسبَب، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ﴾ فأضاف الإخراج إلى الله، وهذا هو الذي عليه سلف الأمة وأئمتها، أن الأسباب لها تأثير في

المسببات ولكن تأثيرها بفعل الله، لا يرجع إليها استقلالًا.

٩ ـ **ومن فوائدها:** بيان قدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حيث أخرج هذا الزرع المختلف الألوان مع أنه يتغذى بماء واحد، ومن طينة واحدة، لقوله ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥ﴾.

١٠ ـ **ومن فوائدها:** أن كمال الدنيا مؤذن بنقصها؛ لأن الله ضرب ذلك مثلًا للدنيا كما في الآية التي سقناها في التفسير.

١١ ـ **ومن فوائدها:** أن الذين يتذكرون بآيات الله الكونية هم أولو العقول، وأمَّا من لا يتذكر بها ويقول: هذه طبيعة تتفاعل وتتجارى، فإنه لا عقل له.

١٢ ـ **ومن فوائد الآية:** أنه ينبغي للإنسان أن يستعمل عقله في مخلوقات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ليتذكر به، فيما في هذه المخلوقات من عظمة الخالق؛ لأنه قال ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢].

١ ـ **في هذه الآية:** نفي التساوي بين الفريقين، من شرح الله صدره للإسلام، ومن لم يشرح؛ لأن الاستفهام هنا بمعنى النفي.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن الهداية بيد الله، لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾، ويتفرع على هذه الفائدة: أنه متى علم الإنسان أن الهداية بيد الله، فإنه لا يلتفت في طلب الهداية إلا إلى الله، وأيضًا إذا علم أن الهداية بيد الله لا يعجب بنفسه إذا اهتدى، بل يقول لنفسه لولا أن الله هداها لكان ضالًا، فلا يقول إنما أوتيته على علم عندي، أو يقول هذا لي؛ بل يعترف بفضل الله عليه، وأنه لولا هداية الله ما انتفع.

٣ ـ **من فوائد الآية الكريمة:** بيان تفاضل الناس في قبول الحق، وأن منهم من يقبل الحق بانشراح، ومنهم من ليس كذلك.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أن من شرح الله صدره للإسلام فقبل الحق، فإنه على نور من الله، ويتفرع على هذا زيادة علمه؛ لأن العلم نور، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤]، ويتفرع على هذه الفائدة أيضًا قوة الفِراسة، أن الله تعالى ـ يعطي ـ الإنسان فراسة بحيث يعلم ما في قلوب الناس من لمحات وجوههم، بل أكثر من ذلك يستدل بالحاضر على الغائب، ويعطيه الله تعالى استنتاجات لا تكون لغيره، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه (مدارج السالكين) في كلامه عن الفراسة، ذكر عن شيخ الإسلام (ابن تيمية) كلامًا عجيبًا في فراسته رحمه الله، وإن كان ذكر أشياء قد لا تكون مقبولة، ولكنه ذكر شيئًا كثيرًا، ويستدل لذلك بقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

٥ ـ **ويستفاد منها:** أن من شرح الله صدره للإسلام فإن له ربوبية خاصة، وعناية خاصة من

الله، من أين يؤخذ؟ ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فإن هذه الربوبية خاصة، غير الربوبية العامة، فربوبية الله سبحانه وتعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة، فالعامة كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، والخاصة كقول الله تعالى عن أولي الألباب: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١] ، وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى عن سحرة آل فرعون: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١، ١٢٢] فالأول عام والثاني خاص.

٦ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** الوعيد الشديد لمن قسى قلبه عن ذكر الله، لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها:** أنك إذا رأيت من قلبك عدم لينٍ لذكر الله، فعالج نفسك، لتسلم من هذا الوعيد، وهذا يشكو منه الناس كثيرًا، ونشكو منه نحن أيضًا، أحيانًا يقسو القلب ولا يلين، يقرأ الآيات العظيمة الرادعة، ولكنه لا يتأثر، وأحيانًا يقرأ نفس الآيات، ثم يتأثر، فإذا عرفت من نفسك قسوة القلب فالجأ إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ واسأله: أن يُلِينَ قلبك لذكره، وتأهب للوعيد، إذا لم يتداركك الله بلطفه ومغفرته.

٨ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القلوب تنقسم إلى قسمين: قلوب تلين من ذكر الله وقلوب تقسو منه، فإن قال قائل كيف يكون الشيء الواحد مؤثرًا لنتيجتين متباينتين؟ قلنا: هذا ممكن، وذلك لاختلاف المحل الوارد عليه هذا الشيء، وليس هذا بغريب لا في المعنويات ولا في الحِسِّيَّات، أما في المعنويات فكما رأيتم كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وكما أن الإنسان يلقي الدرس على جماعة، بعضهم يلتهمه التهامًا ويفهمه فهمًا تامًا ويجده لذيذًا، والبعض الآخر يُغلَق عليه، ولا يفهمه ثم إذا أغلقت عليه كلمة واحدة، انغلق عليه جميع الدرس وعجز أن يفهمه، والمعلم واحد والموضوع واحد، كذلك أيضًا نجد التمر وهو تمر النخل معروف، يأكله رجلان أحدهما يكون داءً عليه، والآخر يكون غذاءً، أليس كذلك؟ المصاب بالسكر لو أكل التمر صار داءً عليه، والصحيح لا يكون داءً عليه، نجد الماء يجري على الأرض، أرض تقبله وتشربه وتنبت، وأرض لا تقبله، يَسِحُّ عليها ولا تنتفع به، فهذا ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يرد على القلب اللين، فينتفع به وعلى القاسي، فيزداد قسوة والعياذ بالله.

٩ ـ **ومن فوائدها:** أن القاسية قلوبهم من ذكر الله على عكس من شرح الله صدره للإسلام، من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور، ومن قسى قلبه من ذكر الله فهو في ضلال مبين.

١٠ ـ **ومن فوائدها:** أن هؤلاء الذين قست قلوبهم من ذكر الله قد انغمسوا انغماسًا تامًا في الضلال، من أين يؤخذ؟ لأن في للظرفية، والظرف محيط بالمظروف، المظروف دون الظرف، في جوفه، فكأن هؤلاء انغمروا في الضلال، وأحاط بهم إحاطة الظرف بمظروفه، أولئك في ضلال

مبين. نسأل الله لنا ولكم الهداية والنور.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾ [الزُّمَر:٢٣]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ﴾: جملة خبرية، اسمية الصدر فعلية العجز، ﴿نَزَّلَ﴾ من المضعف، ويأتي التعبير أحيانًا بأنزل من الرباعي المزيد بهمزة، واختلف العلماء هل هما بمعنى واحد، يعني أنزل ونزل معناهما واحد، أو يختلف المعنى؟ والصحيح أن معناهما واحد، إلا مع وجود قرينة، فمع وجود قرينة يكون التنزيل لما ينزل شيئًا فشيئًا، والإنزال لما ينزل جملة واحدة، لكن هذا لا يكون إلا مع القرينة، أما مع عدم القرينة فنزل وأنزل بمعنى واحد، ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨] ويقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ [ق:٩]، وهما بمعنى واحد، وكذلك في القرآن أحيانًا يقول الله أنزلنا وأحيانًا يقول نزلنا، وهما بمعنى واحد، لكن مع وجود قرينة يكون التنزيل شيئًا فشيئًا كما في قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦] هنا نزلنا تختلف عن أنزلنا، فهي بمعنى التنزيل شيئًا فشيئًا، بدليل قوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا﴾ أحسن: اسم تفضيل من الحسن، والحسن يتضمن حسن الأسلوب وحسن الموضوع، ويشمل قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ﴾، هذا وهذا، يعني أحسن في أسلوبه وأحسن في موضوعه، أما الأسلوب، فأن يكون مطابقًا للبلاغة في غايتها، إيجازًا في موضع الإيجاز، إطنابًا في موضع الإطناب، توكيدًا في موضع التوكيد، تخلية من التوكيد في موضع يقتضي ذلك، وهَلُمَّ جرًا، كذلك أحسن في الموضوع، موضوعه، أخبار وأحكام، فالأخبار أحسنها أصدقها، وأنفعها في العبرة، والأحكام أحسنها أعدلها، وأقومها بمصالح العباد، والقرآن الكريم مُتضمِّن للأحسنين الأسلوب والموضوع.

وقوله: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾، ﴿كِتَابًا﴾ بدل من ﴿أَحْسَنَ﴾، أو عطف بيان، إذا جعلنا ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ شيئًا واحدًا، أما إذا جعلنا ﴿كِتَابًا﴾ مستقلًا عن ﴿مُتَشَابِهًا﴾، فإنه يكون بدلًا ولا

يكون عطف بيان، كتابًا أي مكتوبًا؛ لأن فعال تأتي بمعنى مفعول كثيرًا، ومنه الغرّاس، والبنّاء، والكسّاء، والفرّاش، والوطّاء، وأمثلة هذا كثيرة في اللغة العربية، أن يأتي فعال بمعنى مفعول، فإن غرّاسًا بمعنى مغروس، وبنّاءً بمعنى مَبنيٍّ، ﴿كِتَٰبًا﴾ بمعنى مكتوب، وفي أي شيء هو مكتوب؟ مكتوب في ثلاثة أشياء: في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة، وفي الصحف التي بأيدينا، القرآن الكريم مكتوب بهذا وهذا وهذا.

وقوله: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾، يعني: يشبه بعضه بعضًا في أي شيء؟ في الكمال، والجودة، وحسن الموضوع، لا تجده متناقضًا أبدًا، ولا تجده مختلفًا أبدًا، لكن بحسب المقام، تارة يكون المقام يقتضي الاختصار، وتارة يكون المقام يقتضي البسط، فإذا نظرنا إلى سورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، والسورة التي قبلها، وجدنا بينهما تشابهًا في الحسن، حيث إن كل سورة كانت مناسبة للحديث، أو للمتحدث عنه، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تتحدث عن الرب - عزَّ وجلَّ - وعن أسمائه وصفاته، فجاءت بالأسلوب المناسب، ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد:١] تتحدث عن رجل كافر فصارت بالأسلوب المناسب، لا يقول قائل: أين التشابه بين ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وبين ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾؟ نقول: التشابه معناه أن كل كلامٍ جاء على الوجه المناسب لموضوعه، هذا وجه التشابه، إذن متشابه في ماذا؟ في الكمال والجودة وحسن الموضوع، ومن الكمال والجودة أن يكون الكلام مناسبًا لموضوعه، بسطٌ في موضع البسط، وإجمالٌ في موضع الإجمال، وتفصيلٌ في موضع التفصيل، وبسطٌ وتطويلٌ في موضع البسط والتطويل، حسب ما تقتضيه البلاغة.

وقوله: ﴿مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾، مثاني: مأخوذ من التثنية، يعني القرآن مثاني، والمثاني أنه يقرن المعنى وما يقابله، فتأمل الآيات الكريمة تجد أنه إذا ذكرت النار ذكر بعدها الجنة، وإذا ذكر أهل النار ذكر بعدهم أهل الجنة، وهكذا؛ وذلك من أجل ألا يملَّ السامع من موضوع واحد، ومن أجل أن يتنقل من تخويف إلى ترغيب، فينشط لفعل الواجبات، ويحذر من فعل المحرمات، وهذا من أساليب البلاغة التامة أو الكاملة.

وقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ﴾: أي ترتعد عندما تسمع آيات الوعيد والتخويف، ترتعد وتخاف وتضطرب، وقد كان بعض السلف يمرض أيامًا حتى يعاد إذا سمع بعض الآيات، كما جرى ذلك لأمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه حين تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور:٧، ٨] فمرض أيامًا حتى عاده الناس[1].

وقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، الذين يخشون: أي يخافونه مع العلم بعظمته وجلاله، لأن الخشية لا تكون إلا بعلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨] وقد فرق العلماء بين الخشية والخوف بوجوه: أولًا: أن الخشية تكون مقرونة بعلم،

---

(١) محض الصواب (٣/ ٣١٩).

وثانيًا: أن الخشية تكون من عظمة المخشي، وإن كان الخاشي عظيمًا، أما الخوف فيكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف منه غير عظيم، فهذان فرقان بين الخشية وبين الخوف، أن الخشية تكون بعلم، والخوف قد يكون بوهم، قد يرى الإنسان شبحًا من بعد فيخافه وليس بشيء.

وقوله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، هذه الربوبية من الربوبية الخاصة التي من الله عليهم بها بالخشية التي ألقاها في قلوبهم، في قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، تلين بعد الإقشعرار أو القشعريرة، تلين: أي تطمئن وتهدأ، إلى ذكر الله: أي منقادة إلى ذكره، فتكون هذه الليونة غايتها ذكر الله عز وجل.

وقوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ يحتمل أن يكون المشار إليه ما حصل لهم من الخشية، وعلى هذا فيكون المراد بالهداية، هداية التوفيق؛ لأن الخشية عمل ويحتمل أن يكون المشار إليه، ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾: الكتاب الذي هو أحسن الحديث، فتكون الهداية هداية دلالة، لأن الكتاب يهدي بمعنى يدل، والتوفيق بيد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾

وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، هذه الجملة الشرطية، بين الله فيها أن من كتبه ضالًا فما أحد يهديه، وقوله ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، أصلها هادي بالياء، لكن حذفت الياء لالتقاء الساكنين، أين الساكنان؟ التنوين في الدال والياء الساكنة المحذوفة، ويجوز إبقاؤها فيقال: هادي، لكنها تحذف كثيرًا للتخفيف والتقاء الساكنين، نرجع إلى كلام المؤلف رحمه الله يقول: [﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا﴾ بدلٌ من أحسن أي قرآنًا]، قوله بدل من أحسن مر علينا أنه يصح أن يكون بدلًا، أو عطف بيان بشرط أن يوصل بها بعدها، كتابًا متشابهًا، وذلك لأن عطف البيان، يكون مبينًا للمعطوف عليه، ولهذا سمي عطف بيان، ولا يكون مبينًا إلا إذا جعلنا ﴿مُّتَشَابِهًا﴾ صفة لازمة، وقوله تعالى: ﴿مُّتَشَابِهًا﴾ أي قرآنًا، هذا التفسير تفسير لفظي أو معنوي؟ إذا أردنا أن نفسر تفسيرًا لفظيًّا أتينا باللفظ نفسه، أو معنويًّا أتينا بالمعنى، فهنا هل أتى بتفسير اللفظ نفسه، فقال: كتابًا أي مكتوبًا، أو أتى بالمعنى؟ بالمعنى، فالمراد بالكتاب هنا القرآن، فالمؤلف رحمه الله فسرها تفسيرًا معنويًّا أي فسرها بالمراد منها، ﴿مُّتَشَابِهًا﴾ قال: [أي يشبه بعضه بعضًا في النظم وغيره]، لا يراد بالنظم هنا ما يقابل النثر، لأن القرآن ليس شعرًا، لكن في النظم أي نظم الكلام وتنظيمه، حتى يكون مشبها بعضه لبعض، يقول رحمه الله: [﴿مَّثَانِيَ﴾ ثني فيه بالوعد والوعيد وغيرهما]، يعني يؤتى بالوعد ثم يعقبه الوعيد، يُؤتي بذكر النار، ثم يعقبه ذكر الجنة، يؤتى بصفات المؤمنين، ثم يؤتى بصفات غيرهم، انظر إلى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من ضدهم؟ الذين كفروا، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ وانظر إلى قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٥] وانظر إلى قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦] وانظر إلى قوله

في سورة (الكهف) لما ذكر ما للمؤمنين من الثواب في الجنة ذكر ما للكفار من العقاب في النار، والأمثال في هذا كثيرة جدًا، يقول تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، قال المؤلف: تقشعر: [ترتعد عند ذكر وعيده ﴿جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾: يخافون] ربهم. قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ﴾، أي: عند ذكر الوعيد أو ذكر النار، أو ما يوجب الخوف والفزع، كذكر ما حل بقوم نوح وقوم لوط وغيرهم، ثم يقول: [﴿يَخْشَوْنَ﴾ يخافون]، وهذا التفسير ضعيف؛ لأنه فسر المعنى بما دونه، إذ قلنا: إن الخشية، هي الخوف مع العلم، واستدللنا لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فلو أن المؤلف قال: يخشون ربهم خوفًا مبنيًا على العلم بعظمته، لكان التفسير صوابًا، لكن الآن نعتبر التفسير قاصرًا، [﴿ثُمَّ تَلِينُ﴾ تطمئن]، ولكن لا شك أن ذكر اللين أبلغ من ذكر الطمأنينة؛ لأن القشعريرة تقتضي نشوز الجلد وارتفاعه وتصلبه، والذي يقابل ذلك، اللين والهدوء والطمأنينة، فتفسير المؤلف أيضًا اللين بالطمأنينة، تفسير باللازم في الواقع، وإلا فإن اللين غير الطمأنينة؛ لأن الجلد إذا اقشعر يتصلب، ولهذا تجد أطراف الإنسان تبرد لانحصار الدم عنها بعض الشيء، فإذا هدأ فإنه يلين ويزول ذلك التصلب.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لين القلب ضد قسوته، يعني عندما يسمعون الوعيد تقشعر الجلود، وتنفر القلوب، ثم بعد ذلك تلين الجلود والقلوب إلى ذكر الله، قال المؤلف: أي [عند ذكر وعده]، ولكن الصواب أنها إلى ذكر الله مطلقًا، حتى الوعيد إذا تأمل الإنسان وهدأت نفسه، بعد أن ورد عليه ما يخوفه، فإنه يلين حتى للوعيد، فتخصيص المؤلف ذلك بذكر الوعد، في النفس منه شيء، ومع ذلك فله وجه، إذا كان القرآن مثاني ثم جاء ذكر النار وجاء بعده ذكر الجنة لانت القلوب، أو ذكر أهل النار وجاء بعده ذكر أهل الجنة لانت القلوب أيضًا.

وقوله: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لم يقل لذكر الله، وكأن هذا اللين صار له غاية وهو ذكر الله عز وجل، وقوله ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ هل هو من باب إضافة المصدر إلى الفاعل؟ يعني إذا ما ذكرهم الله به، أو من باب إضافة المصدر إلى المفعول به؟ أي إلى ذكرهم الله، الجواب: هذا وهذا، الكلمة صالحة لهذا وهذا، أي إلى ذكرهم لله، أو ما ذكرهم الله به، وهو القرآن الذي جعله الله مثانيًا.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي الكتاب، ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، أفادنا المؤلف رحمه الله أن الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ تعود إلى الكتاب، وعلى هذا فيكون المراد بالهداية هنا هداية الدلالة، فإن القرآن هدى بمعنى أنه دال على كل خير، بل على كل شيء، لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾، هنا الهداية: هداية الدلالة والتوفيق؛ لأنها أضيفت إلى الله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى بيده الهدايتان، والباء في قوله يهدي به لم يبين المؤلف معناها، ولكن

معناها السببية، أي بسبب من يشاء، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن القرآن منزل من عند الله.

٢ ـ ومن فوائدها أيضًا: إثبات العلوم، ومن المعلوم أنه يتفرع على الفائدة الأولى أن القرآن كلام الله إذا كان نزل من عنده، والقرآن كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لفظًا ومعنى، تكلم به لفظًا ومعنًى عز وجل، خلافًا للأشاعرة الذين يقولون إن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، وليس صوتًا يسمع، ولا حروفًا ترى، ولكنه المعنى القائم بنفسه، وما كتب في المصاحف أو سمع بالآذان فإنه عبارة عن كلام الله، وليس هو كلام الله، وحقيقة الأمر أن قولهم هذا يتضمن إنكار كلام الله عز وجل، لأنهم يقولون هذا القرآن الذي نسمع الآن، هو مخلوق، عبارة عن كلام وليس هو كلام الله، كلام الله هو المعنى القائم بنفسه فقط.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا القرآن أحسن الحديث، لقوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾، وهكذا حديث الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو أحسن الحديث، قال الله تعالى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن القرآن مكتوب، لقوله: ﴿كِتَٰبًا﴾ وسبق أنه يكتب في ثلاثة مواضع: اللوح المحفوظ، الصحف التي في أيدي الملائكة، والصحف التي في أيدينا.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القرآن متشابه، لقوله تعالى: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾، وحينئذٍ يطلب الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾، في هذه الآية جعل الله القرآن نوعين: محكمًا ومتشابهًا، وفي الآية التي في (الزمر) جعله نوعًا واحدًا متشابهًا، والجمع بينهما أن يقال إن التشابه المذكور في (الزمر) غير المتشابه المذكور في آل عمران، التشابه المذكور في الزمر أنه يشبه بعضه بعضًا في الكمال والجودة، والتشابه المذكور في آل عمران هو اشتباه المعنى وخفاؤه.

فالقرآن في هذا الوجه، ينقسم إلى قسمين: محكم: أي واضح المعنى، والثاني متشابه: أي خفي المعنى، إذن الجمع أن نقول: إن التشابه في (آل عمران) غير التشابه في (الزمر)، التشابه في (الزمر) بمعنى أن بعضه يشبه بعض، كل القرآن متشابه، وأما في (آل عمران) فهو الخفاء، (متشابهات) أي (خفيات المعنى)، فالقرآن بعضه محكم بيِّن وبعضه متشابه، لا يعرفه إلا الراسخون في العلم، وفي بعض الآيات وصف القرآن بأنه حكيم، بدون أن يُذكر التشابه، مثل قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾، وهذا بمعنى المحكم المتقن الذي لا يتناقض، فهو عكس المحكم الذي لا يتناقض.

فالقرآن إذا وُصِف بأنه محكم كله وأنه متشابه كله وأن بعضه محكم وبعضه متشابه، فوصفه

بالإحكام كله، أنه كله محكم متقن لا يتناقض، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وصفه بأنه كله متشابه، أي يشبه بعضه بعضًا في الكمال والجودة، وصفه بأن بعضه محكم وبعضه متشابه أي أن بعضه واضح المعنى وبعضه خفي المعنى، مثال الواضح المعنى: السماء والأرض والنجوم والشمس والقمر والإنسان، وما أشبهها، هذا واضح، ومثال المتشابه: أن توجد آيتان ظاهرهما التعارض مثلًا.

مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فكيف تجمع في هذه الآية ينكرون، وفي الآية التي ذكرناها قبل لا يكتمون الله حديثًا، فيأتي إنسان يقول: ما أعرف وجه التناقض، ولكنَّ الراسخين في العلم يعلمون كيف يجمعون بين هذه وهذه، الجمع بينهما أن يوم القيامة للناس فيه أحوال، لأنه يوم مقداره خمسون ألف سنة، فمرة يكتمون ومرة يقرون، ولا يكتمون الله حديثًا.

كذلك أيضًا ذكر الله أنه يحشر المجرمين يومئذٍ زرقًا، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، فكيف نجمع؟ مرة يقول: تسود، ومرة يقول: زرقًا، الجواب أن يقال: إن بعضهم كذا وبعضهم كذا، أو أنهم في وقت يكونون زرقًا، وفي وقت يكونون سودًا، أو أن الأزرق الداكن يكون مائلًا إلى السواد، فيطلق عليه أنه أسود، أو أن الزرق في عيونهم، والسواد في بقية الجسم، وما أشبه ذلك، المهم أن الراسخين في العلم يعرفون كيف يجمعون، لكن غيرهم يكون خفيًا عليه، ولهذا يقول العلماء: إن القرآن وصف بالتشابه على سبيل العموم، وبالإحكام على سبيل العموم، ووصف بأن بعضه محكم وبعضه متشابه، والجمع كما قلنا.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن القرآن قد بلغ في البلاغة غايته أكمل البلاغة، لكونه يأتي مثاني، ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي لمن تكلم في موعظة الناس ألا يأتي بالترغيب المطلق ولا بالترهيب المطلق، وذلك أنه إذا أتى بالترغيب المطلق حملهم على الرجاء فتهاونوا، وإذا أتى بالترهيب المطلق، حملهم على اليأس، فقنطوا من رحمة الله، فالذي ينبغي للإنسان الذي يتكلم مع الناس في المواعظ أن يكون داعيًا يتكلم أحيانًا بهذا وأحيانًا بهذا، حتى لا يحمل الناس على القنوط، أو على الرجاء الذي يوجب الأمن من مكر الله.

٧ ـ **ومن فوائدها:** أن المؤمن يتأثر بالقرآن، يقشعر منه جلده ويخاف، ثم بعد ذلك ترجع إليه الطمأنينة ولين القلب، ويتفرع على هذه الفائدة أنك إذا رأيت نفسك على غير هذه الحال فاعلم أن إيمانك ضعيف؛ لأن هذا الخبر خبر من؟ خبر الله عز وجل، فلا يمكن أن يتخلف مخبره، فكل مؤمن يقشعر جلده مما يسمع من القرآن الكريم في الوعيد، وإذا لم تكن كذلك فإن إيمانك ضعيف.

٨ - **ومن فوائدها:** أن ذكر الله عز وجل، سبب للين القلوب وطمأنينتها، لقوله: ﴿رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ويشهد لهذا قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

٩ - **ومن فوائدها:** امتنان الله - عزَّ وجلَّ - على هؤلاء بالهداية لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

١٠ - **ومن فوائدها:** إثبات الأسباب، لقوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ الباء للسببية كما مر علينا في التفسير، وإثبات الأسباب هو الموافق للمنقول والمعقول، أما المنقول فما أكثر الآيات التي فيها إثبات الأسباب، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج:٦٣] ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق:٩] والآيات في هذا كثيرة، والمعقول: كذلك يدل على إثبات الأسباب وأن لها تأثيرًا في مسبباتها، فكلنا يعرف أن ضرب الزجاج بالحجر يكسره، وأن الزجاج انكسر بضرب الحجر، خلافًا لمن أنكر الأسباب وقال إنه لا أثر للأسباب في مسبباتها، فإن قوله خلاف الشرع وخلاف العقل، حتى أنه قيل لهم أليست الورقة تحترق بالنار؟ فقالوا لا، تحترق عند النار لا بالنار، وقيل لهم أليس الزجاج ينكسر بالحجر إذا رمى به، فقالوا لا، ينكسر عند الحجر لا بالحجر، لماذا؟ قالوا لأننا لو أثبتنا تأثير الأسباب في أسبابها، لأشركنا بالله، وجعلنا معه فاعلًا مؤثرًا ولا أحد يرضى أن يشرك بالله شيئًا، وجوابنا على هذه الشبهة أن نقول إن الأسباب لم تؤثر بذاتها وإنما أثرت بما أودع الله فيها من القوى، والدليل على هذا أن الله قال لنار إبراهيم: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾، فكانت بردًا وسلامًا ولم تحرقه، فإذا قلنا إن هذه الآثار المترتبة على الأسباب إنما هي بما أودع الله في هذه الأسباب من القوى المؤثرة، فإننا بذلك لم نشرك بالله، وتطرف آخرون من وجه آخر فقالوا إن للأسباب تأثيرًا بذاتها، وإننا نحن نعلم أن الحجر إذا أرسل على الزجاج كسره بنفسه، ولكن هؤلاء هم الذين جعلوا مع الله شركاء، فإنا نقول هذا الحجر لو شاء الله ألا يكسر الزجاجة لم يكسرها كما أن الله لما شاء ألا تحرق النار إبراهيم لم تحرقه، فأهل السنة والجماعة وسط بين هاتين الطائفتين المتطرفتين، الغالية في الأسباب، والغالية في مشيئة الله، نحن نقول الأسباب مؤثرة لكن بمشيئة الله.

١١ - **ومن فوائدها:** إثبات أن الهداية بمشيئة الله، لقوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ وهذه الآية فرد من أفراد أدلة كثيرة تدل على أن فعل العبد واقع بمشيئة الله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، وهذا الموطن حصل فيه مُعْتَرَك عظيم جدًّا، بين ثلاث طوائف، طائفتان متطرفتان، وطائفة معتدلة.

الطائفتان المتطرفتان إحداهما قالت: إن الإنسان يشاء عمله ولا علاقة لله به، فالإنسان حر

يتصرف كما يشاء، وليس لله فيه تدخل إطلاقًا، هو يهدي نفسه، وهو يضل نفسه، قالوا: ولولا ذلك لكان تعذيب الله للعاصي ظلمًا، وثوابه للطائع عبثًا، لأنك إذا قلت إن الإنسان ليس بحر فهو مدبر، والمدبر لا يحمد على فضل، ولا يذم على سوء، ومن المعلوم أن الله رتب الذم على العاصي، والمدح على المطيع، فهذا يدل على أن فعل العبد فعل مستقل.

أما المتطرفون الآخرون فقالوا: إن الإنسان لا مشيئة له، ولا قدرة له، ولا اختيار له في فعله، بل هو مجبر عليه، عاجز عن المخالفة، يجبر جبرًا، يأكل جبرًا، ويشرب جبرًا، ويقدم جبرًا، ويتأخر جبرًا، وليس له اختيار على أي حال، وتعذيب الله للظالم ليس ظلمًا وإن كان الظالم يفعل بغير اختياره، لأن تعذيب الله له تصرف في ملكه، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه، فحينئذٍ لا يرد علينا ما استدل به الطرف الأول، الذي قال لو كان الإنسان غير مطلق الحرية لكان تعذيب العاصي ظلمًا وإثابة الطائع لهوًا، نحن نقول: إن تعذيب الظالم ليس بظلم وإن كان مجبرًا، لماذا؟ لأن الله مالكه يفعل فيه ما يشاء، كما أنت تفعل في ملكك ما تشاء، تهدم البيت تبني البيت، تبيع السيارة تشتري بدلًا لها، وما أشبه ذلك، الطرف هذا هم الجبرية، والطرف الأول يسمون القدرية، فسمي الطرف الأول القدرية لأنهم ينكرون قدر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيما يتعلق بفعل العبد، وسمي هؤلاء جبرية لأنهم يرون أن العبد مجبر على عمله، يتساوى عند هؤلاء من نزل من السلم بتؤدة وطمأنينة درجة درجة ومن دفع من أعلى السلم حتى انزخ على وجهه يقولون كله سواء، كله مجبر.

أما أهل السنة والجماعة فإنهم توسطوا في هذا، وقالوا إننا نثبت الأدلة الدالة على أن كل شيء واقع بمشيئة الله، ونثبت الأدلة الدالة على أن للإنسان اختيارًا وإرادة، وبذلك نجمع بين الأدلة فنقول: فعل العبد واقع بمشيئته، لكن مشيئته تحت مشيئة الله، فإذا شئت أنا شيئًا فإني أعلم أن الله شاءه، وإذا لم أشأ شيئًا علمت بأن الله ما شاءه، ولا يمكن أن أعلم بأن الله شاء شيئًا إلا بعد أن يقع، إذ أن قضاء الله مكتوم، سر مكتوم لا نعلم عنه، لكن إذا وقع علمنا أن الله شاءه، فأنا لا أشاء إلا ما شاء الله، ولكني في نفس الوقت لي حرية، أن أشاء ما شئت إلا أنني أومن بأن مشيئتي هذه كانت بمشيئة الله، ويدل لهذا أن الإنسان أحيانًا يعزم على فعل شيء، وبينما هو مُتَّجه له إذِ انتقضت عزيمته إلى اتجاه آخر، أو إلى إلغاء العمل، إذن هناك سلطة فوق سلطته، لكن هذه السلطة غير معلومة، لا تُعلَم إلا بآثارها، وقد قيل لأعرابي: بما عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم، وصرف الهمم، أعرابي بدوي أجاب بهذا الجواب العجيب، عرفت ربي بنقض العزائم؛ يعني: أعزم على الشيء، ثم تنتقض عزيمتي بدون سبب، وصرف الهمم، أهمُّ بالشيء إلى اليمين ثم أجدني منصرفًا إلى اليسار، بدون سبب، إلا من الله عز وجل، فأهل السنة والجماعة يقولون: الإنسان يشاء ويختار، وليس مُجبرًا، لكن أي شيءٍ يشاءه فهو بعد مشيئة الله، نعلم أن ذلك بمشيئة الله، وهذا هو الذي

تطمئن إليه النفس، وتجتمع به الأدلة، إذن يكون قول المشركين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]؛ لأننا لما عَبَدنا غير الله علمنا أن الله شاء ذلك، وليس لنا قدرة في مخالفة المشيئة حُجَّة باطلة، أبطلها الله عز وجل، ويبطلها العقل، أبطلها الله في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأعراف:١٤٨]، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥] أبطلها الله، فلما أبطلها الله شرعًا، ننظر هل هي باطلة عقلًا، أو لا؟ نقول: هي أيضًا باطلة عقلًا؛ لأنك لم تعلم أن الله قضى عليك بعبادة الأصنام إلا بعد العبادة، فلماذا لم تعدِل عن عبادة الأصنام، وتُقدِّر أن الله قضى عليك بترك عبادة الأصنام؟ لماذا لم تفعل؟

فإقدامُك على عبادة الأصنام وأنت لم تعلم أنَّ الله كتب ذلك هو منك، وأنت الذي أردتَ، ولو أنك قدَّرتَ الأفضل والأحسن، وأن الله قدَّر أن تكون مُوحِّدًا مُجتنبًا لعبادة الأصنام لحصل لك ذلك، ثم إننا نقول: هناك أيضًا دليل حِسِّي؛ لو خُيِّر الإنسان بين شيئين أحدهما أفضل من الآخر، ماذا يختار؟ يختار الأفضل، وهل يمكن لشخص أن يختار الأردأ ويقول: هذا الذي قُدِّر لي؟ أبدًا، لو قيل له: لمكة طريقان: طريق آمِن، وطريق مَخُوف، فقال: نذهب مع الطريق المخوف؛ لأن الله كتب علينا هذا، هل يمكن أو لا يمكن؟ لا يمكن أبدًا، سيسلك الطريق الآمِن لا شك، لو عُرِض عليه عَمَلان في وظيفة، أحد العَمَلين: شاقٌّ وأجرته قليلة، والثاني: خفيف وأجرته كثيرة، ماذا يختار؟ يختار الثاني لا شك.

وهذه أدلة محسوسة تدل على أن الاحتجاج بالقدر على المعاصي، أو على ترك الواجبات احتجاجٌ باطلٌ، لا يستقيم لا شرعًا، ولا عقلًا، ولا حِسًّا، فهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة يقولون: نحن نفعل باختيارنا، ولكن اختيارنا نعلم أن الله قد اختاره لنا قبل أن نختاره نحن، إلا أنه لا حُجَّة لنا في أن نقول: هذا مُختار الله لنا فلا نستطيع أن نتخلَّص منه؛ لأننا حين الفعل لم نعلم ما قُدِّر، ولا يمكن لأي إنسان يدري أن الله قدَّر شيئًا إلا بعد الوقوع، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ فجعلهم هم السبب في ذلك.

١٢ - **من فوائد الآية أيضًا:** أنه ينبغي للإنسان - وهذه فائدة مسلكية - أن يلجأ إلى الله وحده في طلب الهداية، لقوله تعالى: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، فأنت لا تعتمد على نفسك فتهلِك، اعتمِد على ربك، اتجه إليه دائمًا في سؤال الهداية، حتى يهديك الله، وكان النبي ﷺ، وهو الهادي المهدي يستفتح فيقول: «**عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اِهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[1] هذا هو النبي ﷺ،

---

(١) رواه مسلم (٧٧٠)، وأبوداود (٧٦٧)، والترمذي (٣٤٢٠)، والنسائي (١٦٢٥)، وابن ماجه (١٣٥٧) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

فكيف بنا نحن؟ فأنت الجأ إلى ربك في طلب الهداية، لا تعتمد على نفسك، اعتمِد على الله تعالى فهو مرجعك.

١٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من يُضِلَّه الله فلا هادي له، لقوله جل وعلا: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٧]، وفي آية أخرى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾، فإن قال قائل: أفلا يُوجِبُ لنا هذا الحكم أن نتوقَّف عن دعوة الناس إلى الحق؛ لأن الله قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؟ فالجواب: لا يُوجِب، لكن الفائدة من ذلك أننا إذا دعونا أحدًا إلى الحق ولكنه لم يقبل، فإننا لا نُهلِكُ أنفسنا من أجله، بل نقول: هذا قد قضى الله عليه بالضلال، وليس لنا في أمره من شأن، ولهذا نجد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول لنبيه محمد ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣] أي: مُهلِك نفسَك ألَّا يكونوا مؤمنين، لا تُهلِك نفسك، وأنزل الله تعالى عليه تسليةً حين دعا عمَّه أبا طالب لكنه لم يهتدِ، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦] وحينئذٍ لا يمنعنا مثل هذا الحكم أن ندعوا إلى الله، ولكن إذا دعونا إلى الله ولم نجد الناس اهتدوا، فإننا لا نُكلِّف أنفسنا، لا نُهلِك أنفسنا بالهمِّ والغمِّ؛ لأن الإنسان إذا نظر إلى هذه النظرة سوف تتكدَّر عليه دنياه؛ بل سوف يضيع عمله الصالح؛ لأن الناس ليسوا بمهتدين على ما يريد، فإذا أتعبَ نفسه وراء الناس وصار يلهثُ وراءهم تعِبَ، يبذل ما يجب عليه، والباقي على الله عز وجل.

١٤ ـ **ومن فوائد الآية أيضًا**: أن اسم الهادي يُطلَق على غير الله، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فالهادي تُطلق على الله وعلى غيره، لكن الذي يمتنع إطلاقه على غيره هو: هداية التوفيق، فإن هداية التوفيق لا تكون إلا لله وحده، أما هداية الدلالة فإنها تكون لله ولغيره.



قال الله تعالى:

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزمر:٢٤، ٢٥]

التفسير

قال: ﴿يَتَّقِى﴾ [يلقي] ﴿بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [أي: أشده]، ففسَّر سوء بأسوأ، وأسوأ لا شك أنه اسم تفضيل، وسوء ليس اسم تفضيل، وعلى هذا فيكون المؤلف فسَّر الكتاب

بما هو أعلى منه، والواجب أن يكون المُفسِّر مُطابقًا للمفسَّر، ولو قال المؤلف رحمه الله: العذاب السيئ لكان أبلغ مطابقة للقرآن، يقول: [بأن يُلقى في النار مغلولةً يدُه إلى عُنُقه]، وكأنه أخذَه من كونه يتَّقِي العذاب بوجهه؛ لأنه لو كانت يده مطلقة لاتَّقى العذاب بيده، ولكني أقول: لا يلزم من اتقاء العذاب بوجهه أن تُغلَّ يدُه؛ لأن يده قد تكون مرسلة غير مُقيَّدة، ولكن لا يستطيع، أو يظن أن مدافعته بوجهه أشد.

قال المؤلف في ذكر المُعادِل: [كمن أمِنَ منه بدخول الجنة؟] والجواب: لا، وحينئذٍ يكون الاستفهام للنفي؛ يعني: لا يستوي من يتَّقِي بوجهه سوء العذاب مع من أمِنَ من العذاب، ولم يتقِّه.

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ [أي: كفار مكة]، ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [أي: جزاءه]، قوله: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ [أي: كفار مكة]، كأنَّه أخذَه من قوله: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وإلَّا فإنَّ الظالمين هنا عام، لفظ عام يشمل كفار مكة وغيرهم، وهذا هو الأولَى.

فإن قيل: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يدل على أن هذا في المتأخرين؟ قلنا: نعم، هو يدل على أنه في المتأخرين، لكن كل رسول فقد سبقه رسول، فعاد نقول: كذبت قبلهم قوم نوح، وثمود كذَّبت قبلهم قوم عاد، وهلُمَّ جرًّا، فيكون الظالمون عامًّا لكفار مكة ولغيرهم، لكن أول من يدخل فيهم بلا شك: كفارُ مكة؛ لأن القرآن نزل توبيخًا لهم، وإنذارًا ودعوة.

قال المؤلف: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [من جهة لا تخطر ببالهم]، وهذا كما قلنا في التفسير أشد وأبلغ من أن يأتيهم العذاب وهم على أُهْبة الاستعداد له.



❁ قال الله تعالى:

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٦].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ﴾ [الذل والهوان؛ من المسخ، والقتل، وغيره]، ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أذاقهم الله؛ أي: مسَّهُم به، حتى كأنَّهم طعِمُوه وذاقوه بمذاقاته، وقول المؤلف رحمه الله: [من المسخ، والقتل، وغيره] المسخ مثل: اليهود الذين قال الله لهم: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، والقتل: قتال بني إسرائيل، قتلوا أنفسهم حينما أُمِرُوا بالتوبة، وقيل لهم: إن كنتم صادقين في التوبة فاقتلوا أنفسكم، وكذلك أيضًا يقول المؤلف: [وغيره] كالإهلاك

بالصاعقة، والرجفة، وما أشبهها، فالمهم: أن المُكذِّبين بالرسل كلهم أهلكهم الله عز وجل.

فإن قال قائل: أليس من الرسل من قُتِل؟ الجواب: بلى، ولكن هؤلاء الذين قُتِلوا إما أن يكونوا لم يُؤمَروا بالقتال، فاعتدى عليهم من اعتدى بدون قتال، وإما أنَّهم أُوتُوا على غِرَّة دون أن يجاهروا بالقتل، ثم إذا قُتِلوا هل معنى ذلك: أن ما دعوا إليه يموت بموتهم؟ قد يبقى، فيكون هذا نصرًا لهم ولو بعد وفاتهم.

وقوله: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾ [الذل والهوان، والمسخ، والقتل، وغيره] ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟﴾ [أي: المُكذِّبون] ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [عذابها ما كذَّبوا]، قوله: [ما كذبوا] هذا جواب لو محذوفة.



قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٢٧].

التفسير

قوله: ﴿ضَرَبْنَا﴾ يقول المؤلف: [جعلنا]، ولعل الضرب أخص من الجَعْل؛ أي: بيَّنَّا للناس في هذا القرآن من كل مثل، والجملة هنا مُؤكَّدة بمُؤكِّدات ثلاثة، وهي: اللام، وقد، والقسم المُقدَّر؛ لأن تقدير الكلام في مثل هذا التركيب: والله لقد، فيكون مُؤكَّدًا بمُؤكِّداتٍ ثلاثة، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ إذا قال قائل: كيف يُؤكِّد هذا وهو أمر معلوم، والغالب أن التأكيد إنما يُصارُ إليه للحاجة إليه؟ فالجواب: أن التأكيد قد يكون للحاجة إليه عندما يكون المُخاطَبُ شاكًّا أو مُنكِرًا، وقد يكون التأكيد لأهمية المُؤكَّد، وإن لم يكن ثَمَّ إنكار، أو تردُّد، ومنه هذه الآية، فإن ضرب الله الأمثال للناس في القرآن أمر محسوس مُدرَك، ولكن لأهميته أكَّده الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بقوله: ﴿لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل شَبَه، فيضرب الله تعالى الأشباهَ والنظائر ليحذَر من كان على مثل هذا النظير وهذا الشبيه حتى لا يقوم بمثل ما فعل.

وقوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [يتَّعِظون]، ولعل هنا للتعليل، وهو أحدُ معانيها، ومن معانيها: الترجِّي؛ مثل: لعلَّ الحبيب قادم، ومن معانيها: الإشفاق؛ مثل: لعلَّ الحبيب هالك، ففي الأول: لعلَّ الحبيب قادم رجاء، وفي الثاني: إشفاق؛ يعني: أخشى أن يكون هالكًا، وتأتي للتعليل كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وفي قوله: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ قد يكون هذا

للتوقُّع، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ للتوقُّع أيضًا، هي في القرآن كثير، ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ [غافر: ٣٦] للترجِّي، ويحتمل أن تكون للتعليل، وكثير في القرآن لعل، فيظن بعض الناس أنها للترجِّي في كل مكان، فيقول: كيف يترجَّى الله -عزَّ وجلَّ- الشيء وهو قادر على كل شيء، نقول: لعل إذا جاءت في كلام الله فهي للتعليل.

وقوله: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: يتعظون؛ لأن هذا هو الغرض من ضرب الأمثال.



قال الله تعالى:

﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

التفسير

﴿قُرۡءَانًا﴾ هذه حال، و﴿عَرَبِيًّا﴾ حال أخرى؛ يعني: هذا القرآن الذي فيه من كل مثل هو قرآنٌ، وصيغة فعلان تأتي بمعنى المصدر، وتأتي بمعنى اسم الفاعل أو المفعول، فمن إتيانها مصدرًا: الغُفران، والشُّكران، وأنا أقصد بهذا: وزن فعلان تأتي مصدرًا؛ مثل: الغفران، والشكران، والقرآن، وهذا المصدر في لفظ القرآن يحتمل أن يكون بمعنى اسم المفعول، فقرآن بمعنى: مقروء، وعلى هذا فيكون بمعنى: متلُوّ، ويحتمل أن يكون اسم فاعل، بمعنى: قارئ، وهو مِنْ قرأ الماء، إذا جمعه في الحوض، والقرآن إذا تأمَّلتَ وجدتَ أن الوصفَيْن ينطبِقَان عليه، فهو متلُوٌّ وجامع، ولهذا قال العلماء في أصول التفسير: إنه يصح أن يكون بمعنى اسم الفاعل، ويصح أن يكون بمعنى اسم المفعول.

وقوله: ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي: باللغة العربية التي هي لسان محمد ﷺ، ولسان القوم الذين بُعِث فيهم، والعربية هي أفضل الألسُن، وأعربها، وأفصحها، وأبْيَنُها، ولهذا اختارها الله -عزَّ وجلَّ- لرسالة محمد ﷺ، فإن قيل: أليس في القرآن من الكلمات ما أصلُهُ أعجمي؟ بلى فيه، ولكن هذه الألفاظ التي أصلها غير عربي، لما نَطَقَ بها العرب عرَّبُوها صارت عربية، ولهذا لا تخلو هذه الكلمات المُعرَّبة من تغيير بعض الشيء، لابد أن يكون فيها شيء من التغيير في الغالب، وإذا نطق بها العرب واستخدموها وسادت في ألسنتهم صارت عربية، عارِبة أو مُستعرِبة؟ مستعربة، إذن فهي كلماتٌ مُستعرِبة من قوم مُستعرِبين أيضًا؛ لأن أصل العرب مُستعرِبين؛ لأنهم ليسوا عَرَبًا في الأصل، فإسماعيل ابن إبراهيم، ليست لُغتُه عربية، لكن لما جاء عرب جُرْهم إلى أم إسماعيل ونزلوا عندها صار عربيًّا، واستمرَّت العروبة إلى يومنا هذا.

وقوله تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾ هذا الوصف سلبيٌّ وليس ثبوتيًّا، واعلم أنه لا يوجد

في أوصاف القرآن ما هو سلبيٌّ محض؛ لأن السلبي المحض ليس فيه مدح؛ بل كل شيء وُصِفَ به القرآن على وجه النفي فإن ذلك لكمال ضدِّه، فإذا قال: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أي: لكمال استقامته؛ بل قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ فالقرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم في أمور الدين، وفي أمور الدنيا، على وجهٍ ليس فيه اعوجاج بوجهٍ من الوجوه، ولهذا قال: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: لأجل أن يتَّقوا، فبيَّن الله لنا هذا القرآن وجعله غير ذي عوج من أجل تقواه عز وجل.

يقول الشارح رحمه الله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [أي: جعلنا]، وهذا التفسير تفسيرٌ بما هو أعم؛ لأنَّ ضرب ليس مجرد جعْلٍ له؛ بل ضرب المثل للاعتبار به، فضربتُهُ مثلًا؛ أي: جعلتُه شَبَهًا حتى يُعتبَر به، وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ يشمل كل الناس: المؤمن والكافر، لأجل أن يتذكَّر هؤلاء وهؤلاء.



قال الله تعالى:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩].

التفسير

لما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ذكر هذا المثل ضربه لنا، فبيَّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هذا المثل العظيم، فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي: مُتنَازِعون مختلفون، كل واحدٍ منهم يقول: أنا صاحبه، أنا الذي أريد أن أستخدمه، وما أشبه ذلك، فهم دائمًا في نزاع، وفي خصومة؛ لأن كل واحد منهم يريد أن ينفرد به عن الآخر، والرجل الثاني رجلًا سلمًا لرجل، سلمًا؛ أي: سالمًا لهذا الرجل، لا يَشْرَكُه فيه أحد، فإن قال قائل: بمَ عرفتم أن سلمًا بمعنى: سالم من الشركاء؟ قلنا: عرفنا ذلك بذكر المقابل، وهو قوله: ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ لأن الكلمة تُعرَف بالسياق وذكر المقابل، ومن أبرز مثال على ذلك: قوله تبارك وتعالى: ﴿فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١] لو قال قائل: ما معنى ﴿ثُبَاتٍ﴾؟ لفهمت معناها مما بعدها ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ فيكون الثُّبات ضد المجتمعين؛ أي: انفروا فُرادى أو انفروا جميعًا، وهذه من قواعد التفسير: أن يُعرَف تفسير الكلمة بذكر ما يُقابِلها، فهنا نقول: رجلًا سلمًا؛ أي: خالصًا للرجل لمالِكِه لا يشاركه فيه أحد، فإن قال قائل: بمَ عرفتم ذلك؟ قلنا: بما ذكرنا من القاعدة، أن المقابل للشيء؛ أي: الذي جُعِل معادلًا له يكون مُقابلًا له في المعنى، هذا الرجل الذي

كان سلمًا لرجلٍ هل أحد يُشارِكُه في ملكه؟ لا، هل أحد يُنازِعُه؟ لا، إذن يجب أن نعرف الفرق بين المملوك الذي فيه شركاء، الشركاء المُتشاكِسُون، والمملوك الذي ليس فيه شركاء، ثم نقيس عليه: المخلص لله الذي يعبد الله وحده، والذي يعبد مع الله غيره، ولهذا قال: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: هل يستوي الرجلان أحدهما فيه شركاء متشاكسون، والآخر سلمٌ لرجل، هل يستوي هذان؟ الجواب: لا، فالاستفهامُ حينئذٍ بمعنى النفي؛ يعني: لا يستويان، والاستفهام يأتي بمعانٍ كثيرة، كما هو معروف في علم البلاغة، ولكنه إذا أتى في موضع النفي فإنه يكون مُشرَبًا معنى التحدي؛ لأنه لو قيل: لا يستويان، لفهِمْنا انتفاء استوائهما، لكن إذا قيل: هل يستويان؟ فهِمنَا أمرَين: الأمر الأول: انتفاء الاستواء، الأمر الثاني: التحدي، يقول: هل عندك شيء تُثبِت أنهما يستويان؟ فيكون تحويل النفي إلى استفهام أبلغ في النفي وأبيَن.

قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؟ الجواب: لا، قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حَمِدَ نفسه عز وجل، لكمال صفاته وكمال إنعامه، ومن إنعامه: أنه يضرب الأمثال للناس في القرآن لعلهم يتذكَّرون، مع أنه - عزَّ وجلَّ - غنيٌّ عنهم، ومن كَفَرَ فإن الله غنيٌّ عن العالمين كلهم، لكن رحمته تأبى إلا أن يُبيِّن لعباده ما يحتاجون إليه في أمور دينهم ودنياهم، ولهذا قال بعد هذا البيان التام في المثل: الحمد لله.

ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بل هنا للإضراب، والإضراب له معنيان، المعنى الأول: إضراب انتقال، ينتقل من شيء إلى آخر، والمعنى الثاني: إضراب إبطال، يُبطِل الأول، ويُثبِت الثاني، فإذا قلت: ما قام زيدٌ؛ بل عمرو، فهذا إضراب إبطال، أبطلت الأول، وأثبتَّ الثاني، وفي قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ هذا انتقال من معنى إلى معنى أشد منه، في هذه الآية: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، هل هي إضراب إبطال أو إضراب انتقال؟ إضراب انتقال؛ لأنه لم يسبق شيئًا أبطلته، وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ المراد بأكثرهم هنا: أكثر الناس، كما جاء ذلك في آية أخرى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وانتفاء العلم هنا لانتفاء لازمِهِ، وهو: العمل والامتثال، فأكثرُ الناس في جهل، وأكثر الناس في غيٍّ، في جهلٍ لا يعرفون الحق، وفي غيٍّ لا يقبلون الحق، ولا يعملون به، وكلهم يصح أن ننفي عنه العلم، أما من كان في جهلٍ فنفيُ العلم عنه واضح، وأما من كان في غيٍّ مع العلم، فنفيُ العلم عنه؛ لأنه لم ينتفع به، ولم يعمل به.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣٠، ٣١].

التفسير

﴿إِنَّكَ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ ﴿مَيِّتٌ﴾ وصفٌ له في المستقبل ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ كذلك، وأكَّد الموت مع العلم به يقينًا من أجل أنَّ عمل هؤلاء الذين كذَّبوا النبي ﷺ عملُ من لم يُوقِن بالموت؛ لأن من أيقَنَ بالموت حقيقة فلابد أن يعمل له، لكنهم هم لا يعملون له فكان عدم عملهم له كالمُنكِر أو بمنزلة المُنكِر، فلهذا أُكِّد.

وقوله تعالى: ﴿مَيِّتٌ﴾ بتشديد الياء: يقال لمن سيموت وهو حيٌّ، وأما ميْت: فيقال لمن وقع به الموت؛ أي: بعد فراق حياته، يقال: مَيْت، وربما يقال مَيِّت لكن الأكثر مَيْت، فعلى هذا يُفرَّق بين أن يُوصَفَ الحيُّ بالموت فيقال فيه: مَيِّت، وبين أن يُوصَفَ الميِّت بالموت، فيقال: مَيْت.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، ﴿إِنَّكُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ومن عانَدَه ومن كَفَرَ به، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ سبق تفسيره، ﴿عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ عند ربكم الذي خلقكم أول مرة، وأعادكم ثاني مرة، تختصمون عنده، أيُّكم على الحق، ونحن نعلم الآن نتيجةَ هذه الخصومة، من سيغلِب؟ المؤمنون لا شك، قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١] فالكافر لا سبيل له على المؤمن، فالنتيجة - والحمد لله - معلومة، أن المؤمنين هم الغالبون يوم القيامة، وهم الخاصمون لأعدائهم.

يقول المؤلف رحمه الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ﴾ [للمشرك والمُوحِّد] ﴿مَثَلًا﴾ وتقييدُه المؤلف بالمشرك والمُوحِّد واضح؛ لأن المثل المضروب، وهو: العبد المملوك بين شركاء والعبد الخالص ينطبق تمامًا على المشرك والموحد.

يقول: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ﴾ [للمُشرِك والمُوحِّد] ﴿مَثَلًا رَّجُلًا﴾ [بدل من ﴿مَثَلًا﴾]، والبدل يقول ابن مالك رحمه الله فيه:

التابعُ المقصودُ بالحكم بلا واسطة هو المسمى بدلا

فقوله: (التابعُ المقصودُ بالحكم) خرج به: بقية التوابع، وقوله: (بلا واسطة) خرج به: المعطوف بـ (بل)، فإن المعطوف بـ (بل) يكون إذا كان للإضراب الإبطالي يكون هو المقصود بالحكم، لكنَّه بواسطة فلا يُسمَّى بدلًا، فهنا قال: ﴿مَثَلًا رَّجُلًا﴾ لو حُذِفَت مثلًا وقال: ضرب الله

رجلًا، أيصح الكلام أو لا؟ يصحُّ؛ لأن المقصود هو كلمة رجلًا، وأنت لو قلت: رأيتُ محمدًا عليًّا، عليًّا بدل؛ لأن المقصود هو علي، إذا خاطبك مُخاطِب، وقال: رأيت عليًّا محمدًا، عرفت أنه أراد محمدًا ولم يُرِد عليًّا؛ لأن محمدًا بدل من عليًّا، والبدل هو المقصود بالحكم، لكن قد يكون سببه الغلط، وقد يكون سببه النسيان، أو غير ذلك من الأسباب، المهم أن البدل هو ما يقصد بالحكم.

يقول تعالى: ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ [مُتنازِعون سيئةٌ أخلاقُهم] من أين أخذ سوء الخلق؟ من قوله: ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ لأن المشاكسة تُنْبِئُ عن سوء الخلق؛ إذ أنَّ حَسَنَ الخلق يتنازل عن حقه ولو كان في ذلك أذيَّة له، أو ضررًا عليه؛ لأن حُسْن أخلاقه تتغلَّب على أخذه لحقه، وهكذا ينبغي للإنسان أن يكون حَسَن الأخلاق وأن يتغاضى عن بعض حقه، ولو كان في ذلك أذيَّة لنفسه، وليعلم أنه وإن قالت له نفسه: إن تواضُعك وعفوك عن حقك ذلٌّ لك ليعلم أن هذا من وساوس الشيطان؛ لأن النبي ﷺ، قال: «مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا[1]، وَمَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَهُ اللهُ[2]»[3]، فلا تغلِبك نفسك وتأخذك العزةُ بالإثم، فتقول: لا يمكن أن أسكت عن هذا الرَجل، أنا من أنا حتى يعتدي عليَّ؟ أنا فلان ابن فلان، فإن هذا من الشيطان، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: وما يُوفَّق لها ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

يقول: [مُتنازِعون سيئةٌ أخلاقهم]، (ورجلًا سالمًا لرجل) وهي قراءة، والمُفسِّر فسَّر عليها، والسالم يعني: الخالص كما فسَّره، خالصًا لرجلٍ، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ يقول: ﴿مَثَلًا﴾ تمييز، ما هو التمييز؟ التمييز مِنْ ميَّز إذا بيَّن، وقد حدَّه ابن مالك في «الألفية» فقال:

اسمٌ بمعنى (مِنْ) مبينٌ نكـــره يُنصَبُ تمييزًا بما قـد فسَّـــره

هذا التمييز اسمٌ نكرة يُبيِّن المُبهَم الذي فسَّره، وهو بمعنى: مِن، ومثاله: قولهم: تصبَّب زيد عرقًا، عرقًا هذه تمييز، طبِّقها على التعريف، نجد أنها اسم بمعنى مِن؛ يعني: تصبَّب من العرق، مُبين؛ أي: مُفسِّر لكلمة تصبَّب؛ لأن تصبَّب ما نعرف تصبَّب دمًا، تصبَّب ماءً، تصبَّب عرقًا، فبيَّن المتصبب، نكرة أو معرفة؟ نكرة، يقول: ﴿مَثَلًا﴾ [تمييز؛ أي: لا يستوي العبدُ لجماعةٍ والعبد لواحد، فإن الأول إذا طلب كلٌّ من مالكيه خدمته في وقت واحد، تحيَّر فيمن يخدمه منهم، يقول:

(١) فيه أيضا وجهان أحدهما على ظاهره ومن عرف بالعفو والصفح ساد وعظم في القلوب وزاد عزه وإكرامه والثاني أن المراد أجره في الآخرة وعزه هناك.

(٢) فيه أيضا وجهان أحدهما يرفعه في الدنيا ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة ويرفعه الله عند الناس ويجل مكانه والثاني أن المراد ثوابه في الآخرة ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا قال العلماء وهذه الأوجه في الألفاظ الثلاثة موجودة في العادة معروفة وقد يكون المراد الوجهين معا في جميعها في الدنيا والآخرة.

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٨)، والترمذي (٢٠٢٩)، وأحمد في مسنده (٨٩٩٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[لا يستوي] فبيَّن رحمه الله أن الاستفهام في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ للنفي؛ حيث فسَّره بنفي، وقوله: [لا يستوي العبد لجماعة والعبد لواحد] صحيحٌ لا يستويان، العبدُ لواحد يتصرَّف فيه متى شاء، متى شاء قال: اخدمني، ومتى شاء قال: استرِح، ومتى شاء باعه، ومتى شاء أجَّرَه، لكن العبد لجماعة، والجماعة مُتشاكِسُون أخلاقٌ سيئة، تنازُعٌ دائم، هل يستويان؟ أبدًا، لو قال واحد: تعال اخدمني، وقال الثاني: اخدمني أنا، وقال الثالث: اخدمني أنا، وقال الرابع: اخدمني أنا، صار أحدهم أخذ باليد اليمنى، والثاني باليد اليسرى، والثالث بالرجل اليمنى، والرابع بالرجل اليسرى، ثم مزَّعُوا العبد؛ لأن كل واحد يريد أن يكون عنده، هو الذي يخدمه، كذلك أيضًا في البيع، لو أراد أحدهم قال: أنا أريد بيعه، وقال الثاني: لا أريده، وقال الثالث: أنا أريد تأجيره، والرابع قال: أريد إعارته، كيف يكون هذا؟ دائمًا في نزاع وشقاق، فالعبد نفسه في قلق، وفي حيرة، وفي بلاء، والشركاء أيضًا كذلك مُتشاكِسون دائمًا، لا يمكن أن يستوي هذا مع رجل، وهذا لا شك أنه مثل تقريبي، وإلا فالفرقُ عظيم بين عبادة الله - عزَّ وجلَّ - وعبادة غيره معه؛ يعني: أنه أعظم ولكن الله تعالى يُقرِّب هذا للعباد، كما قرَّب المعاد بالماء الذي ينزل من السماء ثم تنبت به الأرض، كم يبقينبات الأرض بعد نزول المطر؟ يبقى مدة، حسب طِيب الأرض، وحسب المطر، وحسب الجو المناسب، وحسب الفصل، لكن يبقى، البعثُ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣، ١٤] فالأمثال قد لا تكون مطابقة تمامًا، قد يكون مورِدُ المثل أسرع من المثل، لكن على سبيل التقريب، ولا شك أن عبادة الله وحده وعبادة غيره معه لا شك أن بينهما فرقًا أعظم من الفرق بين الرجل السالم للرجل والرجل المشترك بين شركاء متشاكسين.

يقول المؤلف رحمه الله: [هذا مثلٌ للمشرك، والثاني مثلٌ للموحد]، ما هو الثاني؟ رجل سالمًا لرجل، هذا للمُوحِّد، والأول للمشرك، وما هو المقصود من ضرب هذا المثل؟ المقصود: التحذيرُ من الشرك بالله عز وجل، ثم اعلم أنَّ الشركاء في العبد مُتشاكِسُون، لكن مع الله عز وجل، يقول الله في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**(١)»(٢) الشركاء المُتشاكِسون لا يمكن أن يتنازل أحدهم عن نصيبه، لكن الشرك بالله يَدَعُ الله المشرك وشركه، «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**» ولهذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [وحده] وإذا كان الحمد له وحده وَجَبَ أن تكون العبادة له وحده؛ لأنه أهل الحمد وأهل العبادة - سبحانه وتعالى -، فهو وحده المستحق للعبادة لأَنْ يُعبَد.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ [أي: أهل مكة] ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [ما يَصِيرون إليه من العذاب،

---

(١) معناه أنه غني عن المشاركة وغيرها فمن عمل شيئا لي ولغيري لم أقبله بل أتركه لذلك الغير والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه ويأثم به.

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فيُشرِكون] المؤلف رحمه الله دائماً ولاسيَّما في الآيات والسور المكية يجعل مثل هذا الخطاب مُنصبًّا على أهل مكة، ولكن الذي ينبغي أن نجعل دلالة القرآن عامة دائمًا إلا عند الضرورة؛ لأن القرآن نزل لجميع الخلق إلى يوم القيامة، فتخصيصه لأهل مكة يعني: أنه لا يتناول غيرهم إلا بالقياس، لكن إذا أخذنا بلفظه العام شمل أهل مكة وغيرهم بالنص، وهناك فرق بين شمول الحكم بالنص، وشموله بالقياس، فالصحيح أن الضمير في أكثرهم يعود على جميع الخلق، أكثر الخلق لا يعلمون، ولهذا ثبت في الحديث الصحيح: أن الله يقول: «يَا آدَمُ ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ ! وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُ مِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ»[1] وهؤلاء هم الأكثر أو الأقل؟ الأكثر، فأكثرُ الخلق لا يعلمون، إما لجهلهم، أو لغيِّهم، إن كانوا لجهلهم، فكما قلت: فهم قد انتفى عنهم العلم، وإن كان لغيِّهم، فإن العلم انتفى عنهم لانتفاء فائدته؛ حيث لم يسترشدوا به.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ﴾ [خطابٌ للنبي ﷺ] ﴿مَيِّتٌ﴾ [أي: ستموت] قال: ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [ستموت ويموتون]، وكما يقول العامة عندنا: الوعد قُدَّام، قُدَّام؛ يعني: يوم القيامة؛ لأن الله يوم القيامة يفصِلُ بين العباد، سوف يتنازَعُ الناس في أعمالهم ودياناتهم، ويتنازعون في حقوقهم الخاصة، فيفصِل الله بينهم يوم القيامة، يقول: [فلا شماتة بالموت]؛ يعني: أنك إذا مِتَّ فلا شماتة عليك؛ لأنهم سيموتون مثلك، [نزلت لما استبطؤوا موته ﷺ]، هكذا قال المؤلف: إن سبب نزولها أن قريشًا استبطؤوا موت النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية تُخبِره أنه سيموت وإذا مات فهم أيضًا سيموتون ويختصمون يوم القيامة، ولكن هذه الدعوى تحتاج إلى دليل، لننظر في سبب النزول لا نجد هذا، فإذا كان كذلك فلا ينبغي أن نتخيَّل سببًا للنزول في معنى آية من كتاب الله؛ لأن سبب النزول خبرٌ محضٌ، والخبر المحض لا مدخل للعقل فيه، ولكننا نقول: ذكر الله هذه الجملة إشارة إلى أنه لن يضيع عملك ولا عملهم، لن يضيع عملك بدعوتك إلى التوحيد، ولن يضيع عملهم بالإشراك، فإن لكم موعدًا ستجتمعون فيه، وتختصمون فيه عند الله عز وجل، فيكون في هذا تسليةٌ للرسول ﷺ، وفيه تحذيرٌ للمشركين، فهو من وجهٍ تسلية وتطمين للنبي ﷺ، وهو من وجهٍ آخر تحذير للمشركين بأنهم سيموتون، وسيكون أيضًا موتهم عن قرب، وسيكون مُؤكَّدًا لا إشكال فيه.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ [أيها الناس فيما بينكم من المظالم] هذا عجبٌ من المؤلف رحمه الله، الخطابُ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ صَرَفَه المؤلفُ إلى عموم الناس، فقال: [أيها الناس فيما بينكم من المظالم]، والسياق يأبى هذا التفسير؛ بل الخطاب للنبي ﷺ ومن كفر به، هذا هو المُتعيِّن، وتختصمون في المظالم التي بينكم، أو فيما بينكم من الحق والباطل؟ الثاني: من الحق

(١) رواه البخاري (٣١٧٠)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

والباطل، أنت تدعو إلى التوحيد وهم يُنكِرُون ذلك، ولكم موعد تختصمون فيه، ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ أي: الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن كذَّبه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾، وفي قوله: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ إشارة إلى أن هذا الاختصام من مقتضى ربوبيته عز وجل؛ لأنه حَكَمٌ عدلٌ، ومن عدله أنَّه يفصِلُ بين المُتنازِعِين فيه يوم القيامة، كما يفصل بين المتنازعين في الحقوق الخاصة.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر:٢٧].

١ ـ **من فوائد الآية الكريمة:** أن الله سبحانه وتعالى أنزل هذا القرآن تبيانًا لكل شيء، ومن التبيان: ضرب الأمثال؛ لأنها تُقرِّب المعنى، وتضع المعقول في صورة المحسوس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤١].

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** رحمةُ الله سبحانه وتعالى بالعباد؛ حيث بيَّن لهم هذا البيان التام.

٣ ـ **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للمعلم غيرَه أن يُكثِر له من ضرب الأمثال التي تعينه على فهم المعنى؛ لأن هذا هو أسلوب القرآن.

٤ ـ **ومن فوائدها:** إثبات العلل والحكم، في أفعال الله وشرعه، لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها:** الرد على الجهمية وأشباههم ممن أنكروا حكمة الله، وقالوا: إن الله سبحانه وتعالى يفعل الشيء لا لعلة ولا لحكمة، ولكن لمجرد المشيئة، وجه ذلك: أن لعلَّ هنا للتعليل، والتعليل يعني: إثبات الحكمة.

ثم قال الله عز وجل: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر:٢٨].

١ ـ **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن القرآن عربي؛ أي: نازلٌ بلغة العرب.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أنه لا يوجد في القرآن لفظ أعجمي؛ لأن الله وصف القرآن كله بأنه عربي، وهذا يقتضي أن ليس فيه شيء من لغة العجم، ولا شك أن هذا هو الواقع، فليس في القرآن لفظٌ عجميٌّ، ولكن اختلف العلماء المُفسِّرون وغيرهم: هل في القرآن كلمة أصلها عجمي ثم عُرِّبَت؟ فمنهم من يقول: نعم، ومنهم من يقول: لا، فالذين قالوا: نعم قالوا: هناك كلمات في القرآن الكريم لا تنطبق عليها قواعد اللغة العربية، ويعني هذا: أنها أعجمية، وهذا لا يُنافي أن يكون القرآن عربيًا؛ لأن العرب لما عرَّبَتها صارت عربية بالاستعراب، كما أن العرب أصلهم مُستعرِبون، وإلا فلغة أبيهم إسماعيل ليست عربية.

ومنهم من قال: هذه الكلمات التي هي كلمات أعجمية إنما جاءت بلسان العرب من باب

توارد اللغتين، ولا مانع من أن تتوارد اللغتان على كلمة واحدة، والخلاف في هذا قريبٌ من اللفظي؛ وذلك لأنهم متفقون على أنه لا يوجد في القرآن لفظ أعجمي هو أعجمي حتى نزول القرآن أبدًا.

٣ - **ومن فوائدها:** بيان حكمة الله - عزَّ وجلَّ - في إنزاله القرآن باللسان العربي؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام بُعِث في قوم عرب، فكانت الحكمة أن يكون لسانه عربيًا كما هو الشأن في جميع الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

٤ - **ومن فوائدها:** أن فهم المعنى مُعِينٌ على التقوى، لقوله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وهذا أمر واقع: أن فهم المعنى من أسباب التقوى؛ لأنك لو تكلم لك إنسان بما لا تفهم معناه لا يؤثر فيك شيئًا، إنما يؤثر فيك ما تفهم معناه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، ونستفيد من هذه الجملة ما استفدناه من الجملة السابقة وهي قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩].

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هذه الآية تطبيق لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ فإن هذا مثل.

٢ - **ومن فوائدها:** أن مثل من يعبد مع الله غيره كمثل عبدٍ فيه شركاء متشاكسون متنازعون متخاصمون، وجه ذلك: أن هذا العابد مع الله غيره لم يكن قلبه خالصًا لله، فتنازعه الشركاء من اليمين والشمال، حتى ضاع بينهم.

٣ - **ومن فوائدها:** أن الله تعالى يأتي بالخبر أو غيره ثم يُقرِّرُ ذلك للمُخاطَب بأحسن وجه، وذلك في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾، فإن هذا الاستفهام الذي يُرادُ به النفي الغرضُ منه: تقرير ما ذُكِر، وإلزام المخاطب به.

٤ - **ومن فوائدها:** أن الله تعالى مستحق للحمد لكمال توحيده، لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أن الحمد المطلق إنما يكون لله عز وجل، أما غيره فهو إن حُمِد فليس حمده على الإطلاق؛ بل يُحمَد على شيء معين وجزء معين مما يُحمَد عليه، أما حمده على الإطلاق فهو لله رب العالمين عز وجل؛ لأنه هو المحمود على كل حال، وكان النبي ﷺ إذا أتاه ما يسر به قال: «**الحَمْدُ للهِ الذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ**»، وإذا أتاه ما يسوؤه قال: «**الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**»(١).

٦ - **ومن فوائدها:** أن أكثر بني آدم لا يعلمون الحقائق على ما هيَ عليه، وإن علِمُوها لا

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٣٨٠٣)، والحاكم فى المستدرك (١٨٤٠)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤٣٧٥) من حديث أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٦٤٠).

ينتفعون بها، لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١].

١ - **من فوائدها:** أن نبيَّنا ﷺ لن يُخلَّد أبد الآبدين؛ بل هو ميت كما أن خصومه أموات، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** تسلية النبي ﷺ، لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** إنذار هؤلاء المكذبين، بأن لهم موعدًا مع الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو: الاختصام يوم القيامة.

٤ - **ومن فوائدها:** أن أهل الشرك والكفر خصوم لأهل التوحيد والإيمان في الآخرة، كما أنهم خصوم في الدنيا، ففي الدنيا لا شك في خصومتهم وعداوة بعضهم لبعض، وفي الآخرة أشد وأعظم.

٥ - **ومن فوائدها:** أن الخلق يختصمون عند الله يوم القيامة، ومن المعلوم أن الخاصم إذا كانت الخصومة بين المؤمن والكافر هو المؤمن، قال الله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

٦ - **ومن فوائدها:** إثبات البعث والحساب، لقوله تعالى: ﴿مَّيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

التفسير

(مَنْ) هذه استفهامية، وقوله: ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ إذ ظرفٌ بمعنى: حين، والاستفهام في قوله: ﴿أَلَيْسَ﴾ للتقرير.

يقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ هذا الاستفهام هنا بمعنى النفي؛ أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله، وقوله: ﴿كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: افترى عليه الكذب، إما بنسبة الشريك إليه، أو بأنه حرَّم شيئًا ولم يُحرِّمه، أو أحلَّ شيئًا ولم يُحلَّه، أو أوجب شيئًا ولم يوجبه، أو

عطَّل صفة من صفاته، أو أثبت له ما لم يثبته لنفسه، أو غير ذلك مما يكون فيه الكذب على الله، فلا أحد أظلم ممن كذب على الله، والكذب على الله ليس كالكذب على البشر، والكذب على الرسول عليه الصلاة والسلام، ليس كالكذب على غيره من البشر، قال النبي ﷺ: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ؛ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ فجمع بين الأمرين، كذَّب بالصدق؛ أي: نسب الصدق إلى الكذب، وقال: هذا كذب، ومن ذلك: تكذيب قريش للرسول ﷺ؛ حيث قالوا: إنه ساحر كذاب.

قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ هذا الاستفهام للتقرير، والغالب أن همزة الاستفهام إذا دخلت على ما يفيد النفي، الغالب أن تكون للتقرير، وجوابها بالإثبات يكون بلى، مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] الاستفهام هنا للتقرير، ومعناه: قد شرحنا لك صدرك، ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [التغابن:٥] المعنى: قد أتاكم، وأمثلة هذا في القرآن كثير.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:٦٨] أظهر في مقام الإضمار، وكان مقتضى السياق أن يقول: أليس في جهنم مثوى له، والإظهار في مقام الإضمار له فوائد:

منها: فائدة العموم؛ يعني: مثوى له ولغيره من الكافرين، الثانية: تسجيل الوصف على هؤلاء بأنهم كفار؛ يعني: إثبات أن هؤلاء كفار، الثالثة: إفادة التعليل، لو قال: أليس في جهنم مثوى له، لم نستفِد ما هي العلة في أنه مثواه جهنم، لكن إذا قال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ عرفنا أن العلة: كفره، ففيه بيان العلة.

إذن هؤلاء الذين كذبوا على الله وكذَّبوا بالصدق هم كفار، ومثواهم جهنم - والعياذ بالله -، وجهنم قيل: إنها من الأسماء المُعرَّبة، وأصلها في اللغة الفارسية: جهنَّام، وقيل: إنها اسم عربي وأنها مأخوذة من الجهمة؛ يعني: الظلمة، والنار لبُعْد قعرها - أعاذني الله وإياكم منها - سوداء مظلمة، فالله أعلم، سواء هذا وهذا، المهم: أنها تُستَعمل في لغة العرب للنار العظيمة المسودة.

يقول المؤلف رحمه الله: ﴿فَمَنْ﴾ [أي: لا أحد]، وتحويل المؤلف الاستفهام إلى النفي يفيد أن معنى الاستفهام: النفي، لا أحد أظلم ممن كذَب على الله؛ أي: قال عليه الكذب، قال المؤلف: [بنسبة الشريك والولد إليه]، وهذا على سبيل التمثيل لا الحصر، فمن قال: إن لله ولدًا فقد كذب على الله، إن لله شريكًا فقد كذب على الله، إن الله لا يُوصَف بهذه الصفات التي وصف الله بها نفسه، فقد كذب على الله، إن الله مماثل لخلقه، فقد كذب على الله، إنَّ الله حرَّم السائبة والوصيلة والحام، فقد كذب على الله، المهم: أن ذكر المؤلف رحمه الله لهذين الأمرين فقط المراد به: التمثيل لا

---

(١) رواه البخارى (١٢٢٩) من حديث المغيرة بن شعبة رضى الله عنه ، ومسلم (٩٣٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه بدون شطره الأول .

الحصر، الكذب على الله كثير، وبعضه أشد من بعض.

قال: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ [بالقرآن] ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ لا شك أن القرآن صدق؛ بل صدق وعدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] فهو باعتبار الأخبار صدق، وباعتبار الأحكام عدل، لكن المسألة أعمُّ مما قال المؤلف، ﴿بِٱلصِّدْقِ﴾ أي: بما كان صادقًا سواء في القرآن أو في السنة، فإنه داخل في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾.

وقوله: ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ يعني: إذ أتاه، وليس شيئًا منقولًا له؛ بل هو قد أتاه مباشرة وأُخبِر به على لسان الصادق فيكذب به، لو أن أحدًا حدثني عن شيخه، وشيخه عن شيخه، وشيخه عن شيخه، وشيخه عن شيخه حتى وصل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، فهل يمكن أن نُكذِّب هذا إذا كان في أحد الرواة من هو متهم بالكذب؟ يمكن، لكن إذا جاءنا الخبر من الرسول عليه الصلاة والسلام، فإن تكذيبه كفر، ولهذا لو أن أحدًا من الناس كذَّب حديثًا في أحد كتب الحديث كذَّب به، فقلنا له: لِمَ كذَّبتَ؟ هل عندك شك في أن الرسول عليه الصلاة والسلام قاله؟ قال: لا شك عندي أنه قاله، لكنه كذب، ماذا نقول له؟ نقول: هذا كافر؛ لأن الصدق جاءه بإقراره على نفسه، أما لو قال: هذا كذب؛ لأن أحد الرواة كاذب، أو كذاب، فأنا أُنكِرُه لهذا، فماذا نقول؟ يكفر أو لا يكفر؟ لا يكفر؛ بل قد يكون هذا هو الواجب عليه إذا كان هذا مُؤدَّى اجتهاده، ففائدة قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أنه لا واسطة بينه وبين من جاء بالصدق، حتى يقال: لعل لها عذرًا وأنت تلومُ، ليس هناك واسطة.

قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ [مأوى] ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [بلى] وهذا هو جواب أليس وأشباهها، إذا دخلت همزة الاستفهام على ما يفيد النفي فجواب التقرير فيها: بلى، ولو قلت: نعم لكان نفيًا، فإذا قلت: ألم يقم زيد؟ فقال المخاطَب: نعم؛ يعني: لم يقم، وإذا قلت: ألم يقم زيد؟ فقال المخاطب: بلى؛ أي: قد قام، ولهذا يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢]، قال: لو قالوا: نعم لكفروا؛ لأنهم إذا قالوا: نعم؛ يعني: لست ربنا، هذا هو المشهور في اللغة العربية، لكن ربما يأتي الجواب بنعم مرادًا به الإثبات، ومنه قول الشاعر[1]:

أليس الليلُ يجمعُ أمَّ عمرٍو ... وإيانا، فذاك لنا تداني
نعم، وترى الهلال كما أراهُ ... ويعلوها النهارُ كما علاني

لو قال قائل: لعل هذه ضرورة، قلنا: لا؛ لأنه لو أتى ببلى بدل نعم استقام البيت، لو قال: بلى

(١) ينسب هذا البيت إلى: جُحدُر العُكَلي، شاعر من أهل اليمامة، كان في أيام الحجاج بن يوسف الثقفي، يقطع الطريق وينهب الأموال ما بين حجر واليمامة، فأمسكه عامل الحجاج في اليمامة وسجنه في سجن بها اسمه (دوّار) نظم فيه قصائد.

وترى الهلال كما أراه استقام البيت، على كل حال؛ المؤلف أجاب: بلى؛ أي: لإثبات ما ذُكِر، أن في جهنم مثوى للكافرين.

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لا أحد أظلم ممن كذب على الله وكذَّب بالصدق لجمعه بين سيئتين: السيئة الأولى: الكذب على الغير، والسيئة الثانية: تكذيب الغير الصادق، فإن انفرد أحدهما فهل يستحق هذا الوصف أن يكون أظلم الناس؟ لو كذب على الله وصدَّق بالصدق، هل يستحق هذا الوصف؟ لا؛ لأن الوصف أو الحكم المُرتَّب على مجموع صفاتٍ لا يثبُت إلا بثبوتها، ولكن مع ذلك إذا تفرَّقت الأوصاف، فله نصيبٌ من هذا الوصف، فقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤- ٧] أحد هذه الأوصاف له نصيبٌ من الويل، لكن الويل كله لا يكون إلا باجتماع الأوصاف، وقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المدثر:٤٢ - ٤٦] أربعة أوصاف هي سبب دخولهم النار، إذا انفرد واحد منها لم يكن دخولهم النار مُستحقًا، لكن له نصيب من هذا الوعيد، وهنا: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ كم الأوصاف؟ وصفان: هما الكذب على الله، والكذب بالصدق، لو افترى دون أن يكذب بالصدق لم ينطبق عليه وصف الأظلمية لكنه ظالم، ولو كذَّب بالصدق ولم يكذب على الله كذلك.

فإن قال قائل: هذه الآية تدل على أن من اتصف بهذين الوصفين هو أظلم الناس، فكيف نجمع بينها وبين نصوص أخرى تدل على مثل هذه الدلالة؟ مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة:١١٤]، وفي الحديث: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»[١]، ونصوص متعددة؟ فالجواب: أن نقول إن هذه كلها تشترك في وصف الأظلمية، ولا مانع من أن تشترك، فتقول مثلًا: فلان أصدق الناس، والثاني أيضًا: فلان أصدق الناس، والثالث: فلان أصدق الناس؛ يعني: اشتركوا في هذه المرتبة العالية التي هي أعلى كل شيء؛ لأن اسم التفضيل يدل على الكمال في هذه الصفة.

أو نقول: إن الأظلمية باعتبار جنس هذا الذنب، فمثلًا: مَنْ أشد الناس ظلمًا في الكذب على الغير؟ من كذَبَ على الله، من أشد الناس ظلمًا في تكذيب الغير؟ من كذَّب بالصدق، وهذا الوجه أقرب؛ وذلك لأن الاشتراك في الأظلمية قد يمنع اسم التفضيل في الجنس الآخر؛ يعني: أنه ليس الإنسان يتصوَّر تصوُّرًا تامًا بأن اشتراك هذه الأعمال في الأظلمية يقتضي ألَّا يكون بعضها أظلم من بعض.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٩٨٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الشيخ شعيب: صحيح وهذا إسناد حسن.

فإذا قلنا: إن الأظلمية هنا باعتبار جنس المفضل عليه؛ يعني: فمن أظلم ممن كَذَبَ على الله في الكاذبين على الغير، فالكاذب على الله أشد ظلمًا من الكاذب على زيد وعمرو، والمُكذِّب بما يحتمل الصدق والكذب، ليس كالمُكذِّب بما يعلم أنه صدق ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة:١١٤]، من منع مساجد الله فهو أظلم ممن منع الغير حقه، لو منعت رجلًا أن يدخل بيته، لكان منعي لهذا الرجل أن يدخل مسجد الله ويُذكَر فيه اسمه أعظم، «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»، لو أن أحدًا ذهب يخلق خلق فلان، أو فلان ممن يحرم عليه مزاحمته في صنعته، لكان الذي ذهب يخلق كخلق الله أظلم، وهلُمَّ جرًّا، وهذا الجواب جوابٌ سديد، ولا يرد عليه إشكال.

٢ - **ومن فوائدها:** أن الكذب على الله أظلم أنواع الكذب، لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾، وإذا كان النبي ﷺ، يقول: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ»(١)، فما بالكم بالكذب على الله الذي أرسله، إذا كان هذا الكذب على الرسول بهذه المثابة فما بالك بمن كذب على الله؟!

٣ - **ومن فوائدها:** وجوب التحرِّي في تفسير القرآن؛ لأن المُفسِّر للقرآن شاهدٌ على الله بأنه أراد كذا وكذا، وقد يكون الأمرُ على خلاف ذلك، فيكون كاذبًا على الله، ولهذا كان الصحابة الأجِلَّاء يتحرَّزون من تفسير القرآن، وهو نزل بلغتهم، وفي عصرهم، ومشاهدتهم، ومع ذلك يتحرَّزون، سُئِل أبو بكر عن قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٣١] ما الأبُّ؟ قال: (أيُّ أرض تُقِلُّني، وأيُّ سماء تُظِلُّني إن قلت في كلام الله ما لا أعلم)؛ يعني: أنه لا يعلم، ويقول: أيُّ أرض تُقِلُّني، وأيُّ سماء تُظِلُّني، ما شاء الله عندنا الآن أناس يفسر الآية وكأنه ابن عباس وهو من أجهل عباد الله، ولا يبالي أن يُفسِّر، ولو فسَّر كلام زيد وعمرو ما همنا به، لكن إذا فسَّر كلام الله هو شهِدَ على الله أنه أراد كذا وكذا، ولذلك نجد أن مِن أخطر ما يكون أن يُؤَوِّل كلام الله عن ظاهره إلى معنى يخالف الظاهر بلا دليل بيِّن، وبه نعرف ضلال أهل التعطيل، الذين قالوا: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يعني: استولى عليه، تشهد على الله أنه أراد هذا؟ ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ بقوتي، أو بنعمتي، أو ما أشبه ذلك، هذا كذب على الله؛ لأن الله خاطبنا في القرآن باللسان العربي، فيجب أن نحمل هذا القرآن على اللسان العربي بدون أن نُحرِّف.

٤ - **ومن فوائدها:** اختلافُ مراتب الذنوب؛ لأن الذنوب مراتب تتفاضل، كما أن الحسنات مراتب تتفاضل.

٥ - **ومن فوائدها:** أنه ينبني على هذه الفائدة زيادةُ الإيمان ونقصه؛ لأنه كلما كان الذنب أعظم كان نقص الإيمان به أكبر.

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

٦ ـ **ومن فوائدها:** وجوب تصديق من قامت البيِّنة على صدقه، لقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ فدلَّ هذا على أن من كذَّب بالصدق فهو داخلٌ في هذا الوصف الذي هو أظلم من قام بهذا العمل.

٧ ـ **ومن فوائدها:** الثناء على الصادقين، وجه ذلك: أن من كذَّبهم فهو داخلٌ في هذا الجُرْم الذي هو أظلم ما يكون.

٨ ـ **ومن فوائدها:** أنَّ من كذَّب بالشيء المُباشِر له فهو أعظم ممن كذَّب بما سمع؛ لأن الواسطة بينه وبين الواقع قد تُضعِف مقام الصدق عنده، لقوله: ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾.

٩ ـ **ومن فوائدها:** تقرير كون النار مثوى للكافرين.

١٠ ـ **ومن فوائدها:** بيان أن ما يُطلِقُه كثير من الناس اليوم إذا مات الإنسان قالوا: ذهب إلى مثواه الأخير، فإن هذه الكلمة لو أخذناها بظاهرها، لكانت تتضمن إنكار البعث، إذا جُعِل القبر هو المثوى الأخير فلا بعث، والمثوى الأخير هو: إما الجنة، وإما النار، وعلى هذا فيجبُ التنبُّه والتنبيه لهذه العبارة، وأن يقال: إن هذه عبارة مُتلقَّاة ممن يُنكِرُون البعث، ولكن كثيرًا من العامة عامة، يأخذون الكلمات لا يفكرون في معناها.

١١ ـ **ومن فوائدها:** أنه لا يُخلَّد المؤمن في النار، لقوله: ﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ والمؤمن ليست النار مثوى له؛ بل إن عُذِّب في النار على قدر ذنبه، فمآله إلى الجنة.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣].

❁ التفسير ❁

﴿وَٱلَّذِى﴾ مبتدأ، وخبره: جملة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، فتضمَّنَت هذه الجملة جملتين: جملة كبرى، وجملة صغرى، الجملة الكبرى هي المكونة من المبتدأ والخبر، والصغرى هي الخبر المكون من مبتدأ وخبر، الجملة الصغرى ما وقعت خبرًا، تسمى جملة صغرى؛ لأنها في مقام المفرد، والجملة الكبرى هي المكونة من مبتدأ وخبر، أو فعل ومعموله.

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ فيه شيءٌ من الإشكال يتبادر إلى الذهن، وهو أنه أخبر عن الذي، وهو اسمٌ مفرد بجمع، وهو قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، ولم يقل: أولئك هو المتقي، ووجه ذلك: أن (الذي) اسم موصول، والاسم الموصول يفيد العموم، حتى وإن كان مفردًا فإنه يفيد العموم، ولهذا صحَّ الإخبار عنه بالجمع مع كونه مفردًا.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ الذي جاء بالصدق عام يشمل كل من جاء بالصدق من الرسل عليهم الصلاة والسلام، والأنبياء، والصادقين من غيرهم، كل من جاء بالصدق، ومن ذلك مثلًا: كعب بن مالك رضي الله عنه، فقد جاء بالصدق حين تخلَّف عن غزوة تبوك وأخبر بالصدق، وأمَرَنا الله تعالى أن نكون معهم لما ذكر قصتهم قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

وقوله: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أي: صدَّق بالصدق الذي قامت البيِّنة على صدقه، وأظنُّنا لسنا بحاجة إلى أن نُبيِّن معنى الصدق والكذب، الصدق مطابقة الواقع للخبر، والكذب مخالفته؛ يعني: من أخبر بها يوافق الواقع فهو صادق، ومن أخبر بها يُخالِفُ الواقع فهو كاذب.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ﴾ أي: بما قامت البيِّنة على صدقه، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ يعني: الذين اتقوا الله عز وجل، فلم يقولوا كذبًا، واتقوا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فلم يردُّوا صدقًا.

يقول الشارح رحمه الله: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ [وهو النبي ﷺ] وهذا تخصيصٌ للعموم بها لا دليل عليه، والذي ينبغي إذا جاء القرآن عامًّا إبقاؤه على عمومه؛ بل هو الواجب، أن يبقى على عمومه إلا بدليل، وهنا ليس هناك دليل يجعل هذا خاصًّا بالنبي ﷺ، فالواجب أن نجعله عامًّا؛ لأن حمله على الخاص بلا دليل قصور في مدلول القرآن، إذن يشمل النبي ﷺ وغيرَه.

وقوله: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ هم المؤمنون، وهذا أيضًا خطأ؛ لأننا لو فسَّرنا الآية بها فسَّر به المؤلف لزِمَ من ذلك تشتيت الضمائر، وعدم انسجام الكلام.

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾، ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ هذه معطوفة على الجملة التي هي صلة الموصول، وإذا كانت معطوفة على الجملة التي هي صلة الموصول لزِمَ أن يكون المُتَّصِف بها الموصول، مادامت معطوفة على الصلة فهي من جملة الصلة، والصلة وصف للموصول، والمؤلف رحمه الله وعفا عنه شتَّت الضمائر، جعل الضمير الأول للرسول ﷺ، والضمير الثاني للمؤمنين، والحق أنهما يرجعان إلى شيء واحد، وهو الموصول؛ لأن صلة الموصول صفة له، والمعطوف على الصلة صفة له.

إذن ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ يشمل كل أحد، حتى النبي ﷺ، صدَّق بأنه رسول الله، فكان يقول أحيانًا: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ**»، فقد صدَّق بأنه رسول الله، وأن ما أُنزِل إليه من ربه هو الحق، وأول من يدخل في هذه الآية بعدَ الرسول عليه الصلاة والسلام: أبو بكر الصديق، فإن أبا بكر الصديق صدَّق، جاء بالصدق رضي الله عنه وصدَّق به، حتى إنه في أضيق حالٍ للرسول ﷺ ليلة الإسراء حينما أشاعت قريش بأن الرسول عليه الصلاة والسلام كذب وصار يُخرِّف، ويقول ما لا يمكن، فلما بلغه الخبر قال: إن كان قد قال ذلك فهو صادق، فمن ذلك اليوم سُمِّي بالصديق رضي الله عنه، فالذي؛ بمعنى: الذين؛ يعني: أنها اسم مفرد لكن بمعنى الجمع

لكونها دالة على العموم.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الشرك] أتى باسم الإشارة للبعيد لعلوِّ مرتبتهم، ولم يقل: هؤلاء؛ بل قال: أولئك، وأولئك يُشار بها للبعيد، وإنما أشير لهم إشارة البعيد مع دنوِّ التحدُّث عنهم لعلوِّ مرتبتهم، وقول المؤلف: ﴿الْمُتَّقُونَ﴾ [الشرك] من أغرب ما يكون، الحديث الآن عن الصدق والتصديق بالصدق، فأين الشرك؟ لم يتقدَّم له ذكر، ولو أردنا أن نُخصِّص لقلنا: أولئك هم المتقون الكذب والتكذيب بالحق، هكذا نقول، مع أن الذي يدلُّ عليه الدليل أن المعنى: أولئك هم المتقون لله؛ وذلك لأن التقوى إذا أُطلِقَت فإنما تنصبُّ، أو فإنما يُرادُ بها تقوى الله، أما إذا قُيِّدَت فهي حسب ما قيدت به، فقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، هذا لليوم، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ هذا للنار، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، هذا لله، وعند الإطلاق لمن؟ لله؛ لأن الله أحقُّ أن يُتَّقى عز وجل، هنا نقول: أولئك هم المتقون الله، ولهذا جاءوا بالصدق وصدَّقوا به تقوى لله عز وجل.

الفوائد:

١ ـ **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** الثناء على من قال بالصدق، والصدق واجب، والكذب مُحرَّم، وقد يقول قائل: إنه من كبائر الذنوب؛ لأن النبي ﷺ جعله من آيات النفاق[1]، والمنافق ليس من المؤمنين، فإن قال قائل: إن الكذب من كبائر الذنوب، لم يكن قوله بعيدًا.

٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** الثناء على من صدَّق بمن قامت البيِّنة على صدقه، صدَّق بالصدق، وأما من لم يُصدِّق بما يَشكُّ فيه فلا حرج عليه، والأخبار التي تَرِدُ على المرء تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما دلَّ الدليل على صدقه فيُصدَّق.

والثاني: ما دلَّ الدليل على كذبِهِ، إما لكون ناقله معروفًا بالكذب، وإما لكونه مستحيل الوقوع، وما أشبه ذلك، فهذا يُكذَّب، ولا حرج على من كذَّبه.

والثالث: ما يحتمل الصدق ويحتمل الكذب، فهذا يُتوقَّف فيه، لا يُردُّ لعدم قيام الدليل على ردِّه، ولا يُقبَل لعدم قيام الدليل على قبوله، ودليل هذا القسم: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾، ولهذا في الآية التي قبل هذه قال: ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾، وهنا قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾، فذمَّ الأولين، وأثنى على الآخرين.

٣ـ **ومن فوائدها:** أن الصدق من التقوى، وتصديق من قامت البيِّنة على صدقه هذا أيضًا من

---

(١) كما روى البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان).

التقوى، لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

٤ - **ومن فوائدها الأصولية لا الحكم الفقهي:** أن اسم الموصول من صيغ العموم، لقوله: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر:٣٤].



❁ التفسير ❁

﴿لَهُم﴾ أي: لهؤلاء المتقين، ﴿مَّا يَشَاءُونَ﴾ أي: الذي يشاءونه، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وهو الله عز وجل، وأضاف الربوبية إليهم على وجه الخصوص؛ لأن الربوبية للمتقين ربوبية خاصة، ليست كالربوبية العامة التي تشمل الكافر والمؤمن، والبرَّ والفاجر، وإنما هي ربوبية خاصة.

وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: كون جزائهم ما يشاءون، ﴿جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ المحسنين: الذين أحسنوا في عبادة الله، وأحسنوا إلى عباد الله، فالإحسان في عبادة الله يُفسَّر بما فسَّره به النبي ﷺ بأن «تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1]، والإحسان في معاملة الخلق، أن تأتي إليهم ما تحب أن يُؤتَى إليك، تحب لهم ما تحب لنفسك.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر:٣٥].



❁ التفسير ❁

اللام هنا للعاقبة فيما يظهر؛ لأن اللام تأتي أحيانًا للتعليل، وأحيانًا لبيان العاقبة، فإن كان ما قبلها سببًا لما بعدها فهي للتعليل، وإن كان ما بعدها عاقبةً لما قبلها وليس مرادًا، فهي للعاقبة، هذا هو الفرق بينهما، فإذا قلت: جئت لأقرأ فاللام هنا للتعليل، وإذا قال القائل: سافرتُ ليحصُلَ لِيَ الحادث، فهذه للعاقبة، وقوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذه للعاقبة.

يقول الله: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ يعني: عاقبة التقوى أن يُكفِّر الله عنهم أسوأ الذي عملوا، ويحتمل أن تكون للتعليل بمعنى: أنهم اتقوا الله من أجل التكفير.

وقوله: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ وذلك بأن يُنعِم عليهم بالعفو عنه، والغالب أن التكفير يأتي مُكفَّرًا بأعمال مقابلة، فالسيئات تُكفَّر بالحسنات، انظر إلى الظِّهار، إذا ظاهر الإنسان كَفَّر بما ذكر الله عز وجل؛ يعني: أتى بحسنات تُغطِّي ما فعل من الذنوب، اليمين إذا حَنَثَ كفَّر، فالغالب أن التكفير يكون بحسنات تُغطِّي السيئات، ويجوز أن يكون التكفير مجرد فضل من الله عز وجل، يستر الله على عبده الذنب تفضُّلًا منه.

وقوله تعالى: ﴿أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أسوأ اسم تفضيل، وهو على بابه، فإذا كان الله يُكفِّر عنهم أسوأ ما عملوا فما دونه من باب أولى، ويكون التعبير بالأسوأ من باب البشارة له.

وقوله: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: ثوابهم على ما عملوا من حسنات ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بأحسن الجزاء، فقوله: ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بأحسن جزاء الذي كانوا يعملون؛ وذلك أن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وأحسن هنا على بابها؛ أي: أنها اسم تفضيل، فلا يُجازِيهم الحسنة بحسنة؛ بل بأحسن منها، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وقوله: ﴿أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى أن قوله تعالى: ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ صلةٌ للموصول (الذي)، وصلة الموصول تحتاج إلى عائد يعود على الموصول ليربِطَ الصلة به، فما هو العائد هنا؟ محذوف، والتقدير: يعملونه.

قال: [أسوأ وأحسن بمعنى: السيئ والحسن] يعني: أسوأ بمعنى: السيئ، وأحسن بمعنى: الحسن، هكذا قال المؤلف، لكنه قولٌ غير صحيح؛ لأنه يُعتبر تحريفًا للقرآن؛ لأن كل واحد يعرف أن أسوأ اسم تفضيل، وسيئ وصف ليس فيه التفضيل، وكذلك أحسن اسم تفضيل، وحسن وصف ليس فيه تفضيل، فما بالنا نُنزِّل المرتبة من التفضيل إلى ما هو أدنى، هذا يُعتبر خطأً وتحريفًا، فالصواب: أن اسم التفضيل هنا على بابه، وأن الله بشَّرهم بأنه يُكفِّرُ الأسوأ، ومن كفَّر الأسوأ كفَّر ما دونه، وبشَّرَهم بأنه يجزِيَهم أحسن ما كانوا يعملون، لا أنه يجزِيَهم الحسنة بمثلها؛ بل أحسن، وهذا فرق عظيم بين الحسن والأحسن، والسيئ والأسوأ.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٤].

١ - **من فوائدها:** أن هؤلاء المتقين لهم ما يشاءون عند الله، متى؟ في الآخرة في الجنة، وقد بيَّن الله في آية أخرى أن لهم زيادة على ذلك، فقال جل وعلا: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، وقد

فُسِّرت الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله عز وجل، والذي يظهر أن النظر من ذلك، وإلا فالزيادة أشمل من هذا.

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** عناية الله تعالى بهؤلاء القوم، وذلك بإضافة الربوبية إليهم.

٣ ـ **ومن فوائدها:** أن التقوى من الإحسان، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ولم يقل: المتقين، والمراد بهم المتقون، لكن المُتَّقي مُحسِن؛ لأن المُتَّقي عند الإطلاق هو من قام بالمأمور وترك المحذور، وهذا هو الإحسان.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** الحثُّ على الإحسان، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والحث على الإحسان والأمر به كثيرٌ في الكتاب والسنة، والإحسان يتضمن: الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله، والإحسان إلى عباد الله يكون بالقول، وبالفعل، وبالجاه، وغير ذلك من أنواع الإحسان، فلا تدَّخِر وسعًا في بذل الإحسان لإخوانك، فإن ذلك مما يكون سببًا لدخول الجنة، ويكون سببًا في عون الله لك، فإن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾:

١ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أنهم بتقواهم يُكفِّر الله عنهم أسوأ أعمالهم، لقوله: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن الله يجزيَهم بأحسن جزاء، وقد بُيِّن ذلك في الكتاب والسنة بأن من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة.

٣ ـ **ومن فوائدها:** أن الخطرات التي تخطر على القلوب لا حكم لها، لقوله: ﴿ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقد جاء الحديث مؤيِّدًا لذلك، فقال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَو تَتَكَلَّمْ**»[1]، ولكن يجب على من كان له خطرات سيئة أن يُدافِعها بما يستطيع، ومن مدافعتها: أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وينتهي، بأن يعرض عن هذه التقديرات، فإن ذلك يزول، أما إن خضع لها واستكان لها، واستمر فإنها تهلكه؛ لأن الشيطان يقيس قلب المرء إذا رآه لينًا هشًّا تسلَّط عليه حتى يُخرِجه من دينه ودنياه - والعياذ بالله -، وإن كان صلبًا لا يقدر الشيطان أن ينفذ فيه؛ فإنه حينئذٍ يكون قويًا تتكسر عليه عظام الشيطان، وقد أوصى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تلميذه ابن القيم حينما كان يعرِض عليه بعض الشبهات قال: (لا تجعل قلبك كالإسفنجة تتشرَّب الماء، ثم لا يخرج منها إلا بعَصْر، اجعل قلبك كالزجاجة صافية يُرى من ورائها، ولا ينفذ إليها شيء)، يُرى ما فيها ولا ينفذ إليها شيء، يعني: من هذه الشبهات تكون صافية نقية خالية من الشبهات ولا ينفذ إليها شيء، وهكذا ينبغي للإنسان ألاَّ

(١) رواه البخاري (٤٩٦٨)، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يخضع للشيطان في هذه الوساوس التي تردُ عليه.

فإذا قال قائل: هل الإرادة عمل أو لا؟ الإرادة عمل، لكنها عمل قلب، بخلاف التحديث؛ لأن تحديث النفس لا يعني: الخضوع للشيء وإقرار الشيء، لكن الإرادة لا تكون إلا بعد تقرير هذا الشيء، ولهذا قال النبي ﷺ في الرجلين المسلِمَين يلتقيان بسيفيهما[1] فيقتل أحدهما الآخر، قال: «فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ»[2] قالوا: يا رسول الله! هذا القاتل، فما بال المقتول[3]؟ قال: «لِأَنَّهُ كَانَ حَرِيْصًا[4] عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»[5]، ولمَّا ذكر الرجال الأربعة، ومنهم: رجل أعطاه الله سبحانه وتعالى المال فهو ينفقه في غير مرضاة الله، فقال الرجل الفقير: ليت لي مال فلان فأعمل فيه كعمل فلان، قال: «فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَهُمَا فِي الوِزْرِ سَوَاءٌ»، مع أنه لم يعمل، لكنه تمنى وأراد، والله أعلم.



قال الله تعالى:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٣٦].

التفسير

الاستفهام هنا للتقرير بناءً على القاعدة التي ذكرناها، وهي: أن همزة الاستفهام إذا دخلت على ما يفيد النفي أفادت التقرير، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] يعني: قد شرحنا لك صدرك، ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: قد كانت آياتي تتلى عليكم، وهكذا، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ يعني: قد كفى الله عبده، وقوله: ﴿بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ الذي نصب عبده قوله كافٍ؛ لأن كافٍ اسم فاعل، وفاعله مستتر، وعبد مفعول به، وقوله: ﴿بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ عبد مفرد مضاف فيكون عامًّا لجميع من اتصف بهذا الوصف، فكل من كان عبدًا لله حقًّا فإن الله كافيه، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ ومثله قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ فالعبد هنا وصف شامل لا يختص بواحدٍ دون الآخر، فكل من انطبقت عليه العبودية حقًّا فإن الله كافيه، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ والجواب على هذه الجملة أن يقال بلى.

---

(١) أي بقصد العدوان.

(٢) أي يستحقان دخول النار.

(٣) ما شأنه يدخل النار وقد قتل ظلما.

(٤) عازما.

(٥) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

ثم قال: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ هنا الخطاب للنبي ﷺ، يخوفونك، وعطف يخوفونك الخاص بالرسول لا يقتضي تخصيص اللفظ العام قبله، وقد مرَّ علينا مثل هذا كثيرًا، يُذكَر لفظ عام ثم يُذكر حكم يختص ببعض أفراده، قلنا: إن هذا لا يقتضي التخصيص، والقاعدة تقول: إنه إذا جاء لفظ عام، ثم جاء بعده حكم يختص ببعض أفراده فإن هذا لا يقتضي التخصيص، هذه قاعدة واضحة، لكن لو قال لك قائل: أعطني مثالًا ينطبق على هذا، إذا نسيت المثال قال لك: هذه القاعدة غير مقبولة، بل أنا أقول: إذا جاء حكم يختص ببعض الأفراد دلَّ على أن المراد بالعموم الأول الخصوص، فيقلِبُ عليك القاعدة.

وطالبُ العلم يُقيِّد الفوائد الشرائد، الفوائد التي تشرد من الذهن ينبغي لطالب العلم أن يعتني بها ويُقيِّدها وإلا ضاعت عليه، مرَّ علينا في القرآن مثال، ومرَّ علينا في السنة مثال أقرب مما مر علينا في القرآن وكله مر علينا، قضى النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يُقْسَم، هذا عام أو لا؟ قضى في كل ما لم يُقسَم، وهذا عام، فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شُفْعة[1]، هذا حكم يختصُّ ببعض أفراد العام، بماذا يختص؟ بالأقارب، بالأراضي، فهل نقول: إن العام الأول يُرادُ به الخصوص؟ أو نقول: الأول عام، وذكر حكم يختص ببعض أفراد العام لا يقتضي التخصيص، هذا هو الثاني.

وفي القرآن: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ إلى أن قال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المطلقات عام، وبعولتهن حكم يختص ببعض أفراد هذا العام، ما الفرد الذي يختص به؟ الرجعية، فهل نقول: إن قوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ هذا خاصٌّ بالرجعيَّات، أو نقول: هو عام؟ معروف عند أهل العلم أنه عام، المُطلَّقات اللاتي طلُقْن بطلاقٍ بائنٍ، أو بطلاق رجعي، الآن أخذتم مثالَيْن، وهذا المثال الذي معنا في القرآن هل ينطبق عليه أو لا؟ قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ الأول أليس الله بكاف عبده عام، لم يقل: أليس الله بكافيك، ويخوفونك هذا خاص بالنبي ﷺ، ولو قيل: لماذا لا يصح أن يكون الخطاب موجَّهًا لكل من يصح خطابه؟ أي: يُخوِّفونك أيها المخاطب، كما قد جرت به العادة في كثير من النصوص، فالجواب على هذا: أن نقول: إنه لا يصح أن يكون موجهًا لكل مخاطب؛ لأن كل مخاطب لا يتأتَّى عليه هذا الوصف، هل كل مخاطب خُوِّف بالذين من دون الله؟ لا، إنما الذي خُوِّف من دون الله هو النبي ﷺ؛ لأنهم يتوَّعدونه بآلهتهم.

على كل حال هذا المثال ينطبق على ما ذكرناه من القاعدة: أنه إذا ورد لفظ عام، ثم أتي بعده بحكم يختص ببعض أفراده فإن ذلك لا يقتضي التخصيص؛ بل يبقى العام على عمومه، ويثبت الحكم لهذا الفرد.

---

(١) صحيح: انظر الإرواء (١٥٣٦).

قال: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ [الخطاب له] يعني: للنبي ﷺ، ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الأصنام أن تقتله أو تخبِّله]، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥] يخوفون النبي ﷺ بالذين من دون الله، وتخصيص هذا بالأصنام كما خصَّه المؤلف فيه نظر؛ بل يُخوِّفونه بالذين من دون الله من الأصنام وغير الأصنام، حتى من ذوي السلطان، فيقول مثلًا: يفعل بك فلان، أو تفعل بك الجن، أو يفعل بك كذا وكذا، فينبغي أن نحمل: ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ على العموم، لا على خصوص الأصنام؛ لأن التخويف أعم من ذلك، الآن مثلًا في وقتنا هذا لو قال قائل لشخص: أنت إن نَهيتَ عن هذا المنكر سأرفع بك إلى فلان ممن يُخشى شرُّه، هل هذا مُخوِّف بالذين من دون الله؟ نعم، هذا مُخوِّف بالذين من دون الله، فالآية عامة، ولا ينبغي أن نخصصها كما ذهب إليه المؤلف رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ من شرطية، فتفيد العموم، ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه، وقوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ الجملة هذه اسمية مكونة من مبتدأ وخبر، وعجبًا أن نقول: إنها مكونة من مبتدأ وخبر، ونحن لا نجد فيها لا مبتدأ ولا خبر، أين الاسم المرفوع، والمعروف أن المبتدأ والخبر يكونان مرفوعين وهنا ليس هناك شيء مرفوع؟ فالجواب أن نقول: لا نافية، وله جار ومجرور خبر مقدم، ومن هاد مبتدأ مؤخر، وكيف نعرب ﴿من هاد﴾؟ نقول: من حرف جر زائد، هاد مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين والتي قُدِّرَت عليها الكسرة لمناسبة حرف الجر الزائد، هذا إذا أردنا أن نتمحَّل الإعراب للقواعد النحوية، وإلا يكفي أن نقول: مِنْ حرف جر زائد، وهاد مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة للالتقاء الساكنين؛ لأن حركة حرف الجر الزائد في هذه الكلمة لا تظهر.

وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يعني: من يُقدِّر الله ضلالَه فإنه لا أحد يهديه مهما اجتمعت عليه الأمة، وها هو أعظم الخلق في الهداية والدلالة محمد ﷺ حرص غاية الحرص لهداية عمه أبي طالب إلى آخر أنفاسه، ولكن لم يهتدِ؛ لأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كتب عليه الضلالة، فكان آخر ما قال أن شهد شهادة الكفر، فقال: هو على ملَّة عبد المطلب، ولكن النبي ﷺ لحُسْن أخلاقه، ولأن عمَّه قام قيامًا نصر به الإسلام، شَفَعَ له عند الله، فكان في ضحضاح من نار، وعليه نعلان من نار يغلِي منهما دماغه(١)، أعلى ما فيه، والنعال في أسفل ما فيه، والدماغ يغلي، فما بالك بما دونه من الجسم؟ أشدُّ غليانًا، وإنه لأهون أهل النار عذابًا ويرى أنه أشدهم عذابًا، لماذا يُريه الله أنه أشدهم عذابًا؟ لئلا يتسلَّى بغيره؛ لأن صاحب النار لو عَلِمَ أن غيره أشد منه أو مثله لتسلَّى وهان عليه الأمر، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ مع أنكم لو اشتركتم في العذاب في الدنيا لهَانَ عليكم.

---

(١) كما روى البخاري (٣٦٧٠)، ومسلم (٢٠٩) من حديث العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه.

انظر إلى كعب ابن مالك رضي الله عنه لما قيل له: إنه تخلَّف عن غزوة تبوك فلان وفلان، هان عليه الأمر، وهذا شيء مُسلَّم، والخنساء ترثي أخاها صخرًا وتقول:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أسلي النفس عنه بالتأسي

فنقول: من قدَّر الله ضلالَهُ فلن يهديه أحد، مهما أوتي من الآيات فإنها لا تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** كفاية الله لعبده.

٢ - **ومنها:** الحثُّ على تحقيق العبودية لله؛ لأنك إذا حقَّقتَ العبودية تحقَّقَت لك الكفاية؛ إذ إن الحكم المعلق على وصف يقوَى بقوة ذلك الوصف، ويضعُف بضعف ذلك الوصف، فإذا كانت الكفاية مُرتَّبة على العبودية حصل للعابد من هذه الكفاية بقدر عبوديته، على القاعدة: أن الحكم المعلق بوصف يقوى بقوته ويضعف بضعفه.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** دفاع الله - عزَّ وجلَّ - عن المؤمنين؛ لأنه إذا كان كافِيَه فسوف يُدافِع عنه، ويحقق ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أعداء الله يُخوِّفون عباد الله بما دون الله، لقوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

٥ - **ومن فوائد هذه:** أن الشيطان وهو زعيم أعداء الله يُخوِّف المؤمن العابد لله مما دون الله، فتجده يأتي إلى الشخص الذي يريد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، يقول له: لا تفعل، إن الناس يبغضونك، إن الناس يرمونك بالتشدُّد، إن السلطان ربما يُؤدِّبك، وما أشبه ذلك، ولكن المؤمن لا يخاف من هذا أبدًا؛ لأنه معتصم بمن؟ بالله عز وجل، هو عبد الله، واثقٌ بأن الله سينصره، فلا يهمه هؤلاء، ولكن هل يعني ذلك: أن الإنسان يتجشَّم الأمور بالعاطفة العاصفة، أو يستعمل الحكمة ويمضي في الحق؟ الثانية، ولذلك نحن ننتقض على بعض الناس الذين عندهم غيرة في دين الله، ولكنهم لا يأتون البيوت من أبوابها، يريدون أن يأتوا الأمور بالعنف والقوة، مع أنه ليس لهم قوة، فنحن نقول: امضِ فيما أمرك الله به، لكن مُستعمِلًا بذلك الحكمة.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل من سوى الله فهو دون الله، لقوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ فليس هناك إلا الله أو مَنْ دون الله.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: أن كل من سوى الله فهو مغلوب، وإذا كان الله كافٍ عبده، وكل من سوى الله فهو مغلوب، فهذا يعني: أن الإنسان سيغلب إذا حقَّق العبودية، ولكن قد يُورِدُ علينا مُورِد أن الله تعالى ذكر أن من الناس من قتل الأنبياء؟ فكيف يُجمَع بين هذه الآية وبين ما ثبت من

قتل بعض الأنبياء؟ والجواب عنه: أن قتل الأنبياء لا يعني: قتل ما جاءوا به من الحق، والأنبياء إنما تكلَّموا من أجل إثبات الحق، لا من أجل إثبات شخصيتهم، ثم إنه إذا فاتهم الانتصار في الدنيا الانتصار الذي يشاهدونه، لن يفوتهم ذلك في الآخرة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١].

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من كتب الله ضلالَهُ فلا أحد يستطيع هدايته، لقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** أن الإنسان لا يطلب الهداية إلا من الله؛ لأنه وحده هو الذي يُضِلُّ ويهدي، فتُطلَب الهداية منه؛ لأنه ليس المراد بهذه الآية: التيئيس من هداية الخلق، ولكن المراد: الرجوع إلى الله - عزَّ وجلَّ - في هداية الخلق.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الرد على المعتزلة الذين يقولون: إن الإنسان مُستقلٌّ بعمله، يهدي نفسه، ويُضِلُّ نفسه، ولا علاقة لمشيئة الله في فعله، لقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

١٠ - **ومن فوائدها:** إثبات الهداية لغير الله التي هي هداية الدلالة، وأما التوفيق فإلى الله عز وجل.



قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزمر:٣٧].

التفسير

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ أي: من يُقدِّر الله هدايته فماله من مُضِلٍّ.

فلا أحد يستطيع أن يُضِلَّه، مهما كثُرت الشبهات، وكثُرت الشهوات، إذا قدَّر الله على العبد الهداية فلن تُضله شهوة ولا شبهة؛ لأنه عند الشهوة يُغلِّب العقل فيمتنع منها، وعند الشبهة يُغلِّب العلم فيهتدي به منها، هذا ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾، وفي هذه الجملة من تشجيع الإنسان على الاستمرار في الهداية ما هو ظاهر؛ لأن الله هو الذي هداه ولا أحد يستطيع أن يضله.

ثم قال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

الجواب: بلى، وقوله: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ هذه خبر(ليس) دخلت عليها الباء الزائدة لفظًا، الزائدة معنىً؛ لأنها تفيد توكيد العموم في النفي؛ إذ أن النفي يفيد العموم إذا أتى بعده اسمٌ نكرة، لكن إذا دخلت الباء فإن حروف الزيادة من أحرف التوكيد كما ذكر ذلك علماء البلاغة.

وقوله: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ قال المفسرون لأسماء الله الحسنى: العزيز له ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: عزة القدر، والمعنى الثاني: عزة القهر، والمعنى الثالث: عزة الامتناع.

أما عزة القدر فمعناها: أن الله ذو قدر عظيم، وشرف كبير، لا أحد يُماثِله، ولا أحد يساويه، أو يقاربه.

وأما عزة القهر، فمعناها: أن الله قاهر لكل شيء، غالب لكل شيء.

وأما عزة الامتناع فمعناها: أن الله يمتنع عليه كل عيب ونقص، وهذا معروفٌ في اللغة العربية.

فالمعنى الثاني الذي هو الغلبة قال فيه الشاعر:

أين المفــــر والإلــــه الطالب والأشــــرم المغلــوب ليس الغالب

وأما الأول الذي هو عزة القدر، فيقال: هذا عزيز؛ أي: نادر لا يوجد، لشرفه وكرمه، وأما الثالث: فقولهم: أرضٌ عَزَاز؛ أي: قوية صلبة تمتنع أن تحفرها المعاول، فالله - عزَّ وجلَّ - عزيزٌ بهذه المعاني الثلاثة.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ذي بمعنى: صاحب، وانتقام نكرة، والنكرة في سياق الإثبات لا تفيد العموم، ولكنها هنا في سياق ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي: صاحب انتقام، فكلما كانت الحكمة في الانتقام انتقم، وتأمل قوله: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ولم يقل: منتقم؛ لأنه ليس من أسماء الله المنتقم، ولم تأت المنتقم في أسماء الله في حديث صحيح، وإنما جاءت باسم الفاعل مقيدًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ ولم يقل: إنا منتقمون، وقال: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي: صاحب انتقام في موضعه، فالمنتقم ليس من أسماء الله، حتى وإن قُرِنت بالعفو خلافًا لما ذهب إليه بعض العلماء من أنه إذا قُرِنت بالعفو فلا بأس، بل نقول: المنتقم ليس من أسماء الله، لا مقرونًا بالعفو ولا منفردًا عنه، لكنه يوصف بالانتقام مُقيَّدًا ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ ويوصف بأن الانتقام يصدر منه، لا أنه منتقم، لقوله: ﴿بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

قال: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ [غالب على أمره]، وتفسيره العزيز بالغالب على الأمر يعتبر قاصرًا؛ لأن العزة لها ثلاثة معان كما شرحنا، قال: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [من أعدائه]، والانتقام أخذ المجرم بجريمته، وقوله: [بلى] هذا جواب الاستفهام في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

الفوائد:

١ـ **من فوائد هذه الآية:** إثبات عزة الله - عزَّ وجلَّ - بجميع معانيها.

٢ـ **ومن فوائدها:** اللجوء إلى الله عز وجل في طلب الهداية منه والاستمرار عليها.

٤ ـ **ومن فوائدها:** تهديد هؤلاء المكذبين لرسول الله ﷺ، تهديدهم بهذين الوصفين: وصف

العزة المستفاد من العزيز، والانتقام المستفاد من قوله: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ فكأن الله يُهدِّدهم بعزته وانتقامه من تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام.



قال الله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:٣٨].

التفسير

الخطاب إما للرسول ﷺ، أو لكل من يتوجه إليه الخطاب، واللام في قوله: ﴿وَلَئِن﴾ موطئة للقسم، وإن شرطية، والجواب في قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ جواب الشرط، أو جواب القسم؟ جواب القسم؛ لأنه قُرِن باللام، والذي يُجاب باللام هو القسم وليس الشرط، والقاعدة: أنه إذا اجتمع شرط وقسم، فالجواب للسابق منهما، وقال ابن مالك في الألفية:

واحذف لدى اجتماع شرطٍ وقسمٍ جواب ما أخَّرت فهو مُلتَزَم

والمؤخَّر الشرط، فيُحذف جوابه، ويكون جوابه معلومًا من جواب القسم

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ سؤال استفهام ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يعني: من أوجدهما على هذه الصنعة البديعة؟ والسماوات مأخوذة من السمو، وهو: العلو، لعلوها وارتفاعها، وجمعها؛ لأنها سبع سموات طباقًا متطابقة كل واحدة فوق الأخرى، وعلى هذا فتكون الثانية أوسع من الأولى، والثالثة أوسع من الثانية، والرابعة أوسع من الثالثة، وهلمَّ جرًّا، وإذا كان بينهما مسيرة خمس مائة عام، عرفتَ سعة كل سماء بالنسبة لما تحتها، وأن سعتها عظيمة، ومع هذا فهذه السماوات التي بهذه السعة العظيمة هي بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، حلقة المغفر الصغيرة ألقيت في فلاة من الأرض، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة، والرب - عزَّ وجلَّ - لا يقدُرُ قدرَه إلا الله عز وجل، إذن السماوات سبع متطابقة، والأرض واحدة؛ لأنه قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ ولم يقل: والأراضين، نقول: المراد بها الجنس، فلا ينافي أن تكون سبعًا، وقد أشار الله تعالى في القرآن إلى أنها سبع في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] وجاءت السنة صريحة في ذلك، في مثل قول النبي ﷺ: «مَن

اقْتَطَعَ(١) شِبْرًا(٢) مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ(٣) اللهُ بِهِ يَومَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَاضِينَ»(٤).

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، هو الذي خلق السماوات والأرض، ولم يدَّعِ المشركون أن السماوات والأرض كانت قديمة غير محدثة، ولم يدَّعُوا أن أحدًا خلقها سوى الله؛ بل أقرُّوا بأن الخالق هو الله وحده، كما أنهم إذا سُئِلوا من خلقهم؟ ليقولن الله، فكلما سُئِلوا عن شيء يتعلَّق بالربوبية نسبوه إلى الله - عزَّ وجلَّ - من غير شريك، فهم مُقِرّون بتوحيد الربوبية غاية الإقرار، يعلمون أن الله هو الخالق، وقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، سأورد عليكم إشكالًا في ضم هذا الفعل مع اتصال نون التوكيد به، والمعروف أن المضارع يُبنى في موضعين: إذا اتصلت به نون التوكيد يُبنى على الفتح، أو نون النسوة يُبنى على السكون، فلماذا هنا صار مضمومًا؟ إذن النون غير مباشرة للفعل، على هذا التقدير يكون بينها وبين الفعل واو الجماعة ونون الرفع، فهي غير مباشرة حقيقةً، مباشرة لفظًا، والفعل يبنى مع نون التوكيد المباشرة لفظًا وتقديرًا، أما هذه فهي في التقدير غير مباشرة، ولهذا بقي الفعل مُعربًا، فيقال: إنه مرفوع بالنون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل.

وقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، الله بالرفع خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو الله، ويجوز أن تكون فاعلًا لفعل محذوف؛ أي: خلقهما الله، ويجوز أن تكون مبتدأً والخبر محذوف، التقدير: الله خالقهما، والأمر في هذا واسع، باب الإعراب له وجوه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ يعني: اسألهم سؤالًا آخر إذا أقرُّوا بأن الخالق هو الله قل لهم: أخبروني ما تدعون من دون الله؟ تدعون يقول المؤلف: [تعبدون]، ويحتمل أن يكون المراد به: دعاء المسألة؛ لأن الدعاء يطلق على معنيين: المعنى الأول: دعاء المسألة، والثاني: دعاء العبادة.

فمن الأول: قوله تعالى: «هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ، هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ»(٥)، وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ هذا دعاء مسألة.

ومن الثاني: وهو دعاء العبادة: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) أي أخذ والمراد الأخذ بغير حق.

(٢) أي قدره من الأرض.

(٣) أي جعله طوقا في عنقه.

(٤) رواه مسلم (١٦١٠)، والطيالسي في مسنده (٢٣٧) وأبويعلى في مسنده (٩٥٩) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

(٥) رواه البخاري (١٠٩٤)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾، هؤلاء القوم يدعون من دون الله دعاء مسألة، أو دعاء عبادة؟ عام، يدعون من دون الله دعاء مسألة ودعاء عبادة، أخبروني عن هذه الأصنام التي تدعونها من دون الله هل ينفعن من دعاهن؟ هل يجلِبن النفع أو يدفعن الضر إن أرادني الله بضُرٍّ هل هن كاشفاتُ ضُرِّه؟ الجواب: لا، لا يدفعن الضرر إذا أراد الله، أو أرادني برحمة هل هن ممسكاتُ رحمتِه؟ الجواب: لا، إذن كيف تُعبَد من دون الله، كيف تُدعَى من دون الله، والله - عزَّ وجلَّ - إذا أراد بي ضرًا لم يملكنَ دفعَه، وإذا أرادني برحمة لم يملكن إمساك هذه الرحمة؟ الجواب: يقول: [لا].

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ، يعني: لا يهمني أن تهددوني بهذه الأصنام فإن حسبي الله؛ أي: كافيني عمن سواه، والجملة في ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ يجوز أن يكون فيها تقديم وتأخير، فنُعرِب حسبي خبر مقدم، والله مبتدأ مؤخر، ويجوز أن نقول: حسبي مبتدأ، والله خبر، ويختلف هذا الإعراب باختلاف المعنى، فإن أردتَ أن تُخبر عن الحسب بأنه الله، فاجعل الحسب مبتدأ، وإن أردتَ أن تُخبِر عن الله بأنه الحسب فاجعل حسبي خبرًا مقدمًا، والآية من حيث المعنى صالحة لهذا وهذا، فالله هو الحسب، والحسب هو الله، ليس لنا حسب سوى الله، والله سبحانه وتعالى حسبنا كافينا.

وقوله: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ التوكل هو: الاعتماد على الله - عزَّ وجلَّ - اعتمادًا حقيقيًا صادقًا في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله سبحانه وتعالى، وهو من العبادة الخاصة بالله، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي: على الله وحده.

وأما توكُّل غير العبادة، فإنه يجوز للإنسان أن يتوكَّل على غيره فيما وكَّله فيه، كما لو قلت لفلان: وكَّلتُك تشتري لي كذا وكذا، فأعتمد عليه في الشراء، وهذا ليس توكُّل عبادة، لأن المتوكل في هذه الصورة لا يشعر أنه أدنى مرتبة من الوكيل؛ بل قد يشعر بأنه أعلى مرتبة؛ لأنه جعل ذلك خادمًا له مُنفِّذًا لما يقول.

أما التوكل على الله فإنك تتوكل على الله معتقدًا في نفسك أنك مضطر إليه، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي بيده تصريف أمورك، فتتوكل عليه رغبة ورهبة وتقرُّبًا إليه، ولهذا نقول: هل يجوز أن أقول: توكلت على فلان؟ الجواب: إن كان ذلك على وجه العبادة فهذا حرام شرك، وإن كان على وجه الإنابة؛ أي: أنبتُه منابي فيما وكَّلته فيه، فهذا لا بأس به ولا حرج، وكان النبي ﷺ يُوكِّل أصحابه في قبض الزكوات وتصريفها، وغير ذلك.

يقول المؤلف رحمه الله: ﴿ وَلَئِن ﴾ [لام قسم] ﴿سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ يعني: إذا أقرُّوا بهذا الإقرار: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي: [الأصنام]؛ يعني: أخبروني عنها ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾؟ الجواب: يقول: [لا] ﴿أَوْ أَرَادَنِي

بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [لا، وفي قراءةٍ بالإضافة فيهما]؛ أي: في قوله: ﴿كَـٰشِفَـٰتُ﴾، وفي قوله: ﴿مُمْسِكَـٰتُ﴾، فنقرأ على هذه القراءة: هل هن كاشفاتُ ضرهِ، هل هن ممسكاتُ رحمتِهِ، والقراءتان سبعيَّتان، ومن قاعدة المؤلف في هذا الكتاب: أنه إذا قال: [وقُرِئ] فهي شاذة لا يُقرأ بها، وإذا قال: [وفي قراءة] فهي سبعيَّة يُقرأ بها ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ قال: [يَثِق الواثِقون].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** إقرار هؤلاء المشركين بالربوبية، لقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن الإقرار بالربوبية لا ينفع العبد ولا يُدخِلُه في الإسلام، ودليل ذلك: أن النبي ﷺ قاتَلَ هؤلاء المُقرِّين بالربوبية، واستباح دماءهم، ونساءهم، وأموالهم، وإن كان الإقرار بالربوبية نافعًا لكانت دماؤهم معصومة، وأموالهم معصومة، وأهلوهم معصومين.

٣ ـ **ومن فوائدها:** الرد؛ بل الإبطال لما عرَّف المتكلمون به التوحيد؛ لأن عامة المتكلمين إذا فسَّروا التوحيد قالوا: إنه ثلاثة أنواع: التوحيد في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله، هكذا يقولون، فيقولون: هو واحدٌ في ذاته لا قَسِيم له، ويعنون بذلك: أنه ليس له وجهٌ، وليس له يدٌ، وليس له عينٌ، وما أشبه ذلك، يقولون: لو قلنا: إن له هذه الصفات لزِمَ أن يكون ذا أعضاءٍ، وهو سبحانه وتعالى لا يتقسَّم، فهو واحدٌ في ذاته لا قسيم له، واحدٌ في أفعاله لا شريك له، ثم يجعلون هذا النوع من التوحيد هو توحيد الألوهية، فيقولون: معنى قول القائل: لا إله إلا الله؛ أي: لا قادر على الخلق والاختراع إلا الله، الثالث: واحدٌ في صفاته لا شبيه له، كلامٌ ظاهره فيه الرحمة، وباطنه من قِبَله العذاب، ماذا يعنون بقولهم: لا شبيه له؟ أي: لا صفات له؛ لأنهم يعتقدون أن كل من أثبت لله صفة فهو مُشبِّه، فهو واحدٌ في صفاته لا شبيه له.

هذا التنويع لو قرأتَه على عامِّي ماذا يقول عنه؟ يقول: ما أحسنه ما أجمله، واحد في ذاته لا قسيم له سبحانه وتعالى، ويُسبِّح ويُهلِّل، واحد في أفعاله لا شريك له كذلك، واحد في صفاته لا شبيه له كذلك، لكن لا يدري أن وراء الأكَمَة ما وراءها، يريدون بقولهم: واحد في ذاته لا قسيم له؛ أي: ليس له صفات هي بالنسبة إلينا أعضاء؛ مثل: اليد، والوجه، والعين، والقدم، والساق، واحد في أفعاله لا شريك له، يريدون بذلك أن هذا هو معنى لا إله إلا الله، ولو كان هذا هو معنى لا إله إلا الله لكان المشركون الذين قاتلهم النبي ﷺ مؤمنين مُوحِّدين، وهم كانوا إذا قيل لهم: لا إله إلا الله يستكبرون، ولا يقبلون هذا، ويقولون: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا.

فتأمَّل كيف كان المشركون في الجاهلية يفهمون من التوحيد ما لا يفهمه هؤلاء المتكلمين، وقد ذكر العلماء مثل: شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره هذا المعنى، وقالوا: المشركون خيرٌ في فهم

التوحيد من هؤلاء المُتكلِّمين؛ لأن هؤلاء المتكلمين جعلوا التوحيد هو توحيد الربوبية فقط، وهذا لا يُنكِره المشركون، يُقِرُّون به، ويُنكِرون توحيد الألوهية؛ لأنهم يعرفون أن معنى لا إله إلا الله: لا معبود حقٌّ إلا الله، أما أولئك المُتكلِّمون فإنهم لا يُقِيمون للألوهية وزنًا، يجعلونها خارجة، لا يُدخِلونها في أنواع التوحيد، واحد في صفاته لا شبيه له، ماذا يعنون؟ يعنون: تعطيل الصفات، لأنهم يدَّعون أن كل من أثبت لله صفة فهو مُشبِّه.

فتبيَّن بهذه الآية: الرد على أولئك المتكلمين الذين يجعلون توحيد الألوهية هو توحيد الربوبية.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ما يُعبَد من دون الله لا ينفع عابِدَه بجَلْب نفع، ولا بدَفْع ضرٍّ، لقوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات الإرادة لله، لقوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ﴾، ﴿أَوْ أَرَادَنِي﴾، وإرادة الله - عزَّ وجلَّ - تنقسم إلى قسمين: إرادة شرعية، وإرادة كونية قدرية، الكونية هي التي بمعنى: المشيئة، والشرعية هي التي بمعنى: المحبة، فإذا كانت (يريد) بمعنى: يشاء فهي إرادة كونية، وإذا كانت (يريد) بمعنى: يحب فهي إرادة شرعية، إذن الفرق بينهما: أن الإرادة الكونية.

يلزمُ منها وقوع المراد؛ لأنها كونية، لا أحد يُعقِّب حكم الله، والإرادة الشرعية لا يلزم منها وقوع المراد، ثانيًا: الإرادة الشرعية لا تكون إلا فيما يحبه الله، والإرادة الكونية شاملة لما يحبه وما لا يحبه الله.

إذا قال لك قائل: هل الله يريدُ المعاصي؟ إن قلت: نعم، أخطأت، وإن قلت: لا، أخطأت، فماذا تقول؟ نقول: بالإرادة الكونية نعم يريدها، ولم تقع المعاصي إلا بإرادته، وبالإرادة الشرعية لا؛ لأن الله يكره المعاصي، وبهذا التفصيل تزولُ إشكالاتٌ كثيرة، في المعاصي هل هي مرادة لله، أو غير مرادة؟ نقول: هي مُرادة بالإرادة الكونية، غير مرادة بالإرادة الشرعية.

فإن قال قائل: كيف يريدها الله وهو لا يحبها؟ قلنا: نعم، هي مُرادة لغيرها؛ بمعنى: محبوبة لغيرها؛ أي: لما تؤدي إليه من المصالح العظيمة، إذن ليست مُرادة بالإرادة الشرعية، وإنما هي مُرادة بالإرادة الكونية، فإذا أورد علينا مُورِد: كيف يريدها الله - عزَّ وجلَّ - وهو يكرهها؟ فالجواب أن نقول: يريدها ويكرهها لكونها مرادة لغيرها، فالله - عزَّ وجلَّ - يريد المعاصي من أجل خيرٍ كثير لفاعلها إذا تاب إلى الله؛ لأن العاصي إذا تاب إلى الله كان خيرًا منه قبل المعصية، والدليل على هذا: أن آدم عصى ربه وغوى، وتاب إلى الله، وبعد توبته اجتباه وهداه، ولولا هذه المعصية لم يحصُل له الاجتباء والهداية التي حصلت بعد المعصية، فكانت المعصية الآن خيرًا لآدم.

ثم إن فيها خيرًا آخر: الإنسان العاصي إذا عصى الله عَرَفَ قدر نفسه، وخجل من ربه، واستصغر كل عمل خير يفعله؛ لأنه يذكر دائمًا معصيته بين عينيه، لكن إذا لم يعص الله ربما

يشمخر، ويعلو بأنفه، ويُعجَب بنفسه، ويقول: أنا ما عصيت الله أبدًا، وما أشبه ذلك ثم يحبط عمله من حيث لا يشعر.

هناك مصلحة ثالثة لعامة الناس: لولا العصيان ما قام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الناس لو كانوا كلهم على البر والمعروف، فبأي شيء نأمر، وعن أي شيء ننهى؟ فلا يقوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بوجود أسبابه، وهي: المعاصي.

رابعًا: لولا المعاصي ما عرف الإنسان قدر الإيمان الذي أنعم الله به عليه ولذَّته؛ لأن الناس لو كانوا على حدٍّ سواء ما عرف الإنسان قدر نعمة الله عليه، ولهذا لا يعرف قدر العافية إلا من ابتُلِي بمرض، كذلك أيضًا المعصية فلا يعرف العبد قدر نعمة الله عليه بالطاعة إلا إذا عرف آثار المعاصي على فاعلها.

خامسًا: لولا المعاصي التي أعظمها الكفر ما قام سوق الجهاد؛ لأننا لو كنا كلنا مسلمين فمن نجاهد؟ لا أحد، لكن إذا كان هناك كافر ومؤمن قام سوق الجهاد، ولا يخفى ما في الجهاد من الخير والفضل العظيم.

سادسًا: لولا المعاصي لفاتت الحكمة من خلق الخلق كلهم، قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود:١١٨] يعني: على الهدى ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

سابعًا: لولا المعاصي لم يكن لخلق الجنة والنار حكمة؛ لأن النار لمن؟ لمن عصى، ولو لم يكن هناك عصاة لكان خلق النار عبثًا، ولهذا قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

فتبيَّن الآن أن ما يُقدِّره الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مما يكرهه له فوائد كبيرة عظيمة، وحينئذٍ يكون مرادًا لله تعالى لغيره، وهو من هذه الناحية محبوبٌ إلى الله، فتبيَّن بهذا سُقوط الإيراد الذي أوردناه أولًا، وهو: كيف يريد الله المعاصي وهو يكرهها.

ونظير ذلك في الأمور المحسوسة: أن الأب أو الأم يأتي إلى ابنه المريض، فيكويه بالنار، فتُؤلِمه، وتُحرِقُ جلده، ولكن لماذا؟ لطلب الشفاء، فكيُّه مكروهٌ غيرُ محبوبٍ له، لكنه محبوب لغيره؛ أي: لما ينتج عنه من المصالح، وبهذا تبيَّن أنه لا مانع من أن يكون الشيء مكروهًا من وجه، محبوبًا من وجه.

ما هي التي يلزم فيها وقوع المراد؟ الكونية، وعلى هذا فالكافر مراد منه أن يُؤمن، ولكنه لم يؤمن، مراد منه أن يكفر وقد كفر، مراد منه أن يؤمن بأي الإرادتين؟ الشرعية، مراد منه أن يكفر؟ بالإرادة الكونية، فكفر، والمؤمن الذي آمن مراد منه أن يؤمن بالإرادة الشرعية، ومراد منه أن يؤمن بالإرادة الكونية؛ لأنه آمن، وعلى هذا فالمؤمن اجتمع في حقه الإرادتان: الكونية والشرعية،

والكافر في حقه الإرادة الكونية دون الشرعية، وهنا قال تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ أي الإرادتين؟ الإرادة الكونية.

٦ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الله - عزَّ وجلَّ - يبتلي الإنسان بالضر وبالرحمة، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم:٣٣] فالله - عزَّ وجلَّ - يبتلي بالضُرِّ، ويبتلي بالرحمة.

٧ - **ومن فوائدها:** الفرق بين الضر وبين الرحمة، الرحمة قال فيها: ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾، والضر ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ لأن الرحمة تحتاج إلى بقاء، فإذا أبقى الله الرحمة فهل هذه الأصنام هي التي تمسك الرحمة أو الله؟ الله - عزَّ وجلَّ - وليست الأصنام، ويحتمل في الآية وجه آخر ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ أن تصِلَ إلى المرحوم، فيكون ممسكات بمعنى: مانعات للرحمة، ليكون ذلك بمقابل: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** وجوب اعتماد الإنسان على الله، لقوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: قُلها باللسان معتقدًا إياها بقلبك.

٩- **ومن فوائدها:** أن أحق من يُتوكَّل عليه هو الله، لقوله: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، فإن قال قائل: هل تحقيق التوكل ينافي فعل الأسباب؟ الجواب: لا، إلا إذا تعذَّرت الأسباب ولم يبقَ إلا التوكل، فحينئذٍ يكون هو سبب الأسباب، فالإنسان مأمورٌ بفعل السبب، فإذا فعَلَه ولم يُفِد، أو لم يكن سببه موجودًا مقدورًا عليه لم يبقَ إلا التوكل.

فإن قال: ما هو الدليل على أن فعل الأسباب لا ينافي التوكل؟ قلنا: وقوع ذلك من سيد المتوكلين محمد ﷺ، فإنه ﷺ كان يأخذ بالأسباب، يأكل ليندفع عنه الجوع، ويشرب ليندفع عنه العطش، ويتدرَّع بالدروع في الحرب ليتَّقي بذلك السهام؛ بل إنه عليه الصلاة والسلام في أُحُد ظَاهَرَ بين درعَيْن[1]؛ لأن ذلك أقوى في الصيانة والحماية، وشقَّ الخندق على المدينة في غزوة الأحزاب منعًا للعدو من دخول المدينة، والشواهد على هذا كثيرة.

ولكن نُقيِّد الأسباب بأن يثبُت كونها سببًا شرعًا أو حِسًّا، لابد أن يثبُت كونها سببًا إما عن طريق الشرع، وإما عن طريق الحِسِّ والتجارب، فأما مجرد توهُّم أن ذلك سببًا فإن ذلك من الشرك، فمن دلالة كون الشيء سببًا شرعًا: أن القرآن شفاء لما في الصدور، وهو مرضُ الشُّبُهات والشهوات، وشفاء لما في الأبدان، لقول النبي ﷺ للذي قرأ بالفاتحة للديغ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ[2]»[1] من أين علمنا ذلك أن القرآن شفاء؟ من الشرع.

(١) رواه أحمد في مسنده (١٥٧٦٠)، والنسائي في الكبرى (٨٥٨٣) من حديث السائب بن يزيد رضي الله عنه، وقال أحمد في مسنده: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) ما الذي أعلمك أنها يرقى بها.

وقد يكون بالتجارب؛ مثل: أن نعرف أن السنا مُسهِّل، من أين عرفنا، هل في القرآن والسنة أن السنا مسهل؟ لا، لكن بالتجارب، السنا في القصيم يُسمُّونه: السناوين مُثنى، وهو سنا واحد، لكنه نوع من الأوراق، أوراق شجر معروف يشبه السِّدْر، إذا دُقَّ ونُقِع في الماء لمدة عشرين ساعة ونحوها وشربه الإنسان، فإنه يسلِتُ ما في بطنه من الأذى ويُسهِّله، وله رائحة كريهة، لكن الناس يجعلون معه بصلًا ليُعمِي رائحته، وإن كان البصل خبيثًا لكنَّهُ أهون، أخف الضررين، على كل حال من أين عرفنا أن هذا مُسهِّل؟ من التجارب، وغالب الأدوية الموجودة الآن غالبها من التجارب، أما شيء موهوم فهذا لا يجوز اعتماده؛ بل هو نوعٌ من الشرك، التِّوَلة شرك؛ لماذا؟ لأنه لم يثبت كونها سببًا لمحبة الرجل لزوجته، أو الزوجة لزوجها لا شرعًا ولا حِسًّا، فيكون إثبات كونها سببًا شركًا؛ لأنك أثبتَّ ما لم يُثبِت الله، فكأنك جعلت نفسك مثل الله في إثبات الأسباب ومفعولاتها.

إذن قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لا ينافي فعل الأسباب؛ بل الأسباب من التوكُّل في الواقع، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي عبيدة بن الجراح لما قال: أفِرارًا من قدر الله؟ قال: نفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله، والله أعلم.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [الزمر: ٣٩، ٤٠].

التفسير

الخطاب هنا للنبي ﷺ، وقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ المراد بهم: من كذَّبوه وعانَدُوه، وقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ هذه مُنادَى، وأصلها: يا قومي، ولكنها حُذِفت الياء للتخفيف، وبقيت الكسرة دليلًا عليها، وعليه فنقول في إعرابها: قومي مُنادى منصوب بفتحة مُقدَّرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف.

وقوله: ﴿يا يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ يعني: على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة والإيذاء، فإن ذلك لا يهمُّني ولن يمنعني من أن أستمر في عملي، ولهذا أكَّد قوله: ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ يعني: عاملٌ على ما أنا عليه، فأنتم اعملوا، ونحن سنعمل، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا

---

(١) رواه البخاري (٢١٥٦)، ومسلم (٢٢٠١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

مُنتَظِرُونَ﴾، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذه جملة مُحقَّقة لدخول (سوف) عليها، فإن (سوف) تُحقِّق الجملة كما تُحقِّقها السين، لكن الفرق: أن السين تفيد ذلك عن قُرْب، وسوف تفيده عن مُهْلة، ولهذا يقال السين للتنفيس، وسوف للتسويف؛ أي: التأخير، والتنفيس القُرْب.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ﴾ مَنْ مفعول تعلمون، والعلم هنا بمعنى: المعرفة، ولهذا لا تنصِبُ إلا مفعولًا واحدًا، كما قال ابن مالك:

لعلم عرفانٍ وظنٍ تُهَمَة تَعْدِيَةٌ لواحدٍ مُلْتَزِمة

وقوله: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعرفون ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: ستعلمون الذي يأتيه عذاب يُخزِيه، العذاب هنا: العقوبة، والخزي معناه: الذل والعار، قال تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: ينزل عليه عذاب مقيم لا يفارقه، سوف تعلمون هذا، هل هو نحن أم أنتم؟ ولكنهم سوف يعلمون ذلك في وقت لا يتمكَّنُون فيه من الخَلَاص، وإنما يُنادُون بالويل والثبور - والعياذ بالله -.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤١، ٤٢].

التفسير

تأمَّل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾، وفي بعض الآيات: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ فهل الحرفان بمعنى واحد، أو هما يختلفان؟ الجواب: الأصل فيما اختلف لفظه أن يختلف معناه؛ لأن اللفظ للمعاني بمنزلة الثوبِ للأجسام، فإذا وجدنا لفظَيْن تأديتُهما واحدة، لكنهما مختلفان لفظًا، فالأصل اختلافهما معنىً، فقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يفيد أن غاية الإنزال إلى رسول الله ﷺ لا يتجاوزُه إلى غيره، وقوله: ﴿عَلَيْكَ﴾ يفيد أن الإنزال استعلى النبي ﷺ حتى تشرَّبَه كأنه نزل في نفس الرسول ﷺ، ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ولم يقل: إلى قلبك، هذا هو الفرق.

وقوله: ﴿عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الكتاب هنا هو: القرآن الكريم، وسُمِّي كتابًا؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي في أيدي الملائكة، وفي الصحف التي بين أيدينا، وعلى هذا فيكون

فِعال بمعنى: مفعول، وهذا الوزن - أعني: فِعالًا بمعنى: مفعول - يأتي كثيرًا في اللغة العربية، ومنه: فِرَاش بمعنى: مفروش، كِساء بمعنى: مكسِيّ، وبناء بمعنى: مبني، وغراس بمعنى: مغروس.

وقوله: ﴿لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ اللام هنا للاختصاص، أو للتعدية، والمعنى: أن الله أنزل الكتاب على محمد ﷺ ليهتدي به الناس وينتفعوا به، والأمر كذلك، فإن الناس انتفعوا بهذا القرآن انتفاعًا لا يُماثِلُه انتفاع، فالأمة القُرشية كانت لا تُساوي شيئًا عند الأمم، وكانوا أذِلَّة، وكانوا فقراء، لهم رحلةٌ إلى الشام في الصيف، وإلى اليمن في الشتاء؛ لأنهم ليس عندهم حركة ولا تجارة، ولا أموال، وببعثة النبي ﷺ وبهذا القرآن صاروا سادة الأمم ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ آوى يعني: آواك وآوى بك، فكنتَ أبًا للناس بعد أن كنت يتيمًا لا أبَ لك، ولهذا نقول: آوَى حُذِف المفعول به من أجل العموم؛ يعني: آواك وآوى بك ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ هداك وهدى بك ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ يعني: أغناك وأغنى بك، ولهذا قال النبي للأنصار: «وَكُنْتُمْ عَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي»، فالنبي ﷺ جاء بالبركة لأمته، ولهذا قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لها معنيان: بالحق يعني: أن ما جاء به هذا القرآن فهو حقٌّ، والحق هو: الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ يعني: أن هذا القرآن نزل بالحق، أتى بالحق، وهو صدق الأخبار، وعدل الأحكام، والمعنى الثاني: بالحق يعني: أنه مصحوبًا بالحق؛ أي: أنه نزولٌ حقٌّ ليس فيه باطل، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠- ٢١٢] فإذن بالحق له معنيان: الأول: أن ما جاء به الحق، والثاني: يعني: أن نزوله حق ليس بباطل، فإنه لا يعتريه الباطل ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾، وتلوت عليكم قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ بخلاف أخبار الكهان، فكلها من الشياطين.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ الفاء هذه مُفرَّعة على ما سبق؛ يعني: بعد نزول هذا القرآن انقسم الناس فيه إلى قسمين: قسم اهتدى به فانتفع، وقسم ضل عنه فهلك.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ من هذه شرطية فعل الشرط فيها اهتدى، وجوابه جملة فلنفسه؛ لأن الجملة هنا اسمية ولهذا اقترنت بالفاء، فمن اهتدى فلنفسه.

وقوله: ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: هداية علمية وهداية عملية، هداية علمية: بأن حرص على هذا القرآن فحفظه، وتدبَّره، وتأمَّلَه، وهداية عملية: بأن طبق على القرآن وعمل به عقيدةً وقولًا وفعلًا.

وقوله: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ يعني: فلنفسه اهتداؤه، أو فهو لنفسه، المهم: أن المحذوف هنا المبتدأ ولابد؛ لماذا نقول: ولابد؟ لأن المذكور جار ومجرور، والجار والمجرور لا يمكن أبدًا أن يكون مبتدأً، إذن فالمحذوف هو المبتدأ هنا، فإن شئتَ قدِّر: فلنفسه اهتداؤه، وإن شئت قدِّر: فهو لنفسه، ولماذا اقترنت جملة الجواب بالفاء؟ لأنها اسمية، وإذا وقعت جملة الجواب اسمية وَجَبَ اقترانُها بالفاء، وربما تُحذَف الفاء ولكن قليلًا، ومنه قول الشاعر[1]:

ومن يفعل الحسناتِ اللهُ يشكرها ....

ولم يقل: فالله يشكرها، لكن هذا قليل، وما يجبُ قرنُهُ بالفاء من الجمل إذا وقع جوابًا مذكورٌ في بيت:

اسميـــــــةٌ، طلبيةٌ، وبجـــــامدٍ وبـ (ما)، وقد، وبـ (لن)، وبالتنفيس

وقوله: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ ومن ضلَّ فلم يهتدِ لا علمًا ولا عملاً، فإنما يضل عليها أي: على نفسه، ولن يضر الله شيئًا ولا يضر غيره شيئًا أيضًا.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ ما هذه حجازية؛ أي: لا تعمل عمل ليس إلا عند أهل الحجاز، ولذلك سُمِّيَتْ حجازية، هي عند أهل الحجاز تعمل عمل ليس؛ ترفع المبتدأ، وتنصب الخبر، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ وعند بني تميم لا تعمل عمل ليس، مهملة، فيقولون في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ يعني: في غير القرآن: ما هذا بشرٌ، الآن أنا سأتكلم فقولوا: أنت حجازي أم تميمي؟ ما زيدٌ قائمٌ، تميمي، ما زيدٌ قائمًا، حجازي، إذن لغة قريش - وهم أهل الحجاز - يقولون: ما هذا بشرًا، وبني تميم يقولون: ما هذا بشرٌ، وكانوا يقرءون القرآن: ما هذا بشرٌ قبل أن يُوحَّد على لغة قريش؛ لأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، وفي بيت طريف قال فيه الشاعر:

ومهفهف الأعطاف قلت له: انتسب فأجـــــاب: ما قَتْلُ المُحبِّ حرامٌ

قلت له: انتسب يعني: من أين أنت؟ فأجاب، ما قال: أنا من فلان، أو من بني فلان، فأجاب: ما قَتْلُ المُحبِّ حرامٌ، ماذا يكون؟ تكون هذه المرأة تميمية؛ لأنها قالت: ما قَتْلُ المُحِبِّ حرامٌ، إذن عرف أنها تميمية، في وقتنا الآن، هل نعرف التميمي من القرشي؟ اندمج الآن كلهم تميمي، وكلهم قرشي، تجد هذا يقول: ما هذا بشرٌ، وهذا يقول: ما هذا بشرًا، هذا يقول: ما هذا بشرٍ، يختلفون كلهم اختلطوا.

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ هل نُعرِب الآن ما على لغة بني تميم، أو على لغة قريش؟ على لغة قريش، مع أن اللفظ لا يختلف، في هذا التركيب لا يختلف اللفظ؛ لأن بني تميم يقولون: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ وكذلك قريش لكن لعلمنا أنه قرآن على لغة قريش

---

(١) منسوب إلى حسان ثابت رضي الله عنه .

نقول: إن ما هنا حجازية، وأن اسمها، والتاء للخطاب، والباء حرف جر زائد، وكيل خبرها منصوب بفتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحلِّ بحركة حرف الجر الزائد.

فإن قال قائل: قلتَ: إن الباء حرف جر زائد، ونحن نعلم أن القرآن الكريم ليس فيه لغوٌ، والزيادة لغوٌ؟ فالجواب على هذا: أن نقول: فالزيادة لغوٌ إذا لم تُفِد معنى، فإن أفادت معنىً فليست لغوًا، والمعنى الذي تفيده هنا: توكيد النفي، وعلى هذا فليست لغوًا؛ بل هي زائدةٌ لفظًا، زائدة معنىً؛ يعني: تزيد المعنى، لكن قد يقول قائل: كيف زائدة زائدة؟ نقول: زائدة الأولى: مِن زاد اللازم، وزائدة الثانية: مِن زاد المُتعدِّي؛ لأن زاد تُستَعمل لازمة لا تتعدَّى للمفعول، وتُستَعمل مُتعدِّية للمفعول، قال الله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ مُتعدِّية، وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ مُتعدِّية، وتقول: زاد إيمان الرجل لازمة، وتقول: نقص الماء لازمة.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ يعني: لست عليهم بمُراقبٍ تُراقبهم وتحافظ عليهم، وإنما ذلك إلى الله، أنت عليك البلاغ، والحساب على رب العباد عز وجل.

يقول المؤلف: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [على حالتكم]، فالمكانة بمعنى: الحالة، وكما ذكرنا في التفسير المكانة أي: ما كنتم عليه، وهي بمعنى: الحالة في كلام المُفسِّر ﴿إني عامل﴾ [على حالتي] من أين فهم أن التقدير: على حالتي؟ لأنها مقابل لقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ يعني: إني عاملٌ على مكانتي.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يقول: [﴿مَن﴾ موصولة مفعول العلم] أين العلم؟ لو قال المؤلف: مفعول تعلمون لكان أوضح؛ لأن الذي في الآية ليس المصدر، ولكنه الفعل، وكان عليه أن يقول: مفعول تعلمون.

وقوله: ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ إذا كانت مَنْ موصولة فجملة ﴿يَأْتِيهِ﴾ لا محل لها من الإعراب: صلة الموصول ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ماذا قلنا في عذاب؟ عقوبة، وجملة ﴿يُخْزِيهِ﴾ صفةٌ لعذاب، وليست جوابًا لمن؛ لأن مَنْ اسم موصول لا تحتاج إلى جواب ﴿وَيَحِلُّ﴾ [ينزل] ﴿عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [دائمٌ، وهو عذابُ النار، وقد أخزاهم الله ببدر].

يعني: أن أكبر ذلٍّ حصل لقريش ما حصل في بدر؛ لأن الله سبحانه وتعالى جمع زعماءهم وكبراءهم وأشرافهم حتى خرجوا في ذلك اليوم، وقُتِل هؤلاء الكبراء والأشراف، قُتِلوا، وسُحِبوا، وأُلقوا في قليب من قُلُبِ بدر، قليبًا خبيثة مُنتنة، فكان جزاؤهم - والعياذ بالله - هذا الجزاء، وهذا من أعظم الخزي، حتى وقف النبي ﷺ عليهم يُوبِّخُهم، ويُندِّمُهم، ويقول: يا فلان ابن فلان، بأسمائهم وأسماء آبائهم، «هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا»، فقالوا: يا رسول الله ! ما تُكلِّمُ من أناس جيَّفوا؟ كيف تُكلِّم جِيفًا؟ قال: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا

أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الجَوَابَ»[1]، وصدق الرسول ﷺ، هم يسمعون كلام الرسول، ولا يزيدهم هذا الكلام إلا حسرةً وندامةً، ولهذا قال أحدهم لعبد الله بن مسعود - وهو أبو جهل - حين جاء إليه وفيه رَمَقٌ من حياته، قال له: من أنت؟ قال: ابنُ مسعود، قال: لقد ارتقيتَ مُرتقًا صعبًا يا رويعي الغنم، كيف تطلع على رأس شريف من أشراف قريش، ثم قال: لمن الدائرة اليوم؟ قال: لله ولرسوله.

ثم قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [مُتعلِّقٌ بـ (أنزل)]، لماذا لم يقل: بأنزلنا؟ لأن العامل هو الفعل، ونا اسم الفاعلين مبني على السكون، وهذا تعليم من المؤلف لكم، إذا أردتم أن تقولوا: هذا مُتعلِّق، فلا تذكروا إلا العامل فقط، لا تذكروا الفاعل معه، ولا المفعول إن كان المفعول متصلًا به، ونحن في الحقيقة في إعرابنا للقرآن نتجاوز، نقول في مثل هذا: متعلق بأنزلنا، وهذا غير مُحرَّر، الصواب: أن تقول: متعلق بأنزل، الذي هو العامل فقط، دون ما اتصل به من فاعل أو مفعول.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [اهتداؤه] ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [فتُجبرهم على الهدى]، وهذا كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ الرسول ﷺ ليس بجابرٍ لهم على الاهتداء، وليس بمُوكَّلٍ بهم يحافظُهم ويحافظ عليهم.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٣٩].

١ - **من فوائد هذه الآية:** أنه ينبغي لمن معه الحق أن يكون قويًّا مُتحديًا لخصمه، فلا يقف موقف الضعف، من قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾، ﴿إِنِّى عَـٰمِلٌ﴾ يعني: ولا تهمونني.

٢ - **ومن فوائدها:** تسلية النبي ﷺ، فإن الله أمره بذلك تبشيرًا له وتسليةً، بأنه ستكون العاقبة له.

٣ - **ومن فوائدها:** أنه لا بأس بإقرار الكفار على كفرهم تهديدًا، وهذا أسلوبٌ مُتَّبعٌ حتى في تأديب الوالد ابنَه، ماذا يقول له إذا خالف؟ يقول له: استمر على معصيتي، استمر في اللعب، لا تحضر للضيوف مثلًا، ماذا يقصد؟ يقصد التهديد.

٤ - **ومن فوائدها:** أن الله سبحانه وتعالى يريد من نبيِّه أن يكون عاليًا على قومه، يتكلَّم معهم من علوٍّ، وذلك بقوله: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ﴾ وهذا يُشبه التحدِّي لهم، أنِّي لا يهمني أن تعملوا ما علمتم، فإني سوف أعمل ما يضاد ذلك.

٥ - **ومن فوائدها:** تهديد أولئك المُكذِّبين للنبي ﷺ، وأنهم سوف يعملون من هو أحق بالعذاب، ومن يأتيه العذاب.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٣)، وأحمد في مسنده (١٢٠٣٩) من حديث أنس رضي الله عنه.

٦ ـ **ومن فوائدها:** أن عذاب الكفر عذابٌ مُخزٍ، عارٌ في الآخرة، وذُلٌّ في الدنيا والآخرة - والعياذ بالله -، لقوله: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها:** أن عذاب أهل النار مقيم، لا ينفك عنهم.

ويتفرَّع على هذه الآية الكريمة: ما دَلَّ عليه القرآن والسنة من أن أهل النار مُخلَّدون فيها أبدًا، وأنها لا تفنى، وأن القول بفنائها قولٌ ضعيف؛ بل باطل لمخالفته للكتاب والسنة.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر:٤١].

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان أن القرآن كلام الله؛ لأن الله أنزله، وهو كلامه، ليس ذاتًا مُعيَّنَةً؛ كالحديد الذي قال الله فيه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥]، وكالمواشي قال فيها: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦]، فالقرآن كلامٌ، فإذا كان كلامًا فإنه لا يكون مخلوقًا؛ لأن الكلام صفة المتكلم، والمُتكلِّم به هو الله، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثباتُ عُلوِّ الله، من قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ والإنزالُ لا يكون إلاَّ من عُلوٍّ، وهذا هو الذي دلَّ عليه الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

فالكتاب: دلالته على علو الله متنوعة بأنواع كثيرة.

والسنة: كذلك، اتفقت السنة القولية، والفعلية، والإقرارية على أن الله تعالى عالٍ فوق خلقه.

والإجماع: فقد أجمع السلف على ذلك، ما منهم من أحد قال بخلافه أبدًا، والقاعدة في هذا: أنه إذا دلَّ الكتاب والسنة على شيء، ولم يُعلَم أن أحدًا من السلف؛ الصحابة والتابعين قال بخلافه، فإنهم لا يقولون بسواه، وهذه فائدة مهمة؛ لأنه قد يقول قائل: أين الدليل على أن الصحابة يَرَون أن الله استوى على العرش؛ أي: علا عليه؟ هل أحد فسَّره بذلك؟ فماذا نقول؟ نقول: مادام القرآن قال به، ولم يرِد عنهم خلافه، فهُمْ قد قالوا به؛ لأنهم هم يأخذون بدلالة القرآن التي أُمِروا أن يأخذوا بها، إذن نأخذ من هذا إجماع الصحابة على علو الله، وكذلك التابعون لهم بإحسان، والأئمة من بعدهم، لم يأتِ حرفٌ واحدٌ عن أحدٍ منهم أنه قال بخلاف ذلك.

والأدلة العقلية على وجود الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يقال: العُلو إما صفة نقصٍ أو كمال، ولا أحد يشكُّ أنه صفة كمال، فوجب ثُبُوته لله عز وجل؛ لأن الرب قد وجبت له صفات الكمال عقلًا.

وأما الفطرة: فإن الناس مفطورون على أنهم إذا سألوا الله شيئًا إنما ترتفع قلوبهم نحو السماء،

وهذا أمر لا يُنكِرُه أحد.

٣ - **ومن فوائدها:** فضيلة رسول الله ﷺ؛ حيث كان إنزال هذا القرآن العظيم عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

٤ - **ومن فوائدها:** أن القرآن نزل لمصلحة الخلق، لقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾، فالقرآن لم ينزل ضد مصالح الخلق؛ بل نزل لمصالح الخلق، ولهذا قال: ﴿لِلنَّاسِ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** عموم رسالة النبي ﷺ، لقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ ولم يقل: لقومك مثلًا، للناس عمومًا.

٦ - **ومن فوائدها:** أن القرآن نزل بالحق، على وجهي التفسير اللذَيْن سبقا، وهو أنه هو حقٌّ، وآتٍ بالحقِّ، حقٌّ فيما جاء به؛ حيث كانت أحكامه عدلًا، وأخباره صدقًا، وهو نفسه حقٌّ ليس بباطل.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القرآن حجة، لقوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** أن الناس ينقسمون نحو هذا القرآن إلى مُهتدٍ وضالٍّ، لقوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾.

٩ - **ومن فوائدها:** الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مُجبَر على عمله، ووجه ذلك: أنه أضاف الاهتداء والضلال إلى العبد، فدلَّ هذا على أنه فعله الذي اختاره.

١٠ - **ومن فوائدها:** شُؤْمُ المعاصي وأنها تكون على العبد لا له.

١١ - **ومن فوائدها:** بركةُ الاهتداء، وأنه كسبٌ للعبد، لقوله: ﴿فَلِنَفۡسِهِۦ﴾.

١٢ - **ومن فوائدها:** تسليةُ النبي ﷺ إذا ضَلَّ مَنْ ضَلَّ من الناس، لقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ فالله وحده هو الوكيل عليهم، أما أنت فأنت مُبلِّغ، فإذا قمتَ بواجب البلاغ، فالحساب على الله.

١٣ - **ومن فوائدها:** الردُّ على من تعلَّقوا بالنبي ﷺ خوفًا ورجاءً ورغبةً ورهبةً، حتى صاروا يدعونه من دون الله، لقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾.

١٤ - **ومن فوائدها:** أن الداعي المُبلِّغ لشريعة الله إذا بَلَّغَ على الوجه الذي أُمِر به فقد برئت ذمته، ولا يلزمه شيء وراء ذلك، وجه الدلالة منها: أنه إذا كان إمام الداعين المُبلِّغين محمد ﷺ ليس وكيلًا على الناس، ولا حفيظًا عليهم، فمَنْ دونه من باب أولى.



قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٤٢].

التفسير

﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَتَوَفَّى﴾ خبره، والتوفِّي بمعنى: القبض، كما يقال: توفَّى الرجل حقَّه من غريمِهِ؛ أي: قبَضَه منه، والأنفس: جمع نفس، وهي: الأرواح التي بها تحيا الأجسام، والنفس تُطلَق في القرآن على معانٍ متعددة، منها: أنها الروح التي بها حياة الإنسان، فهو يقبض الأرواح حين موتها؛ أي: حين الموت، وهو: مفارقة الروح للبدن المفارقة التي تزول بها الحياة.

وقوله: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ﴾ الواو حرف عطف، والتي معطوفة على الأنفس؛ يعني: ويتوفَّى التي لم تمُتْ، ويمكن أن تقول: الواو حرف عطف، والتي صفة لمعطوف على ما سبق، وتقديره: والأنفس التي لم تمت، أو أن تعطف الصفة رأسًا على ما سبق، وتقول: التي لم تمُتْ عطفٌ على ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾، والتي لم تمت يتوفَّاها في منامها؛ أي: يقبضها، لكنه ليس قبضًا تامًّا؛ بل قبضٌ مُقيَّد، ولهذا تجد النائم له إحساسٌ من وجهٍ، وليس له إحساس من وجهٍ آخر، فباعتبار القوى الظاهرة لا إحساس له، لا يرى ولا يسمع، وباعتبار القوى الباطنة، وأنه لو نُبِّه لانتبه، يكون حيًّا، فصِلَةُ الروح بالنائم غير صِلَتها باليقظان، وغير صِلَتها بالميت، فهي وسط بين الحيِّ اليقظان وبين الميت.

وقوله: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ وقد سمَّى الله النوم وفاةً، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٦٠] ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ فلا ترجع إلى جسدها، يُمسِكها إلى أن يأتي البعث، وقوله: ﴿قَضَىٰ﴾ أي: حكم، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] أي: حكم ألَّا تعبدوا إلا إياه، والقضاء هنا قضاءٌ كونيٌّ، وأقول: قضاءٌ كونيٌّ؛ لأن قضاء الله ينقسم إلى قسمين: شرعي وكوني، فالشرعي ما أَمَر به؛ مثل قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، ومثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ [غافر:٢٠] أي: يحكم به، والقضاء الكوني؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:٤] فإن الله لا يقضي بالفساد في الأرض قضاءً شرعيًّا، إنما هو قضاءٌ كونيٌّ.

وهنا يقول: ﴿قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ قضاءً كونيًا ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ وهي التي توفَّاها في منامها يُرسِلُها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى أجل معين، ما هو الأجل المسمى؟ هو الموت؛ يعني: يُرسِلُها تذهب إلى جسدها وتبقى فيه إلى أجل مسمى؛ أي: مُعيَّن محدد.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يعني: الوفاة للنفسَيْن، والإرسال لإحداهما وإمساك الأخرى فيه آياتٌ، والآيات التي معنا واضحة جدًا أربعة: وفاة الموت، وفاة النوم، إمساك الميتة، إرسال النائمة، كلها من آيات الله عز وجل، وإنك لَتأتي إلى القوم جماعة نائمين، فتقول: سبحان الله ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قومٌ كأنَّهم جُثَث لا يسمعون، اللهم إلا من كان خفيف النوم لكن الأصل أنهم جُثَث، فتقول: سبحان الذي أماتهم ثم أحياهم، بعد أن كانوا شبه أموات، فهي آيات، وهي آيةٌ أيضًا على البعث، فإن الموت وفاة صغرى يبعث الله فيه النائم حتى يحيا يستيقظ تمامًا، كذلك الإحياء بعد الموت بأمر الله - عزَّ وجلَّ - وهو قادرٌ عليه، والعاقل يقيس الغائب على الشاهد، والمستقبل على الحاضر، ويتبيَّن له الأمر.

وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ التفكُّر: إعمال الفكر؛ بحيث يدور كارًّا وراجعًا، يمينًا وشمالًا، حتى يتبيَّن له ما يتبيَّن بالتفكُّر، وضد التفكُّر: الغفلة، وأن يكون القلب حجرًا أملسًا لا يقَرُّ عليه شيء، لو قرَّ عليه حبة من تراب أطارتها الرياح، وجَرَتْ بها المياه، فالإنسان المُتفكِّر هو الذي ليس بغافل؛ بل يُديرُ فكره يمينًا وشمالًا، ذاهبًا وراجعًا، حتى يتبيَّن له الأمر.

يقول المُفسِّر رحمه الله: [﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ ويتوفى ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾] قدَّر الفعل بعد حرف العطف إشارةً إلى أنَّه معطوفٌ على ما كان هذا عامِلُه، وما الذي هذا عامله؟ الأنفس، ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ أي: يتوفَّاها وقت النوم، فيتبيَّن بهذا أن النوم وفاة.

قال: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [أي: وقت موتها] هذا الأجل المسمى، [والمُرسَلة نفس التمييز تبقى بدونها نفس الحياة، بخلاف العكس] كأنَّ المؤلف يقول: إن الأنفس نوعان: نفس تمييز، ونفس حياة، نفس التمييز هي: المُرسَلة ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وتبقى بدونها الحياة، فالنائم في حياة ما في شك، فنفس التمييز تبقى بعدها الحياة، والعكس لا، ولهذا قال: [بخلاف العكس] فإن نفس الحياة إذا قُبِضَت لا تبقى بعدها نفسُ التمييز، فأفادنا رحمه الله أن الأنفس في قوله: ﴿ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أنفس الحياة، ويتبعها أنفس التمييز، ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ أنفس التمييز.

قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [المذكور] ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ [دلالات] ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [فيعلمون أن القادر على ذلك قادرٌ على البعث، وقريشٌ لم يتفكَّروا في ذلك]، في هذا المذكور آيات، ونحن ذكرنا

أربعًا ظاهرة، ولو تأمَّلنا لوجَدنا أكثر من ذلك بكثير، ولكنها تحتاج إلى تفكير، وتدبُّر، وتأمُّل فتتضح.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيانُ قوة سلطان الله - عزَّ وجلَّ - وعمومه، من كونه يتصرَّف هذا التصرُّف حتى في الأنفس، يتوفَّاها جميعًا، ويُرسِل هذه، ويُمسِك هذه، وهذا دليلٌ على كمال المُلْك والسلطان.

٢ - **ومن فوائدها:** أن المُتوفِّي للأنفس حين موتها هو الله عز وجل، ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أليس هذا هو الوقع؟ نعم، هذا هو ما تدلُّ عليه الآية، ولكن هذه الدلالة ربما يُعارِضُها بعض الآيات، في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦١، ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فنجِد في آية الزمر أضافَ الوفاةَ إلى نفسه عز وجل، وفي آية: ﴿الٓمٓ﴾ السجدة إلى ملك الموت، وفي سورة الأنعام إلى الرُّسُل ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾؛ فكيف نجمع بين هذه الآيات؟

الجواب على ذلك: أن نقول: يجب أن نعلم قاعدة مهمة جدًّا: هو أنه لا يمكن أن يتعارَضَ دليلان قطعيان أبدًا، لا من القرآن، ولا من السنة، ولا من العقل؛ لأنهما لو تَعارَضَا لكان أحدهما ثابتًا، والآخر مُنتفيًا، وإذا قلنا: الآخر منتفيًا زال عنه اسمُ القطعيِّ، وهذه القاعدة تُفيدُك في مسائل كثيرة؛ فمثلًا: لو قال لك قائل: القرآن يدل على كذا، ثم ثبت حِسًّا أن الأمر الواقع على خلافُ هذا المدلول، الأمر الحِسِّي تكذيبُهُ غير ممكن، لكن نقول: إن فهمَكَ للقرآن هذا خطأ، فمثلًا: لو قال: ليست الأرض كروية، لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:٢٠] واعتقاد أنها كروية يُكذِّب دلالة الآية، القرآن قطعيُّ الثبوت؛ يعني: ثابت قطعًا ما فيه إشكال، والله يقول: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ وكروية الأرض حِسًّا ثابتةٌ أم لا؟ قطعًا، أم غير قطع؟ كروية الأرض ثابتة قطعًا لا شك، حِسًّا، الآن لو تقوم طائرة من مطار جدة مُتجهة نحو الغرب على خط مستقيم، رجعت إلى مطارها لا يرُدُّها شيء، إذن فهي كروية لا إشكال فيها، الآية لفظُها قطعيٌّ ثابتٌ، لكن دلالتها على أنها سطحٌ واحدٌ ما هو صريحٌ، ليست صريحة، وإذا لم تكن الدلالة صريحة فهي غيرُ قطعية، وحينئذٍ نقول: التعارُض الآن بين مدلولٍ ظَنِّيٍّ ومحسوسٍ قطعيٍّ، ما هو المدلول الظني؟ أن الآية تدل على أن الأرض سطح واحد، والمحسوس القطعي؟ أن الأرض كروية، نقول: الحمد لله، التعارُض الآن بين الظني والقطعي، وإذا تعارض ظنيٌّ وقطعيٌّ يُقدَّم القطعي، ونقول: سطح الأرض باعتبار القطعة المواجهة، أو الجانب المواجه من الأرض سطحيٌّ، لكن على البُعد يكون فيه انحناء، والدليل على ذلك: أنه لو كانت سفينة تسيرُ في البحر ولها أعمدة طويلة،

إذا ابتعدت عنك كُلَّما ابتعدت اختفت وغابت، ما الذي يُغيِّبها؟ لأن الأرض مستديرة فتغيب، لو كانت سطحًا لكنتَ تراها حتى كَفَرَاتها إن كان لها كفرات، تراها من بُعْد كما تراها من قُرْبٍ على السطح، والأمر ظاهر ما فيه إشكال.

الخلاصة: لا يمكن أن يتعارَض دليلان قطعيان في الثبوت والدلالة، ولا يمكن أن يتعارض قطعيٌّ وظنيٌّ، يبقى الآن: التعارُض بين الظنيِّ والظنيِّ، وإذا وُجِد تعارُض بين ظنِّيَّين فحينئذٍ اطلب الترجيح، أو إذا كان نسخ اعمل بالنسخ، وهذه القاعدة ذكرها شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه العظيم: «درء تعارض العقل والنقل»، وهذا الكتاب أثنى عليه ابن القيم رحمه الله في «النونية»، فقال:

وله كتابُ: «العقل والنقل» الذي ... ما في الوجود له نظيرٌ ثانِ[1]

يعني: مما ردَّ به على الفلاسفة، هذا الكتاب ذكر فيه هذه القاعدة المفيدة: التعارُض بين قطعيَّين مُحال؛ لماذا؟ لأنه لو حصل تعارُض لكان أحدهما غير قطعيٍّ ما يمكن، ثانيًا: التعارُض بين الظني والقطعي محال، وارد لكن لا مقاومة؛ بمعنى: أن نُسقِط التعارض، ونقول: الحكم للقطعي، التعارُض بين الظنِّيَّين واقع، ويجب النظر إليه، والعمل بالترجيح، أو العمل بالنسخ إذا كان مما يمكن نسخه.

نحن الآن نتكلَّم على الجمع بين الوفاة المُضافة إلى الله، والوفاة المضافة إلى الرسل، والمضافة إلى ملك الموت، نقول: لا تعارض، الدلالة تختلف؛ ففي هذه الآية آية الزمر أضاف الله الوفاة إليه؛ لأنها بأمره، وقد يُضافُ الشيء إلى آخر لوقوعه بأمره، كما تقول: بنى الملك قصرًا، فهل رأيت يعمل بيديه في الأسمنت والرمل، وغير ذلك؟ الجواب: لا، ولكنه أَمَرَ، ومنه: المثل المشهور في البلاغة بنى عمرو بن العاص مدينة الفسطاط، هل عمرو بن العاص بناها بيده؟ لا، أَمَرَ، إذن فإضافة الوفاة إلى الله؛ لأنها بأمره.

بقي عندنا الآن إضافتها إلى ملك الموت وإلى الرسل، والجمعُ: أن نقول: إما أن الرسل يُرادُ بهم الجنس، ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ يعني: ملك الموت؛ لأن ملك الموت رسول، ومنه الحديث: «**يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبُ**»، أو نقول: إن وفاة ملك الموت غير وفاة الرسل، وذلك لما جاء في الحديث: من أن ملك الموت يجلس إلى المحتضر، ويأمر روحه أن تخرج، فيأخذها بيده، ثم يُسلِّمُها فورًا إلى الملائكة الذين نَزَلوا من السماء، معهم الحنوط والكفن المناسب لها، إن كانت مؤمنة، - وأسأل الله أن يجعل روحي وأرواحكم مؤمنة -، فإنها تُجعَل في الكفن الذي من الجنة، والحنوط الذي من الجنة، وإن كانت الأخرى، فكفنٌ من نار، وحنوطٌ من نار - نعوذ بالله من ذلك -، فوضعها في هذا الكفن، والصعود بها إلى السماء تتولَّاه الملائكة، ولهذا قال: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا

---

(١) متن القصيدة النونية (ص٢٣٠).

يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦١، ٦٢] تحملها إلى الله عز وجل، إن كانت مؤمنة تجاوزت السماوات إلى الله؛ لأن الله غاية نفس المؤمن في الحياة وبعد الممات، المؤمن قلبُهُ ونفسُه مُعلَّق بالله عز وجل، دائمًا ينظر إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بعين البصيرة، إن قام فبالله، ولله، وفي الله، وإن قعد فبالله، ولله، وفي الله، وكذلك إن ذهب وجاء فهو لله، وبالله، وفي الله، والتفريق بين الكلمات الثلاث: لله: الإخلاص، بالله: الاستعانة، في الله: في شرعه وحكمه، وانظر إلى الفاتحة تضمَّنت الثلاث بالتسلسل، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هذا إخلاص، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بالله، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ في الله، الشرع، أن نكون في الصراط المستقيم لا نتجاوزه.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٤٢].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية الكريمة:** أن الله تعالى يتوفَّى الأنفس حين موتها، وقد ذكرنا أن ظاهر الآية معارض لآيتين في كتاب الله، هما: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١]، و﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام:٦١] وبيَّنَّا وجه الجمع بين هذه الآيات الثلاث، فقلنا: إضافة الوفاة إلى الله؛ لأنه هو الآمر بها، والآمِرُ بالشيء ينسب الشيء إليه، وأما الجمع بين قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام:٦١]، وقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١] فمن أحد وجهين:

إما أن يكون المراد بالرسل: الجنس، ويكون واحدًا، وهو ملك الموت.

أو أن ملك الموت يقبضها من الجسد، ثم يُسلِّمُها للملائكة الذين حضروا، فيقبضونها.

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النوم يسمى وفاة، لقوله تعالى: ﴿مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠].

٣ ـ **ومن فوائدها:** أن الوقت يذهب سريعًا بالنسبة للأموات ولو طالت الأيام والدهور؛ لأننا إذا قِسْنا الوفاة الصغرى، أو إذا نظرنا الوفاة الصغرى وسرعة ذهاب الوقت فيها فالوفاة الكبرى من باب أَولَى.

ولكن لا شك أن من كان يُعذَّب في قبره فسوف يستطيل الوقت، ومن كان يُنعَّم، فسوف يكون الوقت في حقِّه قصيرًا، ومع ذلك فإن المُنعَّم يقول: يا ربِّ ! أَقِم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي، والمُعذَّب يقول: ربِّ ! لا تُقِم الساعة[1]؛ وذلك لأنه يرى أن عذاب القبر أهون من عذاب

(١) صحيح: رواه أحمد فى مسنده (١٨٥٥٧) من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه، وصححه الألبانى فى

يوم القيامة - نسأل الله العافية -.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن النائم لا يُؤاخَذ بعمله، لا لَهُ، ولا عليه؛ لأن الله لما سمَّى النومَ وفاةً فقد قال النبي ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ**»(١)، وعلى هذا فلو رأى النائم أنه يُصلِّي؛ فهل يُكتب له أجر الصلاة؟ لا، ولو رأى أنه يقتل لم يُكتَب عليه إثم القتل؛ لأنه غير مُكلَّف.

٥ - **ومن فوائدها:** وصفُ الله بالإرسال والإمساك، يُمسِك ويُرسِل، وقد بيَّنَّا فيما سبق أن صفات الله - عزَّ وجلَّ - تنقسم أقسامًا: أحدها: ما عُلِم من أسمائه، كالمغفرة من الغفور، والرحمة من الرحيم، والثاني: ما نُصَّ عليه بذاته وليس من الأسماء؛ مثل: الاستواء على العرش، هذا صفة له لكن ليس من أسماءه، صفة وليس من أسماء الله ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، ومثل: الصُّنع ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، والفعل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وما أشبهها، ومنها: ما يُخبَر به عنه وإن لم يُذكَر في الكتاب والسنة، لكن يُخبَر به عنه، هذا أيضًا يقول العلماء: ينقسم إلى قسمين: قسم لا يليق بالله، فهذا لا يجوز الخبر به عنه، وقسمٌ لا يُنافي كمالَه، فهذا لا بأس به؛ لأن باب الخبر أوسع من باب الإنشاء؛ فمثلًا: لو قال قائل: إن الله مُريد، قلنا: نعم، لك أن تصِفَ الله به، أولًا: لأن الله وصف نفسه بالإرادة في قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، و﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ [يس:٨٢]، وثانيًا: أن الإرادة وصف لا ينافي كمال الله تعالى.

٦ - **ومن فوائدها:** كمال أفعال الله؛ حيث إنها تكون مُنتظمة مُحددة، لقوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** أنه لا يمكن أن يُخلَّد أحد في الدنيا، لقوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مُحدَّد، لا إلى شيء لا غاية له.

٨ - **ومن فوائدها:** أن هذا الحاصل من الوفاتَيْن فيه آياتٌ تدلُّ على كمال الله، وكمال وحدانيته، وكمال سلطانه، وكمال تدبيره، لقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

٩ - **ومن فوائدها:** الحثُّ على التفكُّر، وأنه مِفتاحُ العلم، لقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، والتفكُّر إنما يكون في آيات الله، ومعاني أسمائه وصفاته، أما في حقيقة الصفات، أو في حقيقة الذات فلا تتفكَّر، ولهذا يُروَى: «**تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللهِ**» أي: نِعَمِه «**وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي ذَاتِهِ**» وذلك لأن التفكُّر في ذات الله يؤدي إلى غياهب من الظلم، ويؤدي أحيانًا إلى التشكيك، وأحيانًا إلى التعطيل، وهذا هو الذي ضرَّ أهل التعطيل، التفكُّر في الذات، الذات لا يمكن الإحاطة بها،

صحيح الجامع (١٦٧٦).

(١) رواه مسلم (١٦٣١)، والترمذى (١٣٧٦)، والنسائى (٣٦٥١)، والدارمى (٥٥٩)، وابن خزيمة فى صحيحه (٢٤٩٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

وما لا يمكن الإحاطة به فالتفكُّر فيه مضيعة للوقت، وهو في جانب الربوبية خطير على عقيدة الإنسان، فأنت تفكَّر في آيات الله، في أسمائه، في صفاته من حيث المعنى، أما في نفس الذات العليَّة ما تستطيع، ماذا تتصوَّر؟ ولهذا يجب الإعراض عن هذه المسألة.



قال الله تعالى:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر:٤٣].

التفسير

أم هنا منقطعة، ولهذا تُقدَّر بـ (بل) والهمزة؛ أي: أنها بمعنى: بل والهمزة، وقولنا: منقطعة يفيد أن هناك مقابلًا لهذا المعنى، وهو كذلك، والمُقابِل لهذا المعنى: أن تكون مُتَّصلة، وحينئذٍ نحتاجُ إلى الفرق بين المنقطعة والمتصلة، والفرق بينهما من وجهين:

أم تأتي في اللغة على وجهين متصلة ومنقطعة، والمنقطعة لا معادل فيها؛ بمعنى: أنه لا يُذكَر فيها معادل، بخلاف أم المتصلة، فإنها تحتاج إلى معادل، فقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذه مُتصَّلة لذكر المُعادِل، ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾، ومثل قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ هذه منقطعة؛ لأنه لم يُذكَر فيها المعادل فتكون منقطعة.

الفرق الثاني بينهما: أن أم المتصلة بمعنى: أو، وأم المنقطعة بمعنى: بل والهمزة، وقوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لو جُعِل بعدها أو لكان هذا هو المعنى، أنذرتهم أو لم تُنذِرهم، المنقطعة بمعنى: بل والهمزة، وليست بمعنى: أو، وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ [الزمر:٤٣] ماذا تكون؟ تكون منقطعة، أولًا: لأنه لم يُذكَر المعادل، والثاني: لأنها تُقدَّر بـ (بل) والهمزة.

وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: سواه، دون؛ بمعنى: سوى، لا بمعنى: دون الرتبة؛ بل دون سوى، من دون الله؛ أي: من سوى الله، واتخذ هنا تنصِب مفعولَيْن: الأول: شفعاء، والثاني: من دون؛ يعني: اتخذوا من دون الله آلهة شفعاء، ويجوز أن نقول: إن المفعول الأول محذوف تقديره: آلهة، والثاني: شفعاء؛ يعني: أنهم اتَّخذوا معبودات يعبدونها يدَّعون أنها شفعاء لهم عند الله، قال الله تعالى عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ فصرَّحُوا بأنهم يعبدون هذه الآلهة، ولكنهم يريدون أن تكون مُقرِّبةً لهم من الله عز وجل، سبحان الله ! كيف تتَّخِذ بمن عَصَيتَ الله

فيهم وسيلة ليقربوك إلى الله، وهذا من سفههم.

وقوله: ﴿شُفَعَآءَ﴾ [عند الله بزعمهم]، والشفعاء جمع شفيع، والشفيع: من يتوسَّط لغيره بجلب منفعة، أو دفع مضَرَّة، فالشفاعة لأهل الموقع إذا أصابهم الهم والغم أن يقضي الله بينهم من باب دفع المضرَّة، والشفاعة لأهل الجنة أن يدخلوها من باب جلب المنفعة، ولا شك أنها خير ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ إلا في بعض المواطن؛ كالشفاعة في الحد بعد أن يصِل إلى السلطان، فإن من حالت شفاعته دون حدٍّ من حدود الله فقد ضادَّ الله في أمره، وإذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافعَ والمُشفَّع له، هؤلاء الجماعة الذين يعبدون أصنام يقولون: إنها شفعاء.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يعني: أتتخذونهم شفعاء، وهم لا يملكون شيئًا لا شفاعة ولا غير شفاعة، وهنا قال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ وشيئًا نكرة في سياق النفي، فتكون للعموم، وكان مُقتضى السياق أن يقول: أولو كانوا لا يملكون الشفاعة، ولكنه أتى بالعموم ليدلَّ على أن هذه الأصنام لا تُفيد شيئًا أبدًا، لا تشفع ولا تدفع، وهي قد سَلَبَت الشفاعة لدخولها في العموم، يعني: لا يملكون الشفاعة ولا غيرها، وهنا ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟﴾ فيها حرف عطف بعد الهمزة، إذا جاء حرف العطف بعد همزة الاستفهام فماذا يقول علماء النحو في إعرابها؟ إن حرف العطف عاطفٌ على ما سبق، أو تكون الهمزة في مكانها وحرف العطف على شيءٍ مُقدَّر يُناسب المقام، وذكرنا أن الثاني رأي البصريين، والأول رأي الكوفيين، وذكرنا القول بأن حرف العطف عاطف على ما سبق أولَى؛ لأنه يكفيكَ التقدير، ولأنه أحيانًا لا يستطيع الإنسان أن يُقدِّر الشيء المناسب، فإذا قال: الهمزة للاستفهام، والواو حرف عطف، وما بعدها معطوف على ما سبق استراح، وهنا ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ على رأي من يرى أن حرف العطف على مُقدَّر؟ تقول: أيتَّخِذونهم شفعاء ولو كانوا لا يملكون، على الرأي الثاني يقول: الواو حرف عطف، والمعطوف عليه ما سبق من الجملة.

وقوله: ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يعني: لا يعقلون أنكم تعبدونها، فالأصنام أحجار لا تدرك، ولا يعقلون أيضًا شيئًا من الشفاعة يدخلون منه، فهم جهلة في حالكم، وجهلة فيما تستحقون.



قال الله تعالى:

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر:٤٤].

التفسير

﴿قُل﴾ الخطاب لمن؟ للرسول ﷺ، أو لكل من يتأتَّى خطابه، ويصح، وهذا الأخير أعمُّ من الأول؛ لأنه يشمل النبي ﷺ وغيره، يقول: قل أيها المخاطب، الأهل للخطاب ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ جملة خبرية تفيد الحصر، وطريقُهُ: أن الخبر تقدَّم وحقُّهُ التأخير، وكل تقديم لما حقُّهُ التأخير يفيد الحصر، لله الشفاعة لا لغيره، فهو الذي يملكها، واللام في قوله: ﴿لِّلَّهِ﴾ للمُلك؛ يعني: هو الذي يملك الشفاعة؛ أي: يملك أن يأذن فيها.

وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى أن للشفاعة ثلاثة شروط:

الشرط الأول: إذنُهُ، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

الشرط الثاني: رِضَاه عن الشافع، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾.

الشرط الثالث: رضاه عن المشفوع له، لقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]، وهذه تكون أيضًا دليلًا على أنه يشترط رضا الله عن الشافع، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾.

فشروط قبول الله الشفاعة ثلاثة، الآن لو أقول: يا رسول الله ! اشفع لي عند الله، هل يجوز؟ لا يجوز؛ لأنه لا يملك ذلك، هو لا يشفع لك ولا لغيرك إلا بإذن الله، ومن ذلك: ما يفعله بعض الإخوان المجاهدين في أفغانستان يقول الواحد منهم للثاني: اشفع لي عند الله؛ لأن المجاهد له شفاعة إذا قُتِل شهيدًا، فتجد بعض أقاربه، أو بعض أصحابه يقول: اشفع لي عند الله، هذا لا يجوز؛ لأنه سأله ما لا يملكه، إذا قال: اشفع لي، الشفاعة لمن؟ لله، قل: اللهم شفِّعْه فيَّ، لا بأس، اسأل الشفاعة ممن يملك الشفاعة، أما ممن لا يملك فلا تسأل، هذا سؤال في غير محلِّهِ، فالشفاعة إذن لله، وإذا كانت لله فلا تُسأل إلا من الله.

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ جميعًا حال من الشفاعة، فما معنى الجمع هنا؛ هل الشفاعة متعددة؟ الجواب: نعم، شفاعة الدنيا، شفاعة الآخرة، شفاعة في جلب نفع، شفاعة في دفع ضرر، فلا شفاعة إلا لله عز وجل، كل الشفاعات تكون لله، الشفاعة في الدنيا كأن يدعو

الإنسان لشخص، إذا دعا الإنسان لشخص فهذه شفاعة، قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِالله شَيْئًا إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ»(١)، فدعاءُ الإنسان لأخيه شفاعة له عند الله، هذه الشفاعة في الدنيا، الشفاعة في الآخرة معروفة، الشفاعة في الآخرة، أو الشفاعة العُظمى، وهذه لرسول الله ﷺ، ولا تكون لأحدٍ سواه، وما هي الشفاعة العظمى؟

هي: أن الناس في ذلك المحشر حفاة، عراة، غُرْل، شاخصة أبصارهم، أفئدتهم هواء، الشمس تدنو منهم قدر مِيْل، العرق يُلجِمُ بعضهم، لا يلوي أحدٌ على أحد، ولا يستغيث أحدٌ بأحد، لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار، فيلحقهم من الغم والكرب ما لا يطيقون، فيقول بعضهم لبعض: انظروا من يشفع لنا إلى الله لنستريح من هذا الموقف، فيذهبون إلى آدم، ثم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم، ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى، ولا يحصلون على شيء، ثم يأتون إلى محمد ﷺ يطلبون منه الشفاعة فلا يشفع، يستأذن من الله أولًا؛ لأن الملك عظيم، والسلطان تام، يسأل الله أن يأذن له في الشفاعة، فيأذن له، ثم يسجد عليه الصلاة والسلام تحت العرش سجودًا طويلًا طويلًا طويلًا، يفتح الله عليه فيه من المحامد ما لم يكن يعرفه من قبل، ثم يشفع إلى الله أن يقضي بين الخلق ويُريحَهم من هذا الموقف، فيقبلُ الله شفاعته(٢)، هذه الشفاعة تُسمَّى: الشفاعة العظمى، لعمومها، وشدة الحاجة إليها، ولا تكون إلا للرسول ﷺ، وهي داخلة في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ لأن هذا المقام يحمَدُه فيه الأولون والآخِرون، الذين من أمته والذين من غير أمته، وفيه شفاعة فيمن دخل النار أن يخرج منها، وفيمن استحقها ألَّا يدخلها.

هذه الشفاعة نوعان: شفاعة لمن دخلها ليخرج منها، وفيمن استحقها ألَّا يدخلها، وهذه عامة للرسل، والصِّديقين، والشهداء، والصالحين، والملائكة، والبشر عامة، لكن يُنكِرُها طائفتان من طوائف الضلال من هذه الأمة، هما: المعتزلة والخوارج؛ لماذا؟ لأنهم يقولون: إن فاعل الكبيرة مُخلَّد في النار محكوم عليه بذلك قضاءً وقدرًا، وإذا كان كذلك فلن يتخلَّف هذا القضاء، ولا يمكن أن يخرجوا من النار.

الشفاعة الرابعة: في دخول الجنة، إذا عَبَرَ الناس الصراط - أسأل الله أن يجعلني وإياكم ممن يعبره سليمًا -، إذا عَبَروا الصراط لا يدخلون الجنة مباشرة؛ بل يُوقَفون عند قنطرة، وهي طرف الجسر الذي على النار، أو غيرها - الله أعلم - فيُقتصُّ لبعضهم من بعض، وهذا قصاص تنقية، والقصاص السابق في عرصات يوم القيامة قصاص تخلية؛ يعني: في عرصات يوم القيامة يُقتصُّ بالعدل من الظالم للمظلوم، أما هذا فهو قصاص تنقية، حتى يزول ما في قلوبهم من غِلٍّ وحقدٍ؛

(١) رواه مسلم (٩٤٨)، وأحمد في مسنده (٢٥٠٩) من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.
(٢) رواه البخاري (٣١٦٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لأنه ليس القضاء للشخص بحقه مُزيلًا للحقد والبغضاء، القضاء للإنسان حقه هل يُزيل ما في قلبه من عداوة وبغضاء؟ نعم، وربما قد أقول: أنا اعتدَى عليَّ، وأخذتُ حقِّي الآن منه، لكن بقي أثر هذا العدوان في قلبي، أليس كذلك؟ هذا موجود، لكن الموفَّق يسعى في زواله، إنما لابد أن يبقى، أثر الجرح لابد أن يبقى حتى لو برأ، هل إذا بَرِئَ الجرح يعود الشيء كما كان؟ يصير فيه بُقْعة، لابد أن يُؤثِّر العدوان ولو اقتصَّ الإنسان لنفسه من قلب الإنسان.

فهُم إذا اقتُصَّ لبعضهم من بعض في عرصات القيامة، وعَبَروا الصراط يحتاجون إلى تنقية، تُنقَّى وتُصفَّى قلوبهم، حتى يدخلوا الجنة وما في قلوبهم من غل، على أكمل وجه، إذا اقتُصَّ لبعضهم من بعض، أيضًا لا يدخلون الجنة مباشرة، يجدون الجنة مغلقة الأبواب، فيطلبون من يشفع لهم، فيشفع النبي ﷺ شفاعة خاصة، هذه خاصة بالرسول ﷺ، لكن ليست عظمى، ما هي كبرى؛ لأنها لأهل الجنة خاصة، فيشفع أن تُفتَح أبواب الجنة فيؤذَن له، فتُفتَح أبواب الجنة، وأول من يدخلها هو عليه الصلاة والسلام، أول من يدخل الجنة من الخلائق هو، وأول من يدخلها من الأمم أمتُه بعد الأنبياء مباشرة، النبيُّون أولًا، ثم الأمم، قائد النبيين محمد ﷺ، قائدُ الأمم هذه الأمة؛ لأن هذه الأمة - ولله الحمد - مُتأخِّرة في الزمن في الدنيا، لكنها سابقة في كل المواقف في الآخرة، قال النبي ﷺ: «نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَومَ القِيَامَةِ»[1] ففي كل العرصات - ولله الحمد - نحن السابقون، في العبور على الصراط، في القضاء بين الناس، في دخول الجنة، في كل شيء، السابقون يوم القيامة في كل شيء، يدخلون الجنة، وتأمَّل هذا في كتاب الله عز وجل، قال الله في أهل النار: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ وهم كارهون لها، من حين أن يصلوا إليها تُفتَح الأبواب، دعُّوهم دعًّا، الجنة لا، قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾، فأفاد قوله: ﴿وَفُتِحَتۡ﴾ أن هناك شيئًا بين مجيئهم وبين الفتح، ولقد أخطأ من قال من أهل العلم: إن الواو هنا زائدة، وأن التقدير: حتى إذا جاءوها فُتِحَت أبوابها، فنقول: سبحان الله ! أنتم أعلم بكلام الله من الله؟ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يُفرِّق؛ في النار يقول: ﴿إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ﴾، وفي الجنة يقول: ﴿إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ﴾، وأنتم تقولون: هذه الواو زائدة، هذا خطير، وكذلك أخطر ممن قال: إن الواو للثمانية، الواو واو الثمانية، وادَّعى أن في اللغة واوًا تُسمَّى: واو الثمانية، وهذه دعوى باطلة، قال: لا، عندي دليل، قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ [التحريم:٥] الواو واو الثمانية، من قال هذا؟ قل: جاء زيد وبكر، الواو؟ واو الاثنين، وخالد واو الثلاثة، من قال لك هذا؟ فالصواب: أن الواو هنا عاطفة، وأن المعطوف عليه محذوف بيَّنت هذا المعطوف عليه السنةُ، وعلى هذا فيكون للرسول ﷺ شفاعتان خاصَّتان: الشفاعة العظمى، والشفاعةُ في دخول الجنة.

---

(١) رواه البخاري (٨٣٦)، ومسلم (٨٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هناك أيضًا شفاعة خاصة به لم تكن لغيره، وهي: شفاعته في عمِّهِ أبي طالب الذي مات على الشرك والكفر - والعياذ بالله - وهو في النار، لكن الله أذِنَ لنبيِّه ﷺ أن يشفع فيه، فكان في ضحضاح من نار، وعليه نعلان يغلي منهما دماغه، وهو أهون أهل النار عذابًا، إذن الشفاعة الخاصة بالرسول ﷺ ثلاثة أنواع.

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ هو الذي يُعطِيها لمن يشاء، ويمنعها ممن يشاء، وقد بيَّن أن الشروط: الإذن، ورضاه عن الشافع، ورضاه عن المشفوع له.

قال الله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذه الجملة فيها حصر، وهو تقديم ما حقُّهُ التأخير، فهنا قدَّم الخبر ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني: لا لغيره.

وقوله تعالى: ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يشمل ملك الذوات؛ أي: مُلك ذات السماوات والأرض، ومُلك التصرُّف فيهما، يتصرَّف فيهما كما يشاء، فهو الذي أوجدهما، وهو الذي يُمسِكُهما أن تزولا، وهو الذي يُدبِّر ما فيهما، وهو الذي يُتلِفُهما، ويُفنِيهما عند قيام الساعة.

فلله مُلك السماوات والأرض خلقًا وتدبيرًا وتصرُّفًا، وكل شيء يئُول إليه سبحانه وتعالى، وهذه الآلهة لا تملك شيئًا من ذلك، إذن ملك السماوات؛ أي: مُلك الذوات والتصرُّف كما يشاء، ثم نُفصِّل فنقول: خلقهما أولًا، وأمسكهما أن تزولا، ويطوي السماء كطيِّ السجل للكتب، ويقبض الأراضين يوم القيامة، فكل هذه من جملة تصرُّفاته في هذه المملوكات، مُلك السماوات والأرض، وإذا كان له مُلك السماوات والأرض فلا أحد يشفع إلا بإذنه، ولا أحد يستحق العبادة إلا هو.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ متى؟ يوم القيامة، نرجع إلى الله - عزَّ وجلَّ - فيُحاسِبُنا على حسب أعمالنا، والله تعالى قد بيَّن لنا ووضَّح، وأقام الحجة، وبيَّن أن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وأن السيئة بمثلها، وبيَّن الأشياء التي تُعتَبر حسنات حتى نعمَلَها، وتُعتَبر سيئات حتى نتجنَّبها، وحينئذٍ يكون رجوعنا إليه - عزَّ وجلَّ - رجوعًا عن بصيرة، لا حجة لنا في مخالفته.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر:٤٣].

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** الإنكار على الذين يعبدون الأصنام، الإنكار على من عبد الأصنام واتخذها شفعاء، من أين نأخذ الإنكار؟ من الهمزة التي تضمنتها أم؛ لأن أم بمعنى: بل والهمزة.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الخطأ الفظيع الذي ارتكبه هؤلاء المشركين؛ حيث عَبَدوا

الأصنام، وظنُّوها شفعاء، مع أنَّها لا تزيدهم من الله إلا بُعْدًا.

٣ ـ **ومن فوائدها:** إقامة الحجة العقلية في مجادلة الخصم، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾، فإذا كانوا لا يملكون شيئًا فكيف تتخذونهم شفعاء تعبدونهم من دون الله.

واعلم أن الأدلة العقلية نحتاج إليها حاجةً ماسَّة إذا ضعُف الإيمان، كلما ضعُفَ الإيمان احتجْنا إلى الأدلة العقلية؛ وذلك لأن المؤمن يكفيه النقل، يكفيه السمع، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]، واحتجَّت عائشة رضي الله عنها على التي سألتها: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فقالت: كان يُصيبُنا ذلك فنُؤمَر بقضاء الصوم، ولا نُؤمَر بقضاء الصلاة[1]، فإذا قوِيَ الإيمان كفى الاستدلال بالسنة والقرآن، وإذا ضعُفَ الإيمان فلابد من استعمال الدليل العقلي المُقنِع، ولهذا نجد الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز يحتجُّ كثيرًا بالأمور العقلية الحِسِّية على المعاني التي يريد ـ عزَّ وجلَّ ـ تقريرها وإثباتها؛ كإحياء الموتى، وما أشبه ذلك، ونحن الآن في زمنِ الإيمانُ فيه ضعيف، والجدل فيه كثير، نحتاج إلى فهم الأدلة العقلية، حتى نتمكن من إقناع خصومنا، فكثيرٌ من الناس لو أُتِي بكل آيةٍ ما تبعها، فإذا أُتِي بدليل عقلي اقتنع به، هذا واحد.

وأيضًا فإن أعداء الإسلام والمسلمين يتحيَّنون الفُرَص في إدحاض حُجَج المسلمين، فتجدهم في كل مجلس يتكلمون في أشياء يُشبِّهون بها على الشباب المسلم، فإذا لم يكن لدى الإنسان حُجَّة عقلية تدحضُ حُجَّته، فإنه ربما ينقطع ويظهر ذلك الخصمُ الألدُّ عليه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة:٢٠٤].

فأنا أحُثُّكم على أن تتَّخِذوا من الأدلة العقلية ما يُنجِّيكم من خصم أولئك الألداء، حتى تخصموهم، وتُحاجُّوهم، وتغلبوهم الحُجَّة، وها هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام حاجَّ قومَه بالعقل، بماذا؟ لما جنَّ عليه الليلُ رأى كوكبًا، قال: هذا ربي، فأَفَلَ الكوكب وغاب، قال: لا أحب الآفِلِين، لا أحب إلهًا يغيب عني، ولا يعلم بحالي، فلما رأى القمر بازغًا قال: هذا ربي، فلما أَفَلَ أقام الحجة على ضلال من عَبَدَ الكواكب، قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، وكذلك احتجَّ على الذي حاجَّه، ﴿حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾، إلى أن قال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾، إلى غير ذلك، فنحن في حاجةِ اليوم إلى إِعمال عقولنا في الأدلة العقلية حتى نحتجَّ بها على من ضعُف إيمانه

(١) رواه مسلم (٣٣٥)، والترمذي (٧٨٧)، والنسائي (٢٣١٨)، وابن ماجه (٦٣١) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

بالأدلة السمعية، أو على من فُقِد إيمانه بالأدلة السمعية.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أن الأصنام لا تملك شيئًا لعابِدِيها؛ لا جلب نفع، ولا دفع ضرر، فإن قال قائل: إن من الناس من يدعو الصنم فيُستَجَاب له، كما نسمع عن ذلك كثيرًا؛ فكيف الجواب عن هذه الآية؟ الجواب: أن كلام الله حقٌّ وصدق مُطابقٌ للواقع تمامًا، وقد بيَّن الله في آية أخرى أنه لا أحد أضلُّ عقلًا ولا أسفه طريقًا ﴿مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥- ٦]، لكن ما حَصَلَ من مثل هذه الأمور من كون الرجل دعا وليًّا، أو صاحب قبر، أو ما شابه ذلك فزال عنه ضُرُّه، فإنما هو امتحان من الله عز وجل، حصل عند الشيء لا بالشيء؛ فمثلًا: لو أن رجلًا دعا قبرًا وكُشِف عنه الضُّرُّ، هل نقول: إن صاحب القبر هو الذي كشفه؟ لا أبدًا، نجزم مثل الشمس أن صاحب القبر لم ينفعه، ولكن ابتلى الله عابد ذلك القبر بأن حصل الشيء عنده، لا به، وفرق بين الشيء الذي يحصل بالشيء، والشيء الذي يحصل عند الشيء، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد يبتلي الإنسان بمثل هذا، قد يُيسِّر له أسباب المعصية والشرك ابتلاءً وامتحانًا، أرأيتم أصحاب رسول الله ﷺ حين حرَّم الله عليهم الصيدَ في حال الإحرام، ابتلاهم الله بصيدٍ تنالُهُ أيديهم ورماحُهُم، الطائر ينالُهُ الرمح، والساعي العادي تنالُهُ الأيدي؛ يعني: الظباء والأرانب وما أشبهها يمسكونها بأيدهم، والطيور برماحهم لا بسهامهم، ما يحتاجون إلى سهام، ابتلاهم الله بذلك ليعلم الله من يخافه بالغيب، فقد يبتلي الله العبد بتيسير أسباب المعصية له حتى يعلم سبحانه وتعالى هل يصبر أو يُقدِم؛ لأن بعض الناس قد يُخفِّف عليه ترك المعصية صعوبتُها عليه، تحتاج إلى عمل، تحتاج إلى مال، لكن إذا سهُلَت، ثم تركها عُلِمَ أن الرجل صادق في إيمانه، إذن فهمنا الجواب على قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أن ما وقع مما يُظنُّ أنه بسبب هذه الآلهة فقد حصل عندها لا بها.

٥ ـ **ومن فوائدها:** انتفاء العقل عن هذه المعبودات، وهذا فيمن يعبُد من لا عقل له؛ كالأصنام والأشجار، لقوله: ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ وعليه إذا قيَّدنا المسألة بمن يعبد الأصنام والأشجار وما أشبهها، لا يرِدُ علينا أن قومًا عَبَدوا المسيح، والمسيح عليه السلام من أكمل الناس عقلًا؛ لأنه أحدُ أولي العزم من الرسل، لكن نقول: يريد الله بهذه الأصنام: الجماد التي لا تعقل.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر:٤٤].

١ ـ **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات الشفاعة ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾، ووجه إثباتها: أنه لولا وجودها ما صحَّ أن يقول: لله الشفاعة جميعًا.

٢ ـ **ومن فوائدها:** الرد على المعتزلة والخوارج؛ لأن المعتزلة والخوارج يُنكِرون الشفاعة في أهل الكبائر، سواء دخلوا النار، أم لم يدخلوها؛ وذلك لأن أهل الكبائر عند المعتزلة والخوارج مُخلَّدون في النار، لكنهم عند الخوارج: الكفار، وعند المعتزلة: لا مؤمنون ولا كافرون، في منزلة بين منزلتين.

٣ ـ **ومن فوائدها:** إثبات شفاعات متعددة، لقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ لأن جميعًا تقتضي أن يكون هناك شيء مجموع.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أنه لا أحد يشفع إلا بإذن الله، وجهه: أنه إذا كانت الشفاعة خاصَّة بالله، فإنها لا تكون إلا منه وإليه.

٥ ـ **ومن فوائدها:** إثباتُ مُلك الله للسماوات والأرض، وانفرادُه بالملك، لقوله: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٦ ـ **ومن فوائدها:** إثبات البعث والرجوع إلى الله، لقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها:** الإنذار والبشارة، لقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فإن المؤمن يُسرُّ بلقاء الله بلا شك، ويُحبُّ لقاء الله، والكافر بالعكس، قال النبي ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»[1] فإذا علِمنَا أننا نرجع إلى الله، فإننا نُحبُّ لقاء الله، والكافر يكره لقاء الله.

٨ ـ **ومن فوائدها:** أن الله سبحانه وتعالى يذكُر الشيء مُنذِرًا بلازمه؛ لأن مُجرَّد الرجوع ليس فيه شيء يُذكَر، ولكن المراد: الرجوع الذي يحصل به الحساب والجزاء.

قال الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾.

قال: ﴿أَمِ﴾ [بل] ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦ﴾ لكننا لا نقرأ اتخذوا بهمزة القطع؛ لأنها ليست همزة قطع، لكن لو كان التركيب في غير القرآن لقلنا: بل أتَّخذوا من دونه، وإذا قلنا: أتَّخذوا سيسأل سائل: أين ذهبت همزة الوصل في اتخذوا؟ نقول: لأنه لما دخلت همزة القطع على الفعل استغنَيْنا بها عن همزة الوصل؛ لأن همزة الوصل إنما يُؤتَى بها لسهولة البدء بالساكن، فإذا لم نبدأ به وبدأنا بهمزة قطع، استغنينا عنها وحذفناها، اقرأ: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ [الصافات:١٥٣]، هذه أصلها: اصطفى دخلت عليها الهمزة، لما دخلت عليها همزة الاستفهام صِرْنا في غِنًى عن همزة الوصل؛ لأن همزة الوصل يُؤتَى بها للضرورة، ولهذا سُمِّيت همزة وصل، يُؤتَى بها للضرورة لئلا نبدأ بالساكن، فإذا زالت الضرورة هذه سقطت.

قال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [أي: الأصنام آلهةً] ﴿شُفَعَآءَ﴾ [عند الله بزعمهم] يعني: هم صيَّروا هذه الأصنام آلهةً تشفعُ لهم عند الله، وقول المؤلف: [بزعمهم] يعني: لا بحسب الواقع؛

---

(١) رواه البخاري (٦١٤٢)، ومسلم (٢٦٨٣) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

لأن هذه الأصنام لا تشفع لهم؛ بل إنه في يوم القيامة يكفُرُ من اتُخِذ إلهًا مع الله يكفُر بعبادة من عبَدَه، من قوله: ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾، وكذلك قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ بل حتى الذين اتخذوا غير الرسل اتخذوهم متبوعين من أهل الضلال يتبرَّءون منهم، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ سبحان الله! في القرآن كُفْر من جُعِلوا شركاء في الرسالة، وكُفْر من جُعِلوا شركاء في العبادة؛ لأن كلًّا منهم لم يُحقِّق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، الذين اتخذوا شركاء في العبادة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾، ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾، والذين اتخذوا شركاء في الرسالة ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ لأن المُعارضين لأقوال الرسل بأقوالهم قد أشركوا مع الرسل في الرسالة، من الذي يجب اتباعه من البشر؟ الرسل، فإذا جعل هذا الرجل متبوعه بمنزلة الرسول ﷺ يأخذ بقوله فعلًا، وتركًا، وتصديقًا، فقد جَعَلَه رسولًا.

ولهذا بعض العلماء يقول: إن التوحيد نوعان: توحيد عبادة، وتوحيد رسالة، توحيد العبادة: فيما يتعلَّق بحق الله، توحيد رسالة: فيما يتعلَّق بحق الرسول ﷺ، والله تعالى يقرن بين هذا وهذا في القرآن ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٨- ٦٩] فالحاصل أن هؤلاء الذين اتخذوا شفعاء قد ضلُّوا ضلالًا مبينًا؛ لأنها لا تنفعهم.

﴿قُلْ﴾ [لهم أيشفعون] ﴿أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ المؤلف رحمه الله مشى في هذا التفسير على أحد الرأيَيْن المشهورين فيما إذا دخلت همزة الاستفهام على حرف العطف، ما هما؟ فيه وجهان: الوجه الأول: أن يكون العطف على ما سبق، وعلى هذا يكون تقدير الهمزة بعد حرف العطف، والوجه الثاني: أن العطف على جملة مُقدَّرة، ويكون تقديرها حسب السياق، المؤلف مشى على الأول أو على الثاني؟ مشى على الثاني؛ لأنه قدَّر المعطوف عليه بين الهمزة وحرف العطف، [أيشفعون] ﴿أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ [من الشفاعة وغيرها] ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [أنكم تعبدونهم ولا غير ذلك؟] الجواب: [لا]، هذه لا تشفع؛ لأنها لا تعقل ولا تملك، فهي لا تعقل عبادة من عبَدَها، ولا تملك له شيئًا لا شفاعة ولا غيرها.

ثم قال: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [أي: هو مُختصٌّ بها] من أين أخذ [هو مُختصٌّ بها فلا يشفع أحدٌ إلا بإذنه] وهذا أحدُ شرطَي الشفاعة، والثاني: رضا الله عن الشافع، ورضاه عن المشفوع له.

وقوله تعالى: ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ذكر عموم ملكه، وانفراده بالملك بعد ذكر الشفاعة؛ لأن الشفاعة من الملك في الواقع، فهي داخلة في عموم ملك الله للسماوات والأرض.



قال الله تعالى:

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥].

التفسير

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ ﴾ يعني: أُثنِيَ عليه بالذكر، والإخلاص، وأنه الرب المعبود، وأن غيره لا يستحق العبادة، إذا ذُكِر على هذا الوجه ﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ يعني: نفرت من هذا وكرِهَته؛ لأنها لا تريد هذا، تريد أن تكون آلهتها مساوية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ إذا ذُكِر الذين من دونه، وهي: الأصنام وأُثنِيَ عليها ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ إذا هذه فُجائية، أُجيبَ بها الشرط؛ لأن الشرط يُقرَن أحيانًا بالفاء وأحيانًا بـ (إذا)، قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ أي: فهُمْ، فجواب الشرط هنا قُرِن بـ (إذا) الفُجائية؛ لأنه جملة اسمية، وتأمَّل قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ حيث جاءت بالجملة الاسمية إشارة إلى دوام استبشارهم، وثبوته، ورسوخه في أنفسهم، والله أعلم.

الفوائد:

يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في بيان حال هؤلاء الكفار المكذبين: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾.

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** شدة كراهة هؤلاء لذكر الله وتوحيده، لقوله: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن الإنسان متى وجد اشمئزازًا من شريعة الله، فإن فيه شَبَهًا من هؤلاء، وإن كان لا يُشابِهُهم من كل وجه، لكن يكون فيه شَبَهٌ منهم.

٣ ـ **ومن فوائدها:** شدةُ تعلُّق هؤلاء بأصنامهم؛ حيث يكرهون ما يُضادُّها من التوحيد، وإذا ذُكِرت هذه الأصنام استبشروا.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أن الإنسان قد يستبشر بالسوء وما يخالف الفطرة، وذلك من قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾.



❁ قال الله تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر:٤٦].

❁ التفسير ❁

﴿ٱللَّهُمَّ﴾ هذه مُنادى حُذِفَت منها ياء النداء وعُوِّضت عنها الميم، وعُوِّضَت الميم؛ لأنها دالة على الجمع، كأن الإنسان جمع قلبه على ربه عز وجل، وأُخِّرت تيمُّنًا بالبداءة بسم الله سبحانه وتعالى، وعلى هذا فنقول: (الله) منادى مبنيٌّ على الضم في محل نصب.

وقوله: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فاطر الشيء؛ أي: مُبدِعُه على غير مثال سبق؛ يعني: مُبدِعُه مُنشِئُه لأول مرة يُسمَّى هذا فطرًا، ومنه: فطر البئر إذا حفره لأول مرة، والسماوات والأرض هذه مرت علينا كثيرًا، وذكرنا ما يتعلَّق بالجمع بالنسبة للسماوات والإفراد بالنسبة للأرض.

قال تعالى: ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فاطر وعالم كلها صفة للمنادى في قوله: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ ولكنها نُصِبَت؛ لأنها مضافة، ﴿ٱلْغَيْبِ﴾: ما غاب، والشهادة: ما شُوهِد وحضر، فالله سبحانه عالم الغيب كله، وعالم الشهادة كلها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥].

واعلم أن الغيبوبة تكون كلية، وتكون نسبية، فالله تعالى عالم الغيب كليةً ونسبيةً أيضًا، بخلاف البشر، فإن البشر لا يعلم الغيب؛ أي: ما غاب عنه سواء كليًا أم نسبيًا، ولذلك لا تعلم ما وراء هذا الجدار، ولا تعلم ما في ضمير غيرك، ولا تعلم المستقبل؛ بل وتنسى ما مضى، أما الرب - عزَّ وجلَّ - لا يعتريه شيء من هذا النقصان.

وقوله: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ أي: تفصل بينهم بالحكم، وذلك يوم القيامة حين يتحاجُّ الناس عند ربهم، يختصمون، وقد بيَّن الله تعالى نتيجة هذه الخصومة بأن الخاصِمَ هم المؤمنون؛ حيث قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ إذن فالخاصِمُ الغالبُ هم المؤمنون، إذا لم يكن سبيل للكافرين عليهم، فهم الخاسرون بلا شك.

وقوله: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يشمل الحكم في الدنيا والحكم في الآخرة، أما الحكم في الدنيا فإن المرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأما في الآخرة فالمرجع إلى الله عز وجل، يحكم بينهم حكمًا جزائيًا، كل بما يستحق.

وقوله: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ المراد بالعبودية هنا: العامة، فيشمل: العبد المؤمن والعبد

الكافر، وقد قسَّمَ العلماء رحمهم الله العبودية إلى قسمين: عامة وخاصة، فالعبودية العامة: هي التعبُّد للقَدَر؛ أي: أنها تتعلَّق بالأمر القدري، كل من في السماوات والأرض عبدٌ لله بهذا المعنى، لا يمكن أن يتخلَّف عما قضى الله عليه، قال الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم:٩٣]، وهذه عبودية تتعلَّق بالقدر والقضاء، فهي كونية في الحقيقة، والثانية: عبودية خاصة، وهي: التعبُّد لله تعالى بشرعه، وهذه خاصة بالمؤمنين الذين يتعبَّدون لله بشرعه، وهذه الخاصة أيضًا فيها عبادةٌ أخصُّ، وهي: عبادة النبوة والرسالة؛ مثل: قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ ومثل قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا»[1]، والأمثلة كثيرة.

ما هي محطُّ المدح من هذه الأقسام؛ الخاصة أم العامة؟ الخاصة، أما العامة فلا يُمدَح الإنسان فيها؛ لأنها بغير اختياره، هو ذليلٌ لله، مُتعبِّدٌ لله شاء أم أبى.

وقوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أي: في الذي يختلفون فيه، وقد جاءت الآية هكذا ﴿فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ وفي آية أخرى ﴿فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠] فيشمل ما يختلفون فيه من أمور الدين وأمور الدنيا أيضًا، كل ذلك سوف يحكم الله به بحكمه العدل الذي ليس فيه حَيْفٌ على أحد.



قال الله تعالى:

﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧].

التفسير

لو شرطية، وقد يقول قائل: أين فعل الشرط؟ والجواب: أن نقول: هو مُقدَّر؛ أي: ولو ثبت أن الذين ظلموا، وأما الجواب: فقوله: ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، ولو تأتي شرطية، وتأتي مصدرية، مثل: قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] أي: ودُّوا إِدهانك فيُدهِنُون.

وقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ إذن أنَّ وما دخلت عليه في تأويل المصدر فاعلٌ لفعل

---

(١) رواه البخاري (٤٥٥٧) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

الشرط المحذوف؛ أي: ولو ثبت أن للذين ظلموا ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ المراد بالظلم هنا: الكفر، والظلم في الأصل: هو النقص، لقوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣] أي: لم تنقص منه شيئًا، والظلم ينقسم إلى قسمين: ظلم أكبر، وهو ظلم الكفر المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، وظلم أصغر، وهو ما دون ذلك؛ كظلم الإنسان لغيره في ماله، وأهله، وما أشبه ذلك، ما المراد بالظلم هنا؛ الأصغر أو الأكبر؟ المراد: الأكبر، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ و(ما) اسمٌ موصول؛ أي: الذي، ما محلها من الإعراب؟ اسم إن مُؤَخَّر.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾، قوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ صلة الموصول، والمعروف أن صلة الموصول لا تكون إلا جملة، فكيف نجعل هذا صلةً للموصول وليس بجملة؟ والجواب: أن نقول: هذا شِبهُ جُملةٍ، وهو مُتعلِّقٌ بفعلٍ محذوفٍ، تقديره: ما استقرَّ في الأرض.

وقوله: ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ جميعًا: حال من (ما) يعني: حال كونه جميعًا مجموعًا لهم، ومثله معه؛ أي: مثل ما في الأرض جميعًا من أولها إلى آخرها.

وقوله: ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لافتدوا به؛ أي: دفعوه فداءً يفدون به أنفسهم من عذاب الله عز وجل، ولكن متى يكون هذا؟ يكون هذا يوم القيامة، يتمنَّى هؤلاء أن يكون لهم ما في الأرض جميعًا ومثله معه ليدفعوا عنهم العذاب، ولكن لا يحصل، وقد طُلِبَ منهم في الدنيا ما هو أهون من ذلك، ما الذي طُلِبَ منهم؟ أن يعبُدُوا الله وحده لا شريك له، وأن يقوموا بشريعته، وهو سهلٌ، ولكنهم - والعياذ بالله - استكبروا.

وقوله: ﴿بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: من العذاب السيئ الذي ليس له نظير في الدنيا، ولا يمكن أن يضبطه الذهن بتخيل؛ لأنه كما أن في الجنة ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[1] من النعيم، فكذلك ما في النار من العذاب.

وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هو الذي يُبعَث فيه الناس، وسُمِّي يوم القيامة لأمور ثلاثة:

أولًا: أن الناس يقومون فيه لرب العالمين، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والثاني: أنه يُقامُ فيه العدل، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء:٤٧].

وثالثًا: أنه يقومُ فيه الأشهاد ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥٥] هذا هو يوم القيامة سمي بذلك لهذه الأمور الثلاثة.

---

(١) رواه البخارى (٤٥٥٧) من حديث أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها.

وقوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: ظهر لهم من عند الله -عزَّ وجلَّ- ما لم يكن في حسبانهم، ولا خطر على بالهم أنهم يجدون هذا العذاب، ظنُّوا أن الأمر هيِّن، ظنُّوا أن الأصنام تشفع لهم، وظنُّوا ظنونًا كثيرة، ولكن لم تنفعهم هذه الظنون، ظهر لهم شيء لم يحتسبوه أبدًا.

وقوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي: ظهر لهم ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: سوء ما كسبوا من الأعمال، وهم لم يكسبوا إلا الشر، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧- ٨]، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ نزل بهم ما كانوا به يستهزئون؛ أي: ما كانوا يستهزئون به في الدنيا، أما في الآخرة فإنهم يقولون: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ إلا أنه في ذلك الوقت لا ينفعهم، كانوا في الدنيا يستهزئون، ويسخَرون من الرسل، ومن الذين آمنوا ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩- ٣٢] سبحان الله ! هذه الآيات تنطبقُ تمامًا على وقتنا كما انطبقت على ما قبل، كانوا من الذين آمنوا يضحكون، وهذا هو الواقع، تجد هؤلاء الفَسَقَة والمجرمين إذا مرَّ بهم المؤمن التقيُّ جعلوا يضحكون، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ هل إذا مرَّ المؤمنون بالمجرمين، أو المجرمون بالمؤمنين؟ كلاهما، يتغامزون: يغمز بعضهم بعضًا، ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ يعني: يرجعون إلى أهلهم فكِهين؛ أي: مَرِحِين مُتفكِّهين بما قالوا في هؤلاء المؤمنين، ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ الفاعل في ﴿رَأَوْهُمْ﴾: المجرمون، إذا رأى الذين أجرموا هؤلاء المجرمين، ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ تائهون، وهذا هو الواقع حتى في الوقت الحاضر، إذا رأوا المُتديِّن قالوا: هذا مُتخلِّف، هذا رجعيٌّ، أو هذا أصولي؛ يعني: مُتشدِّدًا، وما أشبه ذلك، ثم قال: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ في يوم القيامة تحصل الضحكة من المؤمنين على الكافرين، وهذه الضحكة ليس بعدها بكاء، أما ضحكة أولئك فبعدها البكاء، والألم، والحسرة، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ ينظرون ما أنعم الله به عليهم وينظرون ما عذَّب الله به هؤلاء، ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، فهؤلاء المجرمون يبدو لهم يوم القيامة ما كانوا يستهزئون به من شريعة الله، وجزاء الله، وما أشبه ذلك، وقد كانوا يسخرون بالرسول ﷺ، وبما وعد به من النعيم، وبما وعد به من العذاب، ويقولون: يا محمد ! إن كنتَ صادقًا أننا سنلقَى هذا فليكن لك أنت فجِّر الأرض ينابيع، اجعل مزارع نخيلًا، وما أشبه ذلك.

يقول المؤلف رحمه الله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ [أي: دون آلهتهم] ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ اشمأزَّت يقول: [نَفَرَت وانقبضَت]، فتنفر ولا تقبل الحق، وتنقبض ولا

تنشرح للحق، ﴿قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ أي: لا يُقِرُّون بها، ولا يعترفون بها؛ لأنهم قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ ولو أنهم آمنوا بالآخرة وعملوا لها، لكانوا إذا ذُكِر الله وحده استبشروا وفرحوا، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ [أي: الأصنام] ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، إذا ذُكِرَت الأصنام بالثناء والمدح استبشروا.

ولهذا يُروَى عن النبي ﷺ، أنه قرأ قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩- ٢٠] (تلك الغرانيق العُلَى، وإن شفاعتهُنَّ لترُتَجى)[1] ألقاها الشيطان في قراءة النبي ﷺ، ولم يتلُها الرسول ﷺ، لكن الشيطان أسمعَ قُريشًا هذا القول، يقولون: إنهم سجدوا مع النبي ﷺ لما أنهى السورة وسجد؛ لأنهم قالوا: الآن رجع إلينا، أو على الأقل داهَنَّا؛ لأنه أثنى على أصنامنا، فسجدوا معه، وهذه القصة مشهورة، واختلف المُفسِّرون فيها، فمنهم من أنكرها إنكارًا عظيمًا، ومنهم من حسَّنها، وقال: إنها لا تنافي العصمة؛ لأن الله قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: قرأ ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾، أي: في قراءته، ليس هو الذي يلقي، الشيطان يلقي، ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ينسخه؛ يعني: يُبيِّن بطلانه، وأنه لا حقيقة له، ثم يقول مُعلِّلًا ذلك: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فعلى كل حال إن صحَّت القصة فإنها لا تنافي العصمة؛ لأن الذي أثنى على هذه الأصنام: الشيطان، لكن ظنَّ هؤلاء الذين سمعوه أنها قراءة النبي ﷺ، وإذا لم تصحَّ فلا إشكال.

لكن إذا قال قائل: إذا لم تصح؛ فكيف سجد المشركون مع النبي ﷺ حين قال: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾؟ والجواب عن ذلك: أن نقول: إن آخر آيات هذه السورة تأخذ باللُّبِّ والفؤاد، حتى إن الإنسان لينفعل من غير أن يشعر، فهؤلاء المشركون انفعلوا من شدة ما سمعوا حتى لم يشعروا بأنفسهم إلا وهم ساجدون، هذا هو الجواب إذا لم تصح القصة.

يقول عز وجل: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ [بمعنى: يا الله] فالميم عِوَض عن ياء النداء ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [مُبدِعها] ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [ما غاب وما شُوهِد] ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى

(١) انظر الرد على هذه القصة وإبطالها كتاب (نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق) لمحدث العصر محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى.

﴿مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ في مفصولة عن (ما)، القاعدة أخيرًا أنها مفصولة، لكن لعل القاعدة التي عليها المُفسِّر هي في المصحف الأول؛ يعني: في القاعدة الأولى.

وقد اختلف العلماء: هل تجوز مخالفة القاعدة العثمانية؟ على أقوال ثلاثة: الجواز، والمنع، والتفصيل، التفصيل بين أن يُكتَب للصبي وأن يُكتَب للبالغ، فالصبيُّ يُكتَب له على حسب ما يعرفه من القواعد؛ لأنه لو كُتِب له على القواعد العثمانية لحرَّف، لو كُتِبَت الصلاة بالواو، والزكاة بالواو، وما كان ممدودًا؛ أي: بألف حُذِفَت الألف منه؛ مثل: الرحمن، وما أشبهها، لو كُتِبَ له ذلك لحرَّف لقال: إن الصَّلَوْت، إن الزَّكَوْت، وما أشبهها، أما إذا كان لبالغٍ عاقلٍ يعرف فيُكتَب بالرسم العثماني، والصحيح: أنه لا يجب التقيُّد بالرسم؛ وذلك لأن القرآن لم ينزل على هذا الرسم، لو نزل بهذا الرسم - كما كُتِبَت التوراة ونزلت مكتوبة - لقلنا: لا يجوز مخالفته، لكنه نزل قولًا، وصادف أن القاعدة في ذلك الوقت حين كتابته كانت على هذا الوجه، ولو كانت الكتابة على غير هذا الوجه لكُتِب بها مخالفًا لهذا الوجه، فالمسألة اصطلاحية؛ يعني: أن القرآن لم ينزل على هذا، صحيحٌ أنَّا قد نقول: ينبغي تأدُّبًا أن يُكتَب القرآن بالقاعدة العثمانية احترامًا وتعظيمًا لما كتبه الصحابة رضي الله عنهم، أما أن نقول هذا على سبيل الوجوب والإلزام، ونقول: إنه لا يجوز أن تكتُب على السبورة آية من كتاب الله على حسب القاعدة المعروفة المألوفة فهذا فيه نظر.

وقوله تعالى: ﴿فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [من أمر الدين، اهدِني لما اختُلِفَ فيه من الحق] (١) ولكن هذا التقدير فيه نظر؛ لأن المراد بالآية: تفويضُ الأمر إلى الله عز وجل، وشِكَايةُ هؤلاء إليه ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، وليس المقام مقام دعاء، وإنما كان النبي ﷺ، يقول هذا دعاءً في استفتاح صلاة الليل، والله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [الزمر:٤٦].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** التوسُّل إلى الله سبحانه وتعالى بأفعاله، لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، والتوسُّل الجائز سبعة أنواع:

الأول: التوسُّل إلى الله بأسمائه.

والثاني: التوسُّل إلى الله بصفاته.

والثالث: التوسُّل إلى الله بأفعاله.

---

(١) كما روى مسلم (٧٧٠)، وأبوداود (٧٦٧)، والترمذي (٣٤٢٠)، والنسائي (١٦٢٥) من حديث أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها.

والرابع: التوسُّل إلى الله بحال الدَّاعي.

والخامس: التوسُّل إلى الله تعالى بدعاء من تُرجَى إجابتُهُ.

والسادس: التوسُّل إلى الله بالعمل الصالح.

والسابع: التوسُّل إلى الله بالإيمان.

هذه كلها توسُّلات جائزة، فهنا ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من باب التوسُّل إلى الله بأفعاله، أما التوسُّل الممنوع فهو التوسُّل إلى الله بما لم يجعله الله وسيلة؛ كالتوسُّل بجاه النبي ﷺ، والتوسُّل بالصالحين على وجهٍ غير مشروع، فالضابط للتوسُّل الممنوع: أن يتوسَّل إلى الله بما ليس بوسيلة.

٢ - **ومن فوائدها:** أن السماوات والأرض ليست قديمة أزلية؛ بل هي حادثة بعد أن لم تكن، خلافًا للفلاسفة الذين قالوا بقِدَم العالم، أو الأفلاك.

٣ - **ومن فوائدها:** إثباتُ إحاطة علم الله بكل شيء، لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** تحذير المرء من المخالفة؛ لأنه إذا آمَنَ بأنه عالم الغيب والشهادة فسوف يحذَر؛ لأنه مهما عَمِل فالله تعالى عالمٌ به.

٥ - **ومن فوائدها:** أن الحكم لله وحده، لقوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾، ووجهُ الحصر: أنه وصف الحكم الصادر منه بأنه بين العباد، والعبدُ لا يُشارِكُ سيِّده في الحكم، وإلا فإنه ليس بين أيدينا طريقة من طرق الحصر المعروفة، ولكنه حصرٌ استفدناه من المعنى؛ إذ أن العبد لا يمكن أن يكون حاكمًا على سيده؛ بل السيد هو الحاكم.

٦ - **ومن فوائدها:** تسليةُ المؤمنين بكونِ الله تعالى يحكم بينهم فيما يختلفون فيه مع الكفار، وهنا نسأل: من الذي يكون محكومًا له ومحكومًا عليه؟ للمؤمنين، لقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧].

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الظالمين لو بذلوا كل ما في الأرض ليفتدوا به لم ينفعهم، من قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾.

٢ - **ومنها:** أن جميع ما في الدنيا يرخُص عند العذاب حين يشاهده الظالم، لقوله تعالى: ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** التحذيرُ من الظلم؛ لأن ذكر هذا يعني: التحذير من الظلم.

٤ - **ومن فوائدها:** إثبات القيامة والبعث، لقوله تعالى: ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أن العذاب الذي يقع بهؤلاء الظالمين لا يخطُرُ لهم على بال، لقوله تعالى:

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الجزاء من جنس العمل، لقوله تعالى: ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** إثباتُ الكسب للعبد، فيكون فيه ردٌّ على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مُجبَرٌ على عمله، فنقول لهم: بل الإنسان غير مُجبَر، وعمله من كسبه.

٣ - **ومن فوائدها:** توبيخ هؤلاء المعذبين؛ حيث نزل بهم ما كانوا به يستهزئون، يقال لهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾، لأنهم كانوا في الدنيا يسخرون بمن جاء بهذا النبأ، ويقولون: إنه سحر فيُوبَّخون يوم القيامة، ويقال لهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** أن الاستهزاء بالله تعالى وآياته سببٌ للعذاب، وهو كفرٌ مُخرِجٌ عن الملة، لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥- ٦٦] وعلى هذا فينبغي أن يُلحَق هذا بالنكاح، والطلاق، والرجعة، والعتق؛ لأن هَزْلَه جِدٌّ، وهو أمرٌ لا خلاف فيه بين العلماء أن من قال قولًا يستهزئ به في دين الله فإنه يكفر.



قال الله تعالى:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٤٩].

التفسير

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: أصابه، والمراد بالإنسان هنا: الجنس، وقيل: المراد به: الكافر، فأما من قال: المراد به: الجنس، وأنه شامل للمؤمن والكافر، قال: إن هذا هو طبيعة الإنسان، وأن المؤمن الذي يعترِفُ لله بالنعم ويشكرها هذا خارجٌ عن طبيعة الإنسان؛ يعني: أن الله منَّ عليه فخرج عن مقتضى طبيعة البشر، وأما من قال: إن المراد بالإنسان: الكافر، فيكون من باب العام الذي أُرِيد به الخاص؛ قال: لأن هذا الوصف المذكور لا يكون إلا من الكافر، هو الذي إذا مسَّه الضر رجع إلى الله، وإذا أعطاه النعمة بَطَرَ بها، وقال: ليس لأحدٍ عليَّ فيها فضل، وإنما ذلك على علم، وهذا الأخير أقرب؛ لأن المؤمن إذا خوَّلَه الله نعمة شكر، ولم يقل: أُوتِيتُه على علم.

يقول: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أي: سألنا أن نكشف ضره، ثم إذا كشفنا الضر ﴿خَوَّلْنَٰهُ

﴿نِعۡمَةٗ مِّنَّا﴾ بزوال الضرر الذي حصل له ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ أي: أُوتِيتُ هذا الشيء على علم، وما المراد بالعلم هنا؟ هل المعنى: أُوتِيتُه على علمٍ من الله أني له أهلٌ، فأنا جديرٌ به، ومُستحقٌّ له، أو المعنى: على علمٍ مني بوجوه المكاسب؟ يشملُ الأمرين، فهو يقول: أُوتيته على علم؛ لأني أهل، وأوتيته أيضًا من كسبي، فيكون بذلك مانًّا على الله عز وجل، ويكون مُستبِدًّا بنفسه، يجمع بين الأمرين: بين المنة، ويقول: ليس لله فضل، هو أعطاني ذلك فلأنه يعلم أني أهلٌ لذلك، والثاني: الاعتزاز بالنفس وعدم إرجاع الشيء إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: المقالة أو الحالة، يحتمل هذا وهذا، يحتمل أن الله -عزَّ وجلَّ- إذا أعطاه هذه النعم أعطاه إياها فتنةً له، ويحتمل أن هذه المقالة فتنةٌ له، ولكن المعنى الأول أقرب، أن الله تعالى يفتِنُ العبد بإزالة الضرر عنه، وحصول الخير والنعمة، وكم من إنسان افتُتِن بنعم الله عز وجل، فكان مُستقيمًا وبالنعمة ينحرف، وفي الحديث أن الله تعالى قال: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَو أَغْنَيْتُهُ أَفْسَدَهُ الغِنَى، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَو أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الفَقْرُ»[1] فالله -عزَّ وجلَّ- على كل شيء قدير، وقد يختار لعبده ما هو أنفع من حيث لا يشعر، فالظاهر أن المراد بقوله تعالى: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: بل هذه الحال فتنة وهي تحويل النعم، وقد قال سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الاستدراك هنا يعني: أن هؤلاء الذين أُمِروا بنعمة الله غفلوا عن المُنعِم بها، وعن مُسدِيها ومُولِيها، فكانوا لا يعلمون شكر هذا المُنعِم، وكانوا لا يعلمون أيضًا أنها فتنة؛ بل يأخذ الإنسان النعم على أنها أمر طبيعي، ويغفل عن أن الله تعالى يمتحنه بها.



قال الله تعالى:

﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الزمر: ٥٠].

التفسير

﴿قَدۡ قَالَهَا﴾ الضمير يعود على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مثل: قارون، قال: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ

---

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال، وعزاه إلى (ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء والحكيم وابن مردويه حل في الأسماء وابن عساكر عن أنس)، وذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية (١/ ٤٤ و٤٥) وقال: وهو حديث لا يصح.

ﵟٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاﵞ.

وقوله تعالى: ﵟفَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَﵞ ما هذه نافية، وأغنى بمعنى: دفع، دفع عنهم ما كانوا يكسبون؛ أي: لن يُغني عنهم ما كسبوا شيئًا من عذاب الله، وهكذا النعم لا تغني من افتخر بها، وغفل بها عن طاعة الله شيئًا، ألم تروا إلى عادٍ استكبروا في الأرض وقالوا: من أشد منا قوة؛ لأن الله أعطاهم قوة عظيمة، قال الله تعالى: ﵟأَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖﵞ، وتأمَّلوا كيف عُذِّب هؤلاء بالريح وهي ألطف شيء، ألطف شيء هي الريح، فعُذِّبوا بها انتقامًا منهم حين قالوا: من أشد منا قوة؛ يعني: لم يُهلكوا بالصواعق، ولا بالحاصب من السماء، وإنما أُهلِكوا بهذه الريح اللطيفة، حتى إنهم لما رأوا ما جاءت به هذه الريح وحملته من الرمال، قالوا: هذا عارضٌ مُمطِرُنا، فقال الله تعالى: ﵟبَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَاﵞ.



قال الله تعالى:

ﵟفَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٥١ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَﵞ [الزمر: ٥١، ٥٢].

التفسير

يعني: أصابهم جزاء السيئات، لكنه جعل الجزاء سمَّاه سيئات؛ لأن السيئات سببُه، وليتبيَّن بذلك أن الجزاء على قدر العمل لا يختلف، فكأنه هو نفس العمل.

وقوله: ﵟوَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْﵞ الواو في قوله: ﵟوَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْﵞ استئنافية، والذين مبتدأ، وجملة ﵟسَيُصِيبُهُمۡﵞ خبره.

وقوله: ﵟسَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْﵞ كما أصاب من قبلهم.

وقوله: ﵟوَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَﵞ ما نافية، وهل هي حجازية أو تميمية؟ الواقع أنه ليس في اللفظ ما يدل على هذا ولا على هذا، ولكن القرآن بلغة قريش، بدليل قوله تعالى: ﵟمَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞﵞ، وعلى هذا فتُحمَل ما كلما جاءت على أنها حِجازية، ولكن كيف نُعرِبُها في مثل هذا التركيب ﵟوَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَﵞ نقول: هُمْ اسمها، والباء حرف جر زائد، ومعجزين خبرها منصوبٌ بياء مُقدَّرة محل الياء الموجودة؛ لأن الياء الموجودة علامة الجر، وليست علامة النصب،

علامة الجر بحرف الجر الزائد الباء، فجعلنا العمل للظاهر وهو الباء، أما المحل فقدَّرناهُ تقديرًا، وعلى هذا نقول: منصوب بياء مُقدَّرة بدل الياء التي عمل فيها حرف الجر الزائد.

وقوله: ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ اسم فاعل من عجز أو من أعجز؟ من أعجز؛ يعني: لن يُعجِزوا الله - عزَّ وجلَّ - فلا يستطيع أن يعاقبهم؛ بل عقوبتهم أمر هين على الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الهمزة هنا للاستفهام، والواو حرف عطف، والمعطوف عليه إما أن يكون محذوفًا ويُقدَّر بما يناسب المقام، وإما أن يكون ما سبق، فإذا قلنا: إنه ما سبق كانت الهمزة في تقدير التأخير عن حرف العطف، والتقدير: وألَم يعلموا، وإذا قلنا بالأول صارت الهمزة داخلةً على محذوف تقديره: أجَهِلوا ولم يعلموا.

وقوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يبسط يعني: يُوسِّع، والرزق: العطاء ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يوسِّعه له، امتحانًا لهذا الشخص الذي بُسِط له ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يعني: يُضيِّق امتحانًا أيضًا؛ لأن الضيق فيه امتحان، والسَّعَة فيها امتحان، لكن الغالب عند الناس في العُرْف أن الضيق يُسمَّى ابتلاءً؛ أي: بلاء، وأما التوسعة فهي امتحان، مع أن الابتلاء بمعنى: الامتحان، فإن الإنسان يُبتَلى فيما يُبتَلى به، يمتحنه الله - عزَّ وجلَّ - هل يصبر أو يتضجَّر، وأما ما ابتلى الله به من النعم، فهو هل يشكر أو يكفر.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المُشار إليه: البسط والتضييق ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: علامات على أن الله وحده هو المتصرِّف، ولهذا نجد بعض الناس يكون عنده حِذْقٌ في البيع والشراء وتحصيل المال، وعنده قدرة، وعنده قوة، ولكن يُضيَّق عليه، ونجد بعض الناس دون هذا؛ يعني: أنه لا يهتم بالأمور، وليس عنده ذاك الحِذْق فيُوسِّع الله عليه، وهذا يدلُّ على أن الله - عزَّ وجلَّ - هو المُتصرِّف في عباده؛ يُوسِّع على هذا، ويقدر على هذا، ولكن لا يعني هذا: أننا لا نفعل الأسباب.

يقول المؤلف: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ المُفسِّر لم يُفسِّرها، ولم يُبيِّن، ولكن بيَّنَّا نحن في التفسير أنها تحتمل الظلم الأكبر، وهو: الشرك، والأصغر، وهو: ما دونه، ولكن يظهر - والله أعلم - أن المراد بها: الأكبر.

وقوله: ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ أي: ما في الأرض ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ مضافًا إليه ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم﴾ [ظهر] لهم من الله ﴿مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [يظنون] والمؤلف رحمه الله الشيء الواضح لا يُفسِّره، ويقال: بدا، ويقال: بدأ، وبينهما فرق، بدا بمعنى: ظهر، بدأ بمعنى: ابتدأ، والمصدر في الأول بَدَا: بُدُوًّا، وفي الثاني: بدأ بدءًا.

يقول: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ﴾ [نزل] ﴿بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [أي: العذاب] يعني: حاق بهم العذاب؛ يعني: نزل: بهم، وبدت لهم سيئاتهم وعرفوها، وكانوا يقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨] نعوذ بالله.

وقوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ﴾ [الجنس] يعني المراد بالإنسان: الجنس، فيشمل المؤمن والكافر، ولكن تبيَّن مما تكلمنا فيه أن الظاهر أن المراد به: الكافر، فيكون عامًّا أُريدَ به الخاص، والعام الذي يُراد به الخاص موجود في اللغة العربية بكثرة، مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣]، فنحن نعلم أنه ليس كل الناس جاءوا يقولون؛ بل القائل واحد، وإن الناس قد جمعوا لكم، أيضًا نعلم أنه ليس جميع الناس جمعوا، وإنما المراد: واحد أو أناس مُعيَّنون، أما كل بني آدم لا، فالمراد بالإنسان هنا: الجنس، على كلام المؤلف، وعلى القول الذي اخترناه: الكافر.

قال: ﴿ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ﴾ [أعطيناه] ﴿نِعْمَةً﴾ [إنعامًا] ﴿مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، قوله: ﴿خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً﴾ [إنعامًا] في هذا نظر؛ لأن الإنعام فعل المُنعِم، والنعمة عطاءُ المُنعِم؛ يعني: الشيء المُعطَى، وأيهما أليق؛ أن نُفسِّر النعمة بالإنعام، أو أن نُفسِّر النعمة بما أُعطِيَه الإنسان؟ الثاني هو الظاهر، وهو الواقع أيضًا؛ لأن التخويل يعني: أن هناك شيئًا مُخوَّلًا، وهو: النعمة من أولاد، ورزق، وزوجات، ومساكن، وغير هذا.

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [أي له أهل] وهذا أحد القولين في الآية، والقول الثاني: على علم؛ أي: على حِذْق ومهارة فيما فعلتُ، والله أعلم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٤٩].

قال: ﴿بَلْ هِيَ﴾ [أي: القَولة] ﴿فِتْنَةٌ﴾ [بليَّة يُبتَلى بها العبد] هذا ما جرى عليه المؤلف أن المراد بالفتنة: القَولَة التي قالها، ولكن الصحيح: أن الفتنة هي النعمة التي أعطاها الله إياه، أو الحالة التي كان عليها، حينما كان قد مسَّهُ الضُّرُّ، ثم رفع الضر عنه وأُبدِل بنعمة، فهذه فتنة يفتن الله بها العباد، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥].

وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [أن التخويل استدراج وامتحان] أي: أكثر الناس، وإنما عاد الضمير - وهو غائب - على مرجع غير المذكور للقرينة والسياق، ويحتمل أن المراد بأكثرهم؛ أي: أكثر الإنسان؛ أي: بني الإنسان، فيكون الضمير هنا عاد على الإنسان باعتبار المعنى لا باعتبار اللفظ.

وقوله: [أن التخويل استدراج وامتحان] إذا قال قائل: بماذا نعلم أن التخويل استدراج وامتحان؟ فالجواب: نعلم ذلك بكون الإنسان مُصِرًّا على المعصية ونِعَم الله تعالى تترى عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨] فهذه هي العلامة، إذا رأيتَ الله يُنعِم عليك وأنت مُقيمٌ على معصيته، فاعلم أن ذلك استدراج، أما إذا رأيتَ الله يُنعِمُ عليك وأنت قائمٌ بطاعته، فاعلم أن هذا من زيادة

فضله ونعمه، قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

قال: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [من الأمم؛ كقارون وقومه الراضين بها] أي: بهذه المقالة، ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قالوا بعد أن أعطاهم الله النعم: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ وهذا قد صرَّح الله به عن قارون في سورة القصص حين خرج على قومه في زينته، فنَصَحوه وقالوا له: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾، فالمقالةُ هي المقالة، وقد سبق أن الإنسان يُعجَب بعمله فيظنُّ أن ما حصل له من النعم بسبب عمله، مع أنه من فضل الله - عزَّ وجلَّ - ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ما هذه نافية وقد شرحناها فيما سبق.

قال: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [أي: جزاؤها] أي: السيئات، ولكنه عبَّر بالسيئات نفسها؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وهو مُقابِلٌ لها لا يزيد ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ [أي: قريش] ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [بفائتين عذابنا، فقُحِطوا سبع سنين، ثم وُسِّع عليهم]، قُحِطوا سبع سنين بدعوة النبي ﷺ حين قال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِيْنَ كَسِنِيِّ يُوسُفَ»، فقُحِطُوا سبع سنين قَحطًا شديدًا حتى إن الإنسان منهم يتراءى السماء فيحول بينه وبينها غبشٌ كأنه دخان من شدة الجوع والتعب.

قال المؤلف: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ﴾ [يوسِّعه] ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ [امتحانًا] ﴿وَيَقْدِرُ﴾ [يُضيِّقه لمن يشاء ابتلاءً] والحقيقة أن التوسعة والتضييق كلاهما امتحان، وكلاهما ابتلاء، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، لكن مشى المؤلف على هذا من باب اختلاف التعبير، والمعنى واحد.

قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [به] أي: بهذا البسط والتضييق، فمن آمن بذلك؛ أي: بالله - عزَّ وجلَّ - وببسطه وتضييقه عرف بذلك حكمة الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** أن الإنسان يلجأ إلى الله تعالى عند الشدائد، وهذه طبيعة فِطرِيَّة لا يتخلَّف عنها إلا من نُكِس قلبه.

٢ - **ومن فوائدها:** أن المشركين في زماننا الذين يدعون مع الله غيره أشد شركًا من السابقين؛ لأن السابقين يشركون في الرخاء، وإذا مسَّهم الضرُّ لجأوا إلى الله، أما اللاحقين فإنهم يشركون في حال الشدة كما يشركون في حال الرخاء، إذا أصابهم الضُّرُّ نادوا: يا فلان، يا فلان، هذا أشدُّ شركًا من الأولين، وهذا أيضًا مخالف للفطرة التي فُطِر الناس عليها؛ لأن الإنسان لا يلجأ عند الشدائد

إلا بمن يُؤمِن أنه يكشف هذه الشدائد.

٣- **ومن فوائدها**: أن الإنسان إذا أُصِيبَ بالنعمة نسِيَ نعمة الله وأضافها إلى غيره.

٤- **ومن فوائدها**: ضرر الإعجاب بالنفس؛ حيث يقول: إنها أوتيته على علم عندي.

٥- **ومن فوائدها**: أن الله تعالى يبتلي بالنعم كما يبتلي بالنقم، لقوله: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾، وقد قال سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

٦- **ومن فوائدها**: أن أكثر الناس غافلون عن هذه المسألة؛ أي: عن كون الله سبحانه وتعالى يبتليهم بالنعم، فيظنون أن النعم دليل على الرضا، فيستمرُّون في معاصيهم، ويقولون: لو كان الله غاضبًا علينا ما أعطانا، ولكن من العامة من يقول العبارة المشهورة: (عطاهُ لا يدلُّ على رضاه)، قد يكون هذا من باب الاستدراج بالنعم حتى يهلك الإنسان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وصحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي[١] لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ[٢]»[٣].

٧- **ومن فوائدها**: أن من الناس مَنْ منَّ الله عليهم بالعلم، والفراسة، والتدبُّر، والتأمُّل، فعرفوا الأمور على حقيقتها، من قوله: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ فإن الأكثر ضد الأقل.

٨- **ومن فوائدها**: فضيلة العلم، لقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لأن الذين يعلمون يعرفون مثل هذه الأمور وأنها ابتلاء وامتحان فيتعظون بها.

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

١- **من فوائد الآية الكريمة**: أن الشر يتبع بعضه بعضًا، لقوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٢- **ومن فوائدها**: تسلية الرسول ﷺ، فإن هؤلاء الذين قالوا هذا في عصره قد قاله مَنْ سبقهم.

٣- **ومن فوائدها**: أن لأهل الشر قدوة يقتدون بها، كما أن لأهل الخير قدوة يقتدون بها، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[٤].

٤- **ومن فوائدها**: أن كل ما كَسَبَه الإنسان من مالٍ أو جاهٍ فإنه لا يُغنيه من الله شيئًا، لقوله:

---

(١) ليمهل.

(٢) لم يخلصه ولم يتركه حتى يستوفي عقابه.

(٣) رواه البخاري (٤٤٠٩)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم (١٠١٧)، والنسائي (٢٥٥٤)، وابن ماجه (٢٠٣)، وأحمد في مسنده (١٩١٧٩) من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، حتى لو كسب أقوى صنعة في الأرض فإنها لا تغني عنه من الله شيئًا، إذا أراد الله -عزَّ وجلَّ- أن يُتلِف هذه القوة أتلفَها بكلمة واحدة منه ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أنه يجب على الإنسان اللجوء إلى الله؛ حيث إن جميع ما كسبه من مال، أو جاه، أو ولد، أو زوجة، أو غيرها لا تغني عنه من الله شيئًا، إذن إلى من يرجع؟ إلى الله عز وجل.

٦- **ومن فوائدها:** الرد على الجبرية، لقوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، فإن عمل الإنسان كسبٌ له، أما الجبرية فيقولون: إن عمل الإنسان ليس كسبًا له؛ لأنه مُرغَمٌ عليه ومُجبَر عليه، فلا يكون كسبًا له ولا يضاف إليه.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر:٥١].

١- **من فوائد هذه الآية:** أن العقوبة تكون على قدر العمل، لقوله: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ﴾ مع أن الذي أصابهم ليس السيئات ولكن جزاؤها، إلا أنه لما كان الجزاء من جنس العمل صحَّ أن يُعبَّر بالعمل عنه.

٢- **ومن فوائدها:** تهديدُ هؤلاء الذين كانوا في عهد النبي ﷺ أن يُصيبَهم ما أصاب الأولين، لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** شُؤمُ الظلم؛ لأنه يُوقِعُ صاحبَه في الهلاك.

٤- **ومن فوائدها:** أن مَنْ عصى الله فهو ظالم لنفسه، وكذلك لغيره إن تعدَّت معصيتُهُ إلى الغير، فلو جَنَى على أحدٍ مُحترم من مسلم، أو يهودي ذِمِّي، أو نصراني ذِمِّي، أو غيرهم من أهل الكفر الذِّمِّيِّين، فإنه يكون ظالمًا لنفسه وظالمًا لغيره.

٥- **ومن فوائدها:** أنه لا أحد يفوت الله ويُعجِزُه، لقوله: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾، وقد قال الشاعر الجاهلي:

أيـن المفـرُّ والإلـهُ الطـالـبُ ... والأشـرمُ المغلـوبُ ليس الغـالـبُ

فلا أحد يُعجِز الله عز وجل، أو يفوت الله لا في السماوات ولا في الأرض.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ارتباط هذه الآية بما قبلها ظاهر؛ لأنه تكلَّم عن الإنسان إذا أصابه الضر وإذا أصابته النعمة، ثم عقَّبَ ذلك بأن الأمر كله بيد الله.

١- **من فوائد الآية الكريمة:** تقرير هؤلاء بأن كل شيء من عند الله، بَسْط الرزق وتضييقُه من عند الله، وهم يعلمون ذلك، لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾، فإن مثل هذا التركيب يفيد التقرير.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات المشيئة لله، لقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، وليُعلَم أن كل شيءٍ علَّقه الله بالمشيئة فإنه مقرونٌ بالحكمة؛ أي: أنه ليست مشيئة الله مشيئة مجردة هكذا تأتي عفوًا؛ لا، هي مشيئة مقرونة بالحكمة، والدليل على ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فلما بيَّن أن مشيئتهم بمشيئة الله بيَّن أن ذلك مبنيٌّ على علم وحكمة.

٣- **ومن فوائدها:** أن الرزق لا يحصل بالشطارة والحِذْق، وإنما هو من عند الله ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ فإذا قلنا بهذه الفائدة أَشكَل علينا: هل معنى ذلك: أن نُبطِل الأسباب؟ لا؛ بل نفعل الأسباب لبسط الرزق لنتحاشَى تضييقه، قال الله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ فأَمَرنا أن نمشي في مناكبها وأن نأكل من رزقه؛ لأننا إذا مشينا في المناكب، وسعينا في أسباب الرزق حصل فأكلنا من رزقه.

٤- **ومن فوائدها:** تمامُ ملك الله وسلطانه، لقوله: ﴿يَبْسُطُ﴾، ﴿وَيَقْدِرُ﴾، وهذا يدل على كمال الملك والسلطان، وأنه لا معارض له سبحانه.

٥- **ومن فوائدها:** أن الإيمان وسيلة للاهتداء ومعرفة الآيات، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وإذا كان هذا الحكم مُعلَّقًا على هذا الوصف، فإن القاعدة: أن ما عُلِّق على وصفٍ فإنه يقوى بقوته ويضعُف بضعفه، إذن كلما قَوِي الإيمان ظهر للإنسان من آيات الله ما لم يظهر له مع ضعف الإيمان، وكلما ضعُف الإيمان ضعُفت معرفة الإنسان وإدراكه للآيات التي ينزلها الله -عزَّ وجلَّ- من الوحي والتي يُقدِّرها من القضاء.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

التفسير

﴿قُلْ﴾ يعني: أبلِغ عبادي بذلك، أبلِغهم بأني أقول: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾، ولا يصح أن نقول: قل أنت يا محمد: يا عبادي فتُضيف العباد إلى نفسك، لا؛ بل المعنى: أبلِغ عبادي أني أقول: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، ولماذا قلنا بهذا التفسير؟ لأن النبي ﷺ لو قال للناس: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فإنه لا يستقيم الكلام، ولكن المعنى: قل للناس؛ أي: أبلِغهم بأني أقول: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، وقراءة أخرى: لا تَقْنُطُوا.

وقوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ يشمل العباد بالمعنى الخاص، والعباد بالمعنى العام؛ يعني: حتى الكفار

يقال لهم مثل هذا القول.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: جاوزوا الحدَّ في رعاية الأنفس، والواجبُ على الإنسان في رعاية نفسه أن يرعاها حق رعايتها؛ بحيث يقوم بها يُصلِحُها، ويتجنَّب ما يُفسِدُها، فإذا لم يفعل فقد أَسرَفَ على نفسه، مثال ذلك: رجل سرق، السرقة هذه إسراف على النفس؛ لأن الواجب حماية النفس من السرقة، رجل شرب الخمر هذا إسراف على النفس، رجل سجد لصنم إسراف على النفس؛ لأنه مُجاوزةٌ للحد.

وقوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ القنوط واليأس معناهما متقارب، لكنهم فرَّقوا بينهما: بأن القنوط: أشد اليأس، وأما اليأس فمعروف أنه عدم الرجاء وعدم الأمل في حصول الشيء.

وقوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ من رحمة الله لكم، فرحمة هنا مُضافة إلى الفاعل؛ أي: من رحمة الله إياكم، وبماذا تكون الرحمة؟ تكون الرحمة بأن يهدي الله الرجل إلى التوبة والاستغفار ويتوب عليه، فأنت لا تقنط من رحمة الله، لا بنفسك ولا بغيرك، ولكن افعل السبب، فلو قال قائل مُسرفٌ على نفسه: أنا لا أقنط من رحمة الله، ولكنه يفعل المعصية مُستمرٌّ عليها، نقول: هذا غلط؛ لأنك إذا استمررت على المعصية فأنت آمِن من مكر الله، وكلا الطرفين ذميم، لا القنوط من رحمة الله، ولا الأمن من مكر الله، ولكن نقول: افعل السبب ولا تقنط من رحمة الله.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [لمن تاب من الشرك] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يغفر؛ أي: يسترُها ويتجاوز عنها؛ وذلك لأن المغفرة مُشتقَّة من المِغفَر الذي يُوضَع على الرأس في وقت القتال من أجل أن يَقِيَه السهام، ومعلومٌ أن هذا المِغفَر فيه ستر وفيه وقاية، وعلى هذا فأنت إذا قلت: ربِّ اغفر لي، لست تسأل الله أن يستر ذنوبك فقط؛ بل تسأل الله أن يسترها ويتجاوز عنها، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ أي: يسترها ويتجاوز عنها.

وقوله: ﴿ٱلذُّنُوبَ﴾ هذه صيغة عموم، وأكَّد هذا العموم بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ وهذه المغفرة التي أثبتها الله - عزَّ وجلَّ - هل هي شاملة لكل ذنب؟ الجواب: نعم شاملة لكل ذنب فيمن تاب، فكل مَن تاب تابَ الله عليه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠] هؤلاء جمعوا بين الشرك، وقتل النفس، وهو: اعتداء على النفوس، والزنا، وهو: اعتداء على الأعراض والأخلاق، ومع ذلك إذا تابوا تاب الله عليهم، وهذه الآية أجمع العلماء على أنها في التائبين؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولم يُقيِّد، فهي في التائبين، أما غير التائبين فقال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] فغيرُ التائبين نجزِم بأن الله لا يغفر الشرك في حقهم، وما دون الشرك

تحت المشيئة إن شاء عذَّب، وإن شاء غفر.

فللإنسان حالتان: الحال الأولى: التوبة، فما حكم ذنبه حينئذٍ؟ الغفران، مهما عظُمَ الذنب، الحال الثانية: عدم التوبة؛ يعني: بدون التوبة نقول: الشرك لا يُغفَر قطعًا، وما دون الشرك تحت المشيئة، ويستدل بالآية التي ذكرناها استشهادًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ يستدل بها المُسرِفون على أنفسهم بالمعاصي، فإذا نهيتَهم عن المعصية قالوا لك: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ نقول له بكل بساطة: وهل تجزم أنت أنك ممن شاء الله أن يغفر له؟ الجواب: لا، إذن أنت على خطر، وأنت الآن فعلتَ سبب العقوبة، وكونك يغفر لك هذا أمرٌ راجع إلى مشيئة الله عز وجل.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أولًا في الجملة كلمة لو حُذِفَت هذه الكلمة لاستقام الكلام بدونها، فما هي الكلمة؟ الكلمة هي ﴿هُوَ﴾ يُسمِّيها النحويُّون ضمير فصل، وبعضهم يُسمِّيه عمادًا، فما هو فائدة هذا الضمير؟ يقولون: إن في هذا الضمير ثلاث فوائد: الفائدة الأولى: التوكيد، والفائدة الثانية: الحصر، والفائدة الثالثة: التمييز بين الخبر والصفة.

مثاله: إذا قلت: زيدٌ هو الفاضل، الضمير في (هو) ضمير الفصل، لو قلت: زيدٌ الفاضل وحذفتَ الضمير، استقام الكلام، لكن يحتمل أن يكون الفاضل صفة والخبر منتظر، ويحتمل أن يكون الفاضل هو الخبر، فإذا قلت: زيدٌ هو الفاضل ارتفع الاحتمال الأول، وهو أن تكون الفاضل صفة، وتعيَّن الاحتمال الثاني، وهي: أن تكون خبرًا، ما الذي استفدناه من هذا التركيب: زيدٌ هو الفاضل؟ استفدنا أولًا: توكيد الفضل في زيد، وثانيًا: حصر الفضل فيه، وثالثًا: التمييز بين الصفة والخبر؛ يعني: الآن ليس عندنا احتمال أن تكون صفة، هذا من حيث المعنى في ضمير الفصل، من حيث الإعراب هل هو اسم أو حرف؟ الصحيح: أنه حرفٌ لا محل له من الإعراب، حرفٌ جاء بصيغة الاسم، وليس له محلٌّ من الإعراب، والدليل على أنه لا محل له من الإعراب كثيرٌ في القرآن وغير القرآن، قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ لأنه إذا كان له محل من الإعراب صار محله الرفع وما بعده خبر، ولكنه ليس له محل من الإعراب؛ بل هو جاء عمادًا أو جاء فصلًا.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ هذه الجملة موقعها مما قبلها أنها تعليل، تعليل للنهي عن القنوط؛ يعني: لا تقنطوا فإن الله يغفر الذنوب جميعًا إذا استغفرتموه.

قال المُفسِّر رحمه الله: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ﴾ [بكسر النون وفتحها] قراءتان سبعيَّتان، وقاعدة المؤلف رحمه الله أنه إذا قال مثل هذا القول؛ يعني: بالوجهين، أو قال: [وفي قراءة] فالقراءة سبعيَّة، أما إذا قال: [وقُرِئَ] فالقراءة شاذَّة، إذن فيها قراءتان سبعيتان بفتح النون وكسر النون، قال: [وقُرِئَ بضمها] لا تقنُطُوا، وهذه القراءة شاذة؛ يعني: ليست سبعيَّة،

قال المُفسِّر رحمه الله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟﴾ [بكسر النون وفتحها] قراءتان سبعيَّتان، وقاعدة المؤلف رحمه الله أنه إذا قال مثل هذا القول؛ يعني: بالوجهين، أو قال: [وفي قراءة] فالقراءة سبعيَّة، أما إذا قال: [وقُرِئَ] فالقراءة شاذَّة، إذن فيها قراءتان سبعيتان بفتح النون وكسر النون، قال: [وقُرِئَ بضمها] لا تقنُطُوا، وهذه القراءة شاذة؛ يعني: ليست سبعيَّة، واختلف العلماء في القراءة غير السبعية هل يجوز أن يقرأ بها الإنسان أو لا؟ والصحيح: أنها إذا صحَّت عن النبي ﷺ، فإن القراءة بها جائزة؛ لأن القرآن كله حقٌّ، فإذا ثبت أن النبي ﷺ قرأ بهذه القراءة فهي صحيحة، سواء جاءت عن طريق القُرَّاء السبعة أم لم تأت.

قال: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [لمن تاب من الشرك] وكذلك من تاب من غيره مما دونه، لكن ذكر المؤلف الشرك؛ لأنه أعظم الذنوب، ولأنه لا يُغفَر إلا بتوبة، وإذا تاب الإنسان من الشرك وبقي على شيء من المعاصي كان يقوم بها في حال كفره؛ فهل تُغفَر هذه المعاصي أم لابد لها من توبة؟ الصحيح: أنه لابد لها من توبة، كما لو كان يشرب الخمر وهو كافر، ثم أسلم وبقِيَ على شرب الخمر، فإن إسلامه لا يُوجِبُ أن يسقط عنه إثم شرب الخمر؛ لأنه لم يتُبْ منه، لكن إذا تاب من الشرك ولم يُصِرَّ على المعاصي الأخرى، ولم تطرأ له على بال، فإن جميع ذنوبه تُغفَر.

فالتائب من الشرك الحقيقة له ثلاث حالات: إما أن يستحضر أنه تاب من الشرك ومن جميع المعاصي التي كان يعملها، فهذا لا شك أن توبته تعُمُّ كل ذنب، وإما أن يتوب من الشرك مع الإصرار على بعض المعاصي التي كان يعملها في حال الشرك، فهنا لا تُغفَر له هذه المعاصي التي أصرَّ عليها؛ لأنه استمرَّ فيها؛ مثل: أن يكون معتادًا لشرب الخمر في حال كفره، فيُسلِم وهو مُصِرٌّ على شرب الخمر، فإنه لا يُغفَر له ما قد سلف من الذنوب، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، الحال الثالثة: أن يتوب من الشرك ولم يطرأ على باله بقية المعاصي، ولكنه لم يفعلها بعد إسلامه، فهنا يُغفَر له جميع الذنوب؛ لأنها تندمج الصغار بالكبار فيُغفَر له جميع الذنوب.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليلٌ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ تعليلٌ لقوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، فهو تعليل لتعليل.

قال الله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** وجوب إبلاغ الرسول عليه الصلاة والسلام عن الله هذا القول، لقوله: ﴿قُلْ﴾؛ لأن الأصل في الأمر: الوجوب، لاسيما وأنَّ هذا إبلاغ للرسالة، وإبلاغ الرسالة واجب.

٢ - **ومن فوائدها:** أهمية هذا البلاغ، لئلا نقنُط من رحمة الله، وأن نعلم أنه جل وعلا يغفر الذنوب جميعًا، من أين أخذنا أهميتها؟ من تصديره بـ ﴿قُلْ﴾؛ لأن هذا أمر بإبلاغ خاص.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن المُذنِبَ مُسرِفٌ على نفسه ظالمٌ لها، لقوله: ﴿أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، ويدل على هذا: قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، والعجيب أن الظالم لنفسه بالمعصية إذا قيل له: لماذا؟ قال: هذا القضاء والقدر، عسى الله أن يهديني، وإذا ضربه أحدٌ ظلمه بالضرب، فقال: لمَ تضربني؟ قال: والله يا أخي ! هذا قضاء وقدر، هل يرضى بهذه الحُجَّة؟ لا يرضى، وهو بظُلمِه لنفسه يرضى، وهذا تناقُض عجيب؛ يعني: إذا ظلمتَ نفسَك أبحتَ أن تحتجَّ بالقدر، وإذا ظلَمَك غيرك لم تُبِحْ له أن يحتج بالقدر، وهذا جَورٌ في الحكم وتناقض، يقال: كيف ترضى أن تظلم نفسك، ولا ترضى أن يظلمك غيرك؟ ويحتج بالقدر.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تحريم القنوط من رحمة الله، لقوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ وجه الدلالة: أن الأصل في النهي: التحريم، وقد دلَّت السنة على أن القنوط من رحمة الله من كبائر الذنوب؛ لأنه ظنٌّ ما لا يليق بالله جل وعلا، فإن اللائقَ بالله سبحانه وتعالى أنَّ مَنْ لجأَ إليه فإنه أكرم الأكرمين لا يُخيِّبُه، فإذا قنطتَ من رحمته فقد استهنتَ في حقه سبحانه وتعالى، ولهذا كان القنوط من رحمة الله من كبائر الذنوب.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الرحمة لله، لقوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ والرحمة نوعان: مخلوقة، وغير مخلوقة، فما كان من الإنعام والإحسان فهو مخلوقٌ، وما كان صفةً للرب فهو غير مخلوق، ولهذا قال الله تعالى في الجنة في الحديث القدسي: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»، أنتِ رحمتي مع أن الجنة مخلوقة، لكنها من آثار الرحمة.

إذا وُلِد لشخص ولدٌ، أو عاد إليه ضالٌّ من ماله، أو ضائعٌ من ماله، قال: والله هذا رحمة الله، هل هذه الرحمة مخلوقة أو غير مخلوقة؟ مخلوقة؛ لأنها إحسانٌ وإنعام، فإذا أُطلِقَت الرحمة على الإحسان والإنعام فهي مخلوقة، وإذا أُطلِقَت على صفة الله فهي غير مخلوقة.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الذنوب مهما عظُمَت فإن الله يغفرها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ كل الذنوب؟ نعم؛ لأن الله ذكرها (بالـ)، وأكَّد هذا العموم بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ كل الذنوب، لكن هذا في حق من؟ في حق التائبين.

٧- **ومن فوائدها:** أن ظاهر مغفرة الذنوب للتائبين، وإن كان الذنب للمخلوق؛ يعني: إذا اعتديتَ على شخص ثم تبتَ إلى الله، فإن الله يتوب عليك، ولو كان الذنبُ للمخلوق، لكننا اشترطنا أن تتوب، ومن تمام التوبة: أن تُوفِيَ للمخلوق حقَّهُ إن قَدِرتَ عليه، فإن لم تقدِر عليه

فأوفِهِ ولو بظهر الغيب، ونحن نضرب لهذا مثلًا أو مثلَيْن أو ثلاثة حسب ما يتسع به المقام:

إذا أخذتَ من شخص مالًا بغير حق، فهذا ذنبٌ، فإذا تبتَ إلى الله، يغفر الله لك هذا الذنب أو لا؟ يغفر لك الذنب، لكن من تمام التوبة: أن تُوصِلَ المال إلى صاحبه، فإن مات فإلى ورثته، إذا أدَّيتَ إلى ورثته بَرِئَت ذمَّتُك منه، لكن بقِيَ ظلمُك للميت الذي حُلْتَ بينه وبين ماله، هل تُحاسَبُ عليه أو لا تُحاسَب؟ إن قلتَ: لا تُحاسَب، فسيقول لك قائل: كيف يتخلَّص الإنسان من ظلم الميت الذي حال بينه وبين ماله، وهذا صحيح أو غير صحيح؟ صحيح؛ لأن ذمَّتَه بَرِئَت؛ لأنه أدى المال إلى مستحقه بعد موت صاحبه، لكن المُشكِل: أن صاحبه حِيْلَ بينه وبينه في حال حياته، لو كان عنده لاشترى بيتًا، لاشترى سيارة، لتزوَّج، فحُلتَ بينه وبينه، فهل يسقط عنك حقُّهُ بتوبتك أو لا؟ نقول: ظاهر الآيات الكريمة أنه يسقط حقُّهُ عنك أنت، لكن الله تعالى يؤتيه من عنده؛ لماذا؟ لأنك الآن لا تستطيع أن تتوصَّل إلى هذا الميت لتُعطِيَه حقه، والذي تستطيعه أن تُؤدِّيَه إلى ورثته وقد فعلت.

مثال آخر: أخذتَ مالًا من شخص، ثم نسيتَ الشخص، ثم تبتَ؛ فما هو الطريق إلى التوبة، أو الخروج من حق الرجل؟ أتصدَّقُ به عنه، وإذا تصدقتُ به عنه، استفاد من هذا المال متى؟ في الآخرة أو في الدنيا؟ في الآخرة، لكن قد يقول قائل: لكنك حُلتَ بينه وبينه في الدنيا، وقد يكون له غرض في المال في الدنيا؟ فأقول: نعم، أنا حُلتُ بينه وبينه في الدنيا لكن عجزًا مني أن أصل إليه، والذي قدرتُ عليه من التوبة فعلتُهُ، وهو الصدقة به عنه، فهل يبرأُ براءةً تامَّةً؛ بحيث لا يُطالِبُه صاحب المال في الآخرة؟ الجواب: نقول: ظاهر النصوص نعم يبرأ.

قتلتَ نفسًا، ثم تبتَ إلى الله عز وجل من قتل النفس، من تمام توبتك: أن تُسلِّم نفسك لورثة المقتول، تقول: أنا الذي قتلتُ صاحبكم، وأنا الآن بين أيديكم، إذا سلَّمتَ نفسك لهم برِئَت ذمَّتُك، لكن يبقى عندنا حق المقتول الذي حُلتَ بينه وبين بقائه في الدنيا، فهل تبرأ منه بالتوبة؟ الجواب: نعم، تبرأ منه بالتوبة، لعموم الآية هذه وأمثالها، لكن هل يضيع حق المقتول أو لا؟ لا يضيع، فإنه يتحمَّله الله سبحانه وتعالى عنك له، وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى؛ أن يعفو عن حقِّهِ، ويتحمَّل عنك حق الآخرين.

فإن قال قائل: ما الدليل على ما قلت؟ وكيف يسقط عنه حق الآدمي؟ قلنا: الدليل على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ هنا فيها حقٌّ لله، وحقٌّ للمخلوق بالدم، وحقٌّ للمخلوق بالعِرْض إن كان قد زنا مُكرَهًا بالمزنيِّ بها، وقد قال الله

عز وجل: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ حتى في القاتل يُبدِّل الله سيئاته حسنات.

فإذا قيل: كيف يضيعُ حق المقتول؟ فالجواب: نقول: لا يضيع؛ لأن الله يتحمَّله عنه، وهذا من فضله تبارك وتعالى، إذن نقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ظاهر الآية العموم، يغفر الذنوب جميعًا، سواء مما يتعلَّقُ بحق الله، أو بحق العباد، لكن ما يتعلَّقُ بحق العباد إذا تعذَّر إيصاله إليهم في الدنيا، فإن الله تعالى يتحمَّله في الآخرة.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثباتُ اسمَيْن من أسماء الله عظيمَيْن يقترنان كثيرًا في القرآن، هما: الغفور الرحيم، ووجه اقترانها: أن بالأول زوالُ المكروه، وبالثاني: حصول المطلوب، فيتكوَّن من اجتماعهما وصفٌ زائدٌ على الوصف عند انفرادهما؛ لأنهما إذا انفردا استفدنا المغفرة إذا انفرد الغفور، والرحمة إن انفرد الرحيم، لكن إذا اجتمعا استفدنا فائدة جديدة، وهي: أن مغفرة الله عز وجل مقرونة برحمته، فهو جامعٌ بين المغفرة والرحمة.

هذان الاسمان من الأسماء اللازمة، أو من الأسماء المتعدية؟ من الأسماء المتعدية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ إذن مُتعدٍّ، وقال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ إذن مُتعدٍّ.

الأسماء المتعدية قال العلماء: لا يتمُّ الإيمان بها إلا بثلاثة أمور: الإيمان بالاسم، والإيمان بما يتضمَّنه من صفة، والإيمان بالحكم المُترتِّب على تلك الصفة الذي يُطلِقُ عليه بعضهم: الأثر، الإيمان بالاسم هنا: الغفور، نؤمن بأن الغفور من أسماء الله، نؤمن بأن لله مغفرة دلَّ عليها اسم الغفور، ونؤمن أيضًا بما يتضمَّنه ذلك، يدلُّ على المغفرة، ويدلُّ على العلم؛ لأنه لا يغفر ما لا يعلمه، ودلالته على العلم من باب دلالة التضمُّن، أو دلالة الالتزام؟ الالتزام؛ لأن المادة: غاء فاء راء ما فيها عين لام ميم، فيكون هذا من باب الالتزام، الغفور اسمًا، والمغفرة وصفًا، يغفرُ الذنوب حُكمًا، الرحيم كذلك، نؤمن بالرحيم اسمًا، وبالرحمة صفةً، وبأنه يرحم حُكمًا، غفر الله لنا ولكم ورحمنا وإياكم.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤].

❁ التفسير ❁

قال المُفسِّر: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟﴾ [ارجعوا إلى ربكم]؛ يعني: ارجعوا إلى ربكم من معاصيه إلى طاعته، ومن البُعْد عنه إلى القُرْب، وهذه الإنابة هي عمل القلب، رجوع القلب إلى الله سبحانه وتعالى، ﴿وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: استسلموا له واخضعوا لشرعه، وهذا عملُ الظاهر، عمل الجوارح، فالإنابة بالقلب، والإسلام بالجوارح، ﴿وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [أخلصوا العمل]، وأخذ المؤلف الإخلاصَ من قوله: ﴿لَهُۥ﴾ أي: لله، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ فهذه الآية فيها الأمرُ بالإنابة - وهي في القلب -، والأمر بالاستسلام له - وهي بالجوارح -، والإخلاص مُستفادٌ من اللام المذكورة في قوله: ﴿لَهُۥ﴾.

وقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ مُتعلِّقة بـ ﴿وَأَنِيبُوٓا۟﴾، ﴿وَأَسْلِمُوا۟﴾، فقد تنازعها العاملان ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني: من الله ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ يعني: لا تُمنعُون من عذاب الله، وقول المؤلف: [إن لم تتوبوا] لا حاجة إليها؛ لأن الله قال: أنيبوا وأسلموا من قبل هذا الشيء، وإذا أناب وأسلم قبل هذا الشيء فقد تاب، وحينئذٍ لا ينزل به العذاب.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥].

❁ التفسير ❁

وقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟﴾ أي: كونوا تبعًا، ﴿أَحْسَنَ﴾ اسم تفضيل من الحسن، ويشمل الأحسن في ذاته، والأحسن في العمل، فالإنسان مأمور أن يتبع الأحسن، أحسن ما أُنزِل إلينا في ذاته، ولو فتَّشتَ الكتب السماوية التي نزلت لوجدتَ أحسن ما نزل هو القرآن، ولهذا فسَّره المؤلف بقوله: [وهو القرآن]، كذلك أحسن ما أُنزِل إلينا، إذا كانت عبادة قام بها الإنسان على وجهٍ

ناقص، وعبادة قام بها على وجه كامل فالتي على الوجه الكامل هي الأحسن، فإذا وُجِدت أعمال تتفاضل، فالإنسان مأمور أن يتبع الأحسن منها.

وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُم﴾ فيه إشارة إلى وجوب اتِّباع الأحسن؛ لأن هذا الأحسن نازلٌ من الرب تعالى، والرب هو الذي له التصرُّف في العباد تدبيرًا وتشريعًا وحكمًا.

وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ في الآية الأولى ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أما هذا قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً﴾ أي: مُفاجأة، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أنه يأتيكم العذاب، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ فالنائمُ لا يشعر بالعذاب إلا بغتةً، والذي يلعب كذلك لا يشعُرُ بالعذاب إلا بغتةً.



قال الله تعالى:

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٦-٥٧].

التفسير

يقول المُفسِّر: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [قبل إتيانه بوقته] يعني: لا تشعرون بوقته قبل إتيانه؛ بل قد ضربتم الأمل الطويل، والتفاؤل الذي ليس في محلِّه حتى أتاكم العذاب.

قال: [فبادروا قبل] ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ قدَّر المؤلف هذا الذي ذكر لدلالة السياق عليه، وهذا الذي قام به المؤلف رحمه الله يُسمَّى عند البلاغيين إيجاز الحذف؛ لأن الإيجاز عندهم نوعان: إيجاز قَصْر، وإيجاز حذف، فإيجاز القِصَر: أن تكون العبارة القصيرة تتضمن معانٍ كثيرة، وإيجاز الحذف: أن تكون العبارة موجودة قد حُذِف منها ما هو معلوم؛ مثل: قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ هذه الآية حُذِف منها شيء كثير؛ يعني: تقديره: أن المرأتين ذهبتا إلى أبيهما وأخبرتاه بالخبر، ثم أرسل إحداهما إلى موسى، فجاءت إحداهما تمشي على استحياء، فصار عندنا الإيجاز نوعان: إيجاز قصر؛ بأن تكون العبارة قصيرة تتضمن معانٍ كثيرة، وإيجاز حذف: بأن يحذف من الكلام ما يدل عليه السياق، وكلاهما فصيح عربي، قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ هذا إيجاز قِصَر، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ هذا إيجاز قِصَر؛ لأنك لو أردت أن تبسط هذه الجملة ﴿مَن

يَعْمَلْ سُوٓءًا ﴾ وتذكر أنواع السوء، وتذكر أنواع المجازاة لكان الكلام طويلًا، لكنه قُصِر على هاتين الكلمتين ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ وهما تشملان كل ما يمكن أن يدخل في هذه الجملة من التفاصيل.

هنا على كلام المؤلف [فبادروا قبل] ﴿ أَن تَقُولَ ﴾ نقول: هذا من باب إيجاز الحذف؛ لأنه حُذِف من الكلام ما يدل عليه السياق، ويمكن أن نُقدِّر ما هو دون ذلك فنقول: خشية أن تقول نفس؛ يعني: اتبعوا ما أُنزِل إليكم من ربكم خشية أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله، وهذا الذي ذكرناه أخصر من كلام المؤلف.

وقوله: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ ﴾ نفس هنا نكرة في سياق الإثبات، والنكرة في سياق الإثبات لا تدلُّ على العموم، وإنما تدل على العموم إذا كانت في سياق النفي، أو الشرط، أو الاستفهام الإنكاري، أو ما أشبه ذلك مما ذكره العلماء، لكنهم قالوا: إن نفس هنا نكرة يراد بها العموم؛ يعني: أن تقول كل نفس فَرَّطَت: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ أصله: يا حسرتِي؛ أي: ندامتي، فالحسرة هي: الندامة، وقال: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ الألف هذه منقلبة عن ياء، وأصلها ياء المتكلم، يا حسرتِي، لكن في اللغة العربية يجوز أن تُقلَب الياء ألفًا، فيقال: يا حسرتى بدل يا حسرتي، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ ﴾ التقدير: يا ويلتِي، يا حسرتى؛ أي: ندامتي ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ التفريط معناه: الإهمال والإضاعة، وعكسه الإفراط، الإفراط: التجاوُز، والتفريط: القصور عن الشيء، فالمُفرِّط هو: المهمل المقصر، والمُفرِط هو: المتجاوز للحد، وكلاهما مذموم، والخيار هو الوسط.

وقوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ قال: [أي: طاعته]، ففسَّر الجنب هنا بالطاعة؛ وذلك لأنه لا يمكن أن يراد به: جنب الله الذي هو جنب ذاته؛ لأن الإنسان يشعر بأنه لم يفرط في نفس الجنب الذي هو جنب الله ذاته، ولكن بعض العلماء يقول: الجنب بمعنى: الجانب لغةً، وإذا كان بمعنى: الجانب لغةً فلا حاجة إلى التأويل، يكون معنى في جنب الله؛ أي: في جانب الله، وجانب الله؛ يعني: حقَّه، وهذا التفسير الذي ذكرناه مُؤدَّاه كما قال المؤلف: [أي: طاعته]، لكن إذا فسَّرنا الجنب بالطاعة خرجنا به عن المعنى المطابق للفظ، أما إذا قلنا: الجنب لغة بمعنى: الجانب، فإننا فسَّرناه بما دلَّت عليه الكلمة لغةً، والجانب من المعلوم أن جانب الله عز وجل؛ أي: حقه وشرعه.

وقوله: ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ [إن مُخفَّفة من الثقيلة، أي: وإني] إن في اللغة العربية تأتي بمعانٍ: الأول: شرطية، والثاني: نافية، والثالث: مؤكدة، والرابع: زائدة، أربعة معانٍ، بعضهم زاد معنى خامسًا: أن تكون بمعنى: نعم، ولكنه قليل.

إن شرطية مثاله: قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ هذه إن شرطية، تكون نافية؛ مثل: قول الكافرين: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، وإن النافية هي التي يعقبها دائمًا إلا، وتأتي مُؤكِّدة، وهي المُخفَّفة من الثقيلة كما هنا، وعلامتها أن يحل محلها إنَّ؛ مثل: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ هذه مُخفَّفة من الثقيلة تفيد التوكيد؛ لأن الثقيلة إنَّ معروفة أنها للتوكيد، فإذا كانت هذه مُخفَّفة منها، فهي للتوكيد، الرابع: زائدة، ومن ذلك قول الشاعر:

بني غُدانـةَ مـا إن أنتـم ذهبٌ ... ولا صَرِيـفٌ ولكـن أنتم الخَزَفُ

الشاهد قوله: ما إن أنتم ذهبُ؛ يعني: معنى الكلام: ما أنتم ذهب، فهي إذن زائدة، والذهب معروف، الصريف: الفضة، وسُمِّيَت صريفًا؛ لأنها يُسمَع لها صريفًا عند العدد أو الوزن، ولكن أنتم الخزف، ما هو الخزف؟ الطين المشوي؛ يعني: أنكم أصلكم رديء، وعلامة إن الزائدة أن يصح الكلام مع حذفها، فإذا صحَّ الكلام مع حذفها، فهي زائدة.

وقوله: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ قال المؤلف: [وإني]، فقدَّر اسم إنَّ ضميرًا مطابقًا للسياق، فقال: [إني كنت]، وهذا الذي ذهب إليه المؤلف هو الصحيح، أما عند جمهور النحويين فإنهم يقولون: إن اسم إنَّ محذوف ضمير الشأن فيُقدِّرون: إن كنت وإنه أي: الشأن، لكن الصحيح: أننا نُقدِّر ضميرًا مطابقًا للسياق، ولا حرج أن نقول: إنه محذوف ولو لم يكن ضمير، فعليه نقول: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ التقدير: وإني كنت ﴿لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾، واللام في قوله: ﴿لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ للتوكيد، وهي أيضًا دليلٌ على أنَّ (إن) مُخفَّفة من الثقيلة.

وهل تلزم لام التوكيد مع إن مخففة من الثقيلة؟ الجواب: لا تلزم إلا إذا كان يُخشَى من الالتباس بالنافية، فإن كان يُخشَى الالتباس بالنافية فإنه يجب أن تُذكَر اللام، والحاصل: أن اللام تُذكَر كثيرًا في خبر إن المخففة من الثقيلة، وقد تُحذَف إلا إذا خيف الالتباس، فإنه يجب أن تُذكَر اللام، إذا خيف الالتباس بماذا؟ إذا خيف أن تلتبس بـ (إن) النافية فإنه يجب أن يؤتى باللام؛ لأنه إذا أتت اللام تعيَّن أن تكون إن مخففة من الثقيلة.

يقول: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ الساخر بمعنى: المستهزئ، ساخرين بمن؟ بمن يدعو إلى الله، كما قال تعالى: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ ساخرين بدين الله، ساخرين بكتب الله، ساخرين برسل الله ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ ولهذا حذف المفعول في ﴿الساخرين﴾ لإفادة العموم، أي: الساخرين بالله، وآياته، ورسله، وأوليائه، فهو عام.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية:** وجوب الإنابة إلى الله، لقوله: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ والأصل في

الأمر: الوجوب إلا بدليل.

٢ - **ومن فوائدها:** وجوب الإسلام له؛ أي: الاستسلام التام مع الإخلاص، لقوله: ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** التحذير من عدم المبادرة بالإنابة والإسلام، لقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** عقوبة من لم يُنِب إلى ربه ويُسلِم له؛ إذ أن العذاب عقوبة.

٥ - **ومن فوائدها:** أنه إذا أتى عذاب الله فلا دافع له، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥].

١- **ومن فوائد الآية:** وجوب اتباع القرآن الكريم، لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾.

٢- **ومن فوائدها:** الثناء على القرآن الكريم بأنه أحسن ما أُنزِل إلى العباد، وهو أحسن في ذاته، وفي أخباره، وفي أحكامه، وفي آثاره، فلم تَنَل أمةٌ العزة والكرامة كما نالته هذه الأمة، بما آتاها الله من القرآن.

٣- **ومن فوائدها:** أن القرآن كلام الله، لقوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾.

فإن قال قائل: هذا لا نُسلِّمه لكم؛ لأن مما أنزل الله لا يكون كلامًا له، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾، ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وأمثالها، فلا نُسلِّم لكم أن القرآن كلام الله؛ بل نقول: هو كغيره من المخلوقات التي أنزلها الله، فإن الحديد مخلوق، والمطر مخلوق، والأنعام مخلوقة.

فالجواب عن هذا أن نقول: إن ما أنزله الله ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يكون عينًا قائمة بنفسه، فهذا مخلوق.

والثاني: أن يكون وصفًا لا يقوم إلا بغيره، فهذا غير مخلوق.

فلننظر للقرآن؛ هل هو عين قائمة بنفسها، أو وصفٌ لا يقوم إلا بغيره؟ الثاني، إذن كلام الله غير مخلوق.

٤- **من فوائدها:** إثبات علو الله، لقوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، وجه ذلك: أن النزول لا يكون إلا من أعلى.

٥- **ومن فوائدها:** فضيلة هذه الأمة؛ حيث كانت الغاية في إنزال القرآن، من قوله تعالى: ﴿إِلَيْكُم﴾ فإن الإنزال غايته إلينا، إذن فهذا شرف لنا أن نكون غاية إنزال القرآن.

٦- **ومن فوائدها:** إثبات الربوبية لله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُم﴾.

٧- **ومن فوائدها:** أن إنزال القرآن إلينا من كمال ربوبيته؛ حيث أضاف إنزاله إلى نفسه بوصف الربوبية، فمن كمال ربوبيته لخلقه وتربيته لهم أن نزل عليهم هذا القرآن.

٨- **ومن فوائدها:** وجوب العمل بما في القرآن؛ لأنه نزل من الرب، والرب له السلطان الكامل على خلقه، أرأيتم لو أن ملكًا من الملوك أصدر مرسومًا ملكيًا، أفلا يكون مُقتضى سلطانه: أن نعمل بهذا المرسوم؟ بلى، إذن مُقتضى ربوبية الله لنا أن نعمل بما أنزل إلينا؛ لأن هذا القرآن بمنزلة المراسيم الملكية التي لابد من تنفيذها؛ بل هو أعظم كما هو معروف، ولا إشكال فيه.

٩- **ومن فوائدها:** الحذر من أن يأتي عذاب الله بغتة، لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً﴾، والعذاب المُباغِت أشد من العذاب الذي لم يُباغِت؛ لأن العذاب الذي لم يُباغِت يكون الإنسان قد تهيأ له، لكن الذي يأتي بغتة، يأتي الإنسان وهو في غاية ما يكون من الغفلة، وغاية ما يكون من السرور، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ فتأمّل الآن غفلة وهدوء واطمئنان أتاهم العذاب في هذا الوقت يكون أشد وقعًا - والعياذ بالله - مما لو أتى والإنسان متهيئ.

وأضرب لكم مثلًا حسيًا واضحًا: لو كنت تنزل من على الدرج، فغفلت، ثم زلّت رجلك على إحدى الدرجات، هل يكون مثل ما لو كنت تنزل وأنت ترى كل درجة، وتضع قدمك عليها؟ الجواب؟ لا، إذن المباغت أشد مما يأتي والإنسان متهيئ له.

١٠- **ومن الفوائد:** أن المُباغِت يأتي بغير شعور من العبد؛ لأنه غافل، وليس يُفكِّر في أن يأتيه العذاب، لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ والجملة هذه يُسمِّيها علماء النحو جملة حالية؛ يعني: والحال أنكم لا تشعرون.

قال الله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾.

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان مآل المُفرِّط، وهو: التحسُّر والتندُّم مع الغم.

٢ - **ومن فوائدها:** أن المُفرِّط سيتحسَّر على تفريطه.

وينبني على هذه الفائدة: أنه ينبغي أن يكون الإنسان حازمًا ذا نشاط وقوة حتى لا تفوته الأمور، ثم بعد ذلك يندم.

ويتفرَّع على ذلك الفائدة الثالثة: أنه ينبغي انتهاز الفرص فإذا أتت الفرصة فلا تضيعها.

ويترتب على هذا أيضًا رابعة: أنه إذا صارت أمامك حاجتان، فابدأ بما أنت تريد أولًا، وبادر

إليها، واجعل الثانية نافلة، وهذا يظهر في سنة الرسول عليه الصلاة والسلام في أمثلة متعددة؛ منها: أن عتبان بن مالك رضي الله عنه لما ضعُف بصره، وصار لا يتمكَّن من الوصول إلى مسجد قومه دعا النبي ﷺ إلى بيته ليصلي في مكان يتخذه مصلى، فخرج النبي ﷺ إليه ومعه جماعة من أصحابه، فلما وصلوا البيت وإذا الرجل قد هيَّأ لهم طعامًا، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يشأ أن يبدأ بالطعام؛ بل بدأ بما أتى إليه؛ أي: بالقصد الأول، فقال له: «أَيْنَ تُرِيْدُ أَنْ أُصَلِّيَ؟» فأراه المكان فصلى به، هذا مثال، وبناءً على ذلك ينبغي لكم أنتم طلبة العلم إذا أردتم أن تُراجعوا فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مسألة معينة، ستستعرض الفهرس، ثم يمر بك مسألة تشوقك إلى أن تراجعها، فتذهب وتراجعها، ثم تترك الذي كنتَ تراجع من أجلها، وهذا لا شك أنه يضر طالب العلم، يُشتِّت عليه الفكر، ويُشتِّت عليه الوقت؛ لأن فكره أول ما طالع الكتاب مُنصبٌّ على المسألة التي يطلبها، فإذا عرضت له مثل هذه العارضة، واتجه إليها، وانشغل بها وهي ليست مقصوده بالذات تشتَّت، ثم يتشتَّت وقته أيضًا، ربما يكون وقت مراجعته في خلال ربع ساعة، فتذهب ربع الساعة هذه، وهو لم يراجع المسألة التي كان من أجلها يفتش، وهذا جرَّبناه، فالإنسان ينبغي أن يكون حازمًا، وأن يبدأ بالأهم قبل المهم.

ومن ذلك الحزم: أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يبادر بإزالة المؤذيات ولا يتأخر؛ لأن التأخير له آفة؛ بل آفات، لما بال الأعرابي في المسجد أمر في الحال أن يُصبَّ عليه ماء فيُطهِّره، ولما بال الصبي في حجره دعا في الحال بماء فأتبعه إياه، وكان من الممكن أن يترك المكان في المسجد حتى يأتي وقت الصلاة، ويحتاج الناس إلى الصلاة في هذا المكان، لكنه بادر، وكذلك من الممكن أن يدع ثوبه حتى يحضر وقت الصلاة ثم يُطهِّره، لكنه بادر.

فالمهم: أن مثل هذه الوقائع ينبغي للإنسان أن يتخذ منها تربية لنفسه، لا تمر به على أنها مسألة فقهية عرفها فقط؛ بل لابد أن يظهر علمه في عمله.

٣ - ومن فوائدها: إثبات الجهة لله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ وقلنا: إن جنب بمعنى: جانب، لكن الذين لا يُثبِتون الجهة يفرُّون من هذه، ويُفسِّرونه بأمر آخر، كما فسَّره المؤلف بقوله: [أي: طاعة الله]، مع أن هذا التفسير قد يقال: إنه تفسير صحيح، وأن جانب الله تعالى هو: طاعته وحقه وما أشبه ذلك، لكن نحن نعلم أن كثيرًا من الناس يُنكِرون أن يكون الله في جهة، ويقولون: لا يجوز أن تقول: إن الله في جهة لا فوق ولا تحت، وعَكَس قومٌ آخرون، فقالوا: إن الله في كل جهة بذاته، وبين الطائفتين كما بين السماء والأرض، وتوسَّط آخرون فقالوا: إن الله في كل جهة، لكنه فوق كل شيء، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ

وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾، إن اتجهتم شرقًا أو غربًا أو شمالًا أو جنوبًا فثَمَّ وجه الله، لكن ليس الله نفسه في تلك الجهة، ولكنه فوق، وفوقيَّته لا تناقض أن يكون في كل جهةٍ استقبلتَه.

فلو قال قائل: كيف يجتمع أن يكون في جهة المشرق مثلًا أو المغرب أو الشمال أو الجنوب، وهو فوق كل شيء؟ نقول: كيف اجعلها فيما يمكن تكييفه، وصفات الله لا يمكن تكييفها، عليك أن تُسلِّم، ثم نقول: إن هذا ممكن، لو كانت الشمس عند الشروق أو عند الغروب واستقبلتَها كانت في جهة المشرق أو في جهة المغرب، وهي أين مكانها؟ في السماء، هذا في المخلوق فما بالك بالخالق المحيط بكل شيء، فالصواب: أن الله سبحانه وتعالى في جهة، وهي جهة العلو، لكنه عز وجل من اتجه إليه في أي مكان فالله تعالى قِبَل وجهه ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أما ذاته عز وجل، فإنه فوق كل شيء.

٤ ـ **من فوائدها:** إقرار المكذبين على أنفسهم بما هم عليه من التكذيب، لكن في وقت لا ينفعهم، لقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ يعني: إن كنت من الساخرين هذه تأكيد وإثبات أنه كان في الدنيا من الساخرين بشرع الله، المستهزئين به.

٥ ـ **ومن فوائدها:** تحريم السخرية بالله عز وجل، من كون هذا الساخر ندِمَ وتحسَّر على ذلك، ولولا أنه أُصِيب بعذاب عليه لم يندم، فإن قال قائل: ما حكم السخرية بالله؟ قلنا: حكمها الكفر، فمن سخر بالله، أو آياته، أو رسوله فإنه كافر، فإن قال قائل: هل تُكفِّرُونَهُ ولو كان يمزح؟ فالجواب: نعم، نُكفِّرُه ولو كان يمزح، لقول الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ يعني: ما قصدنا ﴿ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ فإن قيل: ما الدواء لمن ابتُلِيَ بهذا؛ أي: سخر بالله، أو آياته، أو رسوله، فما هو الدواء؟ قلنا: الدواء في هذه السورة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ الدواء: أن يتوب إلى الله، فإذا تاب إلى الله عز وجل وقلع من قلبه هذه السخرية والاستهزاء، وأثبت مكانها التعظيم والمحبة، فحينئذٍ يرتفع عنه حكم الكفر.



قال الله تعالى:

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزمر:٥٧].

التفسير

يعني: أو تقول نفس، وهذه معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾، أو تقول؛ أي:

النفس، ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ [بالطاعة فاهتديت] ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لو شرطية فعل الشرط فيها محذوف، وجواب الشرط فيها قوله تعالى: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وتقديره - أي: تقدير المحذوف وهو فعل الشرط -: لو ثبت أن الله هداني لكنتُ من المتقين، وهذا احتجاج بالقدر؛ يعني: لو أن الله هداني ووفَّقني فاهتديت لكنت من المتقين، فهي تندم وتحتج، جمعت بين الندم على عدم التقوى والهداية وبين الاحتجاج، كقول القائل: لو أعطيتَني أجرة لعملتُ لك، لو أطعمتَني لشبعت؛ يعني: فلم تُطعِمني ولم تعطني أجرة، فهم يقولون: لو أن الله هداني فاهتديت وكنت من المتقين، وعلى هذا فالمراد بالهداية هنا: هداية التوفيق، ويكون هذا احتجاجًا من النفس بقدر الله على الضلال - والعياذ بالله -.

وقوله: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ قال المؤلف: [عذابه]، وهذا مفعول المتقين؛ ولكن الصواب: أن نُقدِّر: لو كنت من المتقين الله؛ لأن الأصل هو تقوى الله عز وجل، وتقوى عذاب الله من تقوى الله، فينبغي أن نُقدِّر الأصل؛ أي: لكنت من المتقين الله، وما هي تقوى الله؟ الجواب: نعرف تقوى الله بمعرفة الأصل، أصل التقوى مأخوذة من الوقاية، فأصلها: وقوى بالواو، لكن قلبت الواو تاءً لعلة تصريفية، فإذا كانت من الوقاية فسَّرناها بأنها: اتخاذ ما يقِي من عذاب الله، ولا يقِي من عذاب الله إلا فعل أوامره، واجتناب نواهيه، ولهذا نقول: إن أجمع ما قيل في التقوى: إنها فعل الأوامر، واجتناب النواهي، وقيل: إن التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى عنه الله على نور من الله تخشى عقاب الله، وهذا المعنى أطول مما قلنا لكن ما قلنا مشتمل عليه، وقيل في التقوى:

خلِّ الذنوب صغيرها ... وكبيرها ذاك التقى
واعمل كماشٍ فوق أرض ... الشوكِ يحذر ما يرى
لا تحقِرنَّ صغيرةً ... إن الجبال من الحصى

وهذا أيضًا تعريف شيِّق؛ لأنه منظوم، خلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها، والذنوب إما فعل محرم أو ترك واجب، ذاك التقى، واعمل كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى، الذي يمشي على أرض الشوك يمشي بسرعة أو ببطء؟ الجواب: ببطء، لا تحقرن صغيرةً إن الجبال من الحصى، الجبال العظيمة الضخمة حصى متجمع، إما كتل صغار أو كبار.

وقوله: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أو تقول: معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ يعني: أو تقول النفس حين ترى العذاب، ترى العذاب بعينها، فيكون الموعود مشهودًا، تراه بالعين ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ والرؤية بالعين تعتبر عين اليقين، والوعد بالعذاب علم اليقين، ومسُّ العذاب حق اليقين، ولهذا قالوا: اليقين

ثلاثة: علم، وعين، وحق، وكلها في القرآن ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ مُشاهَدة، وقال تعالى في آخر الواقعة: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ الذي يكون عند الاحتضار حقُّ اليقين، أيُّها أعلى في اليقين؟ حق اليقين أعلى؛ لأن عين اليقين قد تشاهد الشيء على خلاف ما هو عليه، كما ترى ولاسيَّما إن كان نظرك ضعيفًا ترى الشيء الساكن مُتحرِّكًا، أو المتحرك ساكنًا، فعلى كل حال حق اليقين أعلاه، وهنا في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ ﴾ المراد: عين اليقين.

وقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ لو هنا ليست شرطية، ولكنها للتمني؛ يعني: ليت لي كرَّة.

ونستطرد فنقول: لو تأتي شرطية، وتأتي للتمني، وتأتي مصدرية، ثلاث معانٍ، فتأتي شرطية فيما إذا قلت: لو زرتني لأكرمتك، وعلامتها: أن يحل محلها إن الشرطية، لو زرتني لأكرمتك اجعل بدلها إن، إن زرتني أكرمتك، والثانية مصدرية هي التي تأتي غالبًا بعد ودَّ، كقوله تعالى: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ وعلامتها: أن يحل محلها أنْ المصدرية، لو وضعتَ بدلها أن، ودوا أن تدهن، وهل يصح أن تضع بدلها أن في القرآن؟ تقديرًا يصح ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ لو جعلتَ بدلها أنْ استقام الكلام، لكن لا يجوز في القرآن أن تجعل بدلها أنْ، لو قلت: وددتُ لو زرتني، صحيح؟ صحيح، لكن هنا إذا حوَّلتها إلى أنْ حوِّل الفعل إلى مضارع، وددت أن تزورني، الثالثة: التي للتمني، تكون بمعنى: أتمنَّى؛ يعني: يعين معناها السياق، فهنا ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ ﴾ ضع بدلها أتمنى، أتمنى أن يكون لي كرة فأكون من المؤمنين، ويدلك لهذا قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾ فصار معاني لو ثلاثة: شرطية ومصدرية وللتمني.

وقوله: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً ﴾ قال المفسر: [رجعة إلى الدنيا] ﴿ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يعني: يتمنَّى أن يكون له رجعة ليكون من المحسنين، وقوله: ﴿ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ولم يقل: من المتقين؛ لأن الإحسان درجة فوق التقوى، فكل مُحسِن متقٍ وليس كل متقٍ محسنًا، الإحسان درجة عالية قال فيه النبي ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، ولكن هذا التمني هل هذه النفس صادقة في أنها تتمنَّى لتكون من المحسنين؟ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ لكن عند العذاب ليس لها إلا أن تقول هذا، لو أن لي كرة فأكون من المحسنين، ثم قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾.



الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

١- **يستفاد منها:** احتجاج هذه النفس التي فرطت في جنب الله بقضاء الله وقدره، لقوله ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وهذا احتجاجٌ باطل، أبطله الله تعالى بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ إلخ.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات أن هؤلاء المكذبين يقرون بالله عز وجل، وبأن الأمر بيده، لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** أن التقوى سبب للنجاة من العذاب.

قال الله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

١- **فيها من الفوائد:** أن هؤلاء يتمنَّون الرجوع إلى الدنيا إذا رأوا العذاب.

٢- **ومن فوائدها:** أنهم يتمنَّون الرجوع ليكونوا من المحسنين، لا للتلذُّذ بالدنيا والتمتع بها، لقوله تعالى: ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وهذا يُشبِهُ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.



قال الله تعالى:

﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر:٥٩].

التفسير

قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ هذه حرف جواب، يُجاب بها النفي لإثباته، فإذا قال قائل: أين النفي في هذه الآية؟ قلنا: قول هذه النفس المكذبة: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ يتضمَّن أن الله لم يهدِها، فقال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ يعني: بلى قد جاءك ما فيه الهداية وهو بعث الرسل؛ لأن نفيها لو أن الله هداني يتضمَّن الهداية العلمية هداية الإرشاد، هداية الرشد الذي هو التوفيق، والخلاصة: أن قولها: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ يتضمن نفي هداية الله لها، أليس كذلك؟ الجواب: بلى، لو أن الله هداني لكنت، ولكنه لم يهدني، فلم أكن من المتقين، إذن هذا الكلام يتضمن نفي هذه الهداية، فقال الله مُبطِلًا هذا النفي: ﴿بَلَىٰ﴾ يعني: بلى قد هداك الله،

فالله قد هداها بما جاءت به الرسل، وهذه هداية الدلالة، بلى – أي: بلى قد هداك الله –.

وقوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَٰتِي﴾ قال المؤلف رحمه الله.

[أي: القرآن] هذا يُعتبر تخصيصًا للآية؛ لأن ما سبق ليس خاصًا بأمة النبي ﷺ حتى يقال: إن الآيات هي القرآن، ولكنه عامٌّ لجميع الأمم الذين يرون العذاب يوم القيامة، فإذا كان من هذه الأمة فالآيات التي جاءت هي القرآن، وإذا كان من قوم موسى فالآيات التوراة، وإذا كان من قوم عيسى فالآيات الإنجيل، وهلُمَّ جرًّا، والآيات جمع آية، وهي في اللغة: العلامة المُبيِّنة لمدلولها، وقد سمَّى الله سبحانه وتعالى ما جاءت به الرسل آيات؛ لأنه علامة على الرب عز وجل، ما يتضمَّنه من الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، وأنه لو اجتمع الخلق على أن يأتوا بمثل ما جاءت به الرسل من الشرائع ما قَدَروا على ذلك، وهذه آية؛ لأن ما يُقدَر عليه لا يُعتَبر آية، وقد استمر المتأخِّرون على تسمية الآيات بالمعجزات، وهذا فيه نظر، فإن المعجزات أعمُّ من الآيات؛ إذ أن المعجزة قد تكون من الساحر، وقد تكون من الكافر، وقد تكون من الكاهن، وقد تكون من المُشعوِذ، لكن الآية التي تُبيِّن الشيء وتُوضِّحه، لا تكون من هؤلاء، ولهذا ينبغي أن نقول: آيات الأنبياء بدل معجزات الأنبياء؛ لأن هذه أولًا هي الموافقة لما جاء في القرآن، فإن الله لم يُسَمِّ آيات الأنبياء معجزات، والثاني: لأن المُعجِزات: ما جاء مُعجِزًا من غير الأنبياء.

وقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَٰتِي﴾ أي: العلامات التي تدل على أن الله تعالى حق، [أي: القرآن]، قال: [وهو سبب الهداية] هو أي: ما جاءت به الرسل من الآيات سببُ الهداية، ولكن لمن؟ الجواب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أما من حقَّت عليه كلمة العذاب وعلِم الله أنه ليس أهلًا لها، فيقول الله فيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ – ٩٧].

وقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كذَّبتَ بها باعتبار الأخبار، واستكبرتَ باعتبار الأحكام؛ الأوامر والنواهي، ففي جانب الخبر مُكذِّب، وفي جانب الأمر والنهي مُستكبِر، ولهذا قال: ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ [تكبَّرتَ عن الإيمان بها]، ولو قيل: عن العمل بها ليكون التكذيب للأخبار، والاستكبار عن الأحكام، ولكن ما ذكره المؤلف لا بأس به.

وقوله: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: بسبب التكذيب والاستكبار من الكافرين الذين يستحِقُّون دخول النار بقيام الحجة عليهم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** تكذيب هؤلاء الذين قالوا: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، لقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** إبطالُ الاحتجاج بالقدر على معصية الله عز وجل، ووجهه: أن الله تعالى جعل إرسال الرسل حُجَّة، ولو كان القدر حُجَّة لصاحبه لم يبطل بإرسال الرسل، وعلى هذا فنقول: الاحتجاج بالقدر باطلٌ من جهة الشرع، ومن جهة النظر؛ أي: من جهة العقل، أما من جهة الشرع: أن الله تعالى أبطله في عدة آيات؛ منها: هذه الآية: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ﴾ لما قال: ﴿لو أن الله هداني لكنت من المتقين﴾، ومنها: قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾، قال الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ﴾ ولو كان الاحتجاج بالقدر نافعًا لهم ما ذاقوا بأسَ الله؛ إذ لا يذوق بأسَ الله إلا من لا حُجَّة له.

أما من حيث النظر: فإننا نقول للمُحتج بالقدر: ما الذي أعلَمَك أن الله كتب عليك أن تعصيه؟ هل يمكن أن يعلم بذلك قبل أن تقع المعصية؟ لا يمكن؛ إذ أن القدر سرٌّ مكتوم لا يُعلَم به إلا بعد وقوع المقدور، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ فإذا كنت لا تعلم به إلا بعد وقوع المقدور فتجعل لفعلك حُجَّة لم تعلَم بها إلا بعد وقوع الفعل؛ لأن الحُجَّة للفعل لابد أن تكون سابقة عليه، أما بعد أن يقع فإنه لا حُجَّة لك في القدر، ثانيًا: نقول: إنك ظلمتَ نفسك باختيار المعصية، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ فأنت الآن ظلمتَ نفسك واحتججتَ على ذلك بالقدر، فما ظنُّك لو أن أحدًا من الناس ظلمَكَ في مالك، أو عِرْضِك، وقال: إن هذا قدر الله، هل تقبلُ حُجَّته؟ الجواب: لا، لو أن أحدًا ضربَه، أو أخذ ماله، أو أساء إلى أهله، وقال: إن هذا قدر الله، فإنه لن يقبل من هذه الحجة، فإذا كان لا يقبل حجة من ظلمه، فلماذا يقبل حجته على نفسه بظلمه إياها؟ هذا عاقل أو منافٍ للعقل؟ منافٍ للعقل.

ويُذكَر أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه رُفِع إليه سارق، فأمر بقطع يده، فقال: يا أمير المؤمنين ! والله ما سرقت إلا بقدر الله، يريد أن يرفع عنه حدَّ السرقة، فقال أمير المؤمنين عمر: ونحن لا نقطعك إلا بقدر الله؛ لأنه إذا كان هو سرق بقدر الله، فنحن أيضًا نقطعه بقدر الله؛ بل نحن نقطعه بقدر الله وشرع الله، وهو سرق بقدر الله دون شرع الله، فكنا أقوى منه حُجَّة، ولكن أمير المؤمنين رضي الله عنه عَدَلَ عن ذكر الشرع اكتفاءً أو اقتصارًا بما احتج هذا السارق.

الوجه الثالث وهو الثاني في النظر: أن نقول لهذا الرجل: لو خُيِّرتَ بين بلدين؛ أحدهما: بلد آمن مطمئن يأتيه رزقه رغدًا من كل مكان، والثاني: بلد خائف وجوع ومرض، فهل تذهب إلى الثاني وتحتج بقدر الله، أو إلى الأول وتقول: إن الله أعطاني عقلًا ففضَّلتُ الأول؟ أيها؟ الثاني، يقول: إن الله أعطاني عقلًا ففضَّلتُ البلد الآمن، ولا يمكن أن يذهب إلى البلد الخائف ويقول: هذا بقضاء الله وقدره، لا يمكن أبدًا، لو ذهب إلى البلد الخائف باختياره، وقال: هذا بقضاء الله وقدره، لقال الناس: إن هذا الرجل مجنون؛ لأنه لا يمكن أن يختار مثل هذا البلد على البلد الأول، وبهذا تبيَّن بطلان من احتجَّ بالقضاء على معاصي الله، حتى من احتجَّ بالقضاء على ترك الأفضل هو أيضًا مخطئ، ويؤيِّد ذلك الوجه الأخير؛ حيث اختار البلد الآمن الذي يأتيه رزقه رغدًا من كل مكان.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء الذين أُصِيبوا بالعذاب أُصِيبوا بالجزاء العدل؛ وذلك لأنهم كذَّبوا بالآيات واستكبروا عنها، وهذا جزاؤهم؛ لأن هذا الجزاء الذي أُصِيبوا به ليس خافيًا عليهم ولا مكتومًا عنهم، الرسل جاءتهم بالأحكام، والأخبار، والترغيب، والترهيب، فقد دخلوا على بصيرة، فيكون جزاؤهم عدلًا لا جورًا؛ لأنهم علِمُوا ماذا يُلاقونه واستكبروا.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن التكذيب بآيات الله كفر، والاستكبار عن أحكام الله كفر، لقوله تعالى: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ولا شك أن المُكذِّب للخبر كافر، سواء كذَّبَ الخبر المُتواتر المقطوع به، أو كذَّب خبر الآحاد، فإنه يكون كافرًا، لكن تكذيب خبر الآحاد يُشترَط لتكفيره أن يقول: نعم، قال الرسول كذا ولكنه غير صحيح، أما لو قال: لم يقل الرسول كذا، وهو خبر آحاد، فهذا لا نحكم بكفره؛ لأنه يمكن أن يكون أنكره لعدم ثُبُوته عنده، لكن لو قال: أنا أقول: إن النبي ﷺ قال: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا وُضُوءَ لَهُ» ولكني أقول: هذا ليس بصحيح، فحكم هذا الكفر ولا شك؛ لأن هذا تكذيبٌ صريح للنبي ﷺ بعد أن عَلِمَ أن الرسول قاله؛ بل بعد أن أقرَّ هو بنفسه أن الرسول قاله، وعلى هذا فإذا قال لك قائل: هل يكفُر من كذَّب أخبار الآحاد؟ الجواب: نقول: إن قال: نعم قال النبي ﷺ كذا ولكن لا أقبله، وليس بصحيح، فهذا كافر ما فيه شك ولا توقُّف، أما إذا كذَّب دون أن يقول مثل ذلك، فإننا لا نُكفِّره؛ لماذا؟ الجواب: لاحتمال أن يكون تكذيبه لعدم ثبوت الخبر عنده وهي شبهة؛ لأن الحكم بالكفر ليس بالهيِّن، هو: إخراج الإنسان من الإسلام إلى الكفر.



قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

التفسير

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هذه ظرف تحتاج إلى مُتعلَّق؛ لأن كل ظرف أو جار ومجرور فلابد له من شيء يتعلَّق به؛ لأن الظرف والجار والمجرور لا يمكن أن يكون عامله معنويًا، لابد أن يكون عامله لفظيًّا، بخلاف غيرهما فإنه قد يكون عامله معنويًا، فيكون مبتدأ، لكن الظرف لا يكون مبتدأ، والجار والمجرور لا يكون مبتدأ، فلابد له من عامل لفظي، العامل اللفظي إما بالفعل، وإما ما كان بمعنى الفعل، كاسم الفاعل واسم المفعول، وعلى هذا يقول «ناظم الجُمَل»:

لابد للجار من التعلُّق   بفعلٍ أو معناه نحو مرتقِي
واستثنِ كلَّ زائدٍ له عمل   كالبا ومِنْ والكاف أيضًا ولعل

وقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ﴾ يوم هذه ظرف، إذن لها مُتعلَّق، فأين مُتعلَّقها؟ الجواب: مُتعلَّقها الفعل الذي بعده ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ يعني: وترى الذين كذبوا على الله يوم القيامة وجوههم مسودة، ولكن قدَّم المعمول للأهمية؛ لأن المهم التحدث عن هذا اليوم.

وقوله تعالى: ﴿تَرَى الَّذِينَ﴾ الخطاب لكل من يصح خطابه، فيعمُّ الرسول عليه الصلاة والسلام وغيره ممن يصح توجيه الخطاب إليهم، والرؤية هنا رؤية بصرية؛ لأن السواد لون، والرؤية باللون هي رؤية بصرية؛ لأن الألوان تُرى ولا تُعقَل؛ يعني: تُدرَك بالرؤية لا بالعقل.

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ كذبوا على الله بماذا؟ الجواب: بكل أنواع الكذب، كل من كذب على الله فإن وجهه سيكون مسودًّا يوم القيامة، وذلك بنسبة الشريك له، كما قال المؤلف، بنسبة الولد له كما قال المؤلف أيضًا، بنسبة الجَوْر له، بنسبة الظلم، بأي شيء يُكذَب على الله، فإن الذين يكذبون على الله ستكون وجوههم يوم القيامة مُسوَدَّة، حتى لو كانوا في الدنيا بيضًا فإنهم يأتون يوم القيامة وجوههم مسودة - والعياذ بالله -.

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ ولم يقل: ترى وجوه الذين كذبوا على الله مُسودَّة؛ لأن التركيب المذكور في القرآن أبلغ في الإثبات؛ حيث جعل هذا الوصف - أعني: سواد وجوههم - هو من الجملة الاسمية، فإن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار،

بخلاف الجملة الفعلية فإنها تفيد التجدُّد والحدوث.

وقوله: ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ ترى نفس الإنسان وجهه مسود، لكن لو قال: ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة لم تحصل هذه الفائدة، إذن هذا التركيب الذي في الآية الكريمة يفيد معنىً أكثر مما لو كان على التركيب الذي ذكرته لكم؛ لأن هذا التركيب القرآني يدل على أن هذا الاسوداد في وجوههم ثابت مستقر؛ حيث جاء بالجملة الاسمية، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الاستفهام هنا للتقرير، ويقول العلماء: كلما جاءت أداة النفي بعد الاستفهام فإنه للتقرير ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾، ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ والأمثلة في هذا كثيرة، فالاستفهام إذن في هذه الآية: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾؟ الجواب: بلى، استفهام تقرير.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ﴾ جهنم اسم من أسماء النار - أعاذني الله وإياكم منها -، وهو اسمٌ أعجمي، أو هو اسم عربي على وزن فعنلل؟ في ذلك قولان: منهم من قال: إنه اسم مُعرَّب، وأصله في الفارسية: جهنَّام، فعُرِّب فآل إلى جهنم، وقيل: بل هو اسم عربي، والنون زائدة، وهو مُشتقٌّ من الجُهْمة، وهي: الظلمة؛ لأن النار - والعياذ بالله - سوداء مظلمة، وإذا دار الأمر بين أن تكون الكلمة أصيلة أو دخيلة، فالأصل أنها أصيلة؛ لأن القرآن عربي، وأيضًا إذا حكمنا بأن الأصل عربي جعلنا اللغة العربية غنيَّة عن غيرها، وإذا جعلنا أصلها فارسي، أو حبشي، أو غير ذلك ولكنه عُرِّب، فهذا يعني: أن اللغة العربية افتقرت إلى هذه الكلمة، فعرَّبتها وأثبتَتْها، فالمثوى والمأوى بمعنى واحد، والمراد بالمثوى والمأوى: المقر والمسكن.

قال: ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [عن الإيمان] وعن الأعمال أيضًا، كل متكبر - والعياذ بالله - فهو من أصحاب النار، قال المُفسِّر: [بلى] هذه جواب: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، وإذا جاءت مثل هذه الصيغة في القرآن فجوابها: بلى، فإذا قرأت: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ فالجواب: بلى، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾، ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ بلى، وهكذا.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** إثبات يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ويوم القيامة: هو يوم قيام الساعة، وسُمِّي بذلك؛ لأن الناس يقومون

من قبورهم لرب العالمين؛ ولأنه يُقامُ فيه العدل، ولأن الأشهاد يقومون فيه، لقوله: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، ولقوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾، ولقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ فهذا سببُ تسمية يوم القيامة.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** سوءُ عاقبة الكاذبين على الله، لقوله: ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** تحريم الكذب على الله، وذلك من العقوبة، ولا يُستفاد التحريم من صيغة الزجر فقط؛ بل يُستفاد التحريم من صيغة النهي، والقدح في فاعله، وبيان عقوبة فاعله، وما أشبه ذلك، المهم: أن وسائل العلم بالتحريم متعددة.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** التحذير من الفُتْيا بغير علم، فقد بيَّن الله ذلك في قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أن النار مظلمة، لقوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ ﴾.

٦ - **ومن فوائدها:** أن الكاذبين على الله مقرُّهم النار، لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** تحريمُ الكِبْر، لقوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ تكبُّر عن الحق، تكبُّر على الخلق، ويدل لهذا التنويع: أن النبي ﷺ قال: «الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»، فقوله: «بَطَرُ الحقِّ» تكبُّرٌ عن الحق، «وَغَمْطُ النَّاسِ» تكبُّر على الخلق، وأيهما أعظم؟ الأول: التكبُّر عن الحق؛ لأن الثاني داخلٌ فيه، فإن التكبُّر على الخلق تكبُّرٌ عن الحق؛ إذ إن الحق يأمرك أن تكون متواضعًا للحق وللخلق.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تحريم التكبُّر؛ لأن عقوبة المتكبرين دخول النار؛ بل إذا كان التكبُّر تكبرًا مطلقًا فإن عقوبته: السكنى في النار، والخلود في النار، أما من تكبَّر مطلق التكبُّر فهذا لا يُحكَم له بالخلود في النار؛ لأنه قد يتكبَّر عن بعض الحق، أو يتكبَّر على الخلق، فلا يستحق الخلود فيها، والله أعلم.



قال الله تعالى:

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١].

التفسير

لما ذكر الله سبحانه وتعالى عقابَ الذين كذبوا على الله بيَّن ثواب الذين اتقوا الله عز وجل، وهذا دَأْبُ القرآن الكريم؛ أنه إذا ذكر الشيء ذكر مُقابِلَه، وهو من معنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ قال العلماء: ﴿مَّثَانِىَ﴾ أي: تُثَنَّى فيه المعاني، فإذا جاء وصف المؤمنين جاء وصف الكافرين، وإذا جاء ثواب المؤمنين جاء ثواب الكافرين، وكذلك بالعكس، وذلك من أجل ألَّا يستغرق الإنسان في جانب الرجاء إذا ذُكِر وصف المؤمنين وثوابهم، وكذلك لا ييأس إذا ذُكِر وصف الكافرين وعقابهم.

هنا يقول الله عز وجل ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ من أي شيء؟ الجواب: من عقاب الكافرين، فلا تكون وجوههم مسودَّة، ولا يكون مثواهم جهنم، وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى في آياتٍ أخرى أن يوم القيامة تبيضُّ وجوه وتسودُّ وجوه، تسودُّ وجوه الكافرين، وتبيضُّ وجوه المؤمنين، فيُنجِّي الله الذين اتقوا من عقاب الكافرين في هذا وفي هذا.

وقول المؤلف: [﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ﴾ من جهنم] صحيح، لكن لو قال: من عقاب الكافرين لكان أعمَّ، ليشمل النجاة نجاتهم من جهنم، ومن أن تكون وجوههم مسودة، ومن غير ذلك.

قال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ [الشرك]، والصواب: أن يقال في هذا: اتقوا الله؛ لأن التقوى عند الإطلاق إنما يراد بها: تقوى الله عز وجل، وقد تُذكَر في غير الله؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ وأشباه ذلك، لكن عند الإطلاق لا يراد بها إلا تقوى الله عز وجل.

وقوله: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ [أي: بمكان فوزهم من الجنة بأن يُجعَلوا فيه] فأفادنا رحمه الله بهذا التفسير أن الباء بمعنى: في؛ أي: يُنجِّي الله الذين اتقوا من العذاب في مكان فوزهم، وهو: الجنة، والباء تأتي بمعنى: في في اللغة العربية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالليل يعني: في الليل.

وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا من نجاتهم، أنه لا يمسهم السوء؛ أي: لا

يمسهم شيء يسوؤهم لا من عقاب، ولا من توبيخ، ولا غير ذلك، ولهذا إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقال: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويقال: إن لكم أن تنعموا، وإن لكم أن تصحُّوا، وإن لكم أن تحيَوا؛ يعني: فلا تموتوا، ولا تسقموا، ولا تبأسوا، دائمًا هم في نعيم، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا يحزنون على ما سبق؛ لأن الحزن يكون على ما مضى، والغم يكون للمستقبل، أما المستقبل فقال: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾، وأما الماضي فقال: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا يحزنون على ما مضى؛ لأنهم لم يُفرِّطوا فيه؛ بل عرفوا قدر الزمن، وعملوا فيه ما نجوا به من عذاب الله عز وجل.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** فضل الله سبحانه وتعالى على المتقين؛ حيث يُنجِّيهم إلى مكان فوزهم.

٢ - **ومنها:** فضيلة التقوى، وآثارها، وثمراتها، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم من ثمراتها شيئًا كثيرًا.

٣ - **ومن فوائدها:** أن هؤلاء الناجين لا يمسُّهم سوءٌ في المستقبل، ولا يحزنون على شيء مضى، وبذلك يتمُّ نعيمهم؛ لأن النعيم ينقص إذا أصاب الإنسان همٌّ أو غمٌّ للمستقبل، وينقص أيضًا إذا أصابه حزنٌ على الماضي، أما إذا عرف أنه كسب الماضي، وأنه لن يناله سوء في المستقبل فسوف يتمُّ له النعيم.



قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

التفسير

قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الجملة هذه اسمية تفيد الثبوت والاستمرار، وأن الله تعالى دائمًا وأبدًا هو الخالق، وقوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ معناه: مُوجِدُه على الصورة التي أرادها الله عز وجل، والخلق في الأصل بمعنى: التقدير، ولكنه يُطلَق على الإيجاد المقرون بالتقدير والتسوية، والإحكام والنظام، فهنا الخلق يراد به: الإيجاد على وجه كامل بتقديره بتسويته وتنظيمه.

وقوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال بعض الناس: يُستثنَى من ذلك نفسه، ولكن هذا ليس بصواب؛ لأنه من المعلوم أن الفاعل ليس المفعول، وحينئذٍ لا يحتاج إلى استثناء، الاستثناء يحتاج

في جملة يكون فيها المُستثنَى داخلًا فيها؛ أما هنا فلا يمكن أن يكون داخلًا فيها، لماذا؟ الجواب: لأن الفاعل غير المفعول، فالخالق غير المخلوق، ولا يمكن أن يوجد مخلوقٌ ويوجِد بعده خالقه مثلًا، حتى نقول: إن الجملة تحتاج إلى استثناء.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ وهو؛ يعني: الله عز وجل ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ قال المفسر: [مُتصرِّفٌ فيه كيف يشاء]، ولو قال: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حفيظٌ عليه مُدبِّر له لكان أعم؛ لأن الوكيل في اللغة: هو الذي وُكِلَ إليه الشيء حفظًا وتدبيرًا، والله عز وجل على كل شيء وكيل حفظًا وتدبيرًا، وهنا لا يقال: كيف كان وكيلًا، ومن الذي وكَّلَه؟ نقول: إذا كان الوكيل بمعنى: الحفيظ المدبر، فلا حاجة إلى استحقاقه؛ بل هو الذي تولى ذلك بنفسه.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية** عموم خلق الله تعالى لكل شيء، لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

٢ - **ومنها:** الرد على القدرية الذين قالوا: إن الإنسان خالقٌ أفعالَه، ووجه ذلك: أن أفعال العباد داخلة في العموم، فهي شيءٌ من الأشياء، فتكون داخلة في العموم.

٣ - **ومنها:** أن الله خالقٌ للأعيان والأوصاف؛ لأن الأعيان شيء، تُسمَّى شيئًا، والأوصاف تسمى أيضًا شيئًا.

٤ - **ومن فوائدها:** عناية الله سبحانه وتعالى بما خلق؛ لأنه لما ذكر أنه خلق كل شيء بيَّن أنه على كل شيء وكيل، وهذا يدلُّ على عناية الله بخلقه تبارك وتعالى.

٥ - **ومنها:** أن ما يُصيب الناس من البلاء والفتن فإنه من الله، ومن مقتضى وكالته، لعموم قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، ومعلوم أن الإنسان إذا آمن هذا الإيمان فإنه سيسهُل عليه كل ما صعب، وإذا آمن أيضًا أنه بالصبر والاحتساب تنقلب هذه المصائب نعمًا هانت عليه أيضًا، ولهذا لا نجد أحدًا أعظم راحة ممن آمن بالقدر خيره وشره، فإنك تجد الإنسان وإن تقلَّبَت به الأحوال تجده راضيًا مطمئنًا، إن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له.



قال الله تعالى:

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الزمر:٦٣].

التفسير

قوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [أي: مفاتيح خزائنهما من المطر والنبات وغيرهما]، ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ﴾ المقاليد: جمع مقلاد، وهو ما يُقلَّد به الشيء، والمؤلف جعل المقاليد هنا بمعنى: المفاتيح، ولو أنه قال: له مقاليد السماوات والأرض؛ أي: تدبير السماوات والأرض لكان أَولَى؛ لأن كلمة مفاتيح قد يظنُّ الظانُّ أنه يملك المفاتيح دون التدبير، ولكن الأمر ليس كذلك، فهو بيده مقاليدُ السماوات والأرض؛ أي: تدابيرهما كما يشاء.

ثم قال عز وجل ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مبتدأ، وجملة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ خبرها، وعلى هذا فتكون هذه الجملة تتضمَّن جملتين: كبرى وصغرى، الكبرى هي المكونة من المبتدأ والخبر، والصغرى هي التي وقعت خبرًا، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مبتدأ، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ آخر، ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ خبر المبتدأ آخر، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره.

خبر المبتدأ الأول، وفائدة الإتيان بهذا التركيب: أنه أُسنِدَت الجملة الثانية إلى الأولى حتى صارت الجملة جملتين في المعنى.

أما قوله: ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فـ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل لا محل له من الإعراب، وفائدته أولًا: التوكيد، والثاني: الحصر، والثالث: التمييز، وإن شئت قل: الفصل بين كون ما بعده خبرًا أو وصفًا، فإنك إذا قلت: زيدٌ هو الفاضل، فإن كلمة الفاضل تحتمل أن تكون خبرًا، أو أن تكون صفة إذا حذفت هو، إذا قلت: زيد الفاضل، فربما يترقَّب الإنسان كلمة أخرى تتم بها الجملة، ويعتقد أن الفاضل صفة، فإذا قلت: هو الفاضل زال هذا التوقُّع، وعلم أن ما بعده هو خبر مبتدأ.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [القرآن]، وهذا فيه شيءٌ من القصور؛ لأن آيات الله عز وجل في القرآن وفي غير القرآن، ثم الآيات كونية وشرعية، والكفر يكون بهما جميعًا؛ أي: بالآيات الكونية والآيات الشرعية، ويكون بالقرآن وبالتوارة وبالإنجيل وبغيرها من الكتب

التي أنزلها الله عز وجل، فالأَولَى العموم؛ أن يقال: كفروا بآيات الله الكونية والشرعية، القرآن وغير القرآن، وأصل الكفر: الجَحْد، ومنه الكُفُرَّى الذي هو وعاء طلع النخلة؛ لأنه يستر الطلع ولا يتبيَّن، والكافر جاحدٌ ساترٌ لحق الله عز وجل ولنعم الله عز وجل، وكفرهم بآيات الله يكون تارة بالتكذيب، وتارة بالاستكبار، ففي مقابل الأخبار يكون بالتكذيب، وفي مقابل الأمر والنهي يكون بالاستكبار.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أولاء اسم إشارة، وهنا المشار إليه بعيد أو قريب؟ المشار إليه بعيد؛ لأن الكاف لا تأتي إلا إذا كان المشار إليه بعيدًا، فإنها تأتي الكاف لتنبيه المخاطب إلى المشار إليه لبُعْده، أما إذا كان المشار إليه قريبًا فإنه لا يؤتى بالكاف؛ بل يقال: أولاء مثل هؤلاء، ويقال: هذا، لكن إذا كان بعيدًا فإنه يؤتى بالكاف؛ لماذا؟ لتنبيه المُخاطَب إلى المشار إليه؛ لأنه لا شك أن الإنسان إذا خُوطِب كان ذلك أبلغ في تنبيهه، أولئك إذا قلت الكاف سينتبه، وينظر من هذا المشار إليه، فإذا كان لا يكون إلا البعيد، فالبُعْد إما علو، أو سُفل، وإما حِسِّي وإما معنوي، فالأقسام إذن أربعة، فما هو القسم الذي ينطبِق على الذين كفروا هنا؟ البعيد سُفولًا، معنوي أو حسي؟ الجواب: معنوي؛ وفي النار حسي، لكن في الدنيا معنوي؛ لأنه قد يكون كافرًا وهو في قمة الجبل، إذن الكفر قلنا: إنه يتضمن شيئين: إما الجحود، وإما الاستكبار.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ هم لا غيرهم، الخاسرون الذين خسروا الدنيا والآخرة، أما خُسْران الآخرة فظاهر، وأما خُسْران الدنيا فإنهم إنما خُلِقوا لعبادة الله، وهل قاموا بعبادة الله؟ لا، إذن خَسِروها أو لا؟ خَسِروا المعنى الذي من أجله خُلِقوا، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ قال المُفسِّر: [مُتصل بقوله: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ وما بينهما اعتراض]، متصل يعني: معنىً بقوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ هذا ما ذهب إليه رحمه الله، ولكن هذا قد يُنازَع، قد يقال: إن قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ هو المتصل بما قبله، قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ الصواب: أن يُنجِّي متصل بما قبله، لما ذكر الذين كذبوا على الله أن وجوههم مسودة، قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ أما هذا فليس له صلة بما ذُكِر؛ بل صِلَتُه بما قبله مباشرة أبيَن وأظهر؛ لأن الله قال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: فبعد هذا البيان وبعد الإقرار إقرار الكفار بأن الله خالق كل شيء لا

يبقى لهم عُذْرٌ إذا كفروا؛ بل هم الخاسرون، فتكون هذه الآية متصلة بما قبلها مباشرة، وليست متصلة بقوله تعالى: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ لأن هذه الآية: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ﴾ متصلة بما قبلها، وهذا هو مقتضى النظم القرآني، أما أن نُشتِّت الآيات ونقول: كل هذه الجملة: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ كل هذا جملة اعتراضية، أو كل هذا اعتراضٌ لا محل له هنا، فلا شك أن هذا خلاف ما يقتضيه النظم والسياق القرآني، فالصواب: أن هذه الجملة متصلة بما قبلها، ووجه الاتصال: وأنه خالق لكل شيء، وهم يقرون به، فصار هؤلاء الذين يقرون بأن الله خالق كل شيء، وأن له مقاليد السماوات والأرض، وكفروا به، يكونون خاسرين لا شك، هم أخسر الناس، كيف يقرون بأن الله خالق كل شيء، وأن لها مقاليد السماوات والأرض، ثم يكفرون بآياته، كان مقتضى هذا الإقرار أن يؤمنوا بآياته، ولكنهم خسروا، فكفروا بآيات الله.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الزمر:٦٣].

١ - **من فوائد هذه الآية:** أن المُدبِّر للسماوات والأرض هو الله وحده، ووجه كونه وحده: أنه قدَّم الخبر في قوله: ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ﴾ وتقديم الخبر يفيد الحصر.

٢ - **ومن فوائدها:** لفتُ نظر الإنسان إلى ألَّا يستعين إلا بالله، ولا يسأل إلا الله، ولا يتوكَّل إلا على الله، وجه ذلك: أنه هو الذي له مقاليد السماوات والأرض، فإذن لا تلفت إلى غيره، كما قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ».

٣ - **ومن فوائدها:** أن الكافرين هم الخاسرون وإن كانوا في الدنيا قد ربحوا الجولة، فإنهم خاسرون دنيا وأخرى، لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** وجوب الإيمان بآيات الله، ووجه الدلالة: أنه إذا كان الوعيد على من كفر بها دلَّ ذلك على وجوب الإيمان.

٥ - **ومنها:** تحريم الكفر لكونه سببًا للخسارة، فإذا قال قائل: أين في الآية لفظ يحرُم؟ قلنا: التحريم يُستفاد بعدة طرق؛ منها: النهي، مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾، ومنها: التصريح بالتحريم؛ مثل: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ ﴾، ومنها: نفي الحِلّ؛ مثل: قوله: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ ﴾، ومنها: الوعيد على الشيء، ومنها: بيان فوات الخير، وطرق إفادة التحريم متعددة، لكن من جملتها: ترتيب الخسران على فعل الشيء يدلُّ على أنه حرام.

٦ - **ومن فوائدها:** ربح الذين آمنوا وأنهم هم الرابحون، وذلك من مفهوم خسارة الكافرين

أن يكون الربح للمؤمنين، وقد صرَّح الله بذلك في قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.



❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الآية: ٦٤].

❁ التفسير ❁

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ الهمزة للاستفهام، والفاء حرف عطف، وهنا يُشكِل علينا على هذا الإعراب ما اشتهر من أن همزة الاستفهام لها الصدارة، وهنا قال: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾، فإذا كان لها الصدارة فكيف تأتي الفاء بعدها الدالة على أن الجملة معطوفة؟ فالجواب: أن في ذلك لعلماء النحو وجهين: الوجه الأول: أن الهمزة للاستفهام، وأنها داخلة على جملةٍ معطوفٍ عليها، وتُقدَّر هذه الجملة بما يُناسِب السياق، وعلى هذا فيكون التقدير في هذه الآية: قل أتجهلون فغير الله تأمروني أعبُد أيها الجاهلون، ويُقدَّر في كل موضع ما يناسبه، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التقدير: أغفلوا فلم يسيروا في الأرض، وقيل: إن الهمزة للاستفهام، وأن الفاء مزحلقة عن مكانها، والتقدير: فأغير الله، فتكون هذه الجملة معطوفة على ما سبق، ولكن المعنى الأول إذا تيسَّر وأمكن أن يُقدَّر شيء مناسب فإنه أولى.

يقول المؤلف في إعرابه: [(غير) منصوب بـ ﴿أَعْبُدُ﴾ المعمول ﴿تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ بتقدير أن بنون واحدة وبنونين، بإدغام وفك] هذا على قوله: ﴿تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾، يقول المؤلف في الإعراب: إن (غير) منصوبة بـ ﴿أَعْبُدُ﴾، والتقدير: أأعبد غير الله، هذا معنى الآية.

وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ فيها قراءات، أولًا: قراءتها بنون واحدة: تأمرونِي، ثانيًا: قراءتها بنونين بإدغام: تأمرونِّي، ثالثًا: قراءتها بنونين بدون إدغام: تأمرونَنِي.

وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ يعني: أتأمرونني أعبد غير الله ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي: الجاهلون بحقيقة ما يجب لله عز وجل وبحقيقة عبادة الأصنام، ويحتمل المعنى المراد بقوله الجاهلون: أي: السفهاء؛ لأن الجهل تارة يراد به: السفه، وتارة يراد به: عدم العلم، وإذا كان المراد به: السفه فإنه يسمى: جهالة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾.

وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ يشمل كل ما سوى الله؛ من حي وميت، وصالح وفاسد،

وجماد وحيوان، ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أيُّ منادى، والجاهلون وصفٌ لأيُّ ولهذا جاءت مرفوعة، والاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار، بدليل قوله: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** جهالة أولئك الذين يأمرون بعبادة الأصنام.

٢ - **ومنها:** أن هؤلاء الجاهلين حاولوا أن الرسول نفسه أن يعبد الأصنام مع أنه إنما جاء بتوحيد الله عز وجل وحده.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن الرب عز وجل عبادته علم، وعبادته رشد؛ لأنه إذا كانت عبادة غيره جهلًا فعبادته علم ورشد.

٤ - **ومن فوائدها:** أنه إذا كان المشركون يحاولون أن يشرك النبي ﷺ، فما بالنا بمن جاءوا بعد هؤلاء المشركين، إنهم سوف يحاولون أن نشرك أكثر من محاولتهم إشراك النبي ﷺ.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: الحذر من دعاة الشرك والكفر؛ مثل: دعاة النصرانية اليوم، فإن النصارى - عليهم لعنة الله إلى يوم القيامة - يحاولون بكل ما يستطيعون أن يُضلِّلوا المسلمين، وأن يُنصِّروهم، وإذا عجزوا عن ذلك، فعلى الأقل أن يخرجوهم من دينهم، وإن لم يدخلوا في النصرانية، وهذا الآن واضح، فتجدهم يُنشِئون الإذاعات القوية الواضحة من أجل دعوة المسلمين إلى النصرانية، وتجدهم يكتبون الكتابات الكثيرة، من رسائل وكتب أكبر يبثُّونها بين المسلمين، وتجدهم أيضًا يكتبون الإنجيل كتابةً ككتابةِ المصحف تمامًا مُفسَّرًا مُعْرَبًا مُشَكَّلًا، حتى يظنَّه العامي من الناس الذي لا يعرف شيئًا عن القرآن يظنَّه هو القرآن، وتجدهم أيضًا يذهبون إلى البلاد الفقيرة العاجزة، ويُنشِئون فيها المدارس، والمرافق، ثم الكنائس، من أجل جذب المسلمين، فالمهم: أن أعداء المسلمين لا يألون جهدًا في إخراج المسلمين عن دينهم إلى ملتهم التي كانوا عليها، والله أعلم.



قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** أن الشرك مُحبطٌ للعمل ولو وقع من أفضل الخلق، لقوله: ﴿لَئِنْ

أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أن هذا الحكم ثابت في جميع الشرائع، لقوله: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** عِظَمُ الشرك، وأنه أفسد أنواع المعاصي، ولهذا يُحبِطُ العمل كله.

٤ - **ومن فوائدها:** إثبات الوحي للرسول ﷺ، ولمن سبقه من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٥ - **ومن فوائدها:** أن الشرك سببٌ للخسران في الدنيا والآخرة، لقوله: ﴿ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

٦ - **ومن فوائدها:** أن الكفار وإن رَبِحوا في الدنيا، فإنهم في الحقيقة خاسرون في الدنيا والآخرة؛ لأنهم لم ينتفعوا في الدنيا بما خُلِقوا له، فلذلك كانوا خاسرين، وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾.



قال الله تعالى:

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٦].

التفسير

﴿ بَلِ ﴾ هذه للإضراب، إضراب الإبطال أو الانتقال؟ إضراب الإبطال؛ لأن الإضراب عندهم نوعان: نوعٌ يراد به: إبطال ما سبق وإثبات ما لحق، ونوع يراد به: الانتقال من شيء إلى آخر، مثال الأول: هذه الآية، ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ فهنا انتقالاتٌ من سيء إلى أسوأ، ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ ﴾ أي: بَعُدَ علمهم في الآخرة، ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾، وهنا يقول الله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ هذا إضراب إبطال لما سبق من الشرك؛ يعني: بل دعِ الشرك فإنه باطل واعبُد الله.

وقوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ قال المؤلف: [وحده]، فمن أين أخذ هذه الوحدانية المفيدة للحصر؟ الجواب: أخذها من تقديم المعمول، والقاعدة في البلاغة: أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر والاختصاص، ومعلوم أن المفعول به حقُّه التأخير، فإذا قُدِّم على عامله أفاد الاختصاص والحصر؛ أي: بل الله وحده.

وقوله: ﴿ فَٱعْبُدْ ﴾ الفاء يقولون: إنها جيء بها لتحسين اللفظ، ولو حُذِفَت في غير القرآن

لاستقام الكلام، لكنها في القرآن لا تُحذَف؛ لأنه نزل من عند الله ولا يمكن تغييره، إنما التعبير بمثل ذلك يُسمُّون هذه الفاء: فاء التزيين، ولها نظير؛ مثل قولهم: عندي كذا وكذا فقط؛ أي: قط، والفاء لتحسين اللفظ.

وقوله: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ ﴾ اعبد فعل أمر؛ أي: تذلَّل لله، واعلم أن العبادة تُطلَق على معنيين: المعنى الأول: التعبُّد، والمعنى الثاني: المُتعبَّد به، أما التعبُّد فمعناه: التذلُّل لله تعالى محبةً وتعظيمًا بالقيام بأوامره، واجتناب نواهيه، فإذا رأينا شخصًا يصلي مثلًا قلنا: هذا يتعبَّد؛ أي: يتذلَّل لله تعالى بإقام الصلاة، وتُطلَّق على المتعبد به؛ أي: على نفس المفعول، وعرَّفها شيخ الإسلام على هذا المعنى بقوله: العبادة اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وعلى هذا فالصلاة نفسها نُسمِّيها: عبادة، والصدقة عبادة، والصوم عبادة، والحج عبادة، وبر الوالدين عبادة، والإحسان إلى الفقراء عبادة، وهكذا، فقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡ﴾ أي: تذلَّل له بفعل عبادته، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [إنعامه عليك]، كن فعل أمر، ومن الشاكرين أي: من الذين يشكرون الله، واعلم أن (ال) إذا اتصلت بمشتق فإنها تكون اسمًا موصولًا من الأسماء الموصولة العامة، فهي بمنزلة مَنْ، وبمنزلة ما، إذا اتصلت بمشتق؛ مثل: الشاكر، والمشكور، والأحسن، وما أشبهها، وعلى هذا يكون قوله: ﴿ مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ مفيدة للعموم؛ أي: من القائمين بشكر الله، فإن قيل: ما هو الشكر؟ قيل: إن الشكر هو القيام بطاعة المُنعِم عقيدةً وقولًا وفعلًا، ولهذا قال الشاعر:

أفـــادَتْكُـمُ النعماءُ منِّي ثلاثـــةً يدِي ولســاني والضَّمِيرَ المُحجَّبا

يعني: أنكم ملكتم بإنعامكم عليَّ قلبي ولساني وجوارحي، فإن قال قائل: هل الشكر هو الحمد أو غيره؟ قلنا: بينهما عمومٌ وخصوصٌ، يجتمعان فيما إذا كانا في مقابلة نعمة، فإن الحمد هو الشكر؛ لأنه ثناءٌ على الله باللسان، فإذا أكل الإنسان أو شرب فقال: الحمد لله، كان بذلك شاكرًا وحامدًا، وينفردُ الحمد بوصف الله تعالى بالكمال دون مقابلة نعمة، فإذا أثنَيتَ على الله بأنه الحي العظيم، وما أشبه ذلك فهو حمد وليس شكرًا؛ لأنه ليس في مقابل نعمة، لكن ربما نعتبره شكرًا باعتبار أنه عبادة، والقيام بطاعة المُنعِم من الشكر، وإذا أثنيت على الله عز وجل؛ بل وإذا قمت بطاعة الله عز وجل جزاءً على نعمته ولم يكن في ذهنك وصفه بالكمال صار ذلك شكرًا له، وعلى كل حال، قد يعسُر انفراد أحدهما عن الآخر؛ وذلك لأن الثناء نفسه وإن لم يكن في مقابلة نعمة يعتبر شكرًا؛ لأنه قيام بطاعة المُنعِم.



قال الله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

التفسير

ما نافية، و﴿قَدَرُواْ﴾ بمعنى: عظَّموا، ولفظ الجلالة مفعول لـ (قَدَر)، و﴿حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ مفعول مطلق؛ لأنه أُضِيف إلى المصدر، والمُضاف إلى المصدر يُسمَّى: مفعولًا مطلقًا؛ لأنه بمنزلة المصدر، وعلى هذا فنقول: ﴿حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي: حقَّ تعظيمه، قال المفسر: [ما عَرَفوه حق معرفته، أو ما عظَّموه حق عظمته حين أشركوا به غيره]، الصواب: الثاني؛ أن المعنى: ما عظَّموه حق عظمته حين أشركوا به غيره، ودليل ذلك: أن هؤلاء عرفوا الله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، لكن هل عظَّموا من عرفوه حق تعظيمه؟ لا؛ لأن من عظَّم الله حق تعظيمه لا يمكن أن يشرك به أحدًا.

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الواو للحال، ويجوز أن تكون استئنافية لبيان عظمة الله، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾ مبتدأ، و﴿جَمِيعًا﴾ حال، و﴿قَبْضَتُهُۥ﴾ خبر المبتدأ؛ يعني: أن الأرض كلها جميعها كل الأراضين السبع تكون يوم القيامة قبضته.

قال المُفسِّر: [﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا﴾ حال؛ أي: السبع]، جميعًا حال من أين؟ حال من الأرض، وبهذا نعرف أنه يجوز مجيء الحال من المبتدأ قبل الإتيان بالخبر، فتقول مثلًا: زيدٌ قائمًا خيرٌ منه قاعدًا.

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ [أي: مقبوضة له؛ أي: في مُلكِه وتصرُّفه]، ففسَّر المؤلف القبض بمعنى: المُلك والتصرُّف، وفي هذا نظرٌ ظاهر؛ بل هذا تحريف؛ لأن الملك والتصرُّف كل شيء في مُلكِه وتصرُّفه، الأرض والسماء يوم القيامة وقبل يوم القيامة، لكن القبضة بمعنى: المقبوضة التي تكون في اليد تحيط بها اليد، فيقال مثلًا: قبضة من طعام، ما معنى: قبضة من طعام؟ يعني: أن الإنسان يقبض الطعام بيده، فالأرض يوم القيامة قبضة الله عز وجل، وقد جاء ذلك مُبيَّنًا في حديث عبد الله بن مسعود في قصة النبي ﷺ مع حبر من أحبار اليهود أن الله يجعل الأرض على إصبع، والشجر على إصبع، والجبال على إصبع .. إلخ، فالصواب المُتعيَّن: أن يقال: المراد بالقبضة: أنها في قبضة يده عز وجل.

فإن قال قائل: وهل يجوز لنا أن نُمثِّل هذه القبضة؛ بحيث نأخذ تمرة أو تفاحة ونضعها في أيدينا ونقول: قبضته، ثم نقبض على التفاحة أو التمرة؟ الجواب: لا؛ لأننا لو فعلنا ذلك لكان هذا تمثيلًا لقبضة الله سبحانه وتعالى للأرض، وهذا لا يجوز، أما أن نُبيِّن معنى القبضة فلا بأس، بأن نقول: القبضة هي: وضع الشيء في اليد ثم قَبْضُه بها، لكن نُكيِّف كيف قبض الله تعالى على الأرض، هذا خلاف معتقد أهل السنة والجماعة كما هو معروف للجميع.

وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ هذه ظرف للقبضة؛ أي: أنها تكون قبضة له يوم القيامة، ويوم القيامة هو اليوم الذي يُبعَث فيه الناس من قبورهم لله عز وجل، وسُمِّي بهذا الاسم لوجوه ثلاثة: لقيام الناس من قبورهم لرب العالمين، إقامة العدل يوم يقوم الأشهاد.

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ﴾ قال المؤلف: [مجموعات] ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ [بقدرته] الطيُّ معروف: عطف الثوب بعضه على بعض يُسمَّى: طيًّا، ومنه: طيُّ الورقة إذا فرغ الكاتب منها طواها؛ يعني: عطف بعضها على بعض، وقد شبَّه الله عز وجل طيَّه للسماوات بطيِّ السجل للكتب، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، فتبارك الله رب العالمين، هذه السماء العظيمة الواسعة الأرجاء التي ورد أن سُمكَها خمس مائة عام، يطوي الله عز وجل السماوات كما يطوِي السجل للكتب، أو كما يُطوَى السجل للكتب ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ يعني: كما يطوي السجل، وهو: كاتب القاضي، أو كما يُطوَى السجل الذي تكتب فيه القضايا.

وقوله: ﴿مَطْوِيَّـٰتٌۢ﴾ وحذف الفاعل أو أتى بصيغة اسم مفعول للعلم بالطاوي، وهو الله، كما تُفسِّره الآية الأخرى ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾.

قال المؤلف: [مجموعات]، وهذا فيه نظر؛ لأننا نقول: هي مجموعة طيًّا، وإذا فسَّرناها بالمجموعات فإننا لم نُفسِّر تفسيرًا دقيقًا؛ لأن الشيء قد يكون مجموعًا بلا طي، ولكن إذا كان مطويًّا فهذا معنىً زائد على مجرد الجمع، فالصواب: أن قوله: ﴿مَطْوِيَّـٰتٌۢ﴾ أي: ملفوف بعضها إلى بعض.

وقوله: ﴿مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ قال: [بقدرته]، وهذا تحريف، على مذهب من لا يؤمنون بصفات الله سبحانه وتعالى الخبرية، والصواب: أن المراد باليمين: اليد اليُمنى، يطويها جل وعلا بيده اليُمنى.

وقوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سبحان اسم مصدر وفعله سَبَّح، والمصدر من سَبَّح: تسبيح، واسم المصدر سبحان، وهو منصوبٌ على المفعولية المطلقة دائمًا، ومُلازمٌ للإضافة غالبًا، وعلى هذا فلا يُخطِئُ المرءُ في إعرابه، يُعرِبُه دائمًا على أنه مفعول مطلق لفعلٍ محذوف،

والتقدير: يُسَبَّح تسبيحًا، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما معنى التسبيح؟ قالوا: معنى التسبيح: التنزيه؛ لأنه من سَبَح يسبحُ إذا بعُدَ في الماء، فالتنزيه: الإبعاد عن السوء، وعلى هذا فمعنى سبحان الله؛ أي: تنزيهًا له، وعمَّا يُنزَّه الله؟ عن شيئين: عن مماثلة المخلوق، وعن كل نقص وعيب في صفاته، فقدرته مثلًا مُنزَّهة عن العجز، وعِلمُه مُنزَّهٌ عن الجهل والنسيان، وقوته مُنزَّهة عن الضعف، وهلُمَّ جرًّا، يدُه مُنزَّهة عن مماثلة المخلوقين، وجهه كذلك.

وقوله: ﴿وَتَعَـٰلَىٰ﴾ أي: ترفَّعَ لعظمته عما يشركون معه، ولا شك أن هذا هو الواقع.

الفوائد:

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦].

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوبُ إخلاص العبادة لله، لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾.

ويتفرَّع على هذه القاعدة: أن الإنسان لو أشرك بالله لحبط عمله، لماذا؟ الجواب: لأنه إذا أشرك بالله عَمِلَ عملًا ليس عليه أمر الله ورسوله، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» وهذا بقطع النظر عن الآية السابقة التي أشرت إليها ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ فهذا النص صريح.

٢ - **ومن فوائدها:** وجوبُ الشكر على كل أحد، لقوله تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ وإذا وجب الشكر حرُم ضدُّه، وهو: الكفر.

٣ - **ومن فوائدها:** أن الإخلاص لله تعالى من شكره؛ لأنه أعقَبَ قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.

١ - **ومن فوائد الآية الثانية:** بيانُ عظمة الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أن من أشرك بالله فإنه لم يُعظِّم الله حق تعظيمه؛ بل بالعكس، لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** حسن التعليم في القرآن الكريم؛ لأنه لما نفى عنهم أنهم قد قدروا الله حق قدره بيَّن وجه ذلك: أنه عز وجل أعظم من كل شيء ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** أنه يجبُ أن يُعظَّم الله حق تعظيمه، ولكن قد يقول قائل: إن هذا فيه مشقَّةٌ عظيمة؛ لأن الله أعظم وأجلُّ من أن يُحيط به عمل العبد، ولهذا لما نزل قول الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ صعُبَ ذلك على الصحابة، من الذي يتقي الله حق تقاته؟ فيقال: إن

هذه الآية الكريمة مُقيَّدة بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وإلا فمَنْ الذي يُحصِي أن يُعظِّم الله حق تعظيمه على الوجه الذي أراد الله عز وجل؟ ولكن نقول: إن تعظيم الله حق تعظيمه يكون بامتثال أمره، وهذا حاصلٌ بقدر المستطاع، لقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ولقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها:** إثبات اليد لله، لقوله تعالى: ﴿قَبْضَتُهُ﴾، وقوله: ﴿بِيَمِينِهِ﴾.

٦ ـ **ومن فوائدها:** أن الأرض يوم القيامة يقبضها الله عز وجل بيده، لقوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها:** أن السماوات تُطوَى يوم القيامة، لقوله: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾.

٨ ـ **ومنها:** بيان قدرة الله عز وجل؛ حيث يطوي هذه السماوات على عِظَمِها كطيِّ السجل للكتب.

٩ ـ **ومن فوائدها:** تنزيهُ الله عز وجل عن كل نقصٍ وعيب، لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، وكذلك تنزيهه عن مماثلة المخلوقين؛ لأن مماثلة المخلوقين عيب، فإن تمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصًا، قال الشاعر:

ألم ترَ أنَّ السيفَ ينقُصُ قدْرُهُ إذا قيل: إنَّ السيفَ أمضَى من العصا

فكيف إذا قيل: إن السيف مثل العصا؟ فتمثيلُ الله عز وجل بالمخلوق تنقص له؛ لأن تمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصًا.

١٠ ـ **ومن فوائدها:** إثبات علو الله، لقوله: ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وعلو الله تعالى ينقسم إلى قسمين: علو ذات، وعلو صفة، أما علو الصفة: فلم يختلف فيه أحدٌ من أهل القبلة، حتى أهل التعطيل يُثبِتون لله علو الصفة، لكن على اختلافٍ بينهم وبين أهل السنة في كونِ هذا الشيء عُلُوًّا أو نزولًا؛ لأنهم يَرَون أن من علو الله في صفته: نفي الصفات عنه، أما أهل السنة والجماعة فيَرَون أن من علوِّه: إثبات جميع صفات الكمال له على حسب ما ورد في الكتاب والسنة، إذن اتفق أهل القبلة على إثبات علو الصفة، لكن اختلفوا كيف يكون علو الصفة، أما علو الذات: فقد اختلفوا اختلافًا عظيمًا، حتى قال بعض من ينتسب إلى الإسلام: إثباتُ علو الذات كفرٌ، وقال أهل السنة والجماعة: إثبات علو الذات واجب، ولابد أن نُثبِت لله علو الذات كما أثبتنا له علو الصفات.

١١ ـ **ومن فوائدها:** التبايُن العظيم بين الرب الخالق العظيم وبين الأصنام المعبودة التي يُشرَك بها مع الله، لقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزيهًا له، وتعاظمًا، ورفعةً عما

يشرك به هؤلاء، ولهذا جاء استفهامُ التوبيخ والاحتقار لهذه الأصنام في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ يعني: أخبروني ما الذي لهذه الأصنام بالنسبة لآيات الله العظيمة الكبرى التي رآها النبي ﷺ؟ أي: بعد أن تقرَّرت هذه الآيات الكبيرة أخبِروني ما لهذه الأصنام؟ قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ ماذا تكون أمام هذه الآيات الكبيرة؟ تكون لا شيء، ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وقد بيَّن الله تعالى في القرآن الكريم انحطاط رتبة هذه الأصنام ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾، ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ ﴾ والآيات في هذا كثيرة تحطُّ من قدر هذه الأصنام، وتُبيِّن أن الرب عز وجل مُنزَّهٌ مُتعالٍ عن هذه الأصنام، والله أعلم.



قال الله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر:٦٨].

التفسير

﴿وَنُفِخَ ﴾ النفخ معروف، والنافخ إسرافيل، وأبهمه للتعظيم؛ لأن الإبهام يأتي للتعظيم، كما في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ فإن هذا يدل على عِظَم ما غشيهم، النفخُ لا شك أنه أمرٌ عظيم، ولهذا لم يُبيَّن مَن النافخ، كل ما في القرآن من النفخ في الصور يأتي بصيغة اسم مفعول ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ ﴾، ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾.

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ الصيغة هنا صيغة ماضٍ مع أنه مستقبل، لكن عبَّر عنه بالماضي لتحقُّق وقوعه، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ مع أنه لم يأتِ بعد.

وقوله: ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾ الصور قرنٌ عظيم، قيل: إن سعة دائرته كما بين السماء والأرض، وهذا الصور ينفخ فيه إسرافيل.

وقوله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ قال المؤلف: [النفخة الأولى]، وهذا بناءً على أن النفخ في الصور يكون مرتين، وقيل: بل النفخ في الصور ثلاث مرات، وقد دلَّ على هذا: حديثُ الصُّور الذي ذكره ابن كثير رحمه الله بطوله في سورة الأنعام، وأن هذه الثلاث هي: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث،

لقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ في سورة النمل، وهنا قال: ﴿فَصَعِقَ ﴾ ثم نفخ فيه أخرى، وقيل: بل النفخ مرتان، وهو ما مشى عليه المؤلف رحمه الله، وأن نفخة الفزع هي نفخة الصعق، وأن الناس إذا سمعوه أول مرة فزعوا، ثم يُطيل في النفخ، فيُصعَقون، يموتون بعد الفزع، وعلى هذا فيكون النفخ مرتين: الأولى فزعٌ ثم صعق؛ لأنه يطيل النفخ ثم يصعق الناس، ولا شك أن شيئًا يصعق الناس منه لابد أن يكون شيئًا عظيمًا مُزعِجًا مُرعِبًا، وهو كذلك.

وقوله: ﴿ فَصَعِقَ ﴾ قال: [مات] ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ من اسم موصول تفيد العموم، وتستعمل غالبًا في العاقل، وقد تُستعمل في غيره تبعًا أو للشمول، مثالها تبعًا: قوله: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ﴾ ومعلوم أن الذي يمشي على بطنه أو على أربع ليس من ذوي العقول، لكن أُتِي بمَنْ تَبعًا، وقد يكون للعموم، كما في هذه الآية: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ فكل مَن في السماوات والأرض من آدميين أو بهائم أو غيرها كلها تموت.

وقوله: ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ألَّا يصعق فإنه لا يصعق، وقد اختلف العلماء: مَن هذا المُستثنَى؟ فذهب المؤلف وجماعة إلى أن المُستثنَى: [الحور، والولدان] وهم في الجنة، وقيل: الحور والولدان والملائكة، ولا يمنع منه كلام المؤلف لقوله: [وغيرهما]، وقيل: الله أعلم، نقول: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ كما أبهَمَ الله عز وجل، ولا نتعرَّض للتفصيل؛ لأنه ليس هناك دليل صحيح صريح في تعيين هؤلاء المستثنين.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾ والنافخ من؟ إسرافيل، وقوله: ﴿أُخْرَىٰ ﴾ مفعول مطلق؛ أي: نفخة أخرى، أو نقول: إنها وصف لموصوف محذوف، والتقدير: نفخة أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾، قال: ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ [أي: جميع الخلائق الموتى] ﴿ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [ينتظرون ما يُفعَل بهم]، قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ الفاء حرف عطف، وإذا فجائية، والفجائية تدل على حصول ما بعدها مفاجأة، بمعنى: أنه يأتي بسرعة، ﴿هُمْ قِيَامٌ ﴾ جملة اسمية كما هو ظاهر، والغرض منها: الثبوت والاستمرار، وهي أبلغ من قوله لو قال: فقاموا؛ لأن قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ ﴾ تدل على أن هذا الوصف لهم كأنه أمر ثابت من قديم مستقر مع أنهم لن يقوموا إلا في النفخة الواحدة الأخيرة، وقوله: ﴿يَنظُرُونَ ﴾ قال: [ينتظرون ماذا يُفعَل بهم]، ويحتمل أن يكون المعنى: ينظرون ما حدث من النظر بالعين، وهذا الاحتمال لا يُنافِي ما ذكره المؤلِّف أو المُفسِّر، فتكون الآية شاملة لهذا ولهذا؛ أي: ينظرون بأعينهم ما حصل، وينتظرون ماذا يُفعَل بهم.

الفوائد:

قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

١ - **في هذه الآية فوائد، منها:** إثبات النفخ في الصور، وأنه واقع لا محالة، من قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ﴾؛ حيث عبَّر عنه بالماضي.

٢ - **ومنها:** عِظَمُ هذا النفخ، ويؤخَذ من إبهام الفاعل.

٣ - **ومنها:** أن هذا النفخ عظيمٌ في تأثيره؛ حيث يفزع الناس منه ثم يصعقون؛ أي: يموتون.

٣ - **ومن فوائدها:** أن الصعق شاملٌ لكل من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، وهم أقل ممن يصعق؛ لأن الغالب أن المُستثنَى يكون أقل من المُستثنَى منه.

٤ - **ومن فوائدها:** إثبات المشيئة لله عز وجل، وهي كثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى، ولم يُنكِرها أحد من الناس إلا فيما يتعلَّق بأفعال العباد؛ حيث أنكرها القدرية.

٥ - **ومن فوائدها:** أنه يُنفَخ في الصور مرتين، لقوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾.

٦ - **ومن فوائدها:** أن النفخة الآخرة أو الأخرى يكون بها البعث، لقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** أن القيام من القبور يلِي النفخ في الصور مباشرة، نأخذها من إذا الفجائية.

٨ - **ومن فوائدها:** أنهم - أي: الذين يقومون - يقومون وكأن لهم زمنًا طويلًا في القيام، بدليل: أنه أتى في ذلك بالصيغة الاسمية.

٩ - **ومن فوائدها:** تمام قدرة الله جل وعلا؛ حيث إن الخلائق كلها تقوم مرةً واحدة بهذه النفخة، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ أي: على سطح الأرض وظهر الأرض، فإذا قال قائل: ما علاقة نفخ الصور بحياة الناس، وبعثهم من القبور؟ فالجواب: أن هذا الصور مجتمع الأرواح، تُجمَع فيه أرواح الخلائق، ثم إذا حصل نفخٌ تطايَرت الأرواح ودخلت كل روح في جسدها التي كانت تعمره في الدنيا لا تُخطِئُه أبدًا، على كثرة الخلق وتفرُّقهم، فإن أرواحهم لا تُخطِئ أجسامهم، كل روح تدخل في جسدها التي كانت تعمره في الدنيا.



قال الله تعالى:

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر:٦٩].

التفسير

﴿وَأَشْرَقَتِ﴾ قال المؤلف: [أضاءت]، ومنه: أشرقت الشمس إذا انتشر ضوؤها، وشَرَقَت إذا برزت، يقال: شرقت الشمس إذا ظهرت على الأفق، وأشرقت إذا ارتفعت واستطال أو استطار ضوؤها، ولهذا تُسمَّى الصلاة التي بعد ارتفاعها قيد رمح: صلاة الإشراق، لا صلاة الشروق، الشروق: ظهور الشمس في الأفق، والإشراق: ارتفاعُها واتساع ضوئها، فهنا يقول: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بنور الله الذي هو نوره، وليس بنور المخلوق، فإضافة النور إلى الله عز وجل من باب إضافة الصفة إلى موصوفها؛ أي: أن الله جل وعلا ينير الأرض بنوره، ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [حين يتجلَّى لفصل القضاء]، يتجلَّى أي: يظهر لفصل القضاء ويأتي عز وجل للقضاء بين العباد، وقد ورد أن الله سبحانه وتعالى يُنزِل ملائكة السماء الدنيا حتى تُحيطَ بالخلق، ثم تنزل ملائكة السماء الثانية حتى تُحيطَ بأهل السماء الدنيا؛ لأن أهل السماء الثانية أكثر من أهل السماء الدنيا؛ إذ أن السماء الثانية أوسع من السماء الدنيا، فيكون سكانها أكثر، ثم ينزل أهل السماء الثالثة فيُحيطون بمن قبلهم، وهم أكثر من أهل السماء الثانية، وهلُمَّ جرًّا إلى السماء السابعة، قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ نُزِّل؛ أي: نُزِّلوا شيئًا فشيئًا، أهل السماء الدنيا، ثم الثانية، ثم الثالثة، إلى السابعة، وتشقَّق السماء بالغمام قال أهل العلم: إن هذا الغمام هو الذي يأتي بين يدي إتيان الله عز وجل، غمامٌ عظيم لا نعلم قدره، ولا نعلم كيفيته، ولهذا قال: ﴿تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ ولم يقل: تنشق؛ بل تشقَّق، كأنه شيء ينبعث منها شيئًا فشيئًا، وسيكون هذا عظيمًا، وذلك بين يدي مجيء الرب جل وعلا، ثم ينزل سبحانه وتعالى للقضاء بين العباد، وحينئذٍ تُشرِقُ الأرض بنور ربها، ولا نستطيع الآن أن نتصوَّر كيف هذا الإشراق، كيف هذا النور، وكيف هذا الغمام، هو أمرٌ لا تدركه عقولنا الآن.

وقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [كتاب الأعمال للحساب]، وُضِع؛ أي: بين أيدي الناس، قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ هذا الكتاب كُتِب فيه أعمال العباد، من عمل

من خير أو شر، إلا من محا بالمغفرة أو بالتوبة فإنه لا يوجد في الكتاب، فالصغائرُ مثلًا تُكتَب، فإذا صلَّى الإنسان فإن الصلوات الخمس يمحو الله بهنَّ الخطايا، وربما يتوب الإنسان من سيئاتٍ كُتِبَت، فهذه أيضًا لا توجد في الكتاب، لا يوجد في الكتاب إلا ما وَاجَهَ الإنسانُ به ربه، وكان خُتِمَ عليه بحياته.

وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ (الـ) هنا هل هي للعموم أو للجنس؟ هل المعنى: ووُضِع كل كتاب، أو الكتاب من حيث الجنس؟ الظاهر أن (الـ) هنا للعموم أحسن؛ يعني: وُضِع كل كتاب فأخذه صاحبه، والكتاب الذي تُكتَب فيه الأعمال يقال لصاحبه: اقرأ كتابك، أنت بنفسك ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ وإذا قرأه فهل يمكن أن يُنكِر ما فيه؟ لا يمكن، لابد أن يُقِرَّ إلا المشركين فإنهم يُنكِرون ويقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ لأنهم إذا رأوا أن الموحدين المخلصين نجوا من العذاب، سوَّلَت لهم أنفسهم أن يُنكِروا الشرك لعلهم ينجون من العذاب، ولكن هذا لا ينفعهم، إذا قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، شهِدَ عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون، وحينئذٍ يود الذين كفروا لو تُسوَّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثًا.

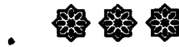
وقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [كتاب الأعمال للحساب]، وكيف يُوزَّع الكتاب؟ يُوزَّع على وجهين: الوجه الأول: أن يُعطَى باليمين، والثاني: أن يُعطَى بالشمال، فالمؤمن يُعطَى باليمين، ويقول للناس: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ يقول هذا ابتهاجًا بنعمة الله، وتحدُّثًا بنعمة الله، كما لو أُعطِي الواحد منكم نتيجته وإذا التقدير فيها: ممتاز مائة بالمائة، ماذا يفعل؟ كل واحد من الطلاب يُرِيها له انظر، وإذا كان كل رقم عليه دائرة حمراء، ماذا يقول؟ يُمزِّقُه، لكن في يوم القيامة ما يمكن يُمزِّقه، في الدنيا يمكن يُمزِّقُه أو يُخفِيه، على كل حال؛ هذا أمر جِبِلِّي طبيعي أن الإنسان يفخر بنعمة الله عز وجل، ويُرِيها الناس، فيقول: ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩- ٢٠] إني ظننت أني ملاقٍ حسابيه، الظن هنا بمعنى: اليقين؛ يعني: أيقنت أني ملاقٍ حسابِيَه، وأن الله تعالى سيُحاسِبَني، أما من أوتي كتابه بشماله فيقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾، كما يقول القائل للزائر الثقيل: ليتَه لم يأتِ، ليتَني ما رأيتُ وجهه، الكتاب الذي يكون بالشمال - والعياذ بالله - يعرف صاحبه ما فيه، يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾، في القرآن الكريم ذكر الله سبحانه وتعالى أن من لم يُؤتَ كتابه بيمينه يأخذه بشماله، وفي آية أخرى: من وراء ظهره، فهل هما صفتان، أو صفة واحد؟ قال بعض العلماء: إنهما صفتان، وقال بعض العلماء: إنهما صفة واحدة؛ يعني: أنه يُعطَى الكتاب بالشمال من وراء الظهر، ما هو من الأمام يُعطَاه من وجهه؛ بل من وراء ظهره، فيكون في هذا تنبيهٌ له،

وتذكيرٌ له بما فعل بكتاب الله في الدنيا أنه نَبَذَ كتاب الله وراء ظهره ﴿تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ كأنه يُقال له: جزاؤك من جنس عملك، وقيل: بل إن من الناس من يأخذه بشماله من قِبَل الشمال، ومن الناس من يأخذه من وراء ظهره، فتكون صفتين، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ من جاء بهم؟ الله عز وجل؛ لأن المُلكَ في ذلك الوقت لله، له التصرُّف فيؤتَى بالنبيين، والنبيين هنا يشمل: النبيين الذين أُرسِلوا، والنبيين الذين لم يُرسَلوا، فهو عام، والشهداء جمع شهيد، وهل المراد بالشهداء: الذين قُتِلوا في سبيل الله، أو المراد بالشهداء: الذين يُستشهَدون يوم القيامة؟ الثاني هو المراد، فمن الشهداء؟ قال المؤلف رحمه الله: [أي: بمحمد ﷺ وأمته، يشهدون للرسل بالبلاغ]، أما قوله: [أي: بمحمد ﷺ]، فظاهره أنه يريد أن يُفسِّر النبيين بمحمد، فيكون على تفسيره عامًّا أُريد به الخاص، وهذا غير مُسلَّم؛ بل الصواب: أنه عامٌّ باقٍ على عمومه؛ أي: يُؤتَى بالنبيين كلهم يشهدون على أممهم بأنهم بلَّغوهم، أما قوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ فهو من باب عطف العام على الخاص، والمراد بهم: الذين يشهدون على الأمم وللرسل، وهم هذه الأمة، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ ﴿شَهِيدٗا عَلَيۡكُمۡ﴾ فالرسل شهداء على أممهم، يقولون: يا ربنا نشهد أنك أرسلتَنا إلى أقوامنا وأننا بلَّغناهم، ولا يمكن أن يقول أحد في ذلك اليوم: هذه دعوى، فأين البيِّنة؛ لأنه لو قال مثل هذا القول، مَن يشهد؟ أعضاؤه تشهد، والله يشهد قبل كل شيء، أما الشهداء فنعم، نقول: هم أمة محمد ﷺ، لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وهذه الأمة - ولله الحمد - تشهد على الناس في الدنيا وفي الآخرة، نحن الآن نشهد أن الله أرسل نوحًا إلى قومه، ونشهد أن قومه.

أُبلِغُوا على الوجه الأكمل، ونشهد أنه بقِيَ فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا، كل هذا نشهد به بما علَّمنا الله عز وجل في كتابه، فيوم القيامة تكون الشهادة لنا على الأمم، وقول المؤلف رحمه الله: [يشهدون للرسل بالبلاغ]، لو قال: وعلى الأمم بإقامة الحُجَّة لكان هذا خيرًا، كذلك أيضًا نحن نشهد على الأمم بأنهم بُلِّغُوا وأُقيمت عليهم الحجة، فلنا شهادتان: شهادة للرسل، وشهادة على الأمم، قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ [أي العدل]، من القاضي؟ الله عز وجل، لكن أبهمه للتعظيم، وهو معلوم، ليس هناك ضرورة للتعيين لأنه معلوم أن القاضي هو الله رب العالمين، ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم﴾ أي بين الناس، ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي بالعدل، ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ شيئًا، يقضى بين الناس يوم القيامة بالعدل، بل ليس القضاء بين الناس بالعدل، بل بين البهائم بالعدل، حتى أن الرسول عليه الصلاة والسلام، أخبر بأنه يقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، ثم بعد

ذلك تكون ترابًا، لأنها ليس لها جنة ولا نار، لكن إظهارًا للعدل، وشفاءً لما في الصدور، لأن الشاة الجلحاء إذا نطحتها الشاة القرناء صار في قلبها شيء، لكنها لا تستطيع أن تقتص، لأن هذه لها قرون وهذه ليس لها قرون، لكن يوم القيامة يعطي الله سبحانه وتعالى الشاة الجلحاء قدرة حتى تقتص، أو يريها الله عز وجل كيف يقتص لها من الشاة القرناء، ولهذا قضي بينهم بالحق، يقول المؤلف أي العدل، لماذا فسر الحق هنا بالعدل ولم يفسره بالصدق؟ لأن المقام مقام حكم وقضاء، والمناسب فيه العدل، وقوله تعالى:﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ هم: الضمير يعود على الناس، لا يظلمون شيئًا، أي لا ينقصون من حقوقهم شيئًا، بل يعطى كل إنسان حقه على وجه الكمال.



الفوائد:

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٦٩].

١ - **منها:** إثبات النور صفة لله، لقوله تعالى: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾.

٢ - **ومنها:** إثبات الربوبية الخاصة لله في ذلك اليوم، حيث أضاف الربوبية إلى الأرض، مع أنه رب كل شيء، وإضافة ربوبية الله تعالى إلى شيءٍ مُعيَّن تقتضي تعظيم هذا الشيء ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ لما كان قوله: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ﴾ قد يُوهِم أنه رب لهذه البلدة دون غيرها، قال: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** إثبات الكتاب الذي كُتِبت فيه الأعمال، لقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** إثبات الشهداء على الناس بما عملوا، لقوله: ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أنه يُقضَى بين الأنبياء وبين من كذَّبوهم، لقوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾.

٦ - **ومن فوائدها:** أنه يُقضَى بين العالِم وأمته، لقوله: ﴿ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ والعلماء شهداء بلا شك؛ بل هم رؤوس الشهداء بعد الأنبياء، فالعالم مُبلِّغٌ عن الرسل، فيُقضَى بينه وبين من بلَّغته الرسالة بواسطته.

٧ - **ومن فوائدها:** إثبات القضاء بين الخلق في ذلك اليوم، لقوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾.

٨ ـ **ومن فوائدها:** أن القضاء لا حَيْف ولا جَوْر، لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فيعطى الإنسان حقه كاملًا.

٩ ـ **ومن فوائدها:** انتفاء الظلم في ذلك اليوم، لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وانتفاءُ الظلم هنا ليس المراد به: نفي الظلم فقط؛ بل المراد به: إثبات كمال العدل الذي ليس فيه ظلمٌ بوجهٍ من الوجوه، لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٧٠].



❁ التفسير ❁

﴿وَوُفِّيَتْ﴾ أي: أُعطِيَت وفاءً، كما تقول: وفَّيتُه حقَّه؛ أي: أعطيتُه إياه وفاءً، ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ كل بالضم على أنها نائب فاعل، ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: الذي عملت، ما اسم موصول، وهو مفعول ثانٍ لـ ﴿وَوُفِّيَتْ﴾، والمفعول الأول: كلٌّ وإن كانت بالضم، لكن نائب الفاعل ينوبُ مناب المفعول، فلهذا صارت كُلٌّ في محل المفعول الأول، و﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ في محل المفعول الثاني، قال المفسر: [أي: جزاؤه]، حمله على هذا التأويل أن العمل قد مضى في الدنيا، والذي تُوفَّى النفس هو: الجزاء، كما قال تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

فإذا قال قائل: الأمر واضح كما قال المُفسِّر، لكن ما الحكمة في أن الله عز وجل عبَّر بالعمل عن جزاء العمل؟ الحكمة في ذلك: إشارةً إلى أن الجزاء لا يتجاوز العمل، ولا ينقص عن العمل، فكأَنَّهُ هو العمل، إذا كان لا يتجاوزه ولا ينقص عنه فكأَنَّهُ هو العمل، وهذا هو كمال العدل، وكما تُدِينُ تُدان.

وقوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ هو الضمير يعود على الله عز وجل؛ يعني: كأن قائلًا يقول: كيف يُعلَم ما عملت النفس وقد مضت دُهورٌ ودُهورٌ، وفي العمل الدقيق والجليل، فقال: ﴿وَهُوَ﴾ أي: الله ﴿أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ يعني: لا يخفى عليه شيء، وهو سبحانه لا يضل ولا ينسى فلا يمكن أن يفوت شيء من عمل الإنسان، وقول المُفسِّر: [أي: عالمٌ] بما يفعلون، تفسيره أعلم بعالم يعتبر تفسيرًا قاصرًا؛ لأن أعلم أعلى درجة من عالم، فإنك تقول: زيد عالم وعمرو عالم، فيتساويان في العلم، وتقول: زيدٌ أعلم من عمرو، فيكون زيدٌ أعلم وأعلى درجة من عمرو، المؤلف الآن إذا قال: [أعلم؛ أي: عالم]، نقص من علم الله؛ لأن

كلمة عالم لا تمنع المشاركة، لكن أعلم تمنع المشاركة؛ لأنه لا يستوي الأفضل والمفضول، والعجب أننا لو سألنا سائل: لماذا عَدَلَ المؤلف عن اسم التفضيل إلى اسم الفاعل؟ قال: لأنه لا ينبغي أن يكون هناك تناسب أو مفاضلة بين الخالق والمخلوق، إذا قلت: أعلم معناه: أنك فضَّلتَ الخالق على المخلوق، فنقول له: سبحان الله، وإذا قلت: عالم، فقد سوَّيتَ الخالق بالمخلوق، فانظر كيف عدل عن ظاهر اللفظ إلى فساد المعنى؟ فجنى جنايتين عفا الله عنه، الأولى: مخالفة ظاهر اللفظ، الثاني: تنقيص الخالق في علمه، فنحن نقول: إن الله أعلم وأرحم، في القرآن الكريم: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وأحكم في قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ بل أبلغ من ذلك أن الله قال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ مع العلم أنه لا أحد يظن أو يُقدِّر أن الأصنام مثل الخالق، لكن قال هذا من أجل إفحام الخصم وبيان ضلاله، أن نقول له آلله خير أم ما تشرك به.

فالحاصل: أن الواجب علينا أن نجري أعلم على ظاهرها من أن المراد بها، تفضيل الله في علمه على عباده، فهو أعلم بما يفعلون، فإن قال قائل: إن المؤلف عدل عن أعلم إلى عالم؛ لأن الناس لا يعلمون ما يفعلون فالعلم منتفٍ، وحينئذٍ لا يكون تفسيره أعلم بعالم لا يكون ضارًّا، قلنا: هذا خطأ أيضًا؛ بل العالَم يعلمون ما يفعلون، كل إنسان يعلم ما فعل، وكل من شاهد غيره أنه يفعل علم ما فعل.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تارة تأتي يفعلون، وتارة تأتي يعملون، وتارة تأتي يكسبون، فهل بينها فرق؟ نقول: لا، ليس بينها فرق؛ لأن مُؤدَّاها واحد، لكن لو قيل: قول وفعل، صار القول باللسان، والفعل بالجوارح، وإذا قيل: عمل صار شاملًا للقول والفعل، وإذا قيل: قول فإنه يكون شاملًا للقول والفعل، ومنه - أي: من إطلاق القول على الفعل - قول الرسول عليه الصلاة والسلام لعمار بن ياسر: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولَ هَكَذَا» ثم ضرب يده بالأرض، ومعلوم أن هذا ليس قولًا؛ بل هو فعل، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ قال: [فلا يحتاج إلى شاهد]، نعم لا يحتاج إلى شاهد، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ لكنه سبحانه وتعالى يُقِيمُ الشهود إظهارًا للعدل وتوبيخًا للفاعل؛ لأنه إذا أقيم عليه الشهود بعد أن أنكر صار ذلك أشد توبيخًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** أن الناس يستوفون أعمالهم يوم القيامة، لقوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ بعد أن قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، ويدلُّ لهذا: أن استيفاء العمل يكون يوم القيامة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أما في الدنيا فإن الإنسان قد يُوفَّى عمله وقد لا

يُوفَّى، فالكافر مثلًا لا يمكن أن يُوفَّى جزاء عمله في الآخرة، وهو يريد جزاء عمله الصالح؛ يعني: لو أن الكافر تصدَّق، أو أصلح شيئًا ينفع المسلمين، أو فعل أي شيء يتعدَّى نفعه، فإنه لن يُجازَى عليه في الآخرة، ولكن يطعم به في الدنيا، يجازى عليه في الدنيا، ثم قد يُجازَى عليه في الدنيا ويُطعم إياه، وقد لا يُجازَى، أما المؤمن فإنه وإن جُوزِيَ في الدنيا على عمله الصالح، فإنه لن يُحرَم الجزاء في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ هذا جزاء دنيوي لقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هذا أخروي، المهم أن منتهى الجزاء هو يوم القيامة ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** عدل الله سبحانه وتعالى في جزائه، لقوله: ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ لا زيادة ولا نقص، ويُؤكِّدُ ذلك: قوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فإذا كان أعلم بما يفعلون وهو حَكَمٌ عدل عَلِمَ أنه لا ينقص الإنسان من أجره شيئًا.

٣ - **ومن فوائدها:** إثباتُ العلم لله، لقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** أن الله يعلم أعمال العباد كما يعمل أعمال نفسه، لقوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** احتراز الإنسان من العمل بما لا يُرضِي الله، وأنه يجب عليه أن يحذر منه؛ لأن الله يعلم ذلك، والإنسان الحي القلب لا شك أنه سيخجل إذا علم أن الله يعلم عمله، فعمل ما لا يرضيه.



قال الله تعالى:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر:٧١].

التفسير

﴿وَسِيقَ﴾ فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمجهول، هل الأَولَى أن نقول: مبني للمجهول، أو مبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعله؟ قالوا: إنه الثاني؛ لأنه قد يكون الفاعل معلومًا لكن حُذِف لغرض آخر، ولهذا كان

تعبير المُحقِّقين من النحويين أن يقولوا: ما لم يُسمَّ فاعله، وفي هذا الفعل يقول: مبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعله، إذن من السائق؟ الظاهر: أن السائق الملائكة، يسوقونهم إهانة، وقول المفسر: [بعنف]، دليله: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ معنى الدعّ: الدفع بشدة وقوة، هذا كيفية سَوق الذين كفروا.

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حذف المفعول ليعُمَّ كل ما يكفر به مما يجب الإيمان به، فإذا كفروا بالملائكة فهم داخلون في هذا، بالنبيين، بالكتاب، باليوم الآخر، بالقدر، فهم داخلون في هذه الآية، وكذلك إذا استكبروا عما يجب عليهم الإذعان به فإنهم يكفرون؛ لأن الكفر نوعان: كفر جحود، وكفر استكبار، فالتكذيب: كفر جحود، وترك العمل: كفر استكبار، والآية تشمل هذا وهذا، ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ جهنم سبق الكلام عليها، وأن العلماء اختلفوا فيها: هل هي مُعرَّبة أو عربية أصلية؟

وقوله: ﴿زُمَرًا﴾ قال: [جماعات متفرقة]، وما وجه التفريق في هذه الجماعات؛ هل باعتبار الأمم أو باعتبار الأعمال؛ بحيث تكون الزمرة الأولى هي الكافرة المشركة، والثانية ما دونها، والثالثة ما دونها، وهكذا؟ فيه احتمال، فإن قلنا بالأول؛ أي: أن هذه الزمر باعتبار الأمم، فإن دليله: قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ فإن هذا يدل على أنهم يُذهَبُ بهم إلى النار أممًا، وإن قلنا بالثاني، فدليله: ما يُصنَعُ بأهل الجنة أنَّ أول زمرة تدخل الجنة وجوههم كالقمر ليلة البدر، أو على صورة القمر ليلة البدر، فإن هذا يقتضي أن يكون الزُّمَر باعتبار العمل، فالله أعلم، المهم: أن نعرف أنهم يُساقون زمرًا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ جواب إذا، وأين شرطها؟ شرطها: جاءوها، وجوابها: فتحت؛ يعني: من حين أن يصلوا إليها تفتح، وفتحها أكره شيء إليهم - نسأل الله العافية -؛ لأنهم يَوَدُّون أن يقِفُوا على شفيرها دون أن يدخلوا فيها، ولكنهم يُفاجَئُون بفتحها، من أجل مبادرتهم بالعذاب - والعياذ بالله -، وقوله: ﴿أَبْوَابُهَا﴾ جمع باب، وقد بيَّن الله تعالى في كتابه أن أبوابها سبع، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ حسب عمله.

وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ خزنتها؛ أي: القائمون عليها المُوكَّلون بها، وهم ملائكة غلاظ شداد، غِلاظُ الطباع، شداد الأجسام، هؤلاء هم خزنة النار، فيهم رحمة أو ما فيهم رحمة؟ ما فيهم رحمة إلا امتثال أمر الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى في يوم القيامة لا يرحمُ الكافر؛ بل يقول جل وعلا: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فهم أبعد الناس عن رحمة الله.

وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ مُوبِّخين ومُقرِّرين ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ والاستفهام هنا

للتوبيخ والتقرير؛ يعني: يُقرِّرون إتيان الرسل، ويُوبِّخون هؤلاء على الكفر بهم ﴿مِّنكُمْ﴾ يعني: لا من غيركم، لو أرسل الله إلى البشر ملائكة لكانوا ينفرون، ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ لما قالوا: أين الملائكة؟ قال الله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ لكن ليس من الحكمة أن يُنزّل للبشر ملك ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾ لو أنزل الله ملكًا، لو فُرِضَ أن الله يرسل للبشر ملكًا ﴿لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي: على صورة الرجل حتى لا ينفروا منه، وهنا يقول: ﴿يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ وهذا أبلغ من أنفسكم، فمحمد عليه الصلاة والسلام ممن؟ من قريش، من بني هاشم يعرفونه، ويعرفون آباءه، ويعرفون أجداده، ويصفونه بالأمين، ويثقون به، وحكَّموه حين اختصموا في وضع الحجر في مكانه في الكعبة، حتى حَكَم فيهم ذلك الحكم العدل، ولما جاءهم بالبينات قالوا: هذا الساحر، هذا الكذَّاب، هذا المجنون، هذا الكاهن، هذا الشاعر، سبحان الله ! فهو رجل منهم يعرفونه، لكن الاستكبار يأبى أن يقولوا الحق.

وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ تقريرًا وتوبيخًا وتقريعًا ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ جملة ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ يجوز أن تكون حالًا، ويجوز أن تكون صفة أخرى؛ لأن قوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ صفة، والنكرة إذا وُصِفَت جاز وقوع الحال منها، وجاز أن تكون الجملة صفة أخرى؛ لأنه لا مانع من تعدُّد الصفات، على أن الحال في الواقع صفة، كما قال ابن مالك رحمه الله:

الحَالُ وَصْفٌ فَضْلَةٌ مُنْتَصِبُ مُفْهِمُ فِي حَالِكَ فَرْدًا أَذْهَبُ

وقوله: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أي: يقرءون عليكم آيات ربكم، والمراد بالآيات هنا: الآيات الشرعية؛ لأن المراد بها: ما نزل من الوحي، وقول المؤلف: [القرآن وغيره] يعني: يشمل كل الكتب التي أُنزلت.

وقوله: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: يُخوِّفونكم لقاء هذا اليوم؛ حيث أخبروكم به وأخبروكم بما فيه من الأهوال العظام، فلم يبق لكم عذر، ولهذا أقرُّوا ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ يعني: قد أتانا رسلٌ منا يتلون علينا آيات ربنا، ويُنذِروننا لقاء يومنا هذا ولكن ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وهذا هو الذي مَنَعنا من طاعة الرسل ﴿حَقَّتْ﴾ بمعنى: وجبت وثبتت، و﴿كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ هي الكلمة التي يستوجِبُون بها العذاب، وما هذه الكلمة؟ قال المؤلف: [هي: قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾] هذه هي الكلمة، أن الله تعالى التزمَ لجهنَّم بمِلئِها من الجنة والناس أجمعين، فإذا كان قد التزم للنار بمِلئها فلابد أن يخلق لها أقوامًا يُكذِّبون

الرسل، ليستحقوا نار جهنم - والعياذ بالله -، وقيل: إن الكلمة هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧] لأنها لما حقَّت عليهم كلمة الله امتنع إيمانهم، ولكن هنا يقول الإنسان: هل هذا من باب الاحتجاج بالقدر، أو من باب الاعتراف بالواقع؟ الجواب: الثاني؛ لأنه لا يمكن أن يحتجُّوا بالقدر في ذلك الموضع.

وقوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ قيل فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعله، فمن القائل؟ قال بعض العلماء: إنه أبهم الفاعل ليفيد أن كل الكون يقول لهم هذا، قيل؛ يعني: من قِبَل الملائكة، ومن قِبَل أهل الجنة، ومن قِبَل كل من شاهد.

وقوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ادخلوا فعل أمر للإهانة وليس للإكرام؛ لأن من قيل له: ادخل النار فإنه ليس بمُكرَم - نعوذ بالله -، ولكنه مُهان، ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبواب جهنم سبق لنا بنص القرآن سبعة أبواب، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الواو في قوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟﴾ يعني: أن الحال مُقدَّرة؛ لأن الخلود يأتي بعد الدخول، يدخلون أولًا، ثم يخلدون ثانيًا، فالحال إذا لم تكن مصاحبة تكون حالًا مقدرة، والخلود في الأصل: المُكثُ الطويل، وقيل: المُكثُ الدائم، فعلى الأول يكون ذكر التأبيد بعد الخلود تأسيسًا، وعلى القول الثاني: أن الخلود: هو البقاء الدائم يكون ذكر التأبيد بعد الخلود توكيدًا، وأيًّا كان فإن الله تعالى قد صرَّح في ثلاث آيات من القرآن أن خلود أهل النار فيها أبدي.

وقوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ بئس فعلٌ ماض جامد لا يتصرَّف، وهو محتاج إلى فاعل وإلى مخصوص، فاعله مثوى، ومخصوصه محذوف قدَّره المفسر بقوله: [جهنم]، والمثوى: المأوى، والمُتكبِّر فسَّره أعلم الناس به محمد ﷺ بقوله: «الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطِ النَّاسِ»(١) فالمُتكبِّرون هم الذين يردون الحق، ويعلون على الخلق.

الفوائد:

١- **نستفيد من الآية الكريمة:** بيان إهانة الكفار عند دخولهم النار، لكونهم يساقون بعنف ويدُّعون دعًّا.

٢- **ومن فوائدها:** أنهم يدخلون النار زُمَرًا، والحكمة من ذلك: أشار الله إليها في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ

---

(١) سبق تخريجه.

أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨].

٣- **ومن فوائدها:** أن أهل النار يُفَاجَئُون بها، فمن حين إتيانهم تُفتَح ليكون ذلك أشد مباغتة وأشد حرارة - والعياذ بالله -، فلا يُمكَّنون من الصبر عنها طرفة عين، مع أنهم يَوَدُّون أنها لا تُفتَح، ولكن الأمر على خلاف ما يَوَدُّون، تفتح فورًا.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن للنار أبوابًا، لقوله: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾.

٥- **ومن فوائدها** : أن النار مظلمة بعيدة القعر، يؤخذ من اسمها في قوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** كمال تنظيم الله تعالى للخلق؛ حيث جعل للنار خزنة وللجنة خزنة، وهنا يقول: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾.

٧- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء الخزنة ينطقون كما ينطق البشر بخطاب مفهوم، وهل يُستفاد من هذه الآية: أن لغة أهل النار واحدة؟ ربما يقال ذلك، وربما يقال: إن لغاتهم مختلفة، وأن الملائكة لكثرتهم كل يخاطب القوم بما يفهمون من اللغة، والله أعلم.

٨- **ومن فوائدها:** اجتماع العذاب القلبي والبدني على أهل النار، أما البدني فظاهر، وأما القلبي فما يحصل لهم من التوبيخ والتقريع في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ﴾ وأنتم تعلمون أن من الناس من يحب أن يُوسَّع جلده ضربًا ولا يُوبَّخ بكلمة واحدة، فالتوبيخ ليس بالأمر الهيِّن ولاسيَّما في مثل هذه الحال؛ لأنهم إذا ذُكِّروا بهذه النعمة في حال لا يتمكَّنون من استدراك ما فات كان ذلك أشد حسرة - والعياذ بالله -.

٩- **ومن فوائدها:** تمام الحجة على بني آدم بإرسال الرسل منهم، لقوله: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ لأنهم لو كانوا من غير الجنس لم تتم الحُجَّة، لكن إذا كانوا من الجنس؛ بل من القبيلة تمت الحجة.

١٠- **ومن فوائدها:** أن الرسل صلى الله عليهم وسلَّم كانوا قد بلَّغوا البلاغ المبين، لقوله: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾.

١١- **ومن فوائدها:** أن ما جاءت به الرسل من الوحي حُجَّة مُلزِمة؛ لأن الله سمَّاه ﴿ءَايَٰتِ﴾ والآية: العلامة المُعيِّنة لما دلَّت عليه، فهي حُجَّة مُلزِمة على كل من سمعها.

١٢- **ومن فوائدها:** أنه ما من رسول إلا وقد أنزل معه بكتاب، لقوله: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾، ويؤيِّد هذا: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ ولكن هل نحن نعلم كل كتاب أُوتيه

رسول؟ لا، ما الذي نعرف؟ التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، والقرآن، ولا عجب ألاَّ نعلم إلا هذه الخمسة، كما أننا لا نعلم من الرسل إلا خمسة وعشرين، والباقون لا نعلمهم، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ يعني: ليس كل الرسل قُصُّوا عليك، قال بعض العلماء: ولم يقص علينا إلا من كانوا في الجزيرة العربية، أو ما حولها، يعني: لم يقص علينا الرسل التي في أمريكا، أو في أقصى آسيا، وما أشبه ذلك، إنما قُص علينا من كانوا حولنا؛ لأن هؤلاء الذين يمكن أن نعتبر بهم أكثر من الآخرين.

١٣- **ومن فوائدها:** بيان مُقتضى الربوبية – أعني: ربوبية الله – أنها ربوبية مبنية على الرحمة، لقوله: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ وما ظنكم لو أن الله تركنا هملًا، هل تكون ربوبيته تامة؟ لا، لكنه سبحانه وتعالى لم يتركنا هملًا؛ بل أرسل إلينا الرسل، فتمَّت بذلك الربوبية التي كان مقتضاها هداية الخلق.

١٤- **ومن فوائدها:** اعتناءُ الرسل باليوم الآخر؛ حيث يُنذِرُون الناس به، ووجه ذلك: أنه إذا لم يكن يومٌ يُرجَع الناس فيه إلى الله وتُوفَّى كل نفس ما عملت فإن الناس لا يعملون، ولا يهتمون بالعمل، إذا كان الوضع أن الناس يعيشون في الدنيا ما شاء الله أن يعيشوا، ثم يموتون ولا يرجعون، فهل يمكن لأحد أن يستقيم؟ الجواب: لا، إلا بما أملاه عليه ضميره، أما أن يستقيم على ما أُمِر به، فهذا بعيد جدًّا؛ لأن الإنسان يقول: إنه سيعيش ويموت ولا شيء، لكن إذا علم وأيقن بأنه سيكون يوم يُبعَثُ فيه، ويُجازَى على عمله، فحينئذٍ لابد أن يحرص للاستعداد لهذا اليوم، ولهذا قال: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

١٥- **ومن فوائدها:** إقرار المكذبين في ذلك اليوم إقرارًا كاملًا، لقولهم: ﴿بَلَىٰ﴾، وبلى هذه حرف جواب لإثبات النفي المُتقدِّم، أو لإثبات النفي المصدر بالاستفهام، فمثلًا إذا قلت: أليس زيد قائمًا؟ فقيل: بلى؛ أي: أنه قائم، لكن لو قلت: نعم، لكان المعنى لم يكن قائمًا، ولهذا يُذكَر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ لو قالوا: نعم لكفروا؛ لأنهم إذا قالوا: نعم، فالمعنى: لست بربنا، وهذا كفر، فالنفي المسبوق بالاستفهام يُجابُ بالإثبات بـ (بلى)، وبالنفي بنعم، لكن مع ذلك تأتي نعم في محل بلى، لكنه قليل في اللغة العربية، قالوا: ومنه قول الشاعر:

أليس الليل يجمعُ أمَّ عمرٍو ... وإيانا، فذاك لنا تداني
نعم، وترى الهلال كما أراه ... ويعلوها النهار كما علاني

الشاهد من البيتين قوله: نعم؛ يعني: نعم أن الليل يجمع أم عمرو، هذه نعم في محل بلى.

١٦- **ومن فوائدها:** أن من حقَّت عليه كلمة العذاب فقد أوجب، لقولهم: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ

كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

١٧- **ومن فوائدها:** أن المُكذِّبين للرسل يُبصِرون في ذلك اليوم بصرًا شديدًا، ويعلمون الحق علمًا أكيدًا؛ لقولهم: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لو كان هذا الإقرار في الدنيا لنجوا من العذاب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أما في الدنيا فبصرك أعشى، لكن في الآخرة البصر حديد قويٌّ جدًّا، يرى أكثر مما يرى في الدنيا أضعافًا مضاعفة.

١٨- **ومن فوائدها:** أن الكلمة إنما تحِقُّ على الكافرين، لقوله: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: أن هؤلاء لم تحِقَّ عليهم الكلمة إلا لكفرهم، فهو كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وعلى هذا يندفع الإشكال، فيقال: كيف حقت كلمة الله على هؤلاء دون غيرهم؟ والجواب على ذلك: أن الله علم من هؤلاء أنهم ليسوا أهلًا للهداية، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم - أعاذني الله وإياكم من زيغ القلوب -، هذا وجه، والوجه الثاني أن يقال: هل ظلم الله هؤلاء حيث منعهم فضله؟ لا، ففضلُ الله يؤتيه من يشاء، وقد مرَّ علينا في الحديث في «صحيح البخاري»: أنَّ «**مَثَلُنَا وَمَثَلُ مَنْ قَبْلَنَا كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ، وَإِلَى الْعَصْرِ، وَإِلَى الْغُرُوبِ، فَأَعْطَى الأَوَّلِينَ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، وَالآخِرِينَ عَلَى قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، فَاحْتَجَّ الأَوَّلُونَ، فَقَالَ: أَظَلَمْتُكُمْ شَيْئًا؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: ذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ**».

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

١- **في هذه الآية من الفوائد:** أن هؤلاء المكذبين إذا وصلوا جهنم كأنهم - والله أعلم - يتردَّدون أو يتوقَّفون، فيقال لهم إهانة: ادخلوا أبواب جهنم، ففيه إهانة هؤلاء الكافرين عند دخولهم جهنم؛ حيث يقال: ادخلوا أبواب جهنم.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات خلود أهل النار فيها، لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وهل هذا الخلود مُؤبَّد أو إلى أمد؟ مُؤبَّد، دلَّ عليه آيات ثلاث من كتاب الله في سورة النساء، وفي سورة الأحزاب، وفي سورة الجن، ففي سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وفي سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وفي سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

٣- **ومن فوائدها:** تقبيح مسكن النار وخُبْث سكنها، لقوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن النار مثوى أهل الكبر، وأما أهل التواضع فمأواهم الجنة، المُتواضِعون

للحق وللخلق هؤلاء في الجنة، والمتكبرون عن الحق وعلى الخلق هؤلاء مثواهم النار.

٥- **ومن فوائدها:** التحذير من الكِبر لئلا يكون الإنسان من أصحاب النار.

٦- **ومن فوائدها:** أن الكِبْر قد يصلُ بصاحبه إلى عمل أهل النار، وإن كان يبدو قليلًا في قلبه؛ يعني: إذا رأيتَ من نفسك تكبُّرًا على أحد فعالج هذا الداء، عالِج هذا المرض قبل أن يستشري؛ لأن هذا المرض للقلب بمنزلة السرطان للبدن، إن لم تبادر بعلاجه فإنه يقضي عليك، ولا تتهاون بالكبر، الكبر خلق رذيل ذميم، وجرِّبْ نفسك إذا تواضعتَ تجد راحة وطمأنينة، تجد أنك لن تندم، لكن لو استكبرتَ على أحد ثم عُدتَ إلى عقلك لندمت واستغفرت، أما إذا تواضعتَ فإنك تجد راحة وطمأنينة، ويحصل لك في قلوب العباد محبة وألفة، فإياك والكبرياء، وعليك بالتواضع، ولِين الجانب، وإذا انضمَّ إلى ذلك: أنك تريد بهذا الوصول إلى كرامة الله عز وجل والخضوع لله فإنك تزداد ثوابًا ورفعة، قال النبي ﷺ: «مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ»(١) ومعنى «تَوَاضَعَ للهِ» لها معنيان: المعنى الأول: تواضع للخلق من أجل الله؛ لأن الإنسان قد يتواضع للخلق لا لله ولكن لطمع، يتواضع له ويتخضَّع له من أجل أن ينال منه لقمة عيش، ولكن إذا تواضع لله؛ يعني: امتثالًا لأمره، فإن ذلك هو الذي يكون سببًا للرفعة، المعنى الثاني: من تواضع لله نفسه، والتواضع لله نفسه هو التواضع لدينه؛ بحيث يقبله الإنسان وهو يشعر أنه محتاج إليه ومضطر إليه، وأن مقام الدين أعلى منه.



قال الله تعالى:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٣، ٧٤].

التفسير

نقول في ﴿وَسِيقَ﴾ ما قلنا فيما سبق: أنها فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمجهول، أو مبني لما لم يُسمَّ فاعله، وجاءت بصيغة الماضي مع أنها للمستقبل تحقيقًا لوقوعه، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا

---

(١) سبق تخريجه.

تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، فالماضي يأتي بصورة المضارع أحيانًا حكايةً للحال، والمستقبل يأتي بصيغة الماضي تحقيقًا لوقوعه، كأنه شيء وقع ويُتحدَّث عنه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ التقوى: أن يتَّخذ الإنسان وقايةً من عذاب الله، وذلك بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ لأنك لو سألتَ: ما الذي يَقِي من عذاب الله؟ لقيل لك: طاعته بامتثال أمره واجتناب نهيه، وقيل في التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى الله على نور من الله تخشى عقاب الله، وقيل أيضًا في التقوى:

خلِّ الذنوبَ صغيرَها وكبيرَها، ذاك التُّقَى
واعمل كماشٍ فوقَ أرض الشوكِ يحذرُ ما يرى
لا تحقرَنَّ صغيرةً إن الجبال من الحَصَى

ولكن ما ذكرناه أولاً هو الجامع المانع أن يتَّخذ الإنسان وقايةً من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، فإن خالف وترك شيئًا من الأوامر، أو فعل شيئًا من النواهي، فإنه ينقص من تقواه بقدر ما أخلَّ به، وحينئذٍ يجتمع في الإنسان تقوى وعصيان، وهذا مذهبُ أهل السنة والجماعة أن الإنسان يجتمع فيه خصالُ إيمانٍ وكُفْرٍ، وخصال تقوى وفسق، ولا مانع، ولكلٍّ حكمه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ أضاف الربوبية إليهم؛ لأن ربوبية الله للمتقين ربوبيةٌ خاصة، ليست كالربوبية العامة لجميع العالمين، بل هي ربوبية خاصة؛ رَبَّاهم حتى اتقوا ربهم وقول المؤلف: [بلطف]، مقابل قوله بأهل النار: [بعنف] لأن الله صرَّح بأن أهل النار يُدفَعون دَفعًا إلى نار جهنم، أما المؤمنون فإنهم يُساقُون سوق إكرام، كأن الملائكة تحتكُّ بهم إكرامًا لهم وإجلالًا لهم.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ الجنة في اللغة: البستان الكثير الأشجار، وسُمِّي بذلك؛ لأنه يُجِنُّ من فيه؛ أي: يستره، وأصل المادة (الجيم والنون) أصلها من الستر، ولهذا سُمِّي القلبُ جنانًا؛ لأنه مستتر، وسمي الجنُّ جِنًّا؛ لأنهم مُستترون، وسُمِّيتَ الجنة جنة؛ لأنها تستر من فيها لكثرة أشجارها، هذا في الأصل، أما في الشرع فالجنة هي: الدار التي أعدها الله تعالى لأوليائه التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، زُمَرًا: جمع زمرة، وسبق معنى قوله: ﴿زُمَرًا﴾ أنهم [الجماعات المتفرقون]، وهذه الزمر على حسب أعمالهم، وقد جاء عن النبي ﷺ أن أول زمرة تدخل الجنة وجوههم على صورة القمر ليلة البدر، ثم يتتابع الناس على حسب أعمالهم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ حتى للغاية، إذا جاءوها؛ أي: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ إذا قرأت الآية هكذا سيبقى قلبك معلَّقًا وستقول: أين جواب إذا؟ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ

عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ كلها جمل متعاطفة، فأين جواب إذا؟ اختلف المُعرِبُون في ذلك، فمنهم من قال: إن جواب إذا: فُتِحَت، وإن الواو زائدة، ولكن هذا القول ضعيف؛ لأن زيادة الواو لم يُعهَد في اللغة العربية، ومنهم من قال: إن الواو للحال، بتقدير قد؛ أي: حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها، ويكون الجواب على هذا محذوف، وهذا ما ذهب إليه المُفسِّر، وقيل: الواو حرف عطف، والجواب محذوف مقدَّرٌ قبلها، والتقدير: حتى إذا جاءوها هُذِّبُوا ونُقُّوا وفُتِحَت أبوابها، وهذا القول أصحُّ الأقوال: أن الواو للعطف وليست للحال، وأن الجواب محذوف مُقدَّرٌ قبل الواو، التقدير: حتى إذا جاءوها هُذِّبُوا ونُقُّوا وفتحت أبوابها، وهذا القول هو الراجح بدلالة الأحاديث عليه، فإنه قد ورد في الأحاديث الصحيحة: أنهم إذا عبروا الجسر الصراط الممدود على جهنم، وُقِفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتصُّ لبعضهم من بعضهم، حتى إذا هذبوا ونقوا أُذِن لهم في دخول الجنة، ثم إنهم أيضًا إذا وصلوا الجنة لا يجدون أبوابها مفتوحة؛ بل يجدونها مغلقة حتى يشفع النبي ﷺ فيفتح الله أبوابها، هذا القول هو الراجح المتعين لدلالة السنة عليه.

وقوله: ﴿أَبْوَابُهَا﴾ قد علم أن أبوابها ثمانية لقول النبي ﷺ في الوضوء: «فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»[1] والعجبُ أن بعض النحويين قال: إن الواو هنا واو الثمانية، فأحدث للواو معنى جديدًا، واستدل لقوله بأمرٍ عجيب، قال: إن الله قال في القرآن: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فالواو للثمانية، فيقال: سبحان الله من أين جاء بها؟ الفائدة في قوله: ﴿سبعة وثامنهم كلبهم﴾: تقرير ما ذُكِر؛ لأن الله قال: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾، قال العلماء: إنه قال: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ تقريرًا لهذا القول، ولهذا قال فيما قبله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ ، وهنا لم يقل: رجمًا بالغيب؛ لأن الواو عاطفة تدل على أن ما قبلها ثابت انتقده.

وقوله: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ خزنتها المُوكَّلون بها، وهم ملائكة يقولون لأهل الجنة: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ سلام عليكم هذا خبرٌ وليس دعاءً فيما يظهر؛ لأنه لو كان دعاءً لكان القادمون هم الذين يسلمون، وهنا الملائكة هي التي تقول: سلام عليكم، فكأنها تخبرهم بأنه حلَّ عليهم السلام؛ لأن الجنة دار السلام، طبتم حال، فادخلوها خالدين، يعني: سلام عليكم حال كونكم طيبين، فالجملة إذن حال من الكاف في قوله: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ طِبتُم في أي شيء، أو من أي شيء؟ طِبْتُم في كل شيء، في الأبدان، والعقول، والتصرُّف،

---

(١) سبق تخريجه.

وكل شيء فهم طيبون حلُّوا مكانًا طيبًا، طابوا من الغل والحقد ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، طابوا من كل مرض، لا يمكن أن يصيبهم مرض، طابوا من كل كلام فاحش ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ فالطيب هنا قدُّره في كل شيء.

وقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ ادخلوا فعل أمر يُراد به: الإكرام، ليس أمرًا حقيقيًا؛ يعني: يراد به إلزام المخاطب، ولكنه أمر للإكرام، كما تقول لمن استأذن عليك في بيتك: ادخل.

وقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [حال من الواو] في ادخلوها؛ أي: حال كونكم خالدين، والحال هنا مُقدَّرة أم مقارِنة؟ مقدرة؛ لأن الخلود بعد الدخول، [مُقدِّرين الخلود فيها، وجواب إذا مُقدَّر؛ أي: دخلوها وسوقهم وفتح الأبواب قبل مجيئهم تكرمةً لهم، وسَوق الكفار وفتح أبواب جهنم عند مجيئهم ليبقى حرُّها إليهم إهانةً لهم]، وقالوا: عطفٌ على دخلوها المُقدَّر، الواو على رأي المؤلف للحال ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ فدخلوها، تجد أن الكلام على هذا الوجه فيه ركاكة، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ يعني: وقد فتحت أبوابها، وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أي: دخلوها لا يستقيم، لكن ما ذكرنا أنه الراجح؛ هو المطابق تمامًا لما جاءت به السنة، والسنة تُفسِّر القرآن.

وقول المؤلف: [وسوقهم وفتح الأبواب قبل مجيئهم تكرمةً لهم] سوقهم المستفاد من قوله: ﴿وَسِيقَ﴾ وفتح الأبواب لمجيئهم؛ لأنه يقول: [الواو للحال] وقد فتحت أبوابها تكرمة لهم، لكن يقال: إن دعوى أن أبوابها فُتِحَت قبل مجيئهم دعوى لا يُسعِفُها الدليل؛ بل الدليل على خلافها؛ لأنهم إذا جاءوها لا يجدونها مفتوحة؛ بل يجدونها مغلقة، ثم يشفع النبي ﷺ أن تفتح الأبواب لأهلها، فإذن قول المؤلف رحمه الله فيه خطأ من الناحية العلمية لمخالفته للأحاديث الصحيحة في أن النبي ﷺ يشفع في فتح أبواب الجنة، وهذه مسألة عقدية في الواقع؛ لأننا نؤمن ونعتقد أن للنبي ﷺ شفاعة خاصة به، وهي الشفاعة لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة، وعلى كلام المؤلف لا شفاعة؛ لأنهم يجدون الأبواب مفتوحة.

ثم قال: [وفتح أبواب جهنم عند مجيئهم ليبقى حرُّها إليهم إهانةً لهم]، فالعبارة فيها نظر، على كل حال على كلام المؤلف أنها تفتح عند مجيئهم من أجل أن يُباشِرهم حرها مباشرة بدون تأخر، وقالوا: عطف على دخلوها المقدرة، فعلى كلام المؤلف وقالوا: الواو حرف عطف، والفعل قالوا معطوف على دخلوها، وقالوا: الحمد لله، والصواب: أن الواو للاستئناف، وأنهم بعد أن دخلوا واستقروا قالوا هذا الكلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [بالجنة]، حمدوا الله هنا على إنعامه وعلى كماله؛ لأن صدق الله إياهم وعده الجنة يضمن شيئين:

الشيء الأول: وصف الله تعالى بالصدق، وهذا حمد له على كمال صفته.

والثاني: تحقيقُ ذلك لهم؛ أي: أنهم حق لهم فيكون حمدًا على الشكر، فحمدهم لله الآن على أمرين: على الكمال وعلى الإنعام، أو على الكمال وعلى الإفضال، الكمال في الصدق، ﴿ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾، ولا شك الصدق كمال، الثاني: الإفضال؛ حيث أسكنهم الجنة، فيكون الحمد هنا شاملًا للأمرين؛ لأن الله يُحمَد على ما له من صفات الكمال، وعلى ما له من تمام الإفضال، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ صدق المخفف، غير صدَّق المشدد؛ لأن صدق يعني: أخبر بالصدق، وصدَّق صدق من أخبر بالصدق، يقال: حدثني فصَدَقَني، المعنى: أخبرني بالصدق، ويقال: حدثتُه فصَدَّقَني؛ يعني: قال: إني صادق، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ فالذي جاء بالصدق هو الذي صدَق، وصدَّق من أخبر بالصدق، وقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ [بالجنة] ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ [أي: أرض الجنة] ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ [ننزل] ﴿مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُ﴾ لأنها كلها لا يختار فيها مكان على مكان.

وقوله: ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: جعلنا نرثها، والأرض هنا دخلت عليها (الـ) فهل المراد بها: الأرض المعهودة، أو المراد بها: أرض الجنة؟ يرى المفسر أن المراد بها: أرض الجنة، وهذا التفسير يَرِدُ عليه أمران: الأمر الأول: أن الأرضَ إذا أُطلِقَت فهي الأرض المقابلة للسماء، وهي أرضنا هذه، وثانيًا: أنه قال: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ وكان مُقتَضَى السياق إذا كانت الأرض هي الجنة أن يقال: وأورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء، فلا يأتي بالظاهر؛ لأن الظاهر في هذا المكان لا معنى له، وعلى هذا فالقول الصحيح: أن المراد بالأرض هنا: الأرض المقابلة للسماء، فتكون (الـ) هنا للعهد، أيُّ العهود؟ العهد الذهني لا الحضوري، ولا الذكري.

فإذا قال قائل: كيف أورثهم الأرض؟ نقول: إن الله تعالى قال في كتابه: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ فتوريث الله الأرض للمؤمنين في الدنيا أنهم يقاتلون الكفار، ويستولون على أراضيهم، هذه واحدة، ثانيًا: أن وجودهم على الأرض، وسكناهم فيها، وعمرانهم إياها كالميراث بالنسبة للكفار؛ وذلك لأن الكفار لا يتمتعون بنعمة في الدنيا إلا كانت عليهم نقمة، فاللقمة إذا رفعها الكافر إلى فمه هل يُعاقَب عليها؟ نعم، يعاقب عليها؛ لأن الله قال: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ مفهومه: من لم يكن كذلك فعليه جناح فيما طَعِم، ويقول عز وجل في اللباس: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةً يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢] الكفار ليست لهم في الدنيا ولا خالصة لهم يوم القيامة، فهم يكتسون بغير حق؛ لأنهم يتنعَّمون بنعمة الله ويكفرون بالله.

على كل حال نقول: إيراث الأرض في الدنيا: ما يستولي عليه المسلمون من أراضي الكفار، وإيراثٌ آخر: أن وجودهم على الأرض حق، ووجود الكفار بغير حق، لكن الله أبقاهم لحكمة.

وقوله: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي: نسكن حيث نشاء، وهل هذا على ظاهره؟ بمعنى: أن الإنسان الذي في أدنى الجنة نُزُلًا يستطيع أن يصعد إلى أعلى شيء؟ لا يستطيع هذا، فقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الغُرَفَ - يعني: التي فوقهم - كَمَا تَرَاءَوْنَ الكَوكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ» يعني: بعيدًا وله إضاءة، فهؤلاء يتراءون أصحاب الغرف، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾، ولكن يقال في توجيه هذه الآية الكريمة: ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾ إما أن المعنى: نتبوأ من الجنة حيث نشاء في الدنيا؛ يعني: نعمل في الدنيا ما نشاء من الأعمال التي تُبوِّئُنا النزل التي هي ثواب لأعمالنا، في الدنيا الإنسان يمكن أن يكون مع الأبرار الأخيار، ويمكن أن يكون مع المقتصدين، ويمكن أن يكون من الظالمين أنفسهم ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فالإنسان في الدنيا يمكن أن يتبوأ من الجنة حيث يشاء بأعماله الصالحة المختلفة، فظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، هذا وجه.

الوجه الثاني: أن نقول: ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أن كل واحد من أهل الجنة لا يشاء سوى ما هو فيه؛ يعني: لا يقع في قلبه أن يتمنَّى أنه فوق؛ بل هو مطمئن تمامًا في مكانه الذي هو فيه؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ يعني: لا يطلُبون تحوُّلًا، فكل واحد منهم راضٍ بما هو فيه، ولا يرى أحدًا أنعم منه، حتى لو رآه حِسًّا لم يراه قلبًا؛ لأنه لو رأى أحدًا من الناس أعلى منه لكان في قلبه شيء من الحسرة واللوع، وهذا منتفٍ في الجنة.

إذن يتوجَّه قوله: ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾ بوجهين:

الوجه الأول: إما أن المعنى: حيث نشاء في الدنيا بمعنى: أن الإنسان في الدنيا له أن يعمل العمل الذي يؤهله إلى أعلى الدرجات أو العمل الذي يجعله في الوسط، أو العمل الذي يجعله في الأدنى.

الثاني: حيث نشاء في الجنة؛ يعني: أننا ففي الجنة لا نشاء سوى ما نحن فيه، بمعنى: أن كل واحد منا يقتنع بمكانه الذي سكنه ولا يريد غيره، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

يقول المُفسِّر: [لأنها كلها لا يختار فيها مكان على مكان]، جنح المؤلف إلى أي الاحتمالين؟ إلى الاحتمال الثاني: أن كل إنسان في مكانه لا يختار مكانًا غيره.

وقوله: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الجنة]، ﴿أَجْرُ﴾ بالضم، أو بالكسر، أو بالفتح؟ بالضم على أنها المخصوص، الفاعل: أجر، ونعم وبئس يحتاجان إلى شيئين: فاعل ومخصوص، الفاعل واضح، والمخصوص دائمًا يكون محذوفًا في الغالب، ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ نِعْم فعل جامد لإنشاء المدح، وأجر بمعنى: ثواب، الأجر هنا بمعنى: الثواب، ولكن الله تعالى سمّاه أجرًا تفضُّلًا منه ومنَّة، كأننا استحققنا ذلك وجوبًا كما يستحق العامل أجرته وجوبًا.

فإن قال قائل: وهل يجب على الله أن يثيبنا؟ الجواب: يجب بوعده، فإنه وعد أن يثيبنا، وما وعد فإنه لا يمكن إخلافه، إذن فالوجوب هنا ليس منًّا على الله؛ بل من الله على نفسه ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤] فتسمية الثواب أجرًا من باب التفضُّل على الله عز وجل، أنه جعل هذا الثواب على نفسه كالأجرة للعامل الأجرة الثابتة اللازمة، فكذلك ثواب المحسن أجر ثابت واجب على الله بإيجابه هو سبحانه على نفسه تفضُّلًا منه وإحسانًا، وفي مثل هذا يقول ابن القيم رحمه الله:

ما للعباد عليه حقٌّ واجبٌ ... هو أوجَبَ الأجرَ العظيمَ الشانِ
إن عُذِّبوا فبعَدلِه أو نُعِّموا ... فبفضله والفضلُ للمنَّان

إذن فهو سبحانه وتعالى هو الذي منَّ علينا في الواقع مرتين: المرة الأولى: بتوفيقنا للعمل، والمرة الثانية: بجزائنا على هذا العمل الحسنة بعشر أمثالها، وانظر إلى الفضل أيضًا والمنَّة الثالثة: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] فكأننا نحن الذين أحسنا فأحسن إلينا مع أن الإحسان لله أولًا وآخرًا فالحمد لله رب العالمين.

وقوله: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ هل هو كلام مبتدأ من الله، أو هو بقية كلام أهل الجنة حين قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾، إن كان من أهل الجنة فهو زيادة ثناء على الله عز وجل، وإن كان من الله ابتداءً فهو حثٌّ لنا على أن نعمل هذا العمل الذي يكون هذا جزاءه.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾:

١- **من فوائد هذه الآية:** أن المتقين يُساقون إلى الجنة كما يُساق أهل النار إلى النار ولكن تختلف الكيفية، وما هو الدليل على اختلاف الكيفية؟ الدليل: قوله تعالى في أهل النار: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]، وقوله في أهل الجنة هنا: ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾، فهذا دليل على أنهم يُساقون سوق إكرام.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن التقوى سببٌ لدخول الجنة، لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾، ووجه ذلك: أن ترتيب الحكم على الوصف يدل على عِلِّيَّته؛ يعني: إذا رُتِّب الحكم على وصفٍ دلَّ ذلك على أن هذا الوصف هو علة الحكم، فالسياق إلى الجنة هنا سببه: التقوى، إذن تكون التقوى سببًا لدخول الجنة، ويُؤيِّد هذا: قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٣- ١٣٤] إلخ.

٣- **ومن فوائد هذه الآية:** أن أهل الجنة يدخلونها جماعات متفرقة، لقوله: ﴿زُمَرًا﴾، وهذه الجماعات يترتَّب تقديمها على حسب أعمالهم الصالحة.

٤- **ومن فوائد هذه الآية:** أن أهل الجنة إذا جاءوها لا يجدونها مفتوحة الأبواب، لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ ولكن يجدونها مغلقة حتى يشفع النبي ﷺ في فتح أبواب الجنة لداخليها.

٥- **ومن فوائد هذه الآية:** أن للجنة أبوابًا، وقد ثبت في «الصحيح» أن أبوابها ثمانية.

ويترتَّب على هذه الفائدة: ما ثبت من أن رحمة الله تعالى سبقَت غضبه، وأن عطاءه أكبر وأعظم من منعه؛ لأن أبواب النار سبعة، وأبواب الجنة ثمانية.

٦- **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات أن للجنة خزنة، لقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾.

ويتفرَّع على ذلك: كمال تقدير الله سبحانه وتعالى للأشياء، وأن كل الأشياء مُنظَّمة محفوظة مُرتَّبة.

٧- **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات أن الملائكة يتكلَّمون وينطقون، لقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾.

٨- **ومن فوائدها:** أن الجنة دار السلام، السلام من كل آفة، لقول الخزنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** أن الله جمع لأهل الجنة بين السلامة من الآفات، وطِيب الأحوال والأوقات، لقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ فجُمِع لهم بين نفي الآفات وطِيب الأحوال والأوقات.

١٠- **ومن فوائدها:** الإذن لهم على وجه الإكرام بدخول الجنة، لقوله: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

١١- **ومن فوائدها:** الفرق التام والتباين العظيم بين ما يُقابَل به أهل الجنة وأهل النار، أهل النار يُقابَلون بالتوبيخ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ إلخ، وأهل الجنة يُقابَلون بالتكريم والعناية والبشرى ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

١٢- **ومن فوائد هذه الآية:** إزعاجُ النفوس وإغراؤها على العمل بعمل أهل الجنة؛ لأن

الإنسان إذا تبيَّن له الفرق العظيم والتباين الكبير بين أهل النار وأهل الجنة، فلابد أن يكون عنده ما يحثُّه؛ بل يُزعِجُه إزعاجًا على العمل بعمل أهل الجنة.

١٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** خلود أهل الجنة فيها، لقوله: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ والخلود هذا أبديٌّ، سواء قلنا: إن الخلود هو المُكث الدائم، أو إن الخلود هو المُكث زمنًا طويلًا؛ وذلك لأنه تكرَّر ذكر التأبيد لأهل الجنة في عدة آيات.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

١-**من فوائد هذه الآية:** الثناء على الله بالكمال والإفضال، لقوله: ﴿ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾، فإن صدق الوعد كمال، ثم إن إيراثهم الجنة إفضال، فجمعوا في هذا الحمد بين الحمد على الكمال والحمد على الإفضال؛ لأن الله تعالى يُحمَد على الأمرين جميعًا؛ على كماله، وعلى إفضاله، فيكون هذا الحمد جامعًا بين الحمد والشكر.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** صدق الله وعده، لقوله: ﴿ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾، وقد أخبر الله في آيات متعددة أنه لا يُخلِف الميعاد، وذلك لكمال صدقه، وكمال قدرته، فإن إخلاف الوعد إما أن يكون لكذب الواعِد، وإما أن يكون لعجز الواعد، وكلاهما مما يُنزَّه الله عنه، فيكون فيه كمال الصدق، وكمال القدرة.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** شكر أهل الجنة على إيراثهم الأرض ونصرهم وظهورهم على الكافرين، لقوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الإنسان يتبوَّأ بنفسه من الجنة حيث يشاء، وذلك بعمله، لقوله: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مُجبَرٌ على عمله، وليس له فيه اختيار، وذلك لقوله: ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ فإن الفعل ها هنا ظاهر في نسبته إليهم، فيكون باختيارهم.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أهل الجنة في منازلهم لا يُريدون غيرها، لقوله: ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾ وهذا من تمام النعيم؛ لأن الإنسان لو تطلَّع إلى منازل غيره لرأى أنه لم يكتمل له النعيم، يقول مثلًا: فلان أحسن مني قصرًا، فلان أكثر مني مالًا، فيتنغَّص عليه النعيم، لكن لو رأى أنه في المكان الذي يشاؤه ولا يبغي التحوُّل عنه، فإن هذا من كمال النعيم، قال الله تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات المشيئة للعبد، فيكون فيها ردٌّ على الجبرية.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الثناء على هذا الثواب الذي حصل لأهل الجنة، لقوله: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان منَّة الله سبحانه وتعالى بالجزاء؛ حيث جعله أجرًا وكأنه أجرٌ مفروضٌ على الله عز وجل، فإن قال قائل: كيف تجعلون على الله تعالى شيئًا مفروضًا؟ قلنا: لم نجعله نحن، ولكن هو الذي جعله على نفسه.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الحث على العمل، ولكن أيُّ عملٍ هو؟ العمل الصالح الذي يُورِث الجنة، وأن الإنسان لا ينبغي أن يكون كسولًا مُتراخيًا في الأعمال الصالحة.



قال الله تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥].

التَّفْسِيرُ

﴿وَتَرَى﴾ أيها المُخاطَب، ويحتمل أنه أراد به رسول الله ﷺ، ولكن القول الأول أولَى؛ لأن القول الأول يشمل القول الثاني ولا عكس، فإنك إذا قلت: وترى يا محمد، حجبتَ هذا الخطاب عن بقية الأمة، وإذا قلتَ: وترى أيها المُخاطَب، صار عامًّا للنبي ﷺ ولغيره من الأمة، والقاعدة: أنه إذا دار اللفظ بين معنى عامٍّ ومعنى خاص فإنه يُحمَل على المعنى العام؛ لأنك إذا حملتَه على المعنى العام دخل فيه الخاص ولا عكس.

وقوله: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ جمع مَلَك، والمَلَك في الأصل: هو الرسول، والملائكة جعلهم الله تعالى رسلًا، وهم عالَمٌ غيبيٌّ قائمون بأمر الله عز وجل، مخلوقون من نور، ولهذا ليس فيهم معصية؛ لأنهم خُلِقوا من النور، والجن خُلِقوا من النار، ولهذا كان الأصل أنه ليس فيهم طاعة، فإن أباهم وزعيمهم استكبر عن أمر الله الذي خاطبه به مُشافهةً.

وقوله: ﴿حَآفِّينَ﴾ يقول المؤلف: [حال] وإنما جعلها حالًا؛ لأن الرؤية هنا بصرية، والرؤية البصرية لا تنصِبُ إلا مفعولًا واحدًا، فما يأتي بعده منصوبًا يكون منصوبًا على الحال، بخلاف الرؤية العلمية فإنها تنصِب مفعولَين.

وقوله: ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي: مُحيطين به، والعرش هو: عرش الله عز وجل الذي استوى عليه، وهو أعظم المخلوقات وأعلاها، وأوسعها، فإن الكرسي وسِعَ السماوات والأرض؛

يعني: أحاط بها وشملها، والعرش أعظم من الكرسيِّ، وقد جاء في الحديث: أن السماوات السبع والأراضين السبع في الكرسي كحلقةٍ أُلقِيَت في فلاةٍ من الأرض، حلقة المغفر وهي: حلقة ضيقة أُلقِيَت في فلاةٍ من الأرض «وَإِنَّ فَضْلَ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى هَذِهِ الحَلْقَةِ» إذن فيكون هذا العرش عظيمًا لا يقدر قدره إلا الله عز وجل.

وقوله: ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [من كل جانب] ووجه هذا التفسير: أنه من كل جانب؛ لأنه أطلق قوله: ﴿حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ وحينئذٍ لابد أن يكون هذا الحول من كل جانب؛ لأنهم لو أحاطوا من جانبٍ واحد لم يكونوا حول العرش من الجانب الخالي، فإذا كانوا حافِّين من حوله، فلابد أن يُحيطوا بجميع جوانبه، ولهذا قال: [من كل جانب].

وقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ قال: [حال] يعني: الجملة هذه حالية [من ضمير حافين]؛ لأن ﴿حَآفِّينَ﴾ اسم فاعل، واسم الفاعل يتحمل الضمير كما يتحمله الفعل.

وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [مُلابسين للحمد] يعني: جعل الباء في قوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ للمُلابسة، وإن شئتَ فقل: للمُصاحبة؛ أي: يُسبِّحون تسبيحًا مصحوبًا بالحمد [أي: يقولون: سبحان الله وبحمده] والجمع بين التسبيح والحمد هو كمال المُسبَّح والمحمود؛ لأن بالتسبيح زوال النقائص والعيوب، وبالحمد إثبات الكمال، فيكون الجمع بين التسبيح والحمد مُفيدًا لمعنى أكثر مما لو انفرد التسبيح أو انفرد الحمد.

وقوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ [بين جميع الخلائق] ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ [أي: العدل] ﴿وَقُضِيَ﴾ أي: حُكِم؛ لأن القضاء معناه: الحكم، وقوله: ﴿بَيْنَهُم﴾ أي: بين جميعه الخلق ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ [أي: العدل] فيدخل المؤمنون الجنة، والكافرون النار.

وقوله: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أبهم الفاعل ليكون أعمَّ؛ يعني: أن الله تعالى في تلك الحال يُحمَد من كل أحد، ومن كل جانب، ومن كل جهة، والحمد هنا مقرونٌ بـ (ال) المفيدة للاستغراق، واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للاختصاص والاستحقاق، إذا جعلنا الحمد للاستغراق شملت كل أنواع الحمد، سواء كان على كمال الصفات، أو على الإفضال والإحسان والإنعام، وإذا قلنا: اللام في ﴿لِلَّهِ﴾ إنها للاستحقاق والاختصاص تبيَّن أن الحمد المطلق لا يستحقُّه إلا الله، ولا يكون إلا لله اختصاصًا، ولا يُحمَد به إلا الله استحقاقًا.

والفرق بين الحمد والمدح مع تساويهما في الحروف: أن المدح وصفٌ بالكمال لكن لا يستلزم المحبة، وأما الحمد فهو وصفٌ بالكمال مُستلزمٌ للمحبة، فالله تعالى يُحمَد ويُمدَح، لكن الحمد أخصُّ من المدح؛ لأن المدح هو: مطلق الثناء، وأما الحمد فهو: ثناءٌ مقرون بمحبة وتعظيم.

وقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: خالق العالمين، ومالكهم، ومُدبِّرهم، والعالَم: كل من سوى الله،

[خُتِم استقرار الفريقين بالحمد من الملائكة]، وهذا فيه نظر، وليس من الملائكة؛ بل من الملائكة وغيرهم، ولهذا أبهم الفاعل قال: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية:** إثبات الملائكة، لقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** إظهار عظمة الله في ذلك اليوم؛ حيث تَحُفُّ جنوده بعرشه، وهذا من مظاهر العظمة وكمال السلطان أن يُرى الجنود حافِّين بمالكهم وخالقهم وسيدهم سبحانه وتعالى.

٣- **ومن فواد الآية الكريمة:** إثبات العرش، لقوله: ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الثناء على الملائكة، وذلك بحسن انتظامهم بحفِّهم من حول العرش، وهذا حُسنٌ فعليٌّ، وبكونهم يُسبِّحون الله بحمده، وهذا حسنٌ قولي، فيجمعون بين تعظيم الله تعالى بالفعل وتعظيمه بالقول.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** اختيار الجمع بين التسبيح والحمد، لقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ وذلك لأن بالتسبيح زوال النقص والعيب، وبالحمد إثبات الكمال.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله سبحانه وتعالى ربٌّ لهؤلاء الملائكة مع عِظَمهم، لقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ وأن ربوبيته للملائكة ربوبية خاصَّة بدليل الإضافة.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله تعالى يقضي بعد هذا كله بين الخلق بالعدل، لقوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: حُكِم بينهم، وقضاء الله تعالى نوعان: كوني وشرعي، فالشرعي: مثل: قوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

يعني: وصَّى ألَّا نعبد إلا الله، وقضاء كوني؛ مثل: قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤] فإن هذا لا يمكن أن يكون قضاءً شرعيًّا؛ لأن الله لا يقضي بالفساد، ولكنه قضاءٌ كونيٌّ، وبهذا نعرف الفرق بين القضاء الكوني والشرعي، فالكونيُّ فيما يحب وما لا يحب، والشرعيُّ فيما يحب، والفرق الثاني: أن الكوني لابد من وقوع المقضِيِّ، والشرعيِّ لا يلزم منه وقوع المقضِيِّ؛ إذ قد يقع، وقد لا يقع.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القضاء في ذلك اليوم قضاءٌ بالعدل ليس فيه جَوْرٌ بوجهٍ من الوجوه، لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** حمد الله سبحانه وتعالى في ذلك اليوم الذي يتم فيه الأمر ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وإذا قارنت بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] تبيَّن لك أن الله تعالى محمود في أول الأمر وآخره، في أول الأمر في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وفي آخره بعد أن قُضِيَ بين الخلائق بالحق ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

﴿ٱلْعَالَمِينَ﴾.

١٠- **ومن فوائدها:** بيان استحقاق الله تعالى للحمد كله، لقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ و(الـ) ذكرنا أنها للاستغراق، واللام للاختصاص والاستحقاق.

١١- **ومن فوائدها:** إثبات عموم الربوبية، لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾، والعالمون: كل من سوى الله، قال بعض العلماء: إنما سُمُّوا بهذا؛ لأنهم عَلَمٌ على خالقهم، ففي كل شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحد.

تم بحمد الله تفسير سورة الزمر
ويليها إن شاء الله تفسير سورة غافر



الفهرس

من إصدارات مكتبة الطبري:

الإحكام في تفسير آيات الأحكام

جمعاً وترتيباً وإفادة من كلام الإمامين:

للعلامة محمد بن صالح العثيمين

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمهما الله تعالى

اعتنى به

أشرف بن كمال

من إصدارات مكتبة الطبري:

كَاشِفُ الغُمَّةِ

فِي شَرْحِ أُصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ

للإمام الحافظ اللالكائي

اعتنى به وحققه وخرج أحاديثه

أبو يعقوب نشأت المصري

من إصدارات مكتبة الطبري:

شرح القصيدة النونية

المسماة

الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية

للإمام ابن القيم رحمه الله

المتوفى سنة ٧٥١ هـ

تأليف

العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

ومعه تعليقات مهمة ومفيدة

للعلامة محمد خليل هراس رحمه الله

اعتنى به وعلق عليه

فضيلة الشيخ الدكتور أبو عائش عبد المنعم إبراهيم